وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي
الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ

﴿قصص:٥﴾

• شتاء ١٤٤٧هـ/ ٢٠٢٦م

alruaamag
@gmail.com

• المشرف العام:
د. السيد محمد الهاشمي
• رئيس التحرير:
د. حميد رضا تمدن
• مدير التحرير:
د. مرتضى عباس الروحاني
• مستشارو التحرير:
علي رضا مجيدي
علاء الدهني
• سكرتير التحرير:
زهراء محمدي روزبهاني
• رسام العدد:
علي محمدي روزبهاني
زهراء أكبري
• المدقق اللغوي:
حسن الصراف

هيئة تحرير العدد:
• جوزيف مسعد: الأردن
• ألبتكين دورسون أوغلو: تركية
• أحمد الدرزي: سورية
• شريف الدين بن دوبة: الجزائر
• أحمد الدبش: فلسطين
• خالد دراوشة: فلسطين
• تركي الحسن: سورية
• فاتح جاموس: سورية
• هيثم مناع: سورية
• مريم شمدين: سورية
• إسلام أوزكان: تركية
• بشار اللقيس: لبنان
• أحمد الحسن: سورية
• ماجد حبو: سورية
• هادي قبيسي: لبنان
• محمد بن علي: الجزائر
• ناصر الغزالي: سورية
• ميخائيل عوض: لبنان
• هاشم جابر: لبنان
• جورج صبرة: سورية

الذي يموت من أجل الحرية رمز هائل يجب أن نقتدي به

حوار مع
أدونيس

٨٢



المرحلة الأخيرة من الاستعمار: نموذج الوكالة

ألبتكين دورسون أوغلو

٣٨



١٢	الكلمة الإفتتاحية مرتضى عباس الروحاني	
١٤	ضدّ مبدأ تقرير المصير جوزيف مسعد	
٣٨	المرحلة الأخيرة من الاستعمار: نموذج الوكالة ألبتكين دورسون أوغلو	
٤٨	تحول مفهوم الوطنية في ظل الاستعمار الجديد أحمد الدرزي	
٦٠	الهوية الفلسطينية الموءودة في المشاريع الفكرية العربية شريف الدين بن دوبة	
٨٢	الذي يموت من أجل الحرية رمز هائل يجب أن نقتدي به حوار مع أدونيس	
٩٦	سورية في قلب الصراع الجيوسياسي أحمد الدبش	
١٠٤	سورية كمختبر نظري خالد دراوشة	
١٢٠	سقوط بلا معركة تركي الحسن	
١٣٣	التيارات المعارضة لنظام بشار الأسد "الديكتاتوري" فاتح جاموس	
١٤٨	جبهة النصرة: من فقه الدم إلى القصر الجمهوري هيثم مناع	
١٦٩	جذور التطرف والتكفير حوار مع رائد السمهوري	
١٩٢	المجتمع المدني السوري تحت الهيمنة البنيوية والقوّة الناعمة المشروطة مريم شمدين	
٢١٠	تهجين السياسات النكروية إسلام أوزكان	
٢٢٨	اسرائيل في سورية بشار اللقيس	
٢٤٤	من إدارة الصراع إلى هندسة النظام أحمد الحسن	
٢٥٤	سورية والتدخل الخارجي ماجد حبو	
٢٧٥	سورية في فخ التطبيع هادي قبيسي	
٢٨٦	المرجعية الليبيرالية للاحتلال الإسرائيلي وآليات تبرير العنف البنيوي محمد بن علي	
٣٠٤	سورية، حقّ الأمان والسلم الأهلي تحت حكم سلطة الأمر الواقع ناصر الغزالي	
٣٢٢	الأسد والمقاومة خيار حتى النهاية ميخائيل عوض	
٣٣٨	سورية: الواقعُ والمنتظَر هاشم جابر	
٣٤٤	سورية الجديدة، آمال و تحديات جورج صبرة	
٣٥٦	تعريف كتب	









يا سورية الحميلة السعيدة
كمدفأة في كانون
أبدًا سنشق أمامك الدروب
ولن نتركك تضيعين يا سورية
كأغنية في صحراء
• رياض الصالح الحسين





سَلامٌ مِن صَبا بَرَدى أَرَقُّ • وَدَمعٌ لا يُكَفكَفُ يا دِمَشقُ
سَلي مَن راعَ غيدَكِ بَعدَ وَهنٍ • أَبَينَ فُؤادِهِ وَالصَخرِ فَرقُ
وَلِلمُستَعمِرينَ وَإِن أَلانوا • قُلوبٌ كَالحِجارَةِ لا تَرِقُّ

• احمد شوقي





حيّيتِ سوريا.. وأفضلُ عاشقٍ
من جاءَ دونَ الموعدِ المُعتادِ
يا عائدينَ إلى الديارِ بأدمعٍ
الآنَ يُجلي الدّمعُ كلَّ سوادِ

• عبدالرحمن الشيخ المكتبي




ما أحلى أن نعيش
في خير وسلام
Lame Theater

دمشقُ يا كنَز أحلامي
ومروحتي
أشكو العروبةَ
أم أشكو لكِ العربا؟
• نزار قباني



الكلمة الإفتتاحية



مرتضى عباس الروحاني
باحث في الفلسفة واللاهوت
• رئيس التحرير لمجلة الرؤى

في لحظة تاريخية تتكاثف فيها التحولات وتتداخل فيها المستويات المحلية والإقليمية والدولية، تبدو سورية أكثر من مجرد ساحة صراع أو جغرافيا منكوبة: إنها مرآة كاشفة لبنية عالم ما بعد الاستعمار، بكل ما يحمله من عنف مقنّع، وهيمنة معاد إنتاجها، وأشكال معقدة من الوكالة والمقاومة والتكيّف. هنا، لا يعود الحدث معزولاً عن سياقه، ولا يمكن فهم الوقائع بوصفها نتاجًا لفاعلين محليين فحسب، بل كجزء من شبكة علاقات أوسع تتقاطع فيها السلطة بالمعرفة، والسيادة بالاقتصاد، والعنف بالخطاب.

إن التفكير في سورية اليوم يفرض قطيعة مع القراءات الاختزالية التي تختزل ما جرى ويجري



في منطق "الأزمة" أو "الحرب" بمعناها التقليدي. فالمسألة أبعد من مواجهة عسكرية أو انهيار مؤسساتي، وأعمق من صراع داخلي على السلطة. إنها حالة مركّبة تتجلى فيها ديناميكيات النظام الـدولي المعاصر، حيث تُعاد صياغة أنماط السيطرة القديمة بأدوات جديدة، أكثر مرونة وأشد تعقيدًا. في هذا السياق، لا يظهر الاستعمار الجديد كقوة خارجية صلبة فحسب، بل كمنظومة تعمل عبر الوسطاء، والخطابات، وإعادة هندسة المجتمعات من الداخل.

من هنا، تغدو سورية فضاءً كاشفًا لفهم كيف تستمر الهياكل الاستعمارية في العمل بعد نهاية الاستعمار الرسمي، وكيف تُعاد إنتاجها تحت عناوين السيادة، والاستقرار، وبناء الدولة، وحماية المدنيين. فالنظام الدولي الذي أعلن تجاوز منطق الإمبراطوريـات، ما زال يحتفظ بآليات تفاوت عميقة، تتيح لبعض القوى فرض إرادتها، ليس عبر الاحـتلال المباشر فقط، بل عبر إدارة الصراعات، وتفكيك الـدول، وتوجيه مسارات التحول السياسي والاقتصادي بما يخدم توازنات القوة العالمية.

في هـذا الإطـار، تصبح مفاهيم مثل "الهيمنة البنيوية" و"العنف البنيوي" و"الوكالة" مفاتيح أساسية للفهم. فالعنف في سورية لا يُختزل في مشاهد الدمار والقتل، بل يتجلى أيضًا في البنى التي تنظّم الحياة اليومية، وفي الأنماط الاقتصادية، وفي أشكال الحكم التي تُفرض أو يُعاد تدويرها. كما أن الوكالة، بوصفها قدرة الفاعلين المحليين على الفعل، لا تظهر دائمًا في صورة مقاومة صافية، بل قد تتخذ أشكالاً ملتبسة، تتأرجح بين التكيّف، والمساومة، وإعادة إنتاج منطق الهيمنة نفسه.

وإذ تُطرح مسألة الدولة بوصفها إحدى القضايا المركزية، فإن انهيارها لا يُفهم هنا كفراغ، بل كعملية إعادة تشكيل. فالسلطة لا تختفي بانهيار المؤسسات، بل تتخذ أشكالاً جديدة، وتُعاد صياغتها عبر شبكات محلية وإقليمية ودولية، تستخدم العنف، والاقتصاد، والهويات، والخطاب، لإنتاج واقع سياسي واجتماعي جديد. بهذا المعنى، يصبح التفكك ذاته أداة من أدوات الحكم، لا نتيجة عرضية للفوضى.

ولا يمكن فصل هذه الديناميكيات عن الخطابات التي رافقت التدخلات الخارجية، سواء تلك التي رفعت شعارات إنسانية، أو التي قدّمت نفسها بوصفها حامية للاستقرار أو داعمة للتحول الديمقراطي. فهذه الخطابات، على اختلافها، ليست محايدة، بل تنتمي إلى منظومة معرفية وسياسية أوسـع، تُعيد تعريف المفاهيم وفق مصالح القوة المهيمنة، وتحوّل القيم إلى أدوات ضبط وإدارة.

كما تفتح الحالة السورية بابًا لمساءلة العلاقة بين المجتمع المـدني والهيمنة، وبين الفعل الأهلي ومشاريع "البناء" المفروضة من الخارج. فالمجتمع، في ظل هذه الشروط، لا يُترك لينتج مساراته الذاتية، بل يُعاد تشكيله عبر التمويل، والمعايير، وأطـر التدخل، بما يجعله جـزءًا من هندسة السيطرة الناعمة، لا نقيضًا لها بالضرورة.

إن قراءة سورية من هذا المنظور لا تعني التعامل معها بوصفها استثناءً، بل بوصفها تجسيدًا مكثفًا لاتجاهات عالمية أوسع. فهي تكشف كيف يعمل عالم ما بعد الاستعمار، وكيف تُدار الأزمات، وكيف تُعاد صياغة الحرائط السياسية والاجتماعية تحت ضغط المصالح الـكبرى. ومن هنا، فإن التفكير في سوريـة هـو تفكير في العالم، وفي مستقبل العلاقات الدولية، وفي حدود مفاهيم مثل السيادة والاستقلال في زمن الهيمنة المركّبة.

هذا العدد لا يسعى إلى تقديم أجوبة نهائية، ولا يدّعي امتلاك سردية مغلقة، بل يحاول فتح أفق للتساؤل، وإعادة ترتيب أدوات الفهم، وتهيئة القارئ لقراءة الواقع السوري - ومن خلاله واقع العالم - بعين أكثر حساسية لتعقيدات السلطة والهيمنة، وأكثر وعيًا بأن ما بعد الاستعمار ليس مرحلة تاريخية انقضت، بل شرطًا مستمرًا يعاد إنتاجه بأشكال متعددة، وما زال يحدّد مصائر المجتمعات ومساراتها.





ضدّ مبدأ تقرير المصير

تقرير المصير في الميزان: كيف حوّله الاستعمار الاستيطاني إلى أداة لإنكار حق الفلسطينيين في أرضهم



جوزيف مسعد

أستاذ السياسة والفكر العربي في جامعة كولومبيا الأميركية • الأردن

المقدمة:

يُقال كثيرًا أنّ القومية المناهضة للاستعمار ومبدأ تقرير المصير لهما تاريخٌ متزامن، بل إنّ تقرير المصير هو المبدأ الذي من خلاله سيُحقّق المناهضون للاستعمار هدفهم المُعلن: الاستقلال عن الاستعمار. وتذهب الروايةُ إلى أنّ المناهضة للاستعمار وتقرير المصير لم ينشآ في اللحظة التاريخية نفسها فحسب، بل إنّ كُلًا منهما منغرس في الآخر إلى درجة أنّ اعتراف القوى الاستعمارية بأحدهما يُفضي تلقائيًا إلى اعترافها بالآخر.

لكنّ هذا السرد يبدو، عند الفحص الدقيق، مضلِّلًا. فليس فقط أنّ الشكل السائد لمبدأ تقرير المصير يبدو وكأنه مبدأ صُمّم للحدّ من مطالب القومية المناهضة للاستعمار وتعزيز مطالب الاستعمار، وخصوصًا الاستعمار الاستيطاني و"حقّه في الفتح"، بل إنّ الأهمّ من ذلك أنّ مقاومة الاستعمار والمستعمرين الاستيطانيين وامتناعهم عن الاعتراف بالمستعمَرين كأمم تستحقّ الاستقلال لم يبدأ بالتراجع إلا عندما أصبح تقرير المصير هو المعيار الذي يمكن من خلاله نفي الاستقلال السياسي الفعلي. فالمستوطنون لم يوافقوا على الاعتراف بأنّ الشعوب الأصلانية التي اغتصبوا أراضيها هي "أمم" إلا بشرط ألّا يؤدّي تقرير المصير إلى تحقيق أهداف "الاستقلال" و"التحرّر" من الاستعمار الاستيطاني، بل أن يُعيق فعليًا أي طريق نحو تلك الأهداف.

يمكن ملاحظة ذلك في المستعمرات الاستيطانية حول العالم: من الأميركيتيْن إلى أستراليا، ومن فلسطين والجزائر إلى روديسيا وجنوب أفريقيا. فقد ناضل المستوطنون الاستعماريون، وفي الغالب حافظوا على "حقّ الفتح" باعتباره حقًّا في "تقرير المصير". وبالفعل، وجدَتْ صيغة "الحكم الذاتي" الوسطية تحققها المنطقي في الصيغة الجديدة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى: "تقرير المصير". وغالبًا ما يُشار إلى حالة فلسطين والاستعمار الاستيطاني الصهيوني باعتبارها استثناءً، مع أنّها -كما سنرى- لم تكن في جوهرها إلا شديدة الشبه بغيرها. فكما في باقي المستعمرات الاستيطانية، ظلّ "حقّ الفتح" للأرض في فلسطين مُصانًا بوصفه "حقًا في تقرير المصير" للمستعمرين الصهاينة وأحفادهم، بينما ما يُعرَض على الفلسطينيين الأصليين (كما هو الحال مع الشعوب الأصليّة الأخرى) هو الاعتراف بـ"هويتهم كشعب" و"قوميتهم"، وحتى بحقّهم في "الاستقلال الثقافي" من دون أيّ حقوق على الأرض، إذ تُحتفظ هذه الحقوق للمستوطنين بموجب "حقّ الفتح". وكان هذا العرض قد قدّمه المستعمرون الصهاينة منذ عشرينيات القرن الماضي، لكنّ القيادات الفلسطينية لم تقبل به إلا مع توقيع اتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣.

إنّ مفهوم الأمة يشكّل محورًا أساسيًا لكلٍّ من الغزاة الاستعماريين-الاستيطانيين وللنضالات المناهضة للاستعمار التي يخوضها السكّان الأصليون. فقد أصبحت الأمة، التي تحوّلت سريعًا إلى فئة قانونية، مرتبطة قانونيًا منذ منتصف القرن التاسع عشر بعنصرين رئيسيْن هما الأرض والدم، أي حقّ الأرض (jus soli) وحقّ الدم (jus sanguinis).

وكما سأبيّن لاحقًا، فإنّ ما استطاع المستوطنون-المستعمِرون تحقيقه هو ابتكار هذا الارتباط لصالحهم، وقطعُه في الوقت نفسه عن السكّان الأصليين والمستعمَرين، وذلك تحت المظلّة الواسعة لمفهوم "تقرير المصير". وينطبق ذلك بالقدر نفسه على أمم كندا الأولى، كما على السكان الأصليين في أستراليا، والسود في جنوب أفريقيا وزيمبابوي، والهنود الحمر في الولايات المتحدة، والفلسطينيين، وغيرهم.

وفي الاعتراف بهذه الحقيقة ومحاولة تحدّيها، صرّح ياسر عرفات قُبيل وفاته عام ٢٠٠٤ قائلًا: "نحن لسنا هنودًا حمرًا". وهو إنكار لا يؤكّد إلا حقيقة أنّ الفلسطينيين يشبهون السكّان الأصليين في الأميركيتيْن وأمم الشعوب الأولى، ولكن ليس بالمعنى الذي قصده عرفات -أي أنّ نضال "الهنود الحمر" قد هُزم، بينما يستمر الفلسطينيون في المقاومة- بل تحديدًا بالمعنى الذي يجعل طبيعة النضال والمقاومة الفلسطينية غير مختلفة عن النضالات المستمرة في الأميركيتين وأوقيانوسيا وجنوب أفريقيا، حتى لو اختلفت أشكال المقاومة وحدّتها.

سأبدأ بمناقشة القومية الاستعمارية قبل أن أستعرض الخلفية التاريخية للمفهوم السياسي لتقرير المصير، ومساره منذ بداياته الاشتراكية في أواخر القرن التاسع عشر وصولاً إلى رعايته الإمبريالية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وسأشير إلى استخدامه المهم من قِبَل المستوطنين-الاستعماريين منذ البداية، وهو استخدام تزامن مع تبنّيه من قِبَل المستعمَرين في الفترة نفسها، وامتدّ إلى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية خلال عمليات إنهاء الاستعمار، وانتهى مع اعتراف المستوطنين-الاستعماريين في مطلع القرن الحادي والعشرين بحقّ تقرير المصير للشعوب الأصلانية المستعمَرة.

> رواية العلاقة التلازمية بين تقرير المصير والتحرر من الاستعمار هي رواية مضللة. ففي الواقع، تم تشكيل مبدأ تقرير المصير السائد لخدمة أهداف الاستعمار الاستيطاني، حيث يُعترف بالشعوب الأصلية كـ"أمم" فقط لحرمانها من الاستقلال الحقيقي وتحويل المبدأ إلى أداة لإدامة الهيمنة.

ولا تهدف هذه الدراسة إلى تقديم سرد تاريخي تفصيلي شامل -إذ إنّ كثيرًا من الباحثين قد قاموا بذلك بالفعل، وأنا أعتمد على أعمالهم- بل تهدف إلى رسم جينيالوجيا تُحدِّد التحوّلات والانقطاعات الكبرى في معنى هذا المفهوم منذ القرن التاسع عشر. وسأتتبّع رحلة هذا المفهوم أيديولوجيًا وسياسيًا ودبلوماسيًا. وستُظهِر تفاصيل الحالة الفلسطينية مدى أهمية هذا الإنجاز الاستعماري-الاستيطاني، ليس فقط للفلسطينيين بل على الصعيد العالمي أيضًا.

القومية الاستعمارية

كانت القومية الأوروبية الاستعمارية تقوم على فهم مفاده أنّ البلدان المستعمِرة -كالبريطانيين والفرنسيين- تُشكِّل أممًا تُعَدّ شكلاً "متحضّرًا" من أشكال الاجتماع الإنساني، بل إنجازًا سياسيًا لا يستطيع الكثير من المستعمَرين بلوغه. فقد أنكر البريطانيون أنّ المصريين أو الهنود يشكّلون أمّة، واعتبروهم بدلاً من ذلك جماعات مختلفة، قبائل، عشائر، طوائف، طبقات، وما إلى ذلك. كما أنكر الفرنسيون أيضًا أنّ الجزائريين يشكّلون أمة. ويجب مقارنة هذا الإنكار لأمّية الشعوب التي استعمرتها أوروبا، بالدعم الذي قدّمته القوى الأوروبية في القرن التاسع عشر للقوميات داخل الإمبراطورية العثمانية بهدف تفكيكها؛ وتُعدّ القوميات اليونانية والبلغارية، ولاحقًا العربية، أبرز الأمثلة على ذلك.

وفي سياق التنافس على إفريقيا (Scramble for Africa) ومؤتمر برلين لعام ١٨٨٤-١٨٨٥، ظهرت مناقشات تدعم "حقّ" الأفارقة الأصليين في التصرّف بأراضيهم لصالح المستعمرين الأوروبيين. فالتنافس كان يُدار بشكل متزايد من خلال عقد معاهدات مع «السلاطين الأصليين». وأصرّ أحد المندوبين الأميركيين في مؤتمر برلين، جون كاسون، على أنّ القانون الدولي الحديث يتجه نحو الاعتراف بـ«حق القبائل الأصلية في التصرّف الحرّ بأنفسهم وبأراضيهم الموروثة»، وأنّ هذا الحق يجب أن «يُمدَّد ليشمل اشتراط الموافقة الطوعية للسكان الأصليين على احتلال بلادهم، في كل الحالات التي لم يكونوا هم فيها البادئين بالعدوان». ويجادل سيبا نزاتيولا غروفوغوي بأنّ هذا الحق سيُعاد تأويله في القرن العشرين باعتباره "تقرير المصير".

إنّ صعود القوميات المناهضة للاستعمار فرض تنازلاً كبيرًا على القوى الاستعمارية، تنازلاً كان يمكن أن يهدّد الحكم الاستعماري نفسه. وبالتزامن مع هذا التطوّر، بدأ المستوطنون الأوروبيون في أفريقيا وآسيا يبحثون عن تسوية تُقيِّد سلطة الدولة الأم الاستعمارية، وفي الوقت نفسه تحافظ على امتيازات المستوطنين الاستعماريين بل توسّعها. ففي حالة المستوطنين الأوروبيين في جنوبي أفريقيا، بدأ هذا المسار عند مطلع القرن. أمّا بالنسبة للمستوطنين اليهود الأوروبيين في فلسطين، فقد تأخر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

ومع انتشار القومية المناهضة للاستعمار في أنحاء العالم الاستعماري خلال الحرب العالمية الأولى، كان لا بدّ من صيغة استعمارية جديدة لتهدئة المطالب القومية بالاستقلال، مع إطالة

عمر الحكم الاستعماري والحكم الاستيطاني إلى أجلٍ غير مسمّى.

ومعَ تبنّي المقاومة المناهضة للاستعمار للمبدأ القومي كأساس لتشكيل جماعاتها، انتشرت أنطولوجيا القومية الأوروبية الحديثة عالميًا وتعممت بوصفها الشكل الرئيس للهوية السياسية الحاملة للحقوق والقادرة على المطالبة. غير أنّ الإنجاز الأكبر للقومية -سواء في صورتها الاستعمارية أو المناهضة للاستعمار- لم يكن فقط خلق ثنائية «الوطني» و«الأجنبي»، بل الأهمّ هو القضاء على أي فضاء خارج هذه الثنائية: فبعد عالم ما بعد القومية، لم يعد بإمكان أحد أن يوجد لا وطنيًا ولا أجنبيًا.

بينما حدّدت أشكالُ القومية -بوصفها أيديولوجيا- اللغةَ والدينَ والاقتصادَ والإقليمَ والإثنيةَ والعِرقَ والدمَ كأسسٍ للهوية المشتركة والاختلاف، فقد جرى تعريفُ "الوطني" و"الأجنبي" قانونيًا عبر الدول القومية الاستعمارية منذ ظهور قوانين الجنسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك بالاستناد إلى رابطين حصريين: الدم أو الأرض.

فمن منظور القانون والإبستمولوجيا القومية الجديدة، لم يكن ممكنًا وجود أي كيان خارج ثنائية الوطني والأجنبي قانونيًا وذاتيًا، بل وجوديًا أيضًا. وهذه هي حالة الوجود البشري منذ تعميم المبدأ القومي عالميًا عبر الاستعمار الأوروبي، وهو ما أنتج لاحقًا ما أصبح يُعدّ "قانونًا دوليًا" ذا صلاحية عالمية، وقد اختُرِع أساسًا انطلاقًا من اللقاء الأول بين المستعمرين الأوروبيين-المستوطنين وشعوب الأميركيتين الأصليّة.

تُظهر حنّة أرندت أن مشكلة انعدام الجنسية في الفترة بين الحربين كانت تكمن في أن الشخص عديم الجنسية هو شخص "لا يملك الحق في أن تكون له حقوق". لكن ما لم توضّحه أرندت هو: ماذا يعني أن يكون المرء بلا أمّة؟ ماذا لو لم يكن المرء عديم الجنسية بل عديم الأمة؟ وكما أشير



"تنصيب جورج واشنطن"، لوحة زيتية على قماش، بريشة رامون دي إلورياغا، نيويورك، ١٨٩٩. معروضة في "فيدرال هول" (القاعة الفيدرالية).
● المصدر: NPS (خدمة المتنزهات الوطنية الأمريكية)

في أعلاه، فإنّ حالة انعدام الأمة كانت سائدة بالفعل قبل الحرب العالمية الأولى بين المستعمَرين الذين رفضت القوى الاستعمارية الاعتراف بهم كأمم أصلًا. لكن هذا الموقف أصبح أقل فأقل قابلية للاستمرار بعد الحرب العالمية الثانية.

> الاستعمار الاستيطاني حول العالم، بما في ذلك إسرائيل، حوّل مبدأ "تقرير المصير" إلى أداة لإضفاء الشرعية على اغتصاب الأرض. فالمستوطنون يطالبون بحق تقرير المصير لأنفسهم كغطاء "لحق الفتح"، بينما يُعرض على السكان الأصليين مجرد اعتراف رمزي بهويتهم دون سيادة حقيقية

لم يعد هناك أيّ مجموعة سكانية اليوم تُوصَف بأنها بلا أمة. لكن هذا لا يعني عدم وجود جماعات يُثار حولها سؤال الإدماج أو الاستبعاد داخل أمة معيّنة، أو جماعة وطنية، أو جنسية محددة؛ فهذه الحالات كثيرة. إلا أنه لا يوجد اليوم جماعة تُعتبَر فاقدة للأمة بشكل مطلق، لأن معظم أسس استبعاد بعض الشعوب من الانتماء الوطني تستند إلى الادعاء بأنهم ينتمون إلى أمة أخرى. فعلى سبيل المثال، الذين زعموا أنّ اليهود الألمان ليسوا ألمانًا بنوا زعمهم على فكرة أنّ اليهود -في ألمانيا أو أوروبا- ينتمون إلى "أمة يهودية". وبالمثل، الذين يدّعون أنّ المسلمين الفرنسيين ليسوا جزءًا من الأمة الفرنسية يزعمون أنهم ينتمون إلى أمم أخرى، بل أحيانًا إلى "أمة مسلمة" متخيَّلة، أو -وهو تكرار واضح لاتهام معادٍ لليهود في أوروبا- أنّ المسلمين جزء من شبكة تضامن دولي تتجاوز أو تلغي معيار الانتماء الوطني. إلا أنّ أحدًا من أصحاب هذه الادعاءات لم يفترض يومًا أنّ اليهود أو المسلمين يفتقرون إلى انتماءٍ قومي عند استبعادهم.

وقد استبعدت الصهيونية أيضًا غير اليهود من مشروعها بزعم أنهم ينتمون إلى أمم أخرى، وهي بذلك تُشارك معاداة السامية في افتراض أنّ اليهود لا ينتمون إلا إلى "الأمة اليهودية". وكثيرًا ما جادل الصهاينة بأنّ انتماء الفلسطينيين إلى "أمّة عربية أكبر" أمرٌ منسجم مع الخطاب القومي، لكنّ انتماءهم إلى "أمة فلسطينية خاصة" كان يُعدّ تهديدًا، وهو تهديد حلّته الصهيونية جزئيًا في أواخر السبعينيات ولاحقًا في أوائل التسعينيات، بعد نصف قرن من احتلال فلسطين، من خلال مسألة "تقرير المصير". فمن خلال استدعاء فكرة "تقرير المصير"، جرى تجاوز نفي غولدا مئير عام ١٩٦٩ لوجود "شعب فلسطيني"، وذلك باعتراف مناحيم بيغن في أواخر السبعينيات بأنهم موجودون، ولاحقًا -بعد اتفاقيات أوسلو- باعتراف "إسرائيل" بأنّ بعضهم يمتلك بعض الحقوق لحكم ذاتي جزئي. وقد أمكن هذا الاعتراف لأنّ تقرير المصير يشترط وجود الأمة كأساس؛ ومن ثمّ فإنّ تقرير المصير لا يعيد فقط ترسيخ مبدأ الأمة (بمعنيَي الدم والأرض) بل يصبح أيضًا الآلية التي تُحدّد أيّ تصور للدم والأرض ينبغي أن يُمنَح الأولوية على سواه.

البدايات الاشتراكية

قبل أن يظهر مفهوم تقرير المصير كمفهوم جديد، كان "الاستقلال" -بوصفه نهاية الحكم الاستعماري أو الأجنبي- هو الفكرة الأكثر استخدامًا وفاعلية في الإنكليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات الأوروبية. ظهر مفهوم "الاستقلال" في منتصف القرن الثامن عشر، فصاغ جمهورية المستوطنين البيض في أمريكا ونضالهم الثوري ضد الحكم الاستعماري البريطاني، وأصبح المعيار المُستخدم لتعريف نهاية الحكم الأوروبي في مستعمرات المستوطنين في الكاريبي ودول أميركا اللاتينية، وفي "الأقاليم الأوروبية" من الإمبراطورية العثمانية مطلع القرن التاسع عشر. وقد دفع ذلك بريطانيا إلى منح استقلال ذاتي متزايد لبقية مستعمراتها البيضاء في طريقها إلى الاستقلال، ومنها أستراليا وكندا ونيوزيلندا، وبالطبع جنوب أفريقيا، تحت ما سمّته بريطانيا "الكومنولث" أو "الدومينيونات".

كما أصبح الاستقلال العملية التي تُعرّف الدول غير الاستيطانية الجديدة التي ظهرت من الإمبراطوريات المنهارة عقب الحرب العالمية الأولى، وأخيرًا الدول التي خرجت من الاستعمار الرسمي بين نهاية الحرب العالمية الثانية وأواخر السبعينيات.

إلى جانب "الاستقلال"، برز أيضًا مفهوم "التحرّر" -وخاصةً التحرّر الوطني- الذي يمثّل استخدامه



ملصقات انتخابية في تل أبيب، ٢٥ يناير ١٩٤٩.
المصدر: المكتب الصحفي للكيان الصهيوني
• المصور: هانس فين.

الحالي تطوّرًا أحدث. وقد عرّف هذا المفهوم نضالات المستعمرات خلال الحرب العالمية الأولى، وكذلك نضالات الدول الأوروبية التي قاومت الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية، ثم نضالات شعوب آسيا وأفريقيا ضد الاحتلال الاستعماري الأوروبي بعد الحرب العالمية الثانية، وهو ما دفع العديد من هذه الحركات إلى تبنّي كلمة "التحرّر" في أسمائها نفسها.

ومنذ الحرب العالمية الأولى، وبشكل أكبر منذ الحرب العالمية الثانية، باتت هذه المصطلحات الثلاثة -الاستقلال، التحرّر، تقرير المصير- تُستخدم وكأنها مترادفات، على الرغم من اختلاف أصولها ومساراتها التاريخية. لفهم كيف حدث هذا التطوّر، تصبح تتبّع جينالوجيا مفهوم "تقرير المصير" ضرورة.

وعلى خلاف "الاستقلال" الأقدم و"التحرّر" الأحدث (وكلاهما يستحق معالجة خاصة)، ظهر "تقرير المصير" في أواخر القرن التاسع عشر ضمن الخطاب الاشتراكي حول قوميات الأمم الأوروبية الصغيرة، واتّخذ لاحقًا جينالوجيا ورحلة أكثر تعقيدًا طوال القرن العشرين وحتى اليوم. ويبدو أنّ عبارة "تقرير مصير الشعوب" ظهرت أول مرة في ستينيات القرن التاسع عشر، رغم أن تعبير "تقرير المصير" في سياق الفرد لا الجماعة موجود في النصوص الفلسفية منذ القرن السابع عشر.

وقد استخدمه ماركس وإنغلز في سياق الحركات القومية الأوروبية الصاعدة. وازدادت أهميته داخل الحركة العمالية في أواخر القرن التاسع عشر، خاصة عندما تبنّت الأممية الثانية في برنامج مؤتمرها الرابع سنة ١٨٩٦ مبدأ "تقرير المصير". جاء ذلك في سياق محاولة كارل كاوتسكي التوسّط بين اشتراكيين بولنديين اختلفوا بين من رأى النضال القومي البولندي جزءًا من النضال الاشتراكي، ومن رأى -ومنهم روزا لوكسمبورغ وحزبها "الحزب الاشتراكي الديمقراطي في بولندا"- أن القومية البولندية ليست في مصلحة البروليتاريا أو الاشتراكية.

لم يُشر حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي

الـروسي إلى المسألة في مؤتـمره الأول عام ١٨٩٨، لكن وبسبب إصرار حزب العمّال اليهود الروس"البوند" -المسمّى رسميًا الاتحاد العام للعمّال اليهود في ليتوانيا وبولندا وروسيا- على الاسـتقلال الثقافي القومي لليهود الناطقين باليديشية في الإمبراطـوريـة الـروسـية، تـبنّى الاشتراكيون الروس هذا المبدأ في برنامجهم في مؤتمرهم الثاني عام ١٩٠٣، حيث دعوا إلى جمهورية ديمقراطية يضمن دستورها، ضمن أمور أخرى، "أن تكون لجميع القوميات المكوّنة للدولة حقوق تقرير المصير".

وقد دفع هذا الالتزام روزا لوكسمبورغ عام ١٩٠٩ إلى الاعتراض، مؤكّدة أن مثل هذا الطرح لا علاقة له بالاشتراكية أو الطبقة العاملة، بل إنه "للوهلة الأولى إعادة صياغة للشعار القديم للقومية البرجوازية الذي طُرح في كل البلدان وفي كل الأزمنة: «حقّ الأمم في الحرية والاستقلال». وأضافت أنّ "حقّ الأمم" الذي يُفترض أنه صالح لكل البلدان وكل الأزمنة ليس أكثر من كليشيه ميتافيزيقي من نمط "حقوق الإنسان" و"حقوق المواطن"».

> تقرير المصير تحول من مبدأ تحرري إلى أداة استعمارية، حيث يطالب المستوطنون به لأنفسهم بينما يعرضونه على السكان الأصليين كاعتراف شكلي بهويتهم دون منحهم سيادة حقيقية على الأرض. هذا هو النموذج الذي طُبّق في فلسطين وقبلته القيادة الفلسطينية في أوسلو.

وقد استشهدت لوكسمبورغ باحتقار ماركس للسياسة القومية، وخاصة ما نسميه اليوم سياسات الأقليات. كان جوهر اعتراض لوكسمبورغ هو أن القومية تمنح الوكالة الاقتصادية للبرجوازية القومية وتمنعها عن الطبقة العاملة القومية، وهو أساس رفضها للقومية المناهضة للاستعمار بوصفها غير مفيدة للاشتراكية.

وفي طرحها لمسألة الطبقة والمكاسب التي تجنيها البرجوازية القومية من البرجوازية الاستعمارية، مالت لوكسمبورغ نحو شكلٍ من العالمية لم يكن بحاجة إلى انتظار النقد ما بعد الاستعماري ليتّهمه بالمركزية الأوروبية.

وقد تولّى لينين ذلك الدور بعدها بقليل في نصّه الشهير عام ١٩١٤ "حقّ الأمم في تقرير المصير". ومع ذلك، فإن ما كانت لوكسمبورغ ترفضه هو الأساس نفسه للهوية الجديدة، القائم على الأرض والدم، بدلًا من التضامن الطبقي القائم على علاقات العمل.

بالنسبة للينين، كان واضحًا أنّ "تقرير مصير الأمم يعني الانفصال السياسي لهذه الأمم عن الهيئات القومية الأجنبية، وتشكيل دولة قومية مستقلة". ومع أنّه وافقت لوكسمبورغ على أنّ القوميةَ لن تمنح الاستقلال الاقتصادي ولا الوكالة الاقتصادية للطبقة العاملة القومية، إلا أنّه أخذَ عليها عدم إدراكها أنّ الدولةَ القومية هي "القاعدة" في النظام الرأسمالي. ولذلك جادل لينين بأنّ "تقرير مصير الأمم" في برنامج الماركسيين [الروس] لا يمكن أن يعني، من منظور تاريخي-اقتصادي، شيئًا آخر سوى التقرير السياسي للمصير، أي الاستقلال السياسي، وتشكيل دولة قومية.

تقرير المصير: تاريخ استعماري

لكنّ تقرير المصير سرعان ما تبنّته أوروبا الاستعمارية والولايات المتحدة القائمة على الفصل العنصري بعد الحرب العالمية الأولى، كردّ مباشر مناهض للشيوعية على الثورة الروسية وعلى موقف لينين الشعبي من تقرير المصير. فقد أدّى التزام لينين بحق تقرير المصير داخل روسيا والاتحاد السوفييتي (الذي تأسّس عام ١٩٢٢) وفي السياسة الخارجية إلى نشر فكرة تقرير المصير عالميًا، مما استدعى ردًّا سريعًا من القوى الإمبريالية.

وفي هذا السياق تحديدًا جاءت خطبةُ الرئيس الأميركي وودرو ويلسون ذات "النقاط الأربع عشرة" في يناير/كانون الثاني ١٩١٨، وخطبته ذات "النقاط الأربع" بعد شهر، اللتان تبنّتا المبدأ الديمقراطي لتقرير المصير القومي.

وقد كان إرث ويلسون، الذي نُشِر عبر الدعاية الرسمية الأميركية -ولا سيما لجنة المعلومات العامة (CPI) التي أنشأها ويلسون نفسه- والتي وزّعت خطاباته مترجمة بلغات محلية حول العالم، ناجحًا إلى درجة أنّ الحركات البرجوازية والبرجـوازيـة الـصغيرة المناهضة للاستعمار

بدأت تستدعي اسم ويلسون في مطالبها بتقرير المصير، خالِطةً بين قصده ومعناه وبين الإرث اللينيني السابق له.

لكنّ مبدأ ويلسون كان موجَّهًا في الأساس إلى الشعوب الأوروبية التابعة للإمبراطوريات المهزومة في الحرب العالمية الأولى -الروسية، النمساوية-المجرية، الألمانية، والعثمانية- ولم يكن قابلًا للتطبيق على المستعمرات التابعة للدول المنتصرة. وقد أوضح ذلك صراحةً في مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩ حين قال إنّ:

"مؤتمر السلام لا يمتلك صلاحية تطبيق حق تقرير المصير إلا على الشعوب التي كانت ضمن أراضي الإمبراطوريات المهزومة".

وعلى خلاف لينين، منح ويلسون الفاعلية السياسية ليس فقط للمستعمَرين في الإمبراطوريات المهزومة، بل أيضًا للمستعمِرين أنفسهم، وسعى إلى الموازنة بين الطرفين على قدم المساواة، كما نصّ بوضوح في النقطة الخامسة من مشروعه: "تسوية حرّة، منفتحة الذهن، وحيادية تمامًا لجميع المطالب الاستعمارية، قائمة على الالتزام الصارم بالمبدأ الذي يقتضي أن تكون مصالح السكان المعنيين متساوية الوزن مع مصالح الحكومة العادلة التي يُراد تحديد شرعيتها".

وهنا كان هدف ويلسون الصريح: مساواة القوي بالضعيف، أو بعبارة لينين "الأمم القامعة" بـ"الأمم المقهورة": كما بدا أنه يطرح تقرير المصير كقناع لـ"حق الفتح" لا كآلية لتفكيكه. وقد بقيت صيغته منسجمة مع مواقف المندوب الأميركي في مؤتمر برلين حول "حق الأفارقة في التصرّف بأنفسهم".

أما دعمه لنظام الانتداب الخاضع لعصبة الأمم الناشئة، فكان دعمًا لغلاف مؤسّسي جديد للفتوحات الإمبريالية.

في هذا السياق، دعت بريطانيا الأمير فيصل بن حسين من الحجاز لحضور مؤتمر باريس، نظرًا للتعاون بين بريطانيا ووالده خلال الحرب، كما



الانتخابات في الناصرة، ٢٥ يناير ١٩٤٩.
• المصور: المكتب الصحفي للكيان الصهيوني.

دعت مندوبين من المنظمة الصهيونية العالمية في برلين في ذلك الوقت، مع أنّ أياً من اليهود الأحد عشر -الأميركيين والبريطانيين والروس- الذين خاطبوا المؤتمر لم يكن مستوطنًا استعماريًا في فلسطين. وكان هدفهم الحصول على دعم دولي لتأسيس مستعمرة استيطانية يهودية في فلسطين، وهو مشروع كان قد نال مسبقًا دعم بريطانيا وودرو ويلسون نفسه.

> القومية الأوروبية الاستعمارية تعتبر الشعوب المستعمَرة غير قادرة على تشكيل "أمة" متحضرة، بينما تدعم قوميات أخرى لتحقيق مصالحها الإستراتيجية، كما حدث في تفكيك الإمبراطورية العثمانية

لم يكن استخدام ويلسون لمفهوم "تقرير المصير" خطوة مناهضة للاستعمار، بل كان خطوة دعائية استباقية لإدارة العصر الإمبريالي الجديد الذي نشأ بعد الحرب العالمية الأولى، إضافةً لكونه ردًّا على الشيوعية الروسية.

وكما يخبرنا بنديكت أندرسون، فقد ظهرت القومية أولًا على يد أحفاد المستوطنين الإسبان البيض في الأميركيتين، وظهر مفهوم "الاستقلال" على يد أحفاد المستوطنين الإنكليز في أميركا الشمالية. لكن الدفع الأول باتجاه "تقرير المصير" في العالم الاستعماري -ولا ينبغي الخلط بينه وبين الثورات السابقة للمستعمَرين على الحكم الاستعماري- كان أيضًا من مستوطنين بيض في جنوب أفريقيا بعد حرب البوير، وهو ما يفسّر خوف لانسنغ في أعلاه.

وهنا نحتاج إلى التركيز على المستعمرات الاستيطانية بوصفها نموذجًا استعماريًا تمّ لاحقًا توسيعه ليشمل مستعمرات غير استيطانية.

وكما يخلص تيموثي ميتشل بشأن تقرير المصير لدى المستوطنين البيض:

"إنّ مبدأ الحكم الذاتي لم يكن، لذلك، في تناقض مع فكرة الإمبراطورية".

وقد كان الزعيم الجنوب أفريقي يان سمَتس هو الذي صاغ مبدأ الحكم الذاتي الاستيطاني، ووجّه صياغة نموذج تقرير المصير الذي نُسب لاحقًا إلى وودرو ويلسون".

وكان القوميون السوريون -الذين ناضلوا من أجل الاستقلال عن العثمانيين- والقوميون المصريون -الذين ناضلوا من أجل الاستقلال عن الاستعمار البريطاني- قد تبنّوا المبدأ الويلسوني منذ عام ١٩١٨.

كان رئيس الوزراء البريطاني ديفيد لويد جورج أول من ذكر أن تقرير المصير ينبغي أن يُطبَّق على المستعمرات الألمانية في أفريقيا. ففي ٥ يناير/كانون الثاني ١٩١٨، وفي خطاب صاغه كلٌّ من الوزير روبرت سيسيل ويان سمَتس، صرّح بأن تسوية ما بعد الحرب "يجب أن تحترم حق تقرير المصير أو موافقة المحكومين". جاء ذلك ردًا على إعلان الحكومة الروسية المؤقتة، تحت ضغط البلاشفة، دعمَها لتقرير المصير في أبريل ١٩١٧.

بعدها بثلاثة أيام ألقى ويلسون خطابه الذي ضمّ النقاط الأربع عشرة أمام الكونغرس -من دون أن يذكر فيه "تقرير المصير"، رغم ذكره "حقوق الشعوب المستعمَرة". أمّا عبارة "تقرير المصير" -وهي استيلاء مباشر على العبارة اللينينية- فلم يستخدمها ويلسون إلا في خطاب النقاط الأربع في فبراير ١٩١٨، كردّ مباشر على التحدي الروسي.

وكما تُظهر سوزان بيدرسن، فقد جادل لويد جورج بأن هذا المبدأ الجديد يجب أن يُطبّق ليس فقط على شعوب الشرق الأوسط التي تستحق الاعتراف بـ"أوضاعها القومية الخاصة"، بل أيضًا على "الزعماء والمجالس الأصلية" في المستعمرات الألمانية السابقة باعتبارهم "قادرين على التشاور والتعبير عن قبائلهم وأفرادها".

وبعبارة أخرى، كما يستنتج تيموثي ميتشل:

"سيصبح تقرير المصير عملية للاعتراف (وفي الممارسة، للمساعدة على تشكيل) أشكال من الاستبداد المحلي عبرها يستمر الحكم الإمبراطوري".

وكان اللورد كرزن صريحًا في اجتماع وزاري في ديسمبر ١٩١٨ حين قال إن بريطانيا "ستستخدم تقرير المصير إلى أقصى ما يمكن" للحفاظ على المكاسب الاستعمارية، أو بعبارة أدقّ، لاستخدامه غطاءً لـ "حق الفتح".

وقد تبنّى هذه الاستراتيجية اللورد فريدريك لوغارد، حاكم نيجيريا السابق وممثل بريطانيا في لجنة الانتدابات الدائمة لعصبة الأمم (١٩٢٢-



ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية (يمين)، يشير إلى رابين، رئيس وزراء الكيان الصهيوني (الثالث من اليمين) في البيت الأبيض: ١٣ سبتمبر ١٩٩٣
• المصدر: رويترز

١٩٣٦). وعبّر عنها في دليله الكلاسيكي حول كيفية حكم المسؤولين البريطانيين للسكان الأصليين: "إن المناطق الاستوائية هي تراث البشرية، وليس للقوة السيدة حق احتكار استغلالها، ولا للسكان الذين يعيشون فيها حق حرمان من يحتاجونها من خيرها".

كان نهجه هذا ناجحًا في المستعمرات غير الاستيطانية حيث دعم، على خطى لويد جورج، "الحكام المحليين ومجالسهم"، ولكن ليس الحكومة التمثيلية. وهكذا، انتقل مفهوم تقرير المصير في أوروبا والولايات المتحدة من دعم المستوطنين البيض في المستعمرات الأميركية والأفريقية والآسيوية والأوقيانية إلى استيعاب النخب القومية الأصلانية المتعاونة، وهو ما جرى تطبيقه عالميًا بعد الحرب العالمية الثانية، وأصبح أساسًا لـ"النقد الفانوني" للقومية المناهضة للاستعمار.

وبعد عقود، وفي سياق الثورة الجزائرية التي طالبت بالاستقلال، اعترف شارل ديغول عام ١٩٥٩ بـ"حقّ الرجال والنساء الذين يعيشون في الجزائر" في "تقرير المصير".

وبالنسبة لِديغول، قد يؤدي هذا للأسف إلى "الانفصال"، وبالتالي إلى الاستقلال ، لكنه رسم عدة نتائج أخرى كان يفضّلها، من بينها استمرار الحكم الفرنسي.

أما جبهة التحرير الوطني الجزائرية (FLN)، فرفضت يقظًا وبحزم وكفاحٍ هذا الطرح لـ"تقرير المصير"، مؤكدة أنها لن تقبّل بأقل من الاستقلال الكامل.

الاستعمار الاستيطاني اليهودي الأوروبي والفلسطينيون

على خطى النموذج الذي وضعه سمَتس للمستوطنين البيض في جنوب أفريقيا، أصرّ المستوطنون اليهود الأوروبيون في فلسطين -الذين كان قادتهم على تحالف مع سمَتس (حتى إنهم سمّوا كيبوتسًا باسمه)- على ترتيب مماثل، فأسّسوا حكمًا ذاتيًا تحت الوصاية البريطانية، وهو الحكم الذاتي نفسه الذي حُرِم منه الفلسطينيون

السكان الأصليون.
وقد كان اللورد لوغارد صريحًا في تبرير هذا الحرمان، مردّدًا الحجج الصهيونية؛ إذ أعلن أنّ المؤسسات التمثيلية "غير مناسبة إطلاقًا للشعوب الشرقية". شمل الحكم الذاتي اليهودي آنذاك حقّ المستوطنين اليهود في حمل السلاح وتأسيس ميليشيات، وتطوير اقتصاد منفصل وبُنى دولة منفصلة.
أما بالنسبة للمستوطنين اليهود الأوروبيين، فقد تُرجِم مفهوم "تقرير المصير" إلى العبرية -من الروسية- بوصفه "حقّ التعريف الذاتي". ولم يكن هذا الحق مذكورًا في "إعلان إقامة دولة "إسرائيل"" عام ١٩٤٨.
وكما حدث لدى المستوطنين البيض في جنوب أفريقيا بعد حرب البوير، الذين أدّى نضالهم إلى إنشاء اتحاد جنوب أفريقيا عام ١٩١٠ بوصفه "دومينيونًا" بريطانيًا بحكم ذاتي أبيض، بدأ المستوطنون اليهود الأوروبيون في استخدام مفهوم "تقرير المصير" بجدية عندما انفصلوا سياسيًا عن رعاتهم البريطانيين بعد ١٩٣٩.

> صعود القومية المناهضة للاستعمار أجبر القوى الاستعمارية على ابتكار صيغة جديدة تهدف لاحتواء مطالب الاستقلال مع الحفاظ على هيمنة المستوطنين. وهكذا تم تعميم نموذج الدولة القومية الأوروبي كشكل سياسي وحيد، مما قضى على أي إمكانية للوجود خارج ثنائية "الوطني" و"الأجنبي"، وأطال أمد السيطرة الاستعمارية تحت مظلة جديدة.

وفي العربية، تُرجم مصطلح "self-determination" إلى "حق تقرير المصير"، أي الحق في تحديد المصير—وهي ترجمة حملت بُعدًا واضحًا نحو المستقبل. ويبدو أنّ العبارة العربية جاءت من الترجمة الفرنسية:
"le droit des peuples à disposer librement de leur sort" ومعناها "حقّ الشعوب في التصرّف بحرية في مصيرها". وهي الصياغة الفرنسية الكلاسيكية لمفهوم حق تقرير المصير في القانون الدولي، التي انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى، وهي تذكّر بصيغة كاسون في مؤتمر برلين.
وبدلًا من استخدام كلمة قدر كترجمة حَرْفية لـ sort، وهو ما كان سيجعل المصير أقرب إلى الحتمية ويُفقِد الناس وكالتهم، اختار المترجمون العرب كلمة مصير—المعادلة تقريبًا للفرنسية destin— مانحين أصحاب الحق إرادةً حرّة.
ظهرت الترجمة لأول مرة في صحيفة الأهرام المصرية، التي نشرت تقارير مترجمة من رويترز، ومنها تغطية خطاب ويلسون ذي النقاط الأربع، والذي نُشر بعبارة "تقرير الشعوب لمصيرها".
وقد استخدم الفلسطينيون هذا المصطلح في عرائض قدّموها للسلطات البريطانية رفضًا للصهيونية، مستشهدين بويلسون ولويد جورج منذ مايو ١٩١٨، ثم في مذكرة الوفد الفلسطيني إلى مؤتمر باريس في ٣ شباط/فبراير ١٩١٩، ثم في إعلان استقلال سورية في ٨ آذار/مارس ١٩٢٠، الذي نصّ صراحة على "منح الشعوب حقّ تقرير مصائرها". وفي عريضة صادرة عن المؤتمر السوري العام بتاريخ ٣ تموز/يوليو ١٩١٩، وُجّهت إلى لجنة كينغ-كرين الأميركية، استخدم الموقّعون عبارة "تقرير مصيرنا" في حديثهم عن نضال الفلسطينيين من أجل الاستقلال.
ومع ذلك، فإن المصطلحيْن الأكثر شيوعًا في الخطاب العربي المناهض للاستعمار في تلك الفترة كانا الاستقلال (استقلال) والحرية (حرية) أكثر من "تقرير المصير".
وقد استُخدم مصطلح "استقلال" منذ القرن التاسع عشر بمعنى "الحكم الذاتي" بعيدًا عن وصاية إمبراطورية -بما يشبه "الانفصال"- كما في وصف الدول "المستقلة" التي انفصلت عن الدولة العباسية في القرنين الثامن والتاسع.
أمّا المعنى الحديث للاستقلال عن الاستعمار فقد استُخدم منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر في سياق ثورة عرابي، ثم في الخطاب السياسي المصري ضد الاحتلال البريطاني، كما استخدمه العثمانيون قبل ذلك بعبارات مثل "الاستقلال الإداري الداخلي" لوصف نضال اليونان نحو الاستقلال الذي اعتُبر "انفصالًا".
يظهر هذا الاستخدام بوضوح في الصحافة المصرية مطلع القرن العشرين، وكذلك في

منشورات حركة ١٩١٩ الوطنية، التي كانت تعرّف مبدأ ويلسون لتقرير المصير باعتباره "حكمًا ذاتيًا" (حكم ذاتي)، و"استقلالاً (استقلال)" ، وهو الاستخدام نفسه لدى الفلسطينيين والسوريين آنذاك.
أما كلمة الحرية (حرية) فاحتفظت في العربية -كما في اللغات الأوروبية- بمعناها الأقدم: التحرر من العبودية.

تقرير المصير كمبدأ قانوني

في هذه الأثناء، أصبح تقرير المصير مبدأً قانونيًا وأقرّ بوصفه الشكل الذي يجب أن تتخذه عملية إنهاء الاستعمار بعد أن اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار (١٥١٤د-١٥) في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٠ بعنوان "منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمَرة".
ورغم أن تقرير المصير كان مُضمَرًا في "الميثاق الأطلسي" لعام ١٩٤١ ضمن رؤيته لما بعد الحرب و إشارته إلى "حكم الذات"، إلا أن تطبيقه كان محصورًا بمن يُتوقَّع تحريرهم من قوات المحور بعد نهاية الحرب، وليس بمن يعيشون تحت الوصاية الاستعمارية للحلفاء. وكان تشرشل واضحًا في ذلك. ففي آب/ أغسطس ١٩٤٢، في الذكرى الأولى للميثاق الأطلسي، كتب تشرشل إلى روزفلت محذّرًا من تطبيق الميثاق على آسيا وأفريقيا ومن "تعقيد الدفاع عن الهند في هذا الوقت". فضلاً عن أن "الأغلبية العربية" في فلسطين قد تتوهم أن تقرير المصير ينطبق عليها، مما قد يوقف الاستعمار الصهيوني (المسمّى: "الهجرة") إلى فلسطين كليًا.
وأوضح تشرشل قائلاً: "أنا شديد الالتزام بالسياسة الصهيونية، التي كنت أحد مُنظِريها".
لم يكن فهم تشرشل لتقرير المصير مختلفًا كثيرًا عن مبدأ ويلسون في ١٩١٩، والذي—as noted earlier— لم يكن ينطبق إلا على الشعوب الواقعة ضمن الإمبراطوريات المهزومة بعد



إحياء ذكرى السياسيين اليساريين: تظاهرة تكريماً لروزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنخت في عام ١٩٨٨ في برلين الشرقية.

الحرب العالمية الأولى، وليس على الشعوب الواقعة تحت وصاية الدول المنتصرة.
ومخاوف تشرشل من أن يسيء الفلسطينيون الفهم ويعتقدوا أن تقرير المصير يشملهم تكرارٌ لمخاوف روبرت لانسنغ عام ١٩٢١.

> للهوية المشتركة والاختلاف، فقد جرى تعريف "الوطني" و"الأجنبي" قانونيًا عبر الدول القومية الاستعمارية منذ ظهور قوانين الجنسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك بالاستناد إلى رابطين حصريين: الدم أو الأرض

وبما أن ميثاق الأمم المتحدة لعام ١٩٤٥ ذكر تقرير المصير فقط بوصفه "مبدأ" لا "حقًا" -بعد جهود سوفييتية مستمرة لإدراجه رغم المعارضة- وبما أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ١٩٤٨لم يذكر "تقرير المصير" حتى كحق من حقوق الإنسان (وقد اقترح السوفييت إدراجه أيضًا، ورُفض الاقتراح)، فإن قرار الأمم المتحدة ١٥١٤ لعام ١٩٦٠ دشّن مرحلة جديدة بالكامل في تطبيق "تقرير المصير". وقد أصبح هذا القرار ممكنًا بفضل مؤتمر باندونغ الآسيوي-الأفريقي (١٩٥٥). وقد أُقِرّ القرار دون أي صوت معارض، مع امتناع عدة دول استعمارية ومستعمرات استيطانية، بما فيها الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا وأستراليا.
في باندونغ، أعلن قادة الدول الآسيوية والأفريقية المستقلة حديثًا في نيسان/ أبريل ١٩٥٥ مركزية تقرير المصير في النظام الدولي بعد الحرب، مؤكدين أن تقرير المصير هو "الشرط المسبق للتمتع الكامل بجميع حقوق الإنسان الأساسية".
وقد شكّل ذلك انعكاسًا بدرجة ١٨٠ درجة للهيمنة الويلسونية على مفهوم "تقرير المصير"، وعودة إلى التعريف اللينيني الأقدم.

كينيا

في كينيا، وضعت مؤتمرات لانكستر هاوس (١٩٦٠-١٩٦٣) شروط استقلال البلاد عقب حرب التحرير التي خاضتها [حركة] الماو ماو، مع الحرص على حماية ممتلكات المستوطنين البيض. ورغم أن عددًا كبيرًا من المستوطنين البيض اختاروا أيضًا الرحيل، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك قبل حصولهم على تعويضات سخية عن ممتلكاتهم التي اكتسبوها في ظل الاستعمار، وذلك عبر دعم من البنك الدولي والحكومة البريطانية تحت مبدأ "البائع الراغب، المشتري الراغب". كما أصرَّ البريطانيون وقائد كينيا بعد الاستقلال جومو كينياتا.

روديسيا

في روديسيا، التي كانت أقل تهديدًا بثورة وشيكة من قبل السكان الأصليين، أعلن المستوطنون البيض إعلان الاستقلال الأحادي (UDI) عام ١٩٦٥. جاء ذلك بعد أن قدّمت بريطانيا لهم دعمًا كبيرًا، ساعيةً إلى تأجيل الحكم بالأغلبية لعقود قادمة. وقد صوّتت غالبية المستوطنين البيض لصالح دستور ١٩٦١ الذي وضعته بريطانيا لهذا الهدف، لكن طموحهم الحقيقي ظلّ يتمثل في ترسيخ حكم استعمار أبيض دائم في البلاد.
ومع صدور إعلان الاستقلال الأحادي في منتصف عهد هيمنة الخطاب المناهض للاستعمار المستمد من مؤتمر باندونغ وحركة إنهاء الاستعمار، ومع تجنّبه للصيغة الويلسونية التي تساوي بين المستعمرين والمستعمَرين، لم يكن أمام بريطانيا والدول الغربية خيار سوى فرض عقوبات على روديسيا في الأمم المتحدة، تحت ضغط الدول الأفريقية والآسيوية المستقلة حديثًا. ولم تصبح العقوبات إلزامية إلا في عام ١٩٦٨، حين كان الروديسيون قد سحبوا أموالهم من بريطانيا ونقلوها إلى جنوب أفريقيا.

تقرير المصير كأعلى حق إنساني (١٩٦٦)

بحلول عام ١٩٦٦، ومع اعتماد الأمم المتحدة "العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية" و"العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية"، أصبح تقرير المصير -كما طالب مؤتمر باندونغ- الحق الإنساني الرئيسي الذي تشتق منه بقية حقوق الإنسان. وقد دعمت القرارَ الدولُ المستقلة حديثًا، بينما عارضته الدول الأوروبية الاستعمارية (فرنسا، بريطانيا، هولندا...) وكذلك المستعمرات الاستيطانية: الولايات المتحدة، أستراليا، نيوزيلندا، وكندا.

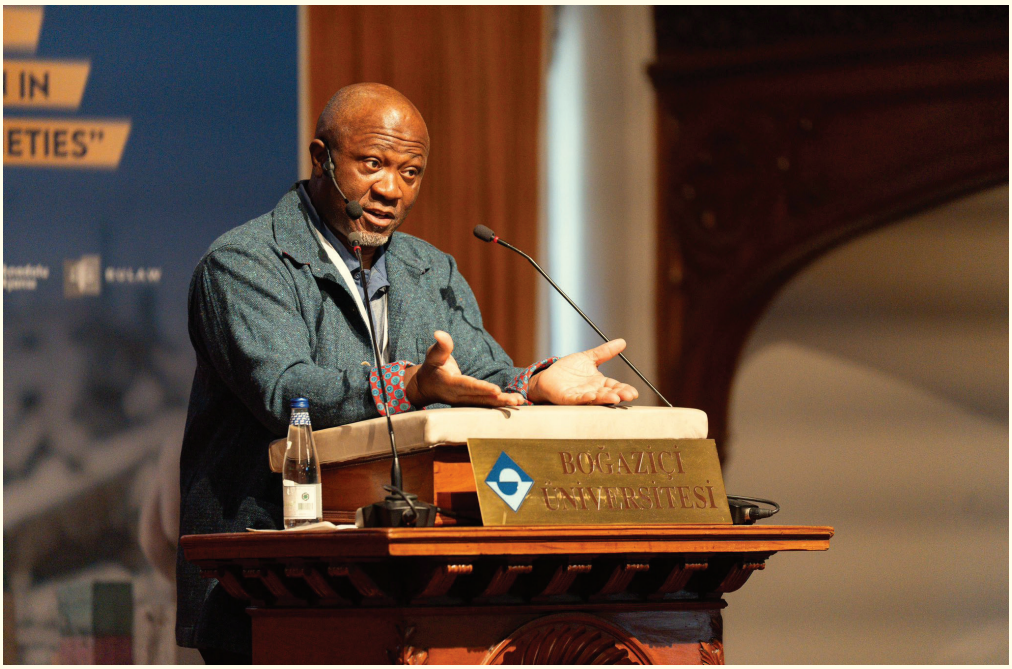

إعلان مبادئ القانون الدولي (١٩٧٠)

استمر الزخم داخل الأمم المتحدة، فصدر عام ١٩٧٠ إعلان مبادئ القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقًا لميثاق الأمم المتحدة.

لكن في ظل سلسلة الانقلابات المضادة المدعومة أميركيًا التي أطاحت بقادة مناهضين للاستعمار يتبنون تعريفًا لينينيًا لتقرير المصير -منهم: مصدّق (إيران ١٩٥٣)، أربينز (غواتيمالا ١٩٥٤)، النابلسي (الأردن ١٩٥٧)، لومومبا (الكونغو ١٩٦١)، غولار (البرازيل ١٩٦٤)، سوكارنو (إندونيسيا ١٩٦٥)، نكروما (غانا ١٩٦٦)- بالإضافة إلى تورّط الولايات المتحدة في حرب فيتنام ودعمها الإمبريالي لنظام فيتنام الجنوبية، فضلًا عن تعزيز تحالفها مع "إسرائيل" بعد احتلال الأخيرة بقية فلسطين وهزيمة مصر عام ١٩٦٧، في ظل كل ذلك، عبّرت الولايات المتحدة عن عدم رضاها عن مسودة القرار.

وكردٍّ مضاد، قدّمت الولايات المتحدة والدول الغربية مقترحًا تضمّن بالفعل "مبدأ المساواة في الحقوق وتقرير مصير الشعوب"، لكنه أضاف "فقرة التحصين" التي تربط تقرير المصير بالشعوب التي تمتلك "حكومة تمثّل جميع السكان دون تمييز في العرق أو العقيدة أو اللون".

في هذا اللحظة، انتهت الهيمنة القصيرة للحقبة ما بعد باندونغ، حيث ساد تعريف لينين لتقرير المصير. وتمت استعادة المبدأ الويلسوني إلى مكانته المهيمنة على الأقل داخل الأمم المتحدة.

السياق الفلسطيني

في أثناء الانتداب البريطاني، طالبت القومية الفلسطينية بـ"الاستقلال"، ثم طالبت بعد قيام المستعمرة اليهودية بـ"التحرير". واستمرت منظمة التحرير الفلسطينية في الإصرار على التحرّر من الاستعمار الاستيطاني، لكنها أيضًا استدعت حقّ "تقرير المصير" منذ تأسيسها. وقد تضمّن الميثاق الوطني الفلسطيني (١٩٦٨) الإشارة إلى تقرير المصير في:

سيبا ن. غروفوغي هو عالم سياسي وأستاذ في جامعة كورنيل، يُعرف بأبحاثه في نقد المركزية الأوروبية وتحليل العلاقات الدولية من منظور المجتمعات غير الغربية.

- المادة ١٩: التي تعتبر أن خطة التقسيم ١٩٤٧ لاغية وباطلة لأنها "تعارض إرادة الشعب الفلسطيني وحقه الطبيعي في وطنه، ولتناقضها مع المبادئ التي دعت إليها الأمم المتحدة، وأبرزها حقّ تقرير المصير".
- المادة ٢٤: التي تذكر أن تقرير المصير "حقٌّ" يؤمن به الفلسطينيون ويصرّون على "ممارسته". أما إعلان الاستقلال الفلسطيني (الجزائر، ١٩٨٨) فقد ذكر "المعركة من أجل التحرير" بصورة عابرة. بينما ركّز على قضية الاستقلال واستدعى حقّ تقرير المصير مجددًا بصفته منتهكًا عبر خطة التقسيم.

> في عالم اليوم، مفهوم "الأمة" هو الإطار الوحيد للوجود السياسي. الصهيونية استبعدت الفلسطينيين باعتبارهم ينتمون لـ"أمة عربية"، ثم استخدمت لاحقًا مبدأ "تقرير المصير" للاعتراف بهم شكليًا فقط، كأداة لإدامة السيطرة وليس منح السيادة الحقيقية

اتفاقيات أوسلو (١٩٩٣)

على النقيض من ذلك، لم تذكر أوسلو حقّ تقرير المصير مطلقًا، ولا "الاستقلال" ولا "التحرير". بل نصّت على اعتراف منظمة التحرير بشرعية "إسرائيل" كدولة قائمة على أراض فلسطينية تم استعمارها. وهكذا كانت أوسلو التعبير الأكثر وضوحًا عن "حقّ الفلسطينيين في التصرّف بأنفسهم" وفق روح مؤتمر برلين ١٨٨٤، أي التخلي عن حقّهم "الموروث" في أرضهم لصالح سلطة أجنبية.

وبناءً على أوامر الولايات المتحدة، وفي أثناء زيارة الرئيس كلينتون لغزة عام ١٩٩٨، انعقد المجلس الوطني الفلسطيني لتعديل الميثاق الوطني وحذف المواد التي اعترضت عليها "إسرائيل"، ومنها المادة ١٩ المستندة إلى (jus soli)، رغم أن المجلس أبقى المادة ٢٤ المستندة إلى jus sanguinis)).

الأساس القانوني للصراع: الدم والأرض

ما يتضح من الاستخدام الاستعماري والمناهض للاستعمار لمبدأ تقرير المصير في السياق الفلسطيني-الصهيوني هو اعتمادهما على ذات المراجع القانونية لأسئلة الجنسية، ولا سيما قانون الجنسية البريطاني لعام ١٩١٤ وتعديلاته عام ١٩١٨، والتي ترتكز إلى:

jus sanguinis (حق الدم) - jus soli (حق الأرض)، وقد استخدمتهما سلطات الانتداب والصهيونية لإثبات "حق يهودي" في فلسطين.

الطرح الصهيوني

تقوم الصهيونية على الادّعاء بأنه وفق حقّ الدم (jus sanguinis)—وبناءً على سردية خيالية عن "وحدة دم يهودي" عبر التاريخ فإن لليهود حقًّا في أرض فلسطين (jus soli).

وهذا ما عرضه وفد المنظمة الصهيونية العالمية في مؤتمر باريس للسلام (١٩١٩) دون أي ذكر لتقرير المصير، إذ قالوا:

"إن هذه الأرض هي الوطن التاريخي لليهود... ولم يكفّوا عبر العصور عن التمسك بأمل العودة".

وبنَتْ الصهيونية حجّتها على الربط الزمني بين:

الدم: اعتبار العبرانيين القدماء "يهودًا"، واعتبار اليهود الأوروبيين "أحفادهم".

الأرض: الزعم بأن العبرانيين امتلكوا حصرًا أرض فلسطين، وأن هذا الحق انتقل عبر الدم لليهود المعاصرين.

وقد دعمت السلطات البريطانية هذا المنطق عبر نصّ المادة ٧ من صك الانتداب (١٩٢٢) التي تنص على:

"يتعيّن أن تشمل جنسية فلسطين بنودًا تيسّر على اليهود [الأجانب] الذين يتخذون فلسطين موطنًا دائمًا اكتساب الجنسية الفلسطينية".

وفي حين أن الصهاينة أنكروا أن يكون للفلسطينيين أي حقّ أرض (jus soli) أو حقّ دم (jus sanguinis) على فلسطين، فإن بريطانيا لم تستطع تبنّي الادعاءات الصهيونية بالكامل في أمر الجنسية الفلسطينية لعام ١٩٢٥، وإن حاولت تقييد حقّ الأرض للفلسطينيين الذين يعيشون آنذاك في أوروبا والأميركيتين.

وهكذا، وبعد معاهدة لوزان (١٩٢٣)، التي حدّدت أوضاع ما بعد الحرب العالمية الأولى في الأراضي العثمانية السابقة، منحت المادة ٢ من أمر الجنسية الفلسطينية الفلسطينيين المقيمين في

الخارج فترة عامين للتقدّم بطلب الحصول على الجنسية الفلسطينية، لكن المندوب السامي البريطاني اختصر المهلة إلى تسعة أشهر فقط.
وكما يقول معتز قفيشة:
"هذه الفترة التي تقل عن تسعة أشهر... كانت غير كافية للأهالي الذين كانوا يعملون أو يدرسون في الخارج للعودة إلى الوطن. ونتيجة لذلك أصبح معظم هؤلاء الأهالي عديمي الجنسية. فمن جهة، فقدوا جنسيتهم التركية [العثمانية] بموجب معاهدة لوزان، ومن جهة أخرى لم يتمكنوا من اكتساب الجنسية الفلسطينية وفقًا لأمر الجنسية".
وتُقدّر الأعداد -بحسب تقديرات محافظة- بنحو ٤٠ ألفًا، في مقابل نزع جنسية السكان الأصليين.
وبعكس تجريد الفلسطينيين الأصليين من الجنسية، جاء أمر الجنسية الفلسطيني متسقًا مع هدف الانتداب البريطاني في تسهيل الاستعمار اليهودي للبلاد، وذلك عبر المادة ٧ الخاصة بتجنيس الأجانب. وقد اشترطت -إضافة إلى الإقامة لمدة سنتين- أن يكون المتقدّم: حسن السيرة، ويتمتع بمعرفة كافية باللغة الإنكليزية أو العربية أو العبرية، مع أن العربية كانت لغة السكان الأصليين بلا استثناء، بينما كانت العبرية لغة الوافدين الاستيطانيين الجدد من أوروبا، وكانت الإنكليزية لغة السلطات الاستعمارية.
وبناءً على هذه المادة، مُنِح عشرات الآلاف من اليهود الأجانب حقّ jus soli (حقّ الأرض) في اللحظة نفسها التي فقد فيها عشرات الآلاف من الفلسطينيين المغتربين حقوقهم.

الصهيونية وحقوق الدم والأرض

بالنسبة للصهيونية، فهي لا تزعم تمثيل اليهود الذين يستعمرون فلسطين فحسب، بل أيضًا اليهود الذين لا يشاركون في المشروع الاستيطاني، بل حتى اليهود الذين يعارضونه.
وهذا ما ظهر بوضوح بعد ١٩٤٨ عندما طالبت "إسرائيل" بأن تُدفع تعويضات ألمانيا عن قتل

صورة لحنة آرنت في شبابها؛ وهي فيلسوفة ومنظّرة سياسية ألمانية-أمريكية، نالت شهرة عالمية بفضل تأملاتها العميقة حول طبيعة السلطة، والشمولية، ومفهوم "تفاهة الشر" في القرن العشرين.



اليهود الأوروبيين إلى "الدولة الإسرائيلية"، مع أنها لم تكن موجودة وقت حدوث الإبادة، ومع أن اليهود الذين قُتلوا كانوا أوروبيين لا فلسطينيين ولا إسرائيليين.
ويطعن هذا المطلب في: حق الأرض (jus soli) وحق الدم (jus sanguinis)، فحتى لو اعتبرهم الصهاينة والنازيون (ومعهم ألمانيا الغربية بعد النازية) يشتركون في "حق دم" يهودي، فإنهم لم يمتلكوا حقّ الدم أو الأرض تجاه "إسرائيل" أو "الشعب الإسرائيلي"، اللذين لم يكونا موجودين عند حدوث الإبادة.

> قبل ظهور "تقرير المصير"، كان مفهوم "الاستقلال" يُطبَّق بشكل انتقائي لصالح مجتمعات المستوطنين البيض، مما مهد الطريق لنظام "الكومنولث" البريطاني الذي منح الحكم الذاتي لتلك المستعمرات بينما حرم السكان الأصليين.

وهذا يتناقض بوضوح مع ادعاء "إسرائيل" أن: الفلسطينيين الذين هجّرتهم لا يستحقون التعويض والفلسطينيين تحت الاحتلال لا يستحقون الاستقلال، لأنهم "لم تكن لهم دولة حين طُردوا". وتعتبر "إسرائيل" هذه الحجج صحيحة قبل وبعد اعترافها الشكلي بـ"تقرير المصير" للفلسطينيين.

غياب أي أساس تاريخي لحقّ يهودي في أرض ١٩٤٨

من المهم الإشارة إلى أن الأرض التي قامت عليها "إسرائيل" عام ١٩٤٨ لم تكن قطّ دولة يحكمها اليهود، ولا حتى العبرانيين القدماء، حتى في الرواية التوراتية نفسها، وهو ما لا تُنكره الصهيونية. يقول المؤرخ الصهيوني البارز بيني موريس:
"كان قلب الدولة اليهودية [القديمة] هو جبال يهودا والسامرة والجليل... وفي معظم الفترات كان الساحل يسكنه الفلسطينيون والهلنستيون والوثنيون الرومانيون".
ولهذا يعتبر المستوطنون الصهاينة أن الضفة الغربية أهم من أراضي ١٩٤٨، لأنها -وفق السردية الصهيونية- مركز "الدولة اليهودية" القديمة، مما يزيد تعقيد الادعاء الصهيوني بوجود jus soli يهودي على حدود ١٩٤٨.

الصهيونية وإنكار حق الدم للفلسطينيين

في المقابل، أنكرت الصهيونية على الفلسطينيين أي حق دم (jus sanguinis) يتيح لهم امتلاك قومية أو حقوق سياسية. وفي ١٩٢١، حاول يتسحاق بن تسفي -الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لـ"إسرائيل"- تبرير إنكار حقّ تقرير المصير للفلسطينيين بقوله إن:
فقط البدو من "عرق عربي خالص"، أما باقي السكان فهم "فلاحون ومدنيون لا يشكلون جماعة قومية"، بينما مستوطنون يهود من عشرات البلدان "يشكلون أمة حقيقية!"
وهذه الحجج مطابقة بالكامل للحجج الاستعمارية البريطانية والفرنسية في إنكار قومية: المصريين - الهنود - الجزائريين. ويقول بن تسفي:
"إن سكان هذا البلد عرب في اللغة والثقافة، لكن أصلهم وعرقهم مختلط ومكوّن من عناصر مختلفة... كما يَثبُت من تكوينهم القومي والديني والعرقي، فإنهم لا يشكلون شعبًا واحدًا ولا أمة واحدة".
بل ذهب أبعد من ذلك، مؤكدًا (كما فعل بن غوريون لاحقًا) أن الفلاحين الفلسطينيين هم أصلًا أحفاد العبرانيين القدماء الذين "اعتنقوا ثقافة ولغة ودين الفاتحين".

الموقف الفلسطيني: حقّ الأرض

على خلاف الصهيونية، استند الفلسطينيون دائمًا إلى حقّ الأرض (jus soli) في مطالبهم المناهضة للاستعمار، منذ بدايات التهديد الصهيوني، خصوصًا بعد وعد بلفور، وفي حججهم أمام الأمم المتحدة في نقاش تقسيم ١٩٤٧. ومن اللافت أن وعد بلفور (١٩١٧)، وصك الانتداب (١٩٢٢)، وقرار التقسيم (١٩٤٧) لم يستخدم مصطلح الحقوق، ولا حقّ تقرير المصير، لصالح المستوطنين اليهود، رغم منحه لهم حقّ الأرض في فلسطين. لكن الصهيونية تصرّ على أن الفلسطينيين لا يمتلكون jus soli، وتدّعي أنهم:
"مهاجرون حديثون من الدول المجاورة، أو أنهم، وفقًا لجدلية جون لوك حول الأميركيين الأصليين، "لم يعتنوا بالأرض"".



مشهد من فيلم "أوغاد مجهولون" (Inglourious Basterds) للمخرج كوينتن تارانتينو؛ وهو رواية خيالية وانتقامية عن الحرب العالمية الثانية، يصوّر خطة مجموعة من الجنود اليهود الأمريكيين لاغتيال قادة ألمانيا النازية في إحدى دور السينما بباريس.

وبعض الصهاينة يزعمون أنهم يفتقرون إلى Jus Sanguinis خاص بهم لأنهم "عرب مثل غيرهم"، كما زعمت حركة مباي (حزب العمل لاحقًا).

أما الصهيونية التنقيحية (جابوتنسكي)، فتعترف نظريًا بحقّ الفلسطينيين في الأرض، لكنها تؤكد أن هذا الحق أقل شأنًا من "الحق اليهودي الأعلى والأقدم"، المزعوم، على أساس:

الأسبقية التاريخية، و"تطوير الأرض" من قبل الأوروبيين مقابل "إهمالها" من قبل السكان الأصليين. وهذا أيضًا كان منطق بن غوريون. ففي ١٩٢٤ قال بوضوح:

"إن المجتمع العربي في البلاد يمتلك حقّ تقرير المصير، وحقّ الحكم الذاتي... إنّ الحكم الذاتي القومي الذي نطالب به لأنفسنا نطالب به للعرب أيضًا. ولكننا لا نُقرّ لهم بحقّ حكم البلاد إلى الحدّ الذي لم تُعمَّر فيه البلاد منهم، وما زالت تنتظر أولئك الذين سيقومون بعمارتها [أي مزيدًا من المستوطنين اليهود الأوروبيين]".

رفض مقاومة الفلسطينيين وتصنيفها كحركة "طبقية"

رفضَ بن غوريون مقاومة الفلسطينيين للاستعمار الصهيوني باعتبارها "مقاومة الطبقة الحاكمة"، وأصرّ على أنه بينما يواصل اليهود الاستيطان، فإن واجب العمال اليهود هو "رفع العمال الفلسطينيين من الفقر والجهل".

لقد استُخدِم مفهوم "أصالة" العامل الفلسطيني لدى منظّري الصهيونية العمّالية كطريقة لنزع "الأصالة والشرعية" عن الحركة الوطنية الفلسطينية في الوقت ذاته، وبالتالي نفي حقّها في تقرير المصير.

وايزمان ورفض تقرير المصير للفلسطينيين (١٩٣٠)

في رسالة إلى معاون وزير الخارجية البريطاني، عبّر حاييم وايزمان -رئيس المنظمة الصهيونية العالمية وصديق سمَتس المقرّب- عن معارضته لحقّ الفلسطينيين في تقرير المصير عام ١٩٣٠، بينما

أيّده بقوة لليهود حول العالم.
أكد وايزمان أنّ:
"الحقوق التي مُنحت للشعب اليهودي في فلسطين [وفق الانتداب] لا تعتمد على موافقة، ولا يمكن أن تخضع لإرادة أغلبية سكانها الحاليين".
وأوضح صراحة أنّه حين وعدت بريطانيا الصهاينة بـ"الوطن القومي"، "لم يُطلب رأي العرب الفلسطينيين". وبرّر ذلك بـ"خصوصية" العلاقة اليهودية مع فلسطين. أمّا الفلسطينيون، فقد اعتبرهم: "غير مالكين للبلاد بنفس المعنى الذي يمتلك به سكان العراق أو مصر بلدانهم".
لذلك، فإن منحهم تقرير المصير، أو الحكم الذاتي، أو "جمعية تشريعية" سيكون بمثابة: "تسليم البلاد إلى سكانها الحاليين".
وافق وايزمان على منح الفلسطينيين صلاحيات محلية على:
التعليم العربي - المستشفيات - المؤسسات الدينية والثقافية الإسلامية والمسيحية، ولكن ليس على مستقبل بلدهم أو على الاستيطان اليهودي.

> أصبح "الاستقلال" و"التحرر" و"تقرير المصير" تستخدم كمترادفات منذ الحربين العالميتين، رغم أصولها المختلفة. "الاستقلال" عرّف ولادة دول جديدة من الإمبراطوريات المنهارة، بينما ارتبط "التحرر الوطني" بنضالات الشعوب ضد الاستعمار والنازية. لفهم كيف تم خلط هذه المفاهيم، نحتاج لتتبع الجذور التاريخية لمبدأ "تقرير المصير"

اعتراف الأمم المتحدة بحقّ تقرير المصير الفلسطيني

منح قرار التقسيم ١٩٤٧ الفلسطينيين حقًّا في دولة، لكن الجمعية العامة اعترفت بـ"حقّ تقرير المصير" صراحة في:
قرار ٢٥٣٥ ب (د-٢٤) لعام ١٩٦٩ عندما أقرت: "الحقوق غير القابلة للتصرف للاجئين الفلسطينيين".
قرار ٢٦٧٢ ج (د-٢٥) لعام ١٩٧٠ وفي المادة الأولى منه: "للشعب الفلسطيني الحقّ في المساواة والحقّ في تقرير المصير".
وصوّت ضد القرار: الولايات المتحدة، "إسرائيل"، كندا، أستراليا، نيوزيلندا، وكانت الدولة الوحيدة من المستعمرات الاستيطانية التي دعمته هي تشيلي في عهد آليندي.

أوسلو: بين Jus Sanguinis وJus Soli

في عام ١٩٩٣، ومن خلال اتفاقيات أوسلو، اختارت "إسرائيل" ألا تُعطي الأولوية لحقّ الدم (jus sanguinis) على حقّ الأرض (jus soli) أو العكس، بل التلاعب بهما معًا.
وقد أحدثت الاتفاقيات تحوّلاً إحصائيًا نوعيًا عمّا كان معتمدًا قبل توقيعها، وتعديلاً جوهريًا لمعنى تقرير المصير بالنسبة للفلسطينيين.
فبعد أن لم تعد "إسرائيل" قادرة (أو محتاجة) لإنكار حقّ الفلسطينيين في تقرير المصير، أصبح السؤال: كيف تُقسّم الفلسطينيين بين من يمكنهم الوصول جزئيًا إلى jus soli وبين من لا يمكنهم الوصول إليه إطلاقًا؟
ولأنّ طرد معظم الفلسطينيين خارج "هوية الفلسطيني" كان أكثر صعوبة من طردهم الجسدي خلال الـ ٤٥ عامًا السابقة، فقد رأت "إسرائيل" أن المزج بين jus soli وjus sanguinis هو الطريقة الأمثل لتحقيق هدفين: تمديد تقرير المصير لليهود المستوطنين، وتقييده إلى أقصى حدّ بالنسبة للسكان الأصليين الفلسطينيين، وذلك مع الإصرار على ما ينصّ عليه قانون الجنسية "الإسرائيلي" ١٩٥٢-٥٧١٢: أنّ شرط الحصول على jus soli هو امتلاك jus sanguinis كيهودي. تعريف "الشعب الفلسطيني" حسب أوسلو، وفقًا للاتفاقيات أصبح "الشعب الفلسطيني" محصورًا في سكان غزّة، وسكان ما تسميه "إسرائيل" اليوم الضفة الغربية (بعد تقليص هائل لحدودها عمّا كانت عليه قبل ١٩٦٧)، مع استبعاد سكان القدس الشرقية بالكامل.
أما الفلسطينيون في "إسرائيل" (فلسطينيو ٤٨)، أو الشتات، فقد خرجوا كليًا من التعريف الجديد، لأنّ ذلك كان يلامس حقّ الأرض (jus soli) الذي فقدوه بفعل النفي الداخلي والخارجي. وتمنح أوسلو حقّ أرض محدودًا فقط للجزء الذي يعيش على بعض أراضي ١٩٦٧، وتلغيه تمامًا عن كل فلسطيني لم يعد يعيش على تلك الأرض.

النموذج نفسه: هاواي

هذا النمط لا يختلف عن النظام الذي طبقته حكومة الولايات المتحدة وسلطات هاواي عبر: منح جزء صغير فقط من السكّان الأصليين (Native Hawaiians) حقّ الانتفاع بالأراضي بشرط إثبات ٥٠٪ "نقاء دم" (blood quantum) وقد أدى ذلك إلى تجريد معظم السكان الأصليين من حقّ الأرض رغم احتفاظهم بالانتماء القومي. وبالمثل، قامت منظمة التحرير الفلسطينية من خلال الاعتراف بنقل الحقّ "الموروث" للفلسطينيين في أرضهم لـ"إسرائيل"، بإضفاء شرعية على سيطرتها على ٧٨٪ من فلسطين عام ١٩٤٨. لقد أدّت م.ت.ف بذلك الدور نفسه الذي أدّاه "الزعماء المحليون" في رؤية لويد جورج لمفهوم تقرير المصير.

ولأنّه لا وجود لـ"خارج الأمة"، ولأنّ غالبية الفلسطينيين لا يمكن طردهم خارج "الفلسطينية"، فإنّ أوسلو (وكامب ديفيد قبلها) قامت بـ: فصل jus sanguinis الفلسطيني عن jus soli. بحيث يبقى الفلسطيني "فلسطينيًا" بهويته، لكن دون أيّ حقّ أرض، أي أنّه "انتماء بلا جغرافيا"، وبذلك تراجع عدد الفلسطينيين الذين يُعتبرون مطالبين شرعيين بأرضهم إلى: ثلث أو ربع العدد الحقيقي (بحسب الحسابات الإسرائيلية)، في المقابل، تضاعف عدد من يحقّ لهم الأرض في "الدولة اليهودية" ليشمل كلّ يهود العالم، باعتبارهم يمتلكون—بحسب الادعاء—Jus Sanguinis يهوديًا.

من مبدأ تحرّري إلى أداة استعمارية

انتقل مفهوم تقرير المصير من كونه: مبدأ ويلسونيًا إمبرياليًا "منصفًا" نظريًا بين المستعمِر والمستعمَر إلى كونه: أداة في يد المستعمِر، يحدّد من خلالها كمّ ونوع تقرير المصير الذي يُسمح للمستعمرات بالوصول إليه، وبذلك عدنا إلى المفهوم الاستعماري التقليدي في القرن التاسع عشر:

"حقّ السكان الأصليين في التصرّف بأنفسهم"

تعد "دغانيا ألف" أول "كيبوتس" (نموذج للاستيطان الجماعي)، حيث تأسست عام ١٩١٠ على أراضي قرية "أم جوني" جنوب بحيرة طبريا. تُعرف هذه المستوطنة بلقب "أم الكيبوتسات"، وقد اشتُق اسمها من أنواع الحبوب الخمسة الشائعة في الكيان الصهيوني.



ضمن حدود يضعها المستعمِر.
وهذا يشبه ما قامت به: كندا -أستراليا - الولايات المتحدة، في التلاعب بـ jus sanguinis وjus soli لتحديد أيّ جزء من الشعوب الأصلية يستحق أيّ جزء من أرضه.
يبقى السؤال:
كيف يمكن لحقّ تقرير المصير -الذي مُنح للمستعمرين ولـ"المتعاونين" على وفق المفهوم الاستعماري- أن يخدم نضال الفلسطينيين من أجل "التحرير"؟

> وُلد مفهوم "تقرير المصير" في أواخر القرن التاسع عشر كفكرة اشتراكية أوروبية، تبنّته الأممية الاشتراكية والأحزاب اليسارية مثل الاشتراكيين الروس كحق للقوميات داخل الإمبراطوريات. نُوقش أصلاً في سياق قضايا مثل القومية البولندية ومطالب "البوند" اليهودي. هذه الجذور التحررية الأوروبية هي ما تم تحريفه لاحقاً لخدمة المشاريع الاستعمارية.

لقد تضمّن ميثاق الأمم المتحدة النسخة الويلسونية من تقرير المصير (مبدأ لا حقًّا) في المادة ١: "احترام مبدأ المساواة في الحقوق وتقرير مصير الشعوب".
وقد حاربت الولايات المتحدة بشراسة لمنع إدراجه كحقّ قانوني، ومع ذلك: علّقت الأمم المتحدة هذا "المبدأ" بالنسبة للفلسطينيين عبر اعتماد قرار التقسيم ١٩٤٧ دون استشارتهم. ثم استُدعي تقرير المصير مرة بعد مرة -من قبل الفلسطينيين ومن قبل مستعمريهم- وأصبح يعترف به القانون الدولي بطرق مختلفة لكليهما عبر العقود.

إعلان الأمم المتحدة لحقوق الشعوب الأصلانية (UNDRIP)

في ١٣ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٧، وبعد عقدين من النقاش، أصدرت الأمم المتحدة إعلان حقوق الشعوب الأصلانية (UNDRIP)، الذي نصّت المادتان ٣ و٤ منه على أنّ:
"للشعوب الأصلانية الحقّ في تقرير المصير. وبفضل هذا الحقّ، فإنها تحدد بحرية وضعها السياسي، وتسعى بحرية لتحقيق تنميتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية... [و] لها الحقّ في الحكم الذاتي في الأمور المتعلقة بشؤونها الداخلية والمحلية، وكذلك الوسائل اللازمة لتمويل وظائفها الذاتية".
لقد تحدّت النقاشات التي سبقت اعتماد الإعلان -منذ ١٩٦٩، وخاصة بعد ١٩٨٥ حين نوقشت أولى مسوّداته- المقاربة الويلسونية التي أعيد فرضها بعد ١٩٧٠ وكذلك ميثاق الأمم المتحدة.
أنشأت الأمم المتحدة في ١٩٨١ مجموعة العمل المعنية بالشعوب الأصلانية، التي أصبحت المنتدى الأساسي لبلورة حقوق الشعوب الأصلية داخل الأمم المتحدة.

معارضة المستعمرات الاستيطانية

كانت الدول الاستيطانية -الولايات المتحدة، أستراليا، كندا، نيوزيلندا- معارضة بشدّة لأي اعتراف بتقرير مصير غير ويلسوني للشعوب الأصلانية ضمن الإعلان، وصوّتت ضد اعتماده. أما "إسرائيل" فامتنعت عن التصويت كليًا.
ورغم اعتماد المادتين ٣ و٤، ظلّ موضوع الأرض والحقوق الإقليمية خارج نطاق الإعلان.

محاولة تقويض التقرير الحقيقي للمصير

خلال أكثر من ٢٠ عامًا من النقاش، حاولت الدول الاستيطانية: إلغاء أو إعادة تعريف "تقرير المصير" معنًى ومضمونًا، ضمان حماية الامتيازات المكتسبة عبر الفتح الاستعماري، منع أي مطالب مستقبلية بـ الانفصال أو استعادة الأراضي.
وقد اقترح مندوب نيوزيلندا أن يُعاد تعريف تقرير المصير بحيث يعني فقط "تمكين" السكان الأصليين داخل الدولة الاستيطانية، لا أكثر.

النتيجة:

حوّل الإعلانُ "تقريرَ المصير" -في حالة الشعوب الأصلانية- من: "حقّ في الاستقلال" إلى: "حقّ في الحكم الذاتي داخل الدولة القائمة فقط"، (وهو ما ينسجم تمامًا مع النموذج "الإسرائيلي" في الضفة وغزة). وعندما وصل النقاش إلى "استعادة" الأراضي، جاءت التسوية في المادة ٢٨، التي بدّلت مفهوم: "الاستعادة" (restitution) بمفهوم "الإنصاف/ المعالجة (redress)" أي: تعويض عادل ومنصف،



دبابة تابعة للملكيين تدخل ساحة إذاعة طهران بعد دقائق قليلة من احتلال القوات الموالية للشاه للمنطقة خلال الانقلاب الذي أدى إلى الإطاحة بمحمد مصدق وحكومته في ١٩ أغسطس ١٩٥٣.
• المصدر: وكالة أسوشيتد برس، الأرشيف.

وعند الإمكان "استعادة"، ولكن ليس التزامًا.

الخاتمة

أيًّا كان الشكل الذي اتخذه "تقرير المصير" حين طُبِّق على الفلسطينيين: فقد جاء بشكلٍ ينزع ملكية الأرض عنهم ويحفظ الأرض للمستوطنين اليهود، ويمنع الفلسطينيين من الاستقلال السياسي ومن التحرّر من الاستعمار الاستيطاني والاحتلال الأجنبي، لكن الفلسطينيين ليسوا وحدهم، تؤكد إيزابيل شونت-تنكهوف أنّه:

"مع (إعادة) ظهور الشعوب الأصلانية في الساحة الدولية، حدث انفصال أو تفكيك بين مفهومي "الشعب" و"تقرير المصير". وبهذه الطريقة، بات حقّ تقرير المصير يُنظر إليه بشكل متزايد على أنه حقّ تتغير مضمونه تبعًا للهوية (الثقافية) لمن يتمتع به".

أو كما كنتُ أوضّح عبر هذا النص، فإن مضمون تقرير المصير يتغيّر تبعًا للهوية الاستعمارية لصاحبه:

فبالنسبة للمستوطنين الاستعماريين: يُربَط jus sanguinis حق الدم بـ (jus soli)حق الأرض. أمّا بالنسبة للمُستعمَرين الأصليين: فيُفصَل jus sanguinis عن jus soli تمامًا.

جوهر المشكلة: تقرير المصير، القومية، والدولة في السياقات الاستيطانية

تتمثل المشكلة التاريخية والمعاصرة لتقرير المصير في علاقته المعقّدة: بالقومية المناهضة للاستعمار، وبالدولة القومية، وبالاستعمار الاستيطاني، خصوصًا الأوروبي، وتبدو الحالة الفلسطينية نموذجًا، أو إحدى صيغ عديدة لهذه المشكلة، تمامًا كما هو الحال لدى: الماوري في نيوزيلندا، والسكان الأصليين في أستراليا، والشعوب الأولى في كندا، السكان الأصليين في الولايات المتحدة وهاواي،والشعوب الأصلية في أميركا اللاتينية، وفي صيغة أخرى: روديسيا وجنوب أفريقيا.

تقرير المصير سرعان ما تبنّته أوروبا الاستعمارية والولايات المتحدة القائمة على الفصل العنصري بعد الحرب العالمية الأولى، كردّ مباشر مناهض للشيوعية على الثورة الروسية وعلى موقف لينين الشعبي من تقرير المصير.

الهوامش

هذه المقالة مبنية على المحاضرة الافتتاحية التي ألقيتُها في ندوة "فلسطين وتقرير المصير فيما يتجاوز الأطر القومية"، التي شاركت في تنظيمها جامعة إكستر، ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، ومؤسسة جيردا هنكل، في ٢٤ سبتمبر ٢٠١٥ في أثينا، اليونان.

١. هذا ادعاء نجده في الأدبيات الفلسطينية المناهضة للاستعمار، كما في سياقات مناهضة للاستعمار أخرى. انظر، على سبيل المثال: شفيق الرشيدات، المقاومة الفلسطينية وحق تقرير المصير، (القاهرة: مطبعة أولاد عبده أحمد، ١٩٧٠).

٢. جوزيف مسعد، الآثار الاستعمارية: صناعة الهوية الوطنية في الأردن (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠٠١)، ١٨-٤٩.

٣. "Not Red Indians"، مقابلة مع ياسر عرفات أجراها غراهام أشر في أكتوبر ٢٠٠٤، الأهرام ويكلي، ٤ نوفمبر ٢٠٠٤، تاريخ الاطلاع ٢٠ يناير ٢٠١٨، على: http://www.masress.com/en/ahram-weekly/18801

٤. محضر ٣١ يناير ١٨٨٥، ورقة برلمانية c. 4361، منقول في: Gavin & Betley (1973) 240 :209 Matthew Craven, "Between Law and History: The Berlin Conference of 1884-1885 and the Logic of Free Trade," London Review of International Law 3, no. 1 (March 2015): 47.

5. Grovogui, Sovereigns, Quasi Sovereigns, and Africans, 80.

٦. انظر:

Antony Anghie, Imperialism, Sovereignty, and the Making of International Law (Cambridge: Cambridge University Press, 2004).

٧. حنّة آرندت، أصول الشمولية، طبعة جديدة مع مقدمات مضافة (نيويورك: Harvest, HBJ Book, 1972), 296.

٨. صرّحت غولدا مئير: "لم يكن الأمر وكأنه كان هناك شعب فلسطيني في فلسطين يرى نفسه شعبًا فلسطينيًا، ثم جئنا نحن وطرحناه خارجًا وأخذنا بلده منه. لم يكن هناك شيء كهذا." صحيفة Sunday Times اللندنية، ١٥ يونيو ١٩٦٩.

٩. انظر:

William Roger Louis and Ronald Robinson, "The Imperialism of Decolonization," Journal of Imperial and Commonwealth History 22, no. 3 (1994): 462-511.

10. Jörg Fisch, The Right of Self-Determination of Peoples: The Domestication of an Illusion, trans. Anita Mage (Cambridge: Cambridge University Press, 2015), 8, 21-24, 117-18.

11. Eric D. Weitz, "Self-Determination: How a German Enlightenment Idea Became the Slogan of National Liberation and a Human Right," American Historical Review 120, no. 2 (April 2015): 481-82.

١٢. حول "البوند"، انظر:

Henry J. Tobias, The Jewish Bund in Russia: From Its Origins to 1905 (Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1972),

خاصة ١٦٠-٧٦. وحول الاشتراكية والمسألة القومية، انظر:

Ronaldo Munck, The Difficult Dialogue: Marxism and Nationalism (London: Zed Press, 1986).

13. Vladimir Ilyich Lenin, The Rights of Nations to Self-Determination, published in 1914, accessed January 20, 2018, https://www.marxists.org/ar-

وتشير chive/lenin/works/1914/self-det/. كل الاقتباسات اللاحقة من لينين إلى هذا النص.

14. Erez Manela, The Wilsonian Moment: Self-Determination and the International Origins of Anti-Colonial Nationalism (Oxford: Oxford University Press, 2007), 50–53.

١٥. منقول في: Fisch, The Right of Self-Determination of Peoples, ١٣٦.

١٦. Manela, The Wilsonian Moment,

١٧. لأسماء وفد المنظمة الصهيونية العالمية إلى باريس، انظر: http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/History/zoparis.html (تاريخ الاطلاع ٢٠ يناير ٢٠١٨)

17. Robert Lansing, The Peace Negotiations: A Personal Narrative (Boston: Houghton Mifflin, 1921), 97.

18. Fisch, The Right of Self-Determination of Peoples, 147–59.

١٩. كانت سابقة على البوير قد سُجّلت من قبل المستوطنين الفرنسيين في الجزائر، الذين طالبوا عام ١٨٧٠ بحكومة مدنية بدلاً من الحكم العسكري.

20. Timothy Mitchell, Carbon Democracy: Political Power in the Age of Oil (London: Verso, 2013), 71.

21. Fisch, The Right of Self-Determination of Peoples, 152.

22. Mitchell, Carbon Democracy, 80.

23. Frederick Lugard, The Dual Mandate in British Tropical Africa, 5th ed. (Hamden, Conn.: Archon Books, 1965), 61.

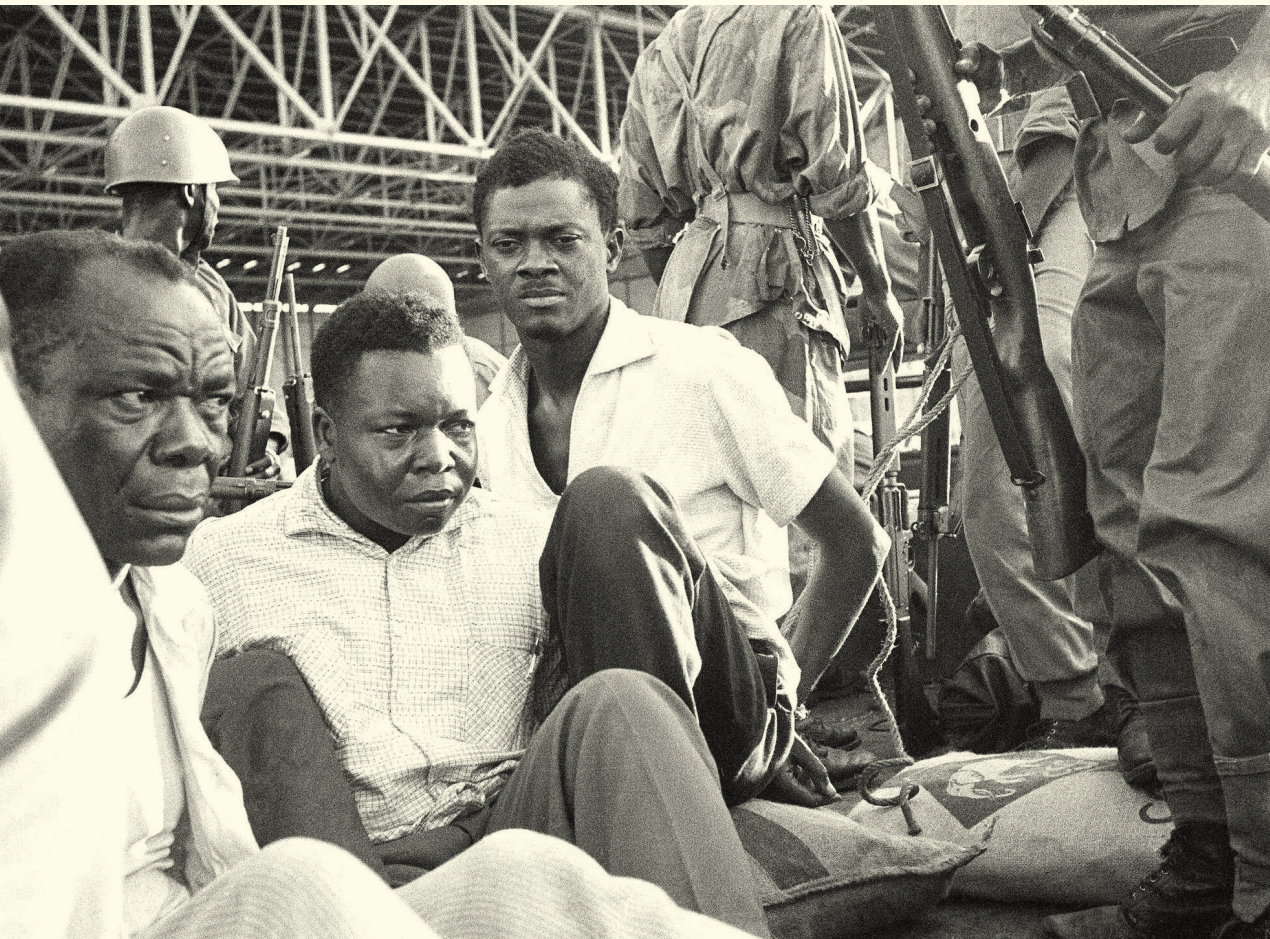

رئيس وزراء الكونغو السابق، باتريس لومومبا (الثالث من اليسار)، يجلس في شاحنة عقب اعتقاله في ٢ ديسمبر ١٩٦٠.
• المصدر: وكالة أسوشيتد برس.

المرحلة الأخيرة
نموذج الـ

من الانتداب إلى الوكالة: تطور أشكال

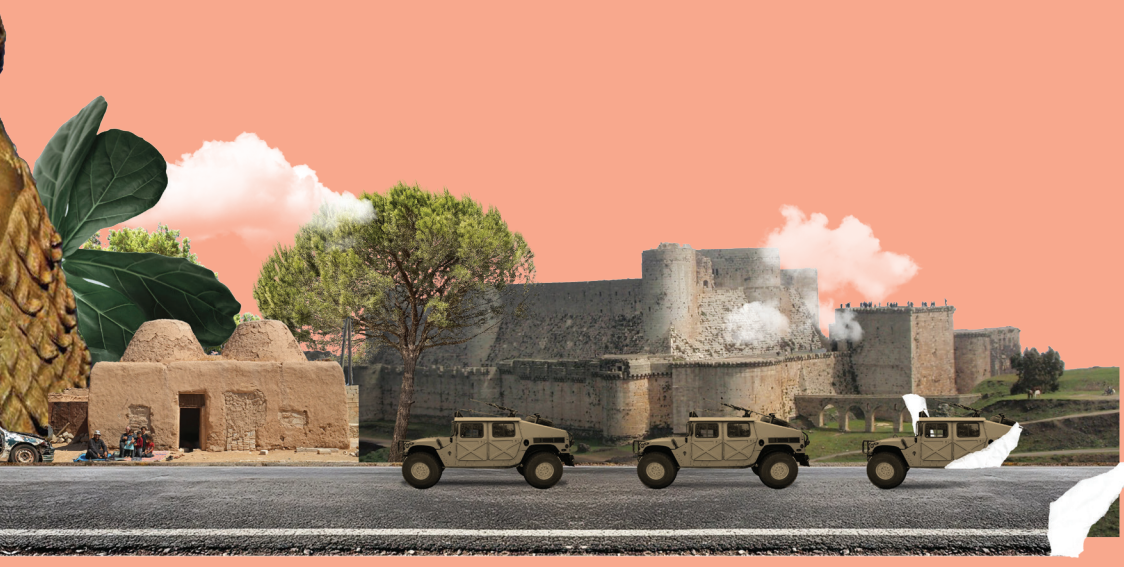

من الاستعمار بوكالة

الهيمنة وصولا إلى النموذج السوري الراهن





ألبتكين دورسون أوغلو
كاتب وناشط سياسي ومؤسس ورئيس تحرير الموقع الإخباري "Yakın Doğu Haber" • تركية

المقدمة

شهد الاستعمار عبر القرون تحوّلات عميقة موازية لتحوّل المجتمعات نفسها. ففي القرن الخامس عشر، كان الشكل الكلاسيكي للاستعمار يقوم على السيطرة المباشرة، إذ كان المستعمرون إمّا يحتلّون بلدانًا مجهولة كليًا، أو يهاجمون دولاً ضعيفة لينهبوا مواردها. ومع بروز العصر الحديث، تغيّرت الظروف الدولية، وتبدّلت معها أساليب الاستعمار.

انتهى الشكل الكلاسيكي للاستعمار في القرن العشرين، وبرز نوعٌ جديدٌ فرضته شروط العصر. فقد أدّت التغيّرات الكبرى في النظام العالمي إلى تحوّلين أساسيين في طبيعة الاستعمار خلال القرن العشرين. التغيير الأول حصل بعد الحرب العالمية الأولى، حين انهارت الإمبراطوريات التقليدية ومعها النظام الاستعماري القديم. الدول المنتصرة في الحرب صاغت نظامًا عالميًا جديدًا، وابتكرت نموذجًا استعماريًا يتلاءم مع هذا النظام. في هذا النموذج، لم يكن المستعمرون يغزون الأراضي بأيديهم كما في السابق، بل بات الاحتلال يتمّ عبر "توافق دولي" شكلي تُشارك فيه القوى المحلية، بحيث تُمنح النخب الوطنية أدوارًا محددة في إدارة المستعمرة.

النظام العالمي بعد الحرب العالمية الأولى ونموذج الانتداب

ظهر النموذج الجديد في مؤتمر سان ريمو في نيسان/أبريل ١٩٢٠، حيث قامت بريطانيا وفرنسا - المنتصرتان في الحرب - بتقسيم أراضي الدولة العثمانية المنهارة بينهما. أُطلق على هذا الشكل الجديد اسم "نظام الانتداب"، أي أن الدولة المنتدِبة تتولّى إدارة الإقليم" إلى أن يصبح قادرًا على حكم نفسه". لكنّ الجهة التي تُقرّر مدى جاهزية الشعوب للاستقلال كانت هي نفسها الدولة المنتدِبة.

وفي هذا الإطار، أُعطي للقادة المحليين دور رمزي في الحكم. فقد نصّبت بريطانيا فيصل بن الحسين ملكًا على العراق، وعيّنت شقيقه عبد الله ملكًا على شرق الأردن.

كانت منطقة غرب آسيا بعد الحرب الأولى تحت هجمة استعمارية شرسة، لكنّ المقاومة المسلّحة كانت محدودة بثلاث تجارب فقط: حرب الاستقلال في الأناضول بقيادة مصطفى كمال عام ١٩١٩، وثورة العشرين في العراق بقيادة العلماء الشيعة عام ١٩٢٠، وثورة الشيخ عز الدين القسام في فلسطين عام ١٩٣٥. أمّا في سورية، فكانت هناك انتفاضات مسلّحة ضد الفرنسيين بقيادة سلطان باشا الأطرش وإبراهيم هنانو، لكنها لم تكن موجّهة ضد الاستعمار كظاهرة، بل جاءت في إطار الصراع بين النفوذ البريطاني والفرنسي، إذ قاتل هؤلاء دفاعًا عن مشروع فيصل الملكي المدعوم بريطانيًا، أي عمليًا من أجل أن تكون سورية تحت الانتداب البريطاني لا الفرنسي. إنّ ضعف المقاومة سهّل على القوى الاستعمارية إعادة رسم خريطة المنطقة بما يخدم مصالحها، بل واختراع دول جديدة بالكامل. ففرنسا استحدثت لبنان من جسد سورية، وبريطانيا أنشأت الكيان الصهيوني والأردن، لتجعل التدخل الاستعماري دائمًا.

الدولة اللبنانية التي هندسها الفرنسيون بتركيبتها الطائفية المؤلّفة من ست عشرة طائفة، كانت مصمّمة لتكون عاجزة عن الحكم الذاتي. لذلك ظلّت ساحةً للأزمات والحروب الأهلية. حتّى في الفترات التي جرت فيها انتخابات سلمية، كانت البلادُ عاجزةً عن تشكيل حكومة لأشهر طويلة، ما أبقاها عرضةً للتدخّل الخارجي المستمر.



الأمير فيصل في إيطاليا
١٠ نوفمبر ١٩٢٠.
• الصورة: أرشيف أوتو بيتمان (Otto Bettmann).

أما بريطانيا، فقد وعدت بتأسيس "وطن قومي" لجماعات يهودية جُمعت من أنحاء العالم، لتزرع كيانًا غريبًا عن نسيج المنطقة، وهو ما أصبح لاحقًا "إسرائيل". وكان واضحًا أن هذا الكيان سيتسبّب بحروب دائمة مع الشعب الفلسطيني وجيرانه. لقد صُمّم كلٌ من لبنان و"إسرائيل" بوصفهما مصدرين دائمين للصراع وعدم الاستقرار، بما يضمن استمرار الهيمنة الغربية.

النظام الدولي في الحرب الباردة ونموذج الاستعمار القائم على التحالف

استمر نموذج الاستعمار الذي نشأ بعد الحرب العالمية الأولى حتّى خمسينيات القرن العشرين. ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية في ١٩٤٥، نشأ نظام عالمي جديد اضطر معه أسلوب الاستعمار إلى التغيير. تحوّلت مكانة بريطانيا وفرنسا -اللتين كانتا قوى الاستعمار السابقة- إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبذلك انهارت الآليات المباشرة للاستمثال المعروفة سابقًا مثل نظام "الانتداب".

لم يكن صدفة أن بلدان الانتداب بدأت تكسب استقلالها بعد ١٩٤٥: فقد كان لتراجع القوة البريطانية والفرنسية في الحرب العالمية الثانية أثرٌ بالغ على قدرتهما على الإبقاء على نظم الانتداب. وفي المقابل، كانت الولايات المتحدة في بداية الحرب الباردة بحاجة إلى شركاء وقوى محلية يمكنها مواجهة النفوذ السوفييتي في العالم العربي والإسلامي. لذا كان لزامًا تغيير نموذج الاستعمار القائم بعد الحرب الأولى.

كانت ظروف الحرب الباردة حاسمةً في تشكيل نموذج الإمبريالية الأميركية. ففي هذا السياق، كانت الولايات المتحدة تتبوأ القيادة عوضًا عن القوّة الاستعمارية الغربية التقليدية، وكان المعسكر الغربي يرى في الاتحاد السوفييتي تهديدًا وجوديًا. في النموذج الجديد لم يعد الحديث عن "استعمار" أو "انتداب" بهذا الشكل: بل صار الحديث عن "حلفاء". اعتمدت الولايات المتحدة ما يمكن تسميته استراتيجية "التطويق"[١٠] لتطويق الاتحاد السوفييتي، وأنشأت عبر ذلك منظومات

أول هبوط لكولومبوس على شواطئ العالم الجديد
العمل الفني التصويري، بعنوان "أول هبوط لكولومبوس على شواطئ العالم الجديد، في سان سلفادور، جزر الهند الغربية، في ١٢ أكتوبر ١٤٩٢". أبدعه ديوسكورو بويبلا (١٨٣١-١٩٠١) عام ١٨٦٢، ونشرته شركة كوريير و إيفيز حوالي عام ١٨٩٣. النقطة المهمة هي أن النسخة المنشورة كانت نسخة مقلدة (نسخة طبق الأصل) وتختلف عن العمل الأصلي.



تحالفية مثل الناتو وCENTO وSEATO. هذا البحث عن تحالفات غيّر طبيعة علاقات القوى الإمبريالية مع البلدان التي كانت سابقًا مستعمرات. تُظهر أحداث مصر في الخمسينيات كيف تغيّرت العلاقات الإمبريالية في حقبة الحرب الباردة. النظام الملكي في مصر كان نتاجًا لنموذج الاستعمار القديم: لكن ثورة الضبّاط الأحرار عام ١٩٥٢، التي تمت بالتنسيق مع وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، أنهت فعليًا الهيمنة البريطانية في مصر. في الواقع، بريطانيا، التي تضررت بشدّة من الحرب العالمية الثانية، كانت مستعدة للتخلي عن دور القطب الإمبريالي لصالح الولايات المتحدة.

> كانت الولايات المتحدة في بداية الحرب الباردة بحاجة إلى شركاء وقوى محلية يمكنها مواجهة النفوذ السوفييتي في العالم العربي والإسلامي. لذا كان لزامًا تغيير نموذج الاستعمار القائم بعد الحرب الأولى

يحكي عميل الاستخبارات مايلز كوبلاند، الذي عمل مستشارًا في لجنة التخطيط لوزارة الخارجية الأميركية لشؤون الشرق الأوسط، خلفيات هذا التحوّل: ويذكر أن السفير البريطاني في واشنطن جلب رسالةً إلى وزير الخارجية الأميركي جورج مارشال في فبراير ١٩٤٧ مفادها أن بريطانيا لن تدفع بعد الآن ٥٠ مليون دولار كانت تدفعها كدعم للدول اليونانية والتركية لصدّ خطر التمرد أو الاحتلال الشيوعي، وأن على الحكومة الأميركية ملء هذا الفراغ وإلا فسيملأه الروس. وبعد نحو شهر من زيارة السفير البريطاني، صادق الكونغرس الأميركي في ١٢ مارس ١٩٤٧ على ما عرف لاحقًا بـ "مبدأ ترومان" الذي وضع الولايات المتحدة في طليعة مواجهة "التمدد الشيوعي" عبر دعم اقتصادي وعسكري للدول المهددة.



الشيخ عز الدين القسّام
(١٨٧١ - ١٩٣٥ ميلادية)، ابن عبد القادر بن مصطفى القسّام، كان من العلماء والخطباء الدينيين والقادة المناهضين للاستعمار والصهيونية، ومؤسس أول تنظيم للجهاد المسلح في فلسطين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين).

كيف تعاملت الولايات المتحدة، التي ورثت القيادة بموازاة التزامات بريطانيا المالية، مع الدول التي نالت استقلالها؟ يورد كوبلاند في مذكراته أن الحكومة الأميركية قررت احترام استقلال دول "العالم الثالث" طالما أن ذلك لا يمسّ مصالحها، وأنها سترتضي عن سلوك هذه الدول حتى الدرجة التي لا تعتبرها "غير مسؤولة" بحسب معاييرها[٢]. بمعنى آخر، على خلاف ما كانت تفعله بريطانيا وفرنسا، لم تكن الولايات المتحدة تنوي إقامة أنظمة وصاية مباشرة؛ بل كانت تعترف باستقلال الدول بينما تسعى إلى وضع نفوذها فوق قياداتها، وتوجيه القادة المثارين للتعاون، والعمل على الإطاحة بمن يعارض هذا التوظيف أو يتحالف مع السوفييت.

على أرض الواقع، نجح الضبّاط الأحرار في مصر عبر انقلاب مدعوم من وكالة الاستخبارات الأمريكية في الوصول إلى السلطة، لكن طبيعة علاقة الضبّاط الأحرار بالولايات المتحدة لم تكن تشبه علاقة الملك فاروق ببريطانيا. في أثناء أزمة القناة عام ١٩٥٦، اضطرّت بريطانيا وفرنسا و"إسرائيل"، تحت ضغوط من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، إلى الانسحاب من مصر بعد محاولتهم احتلالها؛ وعلى الرغم من أن عبد الناصر خسر عسكريًا، فإنَّ انسحاب القوى الأجنبية شكّل نصراً سياسياً له، إذ أمّنت لمصر الاستقلال الفعلي في إدارة قناة السويس بعد تأميمها.

عوضًا عن فرض وصاية صريحة، عرضت الولايات المتحدة على جمال عبد الناصر دورًا في النظام العالمي الجديد مقابل لعب دور في مواجهة السوفييت. لكن عبد الناصر رفض التخلي عن استقلالية سياساته، وامتنع عن أداء دور الوكيل الأميركي ضد السوفييت. بالمقابل استثمر عبد الناصر تناقضات الحرب الباردة ليمارس سياسةً مستقلة، حتّى وإن كان ذلك يعني الاحتفاظ بعلاقات مع الطرفين حين يلائم مصالح مصر.

أمّا مَن حافظ على هامش استقلاليته الحقيقية في علاقته بالقوى العظمى فكان أفراد مثل جمال عبد الناصر في مصر وحافظ الأسد في سورية، أما غالبية قادة المنطقة فاختاروا بناء علاقات مع الولايات المتحدة على وفق النموذج الذي اقترحته؛ وهو نموذج يوفر ضمانات لبقاء الأنظمة مقابل أداء الدور الذي تريده واشنطن. الدول العربية لم تعد مستعمرات أو ولايات وصاية بالمعنى القديم، بل باتت بلدانًا "مستقلة" شكليًا، لكنها كانت مستقلة بقدر ما سمحت لها أمريكا بأن تظلّ كذلك.

لمعرفة ماحلّ بمن قبلوا بأن يكونوا تبعًا لأميركا ومن رفضوا ذلك، يكفي مقارنة مصر بإيران بعد ١٩٧٩. لقد كان لِعبد الناصر علاقات مع كلّ من الولايات

المتحدة والاتحاد السوفييتي، لكنه لم يتحوّل إلى تابع لأيّ منهما: ظلّت مصر بلداً مؤثراً إقليميًا حتّى مع خسارتها لشبه جزيرة سيناء. أمّا إيران قبل ١٩٧٩ فكانت تُعدّ حليفًا وثيقًا للولايات المتحدة و"إسرائيل"، لكن هذا التقارب لم يجعلها لاعبًا إقليميًا مؤثرًا بالمعنى الذي يراه الأميركيون: بل حتّى أنها فقدت خلال عهد الشاه مطالبها التاريخية مثل مطالبتها بالسيادة على البحرين في زمن الصفويين. بعد عهد عبد الناصر، قدّمت مصر تنازلات سياسية (مثل اتفاقية كامب ديفيد مع "إسرائيل") مقابل استعادة سيناء، وبذلك تضاءل دورها الإقليمي القديم لأنّها قبلت صراحة علاقة التبعية الأميركية. إيران من جهتها، حتّى ثورة ١٩٧٩، كانت "شرطيّ" الولايات المتحدة في المنطقة؛ ولكن بعد الثورة رفضت نموذج التبعية الذي رُمي عليها، فيما قبلت مصر رسمياً ذلك النموذج. إيران التي واجهت منذ الثورة عشرات السنين من الحروب والحصارات والضغوط، طوّرت قدرات تكنولوجية وعسكرية محلية -في مجالات مثل الطاقة النووية والفضاء والصناعات الدفاعية- بفضل الحفاظ على منوال استقلالي أكثر وضوحًا.

وإن دولاً مثل مصر التي قبلت الانضواء تحت مظلّة السياسة الأميركية وجدت أبواب العالَم مفتوحة أمامها اقتصادياً، لكنها تحولت إلى اقتصاد معتمد على دول الخليج وغارق في تبعية أمنية لإرادة واشنطن. نفس الأمر ينطبق على بقية دول المنطقة التي أقرّت بعلاقات تبعية مع الولايات المتحدة: اقتصاداتها ريعية، غير مبنية على الصناعة الحقيقية والإنتاج، بل على تحويل الثروات إلى الولايات المتحدة وشراء الأمن منها. وفي الحقيقة لا تبيع الولايات المتحدة لهذه الدول "أمنًا" بالمعنى الحقيقي، بل تبيع لها "تصوّر التهديد": فهي التي تحدّد مَن هو العدو ومَن هو الصديق لتلك الأنظمة. ونتيجة لذلك، تُظَلِّل هذه الأنظمة إيران واليمن -الدول الداعمة للمقاومة وللقضية الفلسطينية- على أنها تهديدات، بينما تموّل سنويًا مشتريات أسلحة بمليارات الدولارات من الولايات المتحدة.



ثورة العشرين
صورة لعلماء الشيعة في الثورة ضد الاستعمار البريطاني في العراق (ثورة العشرين)/ عام ١٩٢٠.

النظام أحادي القطب وتحديث الاستعمار الكلاسيكي

إنَّ انهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة أنتجا نظامًا عالميًا جديدًا، لكنّ هذا النظام لم يكن مبنيًا على توافق قوى عظمى كما كان سابقًا: إذ تحوّلت الثنائية القطبية إلى نظام أحادي يقوده الأميركيون. ومع هذا التحوّل تغيّرت كذلك أساليب التدخّل الإمبريالي الأميركية. وفي العالم أحادي القطب صار من الممكن إعادة مزج نماذج الاستعمار السابقة وتطبيقها بطرق مباشرة أكثر: الانقلابات، الفوضى الداخلية، وحتى التدخّل العسكري المباشر أصبح أسهل وأوضح.

أوضح تجلٍ لهذا الأسلوب كان احتلال العراق عام ٢٠٠٣، الذي كان تحديثًا لنموذج الاستعمار الكلاسيكي: إذ انتهكت الولايات المتحدة آليات القانون الدولي التي أفرزها القرن العشرين وشنّت غزوًا أحادي الجانب. كما أن استخدام الولايات المتحدة للعراق كقوة وكيل ضدّ إيران لم يوفّر لصدّام الحماية أو الاستقرار اللازم: فالغزو أظهر أن الاعتماد على وكيل خارجي لفترة طويلة لا يحمي النظام من الانهيار.

حاولت الولايات المتحدة في العراق أن تنصّب إدارة وصاية أحادية على غرار نموذج الانتداب، مزيجًا من خصائص الاستعمار الكلاسيكي ونموذج الانتداب، وشرعت بنشر مشروع استعماري هجين حمل اسم "مشروع الشرق الأوسط الكبير"[٣] وهدفت الولايات المتحدة إلى تصديره عبر المنطقة. خلال قمّة مجموعة العشرين في سِي أيلاند في يونيو ٢٠٠٤ وزّعت الولايات المتحدة أدوارًا بين حلفائها لتنفيذ هذا المشروع على مستوى الإقليمي.

لكنّ مقاومة الشعب العراقي وتشكّل قوى سياسية تحت قيادة شخصيات مثل قاسم سليماني وأبو مهدي المهندس أسقطت النموذج الذي أرادته واشنطن. وبسبب عجز الولايات المتحدة عن إقامة نموذجها في العراق اضطرت إلى إعلان سحب قواتها من المدن الكبرى في عام ٢٠٠٩ ثمّ من كامل العراق عام ٢٠١١، ليصبح مشروع الشرق الأوسط الكبير في الحقيقة منهارًا ومؤجّلاً.



مصطفى كمال
مصطفى كمال في عام ١٩١٨، قائد مجموعة جيوش يلديريم (Yıldırım) وباور فخري للسلطان.

من مشروع الشرق الأوسط الكبير إلى الربيع العربي

النموذج التحالفي الذي أسسته الولايات المتحدة في عهد الحرب الباردة أعاد نفسه -بنسخة مُعاد ترتيبها- بعد انهيار مشروع الشرق الأوسط الكبير ، وظهر ذلك بشكل واضح في أحداث ٢٠١١ وما تلاها. ساق المشروع، الذي سعى لتوطيد قيادة "إسرائيل" الإقليمية، خطة تقويض بُنى الدول في المنطقة لتحويلها إلى كيانات منكفئة أو دول فاشلة. منذ ٢٠٠٥ بدأ استثمار الفِئات الطائفية والهوية المذهبية كأداة لتفتيت حلفاء معادين لمخطط الشرق الأوسط الكبير ، ومع اندلاع التحركات سنة ٢٠١١ تحوّل الدفّة نحو رسم نماذج من الحروب بالوكالة.

في سياق التدخّل بالشأن السوري، استُخدمت عشرات الآلاف من المقاتلين الذين جُندّوا من مناطق متعددة حول العالم، ونُقلوا إلى سورية بدعم من دول إقليمية وفي تنسيق أميركي بحسب كثيرٍ من الروايات. كثيرٌ من هؤلاء ينتمون إلى فصائل تتبنّى إيديولوجيا القاعدة وقد تمّ تنظيمهم عبر قواعد في الخليج وتركيا والأردن، ومن ثم تمّ تسليحهم وتمويلهم بالتنسيق مع الولايات المتحدة وحلفائها الإقليميين.

هكذا ظهر نموذجٌ جديد: مشروع إقليمي بقيادة "إسرائيل"، تُنفّذ عناصره دول المنطقة ذاتها، بينما تقوم الولايات المتحدة بدور قائد الشبكة التنسيقية غير المكلّفة من حيث الموارد البشرية أو المالية. باختصار، واشنطن اقتصرت على توجيه وإدارة التحالفات بدلًا من خوض الحروب بنفسها.

نمط من أنماط النظام الإقليمي تحت قيادة "إسرائيل" و الجولاني

النموذج السوري تحت قيادة مَن يُطلق عليه "الجولاني" يمثّل أضعف وأرخص أشكال الاستعمار في التاريخ الحديث. هذا النموذج المدمج -الذي يجمع خصائص النماذج السابقة- قائم على علاقة الوكالة ذات مرحلتين: مرحلة تسليح وتنظيم القوى العميلة وتمويلها وتدريبها، ثمّ مرحلة توظيف هذه القوى لفرض السيطرة الميدانية على الدولة المستهدفة. بهذا الأسلوب أنهكت الولايات

المتحدة البنى الأساسية لِلدولة السورية دون أن تتحمل عبءَ الاحتلال المباشر. بل على العكس جنَتْ أرباحًا مالية من تجارة السلاح والإشراف على نهب موارد سورية من نفط وحبوب عبر وكلائها الميدانيين.

هكذا أعطى النموذج صورةً واضحة لما قد تعنيه "القيادة الإسرائيلية" في إعادة تشكيل مستقبل المنطقة: نظام إقليمي تقوده "إسرائيل"، وتبقى دول المنطقة هي مُنفّذته أو مالحته الشرعيةَ المحليّة. فترة الحرب بالوكالة التي قادتها الولايات المتحدة من ١٨ تموز/يوليو ٢٠١٢ حتّى ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤ بيّنت أنّ مستقبل سورية سيتمّ تحديده عبر شبكات العلاقات الوكيلة وليس عبر حل مركزي تقليدي. لقد مَنحت الولايات المتحدة -عبر وكلائها- أدوارًا لبناء مستقبل المناطق المحتلة/المتحكّم بها.

صحيح: يتم استقبال الجولاني، قائد تنظيم القاعدة المُدرج على قائمة الإرهاب العالمية، بحفاوة وود من قِبل الرئيس الأمريكي دونالد ترامب، بوساطة من رجب طيب أردوغان ومحمد بن سلمان [١]. كما يُدعى إلى البيت الأبيض من قِبل دونالد ترامب الذي يتباهى بأنه الرئيس الأمريكي الأكثر مساعدة لإسرائيل [٢]. أما ديفيد بتريوس، قائد القيادة المركزية الأمريكية (CENTCOM) الذي اعتقله في العراق عندما كان الجولاني عنصراً في تنظيم القاعدة، فبات الآن "يُعرب عن قلقه بشأن صحته الشخصية ويسأله عما إذا كان ينام بما فيه الكفاية" قائد تنظيم كان يُدرَج على قوائم "الإرهاب" عالمياً باسم " القاعدة" (المذكور في النص الأصلي)، يُستقبل بترحاب ودفء في البيت الأبيض بمقابلات وساطة من شخصيات إقليمية مثل رجب طيب أردوغان ومحمد بن سلمان[٤]، ويُدعى للقاءات مع دونالد ترامب[٥]، الذي يتباهى بكونه أكثر الرؤساء دعماً لإسرائيل. حتّى ديفيد بترايوس، القائد السابق لقيادة الولايات المتحدة المركزية[٦] والذي أوقفه كجندي القاعدة في العراق، صار اليوم يعرب عن "قلقه على صحته الشخصية" ويسأل إن كان ينام جيدًا: تصويرٌ يعكس تغيّر المواقف والمؤسسات[٧].

ونستون تشرشل و مايلز كوبلاند الابن
يقف السياسي والصحفي البريطاني المحافظ ونستون تشرشل (١٩٤٠-٢٠١٠) على اليسار مع رجل الأعمال وخبير الاستخبارات الأمريكي مايلز كوبلاند الابن (١٩١٦-١٩٩١) خارج مبنى المحاكم الملكية للعدل في ستراند بلندن، بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠.





مايلز كوبلاند
من وكالة المخابرات المركزية (CIA)، ٨ مايو ١٩٨١.

لماذا تمنح الولايات المتحدة دور تصميم مستقبل سورية لقائد مرتبط بقاعدة، التنظيم الذي اتُّهم بتدبير هجمات ١١ سبتمبر؟ كيف تثق به؟ الجواب يكمن في الأدوات: تنظيمات مثل القاعدة وتنظيماتها الفرعية تم إنشاؤها أو تُستخدم كـ "مضاد" لتنظيمات محور المقاومة بواسطة أجهزة المخابرات الأميركية والسعودية. لقد وظّفتها وكالة الاستخبارات الأمريكية في ثمانينيات القرن الماضي مباشرةً، ثم بواسطة أجهزة استخبارات حلفاء لاحقًا. ولأن الجولاني يظهر بمظهر قابل للتشكيل والتوجيه (كما يجسدونه من خلال شعاراته ومظهره العام)، فقد اعتُقد بأنه يمكن منحه دورًا في إعادة تشكيل سورية وفق خرائط المصالح المصمّمة من قبل قوى خارجية.

هل ستبقى سورية -كما هي الآن- دولة مفككة و"فاشلة" فعليًا؟ أم ستُقسَّم رسميًا؟ أم ستعود إلى حكم مركزي موحّد كما قبل ٢٠١١؟ هذه ليست أسئلة يمكن للجولاني وحده أن يجيب عنها؛ بل ستكون الإجابات مرهونةً بقيادة أميركية متآمرة وتنسيق الوكلاء على الأرض.

لماذا تمنح الولايات المتحدة دور تصميم مستقبل سورية لقائد مرتبط بقاعدة، التنظيم الذي اتُّهم بتدبير هجمات ١١ سبتمبر؟ كيف تثق به؟ الجواب يكمن في الأدوات: تنظيمات مثل القاعدة وتنظيماتها الفرعية تم إنشاؤها أو تُستخدم كـ "مضاد" لتنظيمات محور المقاومة بواسطة أجهزة المخابرات الأميركية والسعودية

الاستعمار الطوعي تحت قيادة "إسرائيل"

صُمم مشروع الشرق الأوسط الكبير لإضفاء حرية حركة تامة لـ"إسرائيل" في المنطقة ومنحها زعامةً إقليمية مُطلَقة؛ وهذه الرؤية وجدت طريقها للتنفيذ عبر ما جرى في سورية. لذا يُنظر لتاريخ ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤ كتاريخ رمزي في تأسيس نظام إقليمي بقيادة "إسرائيل". في ذلك التاريخ، قُدِّمَت سورية -الدولة العربية الوحيدة التي كانت تدعم المقاومة في لبنان وفلسطين- كـ"هدية" لقائد كان يُصنّف سابقًا على قوائم القاعدة والجماعات الدموية، وهو أبو محمّد الجولاني. إن هذا التاريخ لا يحمل دلالة رمزية فحسب، بل يُنظر إليه على أنه لحظة ولادة نظام إقليمي جديد.

تجليات رمزية لِما ذُكر في أعلاه تشمل: فتح المجال الجوي أمام "إسرائيل"، بحيث صار بإمكانها التحرك كما تشاء من قواعد مثل نوفاتيم وصولاً إلى طهران والدوحة؛ وصارت أراضي لبنان وسورية بحكم الأمر الواقع مسرحًا يمكن للقوات البرية الإسرائيلية التحرك ضمنه كما هو الحال في غزة والضفة الغربية. إنَّ ضربة "إسرائيل" للدوحة أثبتت أن الدول التي كانت تعتبر من "الوسطاء" أو موالية -وليست فقط خصومًا مثل إيران- لم تَعد في مأمن. وبعد سقوط سورية كقوة قادرة على الدفاع عن نفسها، لم يعد هناك حاجز عسكري أو سياسي يمنع "إسرائيل" من توجيه ضربات إلى الرياض أو عمّان أو حتى دبي في المستقبل، لأنَّ النظام الإقليمي التابع لإسرائيل يعني حيازة إسرائيل لإرادة متحرّرة تمامًا وحرية عملية مطلقة.

في النظام الجديد، يمكن تفتيت كلّ دولة تستهدفها "إسرائيل" إلى جماعات ضيّقة الهوية تتنازع على بقية الأرض، ومعها تصبح تلك الدول "دولًا فاشلة". والمفارقة أن هذا "النجاح" لم يتحقق بفعل قدرات "إسرائيل" أو الولايات المتحدة وحدهما؛ بل هو نتاج عمل عقدي ومخطّط ومجهود استمر عشرات السنين من قِبل دول إقليمية أيضاً.

في عام ٢٠٠٤، عندما كانت أمريكا تحاول بناء دولة نموذجية في العراق لـ"مشروع الشرق الأوسط الكبير" (BOP)، أطلقت دول المنطقة على محور المقاومة اسم "الهلال الشيعي". وبدأت هذه الدول حرباً دعائية باستخدام حجج طائفية لعزل المقاومة المناهضة لإسرائيل. نجحت وسائل الإعلام العربية في إقناع الرأي العام بأن التهديد للعالم العربي ليس إسرائيل، بل إيران. وبفضل تأثير هذه الدعاية الثقافية التي استمرت بكثافة حتى عام ٢٠١١، بدأت عشرات الآلاف من المسلحين يتدفقون إلى سورية والعراق من جميع أنحاء العالم.

الدول التي نصحت المقاومة الفلسطينية بالانسحاب من السلاح والسعي للحل السياسي، هي نفسها التي طالبت الولايات المتحدة بالتدخل العسكري في سورية وتسليح الملايين

من المقاتلين. ونتيجة لذلك، أعيد إحياء تنظيم القاعدة في العراق الذي كان على وشك الاختفاء عام ٢٠١٠، ليظهر لاحقًا في ٢٠١٤ كتنظيم الدولة الإسلامية (داعش) ويعلن "خلافته". هذا المشروع حطّم البنى العسكرية والاقتصادية للعراق وسورية وغيّر من توازناتهما الديموغرافية. ولولا تدخل قوات محور المقاومة بقيادة الجنرال قاسم سليماني لما تأخر سقوط العراق عن سورية بعشر سنوات؛ وكان من الممكن أن يسقط العراق قبل سورية لو لم تكن هناك هذه المقاومة. وفي سورية لم ينهزم الجيش بتلك الخسارة العسكرية المباشرة فحسب، بل تعرّض لتآكل داخلي مدفوعًا بشروط خلقتها دول إقليمية، وكانت النتيجة تسليم أجزاء من البلد لقيادات مرتبطة بتنظيمات مثل القاعدة. ولهذا السبب يطلق البعض على هذا النموذج تسمية "الاستعمار الذاتي"، أي نموذج يقوم على جعل الدولة أن تساهم، بصورة أو بأخرى، في إخضاع نفسها عبر شبكات قوى محلية ووكلاء أجانب.

الهوامش:

1. Rimland
2. Miles Copeland. Devletler Oyunu, Bir CIA Ajanının Anıları. çev. Bedirhan Muhib. İstanbul: Nehir Yayınları, 1995., s. 28-21.
3. (BOP)
4. Al Jezeera, 14 Mayıs 2025, Trump meets Syria's al-Sharaa, eyes normalisation of ties with Damascus
5. Fox News, 2 Kasım 2025, Syria's interim President al-Sharaa expected to meet with Trump in first visit by Syrian leader to White House
6. (CENTCOM)
7. Al Jezeera, 25 Eylül 2025, Syrian President al-Sharaa sits down with US general who arrested him



أبو محمد الجولاني يتوسط اثنين من عناصر جبهة النصرة.
المصدر: صدى البلد

تحول مفهوم الوطنية في ظل الاســـــتعمار الجديد

"قراءة في تحوّلات الهوية الوطنية السورية وتأثير العوامل الجيوسياسية الخارجية في ظلّ الاستعمار الجديد"





أحمد الدرزي

كاتب ومحلل سياسي سوري، خبير بالشؤون الاقتصادية • سورية

المقدّمة

شكّل انهيار النظام السوري السابق منذ تاريخ ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤ زلزالًا جيوسياسيًا عميقًا، لم تشهد له منطقتا غرب آسيا والعالم العربي مثيلًا بحجم تداعياته عليهما، بفعل الصدوع التي تشكلت في المنطقتين، وهو حدث لم ينته بعد، فحجم الارتدادات مازالت مستمرة حتى الآن، ولا يمكن التكهن بنتائجها النهائية حتى الآن، فالزلزال السوري بحكم ارتباطه بالصراع الإقليمي والدولي شديد التناقض والتنابذ لم ينتهِ بعد، هذا إذا لم يتطور في الأيام والأشهر والسنوات القادمة، إلى أن يصل هذا الصراع الكبير إلى نهاياته بانتظار ظهور صراعات جديدة بأشكال وألوان مختلفة.

لم يكن انفجار الصراع في سورية عام ٢٠١١ مفاجئًا لذوي البصيرة التاريخية المدركين لأهمية الجغرافيا السياسية لسورية، ودورها في صناعة التاريخ السوري كظل لها وفقًا لتعبير شارل ديغول: "إذا أردت أن تفهم السياسة فعليك أن تبسط الخارطة، ولتعلم أن التاريخ ظلٌ للجغرافيا"[١]، فخصوصية الجغرافيا السياسية لسورية تأتي من ثقلها الأساسي في بلاد الشام التي تشكل جغرافيا مشتركة لأهلها المتنوعي المشارب خلال أكثر من ٥٠٠٠ عام، وعندما نتحدث عن سورية فإننا نتحدث عن بلاد الشام من الناحية التاريخية والجغرافية، وما ينطبق عليها ينطبق على بقية الأطراف (لبنان وفلسطين والأردن) وتختزلهم بها كأم للجميع، وهي ذات طبيعة تغلب عليها السهول ذات الأفق الواسع المديد، محاطة بقوى إمبراطورية تتصف بطبيعتها الجبلية القاسية من الشمال ذات الدولة المركزية (الأناضول) والصحراء المترامية في الجنوب (الجزيرة العربية) الباحثة عن دور إمبراطوري، وبدولة نهرية صحراوية مركزية في الجنوب الغربي (وادي النيل)، بالإضافة إلى الشرق السهلي (بلاد الرافدين) المتاخم للهضبة الإيرانية ذات الأبعاد والأدوار الإمبراطورية، ما جعلها تصاب "بهشاشة الجغرافيا السياسية"[٢].

هذه الهشاشة انعكست على البنية النفسية الثقافية لأهلها، فاهتموا بأولوية التجارة، وأبعدتهم عن بناء دولة مركزية ذات بُعد إمبراطوري بكل تاريخها المديد، وجعل من هذه الجغرافيا مركزاً للصراعات الإمبراطورية ومفتاحًا لتحديد هوية الإمبراطورية المسيطرة على منطقة غرب آسيا بشكل أساسي، وتطور الأمر بعد ظهور الإمبراطوريات الغربية في العالم القديم ومن بعده العالم الجديد، ولتستمر سورية بلاد الشام كمركز للصراعات الإقليمية بامتداداتها الدولية، بفعل التنوع الهوياتي داخلها: (ديني-طائفي-إثني...).

كان لهذا التنوع الشديد بامتداداته العابرة للحدود دورًا مهمًا في تحديد مفهوم المقاومة قديمًا وحديثًا، وغالبًا ما كان هناك انقسامًا حول هذا المفهوم حتى داخل الهوية الفرعية الواحدة، على الرغم من الاشتراك الجزئي بين الجميع بما يتعلق بمقاومة من هم خارج منطقة غرب آسيا التي تضم مصر وادي النيل معها (شخصية مصر، جمال حمدان)، وظهر هذا الانقسام بشكل حاد جدًا في كثير من الأحيان، حيث برزت قمة الفداء بخروج وزير الدفاع السوري الأول يوسف العظمة لمواجهة القوات الفرنسية بقيادة الجنرال الفرنسي غورو ومن ثم استشهاده في المعركة، لننتقل إلى النقيض من ذلك باستقبال بعض وجهاء عائلات أهل دمشق للجنرال الغازي لبلدهم.

> فالزلزال السوري بحكم ارتباطه بالصراع الإقليمي والدولي شديد التناقض والتنابذ لم ينتهِ بعد، هذا إذا لم يتطور في الأيام والأشهر والسنوات القادمة

وبالرغم من ذلك فإن قضية فلسطين كان لها تأثير مختلف على مجمل السوريين منذ ثورة عز الدين القسام في فلسطين عام ١٩٣٦، في تبادل مهم للأدوار بين الشيخ عز الدين القسام الذي انطلق من مدينة جبلة السورية إلى فلسطين، وبين عزة الدروزة وقيادات فلسطينية التي اختارت دمشق مركزًا لها[٣]، فتحولت دمشق إلى مركز قيادة الثورة وتأمين الدعم اللوجيستي لها بقيادة عزة الدروزة

الفلسطيني الذي اختار دمشق كأفضل بيئة داعمة للثورة، ومن بعد الثورة جاءت النكبة عام ١٩٤٨ التي دفعت بأفواج من السوريين من أغلب المناطق السورية من عرب وكرد وترك ومسلمين بأغلب طوائفهم ومسيحيين للتوجه نحو فلسطين لمواجهة المشروع الصهيوني، بالرغم من تواطؤ المسؤولين العرب القديم في بلاد الشام ومصر مع الوكالة اليهودية العالمية.

> عندما نتحدث عن سورية فإننا نتحدث عن بلاد الشام من الناحية التاريخية والجغرافية، وما ينطبق عليها ينطبق على بقية الأطراف (لبنان وفلسطين والأردن) وتختزلهم بها كأم للجميع

تحولات مفهوم المقاومة

وبالرغم من كل التواطؤ الرسمي العربي، والنكبات التي حلّت بالحروب العربية الإسرائيلية، فإن القضية الفلسطينية بقيت مركز استقطاب لكل أشكال المقاومة لدى غالبية السوريين، التي تجلّت بأسمى أشكالها في حرب تموز ٢٠٠٦، حيث أتيحت الفرصة للسوريين لأنْ يُعبّروا عن موقفهم من مقاومة الكيان الصهيوني، فكان موقفهم العام أشبه بالأسطورة التي من الصعب أن تتكرر زماناً ومكاناً. فكان هذا التعبير عن تجذر مفهوم المقاومة وعياً والتزاماً واندفاعاً هو الأبرز بتاريخ السوريين المديد، إلى أن أتى الاجتياح الغربي بحركات الربيع العربي الذي بدأ بتونس ٢٠١٠ ليضع ركابه في سورية، معلنًا عن بدء تدمير "الدولة السورية المستحدثة" بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ والتي فشلت في بناء عقد اجتماعي حقيقي يعكس التعددية الغنية للمجتمع السوري.

انشغل السوريون ببعضهم الآخر في حرب أهلية بدأت في منتصف آذار/مارس ٢٠١١، بحراك توفرت أرضيته نتيجةً للاستئثار بالسلطة والثروة، دون إدراك بالبدايات لدور العامل الغربي الإسرائيلي بالتحكم بمساراته التي لم تنتهي بعد، وساعد على ذلك إصرار السُلطة السورية على السير بمطلق الاستئثار، بل تحوّل إلى النموذج الأكثر تغوّلاً به، فكان الاستقطاب على أشده بين الطرفين، ما ساهم بتأجيج الحرب الأهلية بامتداداتها الإقليمية والدولية، والسير نحو المزيد من التدمير الذاتي والموضوعي على المستويات الاجتماعية والاقتصادية، وبالمحصلة هو لم يكن مجرد امتداد لـ"ربيع عربي"، بل انفجار لتراكمات قرن من الأزمات، وعودة الهويات الأولية ما قبل الوطنية (طائفية، عشائرية، إثنية، مناطقية) دليل على فشل مشروع الدولة الوطنية، ما حوّل الصراعَ إلى حرب بالوكالة بما يؤكد هشاشة الكيان السياسي السوري.

هنا برز الانقسام السوري المتعدد والمبعثر بشكل واضح فأصبح مشروع المقاومة أداة تبريرية للسُلطة السورية في مواجهة أعداء الداخل والخارج، في حالةٍ أقرب للشيزوفرينيا (انفصام الشخصية)، باعتبار أن المقاومة لا تنفصل عن منظومة القيم الأخلاقية، التي تفرض على متبني مشروع المقاومة عدم تناقض السلوك المقاوم خارجيًا مع السلوك الداخلي، والذي ينبغي أن يكون فيهما السلوك موحّدًا، وبنفس الوقت كان الطرف المتعدد المواجه للسُلطة بدوره قد انقلب على المسار العام للسوريين برفضه لمسألة المقاومة، واعتبارها مؤجلة بالحد الأدنى لحين إسقاط السُلطة، ولكن كان هناك طيفًا واسعًا قد أسقط مسألة المقاومة واعتبرها مشروعًا للسُلطة يجب إسقاطها معها، وذهب البعض بعيداً بالفرح حين يضرب الكيان الصهيوني قوى المقاومة في فلسطين ولبنان وسورية والعراق، وهو من الناحية العَمَلية اعتبر هذا البعض أن العلاقة مع "إسرائيل" ضرورة للخلاص من النظام السياسي ومجيئهم مكانه.

المقاومة بعد انهيار النظام السابق

شكّلت المقاومةُ قبل الانهيار والسقوط دورًا وظيفيًا مهمًا خلال ٥٤ عاماً من منطلق معادلة أساسية: "ثمن المقاومة أقل من ثمن الاستسلام"، مع الإدراك بأن رفع راية المقاومة يشكل دورًا واقيًا وحاميًا للنظام السياسي أمام التدخلات الإقليمية والدولية في بنى النسيج الاجتماعي المتنوع داخل سورية، فكان هناك مسارين متناقضين للسياستين الخارجية والداخلية. تميزت السياسة الخارجية بالانخراط المحسوب بدقة في محور



كتاب "هندسة الهوية الوطنية.. سورية المستقبل" بقلم محمود باكير: استخدم المؤلف في هذا الكتاب أدوات التفكير الرياضي والمنطق وتحليل البنى لإعادة تعريف الهوية الوطنية. وهو ينظر إلى الهوية الوطنية كبنية رياضية معقدة تتطلب تحقيق الاتساق والتوازن.

المقاومة، وما يعنيه ذلك من حماية ودعم من قبل المحور، ما جعل من سورية ذات الأهمية الجيوسياسية الأهم في تحديد مصير خرائط منطقة غرب آسيا في إطار الصراع الدولي الكبير في هذه المنطقة وانعكاسات ذلك عالميًا، فتحوّلت سورية إلى واسطة العقد بين أطراف المحور، ما أكسب سورية دورًا إقليميًا أكبر من السياق التاريخي المعتاد كساحة صراع الإمبراطوريات، لم يترافق بالسياسات الداخلية من خلال عقد اجتماعي حقيقي يستند إلى قيم المواطنة، ما ساعد المشروع الغربي بقيادة الولايات المتحدة من إسقاطه بسهولة بعد إزاحة الغطاء الدولي الروسي بتوافق غريب بين القوتين.

شكّل الانهيار المفاجئ السريع خللًا كبيرًا في توازنات القوى على مستوى خرائط غرب آسيا، بما أكسب الكيان الصهيوني فرصةَ استباحة كاملة للساحة السورية، والعمل على المزيد من الإنهاك والتدمير لكيان الدولة بانتظار اكتمال عملية التفتيت الكاملة، بالإضافة للتغوّل على كل الأطراف الإقليمية بما في ذلك تركية التي ساهمت بالدور الأكبر بطي مرحلة سياسية للسوريين وتظهير مرحلة جديدة.

انقلبت الأدوار بعد سقوط النظام السياسي السابق، وخاصةً بعد الأحداث الدامية في الساحل السوري في ٧ آذار/مارس التي تسببت بمجازر ومقتل أعداد كبيرة من المدنيين غير محددة الأرقام نهائيًا حتى الآن، على أيدي مجموعات مسلحة مؤيدة للسلطة الجديدة، ما شكل صدمة كبيرة للداخل السوري وخاصةً لأهل الساحل السوري ومن السوريين الذين يحلمون بوطن جديد متسامح، وتعززت الصدمة من جديد في منطقة جبل العرب، التي بدأت بـ١٢ تموز/يوليو ٢٠٢٥ بعد مجزرة جديدة بحق



سوق الحميدية
يسير الناس في سوق الحميدية بالمدينة القديمة في دمشق بتاريخ ١١ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٢٤.
● المصدر: وكالة الصحافة الفرنسية.

الدروز ضمن محاولة إعادة السيطرة على محافظة السويداء وتوحيد سورية.
تشكلت ردود أفعال ارتكاسية لدى شرائح واسعة في مناطق الساحل السوري وجبل العرب، بالإضافة إلى مناطق انتشار الكرد قبلهم بسنوات ببحث عن حماية دولية و إقليمية، فتشكل اتجاه كامل لدى الدروز بتبني العامل "الإسرائيلي" على وهم أن يحمي الدروز مما يعتبرونه تهديدًا طائفيًا دمويًا لهم يريد إبادتهم، كما بدأ تيار جديد بالتشكل بين العلويين يرى المظلة "الإسرائيلية" هي التي يمكنها أن تؤمّن حماية أهل الساحل، و إن كان مازال محدودًا، ولكن الخيار "الإسرائيلي" هو أحد الخيارات المطروحة، بالإضافة إلى مركز القرار السياسي العسكري للكرد الذي يرى أن القضية الكردية لا يمكن أنْ تُحل إلا بربط المصالح الكردية بالمصالح "الإسرائيلية" والأمريكية، ويضاف إلى الأطراف الثلاثة هناك موقف إعلامي ترويجي لمجموعة من الأشخاص المستقلين من ذوي التأثير الإعلامي في المدن الكبرى، والذين يرون أننا نعيش الآن في العصر "الإسرائيلي" الذي أصبح واقعًا لا يمكن تجاوزه، ولا بد من التعاطي معه بواقعية، وهذه التوجهات الأربعة تعزز بدورها الانقسام السوري حول النقطة الأساسية المتعلقة بالجواب عن السؤال الأهم: "من هو العدو ؟"

> بالرغم من كل التواطؤ الرسمي العربي، والنكبات التي حلّت بالحروب العربية الإسرائيلية، فإن القضية الفلسطينية بقيت مركز استقطاب لكل أشكال المقاومة لدى غالبية السوريين، التي تجلّت بأسمى أشكالها في حرب تموز ٢٠٠٦

أصبح النظام السياسي الجديد أمام استحقاقات لم يكن يتصورها قبل أن يستلم السلطة، فهو الآن أمام تحديات داخلية من الصعب أن يتعاطى معها وفقًا لتجربة محدودة وبظروف إقليمية ودولية مختلفة عن مرحلة إدلب، وخاصةً بعد أن فقدت سورية معظم أوراقها الضاغطة في مواجهة الضغوط الإقليمية والدولية، وخاصةً الضغوط "الإسرائيلية" الأمريكية المدمرة لما تبقى من وطن سوري. وأهم هذه الأوراق على الإطلاق هي ورقة الانخراط في مقاومة المشروع الصهيوني، فضلًا عن التحديات الداخلية الهائلة التي لا يمكنها التعاطي معها بحنكة ومرونة و إيجابية لنقص الخبرة من جهة وبسبب الخلفية الدينية الثقافية ذات الطابع الإقصائي وغير المنسجمة مع البنية الدينية التقليدية ذات الطابع الأشعري الماتريدي الصوفي. وعلى رغم من سيطرة الإسلاميين على السلطة في سورية وهم الذين يحملون فكرًا جهاديًا لا يمكنه إلا أن يكون بمواجهة مع المشروع الصهيوني قريبة أم بعيدة، فإنهم أمام تحديات داخلية وخارجية من الصعوبة بمكان أن يتجاوزوها، وخاصةً بعد التشابك الكبير بين التحديات الداخلية والخارجية غير القابلة للفصل بينهما وهي بحاجة لتبيان واضح.

التحديات الداخلية

تُشكّل التحديات الداخلية العقبة الأساس في بناء المشروع الوطني وفقاً للهوية الوطنية السورية التي أثبتت الحرب الأهلية المديدة أنها كانت أشبه باليوتيوبا وحلم لم يتحقق، وهذه التحديات هي التي حولت "الوطن" من حقيقة عضوية إلى فكرة هشة، ورغم التحول السياسي الذي حصل فإنها أصبحت أكثر تأثيرًا من أي مرحلة سابقة، ويمكن تلخيصها بالآتي:

١. الفساد الذي دمر الطبقة الوسطى وخاصةً خلال فترة الحرب، مع التأكيد على أن التحولات الاقتصادية التي بدأت عام ٢٠٠٠ والتي ركزت على تساقط الأرباح وحصيلة الموارد على حلقة المستأثرين بالسلطة وأحبابهم المائة، هي التي بدأت بدق المسمار الأول في نعش الطبقة الوسطى[٤]، إلى أن جاءت الحرب الأهلية التي ثبتت المسمار الأخير في هذا النعش والإعلان عن موت هذه الطبقة، مع العلم أي مشروع وطني لا يمكن أن يُبنى على الأقلية الثرية، ولا على الأقلية الفقيرة، وهي ستبقى العمود الفقري لأي مشروع وطني جديد، وقسم كبير من الطبقة الوسطى التي تمتلك خبرات وكفاءة عالية قد تشتّت في أصقاع الأرض ولا يمكنها أن تعود في ظل استمرار أسباب تشتتهم. وكنتيجة لهذا الفساد المدمر تحوّل الاقتصاد إلى اقتصاد كفاف وصراع بما يعزز الولاءات

الأولية لكل طرف من الأطراف، مع تهميش المناطق والأرياف لصالح السلطات المتناقضة والمستمرة حتى الآن، ما جعل أبناء هذه المناطق والأرياف وقودًا للحرب الأهلية، ليظهر الصراع بشكل طائفي، رغم أن عمقه هو صراع ريفي ريفي على السلطة والثروة، على العكس من الحرب الأهلية الأولى ١٩٧٩-١٩٨٢ التي كانت صراعًا "ريفي مدني".

٢. انهيار المؤسسات الوطنية

تحول الدولة إلى "مافيا منظمة"، فتحولت مؤسسات الدولة إلى أدوات للسيطرة والاستبعاد بدلاً من الخدمة والتمثيل، والذهاب نحو خصخصة الوطن، حيث أصبح ملكًا لفئات محددة على حساب الآخرين، ما أدى لانهيار التعليم بمستوياته الثلاثة: (الأساسي-الثانوي-الجامعي) الضروري كإحدى الأدوات الرئيسية لبناء المواطنة المشتركة إذا لم يكن أهمها على الإطلاق.

ومن أهم كوارث التعليم هو تعدد المناهج التعليمية وفقًا لنتائج السيطرة وتبعثر السوريين، فبرز الصراع على الرواية التاريخية، إذ ذهبت كل جماعة لأن تروي تاريخ سورية بشكل مختلف ومن منظور هوياتي ضيّق ونافي للأطراف الأخرى، فتحوّل التاريخ من إرث مشترك ساهمت بصنعه كل الجماعات السورية إلى سلاح في الصراع المستمر حتى الآن جماعات الهويات ما قبل الوطنية على شكل "فوضى الهويات"، ساعد بذلك تشكل ذكريات مختلفة بين السوريين بعد الحرب.

٣. التحديات الجيوسياسية الداخلية

فقد تحولت الجغرافية الواحدة للسوريين إلى واقع سياسي مجزأ بحكم تنوع مناطق السيطرة

أكرم زعيتر، الدبلوماسي والسياسي والمناضل الفلسطيني (الأول من اليمين)، برفقة محمد خيضر، السياسي وأحد القادة القوميين العرب، وشكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية لدورتين (١٩٤٣-١٩٤٩ و ١٩٥٥-١٩٥٨)، وناظم القدسي، السياسي السوري.



للجماعات السوريّة، وهي بالأساس كانت تمتلك رؤى مختلفة لواقع سورية ومستقبله، وما أن بدأ الصراع بمستوياته الثلاثة (محلي-إقليمي-دولي) حتى بدأت مشاريع التمايز والانفصال، وقد أخذ هذا المسار حِدّية أكبر بعد مجيء الإسلاميين للسلطة وما نجم عن ذلك من مجازر في الساحل وفي جبل العرب، الأمر الذي دفع بالمطالبة بقيام أقاليم أو الانفصال، بما يصب ضمن المشروع الإسرائيلي لتفتيت سورية ومنطقة غرب آسيا بأكملها. رافق كل ذلك على مدى الحرب الأهلية تغيرات ديمغرافية واسعة إن كان بشكل قسري كما في عفرين وفي شمال شرق سورية في المناطق الواقعة بين رأس العين وتل أبيض، أو اختياري بحكم انقسام السوريين حتى في الجماعة السكانية المشتركة بهوية أولية مشتركة، الأمر الذي أدّى إلى انزياحات مستمرة، مع التأكيد على أن هذا التغيير الديمغرافي لم يتوقف بعد انهيار النظام السابق، وسط مجتمع معبأ بنتائج العنف والإقصاء، خاصةً بعد بدء الحرب الأهلية.

> وخلف كل هذه الصراعات هناك اللاعب الأبرز والأخطر وهو الكيان الصهيوني، وهذه الصراعات لم تتوقف بعد سقوط وانهيار النظام السابق، بل أخذت أبعادًا جديدة

التحديات الخارجية الاستعمارية

وهي تحديات مهددة لما تبقى من مفهوم الوطن السوري، وهي لا تنفصل عن التحديات الداخلية، وخاصةً ما يتعلق بالإنقسام الداخلي، والعلاقة بينهما أشبه بالحلقة المفرغة المتواترة، فكلما زاد الانقسام ارتفع مستوى التدخل الخارجي، وبدوره كلّما ارتفع مستوى التدخل الخارجي كلما زادت حِدَّة الانقسامات الداخلية، وتظهر هذه العلاقة بين التحديين في علاقة النخب المحلية الإشكالية التي تتاجر بالمسائل الوطنية لمصالح خارجية، وبين القوى الخارجية التي تستثمر في انقسام النخب المحلية لتحقيق مصالحها، وهذه التحديات الخارجية متعددة الأشكال والمستويات، وهي بالأساس ليست جديدة، فالأهمية الجيوسياسية لسورية جعلتها منذ بدء تشكلها كدولة مستحدثة ساحة لتصفية الحسابات الإقليمية والدولية التي لم تَغِب عنها لحظة واحدة (الصراع الفرنسي البريطاني- الصراع البريطاني الأمريكي وتحتهما الهاشمي المصري السعودي-الصراع الأمريكي السوفييتي وقصة حلف بغداد). وخلف كل هذه الصراعات هناك اللاعب الأبرز والأخطر وهو الكيان الصهيوني، وهذه الصراعات لم تتوقف بعد سقوط وانهيار النظام السابق، بل أخذت أبعادًا جديدة، ويمكن اختزال التهديدات الخارجية ببضعة نقاط هي الأكثر أهمية.

١.التهديدات النازعة للسيادة

أ. التدخل العسكري المباشر وغير المباشر وقد فاق بخطوات مرحلة ما قبل سقوط النظام السابق، على الرغم من الانسحاب العسكري الإيراني من سورية، والذي كان يُستخدم كمبرر للتدخل الخارجي. وعلى الرغم من التوافق الروسي الأمريكي التركي "الإسرائيلي" على إنهاء حقبة حزب البعث، فإن ذلك لم يخفف من التدخل العسكري المباشر وغير المباشر، بل ارتفع مستواه بشكل لم يسبق له مثيل، فوصل الجيش الصهيوني إلى جنوب دمشق بعد أن دمّر معظم السلاح الاستراتيجي للجيش السوري، ثم توّج رئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو مطامع الكيان بجنوب سورية بزيارته مع أعضاء الكابينت المصغر إلى جنوب سورية، برسالة دلالتها واضحة بأن محافظات الجنوب الثلاث (القنيطرة ودرعا والسويداء) أصبحت تحت الاحتلال الصهيوني، كما وصل الجيش التركي بشكل غير فاقع إلى المنطقة الوسطى، كما أن الجيش الأمريكي تمدد في البادية السورية إلى شرق دمشق، واتخذ من مطارات المزة في دمشق والضمير وتدمر قواعد عسكرية له، وعادت القوات الروسية إلى قواعدها السابقة التي لم تغادرها بشكل كامل، وهي تتمدد باتجاه مناطق واسعة بما في ذلك الجزيرة سورية في القامشلي. وترافق ذلك مع توسع القوى العسكرية غير الرسمية تدريبًا وتسليحًا وبشكل مستقل عن دمشق المركز وفي قلب المركز، لتحقيق مصالح الدول الداعمة.

٢. الاستعمار الاقتصادي

يأتي الاستعمار بأشكال متعددة فاحتياجات

الأطراف الداخلية المتصارعة جعلها تقع تحت شروط الدول الداعمة لها، وجعلها تتنازل عن الموارد الطبيعية (نفط-غاز-معادن) بشروط مجحفة.

كما أن العقوبات الاقتصادية ومن خارج أُطر القانون الدولي والأمم المتحدة بحجة جرائم النظام السابق، لم يتم إلغائها، بل بقيت على ما هي عليه مع بعض غض النظر، ليتم التأكيد على أن سلاح العقوبات (قانون قيصر الأمريكي بالإضافة للعقوبات الأمريكية والأوروبية الأخرى) لا يتعلق بالاستبداد وجرائمه، بل هدفها الاستمرار بتدمير ما تبقى من الدولة السورية، بما يحقق الأمن للكيان الصهيوني، ووسيلة للابتزاز والتنازل عن كل السيادة الوطنية، في إطار الصراع الدولي مع روسيا والصين وما تبقى من محور المقاومة.

ومن الطبيعي كنتائج لهذا الصراع الدولي الإقليمي أن تتشكل مناطق اقتصادية خاصة تعبيرًا عن النفوذ السياسي العسكري للقوى الدولية، بمسار هو أقرب لترسيخ بعثرة السوريين وتقسيم وطنهم على أسس ثابتة، بعد أن غاب وعيهم لذاتهم الجماعية كردّ فعل على العنف المتبادل غير المقبول أخلاقيًا ودينيًا و إنسانيًا.والشكل الأخطر من الاستعمار الاقتصادي هو المتعلق بصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، خاصةً بعد أن أرسل الصندوق وفدًا استشاريًا لتقييم الوضع الاقتصادي و"الاتفاق على برنامج تعاون مكثف للمرحلة القادمة"، وهو أخطر خطوة على طريق اكتمال الاستعمار الاقتصادي، الأمر الذي سيجعل من القوى الغربية المهيمنة الممثلة للدولة العميقة العالمية متحكّمة بكل مفاصل ما تبقى من الوطن السوري والسوريين، وتجارب الدول التي تعاملت معهما كانت نتائج مدمرة



حلب

رجل سوري يحمل أكياس البقالة يتفادى نيران القناصة في حلب أثناء ركضه عبر زقاق قرب نقطة تفتيش يسيطر عليها الجيش السوري الحر (١٤ سبتمبر/أيلول ٢٠١٢).

المصدر: وكالة فرانس برس / ماركو لونغاري.

لها ولمجتمعاتها.

تآكل السيادة واضمحلالها تحت الضغط الخارجي

كان من الطبيعي جداً أن تضمحلّ السيادة الوطنية بعد بدء الحرب الأهلية ٢٠١١ تدريجيًا طالما عجز السوريون عن الالتقاء على قاعدة مشتركة تحميهم وتدفع بهم نحو استرداد سيادتهم الوطنية وكرامتهم، وكان من الطبيعي أن يتناسب فقدانهم لسيادتهم الوطنية عكسًا مع ارتفاع مستوى عدائهم التدميري لبعضهم الآخر. ولم يختلف الأمر بعد سقوط النظام، بل أخذ أشكالاً أخرى وأوجه جديدة، فما زالت الوفود المتناقضة للتكوينات البشرية السورية تعتمد على القوى الدولية الداعمة لها، بل ظهر اللاعب الصهيوني المتخفي إلى العلن وببجاحة، معلناً عن نفسه بأنه اللاعب الأول وبيده الحل والربط، وصدقته بعض الأطراف السورية، دون وعي بأنه المسؤول الأول عن الكارثة السورية.

فما زالت الوفود المتناقضة للتكوينات البشرية السورية تعتمد على القوى الدولية الداعمة لها، بل ظهر اللاعب الصهيوني المتخفي إلى العلن وببجاحة، معلناً عن نفسه بأنه اللاعب الأول وبيده الحل والربط، وصدقته بعض الأطراف السورية، دون وعي بأنه المسؤول الأول عن الكارثة السورية

هذا التضارب بين من يتبوؤون الواجهات السورية وامتداداتهم الإقليمية دفع بالجميع لتضارب المسارات، فمن قبل مسارات جنيف وأستانا والرياض والقاهرة، والآن مسارات واشنطن وتل أبيب وأنقرة والرياض وموسكو ومن بعد بكين، مع التأكيد على تفاوت مستوى تهديد المسارات، وخاصةً مسار تل أبيب واشنطن فهو الأخطر بلا منازع.

ويلعب احتكار ملفات السيادة دورًا أساسيًا بتآكل السيادة واضمحلالها، فملف إعادة الإعمار هو بيد المانحين الدوليين الذين يبحثون عن أدوار لهم داخل سورية كبوابة نحو دور أكبر في غرب آسيا، كما أن هؤلاء المانحين ومعهم الدول التي بذلت جهودًا عسكرية كبرى لنجاح التحول الجيوسياسي في سورية ينتظرون المكاسب الاقتصادية الكبرى لشركاتهم جراء إعادة الإعمار بعيدًا عن الإشراف الوطني السوري الحقيقي، وبالتالي المزيد من اضمحلال السيادة الوطنية.

والأمر لا يتوقف هنا، بل يمتد إلى ملف اللاجئين، الذين تحولوا إلى ورقة بيد الدول الإقليمية الحاضنة لهم، وأكثر من ذلك فقد تحولوا إلى ورقة للصراع الداخلي لهذه الدول (تركية-لبنان)، وربما أكثر من ذلك بكثير فقد تحولوا إلى ورقة ضغط تهديد الأمن الداخلي في لبنان بما يخدم الأهداف السياسية الأمريكية الصهيونية، ولا قدرة لأي حكم في دمشق أن يخرجهم من دائرة ابتزاز واستغلال الدول الإقليمية والدولية.

العامل الخارجي وفوضى الهويات

على الرغم من أن الحرب الأهلية كشفت الفشل في بناء هوية وطنية حقيقية عبر أكثر من ستة عقود زمنية لغياب عقد اجتماعي يعتمد مسألة المواطنة بين الحاكم والمحكوم، فإن ما بُذل قبل الحرب من قبل السوريين كمحاولات فيما بينهم لإيجاد هوية مشتركة ذات بعد تاريخي حضاري قد وصل إلى نتائج مقبولة، إلى أن حصلت الحرب بتآزر بين قوى من الداخل وقوى الخارج، الذي ما كان لينجح لو لم يقم على تقديم الهويات الأولية على الهوية المشتركة، فتعززت الهويات الدينية والطائفية والإثنية (سنة -علويين- شيعة - دروز- أكراد - تركمان)، ما أطلق ديناميات فوضى الهويات الأولية، بما يحقق أهداف الفوضى الخلاقة التي نجحت بتدمير الدول التي تحتوي على تنوع هوياتي (العراق - ليبيا -سورية - اليمن - الصومال - السودان)، وهي لم تنجح لولا توفر العوامل الداخلية لهذه الدول وعلى رأسها غياب المشروع الوطني وحضور المشروع السلطوي، ما سمح للإعلام الخارجي الموجه بتضخيم الروايات المتناقضة للتاريخ والهوية، وبالتالي ربط الجماعات الهوياتية بالتمويل المشروط بالولاءات الخارجية وليس بالانتماء الوطني.

لقد أصبح الوطن السوري بين المطارق الخارجية المتعددة المتناقضة وبين السندان الداخلي، وبعلاقة لم تشهدها أي دولة بمثل هذا المصير

الاستعماري. فالخارج لم يعد "خارجًا" بالمعنى التقليدي، بل أصبح فاعلاً مباشرًا في الداخل عبر وكلاء محليين، راسمًا لأطر هوية جديدة مبهمة عصية على التفسير، سوى أنها مستوردة كرؤى تخدم استراتيجية الخارج وتصب في مصلحة الكيان الصهيوني بالدرجة الأولى، ورسمًا للسياسات الاقتصادية بما ينسجم مع إعادة إدماج سورية ضمن نظام العولمة والبنك الدولي، مستخدمًا الأدوات الاقتصادية والعسكرية لفرض هوية اقتصادية نيوليبرالية تعزز الوجود الأمريكي في منطقة غرب آسيا.

هل من حل ومخرج للسوريين من كارثتهم؟

والسؤال المصيري: كيف يمكن بناء سيادة وطنية في ظل وجود هذه القوى الخارجية ذات البعد الاستعماري التي لا تريد بالضرورة سورية موحّدة وقويّة؟

الخيار الأول :لا يبدو أن السوريين في هذا الظرف الصعب يستطيعون أن يتجاوزوا العامل الخارجي المتشعب المتغوّل على وطنهم المحطّم المبعثر، فالذين تصدَّروا الواجهات السورية من غالبية الأطراف لم يكونوا على قدر المسؤولية، فالخاص متقدم على العام مهما كانت التهديدات للعام الذي إذا سقط، سقط الجميع من بعده. كما أن فخ المجازر الذي وقع به جميع الأطراف فاعلين أم مفعول به أدَّى لصنع ملفات ضاغطة على الفاعلين للمزيد من التنازلات على مستوى السيادة الوطنية، باستخدام مصطلح التمكين للعودة فيما بعد لاستردادها، هو أمر لا يغيب عن القوى الغربية الفاعلة، وخاصةً الكيان الصهيوني الذي يتابع كلّ شاردة يمكن أن تعيد حدث "طوفان الأقصى" من جديد بنكهة



أطفال سوريون يسيرون فوق قوالب طوب مخزنة لإصلاح الطرقات، وذلك خلال احتجاج عفوي في ١٥ يونيو/ حزيران ٢٠١١، في مخيم للاجئين قرب الحدود السورية في يايلاداجي بتركيا.
● المصدر: أسوشيتد برس

سورية. هذا من جهة الفاعلين، أما من جهة المفعول بهم، فإن المجازر أدت وظيفتها بالنسبة للغربيين، فقد حصلت الفجوة الهائلة غير القابلة الآن للردم بين التكوينات الهوياتية للسوريين. فأصبحت مطالب الانفصال الكامل أو الفيدرالية هي المسيطرة على العقل الجمعي لهذه الجماعات، والمزيد من التناقضات فيما بينها، يعزز ذلك فقدان الاستقرار الأمني والنهب والسرقة واستباحة الأراضي الزراعية، والأخطر من ذلك استمرار عمليات القتل اليومية على خلفية طائفية، بما يعزز حالة الانقسام.

يمكن أن تلعب المقاومة دورًا إيجابيًا بتوحيد السوريين، بل قد تكون العامل الوحيد الذي يستطيع جمعهم على مشروع وطني جديد يصل إلى نهاياته، فقد توحدوا عام ١٩٤٨ بذهابهم من معظم المناطق السورية لمحاربة الصهاينة في فلسطين المحتلة

يمكن أن تلعب المقاومة دورًا إيجابيًا بتوحيد السوريين، بل قد تكون العامل الوحيد الذي يستطيع جمعهم على مشروع وطني جديد يصل إلى نهاياته، فقد توحدوا عام ١٩٤٨ بذهابهم من معظم المناطق السورية لمحاربة الصهاينة في فلسطين المحتلة، ممثلين لغالبية الهويات الأولية السورية، كما توحدوا في حرب تشرين/أكتوبر ١٩٧٣بمجرد أن استطاع الجيش السوري محاربة الكيان الصهيوني ولم ينكسر، وفي حرب اجتياح لبنان ١٩٨٢ التي كان السوريون فيها مستعدين لتجاوز الانقسام الوطني بعد مجزرة مدينة حماة مقابل الحرب والانتصار، وكانت التجربة الأكثر وضوحاً هي حرب تموز ٢٠٠٦ التي وقف فيها كل السوريين مع المقاومة بصمودها وانتصارها بشكل يعجز الوصف.

المقاومة هي التي يمكنها أن تجمع السوريين على وسائل التوحد، تبدأ من الدبلوماسية الموحدة بخطاب سياسي واحد يمثلهم في تفعيل القانون الدولي عند اللجوء إلى المحافل الدولية، وإقامة شراكات متوازنة بعلاقات دولية لا تخضع لطرف واحد هذا على المستوى الرسمي، يعززها العمل على المستوى الشعبي، من خلال المبادرات المجتمعية المتجاوزة للخطابات الطائفية والمذهبية والإثنية، ويمكنها أن تعتمد على منصات حوارية وطنية تجمع المتنابذين كخطوة أولى في مسار طويل لتجاوز التصدعات الاجتماعية الأقرب بنتائجها للزلزال المدمر، ويمكن أن تلعب تنمية الاقتصاد المحلي دورًا لا يستهان به في تقليل دور المساعدات الخارجية التي تُستخدم كوسيلة ابتزاز.

يمكن أن يلعب الجنوب السوري مُمثلاً بدرعا بشكل أساسي في إطلاق مقاومة تجاه الاحتلال، وخاصةً أن دوافعها ومبرراتها وبيئتها موجودة، كنتيجة للسياسات الصهيونية المُهددة لأهلها، فمطامع الكيان بالسيطرة عليها واضحة، فهي أخصب المناطق الزراعية، وتحتوي مياه جوفية لا تنضب نتيجة تغذيتها من جبل الشيخ والجولان، كما أن أهلها مهددين بالتهجير من أراضيهم وبيوتهم، ناهيك عن عدائهم التاريخي للكيان الصهيوني.

بالمحصلة فإن المقاومة بأشكالها العسكرية والاجتماعية والاقتصادية هي التي يمكنها أن تطلق ديناميات العمل على هوية وطنية جامعة، وهي الوحيدة التي يمكنها أن تستعيد السيادة والوحدة الوطنية وفي سياق عملها يمكن للسوريين أن يصلوا إلى عقد اجتماعي جديد يجمعهم على هوية مشتركة ويحافظ على ثقافة الهويات الأولية الفرعية.

الخيار الثاني: وهو خيار المنفعل الذي لا يملك قدرة على تفعيل قدرة المقاومة، لكنه يركن إلى فكرة الانتظار والترقب من منطلق هشاشة الجغرافيا السياسية السوريّة، واستمرار فعلها بالعقل الجمعي لأغلب السوريين، والانتظار والترقب هو لمآلات الصراع الإقليمي والدولي الذي قد يستغرق أكثر من عقد حتى تظهر نتائجه النهائية، على شاكلة ما حدث في مؤتمر يالطا بعد الحرب العالمية الثانية وتقاسم النفوذ بين القوى العظمى المنتصرة بالحرب، وهم في هذا الخيار يحرمون أنفسهم من مسألة الشراكة ولو بالحد الأدنى في صناعة مستقبلهم ومستقبل العالم، وسيخضعون بشكل كامل وبتبعية مطلقة للطرف الدولي الذي

ستكون بلادهم من حصته.

الخاتمة

تحول الحلم السوري من الحفاظ على وطن جامع لهم يمكنه من كسر القواعد الجغرافية الهشَّة إلى وطن مبعثر ينتظر من يلم أشلاءه بعد تمزق بين قوى استعمارية متعددة متناقضة. وخيارات السوريين خلال السنوات القادمة محدودة جدًا، ووطنهم أصبح تحت سيطرة الاستعمار المباشر، إلى أن يستطيعوا التغلب على التحديات الداخلية لينجحوا بمواجهة التحديات الخارجية بالتعاون مع دول النسيج التاريخي لمنطقة غرب آسيا التي يتهدد أمنها القومي ونسيجها الاجتماعي بإعادة التجربة السورية المدمرة فيها، وهي الدول التي من المفترض أن تجمعها التهديدات الواضحة من قبل النظام الغربي ومن الكيان الصهيوني بشكل فجّ، وتمد يد العون للسوريين كي يتجاوزوا خطاب الكراهية والدم ويجتمعوا على كلمة سواء فيما بينهم.

الهوامش:

١. جمال واكيم، سورية، الأبعاد الجيوسياسية لأزمة ٢٠١١.
٢. كمال ديب، تاريخ سورية المعاصر.
٣. كمال جهاد الجعبري، الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩، مركز القدس للدراسات.
٤. محمد جمال باروت، العقد الأخير في تاريخ سورية، جدلية الجمود والإصلاح، المركز العربي.

حزب الله السوري

كان فرعاً للمنظمة السياسية والعسكرية "حزب الله اللبناني" في سورية، حيث قاتل في الحرب الأهلية السورية إلى أن انسحب من سورية بعد سقوط نظام الأسد في أواخر عام ٢٠٢٤.

● المصدر: الجزيرة.



الهوية الفلسطينية الموءودة في المشاريع الفكرية العربية:

طه عبد الرحمن أنموذجًا





شريف الدين بن دوبة

أستاذ فلسفة الأخلاق/ جامعة سعيدة • الجمهورية الجزائرية

المقدمة

التعالي مَلمح رئيس لفعل التنظير، فالحدث، أو الموضوع المشكِل لمادة الممارسة التنظيرية في كلّيته، يصبح غريبًا عن أصله وهويّته، ويتحوّل إلى رمز في عالم الأموات، فالنصّ قتلٌ للمعنى المحمول، والمقصود الغائي من إنتاج النص نفسه، فالدلالات التي تختلج في قوى النفس التفكرية، لا تجد نفسَها إلا في المحدودية التي تحدّ آفاقها الدلالية، على قاعدة الارتباط القائم بين الذات في لحظة التوليد للمعنى، فمن دون اللغة أو العلامات الدلالية تصبح المعاني مجرّد أشباح، أو حدود جوفاء في حدّ الوضعية المنطقية، والحياة تحايث الوجود من خلال الإنية، وليس بمجرد الاعتقاد في الوجود، وإن كان حد الإنية السينوي لا يرضي شهوة الانبهار بالغرب عند المعاصرين، فجمالية الدازاين[1] الوجود هنا عند هايديغر، مستمدّة من البُعد الجلالي للكلمة، الجلال الناتج عن المخيال، ففعل الوجود أو الحضور في ساحة الكينونة يغيب في عالم الصورنة، الذي تتجلّى الفلسفة من خلاله، فهي كنص أولًا وكخطاب ثانيًا، لا تخرج عن خصوصيات المبدع، أو الأثر.

والنصّ قتلٌ للمعنى المحمول، والمقصود الغائي من إنتاج النص نفسه، فصَورنة الحدث ضرورة منطقية ومنهجية يقتضيها البحث عن المعرفة كمبدأ والحقيقة كقصد، وآليات التواصل بين بني البشر تفرض أيضًا فعل التجريد الذهني لتلك المعطيات، فكانت إذن الهوّة بين الواقع والنظرية، وتوارث الفكر الإنساني وهم المفارقة بينهما.

وقراءة الخطابات الفلسفية في أنساقها، أو في مقارباتها مع بعض تضعنا أمام محاولات لتجذير وتأصيل هذه المفارقة بين عالم الفكر، وعالم الأرض، حيث كان نصيب النظر النعت والإشارة بالاستهجان، فهو عالم السماء تارة، وفضاء رحب للخيال تارة أخرى، وتأسيس لخطاب طوباوي لا يمتّ بصلة لعالم الحقائق؛ وضحكة الفتاة التراقية أمام سقوط الفيلسوف اليوناني طاليس في البركة دليل على الشرخ الموجود بين العالمين، والتأمّل في قضايا أنطولوجية يجعل من إدراك المكان الحسي في أبسط معطياته عند المفكّر أقلّ من المستوى الذي يدرك به العامي عالم المكان، أما الطرف الثاني في التعايش المعرفي والمتجسّد في وعي الإنسان العامي، فالمعطى المعرفي الذي يصل إليه الفيلسوف، بعيد، ومفارق لعالم الواقع، الذي يمثّل المعيار الأمثل للحقيقة، وتصبح النظرية الفلسفية بالضرورة مجانبة للحق، الذي يقرّره الواقع، كمعطى إدراكي، وأصل قيمي في مبدأ صدقية المعارف، على قاعدة تمكّن الواقعية كمنظومة معيارية من مخيال الفرد والجماعة اللاواعي.

> وقراءة الخطابات الفلسفية في أنساقها، أو في مقارباتها مع بعض تضعنا أمام محاولات لتجذير وتأصيل هذه المفارقة بين عالم الفكر، وعالم الأرض

محنة الفلسفة مع الواقعية الساذجة، لحظة تاريخية، لازمت التفكير الفلسفي عبر سيرورته التاريخية عند جميع بني الإنسان، ونكبة سقراط وسورانوس وابيكتيت في الثقافة الغربية تؤكّد غربة الفلسفة، مع المفارقة الفكرية والحياتية بين النظر والعمل، ونفس الحال كان مآل الفلاسفة العرب مثل ابن سينا وابن رشد، وأسست وضعية المعايشة للمفارقة لإرث ثقافي في مخيال العربي والإسلامي. والتصادم الظاهر بين المشاريع الفكرية العربية، والإسلامية دليل على عمق هذا الجرح الثقافي في مجتمعاتنا.

المأخذ الأساس الذي قبرت به المشاريع العربية، وفيه هو غربة المشروع الفكري عن إمكانية التطبيق، وافتقاره للقدرة على الانتقال بالفكر العربي والإسلامي من لحظة الانتكاس، إلى عهد الثورة، والارتقاء، وتجاوز المحنة، وقد كانت هزيمة ١٩٦٧ توثيقًا تاريخيًا لهذه الأزمة، التي امتدت بجذورها إلى قلب اللاوعي الجمعي للمجتمع العربي والإسلامي، فكان الغرب الثقافي بديلًا، وأملًا في النجاة، وفي تجاوز محنة الانتكاسة في بعض المشاريع الفكرية، وإن كانت في الحقيقة دلالة الكلمة التبعيضية غير مناسبة لحمل المدلول، فالبعض منها أقام صرحه

الفكري عن وعي و إرادة، على ثقافة المستعمر، والآخر لم يدرك أن ما يعتز بإنشائه، ويتشدق بخطاباته فيه أنه مجرد تمثل، و إعادة تمثيل من طرف قواه الوهمية لما قبل الغرب به له.

> البعض أقام صرحه الفكري عن وعي على ثقافة المستعمِر، والآخر لم يدرك أن ما يعتز بإنشائه ليس إلا تمثلا و إعادة تمثيل لما قبل الغرب به له

وأخذت الساحة الفكرية في الوطن العربي منحى منحرف في أشكلة الأزمة، فكان الجدل بين الباحثين قائمًا حول إمكانية قيام فلسفة عربية، أو عدم إمكانها، وهو سؤال يستبطن مغالطة، حيث نجد أن تسليم العقل بمبدأ الثالث المرفوع يقتضي الإقرار بإحدى القضايا فقط، و إمكانية الادّعاء أو القبول بعدم الإمكانية نتيجة لازمة منطقيًا، فإمّا أن تُسلِّم بوجود فلسفة عربية أو لا تسلّم، ولكن القول أو القبول بإحدى القضايا يتضمن في حد ذاته حكما قيميًا، والإقرار بإحدى القضايا هو انحياز صريح لموقف معين وأدلوجة ما، وتحوُّل هذه المسألة من أهم الإشكالات الرئيسة في الفكر العربي المعاصر، فكانت في اعتقادنا مظهرًا لسذاجة الفكر العربي، فأصل العجز عن إبداع فلسفة عربية يكمن عند المفكِر المصري زكي نجيب محمود في ستة عوائق: أولها عجز المفكر العربي المعاصر عن التوفيق الايجابي بين الأصالة والمعاصرة، حيث لم يقدر على الجمع بين هذين الاتجاهين المتعاكسين، وثانيها يكمن في غياب روح التجديد داخل المنهج في التراث العربي الإسلامي، فالمنهج الجديد الذي أسسه بيكون، كمقابل للمنهج العقلي، يمثّل لحظة تحول و إبداع داخل الحقل التراثي الغربي، في حين يلحظ غياب هذه اللحظة داخل هذا الفكر، ممّا شكّل عائقًا ذاتيًا أمام الإنتاج الجديد في الفكر العربي والإسلامي. العائق الثالث فيكمن في نوعية النظرة التي تعاطى بها الفكر العربي والإسلامي مع التراث، إذ تعامل مع تراثه في شكل كلي، متكامل، في حين كان التعاطي العربي والإسلامي مع تراثه بشكل تجزيئي، أفقده خاصية الهوية الانطولوجية للجماعة الثقافية. أما الرابع فيظهر في قداسة الماضي وسلطته، فهو ملاذ رئيس يستنجد به المفكِر دومًا عندما يصطدم بإشكالات جديدة. أما الخامس ، فيظهر في هيمنة السياسة على الحياة الفكرية، والسادس فيتمثّل في سيادة الفكر الخرافي وتأثيره في طريقة التفكير بحيث يؤدي إلى تعطيل القوانين الطبيعية.



فقه الفلسفة: الفلسفة والترجمة – طه عبد الرحمن/ سنة الطبعة الأولى: ١٩٩٥م.

يبدو أن تعليل الأستاذ زكي نجيب محمود لا يلمس إلا الملمح الخارجي للعلّة، إذ أصبحت التهمة ضد مجهول، وذلك هو دأب وديدن الفكر العربي عند معايشته الأزمة، فأين تكمن علة العجز عند المفكر في التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، هل يكمن الخلل في آليات التعامل مع التراث الثقافي الأصيل ومع الفكر الغربي؟ أم في عقم التراث الأصيل على مواكبة العصر في حركته وسيرورته العلمية والتقنية؟ والنتيجة دومًا مسجّلة في أرشيف الكتابة العربية ضد مجهول، حتى يستشعر المفكر العربي مبررات لضعفه، وعجزه عن تجاوز الواقع المرير، الذي فضحته الصهيونية. و إذا كان المسيء يشكر، فلن نجد أفضل من "إسرائيل" لنشكرها، فمن خلال "إسرائيل" وعظمتها اكتشفنا مقدار عظمتنا الوهمية، في شتى المستويات الفكرية والمادية، أما المبرّر الثاني الذي يقدمه المفكر زكي نجيب محمود والمتمثل في اللحظة المنهجية التي كانت لحظة قطيعة بين منهج عقلي كرّس لمنظومة القيم، ولمبادئ ذهنية لا تجد إلا في سديم المجرد حقلها الأثير، حيث لا بد لعقل المرء أن يتجمّد في صقيع المجرد، فإننا نجده، وغير مبرر تاريخيا، حيث يؤكد التاريخ، عمومًا وتاريخ العلم خصوصًا أن التجربة المنهجية عند علماء العرب أقوى بكثير من الثورة المنهجية التي قام بها الغرب، و إنجازات ابن الهيثم وجابر بن حيان تفي بالغرض من التعليل. أما التبريرات التي أخذ بها الأستاذ زكي نجيب محمود في تفسير عجز المشاريع العربية عن إنجاز فلسفة عربية أصيلة وقادرة على إثبات حضورها في الساحة العالمية، مثل العود الأبدي، والمستمر للماضي كمرجع، لا يستقيم مع القول بالثوابت الأصولية، والثقافية للجماعة الحضارية، في إمكانية القول بفلسفة عربية.

و إذا استأنسنا بمفكِر مغربي بغية الكشف عن علل العجز فنجد في موقف الأستاذ محمد وقيدي من الأزمة التي تعيشها الفلسفة في الوطن العربي، -مع الإشارة إلى وجود فلسفة في مقابل البعض من الباحثين العرب الذين يقررون بشكل قطعي

عدم وجود فلسفة عربية- تعليلاً يرجعها إلى ثلاثة عناصر، يتمثل الأول في عجزها على مواكبة الواقع، يقول: "تبدو الفلسفة العربية في اتجاهاتها السائدة غير قادرة على الالتحام بالواقع العربي المعاصر لها، فلا هي تستلهمه.. ولا هي قادرة على أن تجد لنفسها المسار للتأثير فيه" (وقيدي، حوار فلسفي، ١٩٨٥) أما الثاني فيظهر في غربة الفلسفة العربية عن لحظها التاريخية، ومعايشة تجارب الآخرين، ويتمثّل الثالث في عجزها عن استيعاب العلاقة بينها وبين العلوم الإنسانية، فلا هي أصبحت قادرة على دفع البحث الإنساني خطوة نحو الأمام، ولا استطاعت أن تفهم التجارب، والمنتوج الفكري المقدّم من طرف العلوم الإنسانية.

و إذا أردنا معايشة لحظة الأزمة في الفلسفة العربية، انطلاقًا من الواقع الراهن، فإننا سنتخذ من الدراسات الفلسفية في الجزائر مرجعية في تشخيص الأزمة، على قاعدة القرب، وليس على قاعدة الأفضلية، وستكون لنا وقفة مع الأستاذ الجزائري عمارة الناصر، في مداخلة له بعنوان: فلسفة عربية هل هي ممكنة؟ يتقدّم الأستاذ بجرأة غير مسبوقة في مناقشة علل الأزمة، فيحدد نقاط العجز عن تشييد فلسفة عربية في:

العجز عن التجذير
Déficit de radicalité

يقرّ الباحث الجزائري بضرورة اعتماد الفلسفة



لوحة الفيلسوف المتأمل
للفنان الهولندي رامبرانت هارمنزون فان راين/ سنة ١٦٣٢م.

على التجذير اللغوي، ومما جاء في المداخلة: "يتميز خطاب الفيلسوف عن خطاب المشتغل بالفلسفة بأنه "جذري"، أي أنه يعود إلى تعيينات أصلية للوجود في تحليل القضايا، ولذلك يُظهر تاريخ الفلسفة قوة ممارسة فعل التجذير في تأثير الفلاسفة (أرسطو، نيتشه، هيدغر مثلاً)، ويستمدّ التجذير صلابته من خارج الفلسفة ومن اللافلسفة، أي من الخطابات المجاورة من التيولوجيا، العلم، الأسطورة، الفن... وهي براديغمات لصناعة الجذر الفلسفي حيث تتلبس الفلسفة على مثالاتها ويتم الدفع بالقضايا الفلسفية إلى داخلها معطية لها القدرة على الحجاج بذاتها. واعتمادًا على ما سبق توصّل الباحث إلى الخلاصة التالية: "إن الحديث عن اللغة العربية كلغة ممكنة للفلسفة يعني بالأساس التاريخ الذي تشكل داخلها وليس فقط مجرد القواعد والبنيات التي تحكمها، ومنه فهي لغة لم تتغير منذ قرون لأنها لم تحمل أي حدث يمكنه أن يحوّل وجهة التفكير بشكل يجعلنا نشعر أننا دخلنا أزمنة جديدة، والأزمنة الجديدة هنا تعني من بين ما تعني أن اللغة لا تعيش لنفسها وإنما لعالم تعيد تشكيله عقلانيًا".

العجز عن الكليانية
Déficit d'universalité

القدرة على رفع القيم والمعاني إلى مستوى الكلي هي ملكة فلسفية، كأنْ ترتفع القيم الاجتماعية و إلى مستوى كليات العقل في صورة مبادئ العقل المنطقية، أو ترتفع الرموز الأنتروبولوجية عبر مخيال اجتماعي إلى مستوى أسطوري أو ديني، أو ترتفع لغة طبيعية عادية عبر مفهمة خاصة إلى فلسفة، ويعني فعل الكليانية (Universalisation) القدرة على جعل فهم جزئي فهمًا كونيًا بتضمينه أبعادًا منطقية أو جمالية أو وجودية أو أنتروبولوجية.

العجز عن التمفصل
Déficit d'articularité

لكل خطاب حياته الداخلية، وحياة الخطاب الفلسفي يستمدها من تغذّيه على خطابات أخرى مجاورة له، فيأخذ قدرته على التمثل والتخيل من الفن والأسطورة وقدرته على البناء القيمي والأنطولوجي من التيولوجيا والدين عموما، وقدرته على التأسيس المنهجي والإبستيمي من العلم، ويظهر تأثير هذا التمفصل الخطابي واضحًا في بنية الأنساق والخطابات المجاورة.

العجز عن التخييل
Déficit d'imagination

يقوم الخطابُ الفلسفي على مؤسسة رمزية يبني في داخلها عوالم تخييلية هي إمكانات للحقيقة، حيث لم تعد الحقيقة هدفًا للفلسفة بل اللاحقيقة، أي فيما يضللنا ويخدعنا، والذي لا يمكن الإمساك به إلا داخل عالم متخيل، فقد حاصر هيدغر الميتافيزيقا التي تحجب كينونة الكائن داخل الأنطولوجيا مقوّضًا خداعها في تخييل "الأرض الموعودة" التي ينتهي عندها الوجود الذي تستند إليه كل حقيقة.

وفذلكة القول نجد أن القواسم التي تتقاطع المواقف الفكرية العربيّة فيه في مسألة التشخيص، وفي المأمول يظهر أوّلًا في عجز المفكّر العربي عن تفعيل التراث العربي والإسلامي، وتحيينه بشكل يرقى إلى منافسة أو في إجبار الآخر على الاعتراف بحقه في العلم والمعرفة، وفي التميّز بهويّة منهجية يتعالى فيها المفكر العربي عن الحاجة إلى الاستئناس بالأدوات المنهجية الغربية، ويكون التراث هو الأصل والمبدأ في حصول هذا الإبداع. والملمح الآخر الذي يشترك فيه المفكرون العرب هو البحث عن النسقية في المشروع الفكري، باعتماد الغرب كمرجعية تأسيسية للموقف الفلسفي. وسنرى من خلال القراءة البسيطة لمنتوج طه عبد الرحمن الفكري ملامح، أو بالأحرى معالم مشروع فكري، فلسفي، متماسك يتميّز بالجدة والعمق، والأخلاقية.

طه عبد الرحمن

هوية الكاتب من كتبه، فالكتاب كمخاض فكري، مَعلم رئيس في تحديد هويّة المفكّر وخصوصيّته الإبداعية، والمكتبة الطاهائية تعكس بشكلٍ جلي هذا التميّز والإبداع الفكري، والذي إنْ دل على شيء فإنّما يدل على الإمكانيات الجبّارة التي كانت تملكها هذه الشخصية، والتنوّع الذي طبع مؤلّفات المفكر ينمّ عن تحصيل مبني على مسح واكتشاف دقيق وتفصيلي لكثير من الحقول المعرفية، وعنوان





يُعدّ وثائقي الجزيرة حول طه عبد الرحمن بعنوان "طه عبد الرحمن.. الفيلسوف المجدد"، عملاً وثائقياً تحليلياً وسيرة ذاتية يتناول بالبحث الأبعاد المختلفة لحياة وأفكار هذا المفكر المغربي البارز.

الإبداع في المشروع الطاهائي يظهر في التمكُّن، والقدرة الجبارة في امتلاك الآليات المنهجية، وعلى رأسها علوم اللغة وعلوم الميزان "المنطق".

كانت بداية رحلته العلمية مع البحث في التراث الفكري العربي والإسلامي، والعالمي مع اللغة، ومع قوانين الفكر، فكانت هذه الدراسات اللبنات التأسيسية، والأساس لمشروعه الفكري.

١٩٧٩ "اللغة والفلسفة: دراسة في البنيات اللغوية للانطولوجيا"، أول مولود فكري للمفكر طه عبد الرحمن بعنوان تناول فيه البنى اللغوية للانطولوجيا، كما اشتغل عليها النقلة العرب للفلسفة اليونانية، وكما مارسها المتفلسفة العرب المشائون. كما كشف في الكتاب عن أعطال التعاطي الفكري العربي مع اللغة.[٣]"

> المنحى الذي يسير فيه طه عبد الرحمن تجعل "العقل في حدود الدين"، وليس العكس "الدين في حدود العقل، كما ذهب في ذلك ايمانويل كانت، ويظهر الاتجاه الصوفي جليًا في اتجاه المفكر

١٩٨٣: "المنطق والنحو الصوري"

يظهر في الكتاب هاجس المفكر طه عبد الرحمن بمسألة الهوية، إذ يدعو إلى: "التطبيق المحكم والتوسيع لمجال المنطق نفسه وتطوير أساليبه وأدواته حتى تكون أنسب لوقائع اللسان المنطوق الدالية والدلالية والتداولية"، فنقل المنطق وإسقاطه بجميع خصوصياته على اللسان العربي فيه شيء من الإجحاف، بل أكثر من الشيء المبغَّض، بل الفعل في حد ذاته ظلم وحيف بحق اللسان المنقول إليه، وسنرى في مناسبات عدة إشارة المفكر إلى الأصول اللغوية للمنطق الأرسطي.

١٩٨٧: "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"

يعتبر الكتاب بمثابة اجتهاد في تطوير المناظرة وتجديد علم الكلام، على قاعدة اعتبار التراث حقيقة تاريخية لا يمكن الانفصال عنها، ولا تقسيمها..."[٤]، والقصد من الكتاب لم يكن على حد تعبير المؤلِّف ابتغاء حشر متكثر ونشر متسرع لكل ما جاء في ثقافتنا من ألوان الفكر وأشكال القول.. وإنما كان بالأحرى طلب حفر دقيق وسبر عميق لجزء من الخطاب جاء محررًا على رسم المتكلمين لنخرج منه أقصى إمكانات العطاء وأقوى أسباب الثراء الكامنة فيه[٥].

١٩٨٩: "العمل الديني وتجديد العقل"

يطرح المفكِّرُ في الكتاب خطابًا جديدًا، يتعلق برؤية نابعة من تجربة ومعاناة فكرية خلص فيها طه عبد الرحمن إلى تقديم أسس لعقلانية موسّعة استلهمها من أطوار العقل التي يفاضل بينها، وكان الترتيب تفاضليًا، فاعتبر العقلَ المجردَ الذي يقدِّسه الغرب أدنى مراتب العقل، على قاعدة العجز الذي يلازم هذا النوع من العقول، فاليقين في المقاصد، والنجوع في الوسائل غائب فيه، ويأتي بعده العقل المسدّد الذي يملك اليقين في المقاصد، ولا يملك النجوع في الوسائل، وسيد هذه العقول العقل المؤيد أو العقل الواسع الذي يملك القدرتين، والمنحى الذي يسير فيه طه عبد الرحمن تجعل "العقل في حدود الدين"، وليس العكس "الدين في حدود العقل، كما ذهب في ذلك ايمانويل كانت، ويظهر الاتجاه الصوفي جليًا في اتجاه المفكر.

١٩٩٤: "تجديد المنهج في تقويم التراث"

دلالة العنوان تنبئ القارئ بالمنهجية الطاهائية في التعامل مع التراث العربي والإسلامي، إذ يطرح المؤلِّف فيها قراءته النقدية للمناهج الفكرية العربية في تعاطيها التفاضلي مع التراث والحداثة، وأكّد على ضرورة الوعي الذي يجب أن يلازم الناظر في التراث بحيث يسلّط على منظوره العلمي نفس الطرائق المنهجية التي هي من جنس ما حرّر به التراث نفسه.

١٩٩٥: "فقه الفلسفة: الفلسفة والترجمة"

يشخِّص طه عبد الرحمن في الكتاب علة الانتكاسة الفكرية التي عايشتها الفلسفة العربية، والتي تمثّلت في عجزها عن مواكبة التقدُّم الحضاري في الغرب، وفي غيابها عن الساحة الوطنية والقومية، إذ لم تقدر على تجاوز محنتها مع مخيال العربي والمسلم الذي تشكل عبير رواسب الماضي الثقافي للمجتمع العربي والإسلامي، فهي موقع



العمل الديني وتجديد العقل - طه عبد الرحمن / سنة الطبعة الأولى: ١٩٨٩م.

خلاف تقييمي بين الشرائح الاجتماعية من حيث علاقتها بالكفر والإلحاد، ومرد العجز في نظري يعود إلى ضعف المفكر العربي، وما جاء في الأثر يثبت ذلك: "أخذ الله عهدًا على العلماء أن يعلموا، ولم يأخذ عهدًا من الجاهل حتى يتعلم"، فالمسؤولية تقع على كاهل المثقف، أو المفكر، وأين يكمن دور النخبة؟ هل في الكتابة والتلذذ برؤية المؤلفات على الرفوف؟.. والأستاذ طه عبد الرحمن يضع يده على أهم بنية معرفية أسست لإعاقة حركية وذهنية للفلسفة، وهي الترجمة، فوضع "تصورًا لصلة الترجمة بالفلسفة مستشكلًا أضرب الترجمات التي جعلها: ترجمة تحصيلية، وترجمة توصيلية، وترجمة تأصيلية ليقدِّم نموذجًا للنقل الفلسفي الأمثل".

١٩٩٨ : اللسان والميزان أو التكوثر العقلي:

يعكس الكتاب القدرات المعرفية والمنهجية المتنوّعة التي يملكها المفكّر الأصيل طه عبد الرحمن، وهو "يحمل اشتغالات في مجالي اللغويات والمنطقيات والفلسفيات سعى فيه طه إلى إبراز ازدواج اللغة بالمنطق، واقتران التفلسف بالمنطق، وقد قدّم فيه تجربته الخاصة التي تجمع بين الدراية الأكاديمية، والاجتهاد الشخصي، حيث جاب مضامير جعلها مجالًا للعقل المتكوثر الذي يتجاوز العقلانية المضيقة ويأخذ بأسباب اللسان الطبيعي مستلهمًا أحدث الدروس من مختلف المجالات العلمية المنطقية والرياضية واللغوية".

١٩٩٩: فقه الفلسفة (القول الفلسفي: كتاب المفهوم و التأثيل)

يعتبر الكتاب حلقة تالية في مشروع طه عبد الرحمن الفلسفي، وقد حدد المفكر بنفسه أهداف الكتاب العامة في قوله: "..ومعلوم لك أن هذه الفائدة تتحدد بالمقصد العام الذي وضعناه لكامل مشروعنا في فقه الفلسفة، ألا وهو إقدار المتلقي

زكي نجيب محمود
(١٩٠٥-١٩٩٣)
كان فيلسوفًا ومفكرًا مصريًا بارزًا، ويُعرف بأنه رائد الوضعية المنطقية (أو الفلسفة الوضعية المنطقية) في العالم العربي.



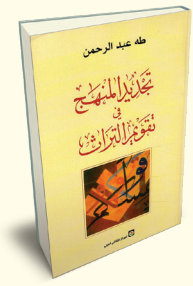

تجديد المنهج في تقويم التراث - طه عبد الرحمن / سنة الطبعة الأولى: ١٩٩٤م.

العربي على التفلسف، فتقوم إذن فائدة هذه الدراسة عن المفهوم الفلسفي في مدى توصلها إلى إقدارك على إنشاء مفاهيم فلسفية من عندك وعلى استثمار المفاهيم المنقولة بما يخص مجالك التداولي، لا بما يخص المجال المنقولة منه، ولا سبيل إلى تحرير مفاهيمك الفلسفية العربية إلا بتحصيل هذه القدرة "[٦].

٢٠٠٠: سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية

هذا الكتاب في نظرنا كعبة المشروع الطاهائي، فإذا كانت الكعبة كمركز مكاني، يتموقع في مكان منحدر تصب فيه جميع الاتجاهات، فكذلك البحث الأخلاقي عند طه هو لُب المطلب، والهوية الأخلاقية التي ستكون محور بحثنا تجد الكثير في هذا المصنّف، إذا يطرح المفكر طه عبد الرحمن إعادة تعريف الإنسان، كحيوان عاقل، وضرورة مراجعته، لأن البعد العقلي الذي عرّفه به الآخر، وأصبح قانونًا أبديًا عندنا لا يعكس الحقيقة الإنسانية، بل الأخلاقية هي الأصل في الإنسانية، وعليها تبنى العقلانية وليس العكس.

فإذا كانت الكعبة كمركز مكاني، يتموقع في مكان منحدر تصب فيه جميع الاتجاهات، فكذلك البحث الأخلاقي عند طه هو لُب المطلب، والهوية الأخلاقية التي ستكون محور بحثنا تجد الكثير في هذا المصنّف

٢٠٠٢: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي

يواصل طه عبد الرحمن في هذا الكتاب بيان الغرض من مشروعه الفكري الذي يضع هاجس الهوية على رأس الاهتمامات، فيقول: "نحن العرب نريد أن نكون أحرارًا في فلسفتنا، وليس من سبيل إلى هذه الحرية إلا بأن نجتهد في إنشاء فلسفة خاصة بنا تختلف عن فلسفة أولئك الذين يسعون بشتى الدعاوى إلى أن يحولوا بيننا وبين ممارستنا لحريتنا الفكرية، ولا ريب أن أقرب الطرق التي توصل إلى إبداع هذه الفلسفة هو النظر في هذه الدعاوى نفسها التي يرسلونها إرسالاً ويبثونها فينا بثًّا كما لو كانت حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ويأتي في مطلع هذه الدعاوى القول بأن الفلسفة معرفة عقلية تشمل الجميع، أفرادًا كانوا أو أقوامًا، أي أن الفلسفة معرفة كونية".

٢٠٠٣: حوارات من أجل المستقبل

ما أضعه بين يدي القارئ هاهنا إنما هو عبارة عن خلاصات محكمة للحوارات التي أجرتها معي هذه المؤسسات الإعلامية في فترات متفاوتة خلال مناسبات ثقافية مختلفة، و هي الصحف المغربية التالية: (العلم) و(الاتحاد الاشتراكي) و(الأحداث المغربية)، و أيضًا الصحف العربية الآتية: (القدس) و(المستقلة) و(الشعب)، وأخيرًا (الإذاعة الوطنية) و(القناة المغربية الثانية)؛ ولم تكن هذه الحوارات أبدًا من نوع (الدردشات) التي يملأ بها الفراغ في الصحف، أو يزجى بها الوقت عند الإرسال، و إنما كانت بيّنات كاشفة وتأملات هادفة لا يقل فيها هَمّ الاجتهاد والتجديد عما تنطوي عليه المؤلفات الكاملة؛ وقد أعدت ترتيب الأسئلة في هذه الحوارات بحسب الموضوعات التي دارت عليها، حتى أسهل على القارئ تحصيل رأي جامع في كل واحدة من المسائل التي شغلت بها ذهني أو ملأت بها صدري نحو (التراث)، و(الفلسفة) و(المنطق)، و(الترجمة) و(الإسلام)، و(التصوف)، و(الرشدية)، و(العولمة)، مؤملاً من وراء ذلك أن يظفر فيها القارئ بنظرات مجملة وميسرة للنظريات المفصلة والمعمقة التي تضمنتها مؤلفاتي المنشورة، قد تبعث فيه الرغبة في اقتحام تفاصيل هذه النظريات في مواضعها من كتبي.

٢٠٠٥: "الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري"

يُقدّم طه عبد الرحمن في هذا الكتاب جوابه عن السؤال: كيف تجيب الأمة الإسلامية عن أسئلة زمانها؟ وعلى طريقته التي يَبنيها بناءً منطقيًا، يصل إلى اعتبار روح الجواب الإسلامي عن أسئلة هذا الزمان تتجلى في حقيقتين اثنتين، الأولى: الإيمان، ويتوصل إليه بالنظر في مختلف الآيات، أي بالنظر الملكوتي (الذي ينفذ إلى عمق الآيات) بوصفه مؤسّسًا للنظر الملكي (على أساس الظاهر). والحقيقة الثانية: التخلق، ويتوصل إليه بالتعامل مع مختلف الأشخاص والأمم، أي بالعمل التعارفي

بوصفه مؤسسًا للعمل التعاوني، وهو يحمل جوهر التواصل مع كل البشر.

٢٠٠٦: روح الحداثة

يتولّى هذا الكتاب الذي جاء بعد "سؤال الأخلاق" وضع لبنات أساسية لتأسيس الحداثة الإسلامية وذلك من خلال الانطلاقة من مسلمات المجال التداولي الإسلامي، واستلهام "روح الحداثة" ومبادئها الأساسية التي أصابتها أعطاب كثيرة جراء التطبيق الغربي لهذه المبادئ ما يقوم دليلًا على ضرورة التفريق بين "واقع الحداثة" و"روح الحداثة"، والكتاب يتوجّه إلى المفكّرين المسلمين التراثيين ليخرجهم من عوائق التقليد، كما يتوجّه إلى المفكرين الحداثيين العرب المسلمين لينبّه على ضرورة "إبداع حداثة" لا تكون مقلّدة بقدر ما تكون مجدّدة.

٢٠١٢: سؤال العمل

يطرح طه عبد الرحمن في الكتاب الرؤية الإسلامية العربية لدلالة العمل، وبعد أن يقوم بمسح تاريخي لدلالة العمل في الفلسفة وفي التاريخ الثقافي للغرب يصل إلى وضع تقابلات مهمة بين مفهوم العمل في الفكر الغربي وتجلّياته، منذ اليونان، إلى الحقبة المعاصرة، وكيف ينظر الفلاسفة الغربيون لهذا المفهوم، ولهذا يعتبر "أن زمن العلمانية زمن كله مصروف للعمل الدنيوي وحده، مستغرقًا اليوم كله إلا قليلًا، ولا زمن للعمل التعبّدي إلا في حدود هذا القليل المتبقي، مع أنه لا عمل يتقيد بالوقت تقيد العمل التقربي به، إذ العبادات فروض موقوتة، ولا فرض أوجب في وقته مما فرضه الخالق".

٢٠١٢: روح الدِّين.. من ضَيق العَلْمانية إلى سَعَة الائتمانية

يطرح المفكر في الكتاب مقاربة جديدة كعادته بين الدين والسياسة، وهي ليست مقاربة تاريخية، ولا سياسية، ولا اجتماعية، ولا قانونية، ولا فقهية، ولا بالأحرى فكرانيّة (إيديولوجية)، و إنما قَصَدَ أن تكون مقاربة روحيّة أو بتعبيرٍ آخر، نطّلع عليه

طه عبد الرحمن (مواليد ١٩٤٤)
هو فيلسوف ومفكر ومنظِّر أخلاقي مغربي، ويُشتهر بمحاولاته تأسيس حداثة إسلامية أصيلة ترتكز على العقلانية والأخلاق والتراث الإسلامي.



في تقديم الكتاب، مقاربة ذِكرية غير نسيانية أو عمودية غير أفقية: من منطلق أنَّ الروح، حسب اعتقاد صاحب "روح الدين"، لا تنسى ولا تقعُد، وإنما تذكُر وتعرُج، فأبى إلا أن يكون في مقاربته ذِكرٌ لما نسيه "العَلماني" وعُروج إلى ما قعد عنه "الدِّياني" أو الإسلامي الحركي.

تبيّن من خلال المسح الصوري لأعمال طه عبد الرحمن أن العنوان الرئيس الذي ميّز البحوث الطاهائية كان الهوية، وإنْ كانت الاهتمامات في شكلها الجزئي تتمحور في حقلين فكريين هما: الفلسفة، والحداثة الإسلامية، فكان فقه الفلسفة مشروعًا تأسيسيًا لفلسفة عربية أصيلة، وإنْ كان البعض من المفكرين من اعتبر محاولة طه عبد الرحمن وأدًا للفلسفة.

> توصيف البحث الطاهائي، باصطلاح المشروع يحمل الكثير من المشروعية في طياته، على قاعدة الفسحة الميدانية، أي اتساع الحقل الذي اشتغل عليه الأستاذ طه عبد الرحمن

المشروع الفلسفي

توصيف البحث الطاهائي، باصطلاح المشروع يحمل الكثير من المشروعية في طياته، على قاعدة الفسحة الميدانية، أي اتساع الحقل الذي اشتغل عليه الأستاذ طه عبد الرحمن، فالإحاطة بالمقاصد اللغوية، والأصولية التي أشار إليها المفكر، من التماسك مع كثير من اللحاظ الفلسفية والوجودية، وعلى الأخص البنية الأخلاقية والهوية الاجتماعية، وهي بدرجة من التعقيد تدفع إلى القول بضرورة إنشاء مدرسة طاهائية، تتكفل بقراءة وتفكيك المنتوج الطاهائي، والذي كان الاختلاف في تقييمها دلالة على أهميتها العلمية، وعلى حد تعبير تلميذه الأستاذ إبراهيم مشروح فمعالم المشروع الطاهائي يظهر في عناصر ثلاثة وهي: العقلانية، والحوارية، والأخلاقية.



في أصول الحوار وتجديد علم الكلام - طه عبد الرحمن / سنة الطبعة الأولى: ١٩٩٥م.

المنهج الطاهائي

ليست الهوية صفة، وخاصية عرضية، وفضيلة تتأسس على الفضل، أي الزيادة، بل هي روح البحث، وجوهره، وخصوصية المنهج لا تقف عند موقع الوسيلة، قاعدة النظر للوسائل بعين السبل المؤدّية للحقائق، مقارنة مع النتائج، التي تصبح في درجة أعلى، باعتبارها تجسيدًا للأهداف والغايات النظرية، التي كانت قبليًا ضمن قائمة المطالب، فأصبحت ضمن المكاسب في الفضاء البعدي، وإذا كان المنهج في روحه مجموعة من الآليات المستخدمة بغية الوصول إلى الحقيقة، والوصل بينها وبين السؤال، فإننا نجد أن اللغة تمثل إكسير هذا المنهج، وما يلاحظ على الأستاذ طه عبد الرحمن الاعتماد على تفكيك اللغة، وإعادة تحيينها، في سياقات أبدع في التعبير عنا.

واللغة تضعنا بلحاظها وخصوصياتها في وضعيات إشكالية أكثر من التي نضعها فيها، فهي التي تدفعنا إلى مراجعة استعمالنا لها، على قاعدة الخصوبة والثراء الذي تتسم به، كما أن الكلمات أو الألفاظ -المخاض الرئيس للغة- هي البنيات الأولية التي تقتضي منا مراجعتها، والتي تكون في ذات الوقت أداة للمراجعة، وطبيعة المنهج البنيوي والتفكيكي تعكس الوظيفة الأخيرة للغة، والتسليم بالوظيفة التواصلية للألفاظ يستبطن توصيفًا فاصلًا بين اللغة والفكر، أي أن القول بأن اللغة وسيلة يفترض وجود معاني وأفكار مالكة لخاصية أنطولوجية تحتاج إلى أداة مستقلة بالوجود وموضوعية عن الذات هي الألفاظ. فالبحث في طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، هو محاولة من الفكر في تفجير التماهي القائم بين الجوهر وصورته، التفجير الذي يحوّل الإجابة إلى شظايا، وظلال للحقيقة، أي إلى مجموعة إجابات، كما أن فعل الترجمة، أي إقامة جسور اتصال بين اللغات يولد، ويتمخض عن كثير من الاستشكالات الفلسفية والانطولوجية، وأهمها الهوية الذاتية للغة وهوية الجماعة داخل اللغة، وهذا ما ميّز طه عبد الرحمن في مشروعه، حيث اعتبر مهمة المفكر العربي مهمة لغوية بالأساس، فتحيين اللغة بصفتها مادة التفكير وصورته، يمنح الباحث الأهلية والاعتبار الوجودي المميز، فمن دون اللغة لا نكون إلا خارج الدائرة الوجودية بالنسبة لذواتنا، و بالنسبة لغيرنا، ولما كانت اللغة روح الأمة، والمظهر الوحيد للفكر كما يقول إبراهيم مشروح، فقد انطلق الأستاذ طه عبد الرحمن من إصلاحها بما أوتيه من عُدة استمدّها

من النظريات اللسانية العامة والنماذج المنطقية والفلسفات اللغوية. يقول:

"وعلى الفيلسوف قبل أن يتّجه باجتهاده إلى التوعية بقدرة لغته الفكرية أن يميز لغته عما ليس من لغته، أو يتعارض ولغته عما هو لغو، ولغونا يظهر في التشويه الذي لحق أصول لغتنا وبناها وكبت فلسفتها.. وعلى الفيلسوف العربي أن يخلصنا كمن هذا اللغو الذي حال دون تحرّرنا العقلي، ودون إبداعنا الفكري، وبهذا تكون رسالة الفيلسوف العربي رسالة لغوية من منطلقها".

و"لذلك نجد أن معالجته تعتمد أولاً على معالجة مشكلة المصطلحات، ثم على التقسيم المنطقي للموضوع، ثم على الاستدلال المنطقي لإثبات القضايا محل البحث". فالتماسك الداخلي والاستدلال الحجاجي وتقريب المنقول بما يتناسب والمجال التداولي، لغة وعقيدة ومعرفةً مواصفات يختص بها مشروع طه عبد الرحمن في استشكالاته المتعددة"[٧].

والطريق لاستقلال الفلسفة الإسلامية عن كل منقول في نظر الأستاذ طه عبد الرحمن لا يحصل إلا عن طريق الجمع بين مقتضى "الإبداع الموصول" ومقتضى "الكونية المشخصة"، فالتميز أو الهوية المطلوبة في البحث الإسلامي مشروطة بالارتباط والاعتماد على المعطى التراثي الناتج عن التطور الفكري لنخبة الأمة وحينئذ، يلزم فلاسفة المسلمين أن يقيموا إنتاجهم الفكري على معطيات المجال التداولي الإسلامي، مجتهدين في استمداد الإشكالات الفلسفية منه، وعرض الإشكالات المنقولة عليه، فتجاوز التراث السابق ينم عن عجز، ومحدودية روح الإبداع في النخبة التي ورثت تراث السلف، كما يلزمهم أن يستثمروا، في تطلعهم إلى إضفاء الكونية على أسئلتهم وأدلتهم، خصوصية تعامل هذا المجال التداولي مع العقيدة الدينية، والخبر السمعي، وكذا العمل السلوكي واللسان العربي، فبدون توظيفهم لهذه المقولات الأربع الخاصة في إنتاجهم الفكري، فإن جهودهم في تحرير الفلسفة الإسلامية من سلطان المنقول تذهب سدى، وسنحاول في هذه المحطة



حرب الأيام الستة
الدبابات الإسرائيلية تتقدم في هضبة الجولان خلال حرب الأيام الستة بين القوات العربية والإسرائيلية، في ١٠ يونيو ١٩٦٧م.

الاستئناس بنموذج معرفي منقول، ألا وهو علم المنطق، والذي عايش ممتهنوه كثيرًا من أشكال التهوين. "اتخذت هذه المضايقة أشكالاً متفاوتة في الحدة ومتباينة في الأسلوب: قد اعتبر المنطق فضولاً من القول أو خروجًا عن السليقة أو مرتعًا للشناعات أو مظنة للشبهات، بل رجمًا بالغيب وخوضًا في لجج الباطل، ووقع تكريهه، بل تحريمه ومصادرته، كما ابتلي أصحابه بالتجريح أو الاتهام أو الإيقاع، بل بالمتابعة والمعاقبة"[٨].

> يتجلّى الإبداع عند طه عبد الرحمن في جرأة المساءلة المسئولة، أو ما اصطلح عليه بالسؤال المسئول، ومراجعته لفحوى الدلالات إقرار بنسبية المعنى ومشروطية الدلالة بثقافة، وشخصية المفهوم، وسنرى من خلال مساءلته لاصطلاح الأخلاق، طابع الجدة والاجتهاد، وملمح الهوية الذي كان هاجسًا بالنسبة للمشروع الطاهائي

والأصل في موقف العامة من مناهضة المنطق له ما يبرّره، في نظر الأستاذ طه عبد الرحمن، حيث أن التقريب التداولي الذي اقترحه فلاسفة الإسلام للمنطق وحيثياته أخلت في نظرهم بجملة من الخصوصيات التراثية والتي تعكس الهويّة العربية، والمتعلقة بقواعد اللغة، ومعالمها الإبداعية، والتي يعبّر عنها بالإخلال بقواعد الاستعمال اللغوي، والتي منها الإخلال بقاعدة الإعجاز، حيث أصبح المعيار الذي تخضع له القضية هي القواعد المنطقية لا غير، على قاعدة كليتها، وشموليتها، والذي يلزم عنه إخلال بقواعد النحو الذي يمثّل الأساس للتركيب السليم، أمرًا محمودًا وجب الأخذ به والإقرار بصحته، في حين أن الموجبات المنطقية تفترض صحة القضايا تبعًا لقواعد، رغم إخلالها بقوانين التركيب السليم. أما القاعدة الثانية التي تخل بمقتضى الاستعمال اللغوي، وهي قاعدة الانجاز، حيث يلخص الأستاذ مضمون هذا الخلل في قوله" "كان المنطقيون يميلون الى صوغ عباراتهم بطرق محررة على مقتضى أساليب التعبير المنطقي المنقول اليهم، فجاءت هذه العبارات، في اصطلاحها وتركيبها، مخالفة لضوابط التبليغ العربي السليم ..مثل إدخال "ال" التعريف على الأدوات وعلى الضمائر، و إلحاق النسبة المصدرية بها نحو "الهلية"، الانية والماهية والكيفية الكمية والهوية، و إدخال "ال" التعريف على الأفعال نحو الليسية..."[٩].

أما القاعدة الثالثة: الإخلال بقاعدة الإيجاز حيث أدى إدخال آليات المنطق الاستدلالية إلى تكثير عباراته وتكلف بعض أجزائها، وما يهمنا في الأمر هو التأكيد على بعد الهوية في النقد الذي أعاد به طه عبد الرحمن قراءة الموقف المناهض للمنطق، والذي أنتج في المخيال العربي والإسلامي انحرافًا للفئة المناهضة، في حين أن الهوية كانت هي السبب والمرجع في كل رفض، فالتنازل عن هوية اللغة هو تنازل عن الإرادة والحرية.

الهوية والأخلاقية

الأشْكَلة La problématisation هي وضعية تساؤلية، يحول الباحث فيها الموضوع بكل أنواعه مفهومًا أو علاقة، أو نتيجة إلى حقل تساؤل أو استفهام موجه بطلب معين، وتأخذ الصورة النظرية للبحث بُعدًا تعارضيًا، تصبح الإجابة، أو اليقين فيها متعذرًا، ويعمل الاختلاف بين المدارس الفلسفية على تأكيد هذه الصورة، أكثر مما يسعى الفلاسفة فيه إلى إزالتها، حتى أنه تهيأ للبعض من المندسين في الفلسفة أن مهمة الفلسفة فقط هي الإثارة، والبقاء في عالم الضبابية، والمؤسف أنه تم نقل هذه الخاصية إلى المخيال الشعبي، الذي تلقفها بلهفة، وبتزكية من السلطة الجماعية.

والأصل أن الإثارة الفلسفية ليست إلا مدخلاً للبحث في الموضوع، وليست هي الغاية، لأن التسليم لا يكون إلا ضربًا من الاستسلام للغير في قبول رأيه، والتنازل عن حق التفكير الطبيعي الذي يملكه كل شخص.

كما أن الاختلاف بين الفلاسفة ليس مبررًا للقول بتضمن، أو احتواء الفلسفة على روح التصادم، بل ملمحًا لبيان محدودية العقل الفلسفي في تلك الفترة على إيجاد حل للمسألة، ومهما يكن، فإن الحل الذي يقدمه الفيلسوف آنذاك تبعًا لمشروطية معينة، لا يستطيع الصمود أمام التقدم الفكري والحضاري الذي يعرفه الإنسان، ويكون الاختلاف المصير الحتمي بين الفلاسفة، فالفلسفة هي العصر معبرًا عنه في الفكرة.



الحق العربي في الاختلاف الفلسفي - طه عبد الرحمن / سنة الطبعة الأولى: ٢٠١٤م.

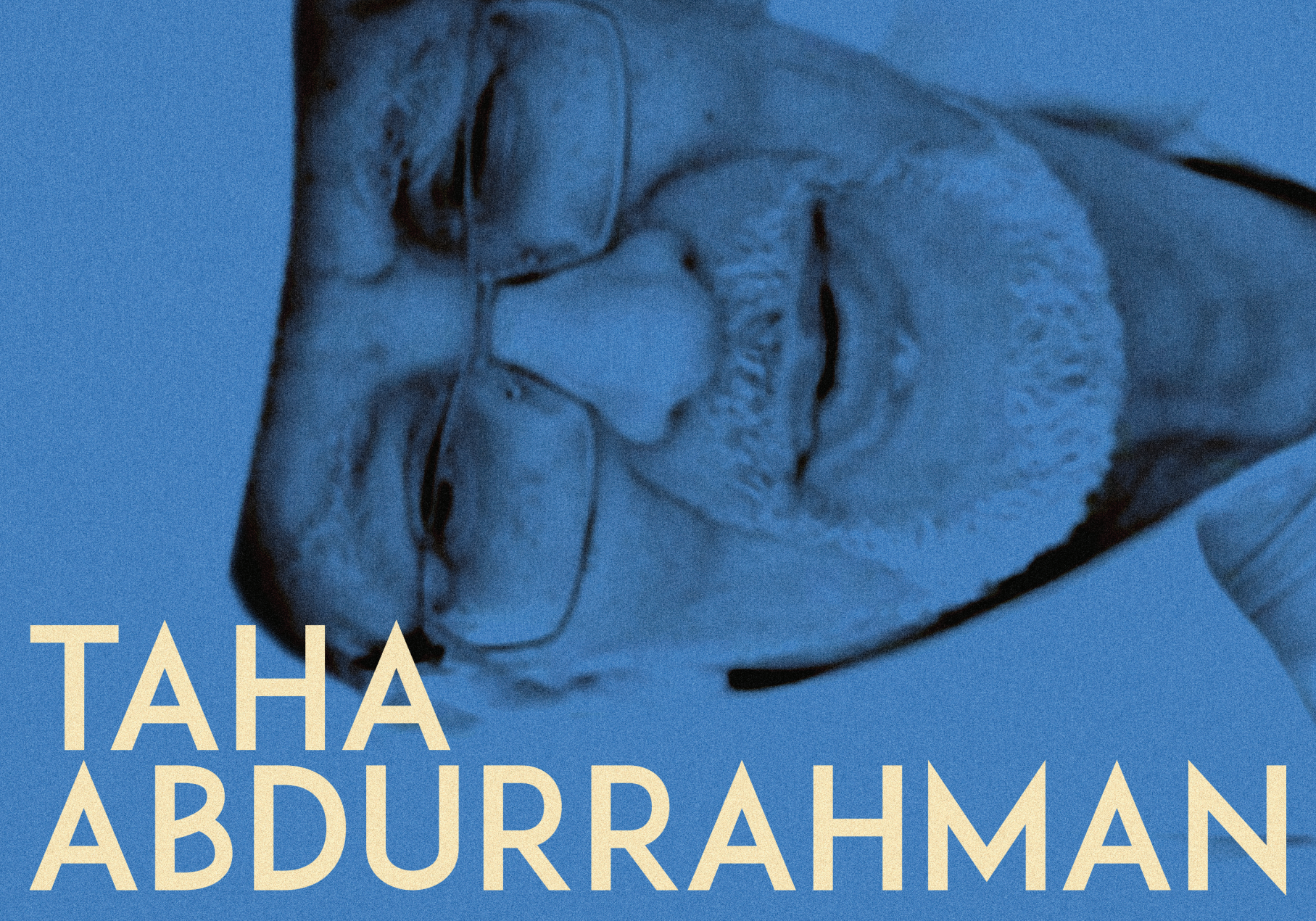
TAHA
ABDURRAHMAN

يتجلّى الإبـداع عند طه عبد الرحمن في جرأة المساءلة المسئولة، أو ما اصطلح عليه بالسؤال المسئول، ومراجعته لفحوى الـدلالات إقرار بنسبية المعنى ومشروطية الدلالة بثقافة، وشخصية المفهوم، وسنرى من خلال مساءلته لاصطلاح الأخلاق، طابع الجدة والاجتهاد، وملمح الهوية الـذي كان هاجسًا بالنسبة للمشروع الطاهائي.

مساءلة المفهوم آلية منهجية في المشروع الطاهائي، تمكّن القارئ من معرفة التاريخ الثقافي للكلمة، وتمنح الشرعية والمشروعية لنتائج البحث، فدلالة الهوية كمخاض بشري، لم تصل إلى الثبات، والتواضع على المعنى له تاريخ، ملئ بالاضطراب، والتوتر، ويصطلح عليه طه عبد الرحمن بقانون التضاد: "حيث أن عددًا كبيرًا من الكلمات العربية تفيد معنيين متضادين.."[١٠].

> من أهم معالم الإبداع في المشروع الطاهائي الثورة على التأصيل اليوناني للجِبلة الإنسانية، والتي تدّعي في القول بأن العقلانية صفة ماهوية، وفاصلة لبني البشر عن غيره من الكائنات، ومضمون الأطروحة الطاهائية أن الأخلاقية هي الأصل، والفصل النوعي

ولبيان و إجلاء العلاقة التاريخية والإثنية بين مفهوم الأخلاق ودلالاته التي يشير إليها، يذهب الأستاذ إلى قـراءة المصطلح في سياقه اللغوي والتاريخي، فينبهنا إلى الجـذور اللغوية لكلمة "إيتيقا"، وهو لفظ استعمله اليونان للدلالة على موضوع الأخلاق Ethikos، ... ونقله اللاتينين إلى لغتهم بلفظ moralis حيث استعمل المتقدمون من فلاسفة الغرب اللفظين بمعنى واحد باعتبارهما مترادفين، وطه عبد الرحمن يجد أن منهم من يؤثر استعمال هذا اللفظ أو ذاك، أما المعاصرون منهم، فأبوا إلا أن يفرقوا بينهما: وليس بدعا أن يحدث المرء تفرقة اصطلاحية فيما كان مجموعًا تحت مصطلح واحد متى دعت الحاجة إلى أن يعبر بوضوح عن ضـربين مختلفين من الانشغالات أو الاعتبارات أو الاستشكالات، لكن لا يبدو أن الأخلاقيين المعاصرين استوفوا شرط الوضوح الاصطلاحي في لجوئهم إلى التفرقة بين Moralis أو Morale وبين Ethics أو Ethique "[١١].

وجد طه عبد الرحمن أن التفرقة بين اللفظين "الأخلاق" و"الايتيقا" لا تفي بالغرض في وضوح المعنى، إذ يمكن أن يتردّد القائل بالتفرقة بينهما بين وجهين فأكثر من وجوه التفرقة، أو ينساق إلى استعمال حد اللفظين في معنى الآخر أو يورده في المواضع التي ينبغي أن يورد فيها هذا اللفظ الثاني.

فهذا يجعل morale عبارة: عن جملة الأوامر والنواهي المقررة عند مجتمع مخصوص في فترة مخصوصة، في حين تكون ethique عنده عبارة: عن العلم الذي ينظر في أحكام القيمة التي تتعلق بالأفعال، إن تحسينًا أو تقبيحًا، والحال أن الأوامر والنواهي التي تدور عليها الأولى هي بالذات الأصل في أحكام التحسين والتقبيح التي تدور عليها الثانية، بحيث لا تختلف morale عن Ethique إلا كما يختلف الشيء عن العلم بهذا الشيء، بمعنى أن morale إنما هي الموضوع ذاته الذي تختص "ethique" بالنظر فيه، وحينئذ لا غرو أن ينتهي واضع هذه التفرقة إلى الإقرار بوجود تداخل بين مسائل المفهومين المذكورين.

"الأخلاق" مفرده "خُلُق"، بضم الخاء واللام، والخلق لغة هو الطبع، واصطلاحًا هو الصفة السلوكية محمودة كانت أو مذمومة، ويقابله في اللسان اليوناني: "إيتوس" بمد الهمزة المكسورة وهو لفظ قريب من النطق من لفظ: "إتوس" بالهمزة المكسورة غير الممدودة ومعناه العادة، وقد أخذت الممارسة التراثية بالمعنيين معًا الطبع والعادة في تصنيفها للصفات الخلقية، فجعلتها على ضربين ما هو طبيعي من أصل المزاج، وما هو مستفاد بالعادة والتدريب، ورتبت عليهما مواقف ثلاثة: القول بالطبع والقول بالتعود والقول بتأليف بين الطبع والتعود.

والأخلاق في مجال الممارسة التراثية الإسلامية المنقولة عن اليونان تفيد نفس القصد أيضًا وهو: "عبارة عن أحوال راسخة في النفس رسوخ طبع أو رسوخ تعوّد، تصدر عنها أفعال توصف بالخير أو بالشر".

كما بيّن الأستاذ طه عبد الرحمن المرجعية اللغوية وأثرها في صياغة الإشكالات الأخلاقية، إذ بين لنا أن التأسيس الأخلاقي لإشكالات الأخلاق كان مع أفلاطون من خلال محاورة النواميس، حيث

جمع بين لفظ "إيتوس" بمد الهمزة الذي يدل على الخلق، وبين لفظ "اتوس" بعدم مد الهمزة المكسورة الذي يدل على معنى العادة، وأخذ عنه أرسطو هذا الربط فقال: "الخلق يكتسب من العادة جاعلاً منه حالة ناتجة عن التعود يسميها "هيكسيس" أي الاستعداد، وهكذا يكون أفلاطون بفضل الوصل بين المعنى اللغوي والاصطلاحي لـ"إيتوس"، وقد فتح الطريق لطرح إشكالين فلسفيين أحدهما اكتساب الأخلاق عن طريق التعود والثاني تحصيل الاستعدادات وسيتولد من هذين الإشكالين بدورهما إشكالان آخران هما قابلية الأخلاق للتغير ومنزلة الاستعداد من القوة والفعل.

وإذا سلّمنا بارتباط النظرية الأخلاقية اليونانية بالأصل اللغوي الخاص باللسان اليوناني اعتقادًا منها بتفوق اللسان، ومشروعية التأسيس هذه تجعل من نقل المفاهيم إلى لغة أخرى يؤدي إلى التفاوت بين المعنى اللغوي للمفهوم الأخلاق بالمنقول، ومعناه الاصطلاحي في اللغة المنقول إليها، ذلك أن هذه اللغة قد تضطر إلى استعمال مقابل لا توجد فيه الصلة بين المعنيين على الوجه الذي توجد به في اللسان المنقول منه، فيلزم بذلك من هذا التفاوت أن يشق على اللغة المنقول إليها إدراك الدقائق الدلالية والوجوه الاستعمالية التي استثمر بها هذا المفهوم الأخلاقي في اللسان المنقول منه، كما أنها تتعثر في تبين حقيقة الأحكام والإشكالات التي بُنيت عليها، وعليه لا يصح أن تنزل أحكام الأخلاقيات اليونانية إنزالاً على الأخلاقيات الإسلامية، كما أكد الأستاذ طه عبد الرحمن بأن القول بغياب الدراسات أو ضحالة الفكر الأخلاقي الإسلامي يستبطن الحكم التالي: "إن الاستشكال الفلسفي والاستدلال المنطقي اليونانيين ملزمان لكل ممارسة للنظر الأخلاقي، وعليه ينبغي مراجعة الأحكام التي يقيمها عمالقة الفكر العربي حول التراث العربي والإسلامي".

من أهم معالم الإبداع في المشروع الطاهائي الثورة على التأصيل اليوناني للجِبلة الإنسانية، والتي تدّعي في القول بأن العقلانية صفة ماهوية، وفاصلة لبني



مخيم جباليا للاجئين
ألتقطت هذه الصورة في مخيم جباليا للاجئين الفلسطينيين بقطاع غزة، وذلك خلال الأسابيع الأولى من انطلاق الانتفاضة الأولى.
● المصدر: جوزيفو آلتمن (Josefo Avelino Antmann)، مصوّر أرجنتيني. / التاريخ: ١٨ ديسمبر ١٩٨٧م.

البشر عن غيره من الكائنات، ومضمون الأطروحة الطاهائية أن الأخلاقية هي الأصل، والفصل النوعي، ويلاحظ على الطرح الدقة في الاستدلال والحجاج، فقراءة الطرح من خلال الرغبة في التميّز، والاختلاف عند الأستاذ ليست إلا دلالة على عجز، وقصور في النظر، وسنشرع في بيان الأطروحة من خلال المنطق، والممارسة المنهجية المتماسكة التي تحايث المشروع، وسنتفق منهجيًا على تسمية المقدمات الطاهائية بمسلمات الإبداع في الأطروحة، وهي:

> يتحدى طه عبد الرحمن المفهوم التقليدي للهوية الإنسانية القائم على العقل، ويطرح أسئلة نقدية حوله: هل يُمكن اختزال الإنسان في عقلانيته؟ وماذا عن الطفل أو غير المكتسب للعقلانية؟ هل يستبعدون من دائرة "الإنسان"؟ وينتقد تحويل العقلانية إلى أداة إيديولوجية للتفوق والاستبعاد

الهوية ومساءلة المفهوم

تاريخ اللفظ وتأثيله بيان يؤرّخ لميلاد المعنى وفتوته وشيخوخته، وجعجعة المعاني ديدن الفكر البشري ودينه، وعاطفة الإعجاب والإكبار بما يملك الآخر، يساهم في سيرورة المعنى وصيرورته، والأصل الذي يعود إليه تاريخ الهوية هو الضمير الغائب الذي يكون، و"استعمل أول ما استعمل بمعنى الوجود، فقيل: "هوية زيد"، وأريد به وجود: زيد، وضدّه في هذا الاستعمال هو "الماهية"، وهو "المشتقّ من صيغة السؤال: ما هو؟ والمقصود بماهية الشيء: ما به يكون الشيء هو هو"[١٢]، فالهوية إذن: "هي جملة الخصائص التي يدركها العقل من الشيء، والتي تجعله هو نفسه، لا غيره، بمعنى تفصله عن سواه كليا، وبيان هذا التضاد بين الهوية والماهية إنه يجوز أن نعرف وجود الشيء من غير أن نعرف كيف أن نصفه، كما أنه يجوز أن نعرف وصف الشيء من غير أن نعرف هل هو موجود أو غير موجود"[١٣]. والمسألة عند طه لا تطرح على مستوى الدلالة التي تحملها الهوية وفي وجهيها المتقابلين: الوجود والخصائص، ولكن في مضمون الخصائص المعبرة عن الهوية، فمن يملك المشروعية في تحديد الصفات، هل الإنسان نفسه هو من يضع مقاييس الفصل النوعي بين المُعرّفات، وأي إنسان؟ هل هو العامي؟ أم ممثل النخبة؟ وإذا قبلنا بأن الإنسان هو الذي يملك حق التواضع على الصفات، فهل بمقدور الواضع التعالي على ثقافته، وتراثه اللغوي والتاريخي والإثني؟ ومن هنا نلمس مسؤولية السؤال الذي يطرحه الفيلسوف طه عبد الرحمن، كما نلاحظ الجرأة التي يملكها الفيلسوف، فلم نعهد مراجعة قطّ من قِبل أصحاب المشاريع الفكرية العربية قبله لهذه المسألة، فالكل يقبل ويسلم بما قاله أرسطو وغيره كقبوله الأحكام الشرعية حين يجد ميلًا من نفسه لها وحين تتطابق مقاصد الحكم مع أهواء نفسه.

تقع العاقلية في تعريف الإنسان موقع الفصل النوعي لبني الإنسان، فهي الخاصيّة التي يسمو بها الإنسان عن باقي الموجودات، فالعقل هو جوهر، وبه تكتمل الإنسانية، وما يحسب للأستاذ إثارته لبعض التساؤلات حول العقل والعقلانية، فإذا كانت العقلانية سمة مطلوبة وليست وجودية أي وجوبية وكيف يمكن قراءة وتوصيف الإنسان الطفل أو المبتدئ في اكتساب العقلانية، فهل ينبغي إقصاءه وإخراجه من دائرة الماصدق الذي ينطبق عليه المفهوم، وعلى حد تعبير الأستاذ طه: "أضحى الجميع يتنافسون على نسبة العاقلية والمعقولية والعقلانية لما يقولون ويفعلون، لكي ينتزعوا المشروعية لأقوالهم والتزكية لأفعالهم.."[١٤]، وعملت الإيديولوجية على حذف العقلانية على الشخص الآخر، والذي يكون مخالفًا. العقلانية لا تعكس الإنسانية، فالفعل هو البديل لمصطلح العقل عند طه عبد الرحمن، ومعلوم أن الفعل لم يرتبط بشيء قدر ارتباطه بالأخلاق، فيتحدد تبعًا لهذا أن التخلق مقابل للتعقل، كما يناقش فكرة أن الأصل في الأخلاق هو حفظ الأفعال الكمالية، حيث يستفاد من المعنى" ..أن الأخلاق أفعال يتوصل بها إلى ترقية الإنسان إلى مراتب لا تدخل فيها هويته ولا بالأولى وجوده، أي أفعال تتعلق بما زاد على هذه الهوية وعلى هذا الوجود، وعلامة ذلك الاسم الذي اشتهر بالدلالة على الأخلاق الحسنة، ألا وهو الفضائل، فالفضيلة من الفضل، والفضل هو ما زاد على الحاجة أو ما بقي

من الشيء بعد الوفاء بالحاجة.."[١٥].

إذا قرأنا الدلالة من خلال الغائيّة التي تملكها الأخلاق، أو من خلال الاصطلاح الذي تواضع عليها علماء اللغة، وفلاسفة الأخلاق، لوجدنا أنّ الأخلاق مجرّد خصوصيات عرضية لا تتعلّق إلا بالشكل، وبمرحلة في سُلّم الترقّي للشخصية الإنسانية، ويُصبح الإنسانُ كائنًا مجردًا من الأخلاقية في البدء، وفي التكوين، كما يضع الأخلاق في مستوى التخليق، أو بلغة فلاسفة الغرب: الأخلاق المكتسبة، وطه عبد الرحمن في مشروعه، مشروع البحث عن آليات تراثية لتنظيم، وتحيين الهوية، الهوية الموءودة، هوية العربي، وهوية المسلم، هي المرمى الذي استقطبه الاستشراق، ومهّدت له الأمة بمجموعها.

"..الأخلاقية هي وحدها التي تجعل أفق الإنسان مستقلاً عن أفق البهيمية، فلا مراء أن البهيمية لا تسعى إلى الصلاح في السلوك كما تسعى إلى رزقها مستعملة في ذلك عقلها، فالأخلاقية هي الأصل الذي تتفرّع عليه كلّ صفات الإنسان من حيث هو كذلك، والعقلانية التي تستحقّ أن تتفرع عليه كلّ صفات الإنسان من حيث هو كذلك، والعقلانية التي تستحقّ أن تنسب إليه ينبغي أن تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي"[١٦].

والأخلاقية ليست في مستوى واحد، بل هي متغيّرة، ومتفاوتة، فهي نتاج فعل إرادي، وتراكم ثقافيّ، والقول بثبات الأخلاق، وتعاليها على الزمان والمكان، يقول: "إن هذه الأخلاقية ليست رتبة واحدة، و إنما مراتب مختلفة، أدناها رتبة الإنسانية التي تكتفي بأخلاق مجردة لا يقين في دوام نفعها وحسنها، تليها رتبة الرجولة التي هي كمال الإنسانية، ثم رتبة المروءة التي هي كمال الرجولة، وأعلاها رتبة الفتوّة التي هي كمال المروءة"[١٧].

تتّسم طريقة التعاطي عند طه عبد الرحمن بالعمق والدقة في التطرق للقضايا الأخلاقية، فهو لم ينطلق من النتائج التي توصّل إليها الفلاسفة في الحقل الأخلاقي على قاعدة اعتبارها حقائق مثل كثير من مفكّري العرب المحدثين والمعاصرين، بل أعمل فكره فيها، بحثًا وتنقيبًا، فكان له التميز والإبداع



في استنطاق التراث اللغوي العربي في استخلاص بعض الحقائق، والتي وجدت تطبيقًا أثبت راهنية النتائج الطاهائية، فهي من حيث الأصل أصيلة، ومن حيث الواقع راهنية، ومن حيث الآفاق التي تعبر عنها تبقى مفتوحة على قاعدة تعلقها بأزمة الوجود العربي والإسلامي، وسنرى من خلال القراءة الطاهائية تراتبية القيم الأخلاقية، وعلاقتها بالواقع الحقيقي للأمة.

يقع القارئ لطه في حيرة ويُصدم عند اطلاعه على النظرة الطاهائية لدلالة الإنسانية، ولا سيما عندما يضعها في أدنى مرتبة أخلاقية، فما يملكه المثقف في هذا العصر حول الإنسانية بأنها المطلب، والأمل لكل فرد وجماعة، فكيف تصبح في أدنى المراتب الأخلاقية!..

> يؤسس طه عبد الرحمن مفهوماً بديلاً للهوية الإنسانية، قائماً على الأخلاق لا على العقل. فالأخلاقية هي الأصل والفصل النوعي للإنسان، وهي درجات متكاملة تبدأ بـ"الإنسانية" وتتوج بـ"الفتوة". وبذلك، يحوّل النقاش من سؤال "ما الذي نفكر به؟" إلى سؤال "كيف نتعامل ونتخلق؟" كأساس لهويتنا الحقيقية

ينبئ البحث في تاريخ النزعة الإنسانية، وفي أفعال المتشدّقين بها، انحرافًا واضحًا في المجال الأخلاقي، والأصل في الزلل نابع أو عائد إلى تأسيس هذه النزعة على المرجعية العقلانية التي تحتاج إلى قراءة دقيقة، وتقعيد أخلاقي لها، فدلالة العقل لا تنفصل عن تاريخه، وتَتبع تاريخ العقل في الدراسات الفلسفية يسافر بنا إلى كثير من الدلالات، فهو تلك الملكة، التي نميّز بها بين الصحيح والخاطئ، وتلك القدرة التي تؤهلنا لمعرفة الخير من الشر أيضًا، واعتباره العقل كقدرة وملكة سكونية طرحت عند طه عبد الرحمن كثيرًا من التساؤلات، منها الاختلاف الحاصل في أنماط المعرفة، وهو "على الحقيقة -أي العقل- عقول شتى، لا بالإضافة إلى الأفراد المختلفين أو الطوائف الكثيرة، و إنما بالإضافة إلى الفرد الواحد.. فالعقل يتكثر من أجل جلب المنفعة لصاحبه، أما العقل الذي يجلب المضرّة لصاحبه فهو عقل متقلّل، وليس أبدًا عقلاً متكثّرا"[١٨].

و إذا كان العقل متكثرا، أي أنه متغيرًا تبعًا لنوع الموضوع، ولطبيعة الغاية، فإن أوجه العلم تكون أيضًا متكثرة، والعلم على نوعين: علم يطلب لذاته، وهو علم معرفة الله تعالى، وصفاته، كالكمال، والجمال والوحدانية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمّد: ١٩)، وعلم يطلب تعلمه من أجل العمل به، وهذا النوع يسمّى العلم التطبيقي، وهو على نوعين: أولهما الأمور التي تؤدى بواسطة الجوارح، والأعضاء كالصلاة والصوم والحج، ويُدعى هذا العلم في علم الأخلاق بالفقه الأصغر، ثانيهما: علم الأعمال الروحية والنفسية، كالأعمال التي تؤدى بواسطة القلب والجوانح، وهو ما يسمى بالفقه الأكبر[١٩].

وعليه تكون العقلانية على قسمين رئيسين" "هناك العقلانية المجردة من الأخلاقية، وهذه يشترك فيها الإنسان مع البهيمة، وهناك العقلانية المسدّدة بالأخلاقية، وهي التي يختصّ بها دون سواه... والصواب أن الأخلاقية هي ما به يكون الإنسان إنسانًا.."[٢٠].

فالهوية الإنسانية لا تتأسس على العقل بل على الأخلاق.

التراث والهوية

لم يأخذ طه عبد الرحمن الدلالة التي أخذتها الإنسانية كما هو مألوف عند دهماء الناس، وحتى النخبة العربية لم تألُ جهدًا في البحث في تاريخ الدلالة، إذ شمّر على آلياته المنهجية والمنطقية في الحفر عن المعاني الأصيلة التي تملكها اللغة العربية، فإذا كانت اللغة اليونانية المرجعية الفكرية التي أخذ منها فلاسفة اليونان إشكالاتهم الفلسفية والعلمية، فإن لغة الضاد تملك من المقوّمات ما يفوق قدرة اللغة اليونانية، واللغات الأخرى، وتحميل التبعة لبعض المفكرين للغة، هو إلحاق تبعة الجريمة ضد مجهول كعادتهم، والمتمثلة في العجز والانتكاسة، ولكن التميز الذي يرفع الأستاذ طه إلى مصاف المبدع، هي قدرته في استنطاق التراث اللغوي، والمفاهيم الطاهائية، أو الاصطلاحات القديمة بالقراءة التراثية الجديدة، مع راهنية الأمة: الإنسانية ـ الرجولة ـ المروءة ـ الفتوّة. ارتبطت دلالة إنسانية بمفهوم إنسان، والتي وردت

٦٥ مرة، وكانت في جلّها تشير إلى البعد الأخلاقي لهذا الكائن أكثر من إشارتها إلى البعد المادي، وهو ما أكد عليه أستاذنا طه عبد الرحمن، فالمراد من كلمة "إنسان" ليس الجسد الظاهري، أو الصورة الخارجية، بل المقصود هو الباطن والخلقة، واستعداد الإنسانية وفطرتها، وشعورها مثل قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، (العصر: ١-٣)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ (النجم: ٣٩-٤٠).

يرى الأستاذ طه عبد الرحمن أن لفظ "إنسان" كان في الأصل يحمل مضمونًا حسيًا، وهو: الكائن ذو الصورة الآدمية في مقابل الكائن ذي الصورة الحيوانية، ثم اتّسع مدلوله تدريجيًا، فصار يحمل مضمونًا غير حسي، -أي معنوي- وهو كما تقدّم الكائن ذو الأخلاق[٢١]. ووقوعها في المرتبة الأدنى من الممارسة الأخلاقية يظهرنها: "النزعة التي تقصر همها على الإنسان باعتباره مستغنيًا بذاته في وجوده وأفعاله، فلا تحتاج الى اعتبار خالق لهذا الإنسان أو التماس دين منه.."[٢٢].

والمعنى الثاني الذي يؤسس عليه طه عبد الرحمن مشروعه النقدي، والبنائي لمفاهيم أصيلة تساير أو بالأحرى تتعالى على الإبداع الغربي في نحت المفاهيم، خصوصًا لفظ إنسانية، وهو لفظ الرجولة أو الرجولية، جملة الصفات الخلقية التي يحصل بها للكائن البشري كمال الإنسانية، وليس في مدلول الرجل ما يفيد اختصاصه بالعقل من دون الحيوان[٢٣]، وهو في التداول الشعبي عند العربي، يفيد دلالة قيمية أكثر من الدلالة الذكورية، والمتعلقة بجنس الكائن، فرجولة العربي قائمة على الكرامة والشرف والعرض، فالقيم الأخلاقية الأساس، والمرجع الدلالي للمفهوم.

أما المعنى الثالث الذي يحمل الخصوصية البشرية في التراث العربي والإسلامي، فهو المروءة، والمقصود به جملة الأخلاق التي يحصل بها للإنسان كمال الرجولة، أما المعنى الأخير فهو القصد الأول من التأسيس والتأثيل الطاهائي،

#مقاطعة_ماكدونالدز
أثار الانتشار الواسع لصور الجنود الإسرائيليين وهم يحملون أكياس وجبات ماكدونالدز غضباً واسعاً على شبكات التواصل الفلسطينية والعربية والدولية، مما أدى إلى إطلاق دعوات لمقاطعة عالمية ضد مطاعم ماكدونالدز تحت وسم (#مقاطعة_ماكدونالدز). وفي النهاية، تسببت هذه المقاطعات في انخفاض مبيعات ماكدونالدز، خاصة في الدول والمناطق ذات الأغلبية المسلمة.



وهو: الفتوة الذي يكون المعنى الأولي الذي يقدّمه للمتلقي هو الكائن البشري الذكر الذي ليس بطفل ولا كهل، أي الشاب الحدث، ثم توسع، فأصبح يدل اصطلاحيًا عل معنى أخلاقي صريح منذ زمن بعيد. وينبهنا طه عبد الرحمن إلى أن نتائج قبول المتلقي للدلالة الحسية للفتى يوقعنا في تناقض دلالي في الفكر، فالفتى يتعالى على الإنسان وعلى الرجل والمروءة بخصوصيات أخلاقية، وأهمها كمال التدين، كمال القوة، كمال العمل، والذي يزوّد الفتى باتساع في الأخلاق، وهو لا يتسنى في ما عداها من رتب العمل، فالهوية الأصيلة إذن عند طه مرتبطة بالكمال في العمل، والفتوة هي الأكمل لامتلاكها هذه الخصوصيات، وتكون الهوية البشرية المؤسسة من طرف الفتوة هي الأوسع، والأقدر والأجدر.

> يرى طه عبدالرحمن أن مفهوم "الإنسانية" الغربي، رغم توسعه من الدلالة الحسية إلى المعنوية، ظلّ قاصراً لأنه يجعل الإنسان مركز الكون ومستغنياً عن أي مرجعية متعالية (كالدين). وهذا يجعله في المرتبة الدنيا في السلم الأخلاقي.

أما اللطيف في الإبداع الطاهائي فيظهر في توظيف طه عبد الرحمن هذه المفاهيم الأربعة في قراءة وتفسير الواقع أو الراهن العربي، الذي يتحرك خبط عشواء في عالم، علم بهويته، وعمل على فرض وجوده، وتصدير رؤيته للكون، وللإنسان إلى الغير. وقراءة طه للانقسام السياسي في الأمة العربية في ضوء المفاهيم التراثية الأربعة، لا يبشّر بخير، والخطر في الأمر أن الانقسام هو انشطار في الهوية، وانحراف عن التقعيد الأخلاقي للهوية، فبما أن العقلانية كانت البديل عن الأخلاقية في التأسيس للهوية، فيصبح الانقسام أمر شرعي ومشروع على قاعدة الحرية في إعمال العقل، وفي الفهم والتأويل، والتصنيف الذي يقدمه الأستاذ طه عبد الرحمن، للطبقات أو الشرائح الاجتماعية المؤلفة للأمة، تشكل إسقاطًا للتأثيل الأخلاقي الذي حدده للخاصية البشرية، و إذا كانت الإنسانية تعبيرًا على النقص في التدين، على قاعدة الاحتكام إلى العقل باعتباره شريكًا حقيقيًا للإنسان في تجاوز السلطة المتعالية التي يملكها المقدس الديني، والتمثيل الحسي الذي يقابل الخصوصية الإنسانية هو فئة الشريحة الداعية إلى التطبيع مع "إسرائيل"، وهي: "الفئة التي اختارت أن تسلك طريق التطبيع مع العدو الصهيوني وأن تدعو إلى ثقافة السلام، مع العلم بأن السلام لا يعقل إلا في سياق تمتع كل واحد من الطرفين بحقوقه كاملة.. فهؤلاء المطبّعون يتنكرون علنًا للأخلاق ذات الأصل الديني..."[٢٤].

والتنكر للمقدس الديني في اعتقاد الأستاذ طه عبد الرحمن يسقط، أو بالأحرى أسقط هذه الفئة في مخيال امتلاك الصواب، حيث يكون الحق في النظر إلى القدس كمعلم إسلامي يؤسس لوحدة الأصل، ولوحدة المصير أيضًا، فالإيمان بالأخلاق المجردة أسس لهذا الاعتقاد، ويمكن أن نلمس مقاربة نيتشه للقيم الأخلاقية، والتي يعتقد بأن التجريد النظري للأخلاق هو الذي انحرف بالمسار الصحيح للأخلاق، وعليه فإن: "العقلانية التي يتشدقون بها ليست مطلقًا هي الخاصية التي تتحدد بها الهوية البشرية، و إنما تتحدد هذه الهوية بالأخلاقية الجامعة التي تندرج فيها العقلانية..".

أما مصداق الرجولة كمرتبة أخلاقية، فينزلها الأستاذ طه عبد الرحمن على الفئة التي ارتضت بمقاطعة العدو الصهيوني، فهم فئة استطاعت تجاوز البعد التجريدي في الأخلاق، والذي ميز سلوك فئة الإنسانية، ومنزلتهم في الحياة الأخلاقية أرفع، فتعظيمهم الأرض المباركة دليل على امتلاكهم مستوى من الأخلاق، ولكن لا يرفعهم إلى المراتب العليا في الأخلاق مثل مرتبة المروءة، وهم من الفئات في نظر طه الذين قرروا رفض العدو الصهيوني في الأرض المقدسة، فهم على قاعدة الرفض يشكلون مستوى معيّن من المقاومة، أما المرتبة العليا في السلّم الأخلاقي والتي هي الفتوة في الاصطلاح العربي، والتي برهن عليها الأستاذ من خلال اللغة، ومن خلال النص الديني على تعاليها وتساميها الأخلاقي معرفة، وفعلاً، فتمثل الانتفاضة أو المنتفضين، والذين تولوا بأنفسهم مقاومة وجود العدو الصهيوني، وممارسة حقهم في الجهاد والاستشهاد، وحاصل القول: أن مواقف العرب من العدو الصهيوني تجعلهم طبقات أربع، طبقة الناس وتتكون من أهل التطبيع، وطبقة الرجال وتتكون



روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية - طه عبد الرحمن/ الطبعة الأولى: ٢٠٠٦م.

من أهل المقاطعة، وطبقة ذوي المروءة وتتكون من أهل الرفض، وأخيرًا طبقة الفتيان وتتكون من أهل الانتفاضة.

الحلقة المفقودة في المشاريع الفكرية العربية هي المبدأ في البحث بالأصل، ولكن الكثير من تغافل عن علة البحث، والاجتهاد النظري، ولكن الأستاذ طه عبد الرحمن بلغته التقنية، وبآليته المنطقية استطاع أن يكتشف علة الخلل في الوجود العربي والإسلامي، فنكبة فلسطين، وتوالي الهزائم العربية، شكّل لدى النخبة العربية هاجسًا للبحث في دواعي النكسة، ولكنه أعجب بمدح المتلقين، فنسي الأصل الأول للبحث، والمؤسف أننا نفتقد يومًا بعد يوم روح المشاركة الوجدانية مع أبناء فلسطين، ونكتفي فقط بذرف الدموع التي نستطيع من خلال جمعها إغراق "إسرائيل"، وإن كانت قد تفطنت استراتيجيًا، فهيأت السدود لتحتفظ بتلك الدموع لتغرقنا بها بعد ذلك. فالهوية المفقودة هي هوية مـوءودة، وهي فلسطين لا غير.

الهوامش

1. (dazein)

٢. (وقيدي، حوار فلسفي، ١٩٨٥)
٣. (طه عبد الرحمن، ص ٢٤٩)
٤. (عبد الرحمن،٢٠٠٠، ص١٩)
٥. (عبد الرحمن، ٢٠٠٠، ص١٦٠)
٦. (عبد الرحمن،١٩٩٩، ص٤٢٩)
٧. (بلعقروز، ٢٠٠٩، ص٣٩).
٨. (عبد الرحمن، ص ٣١٥)
٩. (عبد الرحمن، ص٣١٦)
١٠. (عبد الرحمن، ص١٧٢)
١١. (عبد الرحمن، ٢٠٠٩، ص١٧).
١٢. (الجرجاني، ص١٠٤)
١٣. (عبد الرحمن، ص١٧٢)
١٤. (الجرجاني، ص١٧٣)
١٥. (عبد الرحمن، ص٥٣)
١٦. (عبد الرحمن، ص١٤)
١٧. (عبد الرحمن، ص١٨٩)
١٨. (عبد الرحمن، ١٩٩٨، ص٤٠٥)
١٩. (آملي، ١٩٩٦، ص ١٠/٩)
٢٠. (عبد الرحمن، ص١٣)
٢١. (عبد الرحمن، ص١٧٥) ،
٢٢. (عبد الرحمن، ص١٧٧)
٢٣. (عبد الرحمن، ص١٧٤)
٢٤. (عبد الرحمن، ص١٨٤)

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
١. ابو الحسن الجرجاني، أبو الحسن. (بلا تاريخ): التعريفات، الدار التونسية للنشر.
٢. جوادي آملي، عبد الله (١٩٩٦): الحياة الخالدة في علم الأخلاق (الإصدار الطبعة الاولى). بيروت: دار الهادي.
٣. عبد الرحمن، طه (بلا تاريخ). الحق العربي في الاختلاف الفلسفي.
٤. عبد الرحمن، طه (بلا تاريخ). سؤال الأخلاق.
٥. عبد الرحمن، طه (١٩٩٨). اللسان والـميزان (الإصدار الطبعة الأولى). المغرب: المركز الثقافي العربي.
٦. عبد الرحمن، طه (١٩٩٩). فقه الفلسفة : القول الفلسفي (الإصدار الطبعة الأولى). المغرب: المركز الثقافي العربي.
٧. عبد الرحمن، طه (٢٠٠٠). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام (الإصدار الطبعة الأولى). بيروت: المركز الثقافي العربي.
٨. عبد الرحمن، طه (٢٠٠٩). سؤال الأخلاق (الإصدار الطبعة الرابعة). المغرب: المركز الثقافي العربي.
٩. عبد الرحمن، طه (بلا تاريخ). الحق العربي في الاختلاف الفلسفي.
١٠. عبد الرحمن، طه (بلا تاريخ). تجديد المنهج في تقويم التراث (الإصدار ط٢/). المغرب: المركز الثقافي العربي المركز الثقافي العربي.
١١. بلعقروز، عبد الرزاق (٢٠٠٩): تحولات الفكر الفلسفي المعاص (الإصـدار ط١). لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون.
١٢. الناصر، عمارة (بلا تاريخ). فلسفة عربية هل هي ممكنة؟ . مداخلة في الأسبوع العلمي لكلية العلوم الاجتماعية قسم الفلسفة. وهران.
١٣. وقيدي، محمد (١٩٨٥). حوار فلسفي (الإصدار الطبعة الأولى). المغرب: دار توبقال للنشر.
١٤. وقيدي، محمد (١٩٨٥). حوار فلسفي (الإصدار الطبعة الأولى). المغرب: دار توبقال للنشر.
١٥. طه عبد الرحمن قراءة في مشروعه الفكري. (بلا تاريخ). بيروت.

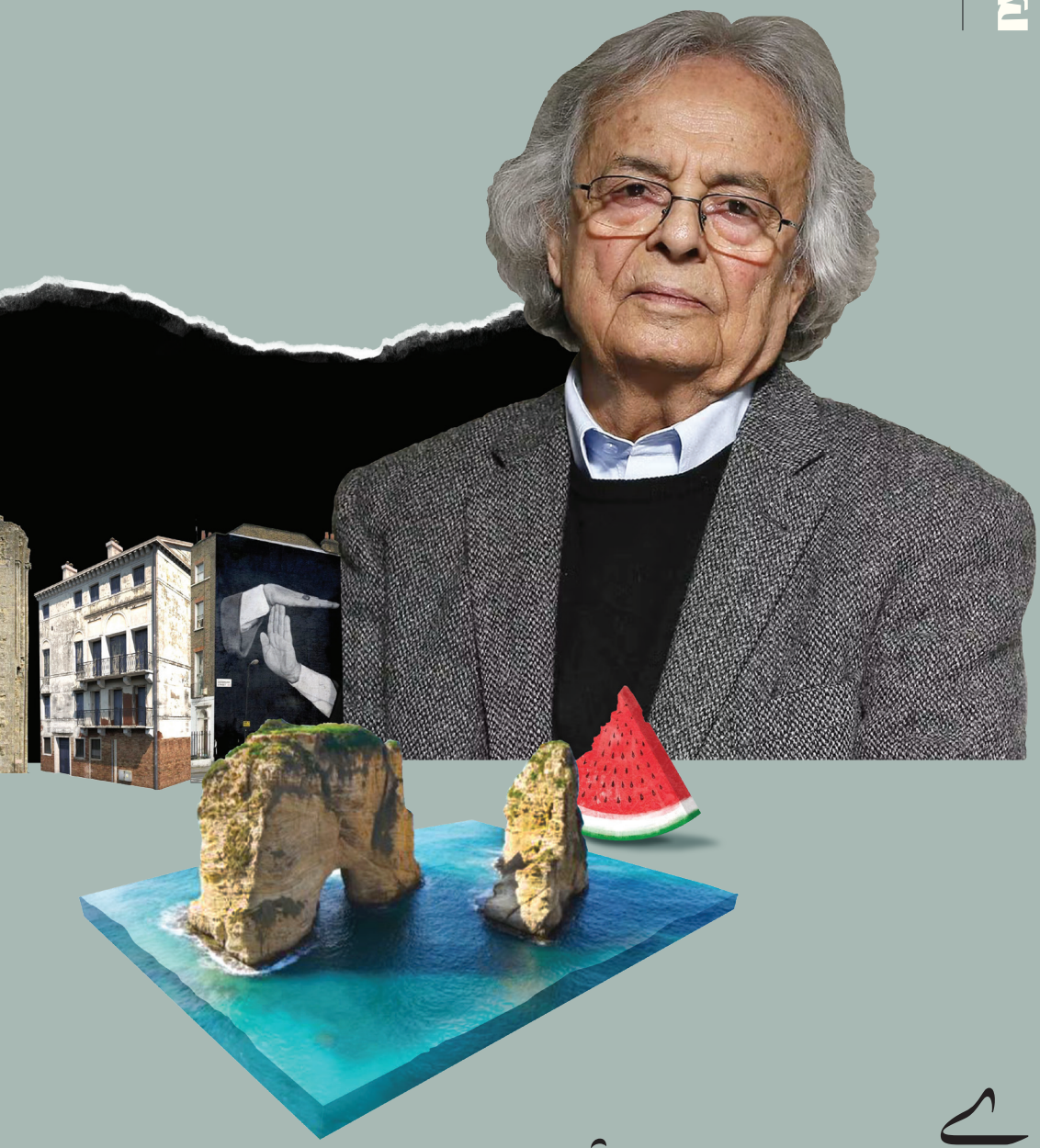

أدونيس: الغرب ينهب ثرواتنا ويستعمر عقولنا

الذي يموت من أجل الحرية رمز هائي

المقدمة

في حوارٍ شائكٍ وعميق، يطلُّ علينا أحدُ أعمدة الفكر والشعر العربي في القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، الشاعر والمفكر السوري علي أحمد سعيد إسبر، الشهير بـ"أدونيس". من مواليد قرية قصابين بمحافظة اللاذقية عام ١٩٣٠، يُعد أدونيس من أهم المجدِّدين في الشعر العربي الحديث، وأحد أبرز المثقفين العرب الذين حملوا همّ التجديد والمساءلة النقدية للتراث والواقع معًا. لم يكن أدونيس شاعرًا فحسب، بل كان مُنظِّرًا أدبيًا ومُفكِّرًا فلسفيًا مغامرًا، خاض غمار البحث في الثابت والمتحول، في الدين والسياسة، في التصوف والسوريالية، في اللغة والهوية. جاء هذا الحوار الممتد ليكشف عن جانبٍ من فكره الذي لا يهدأ، وعن رؤيته النقدية الجريئة للواقع العربي والإسلامي، وللتاريخ والسلطة، وللشعر والوجود.

في هذا الحوار، الذي يدور بين أدونيس ومحاوره "الرؤى"، تتنقل الأسئلةُ بين أقطاب الفكر: من مفهوم الله والوجود عند المتصوفة، إلى سلطة المؤسسة الدينية وهيمنة الفقه، ومن دور النص القرآني والمجاز، إلى إشكالية التحرر والتبعية في العالم العربي. لا يفتأ أدونيس يذكرنا بأن "نحن العرب يمكن أن نكون من قادة العالم، لماذا نحن من أتباع أتباع أتباع العالم؟" مؤكدًا في الوقت ذاته على قيمة التضحية من أجل الحرية: "الذي يموت من أجل الحرية هو رمز هائل، ويجب أن نحترمهم كثيرًا، ويجب أن نقتدي بهم".

ينتقد أدونيس بمرارة الواقع الثقافي العربي، معتبرًا أن "مع الأسف الغرب يستعمرنا حتى في ذوقنا وحتى في قراءتنا، العرب لا يقرأون شِعرَهم، لا يعرفون شِعرَهم، داعيًا إلى إعادة اكتشاف كنوز التراث الشعري من أمثال المتنبي وأبي تمام وأبي العلاء المعرّي.

كما يقدّم رؤيته الفريدة حول هويته العَلَوية، رافضًا التصنيف الطائفي: "أنا ولدت عَلويًا لكني لا أؤمن دينيًا بما يؤمن به العلويون.. يعني لست متديّنًا، لكن أؤمن بشخص الإمام علي". ويضيف: "ومن الخطأ الكبير أن نسمي العلوية 'طائفة'.. خطأ كبير أنا أسميهم متحدًا ثقافيًا مفتوحًا، كشخصية الإمام علي"، مبرزًا الطبيعة الانفتاحية التي يراها في هذا المكون.

هذا الحوار هو رحلةٌ مع عقلٍ شاعرٍ لا يكلُّ من



ـــل يجب أن نقتدي به
،والمقاومة دفاع عن وجودنا

البحث، يؤكد فيه أنه "لا يزال تلميذاً يسأل ويبحث ويتعلم". ويختم برسالته الشعرية الإبداعية: "عش ألقًا وابتكر قصيدة وامض، زِد سعةَ الأرض".

نُقدّم لكم فصول هذا الحَوار الثري الذي أجراه هادي اللواتي للرؤى، آمِلين أن يُثري حواراتنا، ويُحرّك أسئلتنا، كما حَرّكها أدونيس على مدى عقود.

الرؤى: أنا كنت أعد للحوار في قضايا دينية وفلسفية وشعرية وسياسية.. فاحترت من أين أبدأ.. لكن اختار لك هذه الفقرة من أحد كتبك، تقول: "الله هو ليس الواحد الذي يخلق الوجود من خارج ودون اتصال به، وإنما هو الوجود نفسه في حركيته ولا نهايته، ليس في السماء وليس في الأرض.. بل هو السماء والأرض معًا، متحدين، والسفر إليه لا يقتضي أن نخرج من الوجود ومن نفوسنا، وإنما يقتضي على العكس أن ندخل أكثر فأكثر في الوجود، وفي نفوسنا".

أدونيس: المؤسسة هي التي مأسست هذا الإيمان.. هذا الدين الذي نقول عنه إن العالم الأساس كائن في ما وراء الطبيعة، التصوف لم يقل هذا، التصوف -مثلاً العربي- لم يقل إن خالق العالَم كائن يوجه العالَم من خارجه، قال إن الله هو قوة مبثوثة في العالَم، كما كان يقول القدامى، قبل الأديان الوحدانية.. ولذلك رفضتهم المؤسسة، لماذا؟ المؤسسة خلقت سلطة، وهذه السلطة خلقت فقهاء، اليوم الإسلام على سبيل المثال ليس النص القرآني، في الأساس، بالعكس النص القرآني تمنع قراءته مجازيًا، إذا مُنعنا من قراءة القرآن مجازيًا فماذا يبقى فيه؟ نحوّله إلى مدوّنة، هذا حلال وهذا حرام.. إذاً مدوّنة حلال وحرام، كل العالَم الخيالي فيه.. كل العالَم المجازي فيه.. نمحوه ونطمسه، ولذلك المسلمين اليوم يعيشون في الفقه واستنادهم إلى الفقه، وخلقوا أشياء تقتل الفكر، الإمام الشافعي يقول: "من قال برأيه في القرآن فهو مخطئ وإن أصاب". كيف يمكن أن تفكر في عالم الفقه؟ أعظم ما يقوم به المسلم الحقيقي اليوم هو الرجوع إلى النص القرآني الأساس.

الرؤى: كيف يمكن أن نقرأ النص القرآني في أفق الحرية هذا وبالانفتاح على الرمزية والاستعارات كما تعبّر.. ما هو الفضاء الذي ينبغي أن نفهم فيه القرآن؟

أدونيس: هذا هو.. لكن ممنوع الآن، الفقه يمنع قراءة القرآن مجازيًا، كيف يمكن ذلك؟

الرؤى: دكتور أنا ذكرت لك بعض الإبداعات من بلاد فارس.. ذكرت السهروردي والرومي وحافظ والعطار.. لكن أذهب لك أيضًا إلى كم هائل من المبدعين في حضارتنا الذين تنفسوا الإسلام والقرآن والنص الديني.. لكن أنشأ لك منظومة مثل ابن عربي.. فصوص الحكم.. الفتوحات المكية.. أنشأ لك هناك في الأندلس وصولاً إلى المغرب كله.. الحكم العطائية.. نصوص أخلاقية، نصوص أدبية، نصوص روحية، نصوص فلسفية محكمة.. عندك الفارابي وابن رشد، وعندك أيضًا الكندي وعندك هؤلاء القمم.. ولكن هذا يعكس سياقًا من المفكرين الذين كانوا يعيشون في تلك الأزمنة.. فلو أحببنا نركز على هذا البُعد من حضارتنا لوجدنا أنه أيضًا ركن أساسي.. كيف تنظر إليه؟

أدونيس: يجب أن نميّز بين إسلام السلطة وإسلام الأفراد، إسلام السلطة رفض الفلسفة ورفض المتصوفين ورفض الشعر.. رفض كل ما هو مبدع وخلّاق، وإذاً يجب على المسلم اليوم أن يعود إلى النص القرآني في ذاته.

الرؤى: أقصد لو نظرت أنت في التراث الإسلامي لوجدت مئات التفاسير للقرآن عرفانية صوفية عقلية وفلسفية أدبية وبلاغية.. فهناك أيضًا تراث يمكن أن يرجع إليه.

أدونيس: جيد.. لكن هذا هو كله مرفوض من السلطة الراهنة، كله.. ابن عربي مرفوض، لا يؤخذ به، يؤخذ بتفاسير الفقهاء فقط... الفقهاء الأربعة المعروفين الشافعي ومسلم و.. إذاً الخطوة الأولى لإسلام متحرر خلاق وحيّ ويتبنى الفكر ويتبنى الحرية كل هذا يبدأ بالتخلي عن ثقافة الفقه كليًا، أعظم ثورة يقوم بها المسلمون اليوم وأهم ثورة هي ثورتهم ضد هذا الفقه.

الرؤى: لماذا تعتبر التصوف أهم ثورة في الإسلام؟ لو تعمق لنا هذه الفكرة.

أدونيس: التصوف لأنه هو نوع من ثورة ومن تفسير آخر للنص القرآني، أنه أولاً العلاقة بالله.. الله ليس كائنًا من خارج الوجود يسيّر الوجود، الله طاقة مبثوثة في العالَم، لكن إذا قلت هذا القول فأنت



يُعتبر كتاب "أغاني مهيار الدمشقي" الذي نُشر عام ١٩٦١، وأشهر عمل شعري لأدونيس.

فقهيًا مرفوض، تتهم بأنك كأنك تحوّل الإسلام إلى عالَم وثني أو شيء من هذا النوع، لماذا؟ لأن هذا يهزّ أركان السلطة.

الـرؤى: إذا كانت المعرفة الصوفية "أفقًا مفتوحًا" والأسئلة فيها دائمة، فكيف يمكن لهذا النموذج أن يساهم في مواجهة أزمات العالم الإسلامي المعاصر؟

أدونيس: الفرق بين المعرفة وفقًا للتصوف والمعرفة وفقًا للفقة أن المعرفة التصوفية تسير في أفق مفتوح بلا نهاية، والأسئلة دائمًا قائمة. أما المعرفة وفقًا للفقه والشرع الذين يخدمان السلطة، أن الجواب نهائي وقاطعٌ ولا يجوز أن يناقَش، يجب أن تقبلوا دون أي نقاش: هذا هو الفرق، هناك حرية وهناك عبودية، هناك يوجد احترام للكائن البشري واحترام لعقله.. وهناك يوجد طلب من الإنسان أن يخضع وأن يطيع.. الخضوع والطاعة والتبعية صارت قيمًا أساسية في الإسلام السائد، والمؤسف -إذا أردت أن تتوسع- أن هذه التبعية الذاتية تنقلب إلى تبعية للآخر، لا يمكن أن ترى شعبًا اليوم خلق كعقل وكمؤمن ضد الكفار لإنقاذهم من الكفر.. لكن لن تجد شعبًا مؤمنًا كالمسلمين يخدم الكفار، لا يعمل إلا لخدمة الكفار، قل لي.. كل الإسلام اليوم ماذا يفعل؟ الإسلام (كالنظام ولا الأفراد) لا يفعلون إلا ما يقول وما يمليه عليهم الكفار، ولذلك أنظر إلى هذه الخريطة العربية الإسلامية.. لا نحكي عن الإسلام غير العربي.. بل الإسلام العربي.. الإسلام العربي اليوم عندك خريطة استراتيجية جغرافية لا مثيل لها.. آسيا وأفريقيا.. وعندك خريطة ثروات لا مثيل لها.. يعني يمكن أن يمارس المسلمون العرب عمل يضع المسلمين ويضع طاقاتهم في المقام الأول من حياتهم ومن وجودهم، ويكونون عنصرًا بناءًا وخلاقًا وقائدًا في العالَم الحديث، لكن هم في الواقع عنصر يستخدم.. وعنصر يستتبع وعنصر يسير وعنصر لا مكان له على خريطة قيادة العالَم أبدًا، وكما نرى.. كما نرى.. الإسلام يُختصر -إسلام السلطة يعني- في التبعية لمن أمرهم الإسلام ذاته بأن يحررهم، ماذا تفعل؟ يجب أن نقول هذا، يجب أن ننتقل دفاعًا عن الإسلام، لكن السلطة مع الأسف تتهمنا بأننا ضد الإسلام، كأن هي التي تمثل الإسلام وحدها، ومن ليس معها فهو ضدها، فحتى "الإسلام الدين" تحتكره السلطة احتكارًا.

الـرؤى: وقد يُـردُّ على تحليلك بـأن هذا الواقع المسبب هو نتاج الظلم والاستعمار وسلطاتهما المحلية القامعة لأي تحرر أو إبداع، في حين أن الدين في جوهره تحرير. لكن الإشكال الأعمق هو أن هذه السلطات نفذت - بتواطؤ خارجي - خطة منهجية لاحتواء طاقات الأمة وتفريغها، عبر استلاب حضاري كامل.

فالمسؤولية لا تقع على الغرب والمتسلّطين وحدهم، فهم يستفيدون من صراعاتنا من منطلق ثقافة سلطة ورأسمالية جشعة، لا علاقة لها بالدين. إنهم ببساطة يوظّفون الدين والنصوص والتراث كأدوات نفعية لخدمة التسلط وإدامة التبعية.

أدونيس: لا أريد أن أدخل في تفاصيل من هذا النوع، لأننا لا ننتهي، لكن أعرف أن المسلمين بطاقاتهم وقدراتهم وعبقرياتهم وتاريخهم قادرون أن يكونوا من قادة العالَم اليوم، على جميع المستويات، لكنهم عمليًا أتباع لكل شيء في هذا العالم، ليسوا إلا مجرد طاقات هائلة تابعة لهم، تُستغل ثرواتهم، تستغل أرضهم، يُستغل تاريخهم كله، ويُسيّرهم الغربُ كما يشاء، هذا لا يليق بالإسلام ولا بتاريخ الإسلام ولا بفكر الإسلام.. لا يليق.

الـرؤى: أستـاذنا كيف تنظر إلى بعض الشخصيات الاستثنائية التي كانت موجودة عندنا في العالَم العربي والإسلامي سواء القومية أو العروبية وصولًا إلى السيد حسن نصر الله.. نحن فقدناه قبل عام، وهو كان شخصية مقاومة ونضالية، وقاومت ووقفت حتى استشهد في هذا الطريق، كيف تنظر إليه؟ كيف تقيّم تجربته؟ وما الذي خسرناه بعد غيابه؟

أدونيس: مثلًا هناك أشخاص في ميدان النضال السياسي وأشخاص في ميدان النضال الثقافي إلى آخره.. أشخاص يتخطون المسألة التاريخية ويصبحون رموزًا. حسن نصر الله من الرموز التاريخية التي لا تمحى، لا يمكن أن تنسى، مهما كثر أعدائه، فهو رمز تاريخي.. المثقفون.. طه حسين مهما هوجم لا يمكن إلا أن يزداد إشراقًا، لأنه صار رمزًا، جميع الخلاقين يتخطون تاريخيتهم ويصبحون رموزًا، الحلّاج اليوم رمز، المتنبي اليوم رمز، امرؤ القيس اليوم رمز، لذلك هؤلاء باقون، وهم ينابيع لثقافتنا، وطاقات خلاقة تمنحنا القوة لكي نكون



يُعتبر كتاب "الثابت والمتحول" أشهر وأكثر أعمال أدونيس البحثية إثارة للجدل، وهو في الأصل أطروحته للدكتوراه. يتناول الكتاب في أربعة مجلدات تحليلًا عميقًا للثقافة والفكر والأدب العربي.

كما فعلوا هم، يخلقون عالمًا جديدًا.. يحرضوننا أو يقودوننا لكي نفعل كما فعلوا هم، لا أن نكون مجرد تابعين لسلطة غاشمة تستغل الدين من أجل أن تظل في سلطاتها، لأن السلطة مال.. والمال تجارة، وهكذا يفسد الدين وتفسد الحياة ويعم الظلم والخراب، بأننا لا ندري ما معنى الدين الحقيقي، وما معنى أن يكون الحاكم، الحكم مسؤولية وليس تسلطًا، الحكم والسلطة مسؤولية عليا، لكن عندنا مع الأسف ليست إلا مجرد أداة ووسيلة للتجارة والطغيان والبقاء في السلطة مهما كان الثمن.

الرؤى: **في خصوص حسن نصر الله ما هي الرمزية التي كان يمثّلها؟ خصوصًا أنه اتهم بالطائفية والمذهبية كثيرًا، ولكن رأينا، حتى في مشهد التشييع في لبنان، أنه كان هناك مئات الآلاف من الناس ومن العرب أيضًا في كل الأصقاع منشدّين ومنجذبين إليه، ما هي الرمزية التي شكّلها في تاريخه بنظرك؟**

أدونيس: الرمزية هي رفض الطغيان ورفض العدوان والتمسك بالحرية، هذه هي الرمزية، الحرية وعدم الخضوع للطغيان، وخصوصًا إذا جاء الطغيان من أعداء يريدون أن يجردوك حتى من حياتك الطبيعية اليومية، أن يقضوا عليها، هذا هي رمزيته، الشعب الحي يرفض أن يكون تابعًا ويرفض أن يعيش ذليلاً ومهانًا، ويرفض أن يكون مجرد أداة ومجرد وسيلة للوصول إلى سلطة أو مغنم أو تجارة أو إلى أي شيء، هذا الشعب الحر، يبني نفسه وينفتح على العالم ويخلق ثقافته بحرية ويرفض العدوان ويدافع مع الشعوب الحرة لجعل الحرية هي المحرك والأساس الأول لحياة الشعوب.

الرؤى: **بعد سنتين من طوفان الأقصى هل حقق العرب والمسلمون وأهل فلسطين بشكل أساسي نموذجًا من الصمود والثبات والتضحية والشهادة وأوصلوا صوتهم إلى كل العالم؟**

أدونيس: على الصعيد الفردي هناك أبطال، على صعيد التجمعات الفردية هناك أبطال عظام يجب أن نحترمهم وننحني أمامهم، أمثال حسن نصر الله والسنوار وغيرهم. هناك أبطال يجب أن نحترمهم كثيرًا، لكن مع الأسف هذه البطولات التي صارت عند العرب كلها بطولات فردية، المؤسسة الرسمية والمؤسسة الحاكمة كانت ضدهم، يعني بدل أن ينضموا إليهم ويساعدوهم.. بالعكس ساروا ضدهم، وعرقلوهم وتآمروا ضدهم، وتعاونوا مع الأجنبي على الخلاص منهم، وهذه أشياء صارت معروفة ولا يحتاج الإنسان إلى أن يكررها، كل المسلمين يعرفون ماذا حدث وماذا يحدث، وكل المسلمين الذين يعيشون مآسي التاريخ ومآسي الحياة يرون كيف أن مع الأسف أن السلطات الإسلامية شيء والشعوب الإسلامية -وهي في معظمها طاقة حية- شيء آخر، لكن هذا الانقسام وهذه الفجوة بين السلطات والشعوب يستغلها الغرب ويدعم السلطات ويدمر معها الطاقة الشعبية الحية.

الرؤى: **أستاذنا هناك رؤية أخرى تقول التالي: هناك منظّرة اسمها كارن آرمسترونغ كتبت عن الحروب الدينية في التاريخ البشري، فهي تتوصل إلى هذه الخلاصة أن الحروب في منشأها وفي أصلها أسبابها الطمع والجشع والتسلط والتفرعن والظلم والاستبداد، وحكّام يريدون مصالحهم السياسية والاقتصادية ويريدون السيطرة على الناس، وفي هذا الطريق توظّف النصوص الدينية العادات والتقاليد والأدب والشعر المؤثرين.. هذا كله يركبون عليه، يلتصقون به لأجل شد الجماهير والتأثير عليهم، ولكن في العمق هي ليست صراعات دينية.. حتى إذا نرى التشدد والتحجر الذي موجود عندنا في المنطقة فهو مرتبط بالأجانب، تسليحًا دعمًا تمويلاً، وحتى كل المناهج الفكرية هم الذين يمولونها ويعيدون التركيز عليها، لو ترى حاليًا في فترة معينة لم يحتاجوا ليركزوا على شخصيات معينة تذهب تمامًا من المشهد ويتنفس حتى العالم الإسلامي ويخف فيه التشدد، فجأة هم يريدون أن يضخون فيه.. تأتي الأموال، يأتي الإعلام.. فهي في النهاية إرادة سياسية وسلطات مستبدة، والصراعات تفتقر إلى أي شيء من الأخلاق والإنسانية التي يجب أن تحكم، يعني لا يمكن نحن أن نضع كل التقصير على الدين.**

أدونيس: أنا أعتقد بأن نهايةَ الخلافة العثمانية كانت حدثًا تاريخيًا فاصلاً. بريطانيا وفرنسا (خلال ما يُسمّى باتفاقية سايكس بيكو) أتيا ليرثا ما تركته الخلافة العثمانية: سورية ولبنان والعراق ومنطقة الشرق الأوسط العربية. هذه الوراثة بدورهم

أدونيس في التاسعة عشرة من عمره تقريباً.
• المصدر: مجلة ميشيغان كوارترلي ريفيو (Michigan Quarterly Review)



ورّثوها للقوى المحلية التي أقاموها. المسلمون لم يكافحوا، لم يقوموا بثورة بأنفسهم ليتحرروا من الخلافة العثمانية، بل حررهم الغرب لكي يحل محل الخلافة العثمانية. وهكذا انتقل العرب من الهيمنة العثمانية إلى هيمنة جديدة يقودها الغرب ومنذ ذلك الوقت يتصرف الغرب مع الدول العربية بدون استثناء كأن هذه الدول ملك له، وكأنه هو الذي وزعها على أصحابها، وبهذا المعنى أنا ميال إلى القول إن السلطات الإسلامية اليوم هي سلطات مخترعة اخترعها الغرب، ولن يتحرروا من الغرب إلا إذا ثاروا بأنفسهم على هذا الغرب، ويبدو أن هذه الثورة صارت شبه مستحيلة، لأن الغرب لم يهيمن فقط أفقيًا على البلاد العربية -يعني بقايا الخلافة العثمانية- وإنما هيمنة عمودية.

الرؤى: ماذا يعني أنه هيمن عموديًا؟

أدونيس: عموديًا يعني دخل في عمق أعماقهم، وقسم العائلة إلى عائلات، وجزّء الشعبَ إلى شعوب، مزقهم وأعاد تركيبهم كما يشاء، لا كما تشاء الثورة الحقيقية.

الرؤى: ودخل في إعلامهم وثقافتهم ومدارسهم وحياتهم وكل شيء.

أدونيس: يعني أخرجهم من العثمانية التركية وأدخلهم في عثمانية جديدة نسميها العثمانية الغربية، ولا يزالون تحت ثقل هذه الخلافة العثمانية الغربية. ولذلك إن السلطات الإسلامية اليوم ليست سلطات شعبية قامت على ثورة حقيقية وعلى تحرر حقيقي، وإنما هي سلطات مستعارة أيضًا أعطاهم إياها الغرب، المسلمون اليوم اختراع غربي، والغرب يحكمهم.

الرؤى: وفي هذا السياق كيف تنظر إلى التوحش والإجرام الصهيوني المنقطع النظير؟

أدونيس: ولذلك الغرب كله مع "إسرائيل".. مع الصهيونية، يملك العرب لكنه مع "إسرائيل". والعرب أكثر.. كل ثروات العرب يأخذها هذا الغرب، كل ثرواته، نحن نشير ونحلل لكن لا نستطيع أن نحل هذه المشكلة، لكن يجب أن ننبه.

الرؤى: أقصد هذا التوحش، هذا الكره والحقد.. ما الذي يفسره؟ لأنه هذا غير معهود، يعني خاصة بالاستفادة من كل التكنولوجيات الحديثة التي ما كانت حتى متوفرة في الأزمنة السابقة.

أدونيس: المسألةُ بسيطةٌ: الغربُ بنى حياتَه على استعمار الآخر، يعني المنطقة الإسلامية العربية يتصرف كأنها ملكه الشخصي الخاص.. كأنها له، والمسلمون الحاكمون شكليًا مستسلمون لهذا الأمر، ويخافون أنه إذا ثار عليهم شخص يقتلونه أو يحتلونه إلى آخره.. تعرف أن المسلمين عندهم فلسفة قديمة: يقبلون بالخطر الصغير اتقاءً من الخطر الكبير، وهكذا تبريرًا للهرب والهزيمة، لا يواجهون ولا يموتون من أجل قضاياهم، بفضل أساليب التجارة والسياسة، ولذلك مع الأسف هذا يعرفه الغرب. العربيُ يفضّل في الأخير أنْ يتحاشَ الأخطار الكبيرة بقبول الأخطار الصغيرة، ويفضل السلطةَ والتجارةَ على الحرب أو على الدفاع عن حقوقه، إنّه يساير: العربيُ والمسلمُ يتصرف بوصفه تاجرًا لا بوصفه قائدًا لشعب عظيم مثل شعوب المنطقة.. هذا كيف تحله؟ ليتني عندي حلول.

الرؤى: كيف تنظر إلى النموذج الإيراني بعد الثورة الإسلامية.. الإمام الخميني و ولاية الفقيه وصولاً إلى الحرب الأخيرة التي حدثت هذه الـ١٢ يوم التي صارت.. هذا النموذج كيف تقيّمه؟

أدونيس: يا عزيزي إذا كانت المسألة السنية الشيعية هي في طليعة المشكلات اليوم كيف يمكن أن تجيب عن هذا السؤال؟ قل لي كيف؟ أي أن القضية باتت محيّرة، مثل البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة؟ هناك خلل بنيوي، هناك خلل في العقل، هناك خلل بالقلب، هناك خلل في الرؤية، هناك خلل أساسي في الشخصية الإسلامية العربية، هذا الخلل كان يمكن أن يقبل في الماضي، كان الماضي بسيط وغير معقّد.. أما اليوم فقد صار الحاضر معقّدًا، وهناك صراع وتنافس على امتلاك العرب، الذي يملك مكة اليوم أو الذي يملك غير مكة.. يعني الإسلام اليوم بلاد غنية عظيمة استراتيجيًا واقتصاديًا وجغرافيًا.. وكل شيء، ثروة ما لها من مثيل، لكن مع الأسف ليست هذه الثروة تحت سيطرة ورؤية المسلمين أنفسهم.

للأسف، أصبحت إيران في نظر كثير من المسلمين العدو الأول قبل إسرائيل نفسها.

الرؤى: أستاذنا لكن هل يمكن اختزال المشكلة في الصراع الطائفي؟ البعض يظن أن الصراع الطائفي هو أمر مفتعَل، لأنه صراع على النفوذ السياسي والاقتصادي، والآن أنت ترى عُمان إباضية، واليمن زيدية؛ العالم العربي

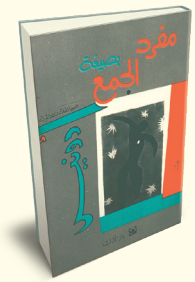

يُعتبر كتاب "مفرد بصيغة الجمع" الذي نُشر عام ١٩٧٥، واحداً من أكثر أعمال أدونيس الشعرية تجريبيةً وحداثةً (أوانغارد)، حيث تذوب فيه تماماً الحدود التقليدية بين الشعر والنثر والتفلسف.

فيه السلفي وفيه الحنفي وفيه الشافعي وفيه المالكي.. فهي مذاهب وأطياف، والحكومات أصلاً علمانية ليس لها علاقة بالدين. لكن تأتي وتلعب على هذه التناقضات الدينية وترى أين مصالحها. و إيران في زمن الشاه كانت حليفة لـ"إسرائيل" وأميركا والغرب، فهي المسألة ليست طائفية لو فكرنا في عمقها. المسألة أن الغرب يريد أن يسيطر، وهي مشاريع في النهاية، فإذا كان هناك مشروع استقلال وبناء مواطِن قوّة فالغرب لن يسمح لهذا المشروع، وسيوظف كثيرًا من أدواته لضربه، فلماذا نحصرها بالطائفية؟

أدونيس: إذا كانت الأمور بهذه البساطة.. لماذا لا يتفق المسلمون، ما المانع في أن يعملوا كتلة واحدة من المسلمين..؟

الرؤى: يعني لا يريدون الاستقلال، لا يريدون مواجهة الغرب، لا يريدون بناء عناصر القوة..

لا أنهك متمسكون بمذهبهم.. السلطات أصلاً لا علاقة لها بالمذاهب، فهي علمانية.

أدونيس: المسلمون مختلفون متناقضون فيما بينهم، وهذه ظاهرة أحدثها الغرب وهو يهيمن عليها ويعرف كيف يوجهها، وهو الآن يوجهها، والمسلمون تابعون للغرب بشكل أو بآخر، هذا البلد تابع أكثر.. حتى أن العرب يموّلون الغرب بشكل أو بآخر، بدل أن يمولوا بلدانهم ويموّلوا العالم الإسلامي ليصبح غنيًا ولتكون لديه جامعات أعظم ومصانع أكثر وليغدو بلدًا مثل بلدان العالم، بدل أن يطوروا بلدانهم ينفقون أموالهم ويعطونها للغربيين.

الرؤى: انتقدت الغرب كثيرًا وقلتَ إنه قائم على الاستعمار وعلى النهب للثروات وعلى التسلط على الآخرين.. طيب، كيف نفسر الديمقراطية والحرية والحقوق التي يعطوها للاجئين وغيرهم.. بالأمس شاهدنا ساركوزي عندكم يُسجَن.. أو هذه كلها تمثيليات أيضًا في



أدونيس وزوجته خالدة سعيد في دمشق، عام ١٩٥٤.
• المصدر: مجلة ميشيغان كوارترلي ريفيو (Michigan Quarterly Review)



يُعد كتاب "الصوفية والسوريالية" واحداً من أهم وأعمق أعمال أدونيس النظرية، حيث يقيم فيه صلة غير متوقعة بين تراث الشرق وحداثة الغرب.

الغرب، ولو حللت الغرب بمعقه وجدت أنه استبداد ولكن مغلّف بعناوين براقة؟

أدونيس: للغرب مستويان أو أكثر، يعني بشكل عام هنالك مستويان: ، الخطاب الموجّه إلى الآخر ينبغي أن يكون خطابًا محبًا ويعلّم الديمقراطية ويعلم الحرية ويعلّم حقوق الإنسان إلى آخره.. لكن إذا نظرت إلى الخطاب.. هات مثالاً واحدًا يؤكد أن الغرب علّمنا الديمقراطية.. أو الغرب علّمنا الحرية..أعطني مثالاً واحدًا.. اليوم حين تدرس علاقة الغرب بالعرب.. [ستجد] أن المدرسة التي صنعها لم تكن لكي يُعلّم الطلاب العرب -أينما كانوا- الحريةَ وحقوق الإنسان والمدنيّة بقدر ما كان لِغرض أساسي، وهو أن يحسن السيطرةَ عليهم، وأن يحسن الهيمنة عليهم. لا يوجد شعب يحرر شعبًا آخر، فلا تصدّق، لا يوجد، بل هناك شعبٌ يستعبد شعبًا آخر، لأنه يكسبه. ولا يوجد شعب يكون كلّه ديمقراطيًا. فرنسا لم تعلّمنا الديمقراطية ولا الحرية ولا حقوق الإنسان ولا الثورة، ولم تعلمنا أميركا هذا الشيء أبدًا، بل علمتنا كيف نقاتل بعضنا الآخر ، وكيف نتبعها ونترك الآخرين، وعلمتنا كيف نترجم ما تريد هي بشكل أو بآخر.. علمتنا كيف نكون تابعين لها، لا كيف نكون مثلها.. ديمقراطيين وأحرارًا.

الرؤى: **لكن حتى هم.. هل نجد عندهم تجربة ديمقراطية وحرية حقيقية؟ أم هي كلها مغلفة، و صراع بين الإعلام والمال والسلطة والشركات الكبرى وكذا..؟!**

أدونيس: عندهم كل شيء.. بإمكانك أن تقيم دعوة على رئيس الجمهورية، أما عندنا المسلمين هل يمكنك تقديم دعوى على رئيس الحكومة؟ عندهم نظام قائم، يمكنك أن تنتقد وتحكي ما تشاء.. كما تشاء، طبعًا في بعض الأحيان يقيمون عليك دعوة.. فليكن.. ولكن بوسعك أن تحكَ ما تشاء.. لكن عندنا لا تقدر أن تقول ما تشاء.. ولا ربع ما تشاء، لا تقدر، عندنا لا توجد حرية، ولا توجد حقوق للإنسان.. لا يوجد.. لا شيء.. لماذا لا يُعلمنا هذا الغرب الحريةَ والديمقراطية ولا يساعدنا على إقامة مؤسسات لذلك؟ لماذا؟ لأنه لا يريد لنا أن نتقدّم.

الرؤى: **ما رأيك في علي بن أبي طالب وشخصيته، لأن كثيرًا من المسيحيين كتبوا عنه، وحتى المذاهب الباطنية في الإسلام كلها تنتمي إليه.. سواء العلويين أو الشيعة أو الإسماعيليين أو الصوفيين، كلهم في السنة.. ما هو النموذج أو الرمز الذي قدمه الإمام علي في التاريخ، خاصة أنه صوت العدالة الإنسانية كما يقول جورج جرداق، وحاول في أربع سنوات.. لكن معاوية هو الذي لم يسمح له أن يحقق نموذجه، وقدم نموذجه المنافس، أنت كيف تنظر هنا إلى الشخصية والدور والرمز؟**

أدونيس: شخصية الإمام علي أنا أراها من وجهة نظر أخرى: إذا قارنت الإمام علي بالأشخاص الآخرين، رفاقه، [أعني] أبا بكر وعمر وعثمان، ستراه هو العربي الوحيد الذي تخطى الأعراق والأجناس، وإذن هو العربي المبثوث في العالَم غير العربي، تراه بالفرس، تراه بالأتراك، تراه بالبكتاشيين، تراه هو الشخص الوحيد الذي تخطى الأعراق والأجناس، لا يوجد شخص آخر، ما السر في هذا التخطي؟ هذا موضوع آخر، ولذلك ترى الإمام علي موجودًا في العالم كله، حتى الآن، هذا يجب دراسته دراسة معمقة وغير سياسية، لأنه ظاهرة فذّة. لماذا شخص كعلي تخطى القوميات واللغات وصار موجودًا في العالَم كله وفي جميع الأديان؟ هذا وحده يشكل تساؤلاً وقضية، ولا أظن أنه موضوع الحديث الآن في هذا الحوار.

الإمام علي لم يُدرَس كما ينبغي، شخصية مفردة بتاريخ الإسلام، وهو الشخصية الوحيدة كما قلت، وأكرر أنه تخطى الأعراق والأجناس.. هذا عالَم آخر يجب دراسته بجدية وبعمق، ويقوم بها اختصاصيون، وأنا لست من هذا، لست مختصًا بهذا.

الرؤى: **أريد أن أنقلك إلى ضفة أخرى بعيدًا عن التاريخ وبعيدًا عن السياسة الحالية.. وهي ضفة الروح والإنسان وذاته وحقيقته، كنت أطالع في كتابك "الصوفية والسوريالية" فأنت جمعت بين "السريالية الملحدة"، بين قوسين وبين الصوفية التي تبتغي التحرر من كل القيود وأن تنعتق نحو عبودية وحب مطلق.. كيف جمعت بينهما؟ برأيك هل توق الإنسان للكشف عن المجهول دومًا؟ لكن عمّق لنا الحديث هنا.**

أدونيس: لكن أنا قلت مثل ابن رشد مثلاً، أن المنهج كان واحدًا، يعني منهج ابن رشد وأرسطو، ومنهج السورياليين سبقهم الصوفيون.. الصوفيون كانوا سباقين، وأنا عرضت في الكتاب من دون أن أكرر.. عرضت نقاط التلاقي، الهدف الذي سعى إليه السورياليون هو نفسه الهدف الذي سعى إليه

أدونيس مع ابنته نينار، عام ١٩٧٥.
• المصدر: مجلة ميشيغان كوارترلي ريفيو (Michigan Quarterly Review)



الصوفيون قبلهم، لكن السورياليين سعوا إليه من دون تدين.. والمتصوفون أيضًا سعوا إليه من دون تدين فقهي، يعني رفضوا الإسلام الفقهي الشرعي، وخلقوا عالماً آخر داخل الإسلام، و إذاً التقوا في المنهج، فالسوريالية هي صوفية لكن من دون إله، والصوفية هي أيضًا سوريالية.. أو سوريالية صوفية، لكن الصوفية لم تؤمن بالإله الفقهي، ولم تقسّم العالَم إلى مؤمن وكافر، الإنسان حسن وأحسن.. يعني طيب وأطيب، لم تقسّم البشر إلى مؤمن وكافر أبدًا، فإذاً هناك أفق فتحه التصوّف، من دون أن يؤمن بالإله الفقهي، وكررته السوريالية من دون أن تؤمن بأي إله.. أنا تحدثت عن المنهج وليس عن المعتقد.

الرؤى: **ما هي نقاط التلاقي والاشتراك التي تجدها؟ هل هي في عمق توق الإنسان إلى المعنى وبحثه عن الخلود أو بحثه عن المجهول برأيك، وهو هذا المشترك في الذات البشرية.. لك نص جميل جدًا أيضًا أنا هنا نقلته "في الوجود جانباً باطناً لا مرئياً مجهولاً، و إن معرفته لا تتم بالطرق المنطقية، و إن الإنسان دون محاولة الوصول إليه كائن ناقص الوجود والمعرفة، وهناك تآلفات بين جميع الاتجاهات التي تحاول أن تستشرف هذا الغيب".**

أدونيس: أنا لست ضد المتدين أطلاقًا، ولست ضد الدين، بل احترم تدينه، وأدافع عن حقه في التدين. لكن أنا ضد أن يفرض تدينه عليّ أو على الآخرين، إذاً الدين مسألة فردية ومن حق الفرد أن يتدين لكي يحل على الأقل مشكلات علاقته مع الغيب، يعني له الحق، لكن ليس له الحق أن يفرض إيمانه على أي إنسان آخر. إذاً الدين يجب أن يكون فرديًا لا مؤسسيًا مفروضًا على الجميع، هذا موقفي، وبهذا المعنى أعطي الحق والحرية لكل فرد أن يتدين كما يشاء.. بالدين الذي يشاء، وأرى أن الدين لا يُمأسس أبدًا، لأنه متى تمأسس الدين اختلط بالسياسة، ومتى اختلط عنصران كل منهما له طبيعة متناقضة.. يفسد الدين ويفسد التصور ويفسد كل شيء، إذاً الدين فردي بحت، وحياة مدنية وحرية وحقوق، ولا يجوز أن يمأسس الدين في مؤسسة تستلم السلطةَ وتحوّل الدينَ إلى وسيلة للسيطرة والهيمنة؛ هذا يقتل الدين، ويقتل كل شيء، وأنا مثلاً أتساءل حول هؤلاء المتدينين: هل تسمي لي شخصًا واحدًا من المسلمين -المؤمن بالدين- أعاد قراءة الإسلام قراءة عميقة؟ يجب أن يكون عندنا قرّاء للدين ومفكرون دينيون ينظرون للإسلام من وجهات نظر جديدة، بحسب التطور التاريخي، هذا هو عملهم، ونحن نحترم ونقدر جهودهم في هذا الميدان أبدًا، لكن أنا شخصيًا أكرر: لست مع الدين المُمأسَس والمفروض على مجتمع بكامله وتقوده السلطة، لأنه يحوّل إلى مجرد أداة للسيطرة، ويقتل الفكرَ ويقتل الحرية، كما نرى اليوم في العالَم العربي الإسلامي.

الرؤى: **أستاذ، أنا أعود إلى خلفيتك العائلية والتربوية والجغرافية إن صح التعبير.. أنت ابن الهوية أو الانتماء العلوي.. هذا المذهب الباطني من مذاهب المسلمين.. ما الذي أضافه لك من ثراء وغنى في الخلفية في الفلسفة في الفهم.. خاصة أنه هو أصلاً مذهب غامض.. يمكن أغلب الناس لا يعرفون عنه شيئًا، لكن يمكن هناك شيء في نشأتك، أنت اغترفت من هذا.. لأن كل مذهب هو عبارة عن نكهة وعن مقاربة وعن بعد من أبعاد الحضارة.. الانتماء العلوي ما الذي أضاف لك؟**

أدونيس: أنا ولدت علويًا، لكني لا أؤمن دينيًا بما يؤمن به العلويون، يعني لست متدينًا، لكن أؤمن بشخص الإمام علي، شخص الإمام علي كأنموذج تاريخي لا مثيل له على الإطلاق عند العرب. أنا ميال إلى هذه الشخصية العظيمة، ودائمًا سؤالي كيف هذا النموذج -الإمام علي- كيف تخطى الأعراق والأجناس والقوميات واللغات.. واخترق هذا كله؟ كيف؟ هناك جانب عظيم، ولذلك أنا لا أسمي من نسميهم العلويين.. لا أسميهم "طائفة"، لأن الطائفة تعود إلى أصول دينية وأصول عرقية، والعلويون الذين نشأت بينهم ليس لهم أصل طائفي، العلويون أنا أسميهم متحدًا ثقافيا.. هم متحد ثقافي، وليس لهم أي خصوصية طائفية على الإطلاق أبدًا، ولذلك أكرر أنا أسميهم متحدًا ثقافيًا بنوه على أساس شخصية الإمام علي، متحد منفتح على الجميع، لذلك عند العلويين تلاقي الكاكي الكردي.. وتلاقي البكتاشي.. وتلاقي التركماني، الحسن بن مكزون السنجاري كان كرديًا، الذي هو أهم شاعر عندهم، إنه مجتمع مفتوح على جميع العناصر، ومن الخطأ الكبير أن نسمي العلويين طائفة.. خطأ كبير.. أنا أسميه متحدًا ثقافيًا مفتوحًا كشخصية الإمام علي.. لقد سموهم تسمية طائفية لأنهم يعيشون



يُعد كتاب "سياسة الشعر" واحداً من أهم الأعمال النظرية والنقدية لأدونيس، حيث يبحث فيه العلاقة بين "الشعر" و"التغيير" (السياسي والاجتماعي والفكري).

في مجتمع طائفي، والغرب يريد أن يسميهم "طائفة" حتى يعرف كيف يحكم، لم يسمّهم شعب واحد، سمى الدروز.. سمى السنة.. سمى الشيعة.. سمى العلويين.. قسّم البلاد إلى طوائف حتى يحكمها ويجزئها ويشوه البلاد ويشوه الحياة.

الرؤى: الحب في تراثنا الشعري: ما هي النافذة قبل نظريتك أنت؟ لكن النافذة التي أنت فتحتها على التراث الشعري المتعلق بالحب.. يعني ابن الفارض سلطان العاشقين وخمرياته في العشق، ثم وصولاً إلى رابعة العدوية، ثم وصولاً إلى مثلاً الشوشتري.. هناك ابن عربي في ترجمان الأشواق وفي غيره، وعندنا كم متنوع من الشعراء الذين تمركزوا حول المحبة الدنيوية الأرضية والمحبة السماوية والإلهية وفلسفة العشق عندهم حاضرة بقوة.. هل هذا التراث ألهمك؟

أدونيس: أولاً من مناسب أن أقول أن الاستعمار مع الأسف -كما أشرت أنت سابقًا- لم يستعمرنا اقتصاديًا فقط و إنما استعمر عقولَنا، يعني عندك شاعر مثل أبي نواس، شاعر عظيم بجميع المعاني، و إذا عقدت مقارنةً بينه وبين شعراء الغرب مثله، بينه وبين بودلير مثلاً.. لتجد أبا نواس أكثر أهمية من بودلير، لأن أبا نواس لم يخلق شعرًا مختلفًا وحسب، بل خلق لغةً مختلفة.. خلق لغةَ المدينة، بالإضافة إلى هذا العالَم الرمزي الذي خلقه، وبالإضافة إلى الحرية التي أخذها في كتابته الشعرية، فالشعر العربي شعر عظيم بكل المعايير وبكل المقاييس، وأنا حين أقارنه بأيّ شعر في العالَم أرى أن الشعر العربي إما هو في مستواه أو أفضل، ولا يقل أهمية على الإطلاق عن أي شعر في العالم، بل العكس، يتفوّق في نواح كثيرة على الشعر في العالَم كله، لكن مع الأسف الغرب يستعمرنا حتى في ذوقنا وحتى في قراءتنا، فالعرب لا يقرأون شِعرَهم.. ولا يعرفون شِعرَهم.. إذا قارنت مثلاً بين المعري وبين دانتي.. لتجد دانتي قد أفاد منه، ولتجد عمل دانتي قائم على الدين وكره الآخرين وقد مشى مع



أدونيس مع أمه: حَسْناء.
• المصدر: مجلة ميشيغان كوارترلي ريفيو (Michigan Quarterly Review)

الكنيسة و إلى آخره.. بينما المعريّ رجل حر نقد الدين، وهو أول شاعر ينتقد الدين بهذا النحو، يعني عندنا حريات وعندنا خلاقين عظماء.. لكن نحن، مع الأسف، لا نعرف كيف نقرأهم ولا نعرف كيف نقدرهم، وأنا آسف وأكرر أن العرب لا يقرأون.. لا يقرأون حتى شعرَهم، شاعر كالمتنبي كامرؤ القيس، كأبي تمام، كالبحتري، كأبي العلاء المعري، يجب أن تطبع دواوينهم سنويًا للقراء، لكن العربَ لا يقرأون حتى أعظم شعر في العالَم وهو شعرهم، لا يقرأون للأسف.

الرؤى: **أين تكمن عظمة أبي العلاء المعري بنظرك؟ في فلسفته؟ في أين؟**

أدونيس: أبو العلاء المعري أول شاعر فيلسوف كان الوجود مدار تفكيره وتأملاته، شاعر لا مثيل له، لكن نحن من يقرأه؟ بالعكس، الإخوان الثوّار المتدينون أول شيء عملوه قصوا رقبة تمثاله.. كسروا تمثاله، هدّموا ضريحه، الشعب لا أعرف كيف أصفه.. يعني لا أعرف ماذا أقول عنه، مع الأسف.

اثنان في أهل الأرض: ذو عقل بلا دين، وآخر ذو دين لا عقل له.. لماذا؟ لأن الدين كما عاشه في وقت المعري كان كله ظلم وطغيان، باسم الدين يقتلوك، مثل ما يفعلون الآن مثلاً، يعني هنالك من لا يعرف أن يقرأ.. قراءة.. يقتلك بحجة أنك لا تقرأ القرآن، وهو لا يعرف حتى أن يقرأه.

الرؤى: **ما الذي قدمه المتنبي من فكر وحكمة في شعره؟ البعض كان يقول فقط هي جماليات في الصياغة والبيان.**

أدونيس: لا. المتنبي شاعر عظيم، لا مثيل له، جمع التاريخ كله، كل التاريخ العربي.. اخترقه، لم يكن شاعرًا وحسب، بل كان رائيًا، كان يرى العالَم أيضًا، يراه بوجوهه المظلمة والمشرقة. من هو الشاعر؟ الشاعر لا ينشد قصيدة فقط.. يغني أو يبكي أو يمدح، الشاعر يخلق عالما جديدًا من العلاقات بين الكلمات والأشياء، حين تقرأ المتنبي ترى عالماً خاصًا به.. تقرأ أبا تمام، ترى عالماً آخر مختلفًا كليًا.. وحين ترى أبا نواس ترى عالمًا آخر مختلفًا كليًا.. هذا هو الشعر العظيم، وهذا ما لم نعرف أن ندرسه؛ ونقّادنا، مع الأسف، لم يقدّموا لنا إياه بهذه الطريقة، قدّموه لنا على أنه كله شعر مديح وهجاء ورثاء، ولو يعرفوا اكتشاف المعنى العميق للشعرية العربية.



يُعتبر كتاب "موسيقى الحوت الغامض" الذي صدر عام ٢٠٠٢، من أعمال أدونيس المتأخرة والناضجة، حيث تتجه فيه لغته الشعرية نحو نوع من الشفافية المعقدة والتأمل الروحي.

الرؤى: **لقد عشتَ قرناً من الزمن. على الصعيد الشخصي، ما التجربة المعنوية أو الروحية التي تعيشها؟ ما الإحساسات والمشاعر ولحظات الوقوف مع الذات التي ترافقك كل يوم، وفي شهورك وسنواتك، بل نقول في عقودك المتتالية؟**

أدونيس: لا أزال تلميذًا يسأل ويبحث ويتعلّم، وأنا سعيد جدًا أن يمتلكني هذا الشعور بأني لا أزال في البداية، لم أعمل شيئًا بعد، وأنا أحاول أن أقوم ببعض الأشياء في آخر حياتي.

الرؤى: **أ لا تخشى من العالَم الآخر ما بعد الموت؟ لعلّ الحقَّ مع أهل الدين، وبالتالي تكون قد ضيعت الفرصة؟**

أدونيس: الموت ليس مشكلة، لا معنى للموت.. مبتذل، كل العالَم يموت.. كل شيء يموت، هو جزء من الحياة، وأينما ذهب الموت فهو في أحضان الحياة، و إذاً المشكلة ليست في الموت إطلاقًا، المشكلة هي كيف نحيا ونمجد وندافع عن هذه الحياة، وكيف نجعلها أكثر سعادة وأكثر حرية وأكثر إنسانية.

الرؤى: **كيف تنظر إلى ظاهرة الفداء والتضحية والشهادة.. عندما ترى شبابًا في لبنان وفي فلسطين من أجل الدفاع عن الوطن والأرض والعرض والمقدسات يحملون هذه الأرواح والدماء على الأكف ويستقبلون الموت هكذا بكل جرأة.. هذه القيمة كيف تحللها؟**

أدونيس: الإنسان حرية، ومن دون حرية لا معنى له، الذي يميزك عن الأشياء.. ما يميز الإنسان عن الأشياء هو أن الإنسان أول سؤال في أساسه هو الحرية، و إذا الدفاع عن الحرية هو الدفاع عن الوجود والدفاع عن الكينونة والدفاع عن جمال العالم.. عن الإبداع في العالم، ومع الأسف -وهذا يجب أن نذكره ونكرره- أن الحرية ليست موجودة في تاريخنا الإسلامي العربي.. ليست موجودة كلمة "الحرية"، موجودة فقط في علاقتها بالعبودية، أنك لديك عبد تحرره، لكن ليست موجودة كبعد كينونة من أبعاد الإنسان، ولذلك لا يعيش الإنسان العربي المسلم حريته إطلاقًا، هو مقيّد بقيود تافهة لا قيمة لها، ولذلك الذي يموت من أجل الحرية هو رمز هائل، ويجب أن نحترمهم كثيرًا، ويجب أن نقتدي بهم، لأن الذي يدافع عن الحرية في مجتمع

يحتقر الحرية.. هو يدافع عن مصير الإنسان وعن كينونته وعن جمال العالم.. هكذا بشر يصبحون رموزًا، خطوا تاريخيتهم، يغدون رموزًا يجب أن نحترمها ونقدرها.

الرؤى: **أختم معك مع مشهدية الحب.. وسألتك قبل قليل، لكنّك حدثتني عن الشعر العربي بشكل عام. الحب، وبالتحديد الحب الإلهي. أنت تعرف ابن الفارض، وتعرف رابعة وتعرف الشوشتري وابن عربي، وتعرف كل هؤلاء الذين تميزوا في الحديث عن العشق والحب: كيف تقدمه أنت؟ وفي تراثنا كيف حضر؟**

أدونيس: شعر حب الله هو شعر أنا أحترمه جدًا، لكن لا أقرأه كثيرًا، إذ أقرأه محض الاطلاع. الحب أن تعطي نفسك للآخر، للحياة. الله له شيء وموضوع آخر، أنا علاقتي بالغيب علاقة أدرسها وأظل أتساءل حولها، أنا أؤمن بالحياة، أما ما وراء الحياة فلا قدرة لي على القبض عليه، ولذلك لا يهمني كثيرًا، تهمني الحياة وتهمني قيم الحياة: الحرية.. الكفاح من أجل الحرية.. والانتصار للإنسان وحقوقه.. وجعل الإنسان بكل ما يفعله سيد نفسه وسيد مصيره وسيد العالَم.

الرؤى: "**جئت لا أدري من أين ولكني أتيت، ولقد أبصرت قدامي طريقًا.**"

أدونيس: إذًا دائمًا علينا أن نتساءل، لا أحد يستطيع أن يطرح سؤالاً.. حتى الدماغ الإلكتروني لا يستطيع أن يطرح سؤالاً.. إذا أنت لم تعطه.. السؤال الذي يطرح السؤال هو الإنسان وحده، ميزة الإنسان إذًا وعظمته وفرادته أنه سؤال يطرح دائمًا الأسئلة.

الرؤى: **لم تخبرني عن رأيك في الحب؟ هل هو مجرد مشاعر سطحية عارضة أم هو شيء أعمق من ذلك؟**

أدونيس: لا يكتمل الإنسان إلا بالحب، كمال الإنسان بالحب، الحب للآخر، هناك عبارة لأبي حيان التوحيدي تقول: "الصديقُ آخرٌ هو أنت". فإذا كان الصديق آخرٌ هو أنت.. فكيف الحبيب يكون إذاً؟ الذات لا تقوم.. لا مكان لها إلا بالآخر، وهكذا كان يقول المتصوفون، الآخر هو أنا.

الرؤى: **يعني نوع من الخروج من الأنانية تقصد؟ نوع من التخلي عن الأنا؟**

أدونيس: طبعًا، مثل ما قال رامبو: "أنا آخر"، لكن المتصوفين قالوها قبله، ولكن لا أحد يحكي عن المتصوفين، بل يتحدثون عن رامبو، في حين هنالك من قالوها قبله بألف سنة.

الرؤى: **أعطيتنا جرعة من التشاؤم ومن السلبية ومن عدم إمكانية نهوض العرب ومن أن الأمة، العرب والمسلمين، لا تقرأ؛ وأنهم يركزون على التكفير والقتل، ومن أنهم يُقصون ويهمشون كلّ قراءة صوفية أو فلسفية أو روحية.. لكن هذا ما الواقع، يعني أنت في ضمن حديثك أيضًا جلست تدلل على كمية ونوعية الثراء والغنى والجمال الموجود في تراثنا.. في الشعر في الفلسفة وفي التصوف وفي الشخصيات النضالية والمقاومة.. وبالتالي يُفترض أن تعمل توازنًا.. .. أشعر أن لديك نفس تشاؤمي.**

أدونيس: جيد.. لكي نعرف ماذا نفعل يجب أن نعلم من نحن، وما هو الواقع الذي نعيشه، نحن غالبًا لا ننظر إلى واقعنا ولا نحلله، ولا نرى فيه المساوئ، العرب جديرون بأن يكونوا قادة من قادة العالم الحديث، هذا ما أطرحه، أنه نحن العرب يمكن أن نكون من قادة العالم، لماذا نحن من أتباع أتباع أتباع العالم؟ لماذا؟ فلنكن من قادة العالم، هذا هو.. ولذلك ولكي نكون كذلك.. ولكي نكون هكذا يجب أن نعرف المساوئ التي نعيش فيها.

الرؤى: **حتى في القضايا المعرفية ألا يمكن إيجاد بعض المصالحات؟ لأنه الصوفية الذين مدحتهم كانوا أيضًا فقهاء ولم ينكروا الفقه، إنما قالوا لا ينبغي التوقف والمكوث والاكتفاء به وإنما ينبغي الارتقاء إلى معارج الروح.. فلماذا هذه الصِدامية؟ هلا يمكن توخي نوع من التوفيق أيضًا؟**

أدونيس: لذلك نحن الآن أقوياء بهم، ونذكرهم، ونعمل على تكملتهم.. إذا كنا قادرين، كل العناصر القديمة الحية نحن نستمد منها القوة ونستند إليها في نظرتنا إلى المستقبل.

الرؤى: **أنا أترك لك كلمة أخيرة، سواء في الشعر وفي الأدب، أو في الفلسفة، أو في واقعنا، تحب أن تتركها لأجيالنا التي هي مؤمنة بذاتها ومؤمنة بطاقاتها وبقدراتها.**

أدونيس: فقط أودّع القرّاء الأعزاء ببيت واحد قلته وأكرره: "عش ألفًا وابتكر قصيدة وامضِ، زِد سعة الأرض".

سورية
في قلب الصراع الجيوسياسي

قراءة في الموقع الاستراتيجي السوري عبر نظريات القوة الجيوسياسية الكبرى





أحمد الدبش

كاتب و باحث • فلسطين

المقدمة

تُعَدّ سورية واحدة من أكثر الدول أهمية في الجغرافيا السياسية لمنطقة الشرق الأوسط، فهي دولة تمتلك موقعًا جغرافيًا شديد الحساسية والتأثير، يقع عند نقطة التقاء ثلاث كتل جغرافية كبرى: الأناضول شمالاً، وبلاد الرافدين شرقًا، والجزيرة العربية جنوبًا، إضافةً إلى إطلالتها البحرية غربًا على البحر الأبيض المتوسط. ولهذا، اعتبر كثير من الجغرافيين والباحثين أن سورية تمثّل "قلب المشرق" أو مركزه الاستراتيجي، وأنها كانت على الدوام ساحة تنافس للقوى الإقليمية والدولية بسبب موقعها الفريد.

يكتسب موقع سورية الجغرافي قيمته من عدة عوامل متداخلة. أولها المكان: فوجودها في وسط الشرق الأوسط يجعلها نقطة عبور بين آسيا وأوروبا وأفريقيا، ويمنحها القدرة على التأثير في محيطها الجيوسياسي المباشر. وثانيها الحدود: فهي تجاور خمس دول لها ثقل كبير في الإقليم (تركية، العراق، الأردن، لبنان، فلسطين المحتلة)، ما يجعل أي تغير في الداخل السوري ذا انعكاسات مباشرة على الأمن الإقليمي. أما ثالث العوامل فهو البحر المتوسط، إذ يشكل الساحل السوري القصير نسبيًا منفذًا استراتيجيًا إلى أوروبا ومركزًا مهمًا للصراع على الغاز والطاقة والممرات البحرية.

كذلك، فإن التحولات العالمية في مجالات الطاقة والموانئ والتجارة تعيد إبراز سورية بشكل لافت. فمشاريع أنابيب الغاز التي تربط الخليج بتركية أو إيران بالبحر المتوسط غالبًا ما تمر جغرافيًا عبر الأراضي السورية، مما يجعل البلاد عنصرًا محوريًا في حسابات أمن الطاقة العالمي. كما أن موقع سورية ضمن مشروع "الحزام والطريق" الصيني يضيف بُعدًا جديدًا لتعزيز أهميتها اللوجستية، خاصة في مجال الربط بين شرق آسيا والبحر المتوسط.

لعبت هذه العناصر مجتمعة دورًا مركزيًا في تشكيل تاريخ سورية السياسي والاقتصادي. فالدولة السورية المعاصرة لم تكن يومًا بعيدة عن تأثير القوى الكبرى، بدءًا من الصراع العثماني-الصفوي، مرورًا بالمنافسة الفرنسية والبريطانية عقب الحرب العالمية الأولى، ووصولاً إلى تداعيات قيام الكيان الصهيوني والحرب الباردة، بقيت سورية ساحة صراع على النفوذ. أما بعد ٢٠١١، فقد أصبحت سورية نموذجًا بارزًا للدولة التي تجتمع فيها مصالح القوى الدولية والإقليمية، فتتحول إلى ساحة صراع بالوكالة ومركزًا لإعادة تشكيل خرائط النفوذ في الشرق الأوسط.

> اعتبر كثير من الجغرافيين والباحثين أن سورية تمثّل "قلب المشرق" أو مركزه الاستراتيجي، وأنها كانت على الدوام ساحة تنافس للقوى الإقليمية والدولية بسبب موقعها الفريد

"إسرائيل" لاعب أساسي

منذ عام ١٩٤٨، أصبح الصراع مع "إسرائيل" أحد أعمدة السياسة السورية، لا بوصفه نزاعًا حدوديًا فحسب، بل كعامل مركزي في تشكيل الأمن القومي السوري. فقد مثّل احتلال الجولان عام ١٩٦٧ نقطة مفصلية في حسابات الأمن القومي "الإسرائيلي"، حيث توفر عمقًا استراتيجيًا وتحكمًا طوبوغرافيًا في المنطقة. فمن النقاط المرتفعة في الجولان يمكن مراقبة تحركات الجيش السوري في ريف دمشق، مما يمنح "إسرائيل" قدرة إنذار مبكر تصل إلى ١٥٠ كيلومترًا داخل الأراضي السورية. كما أن السيطرة على مصادر المياه في الجولان تشكّل عاملاً جيواستراتيجياً حاسماً في دولة تعاني من شح الموارد المائية[1]. كما لعبت سورية دورًا أساسيًا في حرب ١٩٧٣، وفي ضبط التوازن الإقليمي عبر وجودها في لبنان لعقود، إضافة إلى مواصلة تبنّيها خطاب ومواقف داعمة للمقاومة الفلسطينية واللبنانية، وهو ما جعلها طرفًا رئيسيًا في معادلة الأمن "الإسرائيلي". فقد شكلت سورية في الرؤية "الإسرائيلية" تحدياً جيواستراتيجياً فريداً يجمع بين التهديد الوجودي والفرصة الاستراتيجية، حيث تتداخل فيها الاعتبارات الأمنية والجغرافية والسياسية بشكل معقّد. تنظر "إسرائيل" إلى سورية كـ"حلقة الوصل" الإقليمية التي تربط إيران



سير هالفورد جون ماكندر
لوحة منسوبة إلى سير هالفورد جون ماكندر - كان جغرافيا وسياسيا بريطانيا يُعتبر أحد الآباء المؤسسين لعلم الجيوبوليتيك.

نيكولاس سبايكمان
جغرافي واستراتيجي هولندي-أمريكي، ويُلقب بـ"أبو الردع": حيث اعتقد من خلال تقديمه لنظرية "ريملاند" (أرض الحافة) أن مفتاح السيطرة على العالم لا يكمن في قلب أوراسيا، بل في التحكم بسواحلها والمناطق الهامشية المحيطة بها.



بحزب الله، و"الممر البري" الذي يربط طهران ببيروت، و"الساحة الأمامية" للمواجهة مع المحور الإيراني[٢].
وبذلك، يصبح الصراع السوري- الإسرائيلي جزءًا بنيويًا من الجيوبولوتيك السوري، يتداخل مع العوامل الإقليمية والدولية التي تتحكم بمسارات الصراع على سورية.

سورية في النظريات الجيوسياسية

تزداد وضوحًا القيمة الجيوستراتيجية لسورية عند النظر إليها من خلال عدسة النظريات الجيوسياسية، إذ تُسهم مجموعة من الأطر التفسيرية في وضع أهمية هذا البلد في سياق ديناميكيات القوة الإقليمية والعالمية، وتساعد على فهم موقعه بوصفه محورًا تتقاطع عنده المصالح العسكرية والاقتصادية والجغرافية للحضارات والدول الكبرى.

> فالدولة السورية المعاصرة لم تكن يومًا بعيدة عن تأثير القوى الكبرى، بدءًا من الصراع العثماني-الصفوي، مرورًا بالمنافسة الفرنسية والبريطانية عقب الحرب العالمية الأولى، ووصولًا إلى تداعيات قيام الكيان الصهيوني والحرب الباردة

• نظرية قلب العالم (ماكندر)
قدّم هالفورد ماكندر[٣] عام ١٩٠٤ واحدة من أهم الإسهامات الجيوبوليتكية عبر نظرية قلب العالم، حيث اعتبر أنّ من يسيطر على قلب العالم (Heartland) -أوراسيا- أي المنطقة الممتدة من روسيا إلى وسط آسيا يملك القدرة على السيطرة على الجزيرة العالمية ثم على العالم[٤]. ويرى ماكندر أنّ القوة البرّية في شرق أوروبا ووسط آسيا تمثّل مركز الثقل الاستراتيجي، بينما تبقى القوى البحرية في موقع أقل استقرارًا إذا توحّد القلب تحت سلطة قوة واحدة[٥]. أشار أيضًا إلى أهمية المحيط الهامشي، أي المناطق المحيطة بقلب العالم، والتي تتضمن الشرق الأوسط[٦].
ورغم أنّ سورية ليست ضمن قلب أوراسيا بالمعنى الضيق، فإنّ موقعها على الحافة الجنوبية للقلب يجعلها نقطة وصل حيوية بين الكتلة البرّية الأوراسية والفضاء المتوسطي البحري. ولذلك شكّلت سورية، تاريخيًا وحتى اليوم، منطقة تنافس بين القوى البرّية (مثل روسيا و إيران) والقوى البحرية الأطلسية (مثل الولايات المتحدة وأوروبا). وينعكس ذلك بوضوح في التدخل العسكري الروسي عام ٢٠١٥، والذي يمكن تفسيره من خلال منطق الحواف الذي صاغه ماكندر عن حماية القلب عبر السيطرة على أطرافه.

• نظرية الهلال الداخلي (Rimland) (سبيكمان)
قدّم الجغرافي السياسي الأمريكي نيكولاس سبيكمان[٧] في الأربعينيات تطويرًا نقديًا مباشرًا لنظرية قلب العالم. فقد رأى أن سيطرة قوة واحدة على قلب أوراسيا ليست هي العامل الفاصل في الهيمنة العالمية، بل السيطرة على الحواف البحرية والبرية المحيطة بالقلب، والتي أطلق عليها اسم الهلال الداخلي (Rimland). وبعكس ماكندر الذي قال: "من يسيطر على قلب العالم يسيطر على العالم"، قال سبيكمان: "من يسيطر على Rimland (الحواف البحرية والبرية) يسيطر على أوراسيا، ومن يسيطر على أوراسيا يسيطر على العالم"[٨].
تشمل منطقة الهلال الداخلي المنطقة الممتدة من أوروبا الغربية مرورًا بالشرق الأوسط وصولًا إلى جنوب وشرق آسيا. وهي مناطق تماس بين القوى البحرية (الولايات المتحدة، بريطانيا) والقوى البرّية الكبرى (روسيا، الصين).
تقع سورية مباشرة في قلب الهلال الداخلي، لأنها:
• على تماس مباشر مع البحر المتوسط.
• ترتبط بريًا بتركية والعراق والأردن ولبنان.
• تتحكم في مداخل آسيا الصغرى وبلاد الرافدين.
• تشرف على خطوط النفوذ الممتدة من أوروبا إلى الخليج.
وبذلك، تصبح سورية على وفق نموذج سبيكمان دولة "مفتاحية" في السيطرة على الشرق الأوسط. وهذا يُفسّر -إلى حد كبير- التدخلات الدولية والإقليمية في سورية عبر إطار الهلال الداخلي (Rimland) على النحو الآتي:
• تقع سورية في قلب الحافة الجنوبية- الغربية لأوراسيا، وهي منطقة صِدام بين النفوذ الروسي (قوة برّية) والنفوذ الأمريكي-التركي (قوة بحرية-أطلسية).

• أهمية الساحل السوري ومدينة طرطوس تعكس محاولة روسيا تثبيت موقع داخل (Rimland) لضمان الوصول الدائم للبحار الدافئة.
• الوجود الأمريكي في شرق الفرات يمثّل جزءًا من استراتيجية احتواء النفوذ البرّي (الروسي-الإيراني) داخل (Rimland).
• التنافس التركي-الإيراني-الروسي حول الشمال والشرق السوري يعكس صراعًا على الممرّ الاستراتيجي الذي يربط الأناضول ببلاد الرافدين والبحر المتوسط.

بهذا يصبح الهلال الداخلي (Rimland) إطارًا منهجيًا مهمًا لفهم معارك النفوذ في سورية، لأنه يربط بين موقعها الجغرافي وتوازن القوى العالمي بين القوى البحرية والبرية.

• نظرية القوة البحرية (ماهان)

طرح ألفرد[9] ماهان في كتابه "تأثير القوة البحرية في التاريخ" عام ١٨٩٠ مفهوم القوة البحرية بوصفه أساس النفوذ العالمي، معتبرًا أنّ السيطرة على البحار والممرّات البحرية والموانئ تُعدّ مفتاح الهيمنة الدولية[10]. وتشمل عناصر القوة البحرية لدى ماهان: الموقع البحري، طول السواحل، الموانئ العميقة، الأسطول العسكري، الأسطول التجاري، والتحالفات البحرية.

بالنظر إلى سورية، رغم صغر ساحلها مقارنة بدول المتوسط، فإن موقعها البحري على الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط يعطيها وزنًا استراتيجيًا في حسابات القوى البحرية. يمثّل ميناء طرطوس أهمية استثنائية، كونه أول قاعدة بحرية روسية في المياه الدافئة، ما ينسجم مباشرة مع مبادئ ماهان حول ضرورة امتلاك قواعد بحرية خارجية لتعزيز النفوذ العالمي[11]. ويعكس الوجود البحري الروسي في الساحل السوري تطبيقًا عمليًا لنظرية ماهان،



جزيرة طرطوس
في سورية، من مجموعة "مشاهد من الممالك العثمانية" جزيرة طرطوس من مجموعة "مشاهد من الممالك العثمانية"/ سنة ١٨١٠.
• بقلم: لويجي ماير

فالموقع البحري السوري يتيح لروسيا الوصول الدائم للمتوسط، وموازنة النفوذ الأمريكي في البحر المتوسط، والسيطرة على جزء من خطوط الملاحة في شرق المتوسط، ويمثل امتدادًا بحريًا لروسيا نحو إفريقيا الشمالية والشرق الأوسط. كما يعكس التنافس على الساحل السوري أهمية الموقع البحري في الصراع الإقليمي، خصوصًا المتعلق بحقول الغاز المكتشفة قبالة الساحل السوري (رغم عدم استثمارها) والحدود البحرية.

نظرية المجال الحيوي (فريدريك راتزل)

تقوم نظرية المجال الحيوي التي طوّرها فريدريك راتزل[١٢] على تشبيه الدولة بالكائن الحي الذي يحتاج إلى مجال جغرافي "مجال حيوي" يتوسع فيه لضمان بقائه[١٣]. يرى راتزل أن الدولة القوية تسعى إلى التوسع خارجيًا عندما يضيق مجالها الداخلي، وأن الحدود ليست ثابتة بل تتوسع مع القوة وتنكمش مع الضعف.

وتنطبق هذه النظرية بدرجة واضحة على السلوك الإقليمي للدول المحيطة بسورية:

> منذ عام ١٩٤٨، أصبح الصراع مع "إسرائيل" أحد أعمدة السياسة السورية، لا بوصفه نزاعًا حدوديًا فحسب، بل كعامل مركزي في تشكيل الأمن القومي السوري

- تركية تعتبر شمال سورية جزءًا من مجالها الحيوي الأمني، وترى في وجود تشكيلات كردية مسلحة تهديدًا لبنيتها القومية، ما دفعها إلى تنفيذ عمليات عسكرية داخل الأراضي السورية بهدف توسيع مجال نفوذها و إقامة "منطقة آمنة" تعتبرها ضرورة استراتيجية.
- إيران تعتبر سورية حلقة أساسية في مجالها الاستراتيجي الممتد من طهران إلى بغداد ودمشق وبيروت، فيما يُعرف بـ"الممر البري" أو "محور المقاومة".
- سورية تاريخيًا تعاملت مع لبنان بوصفه امتدادًا طبيعيًا لمجالها السياسي-الاقتصادي-الأمني.
- تدخّل "إسرائيل" العسكري تحت مزاعم حماية "مجالها الأمني الحيوي" في الجنوب السوري.

هذه الأمثلة تُظهر كيف يساعد تصور راتزل في فهم منطق التوسّع ومحاولات الهيمنة على المجال السوري من مختلف الأطراف، وتفسير سبب احتدام الصراع الإقليمي عليه.

• نظرية الشطرنج الكبير (بريجنسكي)

في كتابه الشهير "رقعة الشطرنج الكبرى"[١٤]، قدّم زبيغنيو بريجنسكي[١٥] مستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق تصورًا للعالم باعتباره رقعة شطرنج جيواستراتيجية تتنافس عليها القوى الكبرى، خصوصًا الولايات المتحدة وروسيا والصين. وحدد مناطق معينة سمّاها "نقاط الارتكاز الجيوسياسي"[١٦] وهي الدول التي يؤدي سقوطها أو تقدمها إلى تأثير كبير على التوازن الدولي[١٧].

المنهجية التي يطرحها بريجنسكي في تحليل الأهمية الجيوسياسية للدول تنطبق على سورية - رغم صغر مساحتها نسبيًا - تمتلك أهمية تفوق حجمها لأنها:

- تقع في قلب المنطقة الأكثر تقلبًا في العالم.
- ترتبط بثلاث قارات.
- تؤثر في أمن "إسرائيل".
- تقع على خط تماس روسي- أمريكي.
- ترتبط بممرات نفط وغاز.
- تشكّل محورًا في التوازن التركي-الإيراني-العربي.
- تشرف على المتوسط.
- تؤثر في العراق ولبنان والأردن.

لذا تُعد سورية دولة محورية، أيّ تحوّل فيها يعيد تشكيل الإقليم بالكامل.

مفهوم الدولة المحورية / منطقة الانكسار الجيوسياسي

يشير مفهوم الدولة المحورية أو منطقة الانكسار الجيوسياسي إلى المناطق التي تقع عند تقاطع صراعات القوى الإقليمية والدولية، بحيث تتحول إلى ساحة تنافس مفتوح بين قوى أكبر منها. طوّر المفهوم الجغرافي ساول كوهين[١٨] وقد توسّع في شرحه لاحقًا عدد من الجغرافيين من بينهم مارتن غلاسنر[١٩] في إطار الجيوبولتيك الحديث، ويعني أن الدولة أو الإقليم يصبح غير قادر على التحكم بمساره السياسي بسبب الضغط المتزامن من قوى داخلية و إقليمية ودولية، ما يجعله عرضة للتفكك أو عدم الاستقرار المستمر[٢٠].

آلفريد ثاير ماهان
(١٨٤٠-١٩١٤) كان ضابطاً في البحرية الأمريكية ومنظراً بحرياً مرموقاً، لعب دوراً تاريخياً في تعريف البحرية الأمريكية كقوة جيوسياسية كبرى في نهاية القرن التاسع عشر.



وتُعد سورية أنموذجًا مثاليًا لهذا المفهوم: فهي تقع عند تقاطع ثلاث بيئات استراتيجية (الأناضول شمالاً- بلاد الرافدين شرقًا- الجزيرة العربية جنوبًا)، إضافة إلى إطلالتها على البحر المتوسط. وقد أصبحت منذ ٢٠١١ ساحة تتداخل فيها مصالح قوى دولية (الولايات المتحدة، روسيا)، وقوى إقليمية (تركية، إيران، "إسرائيل")، وأطراف محلية متعددة.

يتجلّى تطبيق مفهوم الدولة المحورية أو منطقة الانكسار الجيوسياسي على سورية في:

- تشظي الجغرافيا السياسية بين قوى داخلية متنافسة.
- تعدد مناطق النفوذ العسكرية.
- استخدام أراضيها ساحة صراع بالوكالة بين القوى الكبرى.
- أهمية موقعها في ضبط توازن القوى الإقليمية، ما يفسّر استمرار التدخلات الخارجية.

وبذلك تمثّل سورية حالة نموذجية للدولة المحورية التي تتقاطع فوقها خطوط الصراع الإقليمي والدولي.

يمكن تلخيص القيمة الاستراتيجية لسورية في ثلاث ركائز مترابطة:

١. البرّ السوري كجسر تاريخي بين الشرق والغرب: كانت سورية ممرًا لقوافل التجارة منذ طريق الحرير حتى الطرق الحديثة التي تربط الخليج بتركية وأوروبا. هذا الموقع يجعل السيطرة على المعابر البرية السورية مسألة تتجاوز الجغرافيا إلى التأثير المباشر في حركة التجارة والطاقة العالمية.

٢. الساحل السوري كبوابة على المتوسط: يمثّل البحر المتوسط نقطة ارتكاز لوجستية وتجارية مركزية، ويتيح الوصول إلى أوروبا وشمال إفريقيا والبلقان. لذا يشكل الساحل السوري أهمية كبيرة للقوى الدولية، وبخاصة روسيا والصين.

٣. المجال الجوي والممرات العسكرية: من يسيطر على الأجواء السورية يملك قدرة استراتيجية على مراقبة شرق المتوسط: العراق، الأردن، وتركية، وهذا جزء أساسي من الحسابات



مناحم بيجن (إلى اليسار)، يلعب بالقطع البيضاء ضد زيغنيو بريجينسكي. (صورة من البيت الأبيض).

فريدريش راتزل
جغرافي وأنثروبولوجي ألماني من القرن التاسع عشر. طرح مفهوم "المجال الحيوي" (Lebensraum)، وشبّه الدولة بالكائن الحي الذي يحتاج بالضرورة إلى توسيع أراضيه وحدوده من أجل البقاء والنمو.



الروسية والأميركية و"الإسرائيلية".

هـذه العـوامـل مجتمعة تجعل سـوريـة دولـة صغيرة بمؤشراتها الاقتصادية، لكنها ذات أثر جيوبوليتيكي كبير، وهو ما جعل الحرب فيها تتطور إلى صراع دولي.

تكشف الدراسة أنّ الموقع الجيوسياسي لسورية لم يكن يومًا عاملاً ثانويًا، بل شكّل عبر العقود محورًا لارتكاز التنافس الإقليمي والدولي. ويبرز في هذا السياق الدور "الإسرائيلي" بوصفه أحد أكثر العوامل تأثيرًا واستمرارية في صياغة مسارات الصـراع الـسـوري. فمنذ عـام ١٩٤٨، لـم يكن الصراع السوري-"الإسرائيلي" نزاعًا حدوديًا، بل بُنية أساسية في تشكيل الأمن القومي السوري والإقليمي، ارتبطت فيها الجغرافيا بالطبوغرافيا، والسيادة بالتهديدات الاستراتيجية.

مثّل احتلال الجولان عام ١٩٦٧ نقطة تحوّل مركزية: إذ وفّر لـ"إسرائيل" إشرافًا طبوغرافيًا على العمق السوري وقدرة إنـذار مبكّر، إضافةً إلى التحكم بمصادر المياه. وتحوّل الجولان إلى جزء جوهري من العقيدة الأمنية "الإسرائيلية"، بما يرسّخ موقع سورية بوصفها بيئة استراتيجية حساسة. وبعد حرب ١٩٧٣، تعمّق هذا البعد مع دخول لبنان في بنية الصراع وتنامي دور المقاومة اللبنانية المدعومة سوريًا، ما جعل سورية عنصرًا ثابتًا في معادلة الردع "الإسرائيلية".

> لعبت سورية دورًا أساسيًا في حرب ١٩٧٣، وفي ضبط التوازن الإقليمي عبر وجودها في لبنان لعقود، إضافة إلى مواصلة تبنّيها خطاب ومواقف داعمة للمقاومة الفلسطينية واللبنانية، وهو ما جعلها طرفًا رئيسيًا في معادلة الأمن "الإسرائيلي"

تنسجم هذه المقاربة مع النظريات الجيوسياسية الكبرى: تقع سورية على خط تماس بين القوى البرّية (روسيا و إيران) والقوى البحرية الأطلسية (الولايات المتحدة و"إسرائيل")، ما يجعل التحكّم بتوازناتها جـزءًا من استراتيجية السيطرة. وفي الرؤية "الإسرائيلية"، تحوّلت سورية إلى ساحة استراتيجية مزدوجة: دولة مواجهة مباشرة، وممر بري يربط إيران بلبنان، وهو ما يُعَدّ عنصرًا محوريًا في تصور "إسرائيل" لـ"التهديد المتعدّد الجبهات".

بعد عام ٢٠١١، اكتسب الدور "الإسرائيلي" في سورية طابعًا أكثر وضوحًا: إذ استغلت "إسرائيل" تفكك الجغرافيا السورية وتعدد الفاعلين لتحقيق أهداف أمنية مركّبة، من منع ترسيخ الوجود العسكري الإيراني، إلى استهداف خطوط الإمداد نحو حزب الله، و إعـادة رسم قواعد الاشتباك في الجنوب السوري. وقد سمحت التعددية الدولية -بين روسيا والولايات المتحدة وتركية و إيران- بمجال مناورة واسع تتحرك فيه "إسرائيل" ضمن إطار "المعركة بين الحروب".

تخلص الـدراسـةُ إلى أن "إسرائيـل" ليست فـاعلاً طرفيًا في الأزمة السورية، بل عنصرًا بنيويًا يُسهم في إعادة إنتاج خرائط النفوذ الإقليمي. ونتيجة لموقع سـوريـة الاسـتراتـيـجـي الفريد، سيظل الـدور الإسرائيلي عـاملاً تفسيرياً رئيسيًا لفهم الجيوبوليتكس السوري وتحوّلات الإقليم بأسره.

الهوامش

١. يُراجع المزيد من التفاصيل حول "الجولان في النظرة الإسرائيلية إلى سورية":
Efraim Inbar, Israeli Control of the Golan Heights (Begin-Sadat Center for Strategic Studies, 2011), accessed [date], https://besacenter.org.

٢. يُراجع المزيد من التحليلات التي تتعلق بالأمن القومي "الإسرائيـلي" والقضايا الاستراتيجية في الـشـرق الأوسـط، عـلـى مـوقـع (Home Page|INSS).

3. Halford J. Mackinder

4. Halford J. Mackinder, "The Geographical Pivot of History," The Geographical Journal 23, no. 4 (1904).

5. Halford J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality: A Study in the Politics of Reconstruction (London: Constable, 1919).

6. Halford J. Mackinder, "The Geographical Pivot of History," The Geographical Journal 23, no. 4 (1904).

7. Nicholas J. Spykman

8. Nicholas J. Spykman, America's Strategy in World Politics: The United States and the Balance of Power (New York: Harcourt, Brace and Company, 1942).
9. (Alfred Thayer Mahan)
10. Alfred Thayer Mahan, The Influence of Sea Power upon History, 1660–1783 (Boston: Little, Brown and Company, 1890).
11. Alfred Thayer Mahan, Naval Strategy: Compared and Contrasted with the Principles and Practice of Military Operations on Land (Boston: Little, Brown and Company, 1911).
12. (Friedrich Ratzel)
13. Friedrich Ratzel, Politische Geographie (Munich: Oldenbourg, 1897).
14. (The Grand Chessboard)
15. (Brzezinski, Zbigniew)
16. (Geopolitical Pivots)
17. Brzezinski, Zbigniew. The Grand Chessboard: American Primacy and Its Geostrategic Imperatives. New York: Basic Books, 1997.
18. Saul B. Cohen
19. Martin Ira Glassner
20. Saul B. Cohen, Geography and Politics in a Divided World (New York: Random House, 1963).
Saul B. Cohen, Geopolitics of the World System (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2003).
Martin Ira Glassner and Chuck Fahrer, Political Geography, 3rd ed. (New York: Wiley, 2004)

حرب الأيام الستة
دبابات تابعة للكيان الصهيوني تتقدم في مرتفعات الجولان خلال حرب الأيام الستة بين القوات العربية والكيان الصهيوني، ١٠ يونيو ١٩٦٧.
• المصدر: مكتب الصحافة الحكومي للكيان الصهيوني
• المصور: آساف كوتين



إعادة تصور الهيمنة غير المباشرة من الانتداب إلى العقوبات

سورية Syria 1920–2025



خالد دراوشة
باحث وكاتب • فلسطين

المقدمة

تستكشف هذه الدراسة الفجوة المفاهيمية في النظرية ما بعد الكولونيالية فيما يتعلق بأشكال الهيمنة غير المباشرة التي لا تندرج ضمن نموذج الاستعمار الكلاسيكي. من خلال تحليل الحالة السوريّة عبر فترتين زمنيتين محوريتين -الانتداب الفرنسي (١٩٢٠-١٩٤٦) والعقوبات الدولية (٢٠٠٠-٢٠٢٥)-يطرح البحث أن الهيمنة لم تختفِ مع نهاية الاستعمار المباشر، بل تحوّلت من آليات إدارية وعسكرية إلى هياكل قانونية واقتصادية تُمارَس عبر تفويض شكلي للسيادة يخفي تفكيكًا ماديًا مستمرًا. تعتمد المنهجية "التحليل الخطابي-المؤسسي المقارن عبر الزمن"، الذي يتجاوز قيود غياب الأرشيف الوطني عبر تحليل الخطابات الرسمية (الدولية والمحلية) كبنية منتجة للمعنى والسلطة. يكشف التحليل استمرارية بنيوية في إنكار "الأهلية الكاملة" للسيادة السورية، حيث يُعاد إنتاج مفاهيم "الوصاية" و"المسؤولية" عبر سرديات مختلفة: من خطاب "التأهيل للحكم الذاتي" في عهد الانتداب إلى خطاب "الحماية من النظام الاستبدادي" في عصر العقوبات. يقدّم البحث إسهامًا نظريًا من خلال صياغة مفهوم "السيادة المفوضة" كأداة تحليلية تربط بين المستويين القانوني والاقتصادي للهيمنة غير المباشرة، وتُظهر كيف أن العنف البنيوي (Galtung, 1969) لا ينفصل عن إنتاج الشرعية عبر القانون الدولي (Anghie, 2005). وعليه، لا تُشكل سورية استثناء خارج النظرية ما بعد الكولونيالية، بل مختبرًا حيويًا لتوسيعها وتجاوز ثنائية المستعمر/المستعمر.

صياغة المشكلة البحثية

على الرغم من تطور النظرية ما بعد الكولونيالية في سياقات الاستعمار الاستيطاني والاحتلال المباشر، تظل الحالة السوريّة -كدولة خضعت لانتداب

کمختبر نظر


FRANCE
AND STATED THAT HE IS A M
FURTHER IDENTIFIED.
END PAGE ONE
56SEP1 1967
cc - Knickrehm

دولي ثم لعقوبات اقتصادية شديدة- غائبة إلى حد كبير عن النقاش المعرفي المركزي. وينبع هذا الغياب من اختلال بين الإطار النظري السائد والواقع البنيوي للهيمنة في السياقات التي لا تمر عبر السيطرة العسكرية الصريحة. فالمفاهيم الأساسية مثل "الاستعمار"، "التحرير"، و"السيادة" تفترض وجود كيان مركزي للقمع يمكن مواجهته أو تجاوزه. لكن سورية، منذ إعلان دولة الانتداب عام ١٩٢٠ وحتى فرض نظام العقوبات المعقد بعد ٢٠١١، لم تُدار عبر احتلال دائم، بل عبر بنيات تفويض تمنح شكلًا من الاعتراف الدولي مع إنكار فعلي للقدرة على التحكم الذاتي. هذه البنية المزدوجة -الاعتراف القانوني/الاستبعاد المادي- لم يُطوّر لها إطار تحليلي كافٍ في الأدبيات الحالية.

تُمارس الهيمنة على سورية عبر آلية متجددة من "السيادة المفوضة"، حيث يُمنح الاعتراف الدولي بالسيادة كشكل قانوني فارغ، بينما تُسحب القدرة الفعلية على التحكّم عبر هياكل اقتصادية وقانونية عالمية، مما يُعيد إنتاج حالة التفتيت الداخلي التي بدأت في عهد الانتداب

المراجعة النقدية للأدبيات

تركز الدراسات ما بعد الكولونيالية الكلاسيكية (مثل سعيد، ١٩٧٨؛ فانون، ١٩٦١) على المواجهة العلنية بين المستعمِر والمستعمَر، بينما تهتم أعمال أنغي (٢٠٠٥) بدَور القانون الدولي في إنتاج التراتبية بين الدول. ومع ذلك، فإن الربط بين هذا الدور القانوني وآليات الهيمنة الاقتصادية المعاصرة -مثل العقوبات- لا يزال محدودًا. من جهة أخرى، تُظهر دراسات السيادة المجزأة (هانسن وستيبيوتات، ٢٠٠٦) كيف أن الدولة قد تفقد احتكارها على العنف دون أن تختفي رمزيتها، لكنها نادرًا ما تتتبع الجذور التاريخية لهذه الظاهرة. ويبقى مفهوم "العنف البنيوي" (غالطول، ١٩٦٩) غير مستخدَم بشكل كافٍ في تحليل السياسات الاقتصادية الدولية، رغم إمكاناته الكبيرة في كشف الطبيعة غير المباشرة للضرر.

الفرضية والإسهام النظري

يطرح هذا البحث الفرضية التالية: تُمارس الهيمنة على سورية عبر آلية متجددة من "السيادة المفوضة"، حيث يُمنح الاعتراف الدولي بالسيادة كشكل قانوني فارغ، بينما تُسحب القدرة الفعلية على التحكّم عبر هياكل اقتصادية وقانونية عالمية، مما يُعيد إنتاج حالة التفتيت الداخلي التي بدأت في عهد الانتداب.

الإسهام النظري يتمثل في:

- تطوير مفهوم "السيادة المفوضة" كحلقة تحليلية تربط بين الحقبتيْن التاريخيتيْن؛
- تفعيل مفهوم "العنف البنيوي" في تحليل العقوبات الاقتصادية عبر ربطه ببنية التبعية العالمية؛
- تقديم منهجية قابلة للتعميم لتحليل حالات "شبه الاستعمار" في النظام الدولي المعاصر.

الخطة البحثية

بعد هذه المقدمة، يقدم القسم ٢ إطارًا نظريًا مبنيًا على تشغيل ثلاثة مفاهيم مركزية كأدوات تحليل. القسم ٣ يعرض المنهجية المبتكرة. الأقسام ٤-٦ تحلل الوحدات الثلاث المقارنة. والقسم ٧ يلخّص الإسهامات والحدود.

الإطار النظري

العنف البنيوي: من تعريف غامض إلى أداة تحليل مؤسسي

يُشكّل مفهوم "العنف البنيوي" (Galtung, 1969) حجر الزاوية في تحليل الهيمنة غير المباشرة، لا باعتباره استعارة أخلاقية، بل كأداة تشغيلية لفهم كيف يُنتَج الضرر المادي دون تدخل مباشر. ويعرّف غالطول العنف البنيوي بأنه أي ترتيب اجتماعي يمنع الأفراد أو الجماعات من تحقيق إمكاناتهم الكاملة (actual realization of potential). وخلافًا للعنف الشخصي (الذي يُمارَس عبر أفعال محددة من فاعلين محددين)، فإن العنف البنيوي "مبنيٌّ في البنية" (built into the structure)، ولا يُعزى إلى نية أو سلوك فردي، بل إلى علاقات القوة غير المتكافئة التي تحدّ من فرص الحياة، الصحة، التعليم، والكرامة (Galtung, 1969, p. 171).

يكتسب هذا المفهوم أهميته التحليلية عندما يُطبّق على السياسات الاقتصادية الدولية. فالمفارقة التي يشير إليها غالطول صريحة:



أنطوني أنغي
هو قانوني وأستاذ بارز سريلانكي-أسترالي، يُعرف بنظرياته الرائدة حول العلاقة التاريخية بين الاستعمار وتشكيل القانون الدولي، فضلا عن كونه مؤسسا لحركة "نهج العالم الثالث للقانون الدولي" (TWAIL).

"العقوبات الاقتصادية تحتل موقعًا وسطًا مثيرًا للاهتمام. إنها واضحة العنف في عواقبها النهائية، التي تتمثل في الجوع وغيرها، لكن الأمل هو أنها بطيئة بما يكفي للسماح بالاستسلام قبل ذلك بكثير" (Galtung, 1969, الحاشية 17). هذه العبارة تفتح الباب أمام تحليل غير أخلاقي للعقوبات بوصفها آلية هيمنة محسوبة، تستخدم التمايز الهيكلي في النظام الدولي -حيث تكون الدول الأكثر هشاشة هي الأكثر تعرضًا للضرر- كرافعة للضغط السياسي.

وفي سياق الحالة السوريّة، لا يكفي القول إن العقوبات "تُسبّب معاناة"، بل يجب تحديد كيف تخلق هيكليًا:

- تفكيك قدرة الدولة على تأمين الخدمات الأساسية (كهرباء، مياه، صحة)؛
- إعادة إنتاج التبعية عبر اقتصاد الظل والدولار؛
- تعميق التفاوتات بين المناطق الموالية والمعارضة، مما يُعزز التفتيت الداخلي.

وهكذا، يتحول العنف البنيوي من وصفٍ عام إلى مؤشر تحليلي: كلّما زاد فارق "الإمكانات المحققة" (actual realization) عن "الإمكانات الكامنة" (potential realization) بسبب بنى خارجية، زادت درجة الهيمنة البنيوية.

السيادة المجزأة: إعادة تصور الدولة في ظلّ تعدد مراكز السلطة

تُقدّم أعمال هانسن وستيبيوتات (Hansen & Stepputat, 2006) مفهوم "السيادة المجزأة" كبديل عن الوهم الوستفالي للدولة كوحدة متماسكة. ففي سياقات الحروب الممتدة والتدخل الخارجي، لا "تفقد" الدولة سيادتها، بل تُعاد توزيعها عبر شبكة معقّدة من الفاعلين: الميليشيات، الرعاة الإقليميين، الشركات الخاصة، والمنظمات غير الحكومية. وتُمارَس السيادة هنا



سورية: لاجئون، حوالي عام ١٩٢٦. / زعماء الدروز من جبل الدروز الذين ثاروا ضد الانتداب الفرنسي في سورية. صورة فوتوغرافية، حوالي عام ١٩٢٦.



توماس بوم (Tomas Baum)
هو كاتب وباحث بلجيكي، ينصب تركيزه الأساسي على مجالات الأخلاق التطبيقية، وإدارة النزاعات، والمفاهيم المتعلقة بالسلام والمصالحة في المجتمعات الحديثة.

علاقية (relational) وموضعية (zonal)، لا كخاصية ثابتة.

ويتيح هذا المفهوم تحليل التحوّل السوري بعد ٢٠١١ دون اللجوء إلى خطاب "فشل الدولة". فالانهيار لم يكن مؤسّسيًا مطلقًا، بل تفريغًا تدريجيًا للدولة المركزية من وظائفها المادية (الاقتصاد، الأمن، الخدمات) بينما يُحتفظ لها بوظيفتها الرمزية (الاعتراف الدولي، الخطاب الوطني). وهذا التفريغ لا يُعزى فقط إلى الحرب، بل إلى بنية الدولة ما بعد الانتداب التي لم تُبنَ كحاضنة للمواطَنة، بل كجهاز لضبط الفئات وإدارة التفتيت (Batatu, 1999).

والمفارقة أن هذا التفتيت يُعيد إنتاج منطق الانتداب نفسه: فكما قسّمت فرنسا سورية إلى "دول" لضمان القابلية للإدارة، تُقسّم العقوبات والتدخل الخارجي اليوم سوريةَ إلى مناطق نفوذ تُدار عبر وكلاء محليين، مما يُكرّس سيادة لا مركزية ومتنافرة.

> يُشكّل مفهوم "العنف البنيوي" (Galtung, 1969) حجر الزاوية في تحليل الهيمنة غير المباشرة، لا باعتباره استعارة أخلاقية، بل كأداة تشغيلية لفهم كيف يُنتَج الضرر المادي دون تدخل مباشر

القانون الدولي كأداة إمبريالية: من "التأهيل" إلى "المسؤولية عن الحماية"

يُعيد أنغي (Anghie, 2005) صياغة تاريخ القانون الدولي ليس كمسيرة للحضارة، بل كتاريخ لإنتاج التراتبية بين "الحضارة" و"اللا حضارة". فالمفتاح التأسيسي للنظام القانوني الحديث هو "المبدأ التمييزي" (the standard of civilization)، الذي يمنح "أهلية السيادة" فقط لتلك الكيانات التي تمتلك مؤسسات "متحضرة". وهذا المبدأ، رغم تحوّل صيغه، لم يختفِ.

في عهد الانتداب، صُوّر السوريون على أنهم "غير مؤهلين" للحكم الذاتي، مما شرعَن التفويض الفرنسي كـ"وصاية تعليمية". وفي عصر ما بعد ٢٠١١، أعيد إنتاج هذا الخطاب عبر مفاهيم مثل "المسؤولية عن الحماية" (R2P) و"الحوكمة الرشيدة"، حيث يُعتبر النظام السوري "فاشلاً" أو "استبداديًا" -أي غير جدير بالسيادة- مما يبرّر التدخل (حتى لو لم يكن عسكريًا). وهكذا، يصبح القانون الدولي مسرحًا لإعادة إنتاج الاستثناء، لا كإطار للمساواة.

٤-٢. نموذج تحليلي موحّد: دورة الهيمنة غير المباشرة

يُمكن دمج هذه المفاهيم الثلاثة في نموذج تحليلي واحد، نسمّيه "دورة الهيمنة غير المباشرة"، يتكون من ثلاث مراحل:

- **التفويض القانوني للسيادة:** يتم الاعتراف شكليًا بالدولة، لكن مع شرط "الأهلية المشروطة".
- **التفكيك المادي عبر العنف البنيوي:** تُستخدم أدوات اقتصادية (عقوبات، حظر مالي) لهدم القدرة على الحكم الذاتي.
- **التفتيت الداخلي عبر السيادة المجزأة:** تُوزّع السلطة على فاعلين محليين وخارجيين، مما يُكرّس الاعتماد الدائم على الوصاية.

سيُستخدم هذا النموذج لتحليل الوثائق الرسمية عبر الحقبتيْن (١٩٢٠-١٩٤٦ و٢٠٠٠-٢٠٢٥)، للكشف عن استمرارية في الآليات، رغم تحوّل الخطاب.

المنهجية

المنهج المقترح: التحليل الخطابي-المؤسسي المقارن عبر الزمن

نظرًا لانهيار البنية الأرشيفية الوطنية السورية وتشتّت أو تدمير مصادرها الأساسية، يعتمد هذا البحث على منهجية بديلة تحوّل هذه القيود إلى فرصة تحليلية. وبدلا من السعي إلى استرجاع "الواقع التاريخي" المفقود، يركّز البحث على تحليل الخطابات الرسمية كبنى منتجة للمعنى والسلطة. ويتخذ هذا التحليل شكل "مقارن عبر الزمن"، يربط بين فترتين تاريخيتين محوريتين:

- الفترة الأولى (١٩٢٠-١٩٤٦): مرحلة الانتداب الفرنسي، حيث تُدرَس الوثائق الصادرة عن عصبة الأمم، التقارير الإدارية الفرنسية، والمراسلات الدبلوماسية.
- الفترة الثانية (٢٠٠٠-٢٠٢٥): مرحلة العقوبات الدولية، حيث تُحلّل قرارات مجلس الأمن، التشريعات الأمريكية والأوروبية (مثل قانون قيصر)، وتقارير المنظمات الدولية والحكومية.

يقوم هذا المنهج على افتراض معرفي مزدوج: (١) أن الخطابات الرسمية ليست انعكاسًا سلبيًا

للواقع، بل أدوات لتشكيله (Foucault, 1972)؛ (٢) أن التغيّر في الآليات لا يعني بالضرورة تغيّر في البنية الهيمنية، مما يستدعي مقارنة تحليلية تتجاوز السرد الزمني الخطي.

مصادر البيانات وطرق التحليل

أ. تحليل الخطاب الرسمي:

يتم تفكيك الوثائق الرسمية وفق ثلاثة مستويات:

- **اللغة التصنيفية:** كيف تُصنّف "السوريون" (غير مؤهلين، فوضويون، غير متحضرين)؟
- **الآليات التبريرية:** ما المبررات القانونية أو الأخلاقية المستخدمة لتبرير التدخل (الوصاية، الحماية، المسؤولية)؟
- **الافتراضات الضمنية:** ما المفاهيم غير المعلَنة التي تُبنى عليها هذه الخطابات (مثل "أهلية السيادة")؟

ب. تحليل التطور المؤسسي:

يتم تتبع التحوّل في الهياكل القانونية والإدارية عبر الزمن:

- من قوانين الانتداب التي ألغت الملكية الجماعية إلى تشريعات ما بعد ٢٠١١ التي أفقدت الدولة القدرة على استيراد المواد الأساسية.
- من إنشاء "الدول" الإدارية إلى إنشاء مناطق نفوذ اقتصادية وعسكرية.

ج. تحليل الشهادات الثانوية كخطابات:

تعامل المصادر الثانوية (كتب المؤرخين، تقارير المنظمات) لا كبيانات موضوعية، بل كممارسات خطابية تنتمي إلى سياق معرفي وسياسي معيّن. ويركّز التحليل على موقع المتحدث (عربي/غربي، حكومي/مستقل) وعلاقته بمراكز القوة.

التبرير المعرفي للمنهج

يُواجه هذا البحث اثنتين من التحديات المنهجية الأساسية في دراسة السياقات المدمرة:

(١) استحالة الوصول إلى "الصوت المحلي" الأصلي بسبب تدمير البنية التحتية للمعرفة:

(٢) الخطر الإبيستيمي المتمثل في إعادة إنتاج



ضباط الفيلق الأجنبي الفرنسي، سورية، القرن العشرين.

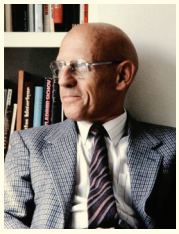

ميشيل فوكو
كان ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤) فيلسوفاً ومؤرخاً فرنسياً بارزاً، ركز في تحليلاته على العلاقة بين القوة والمعرفة والحقيقة في المؤسسات الاجتماعية (مثل السجون والمستشفيات)، وكيفية تشكيل الذات الإنسانية من خلال الخطابات التاريخية.

الخطابات الغربية كمصدر وحيد للمعرفة.

وللتغلب على هذين التحديين، يعتمد المنهج على نقد ذاتي للخطاب ذاته: فبدلاً من تصديق الخطاب أو رفضه، يُسأل: كيف يُنتِج هذا الخطاب فاعلية اجتماعية؟ ما السلطة التي يمنحها لنفسه؟ كيف يُعيد إنتاج التراتبية بين "المنقِذ" و"المُنقَذ"؟ وهذا النهج لا يتجنب الخطاب الغربي، بل يجعله موضوع تحليل، مستفيدًا من بصيرة فوكو حول "السلطة/المعرفة": فالسلطة لا تُمارَس رغم المعرفة، بل من خلالها.

الحدود المنهجية

يقرّ البحث بثلاثة حدود جوهرية:

- الاعتماد على المصادر الثانوية، مما يحدّ من القدرة على اختبار فرضيات تتعلق بالدوافع الفردية أو الممارسات اليومية.
- التركيز على الخطاب الرسمي، مما قد يهمل أشكال المقاومة غير الخطابية (مثل الاقتصاد الموازي، الشبكات الاجتماعية).

> فالانهيار لم يكن مؤسّسيًا مطلقًا، بل تفريغًا تدريجيًا للدولة المركزية من وظائفها المادية (الاقتصاد، الأمن، الخدمات) بينما يُحتفظ لها بوظيفتها الرمزية (الاعتراف الدولي، الخطاب الوطني)

- القيود الزمنية، حيث أن نهاية الفترة الثانية (٢٠٢٥) لا تمثّل نهاية للهيمنة، بل نهاية لمرحلة تحليلية.

ورغم هذه الحدود، يتيح المنهجُ تقديم تحليلاً قابلاً للتكرار، حيث يمكن لباحث آخر تطبيق نفس الخطوات على مجموعات وثائق مشابهة.

التحليل - الوحدة ١: خطاب الانتداب (١٩٢٠-١٩٤٦)

الاعتراف المشروط: إنتاج "أهلية مُعلّقة" للسيادة

في ٢٤ يوليو ١٩٢٢، أصدرت عصبة الأمم قرارًا رسميًا يمنح فرنسا "انتدابا على سورية ولبنان"، مبرّرًا ذلك بأن "الشعوب المعنية ليست بعد قادرة على تحمّل أعباء الحكم الذاتي" (League of Nations, 1922). وتُجسّد هذه الجملة الجوهر التحليلي للمرحلة: السيادة ليست حقًا مطلقًا، بل امتيازًا مشروطًا بـ"الأهلية"، التي تُحدّدها سلطة خارجية. ويُعيد هذا الخطاب إنتاج المنطق الذي حدّده أنغي (٢٠٠٥) حول "المبدأ التمييزي"، حيث يُعتبر القانون الدولي أداة لتصنيف الدول إلى "حاضرة" و"غير حاضرة"، وليس كإطار محايد.

اللافت أن القرار لا ينكر وجود "شعب سوري"، بل يحتويه ضمن سردية "التأهيل". فالشعب ليس عدوًا يجب احتلاله، بل تلميذًا يحتاج معلّمًا. وهذا التحوّل في الخطاب -من الغزو إلى الوصاية- هو بالضبط ما يجعل الهيمنة غير المباشرة أكثر استدامة وأقلّ كلفة. فالمقاومةُ ضد "المحتل" مشروعة أخلاقيًا؛ أما المقاومة ضد "المُعلّم"، فهي تبدو "نكرانًا للجميل" أو "عدم نضج".

التقسيم الإداري كـ Violence البنيوي المبكر

كما لاحظ خوري (١٩٨٧)، فإن تقسيم فرنسا لسورية إلى أربع كيانات إدارية (دمشق، حلب، الساحل العلوي، جبل الدروز) لم يكن قرارًا تقنيًا، بل استراتيجية سياسية محسوبة. ويُمكن تحليل هذه الخطوة عبر عدسة غالطول (١٩٦٩) حول العنف البنيوي: فهي تمنع السوريين من "تحقيق إمكاناتهم الكاملة" كأمة موحدة قادرة على صوغ مصيرها الجيوسياسي. فالتقسيم يخلق:

- **تفكيكًا اقتصاديًا:** عزل الأراضي الزراعية عن المدن، مما يضمن الاعتمادية المتبادلة.
- **تفكيكًا أمنيًا:** تجنيد الأقليات في أجهزة الأمن، مما يُعمّق الشقوق الطائفية.
- **تفكيكًا سياسيًا:** منع ظهور قيادة وطنية مركزية يمكن أن تتحدّى الوجود الفرنسي.

وهنا، لا يوجد "فاعل عنيف" مباشر. لا قنابل، لا إعدامات جماعية (في البداية). بل هناك بنية إدارية تُولّد الضعف من الداخل. ويؤكد غالطول (1969, p. 171) أن "العنف البنيوي مبني في البنية"، ولا يتطلب نية أو سلوكًا فرديًا. وهذا ينطبق تمامًا على سياسة الانتداب: فالضرر ليس في نيّة فرنسا، بل في الترتيب الاجتماعي الذي تنتجه.

الخطاب الإثني-الإداري: من الأنثروبولوجيا إلى القانون

اعتمدت السلطات الفرنسية على تقارير أنثروبولوجية لتصنيف السوريين إلى "طوائف"، كلٌ بخصائصه النفسية والاجتماعية. وسرعان ما تحوّل هذا التصنيف من ملاحظة أكاديمية إلى أداة حكم. فالأقليات "الموالية بطبيعتها" (كالعلويين)

تُمنح أدوارًا أمنية: بينما يُنظر إلى السنة "كثوريين غير مسؤولين". ويُعيد هذا الإنتاج الخطابي ترسيخ فكرة أن "الوحدة الوطنية" خرافة، وأن "الهوية الطائفية" هي الحقيقة الاجتماعية العميقة.

وهذا الخطاب لا يُمارس عنفًا جسديًا، لكنه يمارس عنفًا رمزيًا (Bourdieu, 1991) يُفرّغ مفاهيم المواطنة والمساواة من مضمونها. فالسوريُّ لا يُعامَل كمواطن، بل كحامل لهوية جماعية سابقة على الدولة. وهكذا، يُعاد إنتاج التفتيت ليس كحالة طارئة، بل كحقيقة طبيعية.

الردّ على المقاومة: من القمع إلى الإدماج

عند اندلاع الثورة السورية عام ١٩٢٥، لم تكتفِ فرنسا بقصف دمشق جوًا؛ بل سارعت بعد ذلك إلى "إعادة التوحيد" شكليًا، مع الإبقاء على جوهر التقسيم. ففي عام ١٩٣٦، وقّعت فرنسا معاهدة مع الوطنيين السوريين، واعترفت "بمبدأ الوحدة السوريّة". لكن هذا الاعتراف كان تفويضًا شكليًا: فالوحدة لم تُلغِ التفاوتات الإدارية والأمنية التي زرعتها فرنسا، ولا أعادت بناء مؤسسات وطنية جامعة.

ويُظهر هذا النمط أن الهيمنة غير المباشرة لا تعتمد على القمع المستمر، بل على التكيف الاستراتيجي: تمنح شكلاً من الاعتراف لامتصاص الغضب، بينما تحتفظ بالآليات التي تمنع التماسك الداخلي. وهذا ذاته، كما سنرى، يُعاد إنتاجه في حقبة العقوبات.

التحليل - الوحدة ٢: خطاب العقوبات (٢٠٠٠-٢٠٢٥)

إعادة إنتاج "الأهلية المشروطة": من "التأهيل" إلى "المسؤولية عن الحماية"

مع اندلاع الاحتجاجات السوريّة عام ٢٠١١، سارعت الخطابات الدولية إلى تأطير النظام السوري ليس كطرف في نزاع سياسي، بل كـ"تهديد وجودي" للسلم الأهلي. وسرعان ما تم تبني مفاهيم مثل



جنود الفيلق الأجنبي الفرنسي يسافرون على متن عربات، سورية، القرن العشرين.



خارطة الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان (١٩٣٠-١٩٣٦)

"المسؤولية عن الحماية" (R2P) و"الحوكمة الرشيدة" كإطار تفسيري رسمي لتبرير التدخل، حتى لو لم يكن عسكريًا. ويُعيد هذا الخطاب إنتاج المنطق ذاته الذي ساد في عهد الانتداب: السيادة ليست حقًا مطلقًا، بل امتيازًا قابلًا للسحب إذا فشل الحامل في تلبية معايير "السلوك المدني" التي يحددها الغرب.

ولا يُنكر الخطاب وجود دولة سوريّة؛ بل يُعلّق اعترافه بها على "إصلاحات" أو "تغيير سلوك". وهذه الآلية الخطابية تُحوّل السيادةَ من حالة قانونية ثابتة إلى علاقة تفاوضية، تعتمد على مدى امتثال الدولة للإرادة الجيوسياسية للقوى المهيمنة. ويُعيد هذا الترتيب إنتاج ما حدده أنغي (٢٠٠٥) حول "المبدأ التمييزي"، حيث يُعتبر القانون الدولي ليس كإطار تكافؤ، بل كآلية لتصنيف الدول إلى "مستثناة" أو "عادية".

> في ٢٤ يوليو ١٩٢٢، أصدرت عصبة الأمم قرارًا رسميًا يمنح فرنسا "انتدابا على سورية ولبنان"، مبرّرًا ذلك بأن "الشعوب المعنية ليست بعد قادرة على تحمّل أعباء الحكم الذاتي"

العقوبات الاقتصادية كعنف بنيوي مُعَير

هنا، يكتسب مفهوم "العنف البنيوي" (Galtung, 1969) قوته التحليلية الكاملة. فغالطول لا يُعرّف العنفَ البنيوي كاستعارة أخلاقية، بل كتفاوت منهجي في تحقيق الإمكانات البشرية بسبب ترتيبات اجتماعية قسرية. ويؤكد غالطول صراحة أن "العقوبات الاقتصادية تحتل موقعا وسطا مثيرا للاهتمام. إنها واضحة العنف في عواقبها النهائية، التي تتمثل في الجوع وغيرها، لكن الأمل هو أنها بطيئة بما يكفي للسماح بالاستسلام قبل ذلك بكثير" (Galtung, 1969, الحاشية ١٧).

ولا يمكن فصل هذا التوصيف عن سياقه البنيوي: فالعقوبات لا تصيب جميع الدول بالتساوي. بل تستهدف، بحسب غالطول، "الدول الأكثر هشاشة، التي تميل لأنْ تكون في أسفل التراتبية الدولية: عالية الاعتماد على التجارة، منخفضة التنوّع السلعي، ومنخفضة التنوّع في شركاء التجارة" (Galtung, 1969). وسورية، كدولة زراعية ذات اعتماد عالٍ على الاستيراد، كانت عُرضة بشكل هيكلّي لهذا النوع من العنف.

وفي سياق قانون قيصر (٢٠١٩) الأمريكي، يتجسد العنف البنيوي في آليات محددة:

- حظر التحويلات المالية، مما يعطل استيراد قطع غيار محطات الكهرباء والمياه؛
- منع الوصول إلى الشبكات المصرفية العالمية، مما يعوّق شراء الأدوية والمستلزمات الطبية؛
- تجريم التعامل مع أي كيان سوري، مما يُفرّغ الدولة من قدرتها على إدارة الاقتصاد.

وهكذا، لا يُمارس العنف عبر القنابل، بل عبر البيروقراطية: قرار مصرفي، رمز تصنيف عالمي، حظر برمجي. ولا يمكن تتبع "الفاعل العنيف"؛ فالعقاب موزّع عبر شبكة قانونية ومالية عالمية. وهذا يتوافق تمامًا مع تعريف غالطول: "العنفُ البنيويُّ مَبنيٌّ في البنية... ولا يُعزى إلى نية أو سلوك فردي" (Galtung, 1969, p. 171).

خطاب "الإنسانية" كتغطية للهيمنة

تُستخدم التقارير الإنسانية لتوصيف سورية كفضاء خالٍ من الجيوسياسة: مجرد "ضحايا" يحتاجون "منقذا". ويُعيد هذا الإنتاج الخطابي ما حدده سعيد (١٩٧٨) حول "الاستشراق"، حيث يُحوّل الكائن المعقد إلى "آخر" سلبي. لكن الأهم هو أن هذا الخطاب يفصل العنف البنيوي عن مصادره البنيوية. فالجوع ليس نتيجة "النظام"، بل نتيجة "العقوبات"؛ والعقوبات ليست نتيجة "الهيمنة"، بل نتيجة "اللا مبالاة". وهكذا، يصبح التدمير مسؤولية جماعية غير شخصية، مما يُصعّب مساءلة أي جهة محددة.

التفتيت الداخلي كاستمرارية بنيوية

كما في عهد الانتداب، فإن هدف العقوبات ليس فقط تغيير سلوك النظام، بل إضعاف الدولة ككل. فالعقوبات تعمّق التفاوت بين المناطق الموالية (التي تُغذّى بالطاقة والخدمات) والمناطق المخالفة (التي تُترَك في الظلام). وهذا يُعيد إنتاج "التفتيت الإداري" الفرنسي كتفتيت اقتصادي وخدمي. والنتيجة ليست فوضى، بل نظام جديد من الحكم غير المباشر: الدولة تفقد احتكارها على الاقتصاد (لصالح السوق السوداء والدولار)، وعلى الأمن (لصالح الميليشيات)، وحتى على الزمن (باختلاف مواعيد التوقيت الصيفي بين المناطق).

يوهان غالتونغ
كان يوهان غالتونغ (Johan Galtung) (١٩٣٠-٢٠٢٤) عالم اجتماع ورياضيات نرويجي بارز، يُعرف في العالم بأنه "أبو دراسات السلام وحل النزاعات".

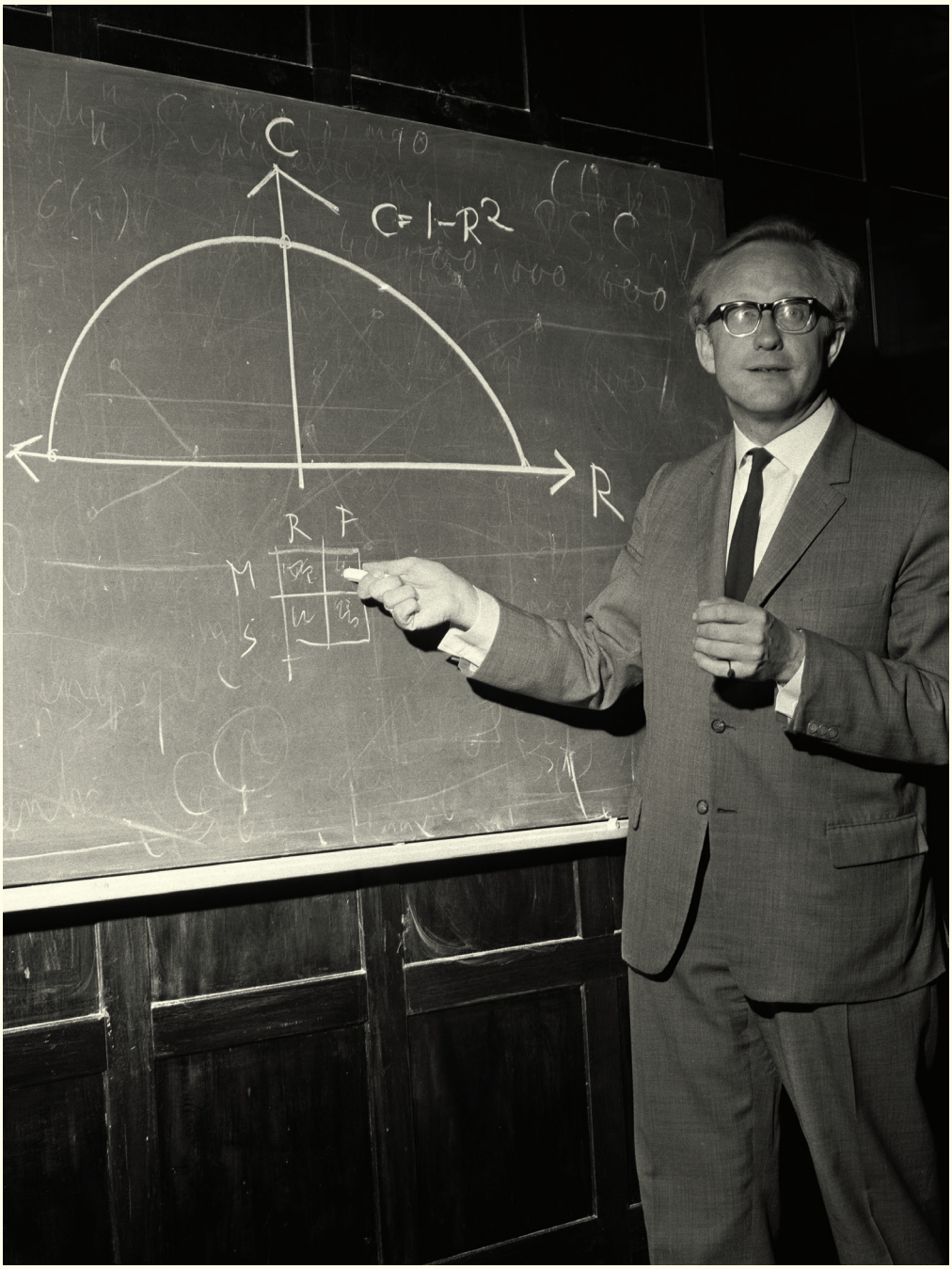

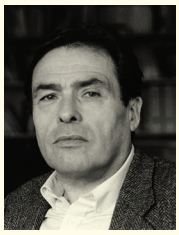

بيير بورديو
كان بيير بورديو (١٩٣٠-٢٠٠٢) عالم اجتماع فرنسياً بارزاً، حلل من خلال مفاهيم مثل "رأس المال الثقافي" و"الهابيتوس" (السلوك المكتسب)، كيف يتم إعادة إنتاج هياكل السلطة وعدم المساواة الاجتماعية عبر النظام التعليمي والأذواق الثقافية.

وهكذا، لا تُدمر العقوباتُ الدولةَ؛ بل تُحوّلها إلى سقالة، تماما كما فعل الانتداب. وتُمارَس السيادة هنا ليس كوحدة، بل كسلعة تُوزّع حسب الولاء. وهذا يتوافق مع مفهوم "السيادة المجزأة" (Hansen & Stepputat, 2006): فالسلطة لا تختفي، بل تُعاد توزيعها عبر شبكة من الفاعلين المحليين والخارجيين.

التحليل - الوحدة ٣: المقارنة بين الحقبتين (١٩٢٠-١٩٤٦ و٢٠٠٠-٢٠٢٥)

الاستمرارية البنيوية: إنكار السيادة الكاملة كآلية هجينة

التحليل المقارن بين فترتي الانتداب والعقوبات يكشف استمرارية بنيوية عميقة تتجاوز التحوّل الظاهري في الخطاب والآليات. ففي كلتا الحقبتين (الانتداب والعقوبات)، لا يُنكر الوجود السوري ككيان قومي أو حقوقي، بل يُعلّق اعتراف المجتمع الدولي بسيادته على شرط أهلية مشروطة. ويُعيد هذا الترتيب إنتاج ما حدّده أنغي (٢٠٠٥) حول "المبدأ التمييزي" في القانون الدولي: فالسيادة ليست حقًا متساويًا، بل امتيازًا تمنحه القوى المهيمنة لمن تراه "قادرًا على تحمل أعباء الحكم".

- في عهد الانتداب، صيغ هذا الشرط كـ"تأهيل للحكم الذاتي"، حيث يُعتبر السوريون "طفلاً سياسيًا" يحتاج وصيا.

> التحوّل في الخطاب -من الغزو إلى الوصاية- هو بالضبط ما يجعل الهيمنةَ غير المباشرة أكثر استدامة وأقلّ كلفة. فالمقاومةُ ضد "المحتل" مشروعة أخلاقيًا؛ أما المقاومة ضد "المُعلّم"، فهي تبدو "نكرانًا للجميل" أو "عدم نضج"

- في عهد العقوبات، صيغ كـ"مسؤولية عن الحماية" و"الحوكمة الرشيدة"، حيث يُعتبر النظام السوري "فاشلاً أخلاقيًا" يستحق العزل.

وفي كلا السياقين، لا يتم إلغاء السيادة؛ بل تفويضها شكليًا مع تفكيكها ماديًا. فالدولة تُحتفظ بها ككائن قانوني، لكن قدرتها على التحكم في مواردها، حدودها، ومؤسساتها تُستنزف عبر آليات خارجية. ويُعيد هذا النمط ما يُمكن تسميته "السيادة المفوضة": شكل من الهيمنة غير المباشرة يمنح الاعتراف كغطاء شرعي، بينما يُمارس التفكيك عبر قنوات بيروقراطية أو اقتصادية.

تحوّل آليات الهيمنة: من الإدارة إلى المال

بينما اعتمدت الهيمنة في عهد الانتداب على الهندسة الإدارية (التقسيم، التعداد الطائفي، القوانين العقارية)، فإن الهيمنة في عصر العقوبات تعتمد على الهندسة المالية (الحظر المصرفي، منع التحويلات، تجميد الأصول). ويُظهر هذا التحوّل كيف أن العنف البنيوي، كما عرّفه غالطول (١٩٦٩)، لا يرتبط بوسيلة محددة، بل بهدف بنيوي: منع تحقيق "الإمكانات الكاملة" للجماعة.

ويؤكد غالطول صراحة أن:

"العقوبات الاقتصادية تحتل موقعًا وسطًا مثيرًا للاهتمام. إنها واضحة العنف في عواقبها النهائية، التي تتمثل في الجوع وغيرها، لكن الأمل هو أنها بطيئة بما يكفي للسماح بالاستسلام قبل ذلك بكثير".

(Galtung, 1969).

وهذا ينطبق تمامًا على الحالة السورية: فالعقوبات لا تُوجّه ضد "النظام" ككيان مجرد، بل ضد البنية الاجتماعية الكاملة التي تعتمد على الدولة لتوفير الخدمات الأساسية. وعندما يُمنع استيراد الكلور لتنقية المياه، أو قطع غيار محطات الكهرباء، فإن الضرر لا يطال "النخبة"، بل يُوزّع عبر الجسم الاجتماعي ككل، تماما كما في عهد الانتداب، حيث لم يُقصَّد بالتقسيم الإداري "النخبة الفرنسية"، بل إعادة تشكيل المجتمع السوري ككل لمنع تكوّن وحدة وطنية قادرة على المطالبة بالسيادة الفعلية.

إعادة إنتاج التفتيت الداخلي: من الدولة إلى الاقتصاد

الاستراتيجية المركزية في كلتا الحقبتين هي التفتيت الداخلي كأداة للهيمنة. ففي عهد الانتداب، تم تقسيم الجغرافيا لخلق كيانات إدارية غير قادرة على التنسيق. أما في عهد العقوبات، فقد تم تقسيم الاقتصاد إلى مناطق نفوذ:

- المناطق الموالية: تحصل على تيار كهربائي، خدمات صحية، ورواتب منتظمة.
- المناطق المخالفة: تُترك في الظلام، تعتمد على

إدوارد سعيد
كان إدوارد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣) مفكراً ومنظراً فلسطينياً أمريكياً وُلد في القدس. أصبح مؤسسا لدراسات ما بعد الاستعمار من خلال تأليفه كتاب "الاستشراق" عام ١٩٧٨.





فيليب خوري (Philip S. Khoury)
هو مؤرخ لبناني أمريكي بارز وأستاذ في جامعة MIT، يتركز تخصصه الأساسي على التاريخ السياسي والاجتماعي للشرق الأوسط الحديث، وخاصة فترة الانتداب الفرنسي في سورية وتشكل القومية العربية.

السوق السوداء، وتُدار عبر وكلاء محليين.
ويُعيد هذا الترتيب إنتاج ما حدده هانسن وستيبيوتات (٢٠٠٦) حول "السيادة المجزأة": فالدولة لم تختفِ، بل تفرّغت من وظائفها المادية، بينما احتفظت بوظيفتها الرمزية. والسلطة لم تُلغَ، بل أُعيد توزيعها عبر شبكة من الفاعلين المحليين والخارجيين، وهو ذاته المنطق الذي ساد في عهد الانتداب، حين حكمت فرنسا عبر "الوجهاء" المحليين.

الخطاب الإنساني كغطاء للتماسك البنيوي

الأكثر إثارة هو كيف أن الخطاب الإنساني المعاصر يُعيد إنتاج نفس وظيفة "الوصاية" في عهد الانتداب. فكما برّرت فرنسا تدخلها كـ"واجب تعليمي"، تُبرّر القوى الغربية عقوباتها كـ"حماية للمدنيين". ويُعيد هذا الخطاب إنتاج ما حدده سعيد (١٩٧٨) حول "الاستشراق": فهو يحوّل السوري إلى كائن سلبي يحتاج إلى منقذ، لا كفاعل سياسي قادر على صوغ مصيره.
لكن الأهم هو أن هذا الخطاب يفصل العنفَ عن بنيته. فالجوع ليس نتيجة "النظام"، بل نتيجة "العقوبات"؛ والعقوبات ليست نتيجة "الهيمنة"، بل نتيجة "اللا مبالاة العالمية". وهكذا، يصبح التدمير مسؤولية جماعية غير شخصية، مما يُصعّب مساءلة أي جهة محددة. ويُعيد هذا بالضبط ما حدده غالطول (١٩٦٩): العنف البنيوي "مبني في البنية... ولا يُعزى إلى نية أو سلوك فردي"، مما يجعله أقل وضوحًا، وأكثر استدامةً، وأصعب مقاومةً.

> تقسيم فرنسا لسورية إلى أربع كيانات إدارية (دمشق، حلب، الساحل العلوي، جبل الدروز) لم يكن قرارًا تقنيًا، بل استراتيجية سياسية محسوبة

الخاتمة

تلخيص النتائج التحليلية

يكشف التحليل المقارن بين فترتي الانتداب (١٩٢٠-١٩٤٦) والعقوبات (٢٠٠٠-٢٠٢٥) عن استمرارية بنيوية عميقة في آليات الهيمنة غير المباشرة على سورية. ففي كلتا الحقبتين، لا يتم إنكار وجود الدولة السورية ككيان قانوني، بل يُعلّق اعتراف المجتمع الدولي بسيادتها على شرط أهلية مشروطة، سواء أطر ذلك كـ"تأهيل للحكم الذاتي" أو كـ"مسؤولية عن الحماية". ويُعيد هذا الترتيب إنتاج ما حدده أنغي (٢٠٠٥) حول "المبدأ التمييزي" في القانون الدولي، حيث لا تُمنح السيادة كحق متساوٍ، بل كامتياز قابل للسحب.
الأهم من ذلك أن هذه الهيمنة لا تعتمد على القمع المباشر، بل على تفويض شكلي للسيادة مع تفكيك مادّي متزامن. وقد تحوّلت الآليات من الهندسة الإدارية (التقسيم، القوانين العقارية) في عهد الانتداب إلى الهندسة المالية (الحظر المصرفي، العقوبات الاقتصادية) في العصر الراهن. ومع ذلك، يبقى الهدف البنيوي واحدًا: منع تحقيق "الإمكانات الكاملة" للجماعة السورية، وهو التعريف الجوهري للعنف البنيوي عند غالطول (١٩٦٩).
ويؤكد غالطول صراحة أن:
"العقوبات الاقتصادية تحتل موقعًا وسطًا مثيرًا للاهتمام. إنها واضحة العنف في عواقبها النهائية، التي تتمثل في الجوع وغيرها، لكن الأمل هو أنها بطيئة بما يكفي للسماح بالاستسلام قبل ذلك بكثير".
(Galtung, 1969).
وهذا لا يُطبّق فقط على "النظام"، بل على البنية الاجتماعية الكاملة التي تعتمد على الدولة لتوفير الخدمات الأساسية. فالعقوبات، كأي ترتيب اجتماعي هيمني، "مبنيّة في البنية... ولا تُعزى إلى نية أو سلوك فردي" (Galtung, ١٩٦٩, p. ١٧١)، مما يجعلها أقل وضوحًا، وأكثر استدامة، وأصعب مقاومة.

الإسهام النظري: مفهوم "السيادة المفوضة"

قدّم هذا البحث إسهامًا نظريًا محددًا يتمثل في صياغة مفهوم "السيادة المفوضة" كأداة تحليلية لفهم حالات "شبه الاستعمار" في النظام الدولي المعاصر. وتفيد هذه المفاهيم الثلاثة:

- **السيادة المفوضة:** شكل من الهيمنة غير المباشرة يمنح الاعتراف القانوني كغطاء شرعي، بينما يُفرّغ الدولةَ من قدرتها المادية على الحكم الذاتي.
- **العنف البنيوي:** آلية تفكيك عبر ترتيبات

فرانتس فانون
كان فرانتس فانون (١٩٢٥-١٩٦١) طبيباً نفسياً ومنظراً ثورياً من مارتينيك، قام بتحليل الآثار النفسية للاستعمار على الشعوب الخاضعة، وشرع في تبيين ضرورة المقاومة والنضال من أجل الحرية في عملية إنهاء الاستعمار.

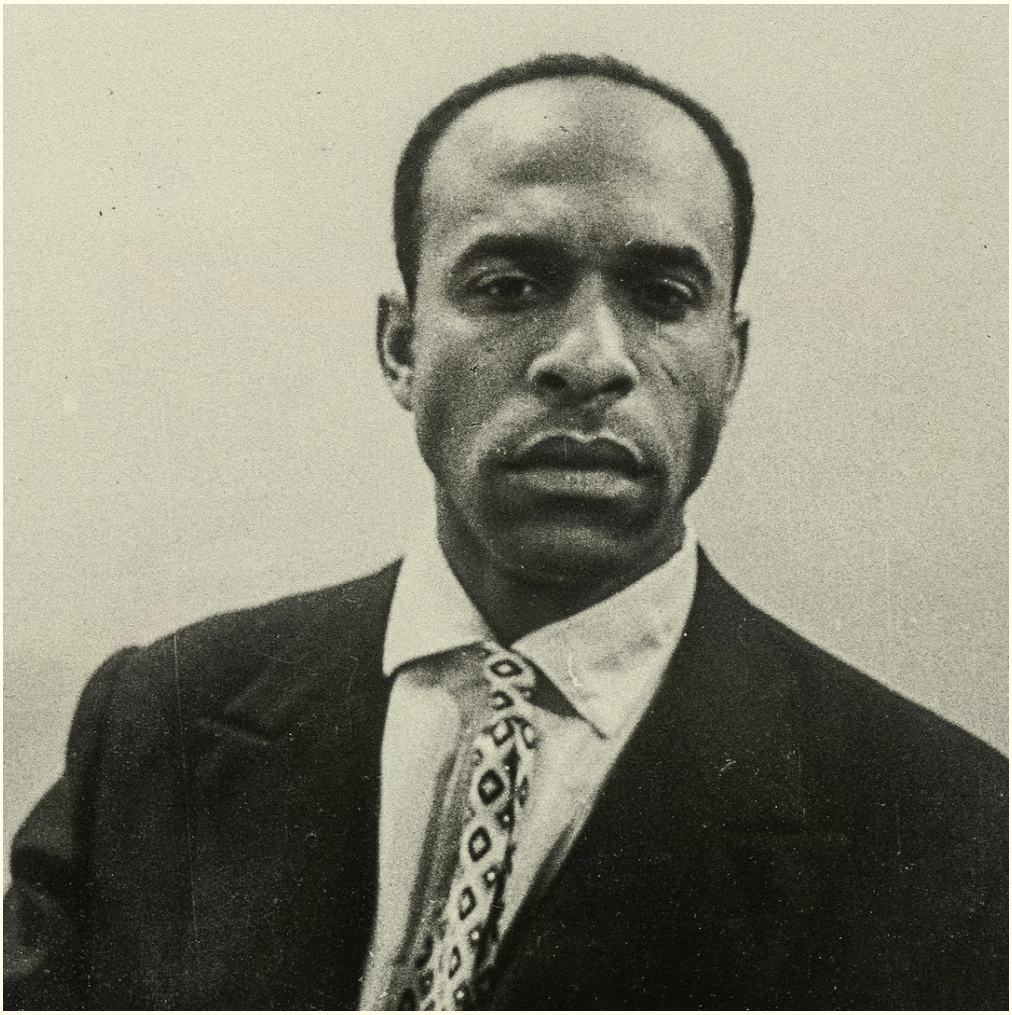

اقتصادية وقانونية تمنع تحقيق الإمكانات الكاملة للجماعة.

• **السيادة المجزأة:** نتيجة هذا التفكيك، إذ تُعاد توزيع السلطة عبر شبكة من الفاعلين المحليين والخارجيين (Hansen & Stepputat, 2006).

ويُظهِر هذا المفهوم أن الحالةَ السورية ليست "فشلًا ما بعد كولونيالي"، بل نموذج مكثّف لآليات الهيمنة في العولمة الراهنة. فالاستعمار لم ينتهِ؛ بل تحوّل من شكل عسكري-إداري إلى شكل قانوني-اقتصادي، أكثر تطورًا وأقل إثارةً للمقاومة المباشرة.

الحدود والاقتراحات البحثية المستقبلية

يقرّ البحث بثلاثة حدود منهجية:

(١) الاعتماد على المصادر الثانوية بسبب تدمير الأرشيف الوطني؛

(٢) التركيز على الخطاب الرسمي، مما قد يهمل أشكال المقاومة غير الخطابية؛

(٣) صعوبة تعميم النتائج دون دراسات مقارنة.

ويُقترح أن تُطبّق نفس المنهجية على حالات أخرى -مثل لبنان، العراق، أو الدول الجزرية الصغيرة- لتجربة قدرة "السيادة المفوضة" على التفسير. كما يُوصى بدراسة أعمق لاقتصاد الظل السوري، ودوره كشكل من أشكال التكيّف مع العنف البنيوي.

> اعتمدت السلطات الفرنسية على تقارير أنثروبولوجية لتصنيف السوريين إلى "طوائف"، كلٌّ بخصائصه النفسية والاجتماعية. وسرعان ما تحوّل هذا التصنيف من ملاحظة أكاديمية إلى أداة حكم

خاتمة معرفية: ما وراء الثنائية الأخلاقية

أخيرًا، يُظهر هذا البحث أن فهم الهيمنة في العصر الراهن يتطلب التخلي عن الثنائية الأخلاقية (المُنقذ/المُنقذ، الجلاد/الضحية) التي تسود الخطابات الإنسانية. فالعنف البنيوي لا يُمارَس عبر أشرار واضحين، بل عبر شبكات مؤسسية، قوانين دولية، وقرارات بيروقراطية. والمقاومة الفعّالة لا تبدأ بالاتهام الأخلاقي، بل بتفكيك البُنى التي تجعل هذا العنف ممكنا، مشروعًا، وغير مرئي.

سورية، إذا، ليست استثناء يجب استبعاده من النظرية ما بعد الكولونيالية. بل هي مختبر نظري حيوي يفرض علينا توسيع هذه النظرية لتشمل أشكال الهيمنة التي لا ترتدي زيًا عسكريًا، بل ترتدي قناع القانون، الاقتصاد، والإنسانية.

قائمة المصادر والمراجع

• Anghie, A. (2005). Imperialism, sovereignty and the making of international law. Cambridge University Press.

• Batatu, H. (1999). Syria's peasantry, the descendants of its lesser rural notables, and their politics. Princeton University Press.

• Bourdieu, P. (1991). Language and symbolic power. Harvard University Press.

• Foucault, M. (1972). The archaeology of knowledge. Pantheon Books.

• Galtung, J. (1967). On the effects of international economic sanctions, with examples from the case of Rhodesia. World Politics, 19(3), 387–416. https://doi.org/10.2307/2009824

• Galtung, J. (1969). Violence, peace, and peace research. Journal of Peace Research, 6(3), 167–191. https://doi.org/10.1177/002234336900600301

• Hansen, T. B., & Stepputat, F. (2006). Sovereignty revisited. Annual Review of Anthropology, 35, 295–315. https://doi.org/10.1146/annurev.anthro.35.081705.123317

• Khoury, P. S. (1987). Syria and the French mandate: The politics of Arab nationalism, 1920–1945. Princeton University Press.

• League of Nations. (1922). Mandate for Syria and the Lebanon. Official Journal of the League of Nations.

• Said, E. W. (1978). Orientalism. Pantheon Books.

سلطان الأطرش، قائد ثورة الدروز
في أكتوبر ١٩٢٥.




FINANCIAL TIMES
New chapter A welcome end to a brutal Middle East dynasty
Syria's rebel army ousts Assad
'Today I can breathe for the first time': euphoria sweeps streets of Damascus
Kindness is the gift of life.

سقوط بلامعركة

العوامل الخفية لانهيار الجيش السوري



تركي الحسن

عميد متقاعد، باحث سياسي واستراتيجي وإعلامي • سورية

المقدمة

لا شك أن سقوط الرئيس بشار الأسد بهذه الطريقة، ومن دون توقعات تنبئ بالسقوط، كان مفاجأة كبيرة جدًا، لعوامل متعددة تتعلق ببنية النظام، واستمراره من الوالد إلى الابن، وتحالفاته واستمراره في الحرب مدة تقارب خمسة عشر عامًا، والتحول الكبير الذي حدث في المنطقة، والذي نقل سورية من موقع الخصم منذ خمسينات القرن الماضي حتى الآن إلى موقع مغاير. ولكون التحولات في المنطقة تعودنا أن تكون سورية فاعلة وجزءًا منها، وتشارك في رسمها، مما أعطاها دورًا أكبر من وزنها الاقتصادي ومساحتها وعدد سكانها، بسبب الدور التاريخي المتراكم، والتنوع الثقافي والإثني والطائفي والمذهبي، وموقعها الاستراتيجي، ودورها في الصراع العربي "الإسرائيلي" الذي حافظت عليه. يضاف الروح القومية (قلب العروبة النابض) منذ أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وقد تسيدت هذه الخاصية وسلم الأشقاء العرب بهذا اللقب والدور رغم التباين والخلاف وأحيانًا الصراع معها.

وخلال هذا العام المنصرم أغرى السقوط وكيفيته وسرعته الكتّاب والسياسيين والمحللين والإعلاميين ووسائل الإعلام للتحليل والمناقشة والكتابة والمقاربة ولاتزال؛ ورغم توافق أو تباين أو اختلاف الآراء طيلة عام (وكل يدعي الوصل بليلى!) فلم نصل حتى الآن إلى رواية متماسكة يمكن أن نركن لها. وهذا طبيعي ومنطقي، لأنّ صانعي الحدث لم يقدموا روايتهم الصحيحة، بل يسّربون بين الفينة والأخرى بعضًا منها للاستثمار السياسي فقط.

لقد بات معروفًا أن الحدث الكبير قد شاركت فيه أطراف فاعلة ولكلّ منها دوره، وهذه الأطراف هي:

١. الرئيس بشار الأسد الذي يمتلك سرديه شبه كاملة، والذي صمت كصمت القبور بإرادته أو مفروض عليه. ويقع على عاتقه الإجابة عن الأسئلة الصعبة.

٢. الرئيس الشرع وهو الوجه الآخر للعُملة، ولديه رواية كبيرة وطويلة، وما أفصح حتى الآن ليس صحيحًا ودقيقًا ويتناقض مع الوقائع. وما يضيف عليه حسب الحاجة والموقف.

٣. "إسرائيل" ذات الدور الهام قبل وبعد السقوط والتي يستثمر نتنياهو في الادعاء بإسقاط بشار حسب الموقف السياسي الآني وحاجته لذلك.

٤. تركية والتي لعبت منذ ٢٠١١ دورًا رئيسيًا واستمر حتى السقوط، و إلى الآن.

٥. روسيا وكان لها الدور الكبير في عدم نشوب معارك، و إخراج بشار الأسد، والاستلام والتسليم دون توقيع وثائق. وبالتأكيد بتوافق دولي ثم حل الجيش فيما بعد.

٦. إيران: الخاسر الأكبر بعد سورية.

٧. الولايات المتحدة والتي كانت في فترة انتقال سياسي. ولكن لا يمكن أن يجري هذا الحدث الدولي دون مباركة ودور خاص، وخاصة أنها في قلب الحدث منذ البداية.

وكي لا نستخدم التنجيم وقراءة الكف وملاحقة الأخبار وتجميع المعلومات غير الموثوقة والمؤكدة. نبني في قراءتنا على بعض المعطيات التي توفرت، وقراءة لمسار الحكم منذ تقدم بشار الأسد كوريث ثمّ استلام السلطة. مع علمي الأكيد أن أغلب الفواعل لا يريدون تقديم الرواية لتبعاتها عليهم في إيصال نموذج جديد للحكم، وللتداعيات التي جرت فيما بعد داخل سورية من مجازر ودماء، وما تعرض له السوريون، لا يستطيع أي طرف تحمل وزرها؛ إضافة إلى ذلك احتمالية التقسيم.

> سقوط النظام السوري حدث بمشاركة ودور فعّال لأطراف دولية و إقليمية متعددة، كلٌّ له أجندته ومصالحه، بينما الرواية الحقيقية والكاملة للأحداث ما زالت غائبة لأن الأطراف الفاعلة لا تقدم سوى "تسريبات" انتقائية لأغراض سياسية.

لقد أضحت سورية ذات الدور التاريخي تتقاذفها الإرادات الدولية والإقليمية، وضربت عميقًا في بيئتها الوطنية ووحدتها الجغرافية، حيث بات التقسيم مطلبًا لقوى مجتمعية للخلاص من واقعها الحالي رغم مخاطره.

لقد أعطيت السلطةُ الحالية ما لم يحصل بشار الأسد عليه، إذ لأول مرة وبعد خمسة عشر عامًا تتوقف الحرب. وتتم السيطرة على أغلب الجغرافية السورية، دون أن يُبدِ أيُّ فريق معارضة، بل باركوا التغيير. وسلم السلاح لدى العلويين. وأبدى الدروز الاستعداد للانخراط في العهد الجديد بعد رسم معالم النظام الجديد (دستور-حكومة ومشاركة... إلخ)، وتعامل الكرد بإيجابية رغم أن تركية وجّهت فصائل الجيش الوطني بهجمات في منبج وسد تشرين أملًا للدخول إلى شرق الفرات.

إن العرض لما قدمته يبدو خارجًا عن السياق وغير ضروري، ولكن إيمانًا منّي بمبدأ السببية، والعلة والمعلول، والمنطق الأرسطي الذي يربط المقدمات والنتائج مع بعضها، وكيف سارت الأحداث و المآلات والنتائج وجدت من المناسب الإشاره إليه.

رفع العلم الفرنسي في حلب، سورية، ١٩٤٠.
• المصور: مارغريت بورك-وايت

أسباب انهيار الجيش في المعركة الأخيرة: صورة الواقع قبل السقوط

أولا: سياسيًا

منذ بداية الحرب حدث انقسام حاد آل إلى اصطفاف رسمي عربي شامل تقريبًا مع المعارضة، وتجلى ذلك في المبادرة العربية، وتجميد عضوية سورية فيها، ثم نقل الملف إلى مجلس الأمن، وتشكيل مجموعة أصدقاء سورية. وهذا أدى إلى إضعاف الدور الرسمي العربي، وثم فشل المبادرة الأممية بعدها نتيجة الموقف الرسمي لروسيا في الأمم المتحدة. ولكن أجد أن الاصطفاف كان حادًا بين فريقين من حيث وحدة الهدف أو الأهداف:

الأول: النظام وروسيا و إيران والمقاومة

الثاني: المعارضة بتشعباتها وأغلب العرب وتركية والغرب.

وهذا يستدعي الإضاءة على النقاط التي التقوا حولها.

الفريق الأول: قارب الحرب كثلاثة أطراف تتباين في فهمها للحرب ولأدوارها:

١. النظام: **ركّز على أن ما يجري عدوان خارجي وليست حراكًا داخليًا أي (ثورة) يقف خلفه كل من:**

- **"إسرائيل"**: كعدو دائم وصاحبة المصلحة.
- **الغرب**: كخصم دائم والذي دأب واستمر على استهداف سورية والنظام، وجاء دور المحاسبة على دوره في العراق، ومحور المقاومة.
- **تركية**: كصاحبة مصلحة في مشروعها الطموح القومي والإسلامي والعثماني للسيطرة والتمدد خارج حدودها. وقدر سورية أن تكون على حدودها.
- **العرب**: الذين نظروا أن بشار الأسد انخرط في المشروع الإيراني، ولم يحسن المحافظة على الدور المتوازن لوالده. والانتقال من الممانعة إلى محور المقاومة (مقتل الحريري واتهام الأسد، القرار١٥٥٩، حرب عام ٢٠٠٦ وموقفه انصاف الرجال).
- مكافحة الإرهاب صاحب المصلحة الأولى لأنه يهدد وجوده، لا بل الدولة كلها.

٢. إيران: **تتطابق تقريبًا مع نظرة النظام، إذ ترى أن:**

- "إسرائيل" عدو وغدة سرطانية يجب إزالتها، وهذه الحرب فرصة لزيادة تأثيرها و دورها.
- والغرب كعدو وبالحد الأدنى خصم منذ قيام الثورة.
- والعرب والعلاقة المتوترة منذ قيام الثورة والخوف من تصديرها، ساهمت بعض الأطراف داخل الثورة



في زيادة الهواجس.
• وتركية: كلاعب طموح وجار دائم له مشاريعه ونجاح هذه المشاريع يضر بالدور الإيراني.
• ومكافحة الإرهاب دون تدخل قوات إيرانية واستبدالها بالميليشيات.

> منذ بداية الحرب حدث انقسام حاد آل إلى اصطفاف رسمي عربي شامل تقريبًا مع المعارضة.وتجلى ذلك في المبادرة العربية، وتجميد عضوية سورية فيها، ثم نقل الملف إلى مجلس الأمن، وتشكيل مجموعة أصدقاء سورية

٣. أما روسية: فإنّها تهدف لاستعادة دور الدولة العظمى، وتتطلع لاقتناص اللحظة للعودة إلى المياه الدافئة. ومناطق كانت قد خسرت امتيازاتها فيها سورية-مصر-ليبيا-الجزائر- العراق. ولكن هذه الأهداف المتعددة والمختلفة قاربتها وفق أهدافها ومصالحها، فروسية ترى:
• "إسرائيل" دولة صديقة وفيها مليون وربع روسي، والعلاقة بين بوتين ونتنياهو ممتازة، وبالتالي روسيا ليست طرفًا ضد "إسرائيل" وتحتاجها في (التكنولوجيا، مكافحة النازية في أوروبا الموجهة ضدها، اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة)، وجرى تنسيق مباشر بينهما في أثناء الطيران والقصف منعًا لأي احتكاك.
• روسية لا ترغب بالاحتكاك مع الغرب والذي أنشأ التحالف في سورية والعراق، وسبق الدخول الروسي ب ١٤ شهرًا. وتم التنسيق بين روسية والولايات المتحدة منعًا لأي احتكاك ورسم خطوط الطيران للطرفين.
• المحافظة على علاقة متنامية مع تركية ومع العرب وتسعى لتطويرها.
• **مكافحة الإرهاب:** الذي تعدّه تهديدًا للداخل الروسي، وتعتبر سورية الجبهة الجنوبية الأمامية عنها.

ثانيًا: عسكريًا
• **سورية (النظام):** لا يزال الجيش السوري ينتقل من معركة إلى أخرى ويقاتل في ٤٦٧ موقع و ٢٢٢١ نقطة، و إنْ تدنت الكفاءة بسبب خسائره الكبيرة. ولكنه مع الدعم الجوي الروسي، ومن فصائل المقاومة والدفاع الوطني لاحقًا يستعيد السيطرة. بدءًا من استعادة حلب عام ٢٠١٦ حتى سراقب ٢٠٢٠، وهو الغطاء الرسمي. وصاحب الأرض، ولكن قدرته بغيره تتوقف على الدعم (طيران-سلاح-ذخيرة).
• استعادة السيطرة حتى ٧٠٪ حتى آذار/مارس ٢٠٢٠، ولولا الاتفاق الروسي-التركي لدخل إلى إدلب.
• **إيران:** استمرت في المساندة والمشاركة وقيادة الفصائل المشكلة من جنسيات مختلفة، ويقودها مستشارون إيرانيون دفعوا أرواحهم على الأرض السورية، إضافة للدعم المادي اللوجستي العسكري والاقتصادي (النفط، القمح، الكهرباء، الخط الإئتماني، الدواء).
• الطلب من الإيرانين الانسحاب وسحب الحاج جواد، وتخفيف تواجد المقاومة في السنوات الثلاث الأخيرة.
• **روسية:** استمرت في تقديم الدعم الجوي والذخيرة، وتتحكم في كل المعارك، إذ لا يمكن نشوب معركة إلا بموافقتها ودعمها. وعملت لإنشاء مناطق خفض تصعيد وشاركت تركية.
• طبقت نموذج التسويات، وأنشات الفيلق الخامس، أوقفت القتال اعتبارًا من آذار/مارس ٢٠٢٠ وقبلها قدمت الأولوية لمصالحها، إذ أعطت الضوء الأخضر لتركية لدخول منطقة درع الفرات ٢٠١٦ في ذكرى مرور ٥٠٠ عام على معركة مرج دابق ودخول السلطان سليم إلى سورية.
• منعت القوات السورية من دخول منطقة الباب بعد أن دخلتها وأتاحت ذلك للأتراك في ٢٠١٦.
• أعطت الضوء الأخضر لاحتلال عفرين.
• شاركت تركية عسكريًا في مناطق خفض التصعيد المنطقة الرابعة.
و إجمالاً ظهر التوتر بين الروس والإيرانين على الأرض. والصراع على الحجم والأدوار سواء كامتيازات أو سيطرة مكانية.

صم الآذان والرقص على الحبال

مع بداية ٢٠٢١ ظهر رأيٌ للغرب يقول أنه لا يمكن إسقاط الأسد، وعلينا التعامل مع الواقع و إعادة تعويمه، حيث عملت الولايات المتحدة على تسويق فكرة (خطوة بخطوة)، حيث كلفت الأردن بذلك، وبموافقة موسكو. وهنا تولدت واستولت

على الأسد فكرة الانتصار والزهو (سيأتون إليَّ)، تلاها زيارة وزير خارجية الإمارات ، والانفتاح ومؤتمر القمة العربية ودعوته للحضور في السعودية. إزاء هذا الانفتاح العربي والغربي، بدأ يحاول التملص والانفكاك من علاقته مع إيران، والابتعاد عن الإملآت الروسية، وأخذ يناور حيال طلبات موسكو، وأحياناً لا يستجيب وخاصة بعد بدء الحرب الأوكرانية نتيجة وعود تلقاها عبر لقاءاته العربية، وهي من ضمن الشروط الغربية والعربية. وتتميز هذه المرحلة بالنقاط الآتية:

١. انخفاض الجهد العسكري الروسي في سورية وخاصة الجوي منه.

٢. إنهاء المجموعات السورية التي شكلتها إيران و إعادة إلحاق عناصرها بالجيش، والطلب الرسمي لمغادرة الحاج جواد. والملاحظات الإيرانية على السوريين في أثناء زيارة إبراهيم رئيسي لسورية.

٣. المماطلة وصم الآذان عن الطلبات الروسية المتكررة للقاء بين سورية وتركية وخاصة مع أردوغان.

٤. تسريع الانفتاح وتمتين العلاقة مع الدول العربية وخاصة الإمارات والسعودية.

٥. انتهاء مفاعيل مسار الآستانة، وهذا خسارة

مشهد من أحد شوارع حلب، ١٩٤٠.
• المصور: مارغريت بورك-وايت.



للروس.
٦. إنهاء التشكيلات من الدفاع الوطني تحت مسمّى إعادة تنظيم وهيكلة المجموعات، والاستغناء عن أعداد منهم وتحويلهم إلى فرقة عسكرية نظامية (الفرقه٢٥).
٧. خفض نسبة الاستكمال في الجيش بسبب تسريح الاحتياط دون استعواض تحت مسمى إعادة تنظيم وهيكلة للقوات المسلحة.
٨. الموقف من طوفان الأقصى وعدم المشاركة أو السماح من الأراضي السورية، مع السماح بمرور الإمداد للمقاومة. هذا أفقد النظام شرعيته القومية (قضية فلسطين) التي اكتسبها وفاخر بها السوريون. بغض النظر عن خطأ حماس وخالد مشعل، التي اشتركت في قتال الجيش مع المعارضة المتطرفة.
٩. الاستهدافات الجوية "الإسرائيلية" للعاصمة دمشق مما حدا إلى الطلب لتخفيف التواجد الإيراني لدرجة أن المواطنين بدأوا يرفضون تأجير بيوتهم للإيرانيين مما أثار حفيظة الجانب الإيراني.

> مع بداية ٢٠٢١ ظهر رأيٌ للغرب يقول أنه لا يمكن إسقاط الأسد، وعلينا التعامل مع الواقع و إعادة تعويمه، حيث عملت الولايات المتحدة على تسويق فكرة (خطوة بخطوة)، حيث كلفت الأردن بذلك، وبموافقة موسكو

الوضع الميداني قبل المعركة

• لم تكن خطة المعركة سرية أو مبهمة. بل كانت لدى الاستطلاع وغرف العمليات والمخابرات العسكرية كامل المعلومات عن (الخطة - القوام • التسليح)، ومحملة في غرف القيادة والعمليات ومراكز القيادة الميدانية، وكان الوضع الميداني على النحو الآتي:
• جبهة حلب، وفيها الفرقة ٣٠ وثلاثة ألوية داعمة، أي ما مجموعه ٧ ألوية لديهم ١٧١ دبابة مع المدفعية والصواريخ والدعم الجوي، وفيها مقر قيادة مشترك سوري-روسي، إضافة لمجموعات شبه عسكرية من كتائب البعث، ولديهم الكليات تشكل رصيدًا إضافيًا. ورغم ذلك عززت هذه الجبهة بأربعة ألوية من الفرقة ٢٥ قوات خاصة، فأصبح المجموع ١١ لواء ما يساوي ثلاث فرق وهو رقم كبير لم تبلغه في أية لحظة، كما عززت بما يسمى قوات الغيث التابعة للفرقة الرابعة.
• **جبهة سراقب:** وتقع على عاتق الفيلق الخامس، والمؤلف من أربعة أفواج، ومركز قيادة سراقب، وهو بالكامل تحت قيادة روسية (قيادة روسية وسورية - تسليح روسي - ذخيرة روسية - إمداد روسي - رواتب روسية - مقر العمليات روسي سوري وفيه جنرال روسي - طائرات مسيرة...إلخ)، كما يتبع للفيلق اللواء الثامن في درعا بقيادة أحمد عودة في بصرى الشام والمناطق غرب درعا.
• وكانت تؤازرها في الجبهتين مجموعات قليلة من حزب الله بعد تخفيض العدد خاصة بعد طوفان الأقصى، وبعض المستشارين الإيرانيين.
• أما ما كان بحوزة هيئة تحرير الشام ٧٦ دبابة وعربة مدرعة، وهاونات وراجمات. أما القوات الرئيسية فهي سيارات دفع رباعي محملة برشاشات متوسطة ٢٣مم ودوشكا وأسلحة خفيفة والأعداد ٣٠ الف للهيئة، وعدد مماثل لباقي الفصائل بما فيها ما يسمى بالجيش الوطني.
• لم يكن هناك بنية دفاع متدرج في العمق كالجيوش عادة للطرفين. وهذا يدلل على ضحالة القادة وتجربتهم واستهتارهم، وعدم المتابعة من المستوى الأعلى أيضًا. مثلًا من ١١ لواء في حلب لم يكن في الاحتياط سوى كتيبة واحدة، مما يدلل على سطحية وسوء تقدير وعدم فهم القادة لطبيعة الطرف المقابل والاستهتار والانشغال بمصالح خاصة.

الحرب الإدراكية

• هو مصطلح حديث يمكن إطلاقه على الفرد والجماعة والدولة: نعم، في علم النفس هناك ما يعرف بالإنهيار الإدراكي للشخص. أما هذا المصطلح الجديد يعني: فَقْد مقومات الاستمرار مما يؤدي للاستسلام. ويتحقق كتتويج لحرب نفسية طويلة، تليها حرب إدراكية من خلال عمليات صادمة تدفع الخصم للاعتقاد بأنه منعدم الخيارات، وتهدف لبث القلق والهلع في النفوس، وزعزعة الثقة في الجيش والقيادة والمواطنين. هي المرحلة الأعلى والأرقى من الحرب النفسية، بل تبنى عليها ووريثتها، لما تمتلك من عناصر إضافية (حرب سيبرانية -

حرب معلوماتية - حرب إلكترونية - حرب إعلامية). ووفق حلف الأطلسي وجامعة هوبكنز التي طرحت المصطلح وأنتجته في عام ٢٠٢٠ تجعل الخصم يدمر نفسه من الداخل، أي جعل الرأي العام غير قادر على مقاومة الجهة المعادية أو ردعها. ومثال على ذلك: استهداف المقاومة كعمليات البيجر - توكي ووكي - الحملة الجوية "الإسرائيلية" على لبنان. واستهداف السيد حسن ب٨٥ طن بقذائف خارقة للتحصينات لم تكن تمتلكها "إسرائيل". وتكررت في ضرب منشأتي نطنز وفوردو خلال ٢٠٢٥ بقذائف أشد (أم القنابل).

وضع القوّات قبل المعركة مما ساعد على الانهيار الإدراكي

• يمكن أن نختصر حالة القوّات لحظة بدء المعركة في:

١. تبدل هدف الحرب السياسي من (حماية الوطن

• حماية الدولة ومؤسساتها كغاية نبيلة لا خلاف عليهما، إلى حماية النظام وحماية الرئيس، كغاية نبيلة مختلف عليهما منذ البداية).

٢. طول مدة الحرب دون تحقيق الأهداف.

٣. انخراط الجيش في صراع داخلي ليكون طرفًا.

٤. تغيير مسار وحياة العسكري ومستقبله الشخصي.

٥. تدني الوضع المادي للعسكرين وعدم قدرته على تحمل الأوضاع المعيشية.

٦. تفشي ظاهرة الفساد داخل الجيش (تفتيش - بيع الإجازة - عدم المحاسبة عن الفساد أو خسارة معارك ومواقع)، والتي كانت من المحرمات سابقًا.

٧. رواتب العسكرية الصفرية أو تكاد.

٨. التمييز بين التشكيلات مع بعضها، وبينها وبين الدفاع الوطني والمجموعات.

٩. فقدان القائد النموذج.

١٠. استشهاد وجرح القوّة الصلبة داخل الوحدات وخروجها من القتال.

١١. تفشي ظاهرة الفرار وتزايدها.

١٢. الهجرة الخارجية المتزايدة من مناطق سيطرة

عائلة تمر بجانب البلدة المسورة والبيوت الطينية التي تشبه خلايا النحل في تليسة، سورية، ١٩٤٠.
• المصور: مارغريت بورك-وايت.



النظام ومن المؤيدين سابقًا طلبًا للعيش وتحت بصره دون أن يمد يد المساعدة لهم واستثمارهم حتى في جواز السفر، مما حولهم إلى ناقمين.
١٣. تدني حالة المواطنين الاقتصادية، وفقدان الأمل والحصار الخانق الطويل.
١٤. تحول بعض القادة وبعض الوحدات إلى جباة.
١٥. عدم الاهتمام بذوي الشهداء وبالجرحى أنفسهم مما أعطى مثالاً سلبيًا أمام المجتمع.
١٦. عدم الاهتمام بطعام العسكريين ولباسهم وتنقلاتهم.
١٧. عدم إعداد العسكريين المساقين بدنيًا ونفسيًا وقتاليًا تحت حجة الحاجة الماسة للعنصر البشري (ضبّاط - صف ضبّاط - أفراد).
١٨. تشكيل الدفاع الوطني بميزات لا يحصل عليها العسكري (راتب-طعام-إجازة) وبعضهم فرار من الجيش.
١٩. تجزئة الوحدات وعدم القتال بقيادة واحدة.

> لم تكن خطة المعركة سرية أو مبهمة. بل كانت لدى الاستطلاع وغرف العمليات والمخابرات العسكرية كامل المعلومات عن (الخطة - القوام - التسليح)، ومحملة في غرف القيادة والعمليات ومراكز القيادة الميدانية

٢٠. انتهاء حالة القادة ذوي الآراء الجريئة المختلفة المدافعون عن آرائهم.
٢١. الانفصام بين القيادة والتشكيلات.
٢٢. استلام قيادات استناداً لولاءاتها وليس لكفائتها رغم أن الجميع موالون.
٢٣. الاعتماد على الدوريْن الروسي والإيراني والمقاومة.
٢٤. تدني نسب الاستكمال نتيجة التسريح في عامي (٢٣-٢٤).
٢٥. شعور العسكري وأهله أنه يدافع عن شخص وأسرة مترفة همّها جمع المال. لا يحبه ولا يمثله.. ومنذ عام ٢٠١٩ كنت أسمع الشتائم في صالات العزاء.
٢٧. معركة طوفان وما جرى في غزة وفي لبنان وما رافقها من موقف سوري والتهديدات التي تنتظرنا.
٢٨. الحرب على لبنان (بيجر-استهداف القادة-استشهاد السيد حسن) وهي تطبيق عملي للحرب الإدراكية بآثارها النفسية وخاصة في فقد السيد.
٢٩. الحرب النفسية والإدراكية التي شنت على سورية لم تستثن أحدًا، ومنها القوات المسلحة.

مجريات المعركة

بدأت عملية (ردع العدوان) ٢٧ تشرين الثاني، في اليوم التالي لوقف إطلاق النار في لبنان.

- منذ اليوم الأول أغلق الروس غرفة العمليات بحلب وكان فيها جنرال روسي، وانسحبوا إلى حميميم، وهذا أوحى للقادة للانسحاب (لا أستطيع التأكيد بإعطاء أوامر مباشرة للانسحاب من حلب)، ولكن الوقائع والنتائج بالانسحاب تفتح الاحتمال، وعدم المقاومة في أي موقع -عدا الأكاديمية العسكرية للهندسة الحربية- التي جرى فيها مقاومة، واستشهد حوالي ٧٠ طالب ضابط لم يغادروا، وتم سحبهم فيما بعد السيطرة على المدينة باتفاق.

وقد انسحبت أرتال التشكيلات من حلب بالسيارات دون سلاح على محور السفيرة - اثريا باتجاه حماة وأحيانًا كيفيًا دون قتال أو تنظيم.

- في اليوم الثالث (٣٠ تشرين الثاني/أكتوبر) خرقت فصائل المعارضة (الهيئة) وأخواتها في الاتجاه الثاني وهو اتجاه الفيلق الخامس في سراقب وقطعت طريق ال M٥ دمشق-حلب، وكان من السهل استعادته إذ كلفت إحدى التشكيلات باستعادته ووصل إلى الموقع.
- ولكن المفاجأة ما جرى في غرفة العمليات بحلب، تكرر في غرفة عمليات سراقب، حيث أغلق قائد مقر القيادة الروسي المقر، سواء أجهزة الحواسب والاتصالات والطائرات المسيرة.. ورغم إلحاح قائد الفيلق الخامس السوري بإبقاء المقر مفتوحاً، أصر الجنرال الروسي على إغلاقه والمغادرة -علماً أن الفيلق يمتد على جبهة طويلة- وشكّله الروس وهم مسؤولون عن تدريبه وتجهيزه، وتمويله و إمداده ودعمه بالسلاح والذخيرة وحتى عن رواتبه، وأيضاً لم تجر أية معركة، وانهار كامل خط الجبهة، وبدأ الانسحاب كيفيًا ليس إلى مواقع خلفية، ولا إلى مدينة يمكن التمسك بها (معرّة النعمان أو خان شيخون) و إنما إلى حماة. فلا قتال؛ حيث لا قوات تطارد والهجوم كان بعربات بيك أب دفع رباعي بأسلحة رشاشة خفيفة ومتوسطة محمولة. وكأنّ

هناك كلمة سرّ موحدة، الانسحاب من حلب ومن سراقب إلى محافظة حماة وهي الخطوط التي كانت قائمة قبل عام ٢٠١٩.

• وفي هذه المرحلة بدأ اللواء الثامن في الجنوب بالسيطرة على مناطق في درعا دون قتال وكذلك السيطرة على مواقع الجيش في السويداء من مجموعات السويداء. وحتى كذلك في القنيطرة انسحبت القوات الروسية من نقاطها التي كانت تفصل في القنيطرة وغرب درعا بين القوات السورية ومن معها بموجب اتفاق عام ٢٠١٨ بين "إسرائيل" والأمريكان وروسيا وسورية. كانت الحركة في الجنوب بطيئة دون معارك أو حتى إطلاق رصاصة أو مواجهة، وإيقاعها في تقدمها متزامنة مع حركة الشمال واللواء الثامن بقيادة أحمد العودة تحت إشراف روسي كالفيلق الخامس.

• في حماة استقر خط الجبهة لمدة ثلاثة أيام ولم يكن هناك ضغط عسكري، وجرت معركة محدودة، ولكنها مهمة، إذ زجت الهيئة بقوات النخبة (العصائب الحمراء) لاحتلال جبل الإمام زين العابدين: وتعرضت لخسائر كبيرة وهي المعركة الوحيدة وتراجعوا فيها.

• في الليل، (٢-٣)/١٢ اتصل بي أحد قادة التشكيلات وأعلمني أنه (تلقّى أمراً بالانسحاب إلى حمص). سألته هل هناك ضغط عليك.؟ فأجاب بالنفي، بل لا يوجد قتال، والمريب آنذاك طلبوا منه أن يرسل العتاد على الحاملات إلى حمص من دون مقاتلين، ثم يلتحق المقاتلون صباحاً. والأمر ليس بالهاتف أو جهاز اتصال كي لا نبرر بالإختراق للشبكة و إنما مباشر وجه لوجه.

في نفس اليوم سقطت حماة من دون قتال و إنما اشتباك محدود داخل المدينة في منطقة المزارب.

• أما في حمص لم تجر أية معركة: والغريب أن الانسحابات لم تكن قتالية من حلب عبر طريق خناصر-أثريا حوالي ٢٠٠كم. من سراقب إلى حماة

في غضون يومين فقط من التقدم، استولى جيش الكيان الصهيوني على معظم مرتفعات الجولان، وهي منطقة تبلغ مساحتها ١٨٠٠ كيلومتر مربع تقع على حدود جنوب غرب سورية وتضم عدة طرق رئيسية تؤدي إلى دمشق، ويصل ارتفاعها ما بين ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ متر. كما استولوا أيضاً على خط أنابيب النفط عبر البلاد العربية (تابلاين) المتجه إلى لبنان.



عبر طريق الـM5) ٩٠كم. من حماة إلى حمص ٥٠كم.. وهناك فيها الكثير من الثكنات والبلدات والمدن والجسور تصلح للتمسك بها والدفاع عنها، وكلها يتم السيطرة عليها بالسيارات والدراجات.

• في صباح ١٢/٧ كان ابن الرئيس (كريم) في المعهد العالي للبحوث العلمية يقدم فحصاً الساعة ١١ صباحاً. ومساء ذلك اليوم بدأت القوات تنسحب من حمص ومن حول دمشق تترك أسلحتها وحتى تخلع ملابسها وتتجه كيفيًا كل وفق خياره الشخصي.

وفق شاهد عيان (من عناصر الحرس الرئاسي) عند الساعة ١٠ ليلاً قدمت ثلاث سيارات روسية إلى منزل الرئيس وفيها ضبّاط روس دخل أحدهم، وبعد ساعتين وحوالي الساعة ١٢ ليلاً خرج مع الرئيس ومعه حافظ وكريم وغادروا البيت.. لم يتحدث للحرس إلّا كلمة واحدة عندما سألوه: (ونحنا شو منسوي.؟! قال:أنا راجع).

ما أفصح عنه روبرت فورد أنه في عام ٢٠٢٣ جرى تحضير الجولاني واشترك هو شخصيًا في إعداده، وقيام المخابرات البريطانية الخارجية Mi6 بإعداد الجولاني وتدريبه

• وكان قبل ذلك أغلق هواتفه بعدة أيام، ولم يعد يرد على مرؤوسيه لإعطاء قرارات هامة، مما شكل شللاً في القيادة وفي كيفية التصرف وحتى مع وزير دفاعه لم يتصل ولم يعط الأوامر، ولم يرد.

وكان آخر من ظهر على شاشة التلفزيون السوري من ساحات دمشق بساعات وزير الداخلية يتحدث عن الوضع الطبيعي. نستعيد فيه الوزير الصحاف في العراق عند سقوط بغداد في ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٣.

• وهنا لا بد من الإجابة عن السؤال: لماذا انهار الجيش السوري؟

إن ما تقدّم ذكره حول وضع الجيش والحرب الإدراكية ليس هو العامل الأساسي الوحيد في الانهيار، بل يمكننا أن نضيف مجموعة من العوامل الأخرى وهي:

١. عدم وضوح من سيكون القائد والقيادة معه لمرحلة ما بعد بشار الأسد، بعد تخلّيه عن مسؤوليته الوطنية (شلل-خوف-تردد-إكراه). أي لم يكن لدى الجيش والسوريين قناعة أن من سيأتي بعده الجولاني.

٢. الاتفاق الدولي والإقليمي (أمريكا-روسيا-تركية-"إسرائيل") بإنهاء دور الأسد. ويعزز ذلك ما سربته حكومة الشرع ويؤشر إلى ذلك:

• تراجع الروس عن تحرير إدلب باتفاق مع تركية رغم إقرارها نهاية ٢٠٢٢.

• الاتصالات المباشرة بين الهيئة والشرع بواسطة شقيقه ماهر منذ عام ٢٠٢٢.

• تصريح الشيباني الذي قال أن الشرع طرح الاتصال -قبل ستة أشهر- مع الروس لتحصين العملية سياسيًا.

• التسهيلات الميدانية منذ بدء المعركة بإغلاق المقرات و إعمائها (مقر حلب - مقر سراقب) مع بدءها وتسهيل تقدم المعارضة.

• الأوامر المباشرة من قيادة العملية والعمليات للانسحاب الكامل كانت بالتنسيق مع قاعدة حميميم.

• ما أفصح عنه روبرت فورد أنه في عام ٢٠٢٣ جرى تحضير الجولاني واشترك هو شخصيًا في إعداده، وقيام المخابرات البريطانية الخارجية Mi6 بإعداد الجولاني وتدريبه. واعتراف جوناثان باول مدير وصاحب المؤسسة التي اعتنت بالجولاني.

٣. وصول الجندي السوري لقناعة أن المعركة لم تعد ذات هدف نبيل منذ عام ٢٠٢٠، وممنوع الانتصار فيها لطرف، أي حرب عبثية مدمرة، فلماذا يقاتل وهو يعلم أنه لن ينتصر.؟ فقرر عدم القتال وهو ما يطلق عليه الانهيار الإدراكي.

٤. غياب صورة الاتفاق الإقليمي والدولي عن القوات.

٥. عدم وضوح الرؤية عما ستكون النتيجة في اليوم التالي، (كيف سنكون)، خاصةً أن بعض الانسحابات تمت بأوامر مباشرة من قيادة العملية، أي من المستوى الأعلى.

ورغم ذلك أعتقد، لا بل من المؤكد، بأنه ستبقى هناك أسرار ملهمة لسرديات وروايات طالما لم يكشف ما جرى في الكواليس من لقاءات، وقرارات وأدوار.

• **وأخيرًا:** في وطن يساق الفقير وهو يتضور جوعًا وينخر جسده البرد هو وعائلته للقتال دفاعًا عن وطن لا يملك شيئًا فيه حتى طعامه، ويطلب إليه

الاستشهاد كي تحافظ دماؤه الذكية على دولة تحوّلت إلى سلطة مترفة بعيدة عنه، لا على وطن، وهو يعلم أن ثرواتهم التي يتقاسمونها وينعمون بها من جوع وتعب وعرق ودماء غيرهم..(ما متع غني إلا بما جاع به فقير) كما قال الأمام علي "عليه السلام". في حين تهرول أسرته سعيًا وراء سلة غذائية بأحذيتهم المتشققة وكأنهم حفاة..الفقير ليس له وطن. (الأن الفقر في الوطن غربة). ولأن الوطن يعني الكرامة، والأمان، والعمل، والعدل، والمساواة، وتكافؤ الفرص، والمسكن، ولقمة العيش.. فإذا افتقدها هل يملك وطنًا. _ عندما يدرك المواطنون أن الدولة تدار لمصلحة نخبة وليس للشعب، يصبح الفرد غير قادر عن الدفاع عن الوطن، ويبحث عن مصلحته الخاصة. وبالتالي تنهار قداسة الدفاع عنه...فيتعرى الانتماء من رمزيته، وتذوب الحماسة التي تدفع الفرد لدفع حياته، ونصبح أمام لحظة انكسار جمعي، لأن الدولة تخدم قلة متسلطة تتقاسم المغانم والمنافع بدلاً من تقاسمها للجميع، ويصبح الوطن مزرعة خاصة، وبالتالي تنهار فكرة الوطن والعقد الاجتماعي، ونصبح نخدم سلطة لا نرتبط بها ويعود الوطن غير جدير بالدفاع عنه والتضحية لأجله. حتى في إيماننا يقول الله سبحانه: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾. (قريش: ٣-٤)

• قد يكون ما قدمته لم يُعطِ إجابة شافية أو يشبع رغبة جامحة، لأنني لا أدعي امتلاك الحقيقة كاملة، ولا أعتقد بأن أحدًا لديه هذه الإمكانية. ولكن ما عرضته أشبه برواية أو قصة أو فيلم تكون النهاية مفتوحة، وللقارئ أو المشاهد أن يشارك ويجيب على جزء منها، أو ستأتي الأيام القادمة وتكشف ما جرى.



٢١ سبتمبر ٢٠٢٣، بكين
وصول الرئيس السوري بشار الأسد والسيدة الأولى أسماء الأسد إلى مطار بكين.
● الرئاسة السورية/ زوما (ZUMA)


CIA
U S
SPECIAL AGENT
767

التيارات المعارضة لنظام بشار الأسد "الديكتاتوري"

تشريح تطور المعارضة السورية بين القمع الديكتاتوري والأصولية الفاشية والتدخل الخارجي





فاتح جاموس

ناشط سياسي معارض، ومعتقل رأي لفترة تقارب تسعة عشر عامًا بسبب كونه قيادي ومؤسس في حزب العمل الشيوعي • سورية

المقدمة

يتعامل هذا المقال مع المعارضة السورية لا من زاوية أخلاقية أو معيارية، بل من زاوية تحليل بنيوي-تاريخي، يربط نشأتها، وانقساماتها، وتحالفاتها، ومآلاتها، بموقع سورية في النظام العالمي، وبالتحولات التي أصابت شكل الاستعمار نفسه في مرحلة ما بعد الحرب الباردة. في هذا السياق، لا تُفهم المعارضة السياسية بوصفها فاعلاً مستقلاً عن البنية العالمية، بل كجزء من شبكة علاقات قوة تتداخل فيها المصالح الدولية، والخطابات المعيارية (الديمقراطية، حقوق الإنسان، مكافحة الإرهاب)، وآليات التمويل والاعتراف السياسي. وهو ما يجعل

كثيرًا من المعارضات، من حيث تدري أو لا تدري، حاملاً موضوعيًا لمنطق الاستعمار الجديد، حتى عندما ترفع شعارات التحرر أو إسقاط الاستبداد.

أولاً: استدراك وبعض مقدمات

١. في الوهلة الأولى ينبغي التنويه إلى أن هذا بحث غير فهارسي، إذ ليست غايته التوثيق الدقيق بمسميات الفعاليات والشخصيات المعارضة: فهذا يمكن الوصول إليه بسهولة عبر عدة مخدمات شبكية والذكاء الاصطناعي. وثانيًا هو بحث تحليلي حواري مقارب في تيارات المعارضة وأسباب ظهورها وموتها وتحالفاتها، خاصة الخارجية منها. أي تلك التي تتلقى دعمًا خارجيًا من دول لها مطامع جيوسياسية في سورية، مع الاهتمام المركز بالأسباب الموضوعية بقدر الإمكان، ثم الذاتية منها. ثالثًا: هكذا هو بحث غير تقريري بدرجة عالية، أي بقدر ما يسمح وضوح الوقائع.

> بحسب ما يخبرنا التاريخ السوري المعاصر: فإن أكبر تناقض وعداوة وصراع بوسائل متعددة وتحالفات متخالفة كان بين الحزب الاشتراكي (الأستاذ أكرم الحوراني) وحركة الإخوان المسلمين وبشكل خاص في مدينة حماة وريفها

كما بالتأكيد سينتبّه كثير من القرّاء و بسهولة، وسيلحظون كشف وطرح سرديات مختلفة عن سرديات بعض جهات المعارضة، وسرديات السلطة بحد ذاتها.

ولا شك أن هذه المادة تمثّل مقاربة شخصية، ومسؤولية ذاتية، يشاركني فيها عمومًا ومن البداية رفاقي في "تيار طريق التغيير السلمي"، الذي تشكّل على أساس خلافات المعارضة، وموقف مغاير في قضية الثورة والشرط الثوري وقوى الثورة وتحالفاتها. والفرق على سلم التطور التاريخي بين الديكتاتورية والأصولية الفاشية، وأيهما الأكثر خطورة بمعايير المقارنة بين مركبات النظم ـ السلطات.

لكن ربما تخرج بعض الاستنتاجات والمقاربات عن كل ذلك. فهنا قد يعمل حدس الخبرة الشخصية، ومع كل ذلك فالحدس أسلوب غير علمي وغير تاريخي. مثله مثل تبني نهج المؤامرة في تطور الوقائع. وسأنوه إلى ذلك وغيره في السياق إنْ تطلب الأمر.

٢. أهمية موجات التاريخ صعودًا وهبوطًا في قضية المعارضة عمومًا: إن الحركات الفعالة أو الكبيرة، إنْ كانت من قبل كتل شعبية أو من قبل النُخب، مرتبطة عمومًا بالموجات التاريخية الكبرى، ومرتبطة بشدة بحالات صعود موجة ما أو نكوصها، أو وضعية استنقاعها بسبب مؤشرات وجود موجات أخرى. تشكّل الموجات بتنوعها عاملاً أو سببًا موضوعيًا مهمًا جدًا في دوافع الحركة ونتائجها وهو قانون اجتماعي رئيسي. ولكن ربما بصورة استثنائية تعمل بعض الشروط المحلية الخاصة دورًا مهمًا في أسباب ونتائج عمل معارضة في وطن ما. هكذا يجب الانتباه وأخذ ذلك بعين الاعتبار عند البحث حول ظاهرة معارضة.

وأقصد بـ"الموجة" الطابع الفكري والمنهجي والايديولوجي، الذي يمكن أنْ تتبناه شرائح أو فئات أو طبقة وتتقدم إلى الفعل الكبير والمؤثر في أحداث التاريخ. وكل ذلك ينطبق على القوى الصاعدة أو المتراجعة. إذن ينطبق على المعارضات بتنوعها، وعلى القوى الأخرى المقابلة على المسار الواحد. وسنلحظ ذلك بوضوح كبير في كل ما يتعلق بالمعارضات السورية، أو عندما انتصرت وتحولت إلى سلطات.

توضيح مفاهيمي

يستخدم هذا البحث مجموعة من المفاهيم التحليلية التي تنتمي إلى حقل النظرية السياسية النقدية، ويقتضي توضيحها منهجيًا لتفادي القراءات الاختزالية أو الأخلاقوية للنص.

- **الموجة التاريخية:** تشير إلى نسق فكري-سياسي-اجتماعي مهيمن في مرحلة تاريخية معينة، يحدد اتجاهات الصعود والهبوط للقوى الاجتماعية، ولا يُختزل في حدث سياسي أو نظام بعينه، بل في توازنات بنيوية أوسع.
- **الديكتاتورية البونابرتية:** نمط سلطوي يقوم على ادعاء تمثيل الدولة والمجتمع معًا، عبر جهاز عسكري-أمني، مع تحييد الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين، دون امتلاك مشروعية ديمقراطية فعلية.
- **الأصولية الفاشية:** صيغة حديثة من الفاشية، تُغلف العنفَ السياسي بخطاب ديني مطلق، وتقوم

على نفي التعدد، وتقديس الطاعة، وتبرير الإقصاء والعنف باسم المقدّس.

• **الشرط الثوري:** لا يُختزل في الاحتجاج أو الحراك الشعبي، بل يفترض:
فاعلاً اجتماعيًا منظمًا، مشروعًا تحرريًا واضحًا، استقلالية عن القوى الخارجية، قابلية لإنتاج سلطة بديلة ذات سيادة.
غياب هذه الشروط يجعل الصراع، مهما كان عنيفًا، خارج إطار الثورة بالمعنى التاريخي.

٣. علاقة بنية وطابع مركب النظام-السلطة بالمعارضات: لاشك أن بنيةَ وطابع مركب النظام-السلطة وموقعه التساقطي على خط التطوّر التاريخي، وتصنيفه ضمن مجموعة البونابرتات أو الديكتاتوريات أو الفاشيات أو المنظومات الديموقراطية وأيها أكثر عنفًا وخطورة، والوسائل التي تستخدمها، لا شك في أن لِكلّ ذلك دَور كبير جدًا كشرط موضوعي حاسم في دوافع ظهور معارضات، وكذلك في جدل تناقضها وصراعها مع السلطة وصولاً للوسائل التي تستخدمها في معارضتها. والحجج والمبررات والدوافع إلى تحالفاتها، وتأثرها بالقوى الخارجية.
تلك العوامل تخلق وحدة أضداد حركية وتساهم بقوة أيضًا في خلق معارضات مختلفة في ميادين عدّة.

٤. إن الأهميةَ الجيوسياسية لأيّ وطن، تخلق دوافع قويّة لسعي دول وأطراف خارجية لمحاولة التدخل في شؤون البلد وصولاً لصيغ احتلالية. وهذا بدوره يسهّل على بعض المعارضات، ولدوافع مختلفة، يسهّل عليها عملية تحالفات خارجية والقبول بالاحتلال أحيانًا. كما يرفع من سوية تنوع خلافات المعارضة وشدّتها ويضعّف وحدتها.

٥. ومن العوامل الأكثر تأثيرًا، بل وخطورةً، هو حصول أو قيام أزمة وطنية. وأقصد تحديدًا أزمة انقسام وطني عميق استقطابي داخليًا، واستقطابي وتدخلي خارجيًا، بحكم القوانين التي تحكم الأزمات الوطنية، وصولاً للانقسامات الأكثر خطورة، أعني تلك الناجمة عن صراع بين قوتين غير ثوريتين.



يظهر أكرم الحوراني (في الوسط، يرتدي بدلة داكنة ويمسك ورقة بيده) كان سياسياً سورياً بارزاً ونافذاً، لُقّب بـ "أبي السياسة السورية الحديثة في أوائل الستينيات من القرن العشرين.
• المصدر: المكتبة الرئاسية للدكتور ناظم القدسي

وغياب شروط الثورة بمعنييها الاجتماعي العدالي أو الديموقراطي. فتصبح القوانين الموضوعية المتحكمة ذات طابع طردي، أو نبذي لوحدة وتماسك الوطن. وتعمل أكثر العصبيات تخلفًا ويتهدد الوطن بالانقسام. كل ذلك على عكس حالة وجود ثورة وشروط ثورية، حتى ولو حصلت استقطابات وتدخلات خارجية. فقوى الثورة الاجتماعية والطبقية والكتلة الحرجة من الشعب والعصبيات التي تجمعها، موحدة ودافعة للتماسك الداخلي.

> من جهة أخرى، يلاحظ بسهولة طبيعة السلطة البنيوية القمعية وكيف حددت رد فعلها وممارساتها القمعية ضد الجميع، بما في ذلك دور القوى القومية واليسارية الشيوعية، حتى تهميش دور حلفائها في جبهتها وتحويلهم إلى تابعين بلا فعل، والتشجيع على انقساماتهم وانشغال كثيرين منهم بمصالح انتهازية

٦. مسؤوليات النخب وأخطاؤها في قراءة الوقائع الكبرى والموقف منها: إن النخبَ المعارضة الناضجة والخبيرة، التي تتابع الوقائع والمتغيرات بصورة نقدية، وذات الدوافع المنهجية والموضوعية، هي الأضعف احتمالية في ممارسة أخطاء تحليلية وبرامجية. أما النخب المعارضة المنقسمة على بعضها لأسباب عصبية متخلفة، وأسباب كيدية في الموقف من السلطة، وأسباب غير مقارنة من منظور تاريخي ومعياري بين أطراف الصراع، فستقع في أخطاء شبه قاتلة، وقد يصل الوضع حدود الوهم والرغبة، إذ قد تصبح موجة نكوصية ثورة. كما الحال مع موجة ما سمي بالربيع العربي.

ثانيًا: إرث الأب. صراع قديم بين الديكتاتورية النمطية المتفوقة والأصولية الفاشية. (الإخوان المسلمون)

بحسب ما يخبرنا التاريخ السوري المعاصر: فإن أكبر تناقض وعداوة وصراع بوسائل متعددة وتحالفات متخالفة كان بين الحزب الاشتراكي (الأستاذ أكرم الحوراني) وحركة الإخوان المسلمين وبشكل خاص في مدينة حماة وريفها. فقد كان صراعًا اجتماعيًا على القضية الزراعية، ووطنيًا عامًا على القضية الفلسطينية والاستقطابات التحالفية الخارجية. كما كان عقائديًا وايديولوجيًا، واستمر هذا الأمر بوضوح أعلى مع الاندماج البعثي والصراع البرلماني والوحدة السورية المصرية، عندما كان البعث في ذروة تأثيره الوطني والقومي خاصة. وكذلك وحدته الداخلية (في حينه كان لِلبعث ٢٣ نائبًا) حسب باتريك سيل. ثم أمسك ضبّاط البعث السوري بالسلطة من خلال انقلاب ٨ آذار/مارس وتابع ذلك الصراع نفسه بين الطرفين. هذه المرة بوسائل عنيفة وسياسات كسر عظم متصاعدة. وقد تعددت المسميات من كتائب محمد إلى الطليعة المقاتلة، إلى إضرابات قوى اجتماعية رأسمالية وتقليدية، وردعها وممارسة العنف معها حتى تدمير أكثر من منارة جامع في حماة وبانياس بإشراف الرئيس أمين الحافظ، وصولًا لتبني حركة الإخوان لفكرة إسقاط النظام- السلطة، والتناغم بين الطليعة المقاتلة والتنظيم العام.

وبذلك ترسّخ مسارٌ بسِمات صراعية محددة لمعارضة بين السلطة الديكتاتورية وأصولية الإخوان.

ومن جهة أخرى بلحظ سهل لبنية السلطة وطبيعتها القمعية التي حددت ردود فعلها وممارساتها القمعية تجاه الجميع بما فيه دور القوى القومية واليسارية الشيوعية، حتى تهميش دور حلفائها في جبهتها والجعل منهم تابعين من دون فعل، والتشجيع على انقساماتهم والانشغال عند كثيرين منهم بمصالح انتهازية.

ذلك الطابع السلطوي القمعي لم يسمح بأي هامش فعلي لأي معارضة. وبدأ مبكرًا بقطع الطريق على تطور أي معارضة، بدءًا من رفاق الأمس (تيار ٢٣ شباط) والبعث العراقي، وصولًا إلى اعتقالات واسعة في وسط اليسار الماركسي الجديد (خاصة رابطة العمل الشيوعي. وفي السياق حزب العمل الاشتراكي العربي كتنظيم لحركة القوميين العرب، اتحاد الحكيم حبش، وحركة النهوض وحزب العمال الفلسطيني. إلخ) والوقائع تؤكد أن ذلك القمع وتلك الاعتقالات الواسعة لقوى سياسية غير دينية جاءت أكثر اتساعًا من تلك التي ضربت الأصولية

أكرم الحوراني (على اليمين)، يقف بجانب آخرين خلال زيارة جمال عبد الناصر (في الوسط) أمام الساحة الحمراء. عام ١٩٥٨ - موسكو، روسيا.



الأخوانية، حتى اتضح للسلطة دور تلك الحركة أو الأصح مشتقاتها بداية في العنف المعمم.
وقد وصلت سلطة الرئيس الأسد في قمعها وعنفها حدًا من عدم تفهم الفروقات في الفكر والوسائل بين مجموع المعارضات باستثناء قضية العنف المسلح. كان شاملاً معممًا في القمع، متفاوتًا في الشدة على مقياس العنف. وطال الصراع بين الديكتاتورية والأصولية (حوالي ست سنوات فعلية) حتى حسم الصراع لصالح السلطة.
وحتى نهاية شباط/فبراير ١٩٨٢ كانت كل فعاليات وقوى المعارضة باتجاهها الديني الأصولي العنيف والسياسي، وكذلك اتجاهها الآخر القومي واليساري مع لحظ ضعفه وخلافاته بالمقارنة. كانت قد "أودعت" المعتقلات بعنف شديد، وتجاوز ذلك من قبل السلطة إلى عقوبات استنسابية للأهل والأصدقاء.

برزت آثارٌ عميقةٌ وخطرة لأزمة انقسام وطني وصراع عنيف، ساهم فيها طرفا الصراع بأنْ بدأته المجموعات الأصولية الإخوانية ومجموعات شعبية واقعة تحت نفوذها، بالاحتجاج الطائفي المبكّر على شخص حافظ الأسد

بدا الأمرُ صراحة وكأنه صراع بين موجتين تاريخيتين: بين الموجة القومية والعدالية الصاعدة وحلفائها العالميين من جهة، والموجة الدينية التي تحاول الصعود والهيمنة وحلفائها أيضًا، فضربت في سورية، ثم انتقلت للجزائر على مدى عشر سنوات و إلى العديد من البلدان العربية بسويات أضعف.
لقد دمّرت الاعتقالات، وسنوات السجن الطويلة، وسياسات النظام القمعية الشديدة الأخرى، وهو في سياق الصراع مع مجموع المعارضات، دمّرت كل نشاط معارض، وتركت ذكريات قاسية وحذرًا شديدًا وشعورًا بالإحباط في نشاط وسياسات أي تفكير معارض، وذلك على مدى طويل، حتى هاجمت دلالات الموت الديكتاتور الأكبر. وكان قد فعل الكثير من أجل خليفته الابن (بشار) من إضعاف و إزالة المنافسين داخل السلطة، إلى اطلاق سراحات واسعة من عناصر حركة الإخوان، أو أنصارها. وكذلك من الاتجاهات الأخرى، مع الإصرار على إبقاء رهاب السجن والقمع من خلال المحاكم الاستثنائية والأحكام الطويلة. وكانت إزدواجية سياسات، بين محاولة إعطاء انطباع بالاستجابة لانتصار الصف الرأسمالي الديموقراطي، وتدمير منهجي للمعارضة بكافة أطرافها عبر معاقبة الطواقم القيادية. وفي ذلك الجو والشروط وصل بشار الأسد وراثيًا إلى السلطة، ودخلت سورية حقبة جديدة.

ثالثًا: تحديد أهم القضايا في إرث الأب للابن

بتكثيف:
١. برزت آثارٌ عميقةٌ وخطرة لأزمة انقسام وطني وصراع عنيف، ساهم فيها طرفا الصراع بأنْ بدأته المجموعات الأصولية الإخوانية ومجموعات شعبية واقعة تحت نفوذها، بالاحتجاج الطائفي المبكّر على شخص حافظ الأسد. وهذه المرة بأنه غير مسلم ومن طائفة غير مسلمة. وتأخّر العنف فترة قصيرة تحت تأثير سقوط سلطة ٢٣ شباط الراديكالية ورضا بورجوازية المدن والنظم العربية الرجعية عن ذلك، والتأثير الايجابي للقبول بالقرار ٢٤٢ من قبل الصف الأمريكي، وحتى العالمي. وفي آذار/مارس ٧٦ انطلق العنف المسلح، السياسي والطائفي، هذه المرة متواترًا متصاعدًا.
٢. إن ذلك العنف والتحريض الطائفي من قبل حركة الإخوان، ونهج النظام في سياساته ورده العنيفة، والقمع الاستنسابي لأهل عناصر الإخوان والحركة الدينية برمتها وصولاً للقوى الديموقراطية الوطنية ومنها اليسارية بتنوعها، ترك كل ذلك أحقادًا على النظام، أكثر منها مواقف سياسية عقلانية، وكان الأكثر خطورة البعد الطائفي. وقد شوّش هذا حتى على طرق تفكير النخب الديموقراطية مع إصرار السلطة على الطابع الديكتاتوري القمعي ليظهر كل ذلك واضحًا متفجرًا مع موجة المد الديني الثانية.
٣. مع انتصار السلطة عنفيًا وعسكريًا وقمعيًا وأمنيًا على حزب الإخوان المسلمين. (لأن هذه التجربة من النهوض الديني لم تتميز بطابع شعبي بل حزبي)، ترسّخ عند الوريث الجديد قناعة عميقة بأن هذا الأسلوب هو الناجع والمنقذ في حال ظهور أحداث مشابهة. وبطبيعة الحال فإن البنية والطابع الديكتاتوري القمعي للسلطة جاهز لتكرار ذلك النهج والسياسات، وافترض هذا المزيد من

الاتكاء على الجيش ووحداته الخاصة ذات القيادات المصطفاة على أسس عصبية متخلفة، أسس مشوّهة وطنيًا، كما الاتكاء على الأجهزة الأمنية واعتماد وتركيز النهج الأمني.

٤. إن التحالفات والدعم اللوجستي الخارجي الذي تحقق لحركة الإخوان المسلمين بشكل خاص من عراق صدام والأردن وتركية، شجع نهج المؤامرة بدلاً من التركيز على أهمية الشروط الداخلية ودور السلطة فيها.

رابعًا: المعارضة تحاول تحديد وإحياء ذاتها مجددًا مع بدء سلطة بشار الأسد.

١. مع الأشهر الأخيرة لتماوت حافظ الأسد فيزيائيا، وتقدّم نفوذ الوريث، خاصة بإمساكه بالملفات الأمنية، (مثل الملف اللبناني - ملف السجناء في سورية - ملف الجيش وحق التدخل في بنيته، وتشكيل واسع من المستطلعين والمراقبين وناقلي النبض السوري لمشروع الرئيس) بإشرافه وقيادته، كان هناك عمل ممنهج في ميادين عديدة لإعطاء انطباع أن شيئًا جديدًا يحصل في سورية. مع التركيز على الانطباعات بأن شابًا معاصرًا درس في أوروبا لديه طموحات في تطوير البلد. ومع رسائل مباشرة أو غير مباشرة للقوى الخارجية بخصوص الاقتصاد وعلاقاته، كما بخصوص الديموقراطية وفكرة حوار سوري داخلي.

٢. وقد كان كافيًا بحد ذاته أن الرئيس حافظ يتماوت، و إن ابنَه تولّى السلطةَ فعليًا وصولاً للحظات التنصيب، كافيًا حتى تطلق النخب السورية المعارضة فعليًا والتي دفعت ثمنًا من بحر القمع السلطوي، وكذلك فئات اجتماعية واسعة، لتتنفس الصعداء، ولتطلق الشهيق والزفير الأطول في حياتها. ومن المؤكد أن اشارات عديدة قد انطلقت على ضعف سلطة الأسد الأب مع تماوته بحيث وصل الأمر حدود اطلاق أكثر من منتدى منزلي للحوار بين النخب الأكثر تجرؤا.

٣. وأعطى خطاب تنصيب بشار الأسد لأوساط



بُنِيَ الجامع النوري على يد نوّر الدين الزنكي عام ١١٦٢ ميلادي، وكان يُعتبر واحداً من أجمل نماذج العمارة في العهدين الزنكي والأيوبي في سورية. يقع الجامع النوري بالقرب من نهر العاصي وبجوار "النواعير" (سواقي حماة الشهيرة)، وقد تعرض للتدمير خلال الأحداث الدموية عام ١٩٨٢.

واسعة في صفوف المعارضة انطباعات شجعتها أكثر على النشاط الفكري والسياسي بسبل جديدة، وبعضها (والأصح مجموعات منها) قد أعاد نشاطه التنظيمي مجددًا بعد توقف طويل، لأكثر من عشر سنوات (مثلاً حزب العمل الشيوعي، والشيوعي السوري المكتب السياسي، واتجاه البعث الديموقراطي). وأكثر من تقدّم للنشاط هي مجموعات المستقلين المعارضين من معتقلين سابقين، أو دخل مجددًا حقل نشاط المعارضة، وأطلقت تلك المجموعات بيانين بخصوص مطالب ديموقراطية من السلطة، وخصوص الانتقال الديموقراطي.

> إن التحالفات والدعم اللوجستي الخارجي الذي تحقق لحركة الإخوان المسلمين بشكل خاص من عراق صدام والأردن وتركية، شجع نهج المؤامرة بدلًا من التركيز على أهمية الشروط الداخلية ودور السلطة فيه

وكانت الظاهرة الأكثر تأثيرًا واستقطابًا هي ظاهرة المنتديات بدلالاتها التنظيمية والسياسية المعارضة عمومًا، وتوزعت باسم الاتحاد الاشتراكي العربي (الأتاسي) مع فعاليات وقوى التجمع الديموقراطي مثل حزب العمال. والاشتراكيين العرب والمكتب السياسي والبعث الديموقراطي، ومنتدى لليسار بإشراف حزب العمل الشيوعي، ومنتدى لليبراليين والأصح الليبراليين الجدد، باسم رياض سيف، وظلت الحركة الدينية بكل اتجاهاتها من دون منتدى خاص بحكم خطورة وضعها وحساسيته مع السلطة والخوف من احتمال التعرض للقمع أكثر من بقية الأطراف، وكان يكتفي الكثير من المنتمين للفكر الديني، الأصولي وغيره، بحضور تلك المنتديات مع الحذر الشديد في النشاط المكشوف، أو المنظم.

وسيستمر هذا الفترة سُميت (بربيع دمشق)، حيث عاد القمع بصورة منتقاة لعدد قليل من الناشطين، مقارنة باعتقالات مرحلة الأب. ليكون اعتقالهم عاملاً تحذيريًا وترهيبيًا، ووضع كل ذلك في إطار قانوني شكلاني بتقديم المعتقلين الجدد إلى محاكم شكلها قانوني ونظامي، وعقوباتها ردعية.

وهناك محطّات أخرى مميزة وهامة في نشاط المعارضة السورية قبل الحراك الذي انطلق أواسط آذار/مارس ٢٠١١.

خامسًا: المحطات الأكثر أهمية في نشاط المعارضة قبل حراك آذار/مارس ٢٠١١

١. إعادة الحياة التنظيمية لحزب العمل الشيوعي ونشاطه، ومحاولة اكتساب اعتبار وشرعية وجود علني ومعارضة علنية جادة للسلطة. وقد تحقق ذلك بعد حوالي سنتين من إطلاق سراح أحد قياديه (صاحب المقالة) وجهوده و إصراره مع عدد من الرفاق الكوادر على إنجاز تلك المهمة مع صعوبات شديدة بسبب ما فعلته الاعتقالات وسنوات السجن عند الجميع.

٢. مؤتمر الحزب الشيوعي ـ المكتب السياسي ـ أواسط ٢٠٠٥: وتغيير الاسم إلى حزب الشعب الديموقراطي، وتبنّي الفكر الليبرالي، ثم انقسام الحزب. وبقاء مجموعة منه على نفس الاسم والفكر الماركسي (من قياديه المعروفين محمّد سيد رصاص).

٣. أول مؤتمر للمعارضة السورية بكل أطيافها، في دير الزور، في مضافة الشيخ (نواف البشير) بناء على دعوة من اللجنة الوطنية في مدينة الدير، التي كانت تضم أطرافًا معارضة عديدة، بتأثير خاص لحزب العمل الشيوعي في بيان الدعوة وجدول العمل، حضره عدة مئات من المعارضين، وخرج بعد نقاشات ومشادات ببيان وطني للمعارضة، وتركزت الخلافات على الموقف من أمريكا وصفّها، وكان لافتًا حضور فعاليات حزبية وشخصيات كردية عديدة. وتشكلت لجنة متابعة لتطوير عمل المعارضة، لكن الاحتلال الأمريكي للعراق وتأثيراته، واستقطابات جديدة في وسط النخب السورية المعارضة، وبعض اعتقالات من جهة السلطة أدى إلى وقف المتابعة.

٤. تشكيل إعلان دمشق ليكون (في أواسط ٢٠٠٥) أيضًا نواة للمعارضة السورية، ضم بصورة أساسية تركيبة التجمع الوطني الديموقراطي. الذي بدأ نشاطه الفعلي ببيان آذار/مارس ١٩٨٠، واستبعد حزب العمل الشيوعي من تشكيل إعلان دمشق، كما استبعد قديمًا من التجمع الوطني الديموقراطي وذلك تحت تأثير حزب

الشعب (الحزب الشيوعي ـ المكتب السياسي). وبسبب التناقضات والخلافات السياسية داخل إعلان دمشق، استقطابا بين الاتحاد الاشتراكي العربي (حسن عبد العظيم) وحزب الشعب (رياض الترك) فكر الاتحاد الاشتراكي بتقوية موقفه عبر الضغط لدعوة وقبول حزب العمل الشيوعي داخل التجمع الوطني وداخل صفوف إعلان دمشق. ووافق حزب العمل بشرط طرح فكرة تطوير البيان التأسيسي لإعلان دمشق بسبب اعتراضه على عدد من القضايا. وهذا ما حصل فعليًا. وتعدل البيان تحت اسم بيان جديد أكد موقفًا مختلفًا من أمريكا، وكذلك حذف الفقرة المتعلقة بالإشارة لحق الأكثرية المذهبية. وذكر موقفًا من القضية الكردية.. إلخ. وما حصل بسرعة لاحقًا هو انقسام داخل الإعلان، فكل طرف راح يتبنى أحد البيانين. التأسيسي أو الجديد، بحسب موقفه. واستمر هذا الوضع حتى وصل الأمر داخل الإعلان حد استحالة التعايش بسبب الموقف من أمريكا. وهكذا جمد بدايةً كلٌّ من حزب العمل الشيوعي والاتحاد الاشتراكي نشاطه مع الإعلان. ثم غادراه وبدء التحضير لتشكيل التيار الثالث في المعارضة الوطنية (غير ديني، غير أمريكي) السورية بحوارت مع نهاية (عام ٢٠٠٧).

٥. وتشكل أيضًا تجمع لعدة أطراف ماركسية (٢٠٠٧) باسم "تجمع اليسار الماركسي" على أوراق عمل فكرية وسياسية وبرنامجية، ووجود أطراف كردية، مع السعي الجاد لتشكيل إطار معارضة جديد مختلف عن إطار إعلان دمشق. وبدأت اجتماعات وحوارات خاصة بذلك وجدية. تحديدًا بعد مغادرة الاتحاد الاشتراكي وحزب العمل صفوف إعلان دمشق. وقد استمر ذلك حوالي ثلاث سنوات. وعندما كانت هذه القوى الماركسية والاتحاد الاشتراكي وقوى أخرى على أبواب إعلان الخط الثالث و إطاره، فاجأت "ثورات" الربيع العربي ووصولها سورية الجميع. إذ برزت وقائع جديدة كبرى أدت إلى إعادة النظر في كل شيء.

بعد تخرجه من جامعة دمشق، سافر بشار الأسد إلى لندن في عام ١٩٩٢ لمتابعة دراسة التخصص. وهناك، بدأ الدراسة والعمل في مستشفى "ويسترن آي" (Western Eye Hospital) المتخصص في طب العيون.
● المصدر: أرشيف CAMERA PRESS.



سادسًا: أحداث أواسط آذار/مارس (٢٠١١) و"ثورات" الربيع العربي

هكذا كان وضع المعارضات السورية صبيحة انفجار ما سمي بـ"الربيع العربي". أكثر ما كان يجمعها بعض احتجاجات تضامنية بشكل خاص مع معتقلين جدد في أثناء عقد جلسات محاكماتهم. وكان الوضع السوري هادئًا لأسباب كثيرة على رأسها الحذر والخوف، كما الخلافات والتناقضات التي برزت في أوساط المعارضة. تحديدًا بين الاتجاه الوطني الديموقراطي واتجاه الاستعانة بالخارج خاصة الصف الأمريكي، وأهمية مثال العراق له.

> وأعطى خطاب تنصيب بشار الأسد لأوساط واسعة في صفوف المعارضة انطباعات شجعتها أكثر على النشاط الفكري والسياسي بسبل جديدة، وبعضها (والأصح مجموعات منها) قد أعاد نشاطه التنظيمي مجددًا بعد توقف طويل، لأكثر من عشر سنوات

عمّت أحداثُ الربيع العربي ثلاثة بلدان عربية، واقتصر الأمر في سورية على القلق والتحفز، خاصة من نخب المعارضات ليدور النقاش حول إمكانية وصولها إلى سورية من عدمه. وحول ضرورة الاستعداد لإمكانية وصولها. مع ذلك خرجت مظاهرتا احتجاج على سلوك عناصر الشرطة والأمن في مستوى محدود. حصلت على إثرها اعتقالات محدودة أيضًا ولفترة أيام.

وهناك مقاربات تفيد أنه لو لا الطابع الديني الإسلامي الصريح لأحداث الربيع العربي، وطاقتها على إثارة و إنهاض المشاعر الكامنة ضد السلطة في ذلك الوسط، وكذلك لو لا أحداث درعا وطريقة تعاطي السلطة والرئاسة تحديدًا معها بالتغاضي عن الحقائق الفعلية فيها، التعاطي المتأخر والبيروقراطي والأمني القمعي معها، وأخيرًا الدور التركي الشامل حتى قبل البدايات... لو لا هذه العوامل الثلاثة كانت غالبية التقديرات تقول بالصعوبة العالية لاحتمال وصول الأحداث العربية إلى سورية.

إن العوامل الثلاثة السابقة أعطت مؤشرات أولية، بل أعطت وقائع حاسمة في الطابع الشعبي الإسلامي للجمهور الذي بدأ يتحرك ويتسع. وطابع الإسلام السياسي، خاصة جمهور الإخوان المسلمين، والمستوى القائم لقياداته الميدانية وقيادة الخارج. كما رسمت تلك العوامل الدور الهامشي للنخب اليسارية والنخب الليبرالية بتنوعها. وكان واضحًا خروج الوضع الكردي عن هذه المقاربة. فهناك صعود قومي كردي عالي المستوى. وبعكس الحالة العربية في سورية، إذ هناك موجة إسلامية تشقّ طريقها من جديد وتلاقي دعمًا واسعًا ومتنوعًا وفعالًا من أوساط عربية رسمية وبدور خاص وخطير للعامل التركي.

صراع مُدار:

لا يمكن فهم المسار الذي اتخذته الأحداث السورية منذ ٢٠١١ بوصفه مسارًا داخليًا خالصًا، ولا بوصفه ثورة أحبطت فقط بفعل القمع، بل باعتباره عملية تدويل مبكرة للصراع، حُوّلت فيها سورية إلى ساحة اختبار لتوازنات إقليمية ودولية متشابكة. في هذا الإطار، جرى:

- نزع الطابع الاجتماعي للتحرر لصالح صراع هوياتي-أمني.
- إعادة توجيه الحراك عبر التمويل، التسليح، والإعلام.
- تدوير الفاعلين بما يخدم منطق إدارة الأزمة لا حلها.

وهو ما يتوافق مع نمط حديث من التدخل الاستعماري، لا يقوم على الاحتلال المباشر، بل على: تفكيك الدولة، و إدارة الفوضى، و إنتاج معارضات وظيفية، وضبط حدود الصراع بما يمنع نشوء سيادة حقيقية.

بهذا المعنى، لم يكن فشل التحول السوري حادثًا عرضيًا، بل نتيجة منطقية لإدراجه ضمن منظومة الحوكمة الأمنية العالمية، حيث تُدار الأزمات بدل حلّها.

سابعًا: تكوُّن الاتجاهات والإطارات والمنظومات الأساسية لمعارضات بشار الأسد بعد أحداث أواسط آذار/مارس:

١. أول ما حدث هو توقف الجهد المتعلق بتشكيل خط ثالث في المعارضة السورية، وتقدم مفهوم وحدة المعارضة، وذلك تحت الضغط الرئيسي لحزب الاتحاد الاشتراكي والعودة إلى تحالفات تشبه تلك القديمة في التجمع الوطني وأخيرًا في إعلان دمشق. وكان واضحًا أن هذا يعني عودة التعايش مع الاتجاه

الليبرالي، واتجاه القبول بتدخلات خارجية خاصة بإشراف أمريكي، حتى ولو ظهر عبر تركية أولاً. والمشروع الإطار الذي نجم عن ذلك كان ما سمي بهيئة التنسيق، وكان إطارًا واسعًا لعدد كبير من الأطراف والشخصيات.

٢. بالمقابل، وعلى الصعيد الفكري ـ السياسي انتشر مصطلح "ثورة"، وأن هناك شروطًا ثورية في كل الأوساط. كما حصل في البلدان العربية ذات الربيع. وكان أساس ذلك التحليل والمقاربة في سورية توسع الحراك ذي الطابع الشعبي، وانتقاله إلى عدّة مدن بعد درعا، مع أن طابعه بقي ريفيًا، أي جمهور ريفي عمومًا في تلك المدن وهو الأكثر استعدادًا ليقاد من قبل الحركات الإسلامية، خاصة الإخوان المسلمين. وبقيت المدن الكبرى بعيدة عن كل ذلك خاصة في حلب ودمشق، وربما يمكن الإشارة لمدينة حمص بطريقة مختلفة قليلاً، إذ كان الحراك الشعبي فيها من عدة أحياء. وهنا تشير عدة مقاربات إلى الدور الخاص لأحياء شعبية ذات أكثرية تركمانية في حمص وتلكلخ، وبعض أرياف حلب. و إلى دور خاص لهذه التجمعات بقضية التسليح المبكر، واستخدام السلاح والدور التركي.

وراح كثيرون في مقاربات اجتماعية طبقية، ومقاربات طبقية في الإطار الرأسمالي لجعل تعبير ثورة وشروط ثورية مقنعًا، مع أنه لم تكن هناك أي طبقة أو فئة رأسمالية تنادي أو تطالب بتغيير ديموقراطي، كما لم يكن هناك أي تحرك طبقي سياسي أو نقابي مطلبي على صعيد وطني، وهما عاملان حاسمان في موضوع الثورة والشرط الثوري، وأضيف أن الحراك الشعبي الواسع الذي انطلق وامتد بدوره كان غير متوازن من منظور ديموغرافي وطني، فقسم واسع من الشعب السوري وفعالياته لم تساهم أبدًا في الحراك، بل كان لها موقف سلبي، بشكل خاص سكان المدن الكبرى.

٣ . على الأرض فعليًا كانت لجان التنسيق هي الأكثر



نازحون سوريون يرفعون أعلام المعارضة السورية خلال تجمع لدعم الجيش التركي وفصائل المعارضة السورية عند معبر باب السلام الحدودي، فبراير ٢٠٢٠.
● المصدر: رويترز/ المصور: خليل عشوي.

أهمية في توجيه الحراك الشعبي، عبر أيام الجمع والجوامع ونهاية صلاة الجمعة وفكرة الخروج من الجوامع وكذلك بلورة وطرح الشعارات الجزئية المتحركة، بل حتى الشعار المركزي والمهمة المركزية في الصراع.

وحاولت القوى الوطنية الديموقراطية واليسارية منها بخاصة، تنظيم لجان تنسيق ولعب دور في الشعارات ودلالاتها وفي المهمة المركزية، بل حتى الاشتراك الجسدي في المظاهرات والتأثير فيها. واصطدم ذلك بدوافع وموقف لفئات شعبية متأثرة بالقوى الدينية الأصولية، وانحسمت كل المؤشرات الرئيسية خلال عدة أشهر، حتى الانشقاقات داخل المؤسسة العسكرية، وداخل الإدارات وحزب البعث اتخذت طابعًا غير متوازن ديموغرافيًا ووطنيًا ومذهبيًا. وحتى نهاية حزيران/يونيو غدا واضحًا أن هناك مجموعات أصولية إسلامية قد حملت السلاح واستخدمته. وأن الدور التركي التدخلي حاسم في كل العناصر المتعلقة بالحدث السوري.

> عمّت أحداثُ الربيع العربي ثلاثة بلدان عربية، واقتصر الأمر في سورية على القلق والتحفز، خاصة من نخب المعارضات ليدور النقاش حول إمكانية وصولها إلى سورية من عدمه

خاصة تحفيز واستقبال أصحاب مشاريع الإسلام السياسي كمقاتلين في الحدث السوري، بما فيهم المقاتلين الأكثر أصولية وعنفًا... مع كل ذلك بقيت الأطر والفعاليات الديموقراطية واليسارية، في وضعية عدم الاستقلالية والتمايز الجدي، بل المجاملة والمتباطئة بالتخلص منها والاستقلال، حتى غدا قسم كبير منها في وضعية التبعية، أو وضعية المتورط بموقف والعاجز عن التخلص منه.

٤. وربما من الأهمية بمكان إلقاء الضوء على قضية المهمة المركزية والشعار المتعلق بها. إذ لا شك أن الأمر بدأ من دون توحد، بين التغيير الديموقراطي السلمي حواريًا ومجموعة الشعارات الدالة والماضية إلى شعار إسقاط السلطة المساوي فعليًا للشعار الشعبي المنقول عن بقية الحركات العربية (شعار: الشعب يريد إسقاط النظام)، إذ حتى القوى والفعاليات الأكثر تنبهًا، تحديدًا في هيئة التنسيق قد وصلت إلى نفس الشعار بالزحف إليه وحذف اللواحق، إسقاط النظام الديكتاتوري والقمعي.

وتوقفت عن الانتقاد الجاد لموضوع العنف، والانتقاد الجاد للتدخلات والاحتلالات الدولية، وحضور اجتماعات معها للاستماع إلى نصائحها، وكان ذلك حتى في مباحثات جنيف. ولم نلحظ أي جهد انتقادي فيما يتعلق بالثورة والشرط الثوري، أو تجاه التدخلات، أو تجاه الدور التركي والسعودي والعربي الرسمي، وخاصة دور القوى الأصولية ومستوى فعاليتها، وما يعني أكلها لما سمي بثورة، واحتمالات التطورات السورية بعلاقتها مع كل ذلك. بل بقيت حريصة على ألا تبدو خارج تلك المجاميع، وأنها في وحدة عمل معها، ووحدة المهمة المركزية، ووحدة الشعار المركزي. ووصلت في مواقفها حدود طلب تمثيلها في المؤسسات التي تقودها القوى الأصولية المدعومة دوليًا وعربيًا، والتي تشرف تركية عليها مركزيًا وتستطيع تشغيلها متى تريد وكيفما تريد.

ثامنًا: مسميات أهم: القوى الفاعلة وأطر معارضات بشار الأسد العسكرية المقاتلة

لا معنى لذكر كل مسميات المجموعات المقاتلة، إذ يقترب ذلك من المائة، ومع أنها دخلت بخلافات وقتال بين بعضها الآخر، إلا أنه يمكن الإشارة لأكثرها أهمية وتأثيرًا في الحدث السوري وفي معارضة بشار الأسد:

- كانت داعش الأكثر أصولية وفاشية، ولو لا التدخل الدولي العسكري لأسبابه، وليس إكرامًا لعيون سورية، وكذلك المقاومة الكردية الكفاحية، لكانت قد أطبقت بدولة وسلطة ونظام على سورية وغيرها ربما.
- هيئة تحرير الشام وكامل تحالفها العسكري، إذ على الرغم من مشاكل كثيرة وصراعات داخل محافظة إدلب فانها بقيت القوة المقاتلة الأولى للنظام بعد تراجع خطر داعش، وهي القوة الفاشية الأكثر خطورة بعد تراجع داعش أيضًا. فهي تضم ما يسمى بالفصائل الأجنبية الأكثر تعصبًا وتكفيرية وفاشية بالتالي، واستعدادًا لأسوأ تشغيل من قبل تركية.

• الجيش الحر وربما يكون الطرف الأكثر اقترابًا من مفهوم العصبية الوطنية، ولعب دورًا عسكريًا مهمًا ضد السلطة، ولو لا خضوعه المذل للسلطات التركية ودوره السيء سابقًا وحاليًا ضد الحركة الكردية، لكان في موقع وطني مختلف.

• حركة الإخوان المسلمين وأنصارها، إذ لعبت بداية دورًا عسكريًا وسياسيًا قياديًا حتى الدخول الكثيف بإشراف تركي لمقاتلين متعصبين بأعداد هائلة من الخارج. وربما تكون الحركة الآن هي الأقل إمكانية في التحول إلى سلطة فاشية بسهولة لو استلمت السلطةَ في سورية، وهذا دور محتمل في إطار السياسات التركية ومستقبل حاجاتها.

خروج عن السياق يبدو لافتًا: في نهاية هذه الفقرة لا بد من التأكيد أن قوات قسد بقيادة مجلس سورية الديموقراطية قد لعبت دور معارضة مسلحة وعسكرية في مواجهة بشار الأسد، والأمر الذي بدأ مشتركًا بين الحركة الكردية وسلطة بشار ضد داعش والقوى الأصولية، وعدم قدرة القوات العسكرية للنظام في البقاء بالجزيرة وتقديم سلاح متنوع للحركة الكردية باتفاق، أو ما هو أقرب لتمييز الخيار الأفضل لوجستيًا مع الحركة الكردية، إلا أن الأخيرة تحولت من معارضة سلمية من داخل هيئة التنسيق إلى معارضة مسلحة على أهدافها الخاصة (كما سأوضح بفقرة مستقلة) وخاضت معارك كثيرة مع الجيش السوري على مناطق نفوذها.

تاسعًا: في الخصوصية الكردية

وجدت الحركة السياسية الكردية نفسها في بداية الأحداث داخل هيئة التنسيق، ولم يلبث الأمر أن تغير سريعًا بشكل خاص مع دخول سورية حالة أزمة مستعصية، وحالة انقسام وطني عميق ومعقد، أي حالة تسمح براغماتيًا بالعمل للحصول على أهداف خاصة. ولا شك

"جبهة النصرة" بدأت نشاطها في عام ٢٠١٢ كفرع رسمي لتنظيم القاعدة في سورية، ثم انفصلت عن القاعدة في عام ٢٠١٦ وتغير اسمها إلى "جبهة فتح الشام" بهدف كسب الدعم المحلي والدولي. وأخيراً، تشكلت "هيئة تحرير الشام" في يناير ٢٠١٧ نتيجة اندماج هذه المجموعة مع عدة تيارات أخرى.



أن خلافاتها داخل هيئة التنسيق على أسس حل المسألة الكردية، وتحالفات الحركة الكردية خاصة مع الغرب وأمريكا، وتبلور ذلك بعد المعارك الشرسة مع داعش، حيث لعب حزب الاتحاد الديموقراطي دورًا مركزيًا، وبالترافق مع موجة الصعود القومي الكردي، بعكس وضع الحركة القومية العربية وموجة التراجع والنكوص فيها، كل هذا ساعد الحركةَ الكردية على التحول إلى قوة عسكرية وسياسية، و إلى نظام محدد في منطقة شمال شرق سورية، إلى درجة أعتقد فيها شخصيًا أنها قد خرجت عن النهج الأوجلاني في سورية، وتقديره للتحالف مع السلطة السورية السابقة (الأب) والتسهيلات التي قدمتها له في صراعهما المشترك مع تركية على الصعيد الاستراتيجي والجيوسياسي. بذلك كان سهلاً على الحركة الكردية أن تتحول إلى معارضة جادة وراديكالية ومسلحة ضد النظام السوري، وصحيح أنها تصرفت بهامش واسع سياسيًا ولم تتحول إلى الانخراط بصفوف المعارضات المسلحة الأخرى، خاصة بسبب التناقض مع العامل التركي. وذلك خفف من قيمتها العسكرية في مواجهة السلطة السورية مقارنة بالقوى الأصولية، فالحركة الكردية نفسها اختارت أولويات مهامها السياسية والعسكرية على أسس مختلفة بالتالي.

وتستمر الحركة الكردية تحديدًا "قسد" و"مسد"، بعد إزاحة سلطة بشار، بالتصرف في إطار المحددات والتاريخ القريب السابق، معارضة بخصوصية مهام وأهداف.

> لا يمكن فهم المسار الذي اتخذته الأحداث السورية منذ ٢٠١١ بوصفه مسارًا داخليًا خالصًا، ولا بوصفه ثورة أُحبطت فقط بفعل القمع، بل باعتباره عملية تدويل مبكرة للصراع، حُوّلت فيها سورية إلى ساحة اختبار لتوازنات إقليمية ودولية متشابكة

عاشرًا: مفهومات عن الخط الثالث للمعارضات، وطريق التغيير السلمي

كثيرًا ما استخدم هذا المصطلح في الصراعات السورية، خاصة عندما يراد به تمييز الموقع في المفاهيم والأطر والتحالفات بصورة مختلفة وتناقضية.

سبق ونوهت أنه مع الإشكالات الخلافية داخل صفوف المعارضة بين لحظة تنصيب بشار (عام ٢٠٠٠) وسبع سنوات أخرى، وبروز خط معارضة ميّال للموقف والسياسات الأمريكية تجاه بعض النظم الديكتاتورية في المنطقة، التي سميت بالقلاع القديمة بقصد الإشارة لتحالفها القديم مع الاتحاد السوفييتي، طَرحَت مجموعةٌ قوى ضرورة فك التحالف مع ذلك الاتجاه الليبرالي وتشكيل آخر معارض سلميًا للسلطة، وسُمي بالتيار الثالث. وعندما انطلق حراك أواسط آذار/مارس وبرزت الخلافات بخصوص طابع القوى التي تقود الحراك (أصولية فاشية) وموقعها المقارن على خط التطور مع الديكتاتورية. وأيهما أكثر خطورة بالتالي، بالترافق مع خلافات حول الحراك، هل هو ثوري نظرًا للقوى التي تقوده، هل هناك شرط ثوري محدد وقائعيًا، هل الربيع العربي بحد ذاته يدخل في تصنيف المفهوم الثوري للحراك؟

وجدت مجموعة من اليسار الشيوعي عمومًا، وخاصة من حزب العمل الشيوعي، أنه أساسًا من شبه المستحيل أن يكون الشرط ثوريًا وأن تكون هناك أي نتيجة ثورية بصراع بين طرفين ومشروعين قمعيين وغير ثوريين، نقصد الصراع بين الديكتاتورية بكل سماتها الخطرة والسيئة والمدمرة وما تركته من آثار من جهة، والأصولية الدينية الفاشية من جهة ثانية. بالتالي لا وجود لشرط ثوري ولا ثورة ولا نتائج ثورية، بل هي ثورة مضادة بكل معنى الكلمة، وتعمق النقاش في طابع الحراك الشعبي وجاهزيته في حينه والشروط السورية المحددة. فقط وفقط، لتقوده الحركة الدينية الأكثر أصولية وتعصبًا بعد زمن قصير من قيادة الإخوان المسلمين، وبعض الدور والاشتراك غير الفعال، الهامشي تحديدًا للقوى الديموقراطية والثورية، واستمر ذلك الدور والتأثير بالتراجع أكثر فأكثر لصالح القوى الأصولية. وكان يرى هذا الاتجاه ضرورة انفكاك القوى الثورية اليسارية والديموقراطية عن القوى الليبرالية من جهة، وعن أي تأثير مذهبي أو ديني أو طائفي من جهة أخرى. وعليها تشكيل معارضة مستقلة على تلك الأسس، فالوضع غير الثوري أساسًا، لا يسمح بقطع أي شوط مع

الاتجاهين، وعندما أصبح التعايش صعبًا جدًا، وغير عملي فيما يتعلق بوحدة العمل الحزبي بين جهة تقول أن هناك ثورة ووضع ثوري، وجهة تقول بالعكس، أصبح ضروريًا تشكيل خط جديد في المعارضة، (طريق التغيير السلمي) مهما كلف من أثمان. وتشكل تحالف واسع على تلك الأسس، لكن الديكتاتورية تابعت نهجها ووسائلها، منسجمة تمامًا مع بنيتها، ومارست القمع والتخريب تجاه هذا التيار، ولم تعط، بل لم تسمح أبدًا بطوير فكرة الحوار الوطني، ومارست هذا الدور التدميري، المشابه بآثاره لسلوكات التنمر والاتهامات الوسخة من أكثر الأوساط قربًا، والكذب في مفهوم حق الخيار وحق النشاط، وحتى العلاقات الاجتماعية تأثرت بذلك، بحيث انتشر وضع رهابي مطبق على أي طرف أو أحد يتبنى رأيًا مفاده بأن الوضع القائم لا علاقة له بالثورة، وأنه وضع فاشي، كما الوضع القائم ديكتاتوري، والتمييز بينهما ضروري وتاريخي ويفترض جبهة واسعة لوقف الزحف الفاشي.

وأريد أن أنهي تقييمي ومقاربتي بالقول: أُزيحت الديكتاتورية ولم تسقط بكسر العظم، أُزيحت بتفاهم دولي ومرة أخرى بدور تركي خاص، بين المعارضات القديمة غير المسلحة وغير العنيفة يجب أن تصبح تلك الوقائع خلف ظهرنا، وأن يقوم كلٌّ منا (أطر وأشخاص) بمراجعة نقدية شاملة، وأن نركز على الوقائع القائمة، وعلى أهمية تشكيل معارضة جادة، شجاعة وعقلانية وسلمية مهما كلف الأمر. فالوضع السوري القائم معقّد وصعب وخطر، ووجود مثل هذه المعارضة الصريحة سيساهم حقًا في تجاوز الحالة واحتمالات تطورها الخطرة. والإثبات أن المعارضة ليست مجرد منظومة مواقف وسياسات وتحالفات ووسائل في نقد ومواجهة سلطة قائمة، بل هي عمل مسؤول في إطار وطني وكل ما يتعلق به.

قوات سورية الديمقراطية، التي تُعرف اختصاراً بـ "قسد" (أو بالإنجليزية SDF)، هي تحالف عسكري متعدد العرقيات في شمال وشرق سورية؛ وقد تشكل هذا التحالف في أكتوبر ٢٠١٥.





كيف تُوِّج فقه الدم بـ جبهة النصرة

من فقه الدم إلى القصر الجمهوري: مشروع سلطة في سورية؟



هيثم مناع
رئيس المعهد الاسكندنافي لحقوق الإنسان ومؤسسة هيثم مناع بجنيف • سورية

مقدّمة:

استنادًا إلى كتاب "جبهة النصرة: من فقه الدم إلى جهاد الغلبة"، تأليف: د. هيثم مناع
تلخيص وإعداد: د. محمد سعيد وبإشراف ومراجعة: د. هيثم مناع

صدر باللغة الإنكليزية كتاب هيثم مناع: "جبهة النصرة من تكليف البغدادي إلى القصر الجمهوري" وكان ملفتًا للنظر أن يكون الإصدار بطبعة إلكترونية مجانية، مع أن كتاب "جبهة النصرة: من فقه الدم إلى جهاد الغلبة" نال رواجًا كبيرًا وصدر منه ست طبعات باللغة العربية. فالمواجهة الفكرية والحقوقية بين ما سماه مناع في ١٩٨٤ في مقالة بالفرنسية: "تاريخ الإخوان المسلمين في سورية: الإخوانية الجهادية"، تعود إلى بيانات أول جمعية للدفاع عن حقوق الإنسان في الشرق الأوسط في ١٩٧٨، حين اضطر صديقه الكاتب السوري النقدي بو علي ياسين لترك عمله في مركز الإحصاء المركزي في دمشق، بعد قيام "الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين" باغتيال عدد من الضباط وأساتذة الجامعة والأكاديمي الكبير الدكتور محمد الفاضل، واضطر للسفر إلى محافظة اللاذقية بعد تلقي تهديدات عديدة بالقتل. (بوعلي ياسين مؤلف العديد من الكتب أهمها: الثالوث المحرم والذي كان سببًا لهذه التهديدات). قد اتهم البيان، الذي كتبه مناع، يومها الطليعةَ المقاتلةَ باغتيال هذه الشخصيات لأنها تنحدر من عائلات علوية، واستعرض البيان الذي وزعته الطليعة المقاتلة والذي جاء فيه نص أربع فتاوى بتكفير الطائفة العلوية أولها فتوى ابن تيمية.

بعد تفرق الناجين من الطليعة المقاتلة بين تركية والأردن وأفغانستان توجه عدد قليل منهم إلى أوروبا وطلب اللجوء السياسي. وقد توجه عدد منهم إلى هيثم مناع طالبًا مساعدته في الحصول على اللجوء. ومن هؤلاء القيادي طريف السيد عيسى. فتحدث معه مناع بصراحة بأنه لا يعتبر حق اللجوء السياسي يشمل من حمل السلاح ووجهه ضد مدنيين في بلده. كان جواب السيد طريف: أنا لم أكن في التنظيم المسلح في يوم من الأيام، أنا كسرت ذراع تمثال حافظ الأسد في مركز إدلب ولاحقوني من يومها، فهل هذا عمل مسلح؟ فساعده في الحصول على اللجوء في السويد. (بعد ٢٠١٢ توجه السيد طريف إلى شمال سورية وعمل في الدعوة الإسلامية ونشرها، وفارق الحياة في ٢٠١٨/٣/٢، بعد معاناته من إصابات خطيرة إثر محاولة اغتيال تعرّض لها قبل نحو شهر ونصف، في الصراعات البينية بين الفصائل الجهادية).

كان لمساعدة الدكتور هيثم مناع العديد من اللاجئين السوريين من حركة الإخوان خلق أجواء ثقة بين الطرفين وعلى الأقل احترام. ومعروفة العلاقة الوثيقة بين مناع والفقيد عصام العطار المراقب العام الأسبق لحركة الإخوان المسلمين والذي شارك معه في أكثر من ندوة نقدية لتجربة "الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين في سورية".

يقول الدكتور مناع: "لم أكن أعرف أي شيء عن تاريخ الجولاني عند توزيع إعلان ولادة جبهة



النصرة، ولعل مَن أوضح لي صلةَ القربى بين بعض الناجين من تجربة الثمانينيات وتنظيم القاعدة وجبهة النصرة مقالات رضوان محمود نموس الذي تحدّث عني في بعضها. فهو يعرف متابعتي لقضية أبو مصعب السوري منذ اعتقاله إلى اختفائه، ويعرف دوري في محاكمة الصحفي تيسير علوني، ويعرف دوري في الإفراج عن عدد من سجناء غوانتانامو. وهذه أمور لم تكن معروفة بالنسبة للذين ذهبوا من سورية للقتال في العراق ومنهم الجولاني". (من مقابلة مع هيثم مناع، وقد نشر مناع مقالة أبو فراس السوري عنه في كتاب جبهة النصرة).

سنحاول في قراءة مكثفة ذكر أهم ما ورد في كتاب هيثم مناع في طبعته الأخيرة في نوفمبر ٢٠٢٥.

يستعرض الكتاب، بأسلوب علمي وموثّق، نشأة جبهة النصرة بتكليف من البغدادي، وانتشارها التنظيمي، فكرها، مصادر تمويلها، تحولاتها وصراعاتها الإيديولوجية والسياسية مع مختلف التنظيمات السلفية الجهادية، وعلاقاتها المتشابكة في المجال السياسي السوري-الإقليمي، والدولي خاصة الأمريكي والأوروبي

دخلت سورية منذ ١٨ آذار/مارس ٢٠١١، في واحدة من أكثر المواجهات تشابكًا وتعقيدًا في العصر الحديث. وقد برزت جبهةُ النصرة، منذ عمليتها الدموية الاستعراضية في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١ في منطقة كفرسوسة والتي ذهب ضحيتها عشرات المدنيين الأبرياء، كتنظيم يريد لفت الأنظار إليه، ولو عبر عمليات ليس لها أي فائدة بالمعنى العسكري والسياسي. فقد خرجت المعارضة الموالية لتركية يومها لتتهم النظام السوري بالقيام بهذه العملية، وحتى وزير الخارجية الكندي أصدر تصريحًا يقول فيه: لا أعتقد بأن جبهة النصرة في بلاد الشام لها أي علاقة بالعملية. لكن الجبهة قد أصرت على تبني هذه العملية وادّعت أنها استهدفت فرعًا أمنيًا للنظام. لم تكن جبهة النصرة تتعدى وقتئذ العشرين عضوًا، ولكنها ومن البدء أرادت أن تضع بصمتها باعتبارها التنظيم المتشدد الذي يرفض الخطاب السياسي والنضال المدني السلمي واعتبرت هذا الخطاب أفضل خدمة لبقاء الرئيس الأسد في السلطة. وهنا طلب تنظيم القاعدة المركزي إرسال كوادر قوية متدربة لدعم جبهة النصرة وتمكينها من تنظيم المستطاع من الخارجين من سجن صيدنايا (١٢٠٠ معتقل جهادي من مختلف الجنسيات جرى الإفراج عنهم بقراري عفو رئاسي).

يستعرض الكتاب، بأسلوب علمي وموثّق، نشأة جبهة النصرة بتكليف من البغدادي، وانتشارها التنظيمي، فكرها، مصادر تمويلها، تحولاتها وصراعاتها الإيديولوجية والسياسية مع مختلف التنظيمات السلفية الجهادية، وعلاقاتها المتشابكة في المجال السياسي السوري-الإقليمي، والدولي خاصة الأمريكي والأوروبي.

جرى الاعتماد في هذه الدراسة على مراجعة شاملة لكل الكتيبات والكتب التي كانت منذ ٢٠١٢ تشكل المراجع الفقهية التي اعتمدتها النصرة في مواجهاتها، ليس فقط مع السلطة في دمشق بل في الضربات التي وجهتها للتنظيمات الجهادية التي لم تقبل بممارساتها وأحد عشر فصيلاً من فصائل الجيش الحر التابعة لغرفتي عمليات MOM في الشمال السوري وMOC في فندق الفورسيزون في عمان. تناول الكتاب أهم ما صدر من تقارير استخبارية وشهادات ميدانية ومعلومات مستقاة من دراسات حقوقية واجتماعية ومن تقارير لجنة مكافحة الإرهاب التابعة للأمم المتحدة، اعتمد المؤلف على التحليل السيكولوجي-الاجتماعي لكيفية بناء جبهة النصرة شبكتَها الاجتماعية والتجنيد المستمر، مع رصد ميداني لتأثيراته على السكان.

الولادة

لم تولد الظاهرة الجهادية المعاصرة من فراغ، ولم تكن مجرّد امتدادٍ مباشر للنزاعات السياسية التي عصفت بالعالَم العربي خلال العقود الماضية: بل تشكّلت داخل بيئة فكرية تراكمت فيها عناصر الخلل، وداخل فضاء سلفي توسّعت فيه فجوة التأويل حتى تحوّل النص إلى أداة صراع، وإلى مرجع يُستدعى من الماضي ليُسقط على واقع لا يشبهه في شيء. هكذا وُلدت رؤية مشوهة للعالم، تُعيد تقسيمه إلى فضاءات إيمانية مغلقة، وتحمل



نظرةً أحادية عدائية للآخر، وتُحمّل نفسَها وصاية أخلاقية على المجتمع والدين. بهذه الرؤية جرت التعبئة للكوادر على أننا نعيش في "جاهلية جديدة" ولو كنا في مجتمعات تسمي نفسها إسلامية. والمسلم الحقّ هو من يختار "الطائفة المنصورة الظاهرة على الحق".

كان التدهور في بنية الخطاب السلفي نقطة الانطلاق الأولى. فبدل أن تتحرك المؤسسة الدينية نحو قراءة جديدة تستوعب التحولات الاجتماعية والسياسية، ظلّ جزءٌ كبير منها أسيرَ القراءات الحرفية التي تتعامل مع النصوص المتصلة بالسياقات الحربية في القرون الأولى باعتبارها قواعد جاهزة للتطبيق في العصر الحديث. وهكذا بدأ زحف "الفكر الحدي" على الهامش، قبل أن يتحوّل إلى مركز خطاب متطرف يقوم على التكفير والتحريم والتفجير، لتنظيف أرض الإسلام ممن انحرف عن دينه. لذا لا يرى هذا الخطاب في العالم إلا ثنائية:

مؤمن/كافر - دار إسلام/دار كفر - نجاة/هلاك.

هذا التصلّب الفكري وَجَدَ لاحقًا في تجارب الحركة الإسلامية الحديثة أرضًا خصبة. فكتابات سيد قطب - على أهميتها في كشف الاستبداد السياسي - مهّدت أيضًا، عبر مفهوم "الجاهلية الحديثة"، لفكرة العزلة الشعورية عن المجتمع، وقدّمت قراءةً متشائمة للواقع تُشرعن انفصال "جماعة المؤمنين" عن "الجسم الاجتماعي المنحرف". ورغم أن قطب نفسه لم يذهب إلى الدعوة المباشرة للعنف المفتوح، فإن إرثَه قد تأوّله اللاحقون خارج شروطه، ووجدت فيه الجماعات المتشددة أساسًا لإعادة بناء عقائد القتال.

مع تراكم هذه الخلفيات، ظهر خطابٌ أكثر تشددًا عند منظّرين لاحقين مثل أبو عبد الله المهاجر، الذي وضع أسسًا فقهية تسمح باستباحة الدماء تحت عنوان "التمكين"[1]، وعند أبي مصعب السوري، الذي أعاد تشكيل مفهوم الجهاد بوصفه فعلًا فرديًا لا يحتاج إلى بنية هرمية، بل إلى حالة تعبئة معرفية ونفسية تحرر الفردَ من أي التزام مدني أو اجتماعي. هذا المزيج - بين التكفير الفقهي والتخطيط العملياتي - فتح الباب لظهور الجيل الأكثر عنفًا من التنظيمات المسلحة.

على تمثال حافظ الأسد
يقف مقاتل من فصائل المعارضة للحكومة السابقة، على تمثال حافظ الأسد في دمشق، / ٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٢٤.
• المصدر: وكالة فرانس برس

من هنا، لم يكن الانتقال إلى "فقه الدم" مجرد انزلاقٍ تدريجي، بل كان نتيجة منطق داخلي متسلسل. حين يبدأ العالم بمنظار ثنائي، ويتحوّل المجتمع إلى مساحة للاختبار العقائدي، يصبح العنف امتدادًا طبيعيًا لذلك الخلل في الرؤية. ويغدو استباحة الأرواح مجرد تطبيق "عملي" لفكرة "الفرقة الناجية"، لا شذوذًا عنها.

وهكذا انطلقت الحركات الجهادية نحو مشروع يختزل القرآن الكريم في "آية السيف"، ويرى أنّ السيف ليس وسيلةً اضطرارية، بل جزءٌ من طبيعة الإيمان نفسه ومعيار له، فمن لا يستجيب للجهاد، وإن لم يكن قادرًا، في نفسه نفاق وشرك.

في هذا السياق، كانت سورية، عند انفجار المواجهات المسلحة، ساحة مثالية لالتقاء كل هذه الخطابات. فالدولة المتصدّعة، والمؤسسات المنهارة، والنسيج الاجتماعي الممزق، والتحريض الإقليمي الواسع، كلّها شكّلت بيئة مناسبة لتسرّب هذا الفكر من الكتب إلى الأرض. ومع دخول العناصر المدربة في العراق وأفغانستان، أصبحت الساحة السورية امتدادًا طبيعيًا لمخيال الجهاد العالمي. فقد وردها وفق إحصائيات المعهد الإسكندنافي لحقوق الإنسان والمرصد السوري لحقوق الإنسان: قرابة ١٢٠ ألف مقاتل أجنبي من أكثر من ستين جنسية، طرحوا بأعلى الصوت أنهم ضد الدولة الوطنية وضد مفهوم المواطنة الغربي واعتبروا الديمقراطية كفرًا وشركًا.

> نشأت الجهادية المعاصرة من تدهور الخطاب السلفي وتمسكه بتفسيرات حرفية للنصوص، مما أفرغ فكرًا متطرفًا قائمًا على التكفير ورؤية ثنائية للعالم (مؤمن/كافر).

لم تكن الجماعات التي ظهرت -ومنها جبهة النصرة- ثمرة الساحة السورية وحدها، بل امتدادًا مباشرًا لأزمة عميقة في الفكر الإسلامي السياسي والجهادي. أزمةٌ تنتمي جذورُها إلى عقود من سوء التأويل، وإلى غياب مشروع إصلاحي قادر على إعادة بناء العلاقة بين الدين والمجتمع على أسس عقلانية. ومع تراكم هذا العطب الفكري، تحوّل النص -الذي كان يفترض أن يكون إطارًا للهداية- إلى ذريعة للقتل، وإلى حاضنة للعنف المفتوح.

كان هذا الإرث الفكري هو الذي مهّد لكل ما سيأتي لاحقًا:

من فقه الذبح والقتل، إلى "إدارة التوحش"، إلى بناء التنظيمات المسلحة ذات الطابع العابر للحدود. وهو الإرث الذي ستتخذ منه جبهة النصرة لاحقًا هويةً فكرية وأداةً عملية لتثبيت النفوذ والهيمنة. وهكذا، قبل أن تظهر النصرة على الأرض، كانت بنيتها النظرية مكتملة:

فكرٌ تكفيري واضح، وشرعية قائمة على العنف، ورؤية لِلعالم تُقصي الجميع. ومع دخول عناصر القاعدة إلى سورية، وبدء عملية التأسيس الأولى للتنظيم، لم تكن النصرة بحاجة إلى "بناء نظري" جديد: فقد جاءتها كل الأدوات جاهزة من خزائن الفكر الجهادي المتراكم.

بهذا يصبح فهم نشأة النصرة واستراتيجياتها وتحوّلاتها مرتبطًا بشكل عضوي بفهم هذا الإرث الفكري. فلا يمكن قراءة التجربة السورية بمعزل عن التاريخ الطويل للتطرف الديني، ولا يمكن تحليل ممارسات النصرة دون الغوص في جذور الفكر الذي جعل العنفَ مقدّسًا، والقتلَ طاعةً، والتوحشَ وسيلةً لإقامة السلطة.

ملامح "فقه الدم" وصناعة التوحش

لم يكن تطور الفكر الجهادي نحو العنف الأقصى مسارًا طارئًا أو حالة انفعالية مرتبطة بلحظات الغضب السياسي؛ بل جاء نتيجة سلسلة طويلة من التحولات التي أعادت تعريف القتال بوصفه قيمة مركزية، لا مجرد خيار ضمن أدوات المواجهة. ما يُسمّى اليوم بـ"فقه الدم" ليس سوى حصيلة لقراءات اختزلت النصوص الدينية إلى ذرائع قتالية، وغذّت خيالًا جماعيًا يتعامل مع العالَم بوصفه ساحة حرب دائمة. هذا الفقه، كما يظهر من استعراضه في مصادره الأصلية، لا يكتفي بتبرير العنف، بل يبني له شرعية واسعة تجعله واجبًا، وتُشيطن كل ما عداه.

١. تدوين القتل: من النص إلى العقيدة

لقد أعاد منظّرو السلفية الجهادية إنتاج النصوص التاريخية المتعلقة بالقتال في سياقات الفتوحات الأولى، واعتمدوا مراجع وأحاديث تدعم أيديولوجيتهم بغض النظر عمّا إذا كان يوجد إجماع

على كونها أحاديث ضعيفة أو موضوعة. وعمّموا أحكامَها على واقع مركّب لا يشبه تلك الأزمنة في شيء. وبمرور الزمن، لم يعد الحديث عن القتل يرتبط بالحاجة أو الضرورة، بل صار "مبدأ تأصيليًا" يؤكد نقاء العقيدة وصلابة حاملها.

حين يتحوّل الفعل العسكري إلى "عبادة"، يفقد النقاش الأخلاقي معناه: فالعنف هنا ليس خيارًا، بل طريقًا للخلاص، وعنصرًا في بناء الهوية الجهادية نفسها.

هكذا يتشكّل تصور يرى أن الرأفةَ ضعف، وأن ضبط النفس تراجع عن الحقّ، وأن الحدود الأخلاقية التي تحكم الصراعات الحديثة مجرد بدع لا وزن لها.

لقد جرى تدوين هذا الفقه في أدبيات واضحة، تُشرعن كل الممارسات التي استقبحها التاريخ البشري: الذبح، التمثيل، القتل بالغيلة، حرق الخصوم، استباحة المدن، بل والإبادة الجماعية تحت عنوان "تطهير الطريق للتمكين". ومن هنا تخرج فتاوى تُحوّل الموت إلى لغة، وتُعيد صياغة العلاقة بين الإنسان والعالم على أساس القوة وحدها.

٢. استباحة المدنيين: سقوط الخط الفاصل

كان من أخطر التحولات التي حملها هذا الفقه سقوط التمييز بين المقاتل والمدني. فالفكر الجهادي -عبر تأويلاته المتشددة- لم يعد يرى المجتمع كتكوين بشري متنوع، بل ككتلة واحدة تُقاس بمدى خضوعها. أما المدني، فوجوده لا يحمل صفةَ القداسة أو الحرمة؛ فهو إما تابع للطاغوت وإما متواطئ معه، وفي الحالتين يصبح هدفًا مشروعًا.

وتؤدي هذه الرؤية إلى نزع الإنسانية عن الآخر، وتحويل أماكن التجمعات المدنية إلى أهداف مفتوحة. ولم تكن هذه الممارسات انحرافات ميدانية، بل تطبيقًا حرفيًا لفقهٍ مكتوب يضع

سيد قطب

سيد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي (١٣٢٤- ١٣٨٧ هـ / ١٩٠٦- ١٩٦٦ م)، كان أديباً بارزاً وكاتباً ومنظراً إسلامياً مصرياً. تولى سيد قطب دور القائد الأيديولوجي للأصولية في حركة الإخوان المسلمين خلال سبعينيات القرن العشرين.



"المصلحة الجهادية" فوق كل اعتبار. لذلك جرى استهداف المدارس والمشافي والأسواق بحجّة أنها "تخدم العدو"، وهو منطق يُلغي الفرق بين الفعل العسكري والإبادة.

٣. تحويل القتل إلى قيمة رمزية

تُصبح القوة -في المنظور الجهادي- معيارًا للتفوق الإيماني. القتل ليس فعلاً وظيفيًا، بل "بيان قوة" يؤكد حضور الجماعة وصلابة الإيمان لدى أفرادها. وقد تحوّل مشهد الذبح أو التفجير الانتحاري إلى رمز يُستعمل ضد الخصوم وضد السكان على حد سواء.

وبذلك يصبح العنفُ لغة سياسية، وأداة للهيمنة، ووسيلة لتوجيه رسائل داخلية وخارجية:

رسالة إلى الخصوم مفادها أن لا حدود للردع، ورسالة إلى الأتباع مفادها أن الانتماء للجماعة لا يكتمل إلا بتجربة الدم.

هذه المنظومة الرمزية جعلت من مشاهد العنف جزءًا من الوعي الجمعي داخل الحركات الجهادية، ورفعت من منزلة المنفذ، وساوت بين الشجاعة وقدرة الإنسان على إزهاق الأرواح بلا تردد.

> لقد أعاد منظّرو السلفية الجهادية إنتاج النصوص التاريخية المتعلقة بالقتال في سياقات الفتوحات الأولى، واعتمدوا مراجع وأحاديث تدعم أيديولوجيتهم بغض النظر عمّا إذا كان يوجد إجماع على كونها أحاديث ضعيفة أو موضوعة

٤. الجهاز الفقهي كغطاء للعنف المفتوح

لم يكن انتشار هذا الفكر ممكنًا لولا وجود "شرعيين" يتولون مهمة الإفتاء وتقديم المبررات الدينية للقتل. هؤلاء الشرعيون لم يكونوا مجرّد ناقلين لتراث فقهي، بل أدوات تنظيمية خُلقت لتضفي الشرعيةَ على كل قرارٍ عسكري مهما كان وحشيًا.

لقد تحوّل الفقه هنا من عِلم يبحث في الحكم والمصلحة إلى منظومة مغلّقة تمنح الغطاء للعنف وحده، وتُسقِط كل تراث الاجتهاد الأخلاقي من حساباتها.

وهكذا، كلما تورّطت الجماعة في مزيد من الدم، احتاجت مزيدًا من "الشرعية"، وكلما توسّع الفقه في التبرير، توسع التنظيم في الممارسة.

إن العلاقة بين العنف والفقه التكفيري علاقةٌ دائرية مغلقة: فالعنف يغذّي الفقه، والفقه يعيد إنتاج العنف.

٥. كيف شكّل هذا الفقه بنيات التنظيمات المسلحة؟

حين دخلت التنظيمات الجهادية إلى الساحة السورية، كانت محمولة على هذا الإرث بكل ثقله. وعليه، فقد كانت ممارساتها نتيجة طبيعية لهذه النظرية وليست انحرافًا عنها.

تظهر آثار الفقه التكفيري في:

بنية القيادة المغلقة

مركزية القوة الأمنية، انعدام التسامح داخل التنظيم نفسه، سهولة اللجوء للقتل عند الخلاف الداخلي، حجم الانشقاقات التي هددت كل الكيانات الجهادية، التعامل مع المجتمع بمنطق "الغلبة" لا "الشراكة"

وهكذا أصبح صعود جبهة النصرة واستقرارها لاحقًا جزءًا من مشهد أوسع، تتقدّم فيه العقيدة العنيفة على العمل السياسي، وتتحوّل الجماعة المسلحة إلى كيان فوق المجتمع لا يتعامل معه إلا بمنطق الإخضاع.

أبو مصعب السوري، منظّر الجهاد الفردي وبناء "الذئاب المنفردة"

يُعدّ أبو مصعب السوري أحد أبرز العقول التي أعادت تشكيل الفكر الجهادي في العقود الأخيرة. فالرجل لم يكن مجرد منظّر يكتب على هامش التنظيمات، بل صاحب مشروع كامل يسعى إلى إعادة هندسة الحركة الجهادية من جذورها. وإذا كان الفقه التكفيري قد وفّر الأساس الشرعي للعنف، فإن أبو مصعب قدّم له الإطار العملياتي الذي سمح بانتشاره وانتقاله من التنظيمات الهرمية إلى الأفراد، ومن ميادين الصراع التقليدية إلى ساحات جديدة لا يمكن ضبطها.

١. الجهاد اللامركزي: قلبُ الفكرة

المحصلة المركزية في مشروع أبو مصعب هي رفض المركزية التنظيمية. فالقاعدة بنظره فشلت ليس لأنها ضعيفة أو قليلة العدد، بل لأنها بَنَت



مقاتل من جبهة النصرة يقاتل قوات الأسد في مخيم اليرموك للاجئين.
• المصدر: وكالة فرانس برس / رامي السيد

بُنية هرمية مكشوفة يمكن استهدافها بسهولة. ويقدّم هنا مفهوم "الجهاد اللامركزي" أو "نظام الخلايا" أو حتى "الفرد المجاهد" بوصفه البديل الأكثر قدرة على البقاء.

هذا التحوّل جذري: فهو ينقل الفعل الجهادي من نطاق الجيوش والتنظيمات إلى نطاق الأفراد المجهولين الذين يصعب تعقّبهم. الفرد هنا ليس تابعًا بالمعنى التقليدي، بل هو حامل للفكرة، مندمج في المجتمع، قادر على الضرب متى شاء وكيفما شاء، دون أن يترك خلفه شبكة يمكن رصدها.

لقد فتح هذا التحول البابَ أمام مرحلة جديدة من العمل الجهادي، تتجاوز القيود الميدانية وتستغل الهشاشة الأمنية للدول، وتُربك أجهزةَ الاستخبارات، وتجعل المواجهة مع "العدو" مفتوحة بلا حدود.

٢. نقد التجارب الجهادية السابقة

يرى أبو مصعب أن التجارب الجهادية التقليدية -من أفغانستان إلى الجزائر إلى الشيشان- سقطت في ثلاثة أخطاء رئيسية:

التنظيم الصارم: أي الاعتماد على بنية هرمية يمكن ضرب رأسها.

التمركز الجغرافي: حيث تصبح مناطق السيطرة أهدافًا سهلة.

التسييس المبكر: أي الانخراط في مفاوضات أو مشاريع سلطة قبل استكمال بناء "الطائفة المجاهدة".

هذه القراءة جعلت من كتاباته رحلة نقد ذاتي للحركة الجهادية بأسرها، لكنها في الوقت ذاته فتحت البابَ لتيار أعنف وأكثر قدرة على التكيف.

٣. "الطائفة المنصورة": عقيدة الانفصال عن المجتمع

يستعيد أبو مصعب مفهوم "الطائفة المنصورة" ويعيد تقديمه بوصفه نواة الجماعة الجهادية المعاصرة. والمقصود بالطائفة هنا ليس جماعة دينية لها حدود فقهية واضحة، بل كتلة بشرية عقائدية ترى نفسها ممثلة للإسلام الحقيقي، مقابل مجتمع "منحل" فقد أصالته.

وبهذا يتحول المجتمع إلى قيد، وتتحول الطائفةُ إلى بديل عنه. كان لهذه الفكرة أثر عميق عندما

وصلت إلى سورية. فمع تفكك البنية الاجتماعية وانهيار مؤسسات الدولة، وجدت الجماعات الجهادية في هذه النظرية أساسًا تبني عليه سلطتها. وبدأت عملية فرز واسعة:
من هو مع جماعة المؤمنين؟ ومن هو مع "المجتمع الفاسد"؟

٤. خريطة العدو: الواقع كله ميدان صراع

يقدّم أبو مصعب خارطة واسعة للأعداء، تشمل: الأنظمة السياسية في العالَم العربي، القوى الغربية، المؤسسات الدينية التقليدية، الحركات الإسلامية التي تقبل المشاركة السياسية، المثقفين المدنيين، وحتى قطاعات واسعة من المجتمع. ومع هذا الاتساع، يتحوّل العالَم إلى "ميدان واحد" من المعركة، ويُفقد أي إمكانية للتهدئة أو المصالحة أو بناء السياسة.
كل شيء يصبح مادة للصراع، وكل مساحة هي "ساحة جهاد".

> و إذا كان الفقه التكفيري قد وفّر الأساس الشرعي للعنف، فإن أبو مصعب قدّم له الإطار العملياتي الذي سمح بانتشاره وانتقاله من التنظيمات الهرمية إلى الأفراد، ومن ميادين الصراع التقليدية إلى ساحات جديدة لا يمكن ضبطها

٥. أثر الفكر المصعبي في التجربة السورية

عندما بدأت الحرب السورية، وجد خطاب أبو مصعب بيئة ملائمة. فقد وصل عدد من تلامذته أو المتأثرين به إلى الساحة السورية، وحملوا معهم فكرة الجهاد الفردي واللامركزي.
وقد ظهرت تجليات هذا الخطاب في: انتشار الاغتيالات النوعية، اعتماد الخلايا الصغيرة، الحدّ من العمل المكشوف، تعزيز الجهاز الأمني داخل التنظيمات، التعامل مع المجتمع بمنطق الشك الدائم، تفضيل الضربات المفاجئة على المعارك الطويلة. وبهذا امتزج الإرث الفقهي التكفيري بالعقل العملياتي الذي صاغه أبو مصعب، ليتشكّل الإطار العمليّ الذي تحركت ضمنه جبهة النصرة لاحقًا.

٦. من النظرية إلى التطبيق في بنية النصرة

لقد طبّقت النصرةُ عددًا من مبادئ أبو مصعب دون إعلان كامل، ومن أبرزها:، تجزئة العمل إلى مجموعات صغيرة، الحدّ من ظهور القادة، الاعتماد على الأجهزة الأمنية، إخفاء الخطط عن المقاتلين العاديين، التعامل مع السكان بوصفهم "بيئة تهديد"، استخدام وسائل التفجير الفردي في مراحل متعددة.
هذه العناصر جعلت النصرةَ أكثر قدرة على البقاء من غيرها من الفصائل، لكنها في الوقت نفسه جعلتها أكثر توحشًا وانغلاقًا.

أبو عبد الله المهاجر: فقه الإبادة والقتال بلا حدود

شكّل أبو عبد الله المهاجر محطّة مفصلية في تطور الفكر الجهادي نحو أقصى درجات العنف. و إذا كان أبو مصعب السوري قد أعاد توزيع العمل الجهادي على الأفراد والخلايا اللامركزية، فإن المهاجر أعاد صياغة "القتال" ذاته، ليس بوصفه فعلاً عسكريًا مقيدًا بشروط، بل بوصفه مركز العقيدة كلها.
في كتاباته، كما يستعرضها الكتاب، لم يعد العنف امتدادًا للصراع السياسي، بل غايةً دينية في ذاتها، و إحدى علامات "صدق الإيمان". وهكذا ينتقل الفقه من خانة الإرشاد إلى خانة التحريض، ومن ضبط السلوك إلى إطلاق العنان للقتل.

١. الإلغاء الكامل للحدود الأخلاقية في القتال

يرى المهاجر أن كل الأدوات مشروعة إذا كانت تخدم هدف "رفع كلمة الله".
تسقط الحدود الفقهية التي ميّزت عبر قرون بين المقاتل وغير المقاتل، ويتلاشى التفريق بين "أهل الحرب" و"أهل الذمة"، ويختفي الاعتبار الإنساني المتعلق بالضعفاء والنساء والأطفال.
وبهذا ينقلب الفقه إلى منظار يرى العالَم كله ساحة معركة، وتصبح "الأضرار الجانبية" -الذي تتجنبها الجيوش النظامية- جزءًا من "الضرورة الشرعية".
تحت هذا التأويل، كل ما يمكن أن يُستخدم يُفترض أنه مباح:
التفجيرات في الأسواق، تدمير البنية التحتية، قصف المدارس، الاغتيالات الممنهجة، استخدام المواد السامة... بل يتحدّث المهاجر حتى عن إمكانية استخدام السلاح الجرثومي والكيميائي والنووي إذا كان يؤدي إلى "تحقيق المصلحة الكبرى".

إنه فقه خارج التاريخ، يعيد قراءة كل ما في التراث من فصول العنف ليحوّله إلى عقيدة تامة، دون مراعاة للسياق أو المقاصد أو أصول الاجتهاد.

٢. شرعنة القتل الجماعي بوصفه "ضرورة"

يقدّم المهاجر تصورًا يعتبر أن المجتمع الذي لا يطبّق "حكم الله" قد دخل في حالة "ردّة جماعية". وبناء على ذلك، يصبح استهدافه جزءًا من "التطهير".

ويمهد هذا الفهم لطبيعة العمليات التي ستنفذها الجماعات الجهادية لاحقًا، حيث يتم ضرب الأحياء السكنية أو الحواجز المختلطة دون تردد.

لا يعود السؤال هنا: "هل يجوز قتل المدني؟" بل يصبح السؤال: "هل يحقق قتله مصلحة أكبر؟" والمصلحة هنا ليست سياسية أو اجتماعية، بل رمزية: إظهار القوة، نشر الخوف، وتأكيد هيبة التنظيم.

٣. "الحرب خدعة": إعادة تعريف الخداع والغدر

يتعامل المهاجر مع قاعدة "الحرب خدعة" بوصفها أصلًا من أصول التعامل، لا مجرد تكتيك محدود.

وبذلك يُشرعن ما يلي: الاغتيال من الخلف، التنكر بزي الخصوم، تقديم الوعود بالغفران ثم نقضها، اختراق المجموعات المحلية وقتل أفرادها، استدراج الخصم بحيل أمنية، استخدام الجواسيس والخلايا النائمة.

هذا الفهم أوجد نموذجًا أكثر خطورة من الحرب التقليدية، حيث لا تعود هناك قواعد ولا أخلاق ولا خطوط حمراء، بل يتحول الغدر إلى "بطولة"، والخديعة إلى "فعل مشروع".

٤. اقتصاد القتال: الاستحلال والجباية

لا يقف إرث المهاجر عند حدود الدم، بل يتسع ليشمل المال أيضًا.

فالأموال -وفق تأويلاته- لا حرمة لها إذا كانت



أعضاء من جبهة النصرة التابعة لتنظيم القاعدة يستعدون لإطلاق قذيفة هاون باتجاه القوات الموالية للرئيس السوري بشار الأسد في مزارع الملاح، شمال حلب، بتاريخ ١٨ فبراير/ شباط ٢٠١٥.
● المصدر: رويترز / حسام قطان

بيد "المرتدين" أو المعادين للمشروع الجهادي.
وبذلك تُفتح أبواب: مصادرة الممتلكات، نهب البيوت، فرض الإتاوات، السيطرة على الموارد، الجباية القسرية.
وقد شكّل هذا الفقه الأساس الاقتصادي الذي بنت عليه النصرةُ لاحقًا نموذجها المالي، من الضرائب وحواجز الطرق والمعابر، إلى السيطرة على التجارة والإغاثة.

٥. تسييل القتال: الحرب كغاية لا وسيلة

يعيد المهاجر تفسير "الجهاد" بوصفه حالة دائمة تتجاوز الواقع السياسي. فالقتال لا يُمارس للوصول إلى تسوية أو إقامة سلطة عادلة، بل يُمارس لأنه "علامة الإيمان".

> يتعامل المهاجر مع قاعدة "الحرب خدعة" بوصفها أصلًا من أصول التعامل، لا مجرد تكتيك محدود

وهكذا تُلغى فكرة التدرج، وتُلغى السياسة، وتصبح "الفوضى المسلحة" حالة مطلوبة لإرباك الخصوم وتمهيد الأرض لـ"التمكين". هذا المنظور يجعل الحرب أفقًا نهائيًا، ويمنع التنظيمات من التحول إلى مشاريع سياسية مستقرة.
فحيثما تُقام السلطة، يجب أن تبقى "على حافة الحرب"، لأن السكون تهديد للهوية الجهادية.

٦. أثر إرث المهاجر على بنية النصرة

حين اندلعت الحرب السورية، حمل المقاتلون القادمون من العراق وأفغانستان هذا الفقه معهم، ودخلت النصرة منذ أيامها الأولى بهذا المزاج: نزوعٌ للعنف، جاهزية للقتال بلا ضوابط، قابلية للإبادة تحت مسميات دينية.
تأثرت النصرةُ، كما يوضح الكتاب، بهذا الإرث في: عمليات التصفية ضد الفصائل الأخرى، إدارة السجون، بناء الجهاز الأمني، التعامل مع السكان المحليين، تكتيكات الاغتيالات، السيطرة على الموارد، فرض الهيمنة على المناطق. لقد صنعت تعاليم المهاجر ذهنية كاملة، ذهنية ترى أن التنظيم ليس واحدًا من الفاعلين في الساحة، بل القوة الوحيدة المخولة بإدارة الحياة.
وحين تجتمع هذه الذهنية مع إرث أبو مصعب السوري في اللامركزية والذئاب المنفردة، يُولد ما شهدته سورية لاحقًا: تنظيم شديد العنف، شديد السرية، شديد القدرة على المناورة.

إدارة التوحش: من الفوضى إلى السيطرة بالعنف

جاء مفهوم "إدارة التوحش" ليشكّل نقطة التحوّل الأخطر في الفكر الجهادي المعاصر، فهو لا يُقدّم خطةً للقتال فقط، بل مشروعًا متكاملًا لإعادة تشكيل المجتمع والدولة من خلال الفوضى.
في هذا النموذج، لا يُنظر إلى انهيار المؤسسات بوصفه كارثة، بل باعتباره مدخلًا ضروريًا لقيام السلطة الجهادية.
وبينما ينشغل العالَم بمفاهيم الاستقرار وإعادة الإعمار، يعيد منظّرو التوحش بناء العقيدة القتالية على فكرةٍ معاكسة تمامًا: لا بد من المرور عبر الفوضى كي تُقام "الدولة".
هذا التصور لم يكن مجرد تنظير، بل تحول إلى دليل عمل شكّل الخلفيةَ العَمَلية التي تحركت في ضمنها النصرةُ وسائر الجماعات الجهادية في سورية.

١. التوحش كمرحلة مقصودة لا كأزمة عارضة

ليس التوحش في هذا النموذج حالة اضطرارية، بل مرحلة مستهدفة.
يُفترض أن تنهار المنظومة المدنية حتى آخر حدودها، وأن يغيب القانون، وأن تُفكك البنيةُ الاجتماعية نفسَها.
عندها فقط، تصبح الجماعة الجهادية قادرة على تقديم نفسها كبديل:
تركب فوق الخراب، وتظهر كقوة "منظمة" وسط الفوضى، رغم أن هذه الفوضى هي، في الأصل، جزء من عملها.
يتعامل هذا الفكر مع الإنسان في لحظات الذعر بوصفه مادة قابلة للتشكيل. فحين تختفي الدولة، ويغيب الأمان، وتنتشر العصابات، يصبح السكانُ مستعدين -تحت ضغط الخوف- للقبول بأي سلطة تفرض عليهم الحد الأدنى من الاستقرار، حتى لو جاءت عبر السلاح.
وهكذا يصبح التنظيم صاحب اليد العليا، لا لأنه يملك شرعية، بل لأنه يملك القدرة على فرض النظام بالقوة.

٢. مناطق التوحش: حين يصبح الفراغ السياسي فرصة

يحدد هذا المشروع مناطق يُرجّح أن تنهار فيها



عضو في جبهة النصرة التابعة لتنظيم القاعدة يمر بجانب جثث، قالت الجبهة إنها تعود لأفراد من القوات الموالية للرئيس السوري بشار الأسد، وذلك بعد اشتباكات عنيفة في مزارع الملاح شمال حلب، بتاريخ ١٨ فبراير/شباط ٢٠١٥.
• المصدر: رويترز / حسام قطان

السلطة المركزية، كالأرياف الداخلية، والمناطق الحدودية، والمجتمعات المهمشة.

وعندما اندلعت الحرب السورية، توافرت الظروف المثالية لظهور "الفراغ": انحسار الدولة، انقسام الفصائل، غياب الأمن، تدفق السلاح، وانهيار الملف الخدمي. كانت هذه البيئة هي الأرض الخصبة التي تحركت فيها النصرة، ولم تكن بحاجة إلى بناء الدولة، بل إلى ملء الفراغ.

ولهذا بدت في العديد من المراحل وكأنها أكثر "قدرة" من غيرها، ليس لأنها تمتلك مشروعًا، بل لأنها أتت بالمشروع الذي يجيد التعامل مع الفوضى بوصفها أصلًا لا شذوذًا.

٣. الحاجة إلى سلطة قاسية (الشرعية بالعنف)

في مرحلة التوحش، يكون السكان -كما يرى مخططو النموذج- في حاجة ماسّة إلى "اليد القوية".

والقائد الذي يفرض النظام بالقسوة، ولو على حساب العدالة، يصبح مقبولًا أكثر من القائد المتردد.

هكذا تتحول السلطةُ إلى مزيج من الردع والتغوّل، ويصبح العنفُ هو الأداة التي تمنح الشرعية، لا الانتخابات ولا العقد الاجتماعي.

وقد ظهر هذا النموذج بوضوح في المناطق التي سيطرت عليها النصرة.

فالهيمنة لم تُبنَ على القواعد، بل على: الاعتقالات، الإعدامات السريعة، تصفية الخصوم، انتشار الجهاز الأمني، فرض الضرائب بالقوة، إنهاء كل مظاهر التعدد داخل البيئة المحلية، وحين تتجهز الجماعة بهذه الأدوات، لا تعود بحاجة إلى رضا السكان، بل إلى إخضاعهم.

٤. النتائج الاجتماعية والنفسية لإدارة التوحش

تحوّل "التوحش" في التجربة السورية من مرحلة عسكرية إلى نمط حياة. فالخوف المستمر يفتت الروابط الاجتماعية، ويُضعّف الثقةَ بين الناس، ويحوّل كل فرد إلى مشروع متهم. ومع الوقت، تتكسر آليات التضامن التقليدية داخل المجتمع، ويصبح الناس أكثر انقيادًا للسلطة المسلحة، مهما كانت قاسية.

خلق هذا النموذج مناخًا نفسيًا يعاني من: القلق المستمر، صدمة الحرب، إدراك هشاشة الحياة، فقدان الثقة بالجيران والغرباء، نشوء مجال عام مبني على الخضوع والريبة، وهكذا، لم تكن إدارة التوحش مجرد خطة قتالية، بل مشروعًا يعيد

تشكيل الوعي الاجتماعي تحت ضغط السلاح.

٥. كيف استثمرت النصرة نموذج التوحش؟

طبقت النصرة هذا النموذج بشكل كامل تقريبًا، فقد انتقلت في مناطق سيطرتها من مرحلة "النكاية" إلى مرحلة "الإدارة"، ووضعت يدها على مفاصل الحياة المدنية، عبر: إدارة القضاء الشرعي، إنشاء جهاز أمني مغلق، بناء شبكة من السجون، احتكار العمل الإغاثي، السيطرة على المعابر، فرض الضرائب والإتاوات، القضاء على الفصائل المنافسة. لم تكن هذه الإجراءات خطوات عشوائية، بل تطبيقًا حرفيًا لإستراتيجية "إدارة التوحش" كما صاغها منظّرو الجهاد العالمي. فالتنظيم، لا يسعى إلى بناء دولة طبيعية، بل إلى بناء سلطة تحتكر كل شيء، مستفيدة من غياب البديل.

> جاء مفهوم "إدارة التوحش" ليشكّل نقطة التحوّل الأخطر في الفكر الجهادي المعاصر، فهو لا يُقدّم خطةً للقتال فقط، بل مشروعًا متكاملًا لإعادة تشكيل المجتمع والدولة من خلال الفوضى. في هذا النموذج، لا يُنظر إلى انهيار المؤسسات بوصفه كارثة، بل باعتباره مدخلًا ضروريًا لقيام السلطة الجهادية

٦. ارتباط نموذج التوحش بالجماعات الجهادية عالميًا

لم يكن التوحش خاصًا بالساحة السورية، بل هو امتداد لمنهج عالمي نشأ في أفغانستان والعراق وازداد حدّة بعد ٢٠٠٣. لكن سورية -بما فيها من انهيار شامل- كانت المكان النموذجي لتطبيقه عمليًا. وهكذا، أصبحت النصرةُ -بكل ما حملته من تكوينات فقهية وتنظيمية- جزءًا من مشروع عالمي يرى أن الفوضى ليست استثناءً، بل محطة ضرورية لقيام السلطة الجهادية. ومن الضروري التذكير بفتوى الظواهري بعد احتلال العراق وتوجه مقاتلين لمحاربة المحتل الأمريكي التي اعتبرت سورية: أرض عبور لا أرض ثغور ومواجهة. والتي بقيت معتمدة من تنظيم القاعدة حتى نهاية ٢٠١١.

نشأة جبهة النصرة: البنية، التكوين، والانشقاقات

لم تولد جبهةُ النصرة من رحم الحراك السوري الداخلي، بل جاءت -كما يبيّن مسار تشكّلها- امتدادًا لمشروع جهادي إقليمي سبق الحربَ بسنوات. فالساحة السورية كانت، بالنسبة لقيادة القاعدة في العراق، فرصةً ذهبية لإعادة الانتشار بعد الضربات العنيفة التي تلقّتها هناك. ومن ثمّ جاء القرار بنقل جزء من الخبرة والكوادر إلى سورية تحت يافطة جديدة: "جبهة نصرة أهل الشام".

١. التفويض الأول: من القاعدة في العراق إلى الجولاني في سورية

تشير مسارات التشكّل إلى أن انطلاق النصرة لم يكن مبادرة فردية من أحمد الشرع (أبو محمد الجولاني)، بل تفويضًا مباشرًا من قيادة القاعدة في العراق. فالرجل كان قد شارك في العمل الجهادي في العراق، واكتسب ثقة الدائرة القريبة من أبي بكر البغدادي، ما جعله مرشحًا مناسبًا ليكون "واجهة سوريّة" لمشروع يريد أن يتغلغل في البنية المحلية دون أن يبدو غريبًا عنها.

حملت البنية الأولى للنصرة، منذ لحظة ولادتها، بصمات هذا الأصل العراقي: شبكة علاقات مع مخضرمين جهاديين، موارد مالية وسلاح وخبرات أمنية جاهزة، تصور واضح للساحة بوصفها امتدادًا لجبهة القتال مع "الطاغوت". فَهْم مسبَق لكيفية استثمار الفوضى والانهيار المؤسسي. لم تبدأ النصرةُ من الصفر، بل جاءت إلى سورية بعناصر مجربة أهمها الخلية الأولى القادمة من العراق وبتكليف مباشر من البغدادي.

٢. صيدنايا: السجن الذي خرجت منه النواة الصلبة

شكّل سجن صيدنايا واحدًا من أهم المَصانع التي أفرزت الكوادر الأولى لجبهة النصرة.

في هذا السجن اجتمعت تيارات جهادية مختلفة، خاضت حوارات قاسية، وانقسمت وتصارعت ثم تلاقت على رؤية مشتركة تقوم على: تكفير الأنظمة، رفض أي تسوية سياسية، تفضيل الحسم العسكري على العمل المدني، تعظيم تجربة القاعدة في العراق وأفغانستان. وبعد الإفراج عن عدد من السجناء مع بدايات الاضطراب في سورية، وجد هؤلاء في النصرة الإطار التنظيمي الأقرب لعقيدتهم، فالتفوا حولها أو انضموا إليها أو أسهموا في تشكيل فصائل سرعان ما ذابت في بنيتها.

٣. دور المهاجرين والعائدين من العراق وأفغانستان

لم تكن النصرةُ تنظيمًا سوريًا خالصًا. فمنذ البداية، دخل في بنيتها عدد كبير من المقاتلين العرب والأجانب بعضهم عائد من العراق، أو بقايا شبكات أفغانستان وباكستان، مقاتلون من الشمال الإفريقي والخليج وتركية والقوقاز، وهذا الخليط منح التنظيم خبرة قتالية متقدمة، وصلابة عقائدية متشددة، وارتباطًا عضويًا بمدرسة القاعدة الأم، وأكسبه قدرة على التعامل مع التمويل الخارجي وشبكات الدعم. لكنّه في الوقت نفسه جعله أقل اندماجًا في المجتمع السوري، وأكثر انفصالًا عن هموم الناس اليومية، وأكثر حرصًا على حماية المشروع الجهادي العابر للحدود من أي "ضغط محلي" يطال بنيته.

٤. التركيب القيادي: شرعيون، عسكريون، وأمنيون

تكوّنت القيادة العليا للنصرة من ثلاث دوائر رئيسية:

- الدائرة الشرعية: تتولى إنتاج الفتاوى، ضبط الخطاب، الفصل في الخلافات العقائدية، وتبرير القرارات الكبرى.
- الدائرة العسكرية: تدير الجبهات، التخطيط للهجمات، توزيع السلاح، وترتيب التحالفات الميدانية المؤقتة.
- الدائرة الأمنية: وهي الأخطر، تتولى الاختراق والمراقبة والاعتقال والتصفية، داخل التنظيم وخارجه.

هذه البنية الثلاثية جعلت التنظيم قادرًا على الصمود أمام الانقسامات والصراعات الداخلية لفترة أطول من غيره من الفصائل، لكنها جعلته أيضًا أكثر قسوة على أعضائه وبيئته، لأن الجهاز الأمني كان حاضرًا في كل زاوية، ولأن الشرعي كان جاهزًا لتبرير أقسى القرارات، ولأن العسكري ينفّذ دون مراجعة تُذكر.

٥. الانشقاق عن داعش: لحظة انكشاف الأصول

مع إعلان البغدادي قيام "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، انكشفت العلاقة العضوية بين



أول ظهور إعلامي لأبي محمد الجولاني في عام ٢٠١٦.
● المصدر: بلقيس برس/ سيبا عبر صور الأسوشيتد برس

النصرة والقاعدة في العراق. فالنصرة، التي ظهرت في البداية كتنظيم مستقل، تبيّن أنها كانت في حقيقتها "فرعًا" تم تكليفه بساحة محددة، قبل أن يقرّر هذا الفرع أن يمتلك قراره بنفسه. رفض الجولاني الاندماج في الكيان الجديد، وفضّل إعلان الولاء المباشر لأيمن الظواهري، ما أدى إلى انقسام حاد في الصفوف وانتقال عدد من القيادات والعناصر إلى داعش، ونشوب معارك دامية بين الطرفين، وسقوط غطاء "الوحدة الجهادية" لصالح تنازع على السلطة والموارد.

كانت تلك اللحظة فرصة لاختبار مدى تماسك النصرة، وقدرتها على إعادة إنتاج نفسها كتنظيم مستقل، بعد أن انقطعت رسميًا عن أصلها الأول.

> لم تكن النصرةُ تنظيمًا سوريًا خالصًا. فمنذ البداية، دخل في بنيتها عدد كبير من المقاتلين العرب والأجانب بعضهم عائد من العراق، أو بقايا شبكات أفغانستان وباكستان، مقاتلون من الشمال الإفريقي والخليج وتركية والقوقاز

٦. إعادة التشكّل بعد الانشقاق

خرجت النصرة من صدامها مع داعش مثخنة، لكنها لم تسقط. فقد أعادت بسرعة ترتيب أوراقها: شدّدت من مركزية قيادة الجولاني، وعززت جهازها الأمني لمنع أي انشقاق جديد، كذلك لجأت إلى خطاب أكثر محلية (نصرة أهل الشام)، استثمرت في علاقاتها الإقليمية وشبكات التمويل، دخلت سلسلة تحالفات مع فصائل سورية أخرى، ثم تخلصت من معظمها لاحقًا.

التمويل والولاءات: اقتصاد الحرب ومعادلات الانتماء

لا يمكن قراءة مسار جبهة النصرة دون فهم بنيتها المالية، إذ لم يكن التنظيم مجرد كيان عقائدي يعيش على الحماسة الإيمانية، بل جهازًا متشعبًا يستند إلى موارد اقتصادية متنوعة، تتيح له الاستمرار في القتال، وتمنحه القدرة على جذب المقاتلين وشراء الولاءات، داخل سورية وخارجها.

١. التمويل الأول: هدية القاعدة في العراق

تشهد الرواية التي يعرضها الكتاب بأن النصرة ما كان يمكن أن تُولد بتلك القوة لولا الدعم المركزي الذي تلقته من القاعدة في العراق. ففي مراحلها الأولى، اعتمدت على: المال القادم عبر قنوات سرية مرتبطة بالبغدادي ودائرته، والسلاح الذي أُرسِل من مخازن التنظيم في العراق، والخبرة التنظيمية والأمنية المتراكمة خلال سنوات القتال هناك.

هذا الدعم جعل النصرةَ تختلف جذريًا عن الفصائل المحلية الناشئة، التي كانت تعتمد على التبرعات الصغيرة والموارد المحدودة.

ومنذ اللحظة الأولى، بدت النصرةُ كتنظيم "متمرس"، يمتلك القدرةَ على التخطيط وعلى الإنفاق، وعلى الاستمرار في المعركة دون أن يتوقف أمام عوائق التمويل.

٢. المال في يد الجولاني: مركزية القرار

أدرك الجولاني مبكرًا أن السيطرةَ على المال تعني السيطرة على التنظيم، لذلك حرص على أن تمر معظم الموارد المالية عبر يده أو عبر دائرة ضيقة موثوقة، بحيث لا تحصل الوحدات العسكرية على تمويل مستقل يتيح لها التمرد، وتبقى الرواتب والسلاح والغذاء مشروطة بالولاء للقيادة، وتُستخدم الأموال لبناء شبكة من القادة المقرّبين، كما يُكافأ الملتزمون بعقيدة التنظيم والمنفذون لأوامره.

ومع توسع نطاق التمويل، لم يعد المال مجرد وسيلة للاستمرار، بل أداة لإعادة هندسة خريطة الولاءات داخل النصرة، وضبط أي اتجاهات انفصالية أو محاولة لإقامة مراكز قوة موازية.

٣. التبرعات الخارجية وشبكات الدعم الخليجي

بعد الانشقاق عن داعش، احتاجت النصرة إلى تنويع مصادر تمويلها.

هنا برز دور شبكات التبرع الفردي في الدول الخليجية، بشكل أساسي التجمعات السلفية في قطر والكويت إضافة إلى جمعيات دينية ذات نشاط إغاثي معلَن. وارتباط خفي بالساحة السورية، رجال أعمال متعاطفون مع الخطاب الجهادي، وسطاء عملوا على نقل الأموال عبر مسارات معقّدة، تم تقديم جزء كبير من التمويل تحت عناوين إنسانية: منها إغاثة النازحين، بناء المستشفيات، دعم الأيتام. لكن النصرةَ كانت قادرة على تحويل جزء معتبر من هذه الموارد إلى خزانتها المالية والعسكرية والأمنية.



رجل يكسر قفل زنزانة في سجن صيدنايا العسكري السيئ السمعة في سورية، شمال دمشق، يوم الإثنين
• المصدر: أسوشيتد برس / حسين ملا

٤. اقتصاد الحرب: من الغنيمة إلى الجباية

تدريجيًا، لم تعد النصرة تعتمد فقط على المال الخارجي، فمع اتساع مناطق نفوذها، دخلت في مرحلة "الاقتصاد الذاتي"، من خلال السيطرة على المعابر والطرقات الرئيسية، فرض الرسوم على البضائع والشاحنات، الاستيلاء على مخازن الدولة السابقة، مصادرة ممتلكات الخصوم أو المهجّرين، فرض ضرائب على المحلات وأصحاب المهن، التحكم بجزء من المساعدات الإغاثية المرسلة إلى المنطقة.

لكن هذا الاقتصاد لم يكن منظّمًا بالمعنى المؤسساتي، بل خاضعًا لمنطق القوّة. وبهذا تحوّل المال إلى صورة أخرى من صور السلاح، يُستخدم لتثبيت الهيمنة على المجتمع، ولإخضاع الفصائل الأصغر، ولتغذية شبكة ولاءات داخلية تحيط بالقيادة.

٥. التمويل والبيعة: بين البغدادي والظواهري

كان لِلصراع بين البغدادي والظواهري بُعد مالي واضح، إلى جانب بُعده السياسي والعقائدي. فالبغدادي اعتبر أن الجولاني تمرد على سلطة العراق بعدما استفاد من المال والسلاح الذي منحه له، بينما سعى الجولاني إلى رفع سقف استقلاله عبر فتح قنوات جديدة مع الأوساط القاعدية العالمية وشبكات التبرع الإقليمية.

البيعة للظواهري لم تكن مجرد انحياز فكري، بل محاولة لإعادة التموضع في خارطة التمويل أيضًا، وللحصول على شرعية تتيح للنصرة طلب الدعم من دوائر أوسع من التي كانت مرتبطة بالعراق وحده.

الإعلام والدعاية: صناعة صورة التنظيم وصناعة الزعامة

لم تكن جبهة النصرة تنظيمًا يقاتل في الظل فحسب: فقد أدركت مبكرًا أهمية الصورة في معركة متعددة الأبعاد، فالإعلام، بمختلف مستوياته، كان بالنسبة لها: وسيلة لتجنيد الأنصار، وأداة لتبرير الخيارات العسكرية، وساحة لتلميع القيادة، ومنبرًا لبثّ رسائل إلى الداخل والخارج معًا.

١. الإعلام بوصفه جزءًا من البنية القتالية

لم يتعامل التنظيم مع الإعلام بوصفه ترفًا، بل كجزء من خطته العسكرية، إذ كانت كل عملية كبرى تُجهَّز لها تغطية ملائمة، وكل تحول سياسي يُرافقه خطاب

إعلامي مضبوط. وقد ظهر اهتمام خاص بإنتاج مواد مرئية عالية الجودة، نشر بيانات منصوبة بعناية لغوية، استخدام مواقع التواصل لخلق هالة حول التنظيم، توجيه رسائل تهديد أو طمأنة وفق الحاجة، وبهذا صارت الكاميرا رفيقة للبندقية، وصارت الكلمات توازي في تأثيرها وقع الرصاص.

٢. خطاب المظلومية والتعبئة المذهبية

ركزت النصرة في خطابها على تصوير نفسها بوصفها "حارسًا لأهل السنة" في وجه أعداء متعدّدين: النظام، الميليشيات الحليفة له، والقوى الدولية. وقد استُخدمت مفردات دينية حادّة لإضفاء بُعد عقائدي على المعركة، مما عزز الانقسام المذهبي العميق، وكرّس صورة الصراع بوصفه معركة وجود وليس مجرد خلاف سياسي.

لم يقتصر أثر هذا الخطاب على الداخل السوري، بل تجاوزه إلى جمهور عريض في المنطقة، وجد في هذه السردية سببًا للتعاطف أو للتبرع أو للالتحاق بالقتال.

لعب الإعلام دورًا مهمًا في تحويل الجولاني من قائد ميداني مجهول إلى وجه سياسي وأمني معروف. فقد بدأ ظهوره تدريجيًا عبر بيانات صوتية، أو تسجيلات محدودة، ثم مقابلات مطوّلة مع وسائل إعلام بارزة. وفي هذه المقابلات، ظهر الجولاني بملامح قيادي "هادئ، حذر، يحاول التمايز عن داعش، ويتحدث بلغة أقل حدّة تجاه الخارج".

٣. صناعة صورة "النخبة الجهادية المنضبطة"

حرصت النصرة على التمييز بين نفسها وبين داعش، عبر تقديم صورة أكثر "انضباطًا" وأقل فوضوية في التعامل مع السكان. ففي الخطاب العلني، ظهرت كتنظيم يركز على الجبهات، ويحترم نوعًا ما "العلماء والمشايخ"، ويقدّم نفسه في بعض الأحيان كحكم بين الفصائل. هذه الصورة ساعدت على قبولها -أو التسامح معها- في بعض الأوساط، وإن كانت ممارساتها الميدانية تكشف وجهًا أكثر قسوة، خصوصًا في طريقة إدارتها للمجتمع وللفصائل المنافسة.

٤. هندسة زعامة الجولاني إعلاميًا

لعب الإعلام دورًا مهمًا في تحويل الجولاني من قائد ميداني مجهول إلى وجه سياسي وأمني معروف. فقد بدأ ظهوره تدريجيًا عبر بيانات صوتية، أو تسجيلات محدودة، ثم مقابلات مطوّلة مع وسائل إعلام بارزة. وفي هذه المقابلات، ظهر الجولاني بملامح قيادي "هادئ، حذر، يحاول التمايز عن داعش، ويتحدث بلغة أقل حدّة تجاه الخارج".

هذا البناء الإعلامي ساعد في تحويله إلى "رمز" لدى جزء من أنصار النصرة، وإلى "فاعل يجب فهمه" لدى بعض القوى الإقليمية والدولية.

العلاقات الإقليمية: تركية، الدول الخليجية، و"إسرائيل" وأمريكا

تحرّكت النصرة في ساحة مكشوفة على مصالح إقليمية متضاربة، فلم تكن طرفًا معزولًا، بل لاعبًا يتفاعل مع دول وجماعات وشبكات تمويل، بعضها رأى فيها ورقة ضغط، وبعضها الآخر تعامل معها كتهديد، لكنها في كل الأحوال لم تكن خارج لعبة التوازنات.

١. تركية: بوابة العبور وعمق الخلفية اللوجستية

شكّلت الجغرافيا التركية عمقًا حيويًا للنصرة وفصائل أخرى عبر معابر حدودية مفتوحة أو مُيسّرة، ومستشفيات عالجت جرحى الفصائل المختلفة، وحركة تجارة وإمداد غذائي ودوائي، إلى جانب وجود لاجئين وناشطين ومتعاطفين شكلوا حزامًا اجتماعيًا حول الساحة. لم تكن العلاقة مكشوفة بوصفها تحالفًا معلنًا، لكنها اتخذت شكل التوازي في المصالح، فتركية تستفيد من الضغط الذي يمارسه وجود جماعات مسلحة على النظام وعلى خصومها، والتنظيم يستفيد من خطوط الإمداد ومرونة الحركة.

٢. التمويل الخليجي المباشر وغير المباشر

كما سبق، اعتمدت النصرة على شبكات تمويل قادمة من الدول الخليجية، عملت عبر تبرعات فردية أو جمعيات خيرية ذات أجندة خاصة، ووسطاء لعبوا دور حلقة الوصل بين الممولين والقيادة.

هذا التمويل لم يكن دائمًا متجانسًا: فقد ارتبط أحيانًا بمواقف سياسية معينة، وبحسابات تتعلق بالصراع الإقليمي الأوسع، مما جعل النصرة جزءًا من شبكة تجاذبات لا تملك السيطرة الكاملة عليها.

٣. الاتصالات عبر خط الجولان والخدمات الطبية



"الإسرائيلية"

تم التوثيق، استنادًا إلى تقارير الأمم المتحدة وقوات مراقبة فض الاشتباك التابعة للأمم المتحدة (يوندوف) وغيرها، وجود تعاملات ميدانية على خط الجولان، تمثلت في:

نقل جرحى من فصائل مسلحة -بينها عناصر من النصرة- إلى مشافٍ "إسرائيلية"، لقاءات محدودة بين ممثلين ميدانيين للفصائل وقوات الاحتلال في مناطق عازلة، تبادل منفعي على قاعدة: خدمات طبية ومعلومات ميدانية مقابل عدم استهداف الحدود، هذه الوقائع تُظهر أن التنظيم، رغم شعاراته الحادة، لم يكن غريبًا عن منطق الصفقات الميدانية حين تخدم بقاءه.

٤. الغرب وسردية "الاعتدال النسبي"

في لحظة معينة، رُوّج في بعض الأوساط الغربية لفكرة أن جبهة النصرة -مقارنةً بداعش- أقل تهديدًا وأكثر قابلية لـ"الضبط"، وأنها قد تكون ورقة يمكن الاستثمار فيها في مواجهة خصوم آخرين.

لم تتحول هذه الفكرة إلى سياسة معلنة، لكنها تركت أثرها على طريقة التعاطي مع التنظيم، وعلى مستوى الأولوية في الاستهداف.

استثمرت النصرة هذه السردية لتطلّ عبر واجهة أكثر تماسكًا، ولتقدّم نفسها كقوة أمر واقع يمكن، في الحد الأدنى، التكيّف مع وجودها.



مصطفى ستمريم نصار
المعروف أيضا باسم أبي مصعب السوري، هو عضو مزعوم في تنظيم القاعدة كان يدير معسكرات تدريب في أفغانستان.

تحولات النصرة: من القاعدة إلى "الهيئة"

لم تبقَ النصرةُ على صورتها الأولى، فمع اشتداد الضغط الدولي، وتعقّد المشهد الميداني، وجدت القيادةُ نفسَها مضطرة لإعادة تشكيل التنظيم شكلًا، دون المساس بجوهره العقدي والأمني.

هكذا بدأت سلسلة من التحولات المعلَنة:

من "جبهة النصرة لأهل الشام"،

إلى "جبهة فتح الشام"،

إلى "هيئة تحرير الشام".

١. الانفصال المعلن عن القاعدة: تكتيك لا مراجعة

عندما أعلن الجولاني "فكّ الارتباط" مع القاعدة، بدا الأمر -في الظاهر- كأنه مراجعة فكرية، لكن استقراء ما جرى على مستوى البنية الداخلية يبيّن أن نفس القيادات ظلت في مواقعها، كما الجهاز الأمني لم يتغيّر، كما أن العلاقة الفكرية مع المدرسة القاعدية بقيت حيّة، أضف إلى ذلك أن أساليب الحكم والسيطرة لم تتبدل جوهريًا، وكان الهدف

الحقيقي هو التخفيف من وطأة التصنيف الدولي، وفتح الباب أمام تحالفات أوسع مع فصائل سورية أخرى، وتسهيل بناء واجهة سياسية ومدنية محلية (حكومة الإنقاذ)، وخلق انطباع بتحوّل التنظيم إلى "فاعل وطني".

٢. التوحش في ثوب سلطة محلية

أخذت "الهيئة" تدريجيًا شكل "سلطة أمر واقع" في إدلب ومحيطها، عبر السيطرة على المعابر مع تركية ومناطق أخرى، واحتكار القرار العسكري، والإمساك بالمؤسسات المدنية من خلال واجهات إدارية، و إخضاع المنظمات والهيئات العاملة لشبكة من القوانين والضرائب. لكن هذا الشكل المدني الظاهر كان يغطي على جوهر أمني صارم: فالتوقيفات والاستدعاءات والاغتيالات بقيت أدوات حاضرة، والخصوم السياسيون أو العسكريون لم يُسمح لهم بالعمل بحرية.

> لم تضع جبهة النصرة شعار إسقاط النظام أو التغيير الديمقراطي، بل ملأت الجدران واليافطات: "المسيحية عَبيروت! والعلوية عالتابوت! الديمقراطية شرك...!"

٣. تصفية المنافسين وإعادة هندسة الحقل العسكري

لم تسمح "الهيئة" لفصيل مسلّح أن يبقى مستقلاً وقويًا داخل مناطق نفوذها.

فقد خاضت مواجهات متتالية مع حزم، وثوار الشام، وجيش المجاهدين، ومجموعات أخرى متفرقة، وفي كل مرة كان سيناريو الصراع يتكرر بدءًا من توتر إعلامي وخطابي يليه اشتباك عسكري محدود، ينتج عنه تفوّق للهيئة بفعل تفوقها العسكري والتنظيمي، وأخيرًا تفكيك الفصيل أو إخضاعه أو طرده.

في النتيجة، أعيد رسم الخريطة العسكرية بحيث لم يبقَ داخل مناطق سيطرة الهيئة أي منافس قادر على تهديد مركزها.

٤. اقتصاد "الهيئة": من موارد التنظيم إلى مالية السلطة

مع تشكّل "الهيئة"، تمأسس -إلى حدّ ما- اقتصاد الحرب الذي بنته النصرة، إذ صار الحديث عن موازنات غير معلنة: ضرائب مفروضة على كل نشاط اقتصادي تقريبًا، رسوم على المعابر وعلى شاحنات البضائع، استثمارات غير مباشرة في قطاعات تجارية وخدمية؛ لكن الطابع العسكري-الأمني بقي هو الحاكم، فالهيئة لم تتحول إلى "دولة" بالمعنى المؤسسي، بل بقيت تنظيمًا مسلّحًا يلبس ثوب السلطة.

الخاتمة: سورية بين التوحش وغياب المشروع الوطني

تكشف قراءة مسار جبهة النصرة، من لحظة التأسيس إلى تحوّلها إلى "هيئة"، عن مسار أوسع من قصة تنظيم واحد.

إنها تعكس أزمة مركّبة في الفكر الديني، وفي الواقع السياسي الإقليمي، وفي بنية الدولة الوطنية التي تآكلت حتى صارت قابلة للاختراق من مشاريع عابرة للحدود. ولعل الكاتب السوري ياسين الحاج صالح، يلخّص مسار الفكر الجهادي السلفي بالقول: "في أفغانستان، كان العدو هو الاتحاد السوفييتي ثم الولايات المتحدة، وفي العراق الأميركيون وحلفاؤهم من المنظمات الشيعية، وفي سورية كان العدو هو الثورة أساسًا".

لم تضع جبهة النصرة شعار إسقاط النظام أو التغيير الديمقراطي، بل ملأت الجدران واليافطات: "المسيحية عَبيروت! والعلوية عالتابوت! الديمقراطية شرك...!" حاربت الدولة الوطنية وكفّرتها، وقسّمت العالَم إلى معسكريْن لا ثالث لهما، مع اعتبار الفوضى مقدّمة ضرورية لقيام "حكم الله". ومع انهيار مؤسسات الدولة، وجدت هذه الرؤية مجالاً واسعًا لتطبيق نفسها، فتحوّلت مناطق بأكملها إلى حقل تجارب لسياسات "إدارة التوحش"، حيث يُعاد إنتاج المجتمع من جديد تحت سطوة الخوف والسلاح.

يتعرّض الكتاب في الفصل الأخير لعملية بناء سلطة دكتاتورية في مئة يوم من مجلس عسكري مغلَق ومنغلق على نفسه، ألغى ما هو خارجه من عسكر وشرطة وسرّح عشرات آلاف الكوادر المدنية، واعتقل أو اغتال من يصنفه خصمًا محتملاً. وقام بضرب الأقليات المسلمة، مطلقًا على الملايين اسم "الفلول"، التعبير الذي حل محل "الكفّار" في أدبيات النصرة. وفي عشرة أشهر، جرى بناء طبقة



حشود تدخل بوابات سجن صيدنايا، خارج مدينة دمشق، عاصمة سورية.
• المصور: علي حاج سليمان

جديدة مهمتها القمع فوق أنقاض الاستبداد القديم، وحاشية قصر متنفذة في المال والأعمال، مع كل مخاطر التقسيم والحرب الأهلية.

إن أهم ما يخرج به القارئ من هذا الكتاب أن التجربة السورية ليست مجرد صراع على السلطة بين نظام ومعارضين، بل ساحة تنازعت عليها مشاريع متعارضة، من بينها المشروع الجهادي الذي مثّلته النصرة بأوضح صوره.

هذا المشروع لم ينجح في بناء دولة، ولم يفلح في حماية المجتمع، بل كان عاملاً إضافيًا في تفكيك النسيج السوري، وفي دفع شرائح واسعة من الناس نحو اليأس أو الهجرة أو الانكفاء.

ومع أن النصرة استطاعت، في محطات عديدة، أن تبدّل جلدها وتغيّر اسمها وتتنقّل بين خطاب وآخر، فإن جوهرها بقي ثابتًا:

تنظيم مسلّح يحمل فقه الدم والتوحش، ويبحث عن اعتراف قسري به كسلطة لا ينازعها أحد.

ولذلك فإن مستقبل المناطق التي خضعت لهذا النموذج سيظل مرهونًا بقدرة المجتمع السوري -إن توفرت له الفرصة- على إعادة بناء مشروع سياسي يسبق السلاح، ويستعيد الإنسان من بين الركام، ويُعيد للدين مكانته كمرجعية أخلاقية لا كأداة للقتل.

في نهاية المطاف، لا يقدّم هذا المسار سوى خلاصة واحدة صارخة:

حين يغيب المشروع الوطني، وحين يُهمَّش الفكر النقدي، وحين يُترك المجتمع وحيدًا في مواجهة الاستبداد والحرب، تتقدّم مشاريع التوحش لتملأ الفراغ، وتحوّل البلادَ إلى خرائط نفوذ وأسواق دم. وما جبهة النصرة إلا أحد أخطر تجليات هذا الفراغ.

الهوامش:

1. Haytham Manna, Histoire des frères musulmans en Syrie, SOUAL, L'islamisme Aujourd'hui, Paris 1984.

إبن تيمية ماله وما عليه

جذور التطرف والتكفير





رائد السمهوري

باحث في الفكر الإسلامي، كاتب
• السعودية

المقدمة

تُعَدّ شخصيةُ ابن تيمية واحدةً من أكثر الشخصيات حضورًا في الجدل الديني والسياسي المعاصر، لا بسبب إجماع علمي على فكره، ولا لكونه يمثّل اتجاهًا واحدًا مستقرًّا في التراث الإسلامي، بل لأن عددًا كبيرًا من الحركات الإسلامية الحديثة، على اختلاف توجهاتها، جعلت منه مرجعيةً فكرية أو اسمًا مؤسِّسًا لخطابها، واستندت إلى نصوصه في بناء مواقفها العقدية والسياسية والاحتجاجية.

ومن هنا تنبع أهمية مناقشة ابن تيمية اليوم: فهي ليست أهمية تاريخية خالصة، ولا اهتمامًا بشخص عاش في القرن السابع الهجري لذاته، وإنما أهمية ناتجة عن الحضور الكثيف لاسمه في الخطاب الإسلامي المعاصر، سواء في التيارات السلفية، أو الحركات الجهادية، أو حتى بعض المشاريع الإصلاحية التي استحضرت تراثه بقراءات مختلفة ومتعارضة في كثير من الأحيان.

هذا الحوار لا ينطلق من افتراض تقديس ابن تيمية ولا من تبنّي فكره، كما لا يسعى إلى محاكمته أخلاقيًا أو تحميله مسؤولية ما آلت إليه بعض الحركات التي انتسبت إليه، بل يهدف إلى مساءلة هذا التراث: كيف تشكل في سياقه التاريخي؟ وكيف قُرئ لاحقًا خارج ذلك السياق؟ ولماذا أنتج هذا القدر من التناقض في الفهم والتوظيف؟

كما يتناول النقاش مسألة مركزية، وهي التفريق بين النص التيمي في ذاته وبين الاستخدامات المعاصرة له، وبين المنهج الذي يمكن استخلاصه من مجموع تراثه، والأسلوب الحاد الذي طغى على كثير من كتاباته، وما إذا كان هذا الأسلوب قد ساهم - من حيث لا يقصد - في إنتاج قراءات إقصائية لاحقة.

ويشارك في هذا الحوار الباحث رائد السمهوري، المعروف باهتمامه النقدي بالتراث الإسلامي وبقراءته التفكيكية للشخصيات الخلافية، وبمحاولته فهم العلاقة بين الأفكار الدينية والسياقات السياسية والاجتماعية التي أنتجتها، بعيدًا عن ثنائية التبجيل أو الإدانة المسبقة.



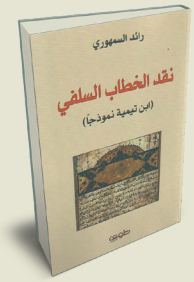

يشرّح رائد السمهوري في هذا الكتاب "الخطاب السلفي"، باحثًا في الحدود الفاصلة بين السلف كشخصيات تاريخية وبين تمثّلات الحركات المعاصرة لهم. وإذ يركز المؤلف على الدور المحوري لابن تيمية في تشكيل الرؤية الدينية المعاصرة، يطرح تساؤلًا حول كيفية هيمنة أدوات هذا الخطاب ومفاهيمه على العقل الجمعي للمسلمين عبر وسائل الإعلام والمنابر.

هذا الحوار الذي أجراه هادي اللواتي هو محاولة لفهم ظاهرة فكرية أكثر من كونه حديثًا عن شخص: ظاهرة اسمها "ابن تيمية" كما تعيش اليوم في الوعي الإسلامي المعاصر، لا كما كانت فقط في زمنها التاريخي.

الرؤى: ما هي أهمية ابن تيمية في التاريخ الإسلامي؟ ولماذا هذا الاهتمام الكبير الذي أخذ - إن جاز التعبير - نصف حياتك؟ حدّثنا عن علاقتك به، وقدّم لنا تعريفًا مكثّفًا بشخصيته وفكره في البداية، حتى نتمكن بعد ذلك من فهم السياقات السياسية والتاريخية التي عاش فيها، والتي من خلالها يمكن أن نفهم آراءه ومواقفه.

السمهوري: السؤال جيد وعميق، طبعا أنا في النهاية ابن بيئة سلفية، ليس أهلي.. أهلي مسلمون كسائر المسلمين.. يعني عامة.. يعني ما لهم بهذه المسائل، لكن البيئة البيئة الحاضنة لي هي بيئة سلفية على العموم، في المسجد وفي المدرسة. أول مرة سمعت باسم ابن تيمية كان في الثمانينيات، يعني كنت ما أزال في الصف الرابع أو الخامس، وتعرف كانت أحداث حماة.. كانت هناك حركة فيها نوع من الثورة على نظام الرئيس حافظ الأسد بذلك الوقت، وكانت هناك ضربة لهذه الحركة، وهنا بدأ يُتكلم عن النظام السوري وكأنه نُصيري، النظام النصيري.. النظام النصيري، الشيخ أحمد القطان كان له خطب في هذا الموضوع، نحن تربينا على هذا، تربينا على خطب الشيخ أحمد القطان.. على خطب الشيخ عبد الحميد كشك، تربينا على كتب الشيخ بن باز والشيخ العثيمين والشيخ اللحيدان، ومحاضراتهم.. هذا الذي تربينا عليه، كتاب معالم في الطريق يا سيدي.. للسيد قطب، معالم في الطريق قرأته في المدرسة، لم أقرأه في الحصة.. قرأته من مكتبة المدرسة.

الرؤى: لكن كيف يتسق سيد قطب مع هؤلاء؟ هو عنده نزعة أدبية..

السمهوري: معالم في الطريق فيه فكر، كتب أبو الأعلى المودودي كانت تطبع في السعودية، يعني كانت تطبع وتوزع في السعودية.

الرؤى: ما هي علاقة هؤلاء بابن عثيمين وابن باز؟

السمهوري: هو هذا الذي تربينا عليه بشكل عام، وسيد قطب كان ممن يعود إلى ابن تيمية، عموما الفكر السلفي بشكل عام يعود إلى ابن تيمية، وحتى سيد قطب كان يرجع إلى كتابين.. منها كتاب الإيمان لابن تيمية، كان دائم النظر فيه، فنحن تربينا على هذا الفكر، وابن تيمية سمعت اسمه أول مرة في الصف الرابع الابتدائي، يعني تقريبا عمري كان تسع سنوات أو عشر سنوات، يقول وابن تيمية يقول في النصيرية هؤلاء كفار لا يُؤاكلون ولا يشاربون ولا تنكح نسائهم وتسبى نساءهم وذراريهم.. و و و إلى آخره.. هذه أول مرة أسمع فيه بابن تيمية في حياتي، طبعا في سياق سياسي، يعني دائما هذه الفتوى.. فتوى النصيرية تظهر في سياقات سياسية، طبعا النصيرية في التراث -خلينا نتكلم في التراث- كان هناك شبه إجماع على تكفيرهم، حتى الإثني عشرية على فكرة، بعدها طلعت فتوى عن العلويين.. طلعها الشيخ أمين الحسيني مفتي فلسطين في ذلك الوقت، وقال هؤلاء إخواننا والعلويين هم إثناعشرية، هذا حديث طبعا مجاله بحثي ودقيق، لا أريد أن أخوض فيه، لكن أنا أريد القول متى اتصلت بابن عثيمين والفكر السلفي، وقرأنا الواسطية وغيرها، وفي زمان قرأت كتاب قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، قرأته أيضاً في أيام الصبا، إضافة إلى أن الإنسان ربما يقرأ حتى إحياء علوم الدين للغزالي.. يعني كانت هناك قراءات متنوعة، لكن بحكم التربية أنت متربي على هذا، وكنت أعلم أن ابن تيمية يشتد على المخالفين، واضح هذا الكلام، وحسب تربيتي، بعد هذا بدأت أقرأ بانطلاقة ذاتية، يعني كلام عن ابن تيمية، وصرت أسمع محاضرات، وسمعت أن الرجل ليس تكفيريا، سمعت لكن طبعا أنسى جميع المصادر، و وجدت أن العثيمين يترحم على الزمخشري المعتزلي، بعدها صارت ضربت منهاتن الشهيرة، وفُتح المجال، إضافة لبعض الأحداث السياسية.. كان هناك مشكل في إسبانيا.. أظن ضُرب مترو أو شيء.. وكان الإنترنت حافل بهؤلاء الناس الذين يتكلمون في هذا، دخلت في بعض الحوارات، قلت هذا مرذول، وكانوا يؤصّلون ذلك بإبن تيمية، إضافة إلى ما فصلته في مقدمة الكلام.. فقلت أنا يجب أن أعيد قراءة ابن تيمية، حتى يطمئن قلبي، أن أعيد قراءته كله، فأقرأه قراءة وافية، ولا آخذ بهذه المقتطفات.

الرؤى: فبدأت بمشروع متكامل لقراءة كل تراثه؟

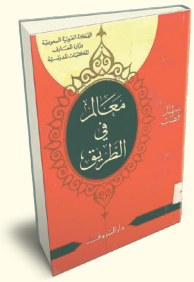

يُعد كتاب "معالم في الطريق" العمل الأكثر جدلا لسيد قطب، وخلاصة أفكاره للتغيير، حيث استُخلص محتواه من تفسيره "في ظلال القرآن". هذا الأثر، الذي نُشر في البداية بنطاق محدود، تحول بعد إعدام مؤلفه إلى أحد أكثر الكتب انتشاراً وطباعة في العالم.

السمهوري: بالضبط هذا هو.. وأقول عندما تقرأ ابن تيمية لست تقرأ شيئاً من الماضي.. أنت لا تقرأ شيئا من الماضي، أنت تقرأ شيئاً معاصراً.. وتقرأ شيئا راهناً، ويختلف في تفسيره السلفيون أنفسهم، يعني يطلع لك تيار جهادي ويستند إلى ابن تيمية.. عبدالسلام فرج مثلا.. يستند إلى ابن تيمية يعني حتى في تسويغ مقتل السادات، واعتبار أن الدولة والجيش هم طائفة ممتنعة -لاحقاً سنعود إليها- وهي التي كان يتكلم فيها ابن تيمية عن التتار.. الغزاة.. التراث الجهادي يعني يعود طبعا إلى غير ابن تيمية.. لكن ابن تيمية أساسي فيه.. وعلماء الدعوة النجدية، ثم يوسعون.. يذهب إلى ابن حجر والنووي.. يعني يوظف التراث إلى ما يريده، ثم تجد تياراً إصلاحياً، الإمام محمد عبدة، أنا قرات محمد عبدة في المجموعة الكاملة التي جمعها الدكتور محمد عمارة رحمة الله عليه.. يدافع فيها عن ابن تيمية، و ضد الأزهر، يعني ضد شيوخ الأزهر، الذي كان يراهم جامدين، عبدالحميد بن باديس الجزائري.. المناضل الكبير الوطني.. هناك تيار إصلاحي وطني يرى أن ابن تيمية تراثاً صالحاً للاحتجاج به في هذا، تخيل هذا ! رشيد رضا من الإصلاحيين ومن الوطنيين، رجل وطني..

الرؤى: **كان يدعو إلى مقاومة الاستعمار ولحفظ الأوطان ولتعزيز الهوية الإسلامية.. ما كان من علماء الفتنة..**

السمهوري: ويقول بالدستور المدني، أقول لك شيء أيضاً.. جمال الدين القاسمي، تيموي هذا، يعني من أتباع بن تيمية، صاحب كتاب محاسن التأويل.. وهو كتاب في التفسير معتمد جداً، وسلفي، جمال الدين في كتابه عن دلائل التوحيد.. في آخر الكتاب.. يقول الحمد لله الذي يسّر لنا (يرجى مراجعته لا أحفظ النص) بعد المعاناة من الاستبداد وقيام دولة الدستور ولله الحمد.. فهؤلاء كانوا إصلاحيين دستوريين وطنيين مناضلين ويرجعون في ذلك لابن تيمية، معقول يا أخي؟ تجد أن الإصلاحي يعود إليه؟ محمد عبدة ورشيد رضا وعبدالحميد بن باديس وجمال الدين القاسمي وعلال الفاسي.. هؤلاء تيمية سلفيين، لكن تجد الطرف الآخر تياراً جهادياً ثورياً، وبعضهم يصل إلى تكفير حكام الدول، إضافة لقتال الاستعمار طبعاً، وتجد تياراً يكاد يُسبّح باسم السلطة.. يسبح باسم السلطة

الرؤى: **ويحرم أي نوع من الخروج**

السمهوري: ليس فقط أي نوع من الخروج.. بل النقد حتى، الخروج مذهب سني دعنا من هذا.. لكن النقد حتى، إبن تيمية نفسه لا يدعو للخروج، يعني نقد السلطة يعتبره خروجاً، بينما نقد السلطة ليس بالضرورة خروجاً، وتيار يقول لك لا.... الإصلاح والتزكية والتربية والتعليم.. الشيخ الألباني وبعض من سار في نفس الركاب، يسموه السلفية العلمية، لا شأن لي بهذه التصنيفات، لكن العجيب أنه يجري تفرّق في فهم ابن تيمية، وأنا أقول لك لا أعفي ابن تيمية من هذا الاختلاف في فهمه، لا أعفيه حقيقة، والسبب في ذلك أن كتب ابن تيمية رحمة الله عليه ليست كتباً منظمة، بل أقول لك ربما لم تُسوّد، في اعتقادي أنه لم يجد تسويدها، لكثرة التكرار فيها، والشيء الثاني ليست سيستماتيك، يعني ليست منظمة

الرؤى: **كانت مخطوطات وأفكار متناثرة ولعلها متناقضة في بعض الأحيان**

السمهوري: بل أنا أقول لك بيان تلبيس الجهمية حقق أول مرة وحقق ثاني مرة والآن يُعلن أنه اكتشف منه جزء مفقود. فحتى تراث ابن تيمية لا يمكن الزعم بأن كله ناجز، وليس كمثلا فخر الدين الرازي، ولا كالغزالي.. الذي كان يكتب بطريقة منظمة مبوبة واضحة، إذا أريد أن آخذ معلومة أعرف في أي باب وأذهب آخذها، إبن تيمية يتعب قارئه، وهذه ليست مثلبة تثلب.. يعني هناك ناس يقول لك أنت تعترف أنك لا تحسن القراءة.. هذا كلام غريب، كل من لابس كتب ابن تيمية يعلم أن قراءته فيها صعوبة، ليست صعوبة معاني ولكن صعوبة تنظيم، فأحتاج إلى أن تتحمل استطراداته وتشعباته حتى تصل إلى المقصد.

الرؤى: **طبعاً هو ترك مؤلفات كثيرة في الكلام في التفسير في غيرها..**

السمهوري: تنطح المئة.. في العقائد تحديدا أكثر شيء، له فتاوى فقهية وغيرها طبعا..

الرؤى: **في العقائد والفقة، يعني هذا المحور؟**

السمهوري: العقائد في الدرجة الأولى، والفقة بالدرجة الثانية.. وأقل بكثير من العقائد، فكتبة في العقائد.. وهو كان يعتني بهذا، لأنه عنده فكرة أن المسلمون متفرقون.. وتفرق المسلمين يسلط عليهم أعدائهم، وهذا التفرق لم يكن إلا بسبب هذه العقائد الفاسدة، ولذلك كان يقول أنا أقول ما يوجب الاتحاد بين المسلمين، حتى في المحاققة

التي جرت في دمشق على أثر فتواه الحموية ثم بعد ذلك فتاة الواسطية.. كان يقول أنا أقول ما يوجب الجمع بين المسلمين، يعني عقيدتي هذه التي أقدمها ما فيها تأويل وتكتفي بما أثبته الله لنفسي وخلاص، أثبت ما أثبته الله لنفسي وإن هناك ما نفاه الله عن نفسي، وفكونا من هذا التأويل الذي يدعو إلى التفرق، طبعا كان ناتج هذا الكلام أنه كان يظن أن تحقيق الوحدة السياسية للمسلمين تكون عن طريق الوحدة الروحية للمسلمين.. الوحدة العقائدية للمسلمين.

الرؤى: **من خلال منظومته الفكرية التي هو يقدمها ولا غيره؟**

السمهوري: الذي هو يقدمها.. ولذلك إبن تيمية أطال في الهدم وأوجز في البناء، العقيدة الواسطية.. العقيدة التدمرية.. العقيدة الحموية.. موجزة صغيرة، لكن في الهدم لا.. بيان تلبيس الجهمية حُقق في عشر مجلدات، درء تعارض العقل والنقل حقق في عشر مجلدات، منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية وكذا.. تقريبا عشر مجلدات.. وكلامه في الصوفية طبعا.. بغية المرتاد في فلسفة التسلسل والحلول والاتحاد والاستقامة واقتضاء الصراط المستقيم.. كل هذه الكتب كانت في الردود على هؤلاء.. هذه الفرق الضالة التي تفرق بين المسلمين، الشيء الثاني أنه يرى أن عقائدهم هذه مفسدة للملل والدول، لاحظ "الملل والدول"..

الرؤى: **طيب هذه اجتهادات معرفية دينية تطورت في تاريخ المسلمين.. هذه كلها مفسدة وهو فقط صحيح؟ هذه نزعة تكبر وادعاء.**

السمهوري: بالضبط.. لذلك أنا أقول هو أخطأ في الوسيلة.. و أقول لك أيضاً إن منهجه -رحمة الله تعالى عليه- أصبح الآن من أسباب الفرقة، يعني مثلا مجتمع كالمجتمع الإندونيسي على سبيل المثال.. مسلمو إندونيسيا صوفية أشعرية شافعية، والمجتمع مجتمع صوفي أشعري شافعي من زمان.. طيب؟ عندما أروح أنا أدعو إلى السلفية هناك، وأقول يا أشعرية أنتم يا صوفية أنتم ضُلّال، ماذا يحدث؟ ألا يحدث انقسام في المجتمع؟ إلا تحدث فتن؟ إبن تيمية لم يفاتح العوام على أية حال، اليوم يفاتح العوام في هذا الموضوع، إبن تيمية كان خطابه علمائي وليس للعوام، ما كان عنده إذاعة، إذاعة أهل السنة مثلا.. أو قناة الرحمة، ويبث فيها العقيدة الصحيحة لناس لا يعلمون شيئا مما يقال ولن يحاسبهم الله أصلاً عليه، إبن تيمية خطابه للعلماء، هذا يعني لا يخاطب عوام الناس، ويقول أنا ما فاتحت في ذلك عامياً قط، وهذا حقيقي، وفتاواه ما كتبها من أجل أن تطبع في مطبعة دار كذا لطباعة كتب السلف، هو كان فتوى يكتبها لشخص واحد يأتيه يلح عليه.. يقول وما أكتب لأحد فتوى حتى يلح عليّ حتى يحترق، لأنه يقول موجودة كتب في أهل السنة.. خلاص، فذلك يلح عليه "تكفى يا شيخ.. تكفى يا شيخ" فيكتب له فتوى، طبعا تنتشر.. ولكن عند من؟ تنتشر في الاذاعات في التلفزيون في إذاعة كذا وكذا؟ لا.. تنتشر عند أهل العلم، فلا يخاطب فيها العوام.

الرؤى: **أنت من خلال قراءتك لتراث إبن تيمية ما هو لب محور المشروع الفكري له؟**

السمهوري: "تنقية العقيدة الصحيحة مما دخل عليها من اليونان والمنطق والفلسفة والتصوف الغير السني و.. و.. و إلى آخره" وبالتالي تتحقق الوحدة بين المسلمين ضد هؤلاء الأعداء..

الرؤى: **لو تنقي العقيدة من كل الجهود العلمائية المباركة هذه باختلاف اتجاهاتها ما الذي يبقى؟ البديل ماذا؟ التوحيد كما يسميه عنده؟ كيف؟ هو نقى الآن.. ماذا قدم لك؟**

السمهوري: هكذا كان يظن، وفي اعتقادي أنا هذا الكلام غير واقعي أصلا.. غير واقعي أصلاً، لماذا؟ هل تحققت الوحدة بين المسلمين؟ حتى عندما انتحرت العقائد؟ يعني هل هناك دول سنية حاربت دول سنية أخرى؟ نعم! صحيح أم لا؟ في التاريخ، كله، اتحاد العقيدة لا يؤدي بالضرورة إلى اتحاد الناس.. حتى يومنا هذا، يعني هناك دول سنية ١٠٠٪ لا أريد أن أذكر أسامي.. وبين الدول من النزاعات على بعض النواحي السياسية وعلى بعض الحدود وعلى كذا.. ما صنع الحداد، في اعتقادي ما كان يظنه بنيته الصالحة وبنيته الطيبة ليس واقعيا، هذا واحد، لا أتذكر السؤال ألذي أوصلني إلى هذا...

الرؤى: **مشروعه الفكري المحوري.. وبالتالي هو نقّى ولكن ما الذي قدم؟ فأنت قلت إنه هذا غير ممكن.**

السمهوري: الأمر الآخر أن الذي قدمه إبن تيمية ذاته هو خطاب فلسفي وخطاب كلامي، ولذلك أنا أدعي أن السلفية هي طريقة كلامية كسائر الطرق

الكلامية الأخرى..

الرؤى: **قدم اجتهاداً إضافياً كبقية الاجتهادات الموجودة.**

السمهوري: نعم.. يقدم لك أدلة عقلية، وينقض ويستدل وكذا، يعني أنا باعتقادي مدرسة كلامية كسائر المدارس الكلامية الأخرى، يؤخذ منها ويرد، يعني هذا المنتج النهائي الذي أنا اعتقده، إذاً لماذا اهتممتُ بإبن تيمية، إهتممت بإبن تيمية لأنه راهن، ولأن هناك خلافا في فهمه، وهو خلاف مدهش حقيقة، يعني هناك من يعتقد حتى الآن من المشايخ أن إبن تيمية يكفّر الرافضة كلهم، وهناك من يعتقد أنه يكفر علمائهم دون عوامهم، أنا أقول "الرافضة" لأنه مصطلح.. لا شأن لنا به، وهناك من يعتقد هذا..

الرؤى: **هل هو صحيح؟**

السمهوري: هو لا يكفر الرافضة أبداً، بل في أواخر عمره كان بينه وبين الإمام السبكي نزاع على قضية الطلاق.. تقي الدين السبكي الكبير، وليس تاج الدين إبنه.. وابن تيمية ما كان يرد على أحد، كان يختار من يرد عليه، يعني كان يختار عالماً قوياً يرد عليه، لا يرد علي أي أحد، فكتب السبكي رداً على إبن تيمية في قضية الطلاق وقال له خالفت الإجماع، من تهم تقي الدين السبكي له أنك خالفت الإجماع، ثم ابن تيمية ماذا قال؟ قال إن الشيعة الجعفرية نقلوا نُقولاً عن جعفر الصادق ومحمد الباقر وغيرهم في مسألة الطلاق تخالف المذهب السائد هذا.. وهم إما صادقون و إما كاذبون، ويبعد أن يكونوا كل ما نقلوه كذبا.. يبعد هذا، فإذاً إما صادقون و إما كاذبون.. فإن كانوا صادقين فالنُقول ثابتة عن جعفر الصادق وعن محمد الباقر

الرؤى: **ينخرم الإجماع**

السمهوري: ينخرم الإجماع.. و إن قلنا إنهم كلهم كذبة.. و إن كل ما نقلوه كذبا.. فهم جمع كثير.. لهم نظر واستدلال، ولهم دين يوجب قولهم الصدق، وبالتالي أيضاً ينتقض الإجماع، فكيف ما قلت يعتبر خلافهم، ويعد خلافهم معتبرا ناقضاً للإجماع،

لقد سخر أحمد القطان حياته للدفاع عن القضية الفلسطينية، مستلهماً في هذا المسار آراء ابن تيمية حول "جهاد دفع الصائل". وكان يعتقد، استناداً إلى فتوى ابن تيمية، أنه عندما يهاجم العدو (مثل الكيان الصهيوني) الأراضي الإسلامية، يصبح الجهاد واجباً عينياً على كل مسلم، ولا يُقبل أي عذر لتركه.



إذاً يقول له يا سبكي لا تستطيع أن تقول إني أنا خرمت الإجماع لأنه أصلاً لا يوجد إجماع.

الرؤى: **وهذا نتيجته أنه يعتبر الشيعة مسلمين ويعتبرهم علماء ومجتهدين أيضاً؟**

السمهوري: علماء ومجتهدين، ولهم نظر واستدلال، يوجب قولهم الصدق، ولهم دين يمنعهم من الكذب، وقولهم معتبر، ويعتد بهم في الخلاف، وإذاً لا إجماع إلا بهم.. لا يتم الإجماع إلا بهم.

الرؤى: **هذا استثناء في أنظار ورؤى ابن تيمية، لأن له كثير من الحالات التي يتشنج فيها على الروافض ويصفهم بكل تلك الأوصاف القاذعة والاتهامات الشديدة والتكفير والتبديع..**

السمهوري: أحسنت.. هو التبديع، هذه أمور التبديع موجودة في جميع الطوائف..

الرؤى: **لكن هو له شدة خاصة، وهذا الذي فيه أذهان مختلف المنتسبين للمذهب الإمامي عنه.. يعني بينهم وبينه ما ممكن أن يكون أي نوع من اللين..**

السمهوري: أماموقف أهل السنة إجمالا -بمعناهم العام- أهل السنة الأشعرية والماتريدية وأهل الحديث والسلفية وغيره.. لهم موقف سلبي طبعا، وهذا الموقف السلبي حقيقة ليس موقفاً جديداً، هو موقف قديم.. من أيام أحمد بن حنبل، وإن كان أحمد بن حنبل ما كان يمنعه، يعني الرفض من أخذ الحديث من مشايخهم.. مَن روى عنهم مَن هم شيعة، لكن هذا ليس موضوع بحثنا هذا الموضوع، فمسألة ما يجري بين الطوائف إبن تيمية ليس استثناء في هذا الموضوع، لكي نكون منصفين، بل أقول لك الجاحظ.. كلامه عن الإثني عشرية ألف مرة أشد من كلام أحمد بن حنبل، الجاحظ المعتزلي، وغيره حقيقة، أيضاً أنا أقول وأدعو أيضاً إلى قراءة التراث بنظر أوسع، ومع هذا تجد أهل الحديث يروون عن المعتزلي.. يروون عن القدري.. يروون عن الجهمي.. يروون عن الخارجي.. ويـروون عن الشيعي الإثني عشري، يعني يرون عنهم، يعني تجد أن هناك رواة في كتب السنة من هذا الفريق وذلك الفريق، يعني ينبغي أن نقرأ هذا بعناية حتى يكون هناك إقناع، لأنه هناك كثير من الظروف السياسية كانت أحيانا توجّه، الآن حتى في زماننا هذا، الآن هناك ربط لإيران والإثني عشرية والرافضة.. والوهابية والسعودية.. هناك ربط، صحيح أم لا؟ موجود، وهذا الربط ليس بدعاً.. هذا موجود حتى في التراث، تجد عندما يكون نزاع بين الدولة العباسية والدولة الفاطمية فتظهر كتب "فضائح الباطنية" لأن هذا في سياق سياسي.

الرؤى: **صراعات سياسية وسلاطين، والحكومات تطلب من العلماء بعض الكتب وبعض الاتهامات لتجييش الناس..**

السمهوري: طبعاً.. المستظهر العباسي طلب من أبو حامد الغزالي أن يكتب، ولذلك عنوان كتابه "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية" يعني الباطنية في مقابل المستظهرية وليس أهل السنة، فهذا كله يجب أن ننظر إليه ونعيد النظر فيه.

لو تسمح لي أعود إلى ابن تيمية في السياق التاريخي، عندك ثلاث سياقات، السياق العام.. إحتلال صليبي لبعض مناطق بلاد المسلمين، واحتلال تتري أتى من جهة الشرق عبر هولاكو وزوجته التي كانت مسيحية، والناس تربط، وعندما احتلت بغداد في ذلك الوقت وقتل كثير من أهلها أبقى هولاكو المسيحيين وأهل الذمة واليهود مؤمّنين من القتل، ماذا يأتي في عقول الناس؟ وزير المستعصم (أظن آخر خليفة عباسي كان المستعصم بالله العباسي.. كان في بغداد) وزيره محمد بن أحمد بن العلقمي، بحكم أنه وزير الخليفة، ودائما الخلفاء براءة على فكرة، يعني لو تقرأ في التاريخ فدائما الخليفة براءة، مثلاً الواثق الذي محنة خلق القران اشتد فيها، أول واحد سنها هو المأمون.. ثم المعتصم.. ثم الواثق.. إشتدت المحنة في زمنه، وقتل أحمد بن نصر الخزاعي وكذا، فماذا جاء في تراث المحدثين؟ "وتاب آخر عمره رحمه الله" رجع.. موجود حتى عند الخلال، حسب ذاكرتي، وهكذا تجد، المعتصم "رجع آخر عمره"، دائما الخليفة يتوب. يرجعوا ويتوبوا إلى الله.. هذه كثيرة، موجودة على فكرة، والعلماء هؤلاء.. العلماء الملاعين.. أحمد بن أبي دؤاد هذا هو الخبيث الذي استولى على الواثق.. فيعطون أدواراً فردية أحياناً أشد من الحقائق، لا بل المعتصم هو الذي كان يدعو، والواثق هو الذي كان يدعو.. هذه سياسة دولة يا عزيزي، وهذا كان قاضي قضاة، وهذا نجده.. لا أريد أن أعمل قياسات لكن أنت أنظر إلى الواقع وستجد هذا.. تجد السياسي يتجه اتجاه لا يخلو من علماء يسيرون معه في نفس الاتجاه، هذا واقع.



تُعدُّ "الرسالة التدمرية" من مؤلفات ابن تيمية، وهذا الكتاب هو في الأصل جوابٌ على أسئلةٍ وجّهها له أهل مدينة "تدمر" (في سورية الحالية)، ولذلك عُرف بهذا الاسم.

الرؤى: وإن كان على خلاف قناعاتهم، وإنما ترغيباً وتهديداً وإلى آخره..

السمهوري: بعض النظر عن أننا لا نريد أن ندخل في علاقة الفقيه بالسلطان. فالسياق العام هذا، صليبيين، تتار، إسماعيلية، شيعة إثنى عشرية و نصيرية.. ولهم عملاء، إذا عندك الآن تحالف، الدول في ذلك الزمن -إنتبه لهذه القضية. ومن يستمع إلينا- لا تُفهم الدولة إلا بدعوة دينية.

الرؤى: **الربط بين الديني والسياسي**

السمهوري: لابد، ليس مثلنا الآن، هناك بعض الدول.. دولتين يمكن في العالم، لكن في العالم القديم لا تفهم الدولة إلا بدعوة دينية، لذلك مجتمع سني مثلا.. تقوم تعمل فيه دعوة دينية اثني عشرية يقولون لك أنت تابع لدولة جديدة. ولذلك هناك قسوة على الداعية إلى البدع تحديدا، ولذلك أهل السنة يقول لك نحن أهل السنة والجماعة، الجاحظ كان يذكر بعض الناس على صيغة المدح ويقول و"كان سنياً جماعياً" الجماعة هؤلاء دعاة فرقة، الناس على دينهم كذا، ولذلك كانوا يفرقون بين الداعي وغير الداعي، طبعا هذا فهمي الخاص، ممكن أحد يخطئني عليه لكن هكذا أفهم، فإبن تيمية شبه بابن تومرت.. إبن مخلوف أظن، من أعدائه، قالوا هذاك إبن تومرت.. هذا يخاف عليه من الدولة.. تدعو إلى شيء جديد، مثل إبن تومرت، تعرف إبن تومرت في المغرب.. الذي أعلن الدولة المهدية، ظهر أول شيء داعية ثم جمع حوله أنصارا وكذا، ثم شن الحرب على دولة المرابطين، وكفّرهم، فأنشا الدولة المهدية في مقابل الدولة المرابطية، فكان دائما هناك ربط بين الدين والسياسة. فهناك في ذلك الوقت الإثنى عشرية دولة.. خلاص انتهى، إثنى عشرية ومسيحيين وتتار.. هذا حلف، وهنا إبن تيمية عندما يرد على هؤلاء هو لا يرد على مجرد عقائد.. هو يرد على عقائد وسياسيين، يعني هو يرد على عقائد ذات مشروع سياسي في ذلك الوقت، إذا يجب أن نفهم هذا.

كان عبد الحميد كشك (١٩٣٣-١٩٩٦) عالماً مصرياً ضريراً وخطيباً مفوّهاً، اشتُهر بلقب "فارس المنابر" بسبب خطبه الحماسية وانتقاداته اللاذعة للحكام والفنانين. ومع امتلاكه أكثر من ٢٠٠٠ خطبة مسجلة، يُعد الشخصية السلفية الأكثر تأثيراً بين عامة الناس، وقد تعرّض للاعتقال مراراً في عهدي جمال عبد الناصر وأنور السادات بسبب مواقفه السياسية.

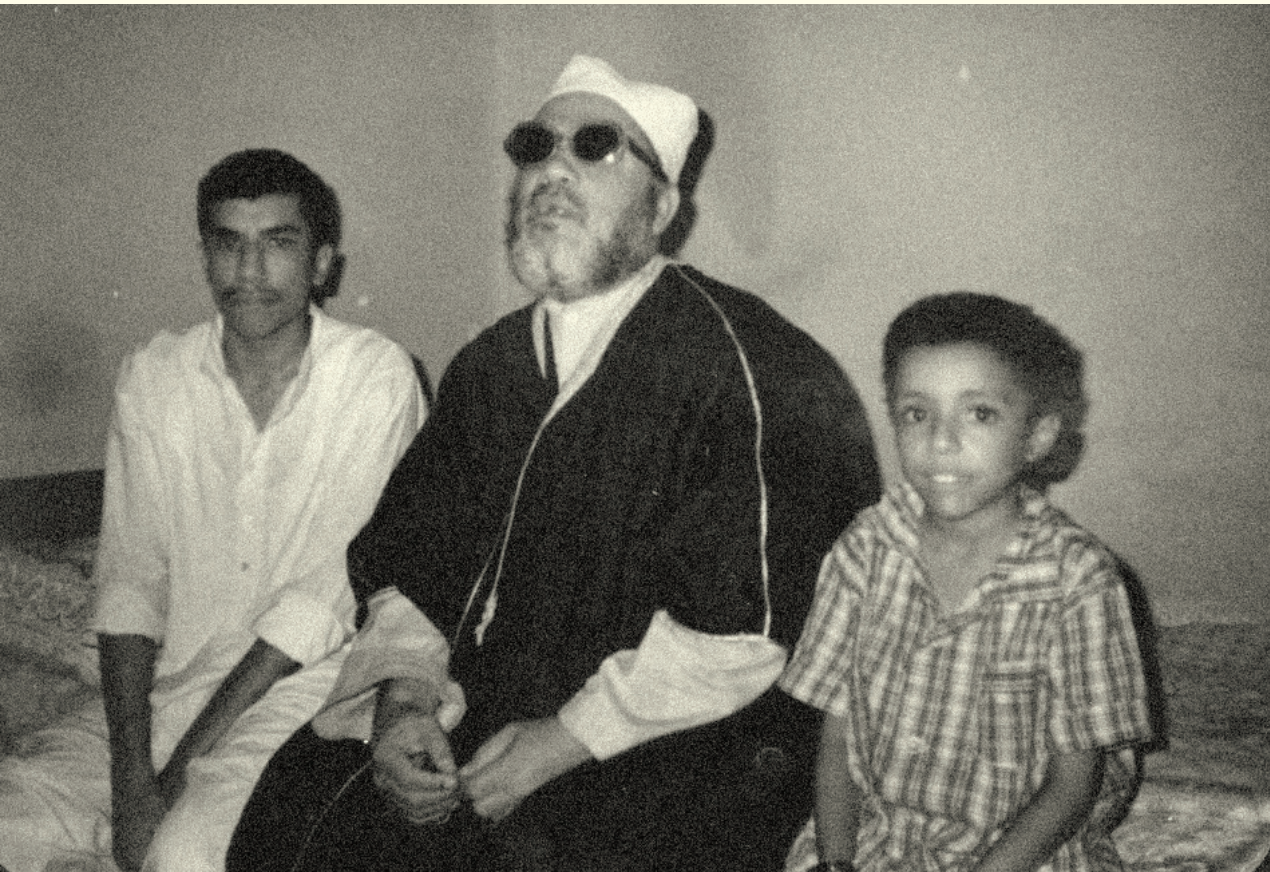

الـرؤى: يعني هناك مشروع سياسي، هو اعتبر أنه مثلا الشيعة جزء منه، وبالتالي هذا السياق دعنا نفهم بعض أفكاره..

السمهوري: هذا السياق العام.. السياق الخاص هو سياق دولة المماليك، المماليك أشعرية وصوفية وفسدة، يعني المظفر قطز، صاحب عين جالوت، الذي انتصر على التتار في مصر.. منعهم من دخول مصر.. وانسحبوا، بمجرد وغداة انتصاره قُتل غدرا، من قتله؟ الظاهر بيبرس.. الظاهر بيبرس شن حروبه على الصليبيين وعلى الإسماعيلية وكذا وكذا، طبعا إبن تيمية كان صبياً في ذلك الوقت.. ١٥ سنة تقريبا، ماذا جرى للظاهر بيبرس؟ قُتل غدرا، بعدها ظهر ابنه بركة خان.. بعد بركة خان طلع قلاوون.. بعد قلاوون طلع الأشرف خليل.. إبنه، الأشرف خليل أنهى آخر معقل للصليبيين، لكن بقي التتار، والتتار كرروا غزواتهم إلى دمشق مرة على مرة، حتى من قبل ابن تيمية هم يحاولون الاستيلاء على الشام، وهكذا كانت سياستهم إما انقلاب إما قتل، إذاً عندك أوضاع داخلية مهترئة، والسياق الخاص سياق ابن جنبل، الرجل الحنبلي الذي نشأ على ما كان عليه الآباء والأجداد من المذهب الحنبلي التقليدي، وتأثر بالفتوحات المكية في صباه، وقرأءه وكان مقتنعاً بما جاء فيه، ثم بعد ذلك تبين له وقال "وكان الآباء والأجداد على ضَلال"، هو لا يعني الضلال أنهم رايحين إلى جهنم، لأن كلمة "ضلال" عنده كلمة موضوعية حين يقول فرقة "ضالة" هو لا يقصد ملاعين.. بل هم آباؤه، هو يقول آبائي كانوا على ضلال.. كنا على ضلال، يشتم آبائه؟ وهو من أبرّ الناس بآبائه، من أبر الناس بأمه وأبيه، وكان على خلق زاهد، يعني ابن تيمية مشهود له بالزهد وبالتقوى وبالتأله وبالتخشع وبالصدق وبالعبادة وبشجاعة النفس وقوتها، فعندك ثلاث سياقات.. سياق عام، وسياق محلي، وسياق خاص.. سياق ابن تيمية، إبن تيمية كان حاد الطباع بشهادة إخوانه، الذهبي يقول "لو لاطف الخصوم لكان محل إجماع" يقول و"كان المعهود منه من التقريع والتوبيخ الأليم، وهذا الذي أحدث منه نفرة وكذا وكذا.." و"كان إذا جالس جليسه يكرمة مره ويهينه مرات"، الذي يدخل معه في نقاش يحتدولا يرى الذي قدامه.

حيرة: يجب عمل تحليل نفسي خاص لابن تيمية.. كيف كانت طباعه وأمزجته.

السمهوري: لا أشك أنه كان فيه شيء، لأنه حاد الطباع جدا. وحتى هذا ليس خطأ أن يكون الإنسان.. هو عبقري جدا.. لوذعي..يعني لوذعي، عبقري جدا حقيقة، وليس هو في حاجة إلى شهادة صغير مثلي، ولا شك أنه إمام كبير جداً وأنه علامة حقيقي، وأنه متفلسف من أهل الفلسفة الكبار، ورأسه برأس إبن سينا وأفلاطون وأرسطو والفارابي والخونجي وغيره يعني.. رجل علامة ويفهم الفلسفة تماما، ويرد عليها، الآن شئت أن تقول عنه مُسفسط قل ولكنك لا تستطيع أن تلغي ذكائه وعبقريته وقدرته على الرد حتى لو بسفسطة، في النهاية هو عنده عقيدة ويريد أن ينصرها بكل ما أمكنه. ومن هنا أنا تعلمت التفريق بين المنهج والأسلوب، عندما رد في كتابه منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية ذلك بسبب، ما هو السبب؟ محمد خدابنده.. إبن غازان، وغازان هو الذي غزى دمشق، طبعا الحديث كما ترى متشعب وليس منظما، غازان غزى دمشق ٦٩٩ هجرية.. وجيشه قَتَل من منطقة الصالحية.. من كان يسكنها؟ الحنابلة، مشايخ، حنابلة من عوامهم ومشايخهم، أئمة، فقهاء، قاضي الحنابلة أسر، وجرى سبي للنساء، طيب.. جيش مسلم.. المفروض غازان أسلم، قبل أربع سنوات ٦٩٢ تقريبا أسلم، فله أربع سنوات قد أسلم، وأسلم كما يقول الذهبي على يد أحد المشايخ الصوفية، لكن هناك مؤشرات تشير إلى ميله للتشيع، وابن تيمية قابل رجل اسمه قطلون شاه، وضح أنه كان شيعي.. ويقول "النواصب".. هؤلاء الشاميين النواصب، فكان عندهم قناعة أن النواصب وأعداء علي.. وبالتالي هناك استحلال للدماء، فمن الذي يَسبي؟ تسبي نساء المسلمين؟ هذا دليل على أن هناك تكفيراً حدث، سبي النساء واستحلال الدماء بهذه الطريقة.. هم مشايخ ليسوا مقاتلين، وأحد المشايخ من آل عبدالدايم، أظن علي بن عبدالدايم.. عندك أحمد بن عبدالدايم وعلي بن عبدالدايم.. فلعله علي بن عبدالدائم.. كان عنده فالج.. مصاب بالفلج لا يتحرك، فأدخلوا سيخاً في أحشائه، عملياً التتار فيهم وحشية، وكانوا مذكورين بذلك، ففتوى ابن تيمية عنهم.. وكان عنده انطباع أن هؤلاء اثني عشرية.. وهم خليط طبعا.. خليط منهم نصارى ومنهم كذا منهم كذا.. وأفتى فتواه، عندما قدم غازان القَدمة الأولى (هذا

يُعتبر عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠) رائد ورمز النهضة الإسلامية والوطنية في الجزائر، ومؤسس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين". لقد سخر حياته لمحاربة الاستعمار الفرنسي وتطهير المجتمع من الخرافات، وأصبح شعاره الشهير "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا" الركيزة الأساسية للهوية الوطنية الجزائرية.



كله موجود في الكتاب وأنا يصعب علي ذكر كل تفصيلة من التفاصيل) لكن بالجملة هذه التعبيرات الحادة التي كان يطلقها ابن تيمية كان يطلقها في سياق سياسي، و إلا عنده أقوال كثيرة في نفس الكتاب منهاج السنة النبوية هذا.. في نفس الكتاب كان يقول والإثنى عشرية (الرافضة كان يقول) كثير منهم مسلمون ظاهراً وباطناً.. حتى ليسوا كفار تأويل، وعند ابن تيمية بالنصوص القطعية عنه التي ما أحد يقدر أن يلعب بها ويؤولها.. كل من كان مصدقاً برسول الله في الباطن فهو منهم في الباطن.. كل من كان مصدقاً برسول الله غير مكذب به في الباطن فهو مؤمن في الباطن.. إلا من كذب به في باطنه، يكذبه ويعلم أنه يكذب، ولذلك يقول لا يجوز تكفير الثنتين والسبعين فرقة، يقول هذا مخالف لإجماع الصحابة و إجماع التابعين والعلماء الأربعة وغير الأربعة. فابن تيمية لا يطلق احكام التكفير على الفرق، وسُئل هناك من يقول إن الرافضة أكثر من اليهود والنصارى، قال كل من كان مؤمن بالله ورسوله فهو خير من اليهود والنصارى و إن كان على بدعة، مثل الشيعة والخوارج كذا وغيرهم، و إن كان يظن أنه متبع للرسول فليس هو مكذباً به، فأنا أقول لك بالله عليك هل هناك أحد يقول لا إله الا الله محمد رسول الله يسعى إلى النار برجليه؟ إلا إذا علمت أنه منافق حتما، طيب.. هذه كيف تعلمها؟ لا يمكن تعلمها.

الرؤى: **لو تعلق لنا هذه رؤية الإعذار أو السعة أو الرحمة التي كانت عنده، أو النظرة إلى الآخر.. لأن الرؤية السائدة التي موجودة في وعي كثير من الناس على خلاف ذلك تماما، وخاصة حينما يرون أن هذه الفئة أنجس من القردة والكلاب والخنازير.. هذه الفئة في جهنم وبئس المصير.. هذه الفئة اليهود أفضل منهم..**

السمهوري: هذه عنده.. لكن الأساليب.. حينما يسب.. يشتم..

الرؤى: **كيب الآن تقول لي بعض العبارات المنصفة منه تجاه الآخر .. وعبارات أشد منها موجودة.. كيف إذاً إذا أردنا ان ننصفه؟**

السمهوري: أنا اقول لك لماذا.. أنا تعلمت هذا وذكرته في الكتاب، أن افرق بين المنهج والأسلوب، المنهج الذي هو المنهج.. المسطرة.. المنهج يعني المعايير، يعني ممكن أنا أشتم المخالف.. ممكن أسبّه يعني.. يا أيها الملعون الفاسق الضال لعنة الله عليك يا ابن الكذا.. لكن ما أعتقد أنه كافر. منهجياً لا يعتقد بكفره.

طبعاً حدة في الطبع، وهذه بإجماع محبيه قبل خصومه، يعني حتى وهو في السجن قالوا له أنت تميل إلى التخشين، والتغليظ، وكذا.. فلو أنك رفقت.. قال أنا أحرص على هذا والمؤمن للمؤمن كاليدين وأحيانا قد يخشّن الإنسان عندما يغسل يده.. يخشن حتى ينظف يده.. فعنده نظرية في التخشين يعني، و إن كان التخشين غلب عليه، يعني التخشين غلب عليه، الذهبي يحبه جدا، لكنه كان ينتقده في هذا، إبن رجب الحنبلي يحبه جدا..

الرؤى: **أما في المنهج فهو تلك العبارات التي تدل على رؤيته في المنهج؟**

السمهوري: بالفقه الحنبلي التقليدي فاسق الاعتقاد، الآن الفسق عند إبن قدامى وعند المرداوي -في الإنصاف اعتقد- يذكر الكلام المعتمد عند الحنابلة في فاسق الاعتقاد، فاسق الاعتقاد لا تقبل شهادته عند القاضي، هذا المعتمد في المذهب، من هو فاسق الاعتقاد؟ من قال إن القران مخلوق، ومن قال إن الله لا يُرى، هذا تراه في كل كتب الفقه الموجودة عند جميع الذاهب، يعني لكي نكون منصفين، وهذا كله على فكرة مشكل تاريخي، يقول المرداوي إنه عليه المعتمد.. إنه فاسق الاعتقاد، ومن الحنابلة من يرى أن من يعتقد بهذه الأشياء يكفر، بعدها ينقل قول ابن تيمية.. قال إبن تيمية بل لا يُفسَّق، فتخيل قول ابن تيمية المعتمد الذي فهمه عنه الحنابلة المتأخرين وهو على خلاف جميع الحنابلة من أحمد بن حنبل إلى ابن تيمية.. أن ما تسمونه يا حنابلة في معتمدكم فاسق الاعتقاد وأنه لا تقبل شهادته عندي أنا يا ابن تيمية لا يُفسَّق ولا يأثم، وهذه يدونها الحنابلة قولاً في المذهب عن ابن تيمية.. تفرد به عن سائر الحنابلة من أحمد بن حنبل إلى زمنه.

الرؤى: **إذاً الخلاصة في المنهج.. إبن تيمية رؤيته للآخر هو يعتبره مسلما؟ يعتبره مجتهدا؟ و إن كان يعتبره مخطئا مبدتعا رأيه خطأ؟ يخطىء رأيه؟ ولكن لا يراه من أهل النار، لا يراه خارج ملة الإسلام؟ لا يراه مثلاً غير محقون المال والدم والعرض؟**

السمهوري: بل أقول لك.. يقول إن المصدق



يُعتبر كتاب "الحموية"، المعروف باسمه الكامل "الفتوى الحموية الكبرى"، أحد الرسائل الثلاث الأساسية لابن تيمية في موضوع العقيدة (إلى جانب الواسطية والتدمرية)، وهذا الكتاب هو في الواقع فتوى مفصلة ومؤصلة بالدليل، كتبت في عام ٦٩٨ هجري.

والمؤمن والمتأول برسول الله كائنا ما كان خطأه -ضع عشرين خطأ-.. وفي سبيل هذا يحتج، يقول السلف بعضهم أعطى قرائات متواترة من القران، شُريح القاضي قوله تعالى "بل عجبتُ ويسخرون" يُنكرها، هي قراءة عشرية يعني قراءة ثابتة ومتواترة، يقول لا أنا أنكرها، "بل عجبتَ" ينكر صفة العجب لله، وينكر القراءة المتواترة، هل كان شريح القاضي يعيش في بادية بعيدة؟ أم كان عالماً يعيش في بيئة علمية؟ يعيش في بيئة علمية، فلم يكفّره السلف.. بل هو بالإجماع إمام من الأئمة، طيب عندك عبدالرزاق الصنعاني، ينقل له الذهبي أنه كان ينال من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ينال من معاوية بن ابي سفيان، ومن أبيه، طيب؟ وهو من كبار شيوخ أحمد بن حنبل، بعض السلف الصالح أنكروا حتى قراءة متواترة من القران، ومع هذا لم يكفرهم، لم يكفرهم أحد، بل هم بالإجماع من الأئمة، عبد الرزاق الصنعاني على سبيل المثال كان ينال.. له نصوص ذكرها الذهبي، يعني من أراد يرجع إلى سيرته عند الإمام الذهبي، والإمام الذهبي رجل نقّاد ثقة، كان ينال بن عمر بن الخطاب، كان له كلام ينال فيه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وحاشاه رضي الله تعالى عنه، وله كلام ينال فيه من معاوية بن أبي سفيان ومن أبيه، ومع هذا لم يقل فيه أحمد بن حنبل إلا كل خير، وهو شيخ الإمام أحمد، وهو إمام، وهو ثقة، بل يحيى بن معين صاحب الإمام أحمد.. وكان صاحبه في رحلته إلى اليمن عندما أخذ عن عبد الرزاق الصنعاني رحمة الله عليه.. كان يقول والله لو ارتد عبد الرزاق ما تركنا حديثه، ويقول ابن تيمية إن كثيرا من التابعين كانوا قدرية، ينكرون المعاصي، يعني يقولون الله لا يريد المعاصي قَدَراً.. وأن العباد يحدثونها، وقد رُوي عنهم الحديث، كان قتادة بن دعامة السدوسي من التابعين، كان يصيح بالقدر صياحاً، يصيح يعني هو داعية، ومع هذا رُوي عنه، وهو إمام وثقة وحجة، فإبن تيمية يحتج بهؤلاء.. أن هؤلاء لا يكفرون، بل الخوارج.. الخوارج الذين كانوا



أسامة بن لادن (على اليسار)، مؤسس تنظيم القاعدة وزعيمه السابق. وأيمن الظواهري (على اليمين)، مُنظّر القاعدة الذي تولى قيادة التنظيم بعد بن لادن.

يكفّرون علياً وغيره من الصحابة.. ماذا قال عنهم الإمام علي؟ بإثبات أهل السنة إخواننا بغوا علينا، وما سَل السيف إلا عندما سُل السيف، هذا الذي في التراث، فهذا كله مستندات ابن تيمية في عذر المخالف، بل يستند بحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أن رجل قال إذا أنا مت فاحرقوني وثم ذروني.. فلإن قدر الله علي لا يرحمني أبدا.. أو شيء من هذا القبيل، شك في قدرة الله، في قدرة ربه.. هذا ماذا حكمه؟ من شك في قدرة الله؟ عند العلماء؟.. يكفر، يقول هذا شك في قدرة الله، يعني قال لهم احرقوني حتى لا يجمعني ربي، هذه مستندات ابن تيمية في عذر المخالف، ولذلك الذهبي يقول مذهبه توسعة العذر للخلق، لكن مع الأسف الآن..

الرؤى: **هذه رؤية كلها غُيّبت.. أستاذنا هنا في هذا السياق أيضاً رأيه في فناء النار في هذا السياق يأتي وحتى هذا في آخر عمره يكشف عن أنه كان يفكر وإذا هناك آراء يتبناها ويطرحها أيضاً بجرأة.. أيضاً يمكن متأثر فيها من إبن عربي وطورها..**

السمهوري: أنا لا أذكر.. أنا رائد.. قد يكون أحد يذكر.. أنا لا أذكر أنه صرح بفناء النار لكن أدلته ربما تؤدي إليها، بعض الأحاديث أن النار سيأتي على جهنم يوما أو تصفق أبوابها.. من هذا الموضوع، وهذا خالفه فيه حتى السلفيون أنفسهم، منهم مثلا الشيخ الألباني.

الرؤى: **كأنما هذه تكشف نزعة رحمة وإعذار في سياق ما تحدثت عنه..**

السمهوري: بالمناسبة هذه يشابه بها ابن عربي، حقيقة أنا لست مطلعا عميق الاطلاع على تراث ابن عربي.. لكن اطلعت على بعض أقواله، وفي اعتقادي أن ابن عربي من موارد ابن تيمية، موقف ابن عربي من المتكلمين سلبي، وموقف ابن تيمية من المتكلمين سلبي، ابن عربي على فكرة هو ظاهرياً وليس باطنياً.

ولظاهريته قال ما قال، هذا رأيي أنا، ممكن أحد يخالفني فيه براحته، لكن أنا أقول افتراضي، لأن الذي قرأته على ابن عربي يفيد أن الرجل ظاهري، بل هو في الفقه ظاهري حتماً، واعتقد في العقيدة أيضاً ظاهري، وظاهريته أدت إلى أن يقول هذه الأقوال العجيبة التي ينكرها عليه غيره، فهو يقول بإثبات الأسماء والصفات، تقسيم التوحيد إلى توحيد علمي وتوحيد عملي وجدته عند ابن عربي أيضا، قبل ابن تيمية، فأعتقد أن من موارد ابن تيمية هو ابن عربي.

الرؤى: **نظر للفتوحات المكية ٤٠ سنة كما هو يعني..**

السمهوري: لا أعلم إذا كان نظر ٤٠ سنة لكن قطعاً هو قرأ الفتوحات المكية، وقطعا اطلع عليها حتما، وابن عربي يقول بفناء العذاب في النار، يرى أنه ستتحول إلى عذوبة.. ينتهي العذاب.. وتصبح علاقة أهلها بها علاقة التذاذ. إبن تيمية يقول بفناء النار، لكن الأحاديث التي تقول تصفق أبوابها لا يعني فنائها، يعني أنا في النهاية لم أحقق في هذه المسألة..

الرؤى: **لكن النزعة التي سألتها لعلها في سياق..**

السمهوري: هي في سياق تغليب الرحمة حتماً، لأن ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم، هذا الأصل، وهل العقوبة للتشفي؟ يعني هل الله له غرض في الانتقام؟ يعني على فكرة هذه لها جذور في التراث الإسلامي قبل ابن تيمية بكثير، أبو الحسين الصالحي المعتزلي له قول مفهومه أن الله خلق الآخرة من أجل الدنيا ولم يخلق الدنيا من أجل الآخرة، كأن القضية هي إقامة الحياة في الدنيا على الإنصاف وعلى العدل، والآخرة ما هي إلا ثواب وعقاب، السؤال هل من الحكمة تعذيب الناس أبد الآبدين؟ هل هذا من الحكمة؟ إبن تيمية لم يصرح.

الرؤى: **هناك نقطة أخيرة أريد أضوي عليها، أنه في رسالة المحبة الإلهية وهي لابن تيمية وابن القيم الجوزية.. لو تحذف الإسم ترى أنه هناك نزعة من إسلام جميل ورحيم ولطيف وأخلاقي ومتناسق مع التراث الروحي الإسلامي كله.. كأنما يتقمص شخصية أخرى تماماً.. بعض العلماء يرون أنه تراث عالم معين إذا كان تارة هو يكون في صدد الرد على الآخرين أو متشنج أو ناظر إلى الآخرين والجدال أو المخاصمة.. ولكن حينما يهدأ ويكون هناك تجلياً آخراً في شخصيته أيضاً أو تظهر زاوية أخرى فيه لم نكن نعرفها.. فهذا الكتاب لعله يعبر عن هذه الزاوية مثلا.**

السمهوري: أنا ساضيف إلى كلامي، هناك قاعدة أن باب الرد غير باب الإنشاء أو باب التأسيس، دائما في ردود العلماء بعضهم على بعض ربما يحتج بأي شيء ممكن، حتى لو كان بالفاسد، وأنا أقول لك ابن

تيمية يحتج بأمور فاسدة فقط للرد على الخصم.

الرؤى: **يحصرك في زاوية يستعين بأي شيء.**

السمهوري: بأي شيء، وأنا باعتقادي أن ابن تيمية كان يعي هذا، يعي أنه يرد أحياناً بما ليس في نفسه حجة هو يعلم ذلك. أساليب الجدليين بشكل عام، أنه يرد بما تيسر له، وإذا كان أحد يسمعني يعتني بالعلوم الشرعية فأقول هذه اقتراح لشهادة دكتوراه أو ماجستير دراسة تدرس الحِجاج التيمي في مسألة الرد.. كيف كان يرد، ليس المنطق والعقل وكذا.. بل الجدل، يعني كيف كان يرد، لكن النظام الصوفي نفسه.. لا.. ابن تيمية كان معظماً لعبد القادر الجيلاني، ويسميه سيدي عبد القادر، وشرح كتابه فتوح الغيب، ويستدل بأقواله، وفي مجموع الفتاوى له نصوص والله ما تقول إلا إنه ابن عربي، يقول لك فيلحضون وجود الله وفناءهم المحض، هذه كلمة أنا أثبتها له.

الرؤي: **رسالة المحبة كلها "والذين آمنوا أشد حبا لله".. وعن مراتب المحبة.. وعن السير إلى الله.. كل هذه الأدبيات يستخدمها.. حتى المصطلحات يأتي بها بعض الأحيان..**

السمهوري: بالضبط.. المصطلحات الصوفية يستخدمها، مشكلته هي ليست مع التصوف، بالعكس هو يصنف التصوف إلى ثلاث أقسام، لكن التصوف الذي يرفضه هو وحدة الوجود والحلول والاتحاد، لما سيؤدي إليه من الجبر وزوال التكليف، يعني ما هو القبيح.

الرؤى: **لكن في الناحية الأخرى هناك الأبعاد الروحية فهو يتماهى معها.. هذا جزء من شخصيته.**

السمهوري: كان يسجد ويقول "يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره، لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابرة"، يستدل ويقرأ بيتين شعر أثناء سجودة لله عز و جل، وكأن يخرج وحدة إلى الخلاء ليخلو بالله سبحانه وتعالى، يقول و"أخرج من بين الديار لعلني أحدث عنك النفس بسر خاليا". فعنده هذا

إنّ قبور كلّ من ابن تيمية (توفي ٧٢٨ هـ)، وابن كثير (توفي ٧٧٤ هـ)، وابن الصلاح (توفي ٦٤٣ هـ) تقع بجوار بعضها البعض في مقبرة الصوفية التاريخية بدمشق.



الجانب الصوفي، الذي هناك حاجة إلى كشفه وهذه أيضاً نصيحة أخرى لمن يريد أن يبحث أنه أخرج هذا الجانب باتساع وسعة أفق وسلط الضوء عليه بطريقة علمية وجميلة.

الرؤى: **فكانت فيه هذه الجوانب، ولكن قد تكون..**

السمهوري: يعني أقول لك إبن القيم عالة في مجمل أحواله على شيخه ابن تيمية رحمة الله عليه، إبن القيم الذي ألف مدارج السالكين هو نفسه الذي كتب الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.. هو نفسه، وهذا الذي يجب أن نفهمه، لكنه في جانب التصوف كتبه.. مدارج السالكين.. من أعمدة كتب التصوف في التراث الإسلامي كله، ما أحد ينكر هذا.

الرؤى: **بقي موضوع السجون.. في عدة مرات إبن تيمية سُجن، سياقات ذلك هل كانت سياسية أم لآراءه الكلامية؟**

السمهوري: برأيي كل سجونه لها علاقة بالسياسة والأوضاع، أنا أقول لك.. أول سجن سُجن شيء بسيط يومين أو ثلاثة وضرب أعتقد، كان في أول مطلعه سنة ٦٩٣ هجرية في حادثة عساف النصراني الذي شتم النبي صلى الله عليه وسلم فثار الناس لكنه استجار بأحد الأمراء المماليك الذين لهم وجاهة فأجاره، لكن ابن تيمية بقي يحرّض عليه، لأنه شتم النبي صلى الله عليه.. ليس لعباً، فهنا (نسيت من كان والي دمشق وقتها) فهنا أوتي بهذا الرجل فأعلن إسلامه، حتى ينقذ نفسه من القتل عساف النصراني وانتهت القضية، واسترضى إبن تيمية ورجل آخر معه من العلماء وانتهينا. سنة ٦٩٨ هجرية طبعا كان هو من مقربا من والي دمشق.. جمال الدين الأفرم أتصور.. وكان له نوع سلطة، فحوقق على فتواه الحموية، طبعا هذا يدخل أيضاً في نزاع الحنابلة مع الشافعية والأشعرية الممتد من أيام البربهاري من أيام عبد الله بن أحمد بن حنبل والخلّال ومشكلة الحنابلة وأبو بكر بن أبي داود مع محمد بن جرير الطبري والبربهاري.. تاريخ الحنابلة في بغداد وغير بغداد تاريخ حافل بالنزاعات مع الأشعرية وغير الأشعرية والمعتزلة، فقد يكون هذا أيضاً حلقة من حلقات نزاع الأشعرية مع الحنابلة، لكن هنا البطل هو إبن تيمية وهو أكثر الحنابلة سعة في الردود على المخالف، إبن كثير يصف هؤلاء بأنهم حسدة، أن السبب ليس العقائد و إنما الحسد، ولقربه من الدولة، إذاً توجد قضية سياسية هنا، تجد مثلاً حسام الدين لاشين مثلا.. من أحد الأمراء المماليك.. أو بيبرس.. ليس الظاهر بيبرس.. بيبرس الجاشنكير الذي خرج على السلطان محمد بن قلاوون وانقلب عليه.. عنده جماعة أيضاً من العلماء معه.. فهناك نزاع أمراء وحولهم علماء.. فابن تيمية دخل في هذا الأتون، فهم من باب الحسد، لذلك لا يفسرها تلاميذ ابن تيمية إلا بالحسد، الرجل ما قال شيء.. في النهاية هو رأي علمي.

الرؤى: **سجن مدة على ذلك؟**

السمهوري: في الحموية انفصلت على خير، لكن بعد ذلك.. طبعاً بعد غزوة غازان وخلت دمشق من الحكومة.. يعني من القاضي من المشدّ ومن كذا.. وقام إبن تيمية بدور ريادي.. ما عاد في أحد في الدولة في دمشق على أي حال.. وهنا وقف هو و زملائه وتلاميذه وبعض المشايخ والوجهاء في دمشق.. وقفوا وقفة يعني فعلا غطى ثغرة أمنية واجتماعية هائلة في دمشق، وطبعا الناس مفجوعين.. الذي قتل.. والذي كذا.. تعرف أنت حروب، وأطلق المجرمون من السجون.. حرب مثل الحروب التي نشهدها الآن، ومن قدر على شيء أخذه وأصبح الإنسان يعتدي على الثاني فلا يُقتص له، وهذا يقتل وهذا يفعل.. فوضى.. فابن تيمية قام بدور ريادي جداً ونظّم الأمن وأعاد الحقوق إلى أصحابها وبدأ ينفذ الحدود الشرعية.. يجلد و كذا.. بمعونة أهل دمشق و وجهاء دمشق، وقام بدور الحكومة، طبعا هذا إذا أردنا نتكلم عن كيف يستعاد بن تيمية سنتكلم عن هذه، لأنه في وقت فراغ أمني فعل هذا ليس بوجود السلطان. طبعا إضافة إلى الغزوات التي شارك فيها.. غزوة شقحب ذهب بنفسه وجمع المماليك وراح إلى السلطان وناشدهم تعالوا من يدافع عن دمشق؟ إن لم تدافعوا عنها نحن نعين سلطانا وندافع عنها.. فهنا جمع الناس وانتصروا على الجيش التتري وهو كان خليطاً، وفي هذه المناسبات هو أطلق فتاواه الحادة، فتاواه ضد جبل كسروان والنصيرية وكذا وكذا.. ثم اتضح أنه خلاف ذلك، ونهى عن سبيهم وقتلهم، لأنه أفتى بسبيهم وقتلهم ولما طلع الدليل نهى عن سبيهم وقتلهم، وهذا لا يعرفه كثير من الناس الذين يروجون فتواه الآن، أنه هو أول من رجع



يُعتبر كتاب "العقيدة الواسطية" من أشهر رسائل ابن تيمية الاعتقادية، وأكثرها اختصاراً وتأثيراً في آن واحد، حيث يُعد المرجع الأساسي لعقائد السلفية.

عن فتواه، وهذه موجودة في الكتاب . هو تكلم عن مسألة نظرية، لكن عندما شافهم فلاحين وغلابة ومساكين وكذا.. نهى عن قتلهم. بعد هذه.. بسبب ظهوره في العامة وكذا وانقلاب الجاشنكير على السلطان قلاوون.. لأنه في جبل كسروان انقلب على السلطان وعمل له إقامة جبرية، وهنا من هو الشيخ الذي يتصل به قلاوون؟ لأنه في العادة دائماً إذا تخلصت من أحد تتخلص من معاونيه وأصدقائه وتتخلص من كذا وكذا.. من يقرأ سيرة وتاريخ المماليك يجد هذه الظاهرة، فابن تيمية محسوب على السلطان قلاوون، هذا شيخه.. الذي ينافح عنه وكذا، فهنا دبروا له هذه، بغطاء ديني طبعا وعقائدي، وسُجن، سَجنه علماء الأشعرية.. ليس كلهم طبعاً.. بعض علماء الأشعرية كانوا من مناصريه، وبقي مسجونا سنتين أعتقد في مصر، ثم أطلقوه وأرادوا إعادته إلى الشام، وهو في الطريق رجّعوه وأيضاً سجنوه مرة أخرى، طبعا أيضاً كان له كلام في إبن عربي طبعا هذا أيضاً من أسباب سجناته، في فصوص الحكم..

الرؤى: **سجنوه.. يعني الثقافة العامة تتبنى فكر إبن عربي وبالتالي من يخالف يعتبر.. ؟**

السمهوري: هذا الذي نحن قلناه، دعوى جديدة، وبهذا السياق شبهوه بابن تومرت..

الرؤى: **إبن عربي كان له بتلك الأيام من الحضور والتأثير؟**

السمهوري: إبن عربي كان حاضراً بقوة، وعلى فكرة بقي حاضراً حتى ظهور عبدالوهاب..

الرؤى: **قرون متعددة ابن عربي كان له هذا الحضور والصيت والتأثير.**

السمهوري: أحد المفتين.. إبن سليمان باشا.. ناسي اسمه.. شهير جداً.. كان يوجّه خطاباً للدولة أن عليها أن تحمل الناس على القول بوحدة الوجود حملاً، لأنه هو يرى التوحيد المطلق هو لله عز و جل، الحديث يطول جداً أنا لا أدخل في تشعبات.

الرؤى: **نختم موضوع السجون.. هل هناك مثال آخر؟**



قلعة دمشق: مشهد للجدار الغربي.
المصدر: المكتبة الرقمية لموقع أركنت (Archnet)

السمهوري: سجن أيضاً لفتواه في شد الرحل لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام.

الرؤى: **لماذا هو شديد على هذه المظاهر؟ هذا ضمن سياق نظرته للتوحيد أيضاً؟ طول تاريخهم المسلمون يحبون النبي ويتوسلون به ويستمدون منه ويتبركون فيه.. وما أحد عبد النبي.**

السمهوري: القضية عنده سد الذرائع، لأن لا يُتذرع بها إلى كذا وكذا وكذا.. هو فقه، في النهاية هي مرحلة فرعية ما هي عقائدية، هي مرحلة فقهية، مسألة فقهية.

الرؤى: **سد الذرائع من أجل ماذا؟ يعني ما أحد في تاريخ المسلمين ادعى عبادة النبي وتأليهه حتى هو يخشى من شيء.**

السمهوري: هو شد الرحل مطلقاً، ومن ضمنها شد الرحل إلى زيارة قبر النبي، تقول لا أزور المسجد.. تقول أشد الرحل لزيارة المسجد، ليست مشكلته زيارة القبر.. ولكن مشكلته شد الرحل إليها، زور القبر.. بالعكس هو أمر مندوب.. وسنة.. ومدعو إليها، والقضية عنده في شد الرحل وليس في زيارة القبر، وهي مسألة حقيقة فرعية، وسجن بسببها، وكان في دمشق وقتها، سجنته هذه في دمشق، الآن ما اقدر أن أعددها.. احتاج إلى أن أراجع لكي أعددها، لكن سجن على إثرها أشهراً.

الرؤى: **فقه الطلاق أيضاً سياقه سياسي هنا؟ هو تبنى رأي الإمامي، صحيح؟**

السمهوري: نعم.. طبعاً في فقه الطلاق هو خالف الأئمة الأربعة، وقريب من مذهب الإمامية فيه، طبعاً أنا في رأيي فتواه تعتبر فتوى جدا عظيمة لأنها تحفظ الأسرة غالبا، جون هوفر نقلا عن يوسف رابيورت -أضن اسمه- يقول إن الطلاق لم يكن ينظر إليه على أنه مجرد فتوى ولكن لما كانوا يأخذون العهود والمواثيق على بيعة السلطان.. كان الذي يأخذ البيعة يحلف بالطلاق.. وهو بالضبط ما عُذّب به مالك بن أنس.. رحمة الله على الإمام مالك، قال "لا يمين على مكره" أو شيء من هذا القبيل.. ناسي أنا الفتوى..

الرؤى: **ما الذي تبناه إبن تيمية بالتحديد في موضوع الطلاق حتى..؟**

السمهوري: أن طلاق الحائض لا يقع.. وقضية حلف يمين الطلاق.. أنه هل يُنوى به اليمين أو ينوى به الطلاق.. ناسي أنا التفصيل..

الرؤى: **ولكن ما تبناه يشكل خطراً على الجهاز الحاكم لاتصال هذه الأمور في مواضيع..**

السمهوري: لم يصرحوا بذلك.. لم يصرحوا بذلك، لكن العلماء كلهم ثاروا عليه.. حتى الحنابلة على فكرة، بعض الحنابلة ثار عليه، هذا لا يعني أن تلاميذه لا يأخذون به..

الرؤى: **بالتالي هو سجن على هذه القضية أيضاً؟**

السمهوري: أضن هذه كانت آخر سجناته..

الرؤى: **ثم مات موتة طبيعية بمرض وكذا.. أو له سياق خاص؟**

السمهوري: هو بقي في السجن، سيرته ملهمة جدا، أنا أحبه جداً.. أنا أحب هذا الرجل جداً، وأحسب أنه رجل صادق التوجه، وأحسب أنه عالم فذ.. علامة يعني.. علامة علامة علامة.. علامة كبير، وأحسبه أنه من أذكياء الدنيا، ليس من أذكياء المسلمين فقط، ومهما أخذت عليه بالردود ومن أسلوبه الحاد و من أنه يرد كل ما اتفق عليه حتى لو كان غير صحيح.. لكنه مُعظم عندي جدا جدا، وأحبه جداجدا.. ولو كنت في زمنه ربما لكنت من أتباعه، وأحب فيه صموده وجرأته في قول الحق.. وهذا أمر لا يتوافر عندي، وهو أشد جرأة مني، وأحب فيه صلابته، وأنه لا يبالي، وهو أيضاً زاهد من الزهاد، ولم يُنشئ مثلاً جماعة جهادية مقاتلة.. بل كان مواليا للسلطة.. لم يخرج على السلطة، بغض النظر عن السجن، وعَفى عن كل الذين تسببوا في سجنه، وكان السلطان يريد قتلهم لأنهم كانوا متآمرين عليه مع خصمه جاشنكير عندما عاد السلطان قلاوون مرة أخرى.

الرؤى: **كيف توفي؟**

السمهوري: توفي.. منعوا عنه كتبه وأقلامه.. لأنه كان يكتب بسرعة، هو رجل يتحدث بسرعة، يعني كان يغمض عينه وينطلق وينثال بلا خطأ ولا لحن ولا تلعثم، وكأنه يقرأ من كتاب. وأيضاً لعل هذا له أثر أيضاً في اضطراب النفسية، وأيضاً يكتب بسرعة حتى أنه لا ينقّط الحروف.. يعني يكتب يكتب يكتب.. يكتب أشبه بالمشبك، فكان عنده تلميذه إبن رُشيق المالكي كان يفتح عليه الخط أحيانا.. يفتح على شيخه الخط أحيانا، يقول ما هذا؟ فيقول لها هذه كذا شيخنا، فكان يكتب بسرعة، وروحه في الكتابة.. فلما منعوا عنه الكتب و دواته، أعتقد أن هذا أثر في نفسيته أيضاً تأثيرا كثيراً كثيراً.



ينقد هذا الكتاب مفهوم "السلف الصالح" ويبحث فيما إذا كانت هذه الهوية واقعاً ملموساً أم صورةً متخيّلة؛ حيث يُحلل المؤلف -بالتركيز على "محنة خلق القرآن"- الإمام أحمد بن حنبل ونموذجه الفكري باعتباره نموذجاً للسلف المتفق عليه لدى مذاهب أهل السنة.

الرؤى: تحدثت أن رأيك أن ابن تيمية فيلسوف وذكي ورأسه برأس أفلاطون و إبن سينا وكبار الفلاسفة.. هنا السؤال: رجل بهذا المستوى كما تعبّر أو تعتقد.. كيف يقدم الله والتوحيد بصورة مثلا مجسمة مشبهة.. الأطيط وصوت العرش.. يعني هذه العبقرية كان ينبغي أن تقدم الله بصورة منطقية عقلانية أكثر من ذلك.. يعني الإنسان ما يقدر يجمع بين هذه الصفة وبين ما يراه من نتيجة في فكره.

السمهوري: طيب ما رأيك بذكاء أرسطو؟ هو نفس القضية، كيف إنسان بهذه العبقرية والذكاء يقول بهذا؟ هذا نفسه، على فكرة عند جميع المفكرين الكبار

الرؤى: تناقضات معينة يعني في مَواطن من الفكر؟

السمهوري: أنا حقيقة لا أحب الدخول في مسائل أسماء الله وصفاته.. كنت أدخل فيها زمان..

الرؤى: لا ندخل في التفاصيل.. لكن كيف هكذا.. العقل الذكي كيف يصل إلى هكذا نتائج؟

السمهوري: مثل ما أقول أذكياء وصلوا إلى نتائج أسوأ من هذا.. أرسطو.. واضع علم المنطق.. الربط بين الذكاء ونتائج البحث قد يكون من نتائج ذكائه أنه توصل إلى هذا، ما أضرك؟ فأنا تعقيبي الأول أنه لا داعي للربط بين الذكاء والنتائج التي وصل إليها، الشيء الثاني أن الرأي بقضية إثبات الأسماء والصفات والأحاديث كما جاءت.. هذا مذهب عريق.

الرؤى: وهناك إشكال يراه البعض أنه كان شديداً جداً على موضوع أهل البيت، وكان يفهم من بعض عباراته حقدا على الإمام علي بن أبي طالب مثلا، وهذا الذي سرى إلى بعض أتباعه الوهابية وكذا، أنهم أخذوا هذا الحقد والكرة أو الحيادية من أهل البيت خلاف السنة.. -أنا ما أتكلم حالياً عن الشيعة أو الصوفية- خلاف حتى الرأي السني



قلعة دمشق: مشهد للجدار الغربي.
المصدر: المكتبة الرقمية لموقع أركنت (Archnet)

والمعتزلي العام؟

السمهوري: ما هي كنيته أبن تيمية؟ ماذا كنيته؟ أبو العباس.. كنيته أبو العباس، وأنا ما أعرف ماذا سبب هذه الكنية، يعني هو ليس عنده أولاد.. هو ما تزوج أصلاً. عاش حصورا، ولذلك لا يبالي بشيء.

الرؤى: **جدّهم.. هناك شواهد معينة في تراثه أيضاً؟**

السمهوري: هو الرجل يترضّى على سيدنا علي في كل ساخة، ألم نقل إن مقام الرد غير مقام الإثبات؟ هو في العقيدة الواسطية يتكلم على قضية علي بن أبي طالب، المذهب المعتمد كسائر أهل السنة أنه سيدنا... سائر أهل السنة لا يفضلون علياً على أبي بكر وعمر، لا يفضلونه.. مسألة تفضيل، لكنهم يترضّون عليه ويحبون آل البيت، وهو من أهل السنة في هذا الجانب عادي، لكن في المشاكل التي يُخرجها الآن الناس عن إبن تيمية يخرجونها من كتابه منهاج السنة تحديدا، منهاج السنة النبوية تحديدا، في الرد قلنا إن الناس يميزون بين مقام الرد ومقام التأسيس، فهو في مقام التأسيس يريد أن يعكر على هذا فيرد عليه حتى أنه في بعض النصوص في منهاج السنة يقول إذا قال الناصبي كذا وكذا وكذا.. ماذا ستقول؟ ونقول لك حتى الجاحظ في كتابة العثمانية ذكر كل هذه الحجج، إن علي بن أبي طالب كان أول الناس إسلاماً.. قال إسلام الصبي، يعني إسلامه صبي، و إسلام الصبي لا يصح.. في مقام الرد، لكن الجاحظ نفسه.. لأنه يقدم عثمان.. هو بصري.. البصرية يقدمون عثمان، يتكلم عن الكوفة ومسجد علي عندهم.. مسجد الإمام علي في الكوفة، يقول وهو مهمل، ولو كان في البصرة يقول لمسحه الناس بخدودهم...

الرؤى: **طيب أستاذنا الصورة المغلوطة تماماً التي أخذها الوهابية وقدموا فيها إبن تيمية.. الآن ابن تيمية قُدم في العقود الأخيرة من خلال الإعلام الذي نشره الوهابية وعلمائهم وخطبائهم والتي هي صورة غليضة شديدة متحجرة متعصبة مكفّرة، والتي هي أدت إلى حركات تكفيرية و دواعش و إلى آخره من الأمور.. هذه الرؤية كلها طبعا أنت الآن ما بينته ينقدها.. لكن إذا عندك تتميم في هذا الموضوع أنه هناك صورة مخيالية خلقت هي واستعيدت بشكل آخر تماما، صحيح؟ مشوهة، وهذا ما له علاقة بالأصل، أنت نقيت الموضوع وبينت الأصل.**

السمهوري: طيب.. لكن نقطتين هنا، داعش وما داعش وجبهة النصرة وكذا وكذا.. المعتمدين على تراث إبن تيمية لم يُخرجهم إبن تيمية يعني، وليس هم "والله قرأنا إبن تيمية، الآن سنخرج!" لا ليس هذا الموضوع..

الرؤى: **هو ليس العلة الأساس في نشأتهم وأفكارهم؟**

السمهوري: لا... سبب ظهور هذه الحركات ليست الأفكار.. ليست أنهم قرأوا إبن تيمية وخرجوا، ليس هذا، السبب هو ظهور الاستعمار، أحوال الدول الهشة التي يعيش فيها كثير من المسلمين، الأحوال التي صايرة.. الاستعمار والأوضاع السياسية، وعندما تظهر مثل هذه يحتاجون إلى تبرير إلى تسويغ من التراث، لو لم يوجد إبن تيمية لأخذوا غيره على فكرة، وكتبهم على فكرة ليست حاصرة قاصرة على إبن تيمية، و إنما تجد ابن تيمية وغير ابن تيمية، يعني يعتمدون على ابن تيمية وغيره، عبدالسلام فرج يعتمد على إبن تيمية ضد التتار الغزاة، ورد عليه العلماء في وقتها، وربما تسنح فرصة أخرى للكلام عن فتاوى إبن تيمية كلها، واحدة واحدة بظروفها السياقية، اللقاء لا يتسع لهذا كله، يعني الموضوع متشعب جدا وطويل، أنا متاكد ١٠٠٪.. لأنه متى طبعت كتبه؟ يعني ما تزال تطبع على فكرة، وما يزالون يكتشفون نصوصا ناقصة أو مبتورة، لا يزال، محمد عبد الوهاب أنا باعتقادي لم يقرأ كثيرا عن إبن تيمية، أعتقد أنه قرأ أشياء بسيطة، لكن مجادل عبد الوهاب.. أخوه سليمان بن عبد الوهاب لما رد على أخيه -نسيت اسم الكتاب.. بماذا احتج عليه؟ قال له أنت لم تفهم إبن تيمية.. إبن تيمية يقول كذا وكذا، يعني حتى سليمان بن عبد الوهاب أخوه رد عليه، بعد قرن من الزمن واحد من علماء الأحناف في العراق اسمه داوود إبن سليمان بن جرجيس البغدادي.. له كتاب اسمه صلح الإخوان من أهل الإيمان وبيان وبيان الدين القيم في تبرئة إبن تيمية وابن القيم.. هذا بعد إبن عبد الوهاب بـ١٠٠ سنة يعني قرن من الزمان.. ألف كتاب حشده نصوصا عن إبن تيمية تقريبا ٥٦ نص يثبت لهم فيها أن إبن تيمية لا يكفّر الأعيان وأن تكفيره تكفير مطلقات وليس تكفير أعيان، هذه أمور منهجية لكن يعرفها طلبة العلم ويعرفها المختصون، لكن الواضح أن الذين ردوا عليه من علماء الوهابية في ذلك الوقت

قلعة دمشق: مشهد للجدار الغربي.
• المصدر: المكتبة الرقمية لموقع أركنت (Archnet)



أنهم يفهمون تكفير المطلقات أنه تكفير أعيان، بل إبن عبد الوهاب نفسه عندما كان يرد عليه بعض الحنابلة.. لأنه يقول ماذا؟ العلماء وافقوني في التوحيد.. ما قال شيء غلط، توحيد الله هذا كله صحيح، يعني العلماء على فكرة ينبذون هذا التقرب من القبور، ينبذونه علماء السنة بشكل عام، لكنهم خالفوني في التكفير والقتال، وافقوه في التوحيد و وافقوه في تعريف الشرك، لكن خالفوة في التكفير والقتال، فكفّرهم، كفّرهم.. وممن خالفه علماء حنابلة: إبن معمر، و إبن فيروز الإحسائي.. حنبلي، وكفّرهم بن عبد الوهاب.. كفّره بعينه، ولما يرد عليه يقول هذا ابن تيمية يقول كذا، بماذا يأتي؟ يأتي بكلام ابن تيمية عن مطلقات، إبن تيمية لا يكفّر أعيان.. يكفّر مطلقات، بل يقول إن من كفر في كل فرقة من ٧٢ فرقة فقد خالف الإجماع، فأنا أقول لك فهم بن عبد الوهاب ابن تيمية فهما مقلوبا.

الرؤى: **أنت كانت عندك جهود وكتاب كامل، لكن أعطينا فقط نبذ أساسية تراها مهمة، دائما في مخيلتنا هناك مخيلة صنعت عن هذا "السلف الصالح" و أنت كان لك قراءة خاصة في الموضوع أن هذا المخيلة هي غير حقيقية، عمدة النتيجة التي توصلت لها في هذا الكتاب يمكن تفيد فيها المشاهد.**

السمهوري: مسألة الاحتجاج بالسلف.. الناس يتفقون على الكتاب والسنة، مجمل الأصوليين، وبعدها الإجماع والقياس، طبعا هناك من يقول بالإجماع لكن ينفي إمكان وقوعه، مسألة الاحتجاج بالسلف... هل المقصد بها الإجماع؟ إن كنت تقصد الإجماع.. تقصد إجماع من؟ إجماع الصحابة؟ أم إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم؟ إذا قلت لي إجماع الصحابة والتابعين والتابعين أقول لك طيب هناك قضية في الإجماع وهي طبقة الإجماع، يعني وقت الإجماع.. توقيت الإجماع.. يعني إجماع العلماء في عصر.. فأين التابعين والتابعين دخلتهم في الموضوع؟ إذاً إجماع الصحابة يكفي، فإجماع التابعين والتابعي هذا ليس إجماعا، لأن الاجماع المعتد به هنا هو إجماع الطبقة الأولى، فإذا أجمع الصحابة على شيء لا يجوز خلافهم في الطبقة التي تليهم، حتى لو كانت طبقة الصحابة فيها صحابة وتابعين، المهم أن الطبقة واحدة، فهناك إشكالات على الاحتجاج بالسلف، مثلا يقول لك هذا قول السلف، تقول له طيب جميل.. ماذا تقصد بالسلف؟ إن قال لك والله مثلا إبن عباس قال.. وابن عمر قال.. عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال.. قل له ماشي أين الإجماع؟ هو قول الصحابي، واضح، والبقية سكتوا.. هذا يسمى الإجماع السكوتي، وفي اعتقادي أحمد بن حنبل عنده مشكلة مع الإجماع السكوتي، لا يقرّ بهذا، يقول من ادعى الإجماع فقد كذب، ما يدريه أن الناس قد اختلفوا، فلما تقول لي قال السلف أنت تلزمني بشيء ليس فيه إجماع.

الرؤى: **ما عندنا سلف.. عندنا رأي فلان، رأي فلان.. عالم، صحابي، تابعين..**

السمهوري: بالضبط.. إذاً ما الذي أجمع عليه السلف؟ طبعاً ابن تيمية يرى هذا، وابن حزم أيضاً، أن الاجماع المعتد به الملزم هو إجماع الصحابة المنقول عنهم قطعاً، على ماذا أجمع الصحابة؟ أجمعوا على القران ومجملات الإسلام والصلوات تصوم رمضان و تحج.. وهذه الأمور التي هي ضرورة، وهذا الذي يقوله الإمام الشافعي.. "خبر العامة"، يقول من أنكر خبر العامة يقال له تب، تواتر، التواتر الملزم.. تواتر الأمة، يقال له تب.. يستتاب يعني.. لا يقولون كفرت، ومن أنكر خبر الخاصة لا يقال له تب.. الذي هو الأحاديث الآحاد، ولكن يقال له ما ينبغي لك إن كنت عاقلا أن ترد شهادة العدول. طيب ما هو تعريف الخبر العام عند الشافعي؟ الخبر العام عند الشافعي هو ما تجد عند كل مسلم فيه علماً، يعني الضروريات. فهنا إشكال في قضية رفع فهم السلف، فهم السلف ماذا هو؟ أنت تقول القران غير مخلوق وهناك من يقول القران مخلوق، هذه القضية الكبيرة التي صار فيها نزاع طويل عريض، هل الصحابة قالوا مخلوق أو غير مخلوق.. لم يقول الصحابة ذلك، لا يوجد ولا نص.. ولا نص.. ولا نص.. كل الموجود مكذوب وموضوع.

الرؤى: **موضوع المحنة هذا أستاذنا أيضاً يحيل إلى أن الاختلافات كانت سياسية أم كانت عقدية وكلامية. الساسة كما صنعوا فكرة القدر والجبر.. حتى يعني يسكتوا الناس..**

السمهوري: الفرق الإسلامية كلها ظهورها كان أجوبة عن أسئلة سياسية، ولذلك الشهرستاني وغيره يقول ما سُل سيف في الإسلام كما سُل في الإمامة، وأن أكثر ما اختلفوا في الإمامة، مسألة الخلافة وتوابعها، ويتلوه حكم الفاسق والمرتكب للكبيرة و كذا..

الرؤى: **في موضوع المحنة حتى في العمق**



هذا كتاب يكشف تناقضات أبي يعرب المرزوقي وكيفية تناوله لابن تيمية ومحاولة إثبات أنه "فيلسوف اسماني"، وأن الشريعة الإسلامية (أو ما يسمّيها الحنيفية المحدثة) هي فلسفة اسمانيّة. هذا الكتاب يتتبع أقوال المرزوقي، ويبيّن أن قراءته لابن تيمية قراءة غير معرفية، أيديولوجية، مغرضة.

نحن نرى أنه صراع على السياسة والسلطة والحكم، وبعدها قد تمظهر على القضايا هذه.

السمهوري: هو سياسة في النهاية، سبب النزاع السياسي، أنا أفضت فيه في كتاب السلف المتخيل، بغداد وخراسان.. الجهمية خراسانيين.. وأهل الحديث بغادده، يعني طائفة من الحديث.. والمأمون مع الجهمية، أمه فارسية، وبغداد أمه زبيدة يا سيدي.

الرؤى: **تفاصيل جغرافية وسياسية واجتماعية كلها..**

السمهوري: طبعاً.. فهذا كله له حواش وتوال ولوازم و أقوال محيطة، وفي النهاية ليس والله مجرد قول أريد أن تحمي به الناس، ومزاج يعني، المأمون خليفة، هو رجل سياسي، الناس يريدون أن يصوروا أن المأمون فعل هذا تديناً.. وفعل هذا خوفاً من الله.. لكي يصحح عقائد الناس.. يا أخي هناك زنادقة في البلد، وهناك ملاحدة وهناك يعني من يصرح بزدقته، فما معنى أهل الحديث؟ يعني حتى ليس أهل الحديث كلهم.. طائفة من أهل الحديث، ولماذا خلق القران تحديدا؟ يعني لماذا لم تكن الرؤية مثلا؟ يعني يتصورون أن مسألة خلق القران مسألة عظيمة جدا إلى درجة.. وأنه متدين والله الأخ المامون.. السياسي لا يفكر كما يفكر الشيخ، في الغالب، السياسي له أهداف بعيدة المدى، وهذا هو قراءة التاريخ، التاريخ ليس ألفاظاً ومعاني، التاريخ أيضاً مباني، فيجب أن تفهم هذه الأمور في سياقاتها، ثم فجأة عندما جاء المتوكل قلب الموضوع، وصارت الأمور لا خلاص قَرّب أهل الحديث.. جعلهم يتلون هذه الروايات ويعلنونها وكذا، ثم صارت حملة متقابلة على ما يسمى الجهمية، الذين هم المعتزلة وكل من يقول بخلق القران ومن يؤول الأسماء والصفات، وصارت هجمة مرتدة، و أحد ضحاياها هو البخاري رضي الله عنه، صاحب الصحيح، بعضهم ترك حديثه، أبو زرعة الرازي وأبو حاتم الرازي.. يعني بات متروك الحديث، وهو صاحب الصحيح البخاري، ثم ذهب منفياً وتوفي



قلعة دمشق: إطلالة من سطح سوق الحميدية باتجاه المآذن الجنوبية للمسجد الأموي الكبير، وتظهر القلعة على جهة اليسار.
● المصدر: المكتبة الرقمية لموقع أركنت (Archnet)

رحمة الله بحسرته في خرتنك في بلاد بخارا، أو لا أدري أين، فهذا كله يا مولانا يجب أن يفهم في سياقاته، أنا لا أرى أن الإنسان سيحاسب على قوله بخلق القران وغير خلق القران، وهؤلاء اجتهدوا، إذا كنا جعلناها في إطار الاجتهاد.. خلص هو اجتهاد.

الرؤى: **أستاذنا العزيز بعد هذه الجولة والرحلة طويلة في التراث وفي الماضي وفي العلماء واختلافاتهم واجتهاداتهم وصراعاتهم واتهامهم.. الكلمة الأخيرة الآن.. هل هذا هو الدين في روعته؟ هل هذا هو القران في عظمته؟ هل هذه هي تجربة الإيمان في تجوهرها؟ هل الأديان جاءت لأن تحيي فينا جدليات واختلافات وصراعات وتهم وطوائف ومذاهب؟ يعني الذي يخوض الآن في هذه المعمعة الذي خضناها.. ليس هذا الدين الجميل.. ليس هذا الدين الذي يأتي من الله ومن الأنبياء العظام ومن الصالحين، والذي ينهض بالأمم والذي يصنع الحضارات والذي يصنع الأرواح والأخلاق والقيم والفضائل.. ليست هذه الحروب والخصومات والأحقاد والضغائن والجدليات.. الآن الشباب المعاصر لو سمع هذا كله لا يعني له و لا فلس.. لا أقول التراث وتحقيقه وفهمه.. لا و إنما العيش في أوهام ودوامات.. هذه المتبنيات والهويات الضيقة والمذهبيات.. فأكيد أنا أريد لك كلمة مصارحة أو مراجعة.. كلمة ختامية أنه كيف نعيش كيف نحيا بالإسلام؟**

السمهوري: الخلاف سنة من سنن الله، طبيعي جدا، لا أريد أن نقع في أن الدين الجميل هو كذا، والدين غير الجميل هو كذا. أنا في رأيي أن الخلاف سنة من سنن الله، وأن عقول الناس لا يمكن أن تتحد، وأن المشكل حقيقة ليس في الخلاف ما هو خلاف ولا في التراث العلمي.. لأنه هذا كله على فكرة حضاري. العلوم تتساوق وتتساقى، فأنا أقول لك بنفسي أنا أقرأ منتجات المترجَم من العلماء الإيرانيين مرتضى مطهري وعلي شريعتي وغيرهم من المفكرين الإيرانيين.. أقرأ وأستفيد.. أقرا للسادة الأشاعرة والسادة المعتزلة والسادة الأباضية وكتب الشيخ أحمد الخليلي.. أقرأ وأستفيد وأتعلم.. فأنا لا أرى الخلاف أبداً إشكالاً، بل أرى أن تراث الأمة تراث واحد، وأسباب الخلافات والنزاعات في الغالب سياسية. أنا في رأيي لم يكن عندنا طائفية فيما مضى من الزمن، إبن حجر العسقلاني له كتاب رفع الإصر عن قضاة مصر، وتكلم عن القضاة في مصر وعن القضاة في العهد الفاطمي، كان هناك قضاة أهل سنة موجودين.. الإمام عبد الوهاب المالكي هاجر من بغداد وتوفي في مصر أيام الفاطميين، وقال الذهبي: تحسنت حاله بالمغاربة، الذين هم الفاطميين.. و هم مغاربة.. أتوا من المغرب، و كان يشكو الفقر، وخرج بسبب الفقر وراح وهاجر إلى مصر التي كانوا يسمونها "دار زندقة" و"دار ردّة" عند بعض العلماء، وكان يُدعى لهم على منابر الحرمين، وتوفي عندهم، ولما تحسنت حاله.. وفي سكرات الموت كان يقول لا إله إلا الله.. لما عشنا متنا، لأنه كان فقير مسكين، فالعلماء كانوا يهاجرون إلى مصر، و إرجع إلى التاريخ.. التاريخ عدو العقائديين على فكرة، إرجع للتاريخ ستجد صورة مختلفة تماما، إبن كثير على سبيل المثال يذكر أن أهل إقريطش غزاهم الروم، مسلمون سنة، بلاد المغرب بشكل عام كلهم سنية كانوا.. إلا طوائف، فاستعانوا بالمعز الفاطمي، فأرسل عليهم جيشا فانتصر على الروم، يقول إبن كثير ولله الحمد والمنة. أيضاً واحد من أبناء بويه أتاه أبو بكر الرازي الحنفي وعلي بن عيسى الرماني المعتزلي وابن الدقاق الحنبلي.. اجتمعوا به و وجهوه إلى غزو الروم، معتزلي وحنبلي.. طرفي نقيض، المعتزلي يقول الحنبلي مجسم.. والحنبلي يقول للمعتزلة يا معطل، يا جهمي، والحنبلي يقول للحنفي يا أهل الرأي لا يفلح منكم أحد، كما كان أحمد إبن حنبل يقول عن هؤلاء ما أزهدكم في الحديث و إلى آخره.. والحنفي يقول للحنبلي يا حشوي أو شيء.. فكلهم اجتمعوا عند الوالي الشيعي.. يعني حنبلي وحنفي ومعتزلي ذهبوا إلى الوالي الشيعي يقنعونه بغزو الروم، لدفع هذا الأذى عن المسلمين، فالتاريخ عدو العقائديين حقيقة، وكيف كان العلماء يأخذ بعضهم عن بعض وكيف يستفيد بعضهم من بعض.. إبن المطهر الحلي له تلاميذ سنة، ونصير الدين الطوسي من أصدقائه حنابلة -يعني نسيت الأسماء طبعا لكن موجودين إرجع إليهم.

الرؤى: **الصورة كانت أنصع وأجمل سابقاً وهذه الهويات ما كانت حادة.**

السمهوري: مسألة الطائفية الآن هي منتج سياسي وما هو منتج اجتماعي، يعني أنت تجد في الدول

التي كانت تقام قديما الخليفة سني والوزير شيعي وكذا يهودي أو مسيحي.. لم تكن هناك طائفية أو محاصصة طائفية، وتعرف الدول طائفية، كان تعصب نعم.. يجري تعصب ومقاتلات ومشاكل وقتال.. لكن ليس صراع دول، ليس الذي يجري الآن، صراع الدول صراع سياسي، لا يوجد جواز سفر، يعني ينتقل المرء من الدولة العباسية يروح للدولة الفاطمية، هؤلاء مسلمين، يعني ما في إشكال في هذه القضية، العسور كانت تفرض على هؤلاء الذين يأتون من الروم أو غيره، بالقراءة المعمقة ستجد أشياء كثيرة في التراث الإسلامي وتاريخ العرب والمسلمين غير هذا، فالطائفية لم ينتجها هذا التراث.. إنما أنتجها السياسي، وغُذيت بهذا التراث، وفي الإمكان أن تجد.. أن تأخذ والله نصوص المحبة والسلام.. وفي الإمكان أن تأخذ في القسوة، لأن كل هذه هي نصوص تاريخية، والذي يعتمد على النصوص أعتقد أنه لن ينتج معرفة، كما قال أحدهم "إحتمينا بالنصوص فدخل اللصوص"

فلابد أن يكون هناك فهم للأحوال السياسية الآن، ليس التشيع هو الذي الذي أخرج كذا.. وليس التسنن هو الذي أخرج كذا، الذي أخرج كذا هي الأوضاع السياسية بالأصالة، أوضاعنا السياسية بالأصالة هي التي تخرج هذه الطوائف، وكثير من هؤلاء عندهم جرح حضاري عميق، ما الذي يخرجهم ليقاتلوا الاستعمار.. وأميركا.. ما الذي يخرجهم؟ لماذا خرجوا في أفغانستان وكذا؟ لقتال من؟ بغض النظر عن اللعبة السياسية الآن.. لكن أنا أتكلم عن الشاب الطيب المسكين الذي يريد أن يعمل شيء للأمة، فالسبب الرئيسي ليس الفكر هذا.. أي أنه قرأ واقتنع، الفكر هو هذا الأساسي موجود، ولذلك توجد دول مستقرة، هذه لن تكون.. لأن التطرف يحتاج إلى بيئة حاضنة، لكن هناك دول مستقرة.. وليس فيها هذه البذور أي ليس فيها جماعات.. يعني لن ينجح التطرف أبداً، لا ينجح التطرف إلا في بيئات تغذيه، وبالتالي إذا صلحت الأحوال السياسية لن تجد لهؤلاء إلا شذاذاً متطايرين هنا وهنا ويمكن التخلص منهم.



قلعة دمشق: إطلالة عامة ويظهر سوق الحميدية في مقدمة الصورة.
● المصدر: المكتبة الرقمية لموقع أركنت (Archnet)



المجتمع المدني السوري تحت الهيمنة البنيوية والقوّة الناعمة المشروطة

قراءة في أدواره بين الداخل والفضاء العابر للحدود



مريم شمدين

باحثة في الشأن المدني، رئيسة حركة أصوات من أجل التغيير
• سورية (فرنسا)

المقدمة

تأتي هذه الدراسة نتيجة متابعة طويلة وشخصية لمسار المجتمع المدني في سورية، خلال سنوات العمل المدني والاحتكاك المباشر بالمنظمات والناشطين من داخل البلاد وخارجها. لم يكن الهدف من هذه الدراسة تقديم سرد تاريخي بقدر ما كان محاولة لقراءة التحولات من منظور واقعي وعملي، استنادًا إلى التجربة المباشرة والشخصية والملاحظة الدقيقة لما مر به المجتمع المدني خلال ثلاث مراحل شديدة الاختلاف.

هذه الدراسة لا تدعي الإحاطة الكاملة بكافة التفاصيل، لكنها تُقدّم مقاربة تحليلية وموضوعية تساعد على فهم المشهد المدني السوري في سياقه السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وتسلط الضوء على التحديات الأساسية والفرص الممكنة في المرحلة القادمة.

آمل أن يساهم هذا النقاش حول مستقبل المجتمع المدني ودوره في بناء فضاء عام مستقل وعادل في سورية.

الملخص التنفيذي

تستعرض هذه الدراسة التحولات العميقة التي مر بها المجتمع المدني السوري عبر ثلاث مراحل تاريخية متمايزة: مرحلة ما قبل الثورة، ومرحلة الثورة والحرب، ثم مرحلة ما بعد سقوط النظام في نهاية عام ٢٠٢٤. وتنطلق هذه الدراسة من فهم المجتمع المدني كمسار تراكمي، لا كظاهرة منفصلة عن الواقع السوري، والسياق السياسي، والاقتصادي والاجتماعي.

إذن لم ينشأ المجتمع المدني السوري من فراغ، بل هو امتداد للظروف والأنظمة التي مرت على سورية، ويتغير معها.

تبين نتائج الدراسة أن المجتمع المدني قبل الثورة كان محاصرًا ضمن منظومة قانونية وأمنية شديدة القبضة وصارمة، اعتمدت على قانون جمعيات مقيّد، وتأميم النقابات المهنية، و إفراغ المجال العام من أي أدوات تمثيل حقيقية. ورغم وجود جمعيات خيرية ومبادرات ثقافية أو حقوقية صغيرة، بقيت هذه الفضاءات محدودة وغير قادرة على ممارسة دورها المستقل بسبب الرقابة الأمنية وهيمنة الحزب الحاكم.

أما خلال الثورة، فقد شهدت البلاد انفجارًا مدنيًا واسعًا تمثل في التنسيقيات واللجان المحلية وشبكات الإعلام البديل، قبل أن يتحول العمل المدني تدريجيًا إلى نموذج "المنظمات العابرة للحدود" نتيجة تعقيد المشهد الأمني واستحالة الترخيص داخل سورية. هذا النموذج سمح باستمرار الخدمات والتنظيم، لكنّه خلق تحديات جديدة تتعلق بفصل الإدارة عن الميدان، وتعدد "سلطات الأمر الواقع"، وضغوط المانحين، والفجوة المتنامية بين الداخل والشتات.

وفي مرحلة ما بعد السقوط، لم تؤدي التغييرات السياسية إلى بيئة مدنية حرة كما كان متوقعًا، بل عاد العمل المدني ليواجه منظومة ضبط جديدة تقوم على استخدام القانون القديم وتطبيق إجراءات تنظيمية إضافية من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل

وفي مرحلة ما بعد السقوط، لم تؤدي التغييرات السياسية إلى بيئة مدنية حرة كما كان متوقعًا، بل عاد العمل المدني ليواجه منظومة ضبط جديدة تقوم على استخدام القانون القديم وتطبيق إجراءات تنظيمية إضافية من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل. وبالرغم من تخفيف بعض القيود المالية، فإن العقبات المتعلقة بالتحويلات، والرقابة، والانقسام الجغرافي، ظلّت عائقًا أمام بناء فضاء عام مدني مستقل. كما ظهر تحدي الحوكمة الداخلية للمنظمات نفسها، بعد سنوات من النمو المتسارع والعمل تحت ضغط الأزمات.

وتسلّط الدراسة الضوء أيضًا على الدور المركزي الذي لعبته النساء والشباب في كل مرحلة: من الإقصاء قبل الثورة، إلى القيادة الفعلية خلال الحراك المدني، وصولًا إلى مواقع أكثر حضورًا في مرحلة ما بعد السقوط رغم استمرار العقبات الاجتماعية والسياسية. وتخلص الدراسة إلى أن تمكين هاتين

الفئتين يعد شرطًا أساسيًا لبناء مجتمع مدني حر وفعال وحيوي.
وتُختَم الدراسة بالإشارة إلى أن مستقبل المجتمع المدني السوري يعتمد على قدرته على حماية استقلاليته، والمطالبة بإصلاح القوانين والتشريعات، و إعادة بناء النقابات المهنية كمساحات تمثيلية حقيقية، وبناء تحالفات واسعة عابرة للانقسامات، بما يسمح له بأن يكون شريكًا في صياغة العقد الاجتماعي الجديد، لا مجرّد منفذ لمشاريع أو رديف للسلطات القائمة.

> من الضروري النظر إلى المجتمع المدني السوري كمسار طويل ومتراكم، لا كحالة ظرفية مرتبطة بثورة ٢٠١١ أو بسقوط نظام الأسد في نهاية عام ٢٠٢٤

تتوزّع مادّة البحث على الفقرات والمحاور الآتية:

• مقدمة

أولًا: المجتمع المدني السوري قبل الثورة - مجتمع أهلي تحت قبضة الدولة
١. الإطار العام: دولة قوية ومجتمع مصادَر
٢. الإطار القانوني: قانون الجمعيات كأداة ضبط
٣. أنماط الفاعلين قبل الثورة
٤. التحديات قبل الثورة
٥. قدرة المجتمع المدني على التقدم في هذه المرحلة

ثانيًا: المجتمع المدني خلال الثورة- من التنسيقيات إلى المنظمات العابرة للحدود
١. الانفجار المدني الأول: ولادة التنسيقيات
٢. التحديات في السنوات الأولى للثورة
٣. الانتقال إلى نموذج "المنظمات العابرة للحدود"
٤. التحديات في نموذج المنظمات العابرة للحدود
٥. قدرة المجتمع المدني على التقدم خلال هذه المرحلة

ثالثًا: المجتمع المدني بعد سقوط النظام: فضاء جديد مقيَّد بإرث قديم
١. سياق سياسي واقتصادي متناقض
٢. عودة قانون الجمعيات القديم
٣. وضع المنظمات التي تأسست خارج سورية ثم عادت
٤. القيود المالية والعقوبات
٥. القيود السياسية والاجتماعية والجغرافية
٦. الحوكمة الداخلية والشفافية: التحدي الذاتي الأكبر للمجتمع المدني
٧. الذاكرة والعدالة الانتقالية: الدور الأكثر تعقيدًا
٨. قدرة المجتمع المدني على التقدم بعد السقوط

رابعًا: دور النساء والشباب في تحولات المجتمع المدني السوري
١. قبل الثورة: حضور محدود و إمكانيات مكبوتة
٢. خلال الثورة: النساء والشباب في قلب العمل المدني
٣. بعد السقوط: إمكانات قيادية جديدة أم إعادة إنتاج التهميش؟

• الخاتمة

مقدمة الدراسة:

على الرغم من أن المجتمع المدني السوري لم ينشأ من فراغ، فإنه وجد نفسه على مدى العقود الماضية يعمل داخل فضاء محكوم بأنماط من الهيمنة البنيوية، ثم انتقل بعد ٢٠١١ إلى فضاء تتداخل فيه القوة الناعمة المشروطة التي تمارسها القوى الإقليمية والدولية عبر التمويل والتوجيه. هذه الأطر الجديدة فرضت على المجتمع المدني أدوارًا تتجاوز العمل الأهلي التقليدي، وركّزت على تحويله تدريجيًا إلى أداة تأثير خارجي غير مباشر، ما أوجد معادلة معقّدة بين الحاجة للدعم وبين الحفاظ على استقلالية القرار.
وانطلاقًا من هذا التحوّل العميق في السياقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، يصبح من الضروري النظر إلى المجتمع المدني السوري كمسار طويل ومتراكم، لا كحالة ظرفية مرتبطة بثورة ٢٠١١ أو بسقوط نظام الأسد في نهاية عام ٢٠٢٤. وبالتالي، لم يكن المجتمع المدني السوري ظاهرة طارئة ظهرت فجأة مع الثورة، كما لم يتحول تلقائيًا إلى فضاء حر بمجرد سقوط نظام الأسد. بل يمكن فهمه من خلال تتبّع ثلاث محطات رئيسية شكّلت ملامحه المعاصرة:
١. مرحلة ما قبل الثورة: حيث تَشكّل مجتمع أهلي وخيري نشيط، لكن داخل حدود ضيقة رسمتها دولة أمنية وقانون جمعيات متشدد.

٢. مرحلة الثورة والحرب: حيث انفجرت طاقات المجتمع في شكل تنسيقيات ولجان محلية ومنظمات إنسانية وحقوقية ، كثير منها تم تسجيلها في دول الجوار مع استمرار عملها داخل سورية.

٣. مرحلة ما بعد السقوط: حيث عاد جزء من هذا المجتمع المدني إلى الداخل، لكن في بيئة قانونية وسياسية ومالية متناقضة نوعًا ما: منها تخفيف جزئي للعقوبات من جهة، وإعادة تفعيل قوانين وضوابط قديمة من جهة أخرى، مع وجود سلطة انتقالية ذات خلفية عسكرية-أيديولوجية تسعى وبهدوء لضبط الفضاء المدني بشكل محكم.

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل واقع المجتمع المدني في هذه المراحل الثلاث، مع التركيز على:

- التحديات والعقبات في كل مرحلة.
- قدرة الفاعلين المدنيين على التقدّم والتكيف.
- دور النساء والشباب كقوة محركة في قلب هذا المسار.

أولاً: المجتمع المدني السوري قبل الثورة: مجتمع أهلي تحت قبضة الدولة

١. الإطار العام: دولة أمنية قوية ومجتمع مدني مصادَر

من المهم الإشارة إلى أن هذا السياق لم يكن مجرد نتيجة سيطرة سياسية مباشرة، بل جزء من بنية هيمنة متراكمة صاغتها الدولة على مدى عقود، حيث كانت تُدار الفضاءات المدنية كامتدادات للسلطة التنفيذية، ما جعل المجتمع الأهلي يعمل ضمن هامش ضيّق لا يسمح بتطور بنية مدنية مستقلة. هذا شكل المرحلة التأسيسية الأولى لنمط من الهيمنة البنيوية التي ستؤثر لاحقًا في قدرة المجتمع المدني على مقاومة أشكال التأثير الخارجي بعد الثورة.

تتجلى هذه الهيمنة البنيوية بوضوح عند النظر إلى طبيعة الدولة السورية خلال حكم حزب البعث والأسد، وكيف أعادت تشكيل الفضاء السياسي والاجتماعي بما يضمن إخضاع أي نشاط أهلي أو مدني لسلطتها المباشرة.

بعد عقود من حكم حزب البعث، ونظام الأسد



جنازة حافظ الأسد

بشار الأسد (يمين)، نجل الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد وخليفته المعيّن، يتبع نعش والده خلال جنازته في المسجد المحلي لقرية مسقط رأس الزعيم السوري الراحل، بتاريخ ١٣ يونيو/حزيران ٢٠٠٠.

● المصدر: رويترز/وولفغانغ راتاي

الأب والابن، أصبحت الدولة السورية تهيمن على الفضاء السياسي والمدني بالكامل وتراقب الفضاء الإعلامي والثقافي بشكل محكم، وتفرض سلطة قانونية ورقابة أمنية صارمة على المجتمع الأهلي، وبالتالي ظهر المجتمع الأهلي على شكل جمعيات خيرية محلية ومبادرات دينية واجتماعية وأنشطة تطوعية بسيطة مرتبطة غالبًا بمناسبات دينية أو اجتماعية، وكانت تعمل دائمًا ضمن حدود مرسومة من الأجهزة الأمنية، مما جعل فكرة المجتمع المدني كقوة مستقلة شبه معدومة وضعيفة ومعرقلة عمدًا من النظام الحاكم.

> هيمنة الأمن والسلطة في سورية قضت على المجتمع المدني المستقل، وحصرت العمل الأهلي في مبادرات خيرية ودينية محلية خاضعة لرقابة صارمة

٢. الإطار القانوني: قانون الجمعيات كأداة للضبط

منذ أواخر الخمسينيات، استخدم النظام قانون الجمعيات القديم ١٩٥٨ كأداة رئيسية لضبط الفضاء المدني العام والسيطرة عليه وعلى أي نشاط أهلي. ومن أبرز سمات هذا القانون:

- إلزام أي جمعية بالحصول على ترخيص مسبق.
- منح الأجهزة الأمنية حق رفض الترخيص دون مبررات واضحة.
- إمكانية حل الجمعيات أو تجميدها إداريًا.
- رقابة صارمة على التمويل، خاصة التمويل الخارجي.

بهذا الشكل، سمح بوجود جمعيات خيرية وخدمية، لكن ضمن سقف محدد، وبشرط ألا تتحوّل إلى قوة نقدية أو سياسية، وبالتالي لدينا واجهة مدنية شكليًا، ولكن دون أي مضمون فعلي عمليًا.

٣. أنماط الفاعلين قبل الثورة

يمكن تمييز ثلاثة أنماط رئيسية:

١. جمعيات خيرية تقليدية: تتبع غالبًا لشخصيات دينية أو عائلية، وتعمل في مجالات الإعانات، ورعاية الأيتام، ومساعدة المرضى، والفقراء. تحظى بقبول اجتماعي واسع، لكن بحضور سياسي ضعيف أو منعدم أي دون أي طابع سياسي.

٢. منظمات رسمية تابعة للسلطة: اتحادات والنقابات الجماهيرية شكلًا، وحزبية بمضمونها، وظيفتها تعبئة الجماهير والحفاظ على صورة النظام، لا الدفاع عن حقوق أعضائها أو مراقبة أداء الدولة. أي بالنتيجة تستخدم هذه الاتحادات أو النقابات للتعبئة وليس للتمثيل.

٣. مبادرات مدنية غير رسمية أو مخفية في غالب الأمر: مثل مجموعات ثقافية، جهود حقوقية محدودة، تعمل بالخفاء، وتعيش تحت خطر تهديد الملاحقة الدائمة.

وهنا علينا تسليط الضوء على هذه الخارطة الواسعة من النقابات المهنية والاتحادات التي كان يفترض أن تمثّل شرائح المجتمع المدني أو الأهلي المختلفة، بدءًا من نقابات العمال وصولًا إلى نقابات الأطباء والمهندسين والمعلمين...إلخ. غير أن هذه النقابات والاتحادات، وإنْ بدت في الظاهر مستقلة وتمثّل قواعدها المهنية وكانت تبدو جزءًا من المجتمع المدني شكلًا، بل كانت في الواقع جزءًا من بنية السلطة لأنها كانت تعمل ضمن إطار سلطوي يقيّد استقلالها ويمنعها من أداء دورها التمثيلي الحقيقي. تم دمج أغلب هذه النقابات ضمن إطار "المنظمات الشعبية" التابعة لحزب البعث، بحيث تفرض قيادة موالية للسلطة، وتدار الانتخابات من خلال قوائم جاهزة، بينما تخضع قراراتها لرقابة أمنية وسياسية دائمة وشديدة. وبدل أن تكون أداة للدفاع عن الحقوق المهنية لأعضائها وتحسين شروط العمل، تحوّلت إلى أداة ضبط اجتماعي وجماعي، تستخدم لحشد التأييد في المناسبات الرسمية، وتبرير سياسات الدولة، ومنع تشكيل أيّ قوة نقابية مستقلة يمكن أن تتحول لاحقًا إلى مركز ضغط أو معارضة للنظام السوري الحاكم.

النقابات السورية قبل الثورة: مؤسسات جماهيرية بواجهة مدنية ومضمون سلطوي

وبهذا المعنى وبالرغم من أن الخارطة المؤسسية في سورية قبل الثورة كانت تبدو غنية بالنقابات المهنية والعمالية، من نقابة العمال والمهن اليدوية إلى نقابات الأطباء والمهندسين والمحامين...إلخ. إلا أن هذا التنوع لم يكن يعكس مجتمعًا مدنيًا مستقلًا بالمعنى الحقيقي، بل كانت تخفي في جوهرها واقعًا مغايرًا.

فقد كانت النقابات تقدم نفسها كممثلة لشرائح مهنية جماهيرية واسعة، لكنها في الواقع كانت

مؤسسات شبه عامة تعمل كامتداد مباشر لبنية الدولة السلطوية، وتعمل ضمن إطار سياسي مضبوط ترتبط فيه القيادة النقابية بالسلطة التنفيذية والحزبية للسلطة أكثر من أن تكون أو تعمل كجزء حي من مجتمع مدني مستقل.

١. الإطار القانوني والسياسي المقيّد

منذ سبعينيات القرن الماضي، جرى دمج معظم النقابات ضمن منظومة "المنظمات الشعبية" التابعة لحزب البعث، عبر:

- اشتراط عضوية قياداتها في الحزب،
- اعتماد نظام انتخابي مُعد مسبقًا عبر قوائم الجبهة الوطنية التقدمية،
- إخضاع اللجان النقابية للرقابة الأمنية.

بهذا أصبحت النقابات مؤسسات شبه حكومية، لا كيانات مستقلة تمثل قواعدها المهنية.

٢. النقابات كأداة للضبط وليس للتمثيل

أدى النظام دورًا سياسيًا للنقابات أكثر منه نقابيًا، حيث استخدمها لـ:

- ضبط الحراك المهني ومنع أي تنظيم مستقل،
- تجنيد النقابيين لدعم سياسات الدولة،
- تنظيم حشود جماهيرية في المناسبات الرسمية،
- إظهار صورة "تعددية شكلية" في الحياة العامة.

ولم يكن مسموحًا للنقابات الاعتراض على السياسات العامة أو الدفاع عن حقوق أعضائها المهنيين.

٣. تأميم المجال المهني وإقصاء الأصوات المستقلة

أصبحت النقابات:

- خاضعة لتوجيه سياسي مباشر من النظام الحاكم،
- غير قادرة على حماية أعضائها من الاعتقال والفصل،
- عاجزة عن تحسين شروط العمل في بيئات العمل،
- تقصي الأصوات المستقلة عبر انتخابات محكمة مصممة خصيصًا لضمان ولاء القيادة.

وبذلك فقدت وظيفتها الطبيعية وتحولت إلى أدوات لدمج المجتمع في مشروع السلطة.

٤. الاستنتاج التحليلي

ما كان يُقدَّم كنقابات واتحادات قبل الثورة لم يكن سوى هياكل رسمية تعمل كامتداد للسلطة، لا كمساحة للحوار أو حماية الحقوق، وهذا أسهم في هشاشة المجتمع المدني عند اندلاع الثورة، لأنه لم يملك بُنى تمثيلية حقيقية أو مستقلة.

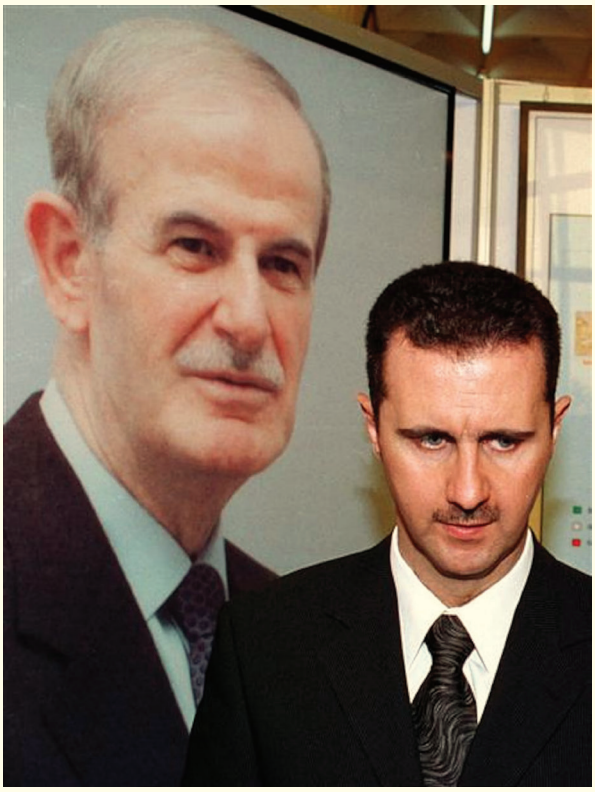

الوريث الواضح
بشار الأسد، الوريث الواضح للرئيس السوري حافظ الأسد، يمر بجوار صورة والده خلال افتتاح معرض للحواسيب في دمشق بتاريخ ٢٤ أبريل/نيسان ٢٠٠٠.
● المصدر: رويترز/خالد الحريري

ومن ثمَّ فإن هذه البنية النقابية التابعة للسلطة، ومعها قانون الجمعيات التقييدي، أسهما في تفريغ الفضاء العام من أي أدوات تمثيل حقيقية، مما جعل بناء مجتمع مدني مستقل قبل الثورة مهمّة شديدة الصعوبة، وهو ما يفسر طبيعة التحديات التي واجهتها أي مبادرة مدنية في تلك الفترة.

وبالنظر إلى هذا الواقع النقابي الذي كان يعمل بواجهة مدنية خاضع بالكامل للسلطة، يمكن فهم كيف تم إفراغ الفضاء العام من أي أدوات تمثيل حقيقية، الأمر الذي جعل حصول أي مبادرة مدنية مستقلة قبل الثورة مهمة شديدة الصعوبة، وهو ما يتضح بوضوح عند استعراض التحديات التي واجهت المجتمع المدني في تلك المرحلة.٤.

التحديات قبل الثورة

أبرز العقبات التي واجهت أي محاولة لتشكيل

مجتمع مدني مستقل قبل ٢٠١١، هيمنة الأجهزة الأمنية على كل ما يتعلّق بالتجمع والتنظيم، ومنع التمويل المستقل أو وضعه تحت شبهات سياسية مستمرة، وتسييس هذه النقابات و إفراغها من دورها التمثيلي؛ وبالتالي أدى ذلك إلى غياب النقابات والاتحادات الحرة، وتجريم أي نشاط جماعي خارج المنظمات الشعبية، ومن ثمَّ أدى إلى تجذر ثقافة الخوف التي تمنع الانخراط أو المشاركة في عمل جمعي مستقل أو ناقد للسلطة.

> ما كان يُقدَّم كنقابات واتحادات قبل الثورة لم يكن سوى هياكل رسمية تعمل كامتداد للسلطة، لا كمساحة للحوار أو حماية الحقوق. وهذا أسهم في هشاشة المجتمع المدني عند اندلاع الثورة

٥. قدرة المجتمع المدني على التقدم في هذه المرحلة

وعلى الرغم من كل القيود، ظهرت محاولات محدودة، مثل تجارب بعض الهيئات المهنية التي حاولت الدفاع عن مصالح أعضائها في لحظات معينة، نشاط حقوقي محدود قبل ٢٠١١، في شكل لجان حقوق إنسان ومبادرات دفاع عن المعتقلين. وقد برزت قبل ٢٠١١، وبالرغم من محدودية هامش الحركة في تلك الفترة، برزت بعض المحاولات المهنية والحقوقية التي كشفت عن قدرة المجتمع على إنتاج مبادرات مستقلة حتى ضمن بيئة خانقة. فقد شهدت نقابات مهنية مواقف متفرقة حاول فيها أفراد داخل هذه النقابات الدفاع عن زملائهم أو الاعتراض على تدخل الأجهزة الأمنية في عملهم، وهي محاولات لم تكن منظمة، لكنها عكست وجود رغبة حقيقية لدى بعض المهنيين في استعادة دورهم النقابي. كما ظهرت مبادرات حقوقية صغيرة وغير مرخصة عملت بهدوء على توثيق الانتهاكات وتقديم دعم قانوني للمعتقلين السياسيين، إضافة الى مجموعات ثقافية ونسوية كانت تعقد بشكل غير رسمي في البيوت أو المراكز الثقافية، وتساهم في نشر الوعي المدني وخلق نقاشات حول الحقوق والحريات. هذه المحاولات أو التجارب بقيت محدودة، لكنها شكّلت البذرة الأولى لوعي مدني سيظهر لاحقًا بشكل أكبر بعد اندلاع الثورة. أمثلة على هذه المبادرات والتجارب:

• ربيع دمشق القصير (٢٠٠٠-٢٠٠١) كشف عن قابلية المجتمع لإنتاج فضاءات نقاش وحوار، قبل أن يقمع سريعًا. وخلال تلك الفترة ظهرت مبادرات مهمة مثل "لجان إحياء المجتمع المدني" التي انبثقت عنها منتديات فكرية وسياسية لعبت دورًا محوريًا في فتح النقاش العام، مثل منتدى الأتاسي في دمشق، ومنتدى جلادت بدرخان في القامشلي. لكن هذه المبادرات لم تستمر سوى بضعة أشهر، إذ جرى إغلاقها تباعًا من قبل أجهزة المخابرات التابعة للنظام السابق، لتعود البلاد مجددًا إلى دائرة القمع ومنع أي نشاط مستقل خارج الإطار الرسمي. هذه الهوامش شكلت الخبرة الأولى التي استندت عليها بعض الشخصيات لاحقًا، لكنها لم تكن كافية لتشكيل مجتمع مدني واسع ومنظّم قبل ٢٠١١.

ثانيًا: المجتمع المدني خلال الثورة: من التنسيقيات إلى المنظمات العابرة للحدود

١. الانفجار المدني الأول، ولادة التنسيقيات:

مع انطلاق الاحتجاجات في ٢٠١١، خرج المجتمع السوري عن حالة الصمت، وتحول جزء واسع من الشباب والنساء والفاعلين المحليين إلى تنسيقيات محلية تنظم المظاهرات وتوثقها، ولجان شعبية تساعد المعتقلين وأسرهم والجرحى، وشبكات إعلامية بديلة تنقل ما يجري بالصوت والصورة إلى العالم.

هذه البنى لم تكن جمعيات مسجلة، بل هياكل شبكية أفقية تعتمد على: الثقة الشخصية، والتواصل المباشر، وغياب القيادة الهرمية التقليدية.

٢. التحديات في السنوات الأولى للثورة:

واجهت هذه الشبكات تحديات وجودية، لكن طبيعة هذه التحديات اختلفت مع تغير خرائط السيطرة داخل البلاد:

• في مناطق سيطرة النظام: قمع أمني وعنف مفرط، شمل الاعتقال، والإخفاء القسري، والتعذيب، والاستهداف المباشر للنشطاء. أجبر العمل المدني على التحول إلى السرية المطلقة أو التوقف في بعض الأحيان.

• في مناطق المعارضة المسلحة: توسع العسكرة جعل الفضاء المدني عُرضة لضغوط الفصائل. واجه

النشطاء خطر الاستقطاب لصالح هذا الطرف أو ذاك، أو التضييق من قبل جماعات متشددة فرضت قيودًا اجتماعية وأيديولوجية على وجه العموم، وأيضًا كانت هناك محاولات للتضييق على عمل النساء والمنظمات الحقوقية على وجه الخصوص.

• في المناطق ذات الإدارة الذاتية (شمال شرق سورية): وفرت هامش أمان نسبي من قصف النظام، لكنها فرضت بدورها إطارًا إداريًا-سياسيًا خاصًا بها، يتطلّب الحصول على تراخيص من الإدارة الذاتية، والتعامل مع بيروقراطيتها، ومواجهة قيود على الأنشطة التي تعد معارضة لخطها السياسي.

• على مستوى البلاد ككل: مع تزايد الاحتياجات الإنسانية (نزوح، دمار، انهيار الخدمات)، ما أجبر الفاعلين المدنيين على تحويل جزء كبير من طاقتهم من الاحتجاج السياسي إلى الاستجابة الإنسانية الطارئة عبر المنظمات العابرة للحدود.

ومن ثمَّ، مع توسّع اعتماد المنظمات السورية على التمويل الخارجي، برزت طبقة جديدة من العلاقات بين المانحين والمنظمات المحلية، اتسمت في كثير من الأحيان بالقوة الناعمة المشروطة. لم تكن هذه القوة تُمارس قوتها عبر تدخل مباشر، بل عبر اشتراطات البرامج، ومعايير تقارير التقييم، وتوجيه الأولويات، ما جعل بعض المنظمات في موقع يتأرجح بين حاجتها للدعم وبين خشيتها من التحوّل إلى منفذ لسياسات فوق وطنية.

٣. الانتقال إلى نموذج المنظمات العابرة للحدود:

مع تصاعد الحرب وزيادة تعقيد المشهد السوري، برزت حاجة ملحّة إلى: أطر قانونية واضحة، وحسابات بنكية لإدارة المنح، وهياكل إدارية مستقرة يمكنها التعامل مع المنظمات الأممية والمانحين.

ولأنَّ الترخيص داخل سورية كان شبه مستحيل، اتجه السوريون إلى تسجيل منظماتهم في دول الجوار (تركية، لبنان، الأردن، العراق). هكذا تم تشكيل نموذج فريد من نوعه: منظمات سوريّة مسجلة قانونيًا خارج سورية، تُدار إداريًا من الخارج، وتنفذ الجزء الأكبر من عملها ومشاريعها المنقذة للحياة في داخل سورية أو مع اللاجئين السوريين في دول الجوار.

٤. التحديات في نموذج المنظمات العابرة للحدود:

هذا النموذج مكّن المجتمع المدني من الاستمرار، لكنه خلق عقبات معقّدة، منها:

١. فصل الإدارة عن الميدان: القيادة وفرق الإدارة في مدن أكثر استقرارًا، وفرق التنفيذ داخل سورية تحت خطر القصف والاعتقال والتجنيد الإجباري والإختفاء القسري، صعوبة اتخاذ قرارات سريعة تعكس واقع الميدان بشكل دقيق.

٢. التعامل مع سلطات أمر الواقع المتعددة: الحاجة للتفاوض مع النظام، أو فصائل معارضة، أو إدارات محلية، أو جهات ذات طابع أيديولوجي، بالإضافة إلى خطر استغلال العمل المدني في الصراع السياسي أو العسكري أو الإيديولوجي.

٣. التبعية الجزئية لنظام التمويل الدولي: وذلك من خلال منطق المشاريع القصيرة الأمد.

التمويل الدولي غالبًا ما يقوم على دعم مشاريع محددة المدة (٦ أشهر، سنة، سنتين كحد أقصى أو



جمال الأتاسي
(١٩٢٢-٢٠٠٠) كان مفكراً قومياً عربياً وسياسياً سورية. وكان في البداية أحد مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي، ولكنه لاحقاً مال إلى الناصرية (الاشتراكية القومية المتأثرة بجمال عبد الناصر)، كما شغل منصب وزير الإعلام السوري.



٣ على أحسن تقدير)، بدلاً من دعم برامج طويلة الأجل أو دعم مؤسسي مستدام. هذا بالتالي يؤدي إلى: صعوبة بناء خطط استراتيجية بعيدة المدى، وانشغال المنظمات الدائم بالتقديم على مشاريع جديدة لضمان استمراريتها، وتوقف الأنشطة عند انتهاء مدة المشروع، حتى لو كانت ناجحة ومؤثرة.

التأثير على المنظمات السورية: هذا النمط من التمويل لا ينسجم مع احتياجات المجتمعات السورية التي تتطلب برامج طويلة الأمد في التعليم، والتمكين، والاندماج، والدعم النفسي، أو إعادة بناء النسيج الاجتماعي ومن أهم هذه التأثيرات:

ضغط المؤشرات الرقمية "KPIs" أي مؤشرات الأداء الرئيسية، أحيانًا يتم ضغط هذه المؤشرات على حساب العمل المجتمعي طويل الأمد.

الجهات المانحة تعتمد بشكل كبير على المؤشرات الكمية (عدد الورشات، عدد المستفيدين، عدد الجلسات... إلخ) لقياس نجاح المشاريع، أي هل المشروع يسير كما مخطط له، وهل حقق نتائج واضحة أم لا، بالتالي التركيز على رفع العدد بدلاً من التركيز على جودة العمل أو الأثر الحقيقي.

لكن العمل المجتمعي الحقيقي يحتاج: بناء الثقة، وتطوير العلاقات المجتمعية، وبالتالي التأثير يكون تراكميًا لا يظهر في الأرقام مباشرةً.

والمشكلة: المنظمات أحيانًا تضطر للتركيز على تحقيق الأرقام المطلوبة بدلاً من التركيز على جودة التأثير ومما قد يؤدي إلى: تنفيذ أنشطة سطحية فقط لرفع الأرقام، و إهمال الأنشطة ذات الأثر المستدام عميقة لأنها بطيئة الأثر، وفقدان القدرة على تطوير مجتمعية مستدامة مستقبلاً.

تعقيدات العقوبات التي تجعل أي تحويل مالي مرتبط بسورية محفوف بالمخاطر، على الرغم من وجود استثناءات إنسانية في العقوبات، إلا أن الواقع المالي مختلف تمامًا.

• فمثلاً البنوك الأوروبية والأمريكية تخشى التعامل مع أي تحويل فيه كلمة "سورية" بسبب خطر الامتثال لمخاطر عدم الالتزام بالقوانين والأنظمة، وهي القوانيين المتعلقة بمكافحة غسيل الأموال ومكافحة تمويل الإرهاب والعقوبات الدولية والقواعد المالية والمصرفية، ومن ثم الكثير من التحويلات البنكية الخاصة بالمنظمات يتم تجميدها أو رفضها من دون أسباب واضحة. وغالبًا التحويلات تستغرق وقتًا طويلاً أو تمر عبر قنوات مكلفة تفوق طاقة المالية للمنظمات، وأيضًا بعض المنظمات الصغيرة يتعذر عليها أحيانًا فتح حسابات بنك أو تلقي منح.

والنتيجة هي: تعطل المشاريع أو تأخير تنفيذها، وبالتالي صعوبة في تغطية نفقات الموظفين أو تنفيذ الأنشطة في موعدها، أو اللجوء إلى حلول مؤقتة مثل الاعتماد على وسطاء ماليين يزيد من التكلفة ويضعف الشفافية.

٤. مخاطر الابتعاد عن قواعد المجتمع وذلك من خلال نشوء طبقة من الكوادر المدنية تعيش خارج سورية في ظروف أكثر أمانًا واستقرارًا، وأيضًا إمكانية نشوء فجوة في الرؤية والأولويات بينها وبين المجتمعات المتضررة داخل البلاد.

بالتالي يواجه نموذج المنظمات التي تتحرك عبر عدة دول مجموعةً من التحديات التي لا تظهر عادة لدى المنظمات المحلية المستقرة في بيئة واحدة. فهذه المنظمات تجد نفسَها مضطرّة إلى التعامل مع اختلافات واسعة في القوانين، والتمويل، وأساليب العمل، إضافة إلى ضرورة التنسيق بين فرق منتشرة في أماكن متعددة ومختلفة القوى والسيطرة. كما تبرز صعوبات ناتجة عن التباين بين توقعات المانحين واحتياجات المجتمعات التي تعمل معها، وهو ما يفرض على هذه المنظمات القدرة على التكيف المستمر دون أن تفقد رؤيتها أو أولوياتها.

وبسبب طبيعة عملها الموزع، تحتاج هذه المنظمات إلى موارد إضافية لضمان التواصل الداخلي، وضبط الإجراءات، و إدارة المخاطر التي قد تنشأ من العمل في بيئات سياسية أو أمنية حساسة.

وفي الوقت نفسه، عليها أن تحافظ على علاقة متوازنة بين المكاتب أو الفرق الموجودة في الخارج وتلك التي تعمل على الأرض، حتى لا يتحول التنسيق الخارجي إلى عبء إضافي أو مصدر للبيروقراطية.

في المحصّلة، يكمن التحدي الأكبر لهذه المنظمات في قدرتها على بناء نموذج مرن، يحترم اختلاف السياقات المحلية، ويضمن في الوقت نفسه وحدة التوجهات والأهداف عبر الحدود، دون أن تتأثر جودة العمل أو تضيع أولويات المجتمعات التي تخدمها.

٥. قدرة المجتمع المدني على التقدّم خلال هذه المرحلة: مع كل هذه التحديات، استطاع المجتمع

جلادت بدرخان
(١٨٩٣-١٩٥١) كان أميراً كُردياً وناشطاً سياسياً ودبلوماسياً، وتحول بعد فشل نشاطاته السياسية إلى لغوي بارز، حيث أسس ووضع الأبجدية اللاتينية للغة الكردية الكرمانجية (المعروفة بأبجدية هاوار) وقواعدها.

المدني السوري أن يبني خبرة إدارية ومؤسساتية في الحوكمة، والشفافية، وإدارة المنح، ويحافظ على شبكات التضامن والخدمات في مناطق غابت فيها الدولة أو فشلت في أداء وظائفها الأساسية، ويطور المجتمع المدني عملَه من الإغاثة الطارئة إلى مجالات أكثر تركيبًا وتعقيدًا: مثل الحماية، التعليم، التمكين الاقتصادي، الدعم النفسي، بناء القدرات المحلية...إلخ.

وبالتالي نراه يلعب دورًا حيويًا في التوثيق وحفظ الذاكرة: إذ لم تكن جهود التوثيق مجرد عمل إعلامي فقط، بل كان اللبنة الأولى لمشاريع العدالة المستقبلية، من خلال جمع الأدلة والشهادات والملفات التي ستستخدم لاحقًا في مسارات التقاضي والمساءلة والمحاسبة على المستوى الدولي والوطني، وهذه التجربة ستشكل أساسًا مهمًا لدور المجتمع المدني في مرحلة ما بعد السقوط.

> المجتمع المدني السوري أصبح يعمل داخل فضاء مركّب من الهيمنة البنيوية التاريخية التي مارستها السلطةُ لعقود، ومن القوة الناعمة المشروطة التي تمارسها الجهات المانحة اليوم

ثالثًا: المجتمع المدني بعد سقوط النظام: فضاء جديد مقيد بإرث قديم

في مرحلة ما بعد السقوط، لم يتخلّص الفضاء المدني من تأثيرات الخارج، بل دخل في طور جديد من الهيمنة البنيوية التي تتقاطع فيها مصالح السلطة الانتقالية مع مصالح القوى الدولية. فمع تخفيف العقوبات جزئيًا، عادت القوة الناعمة المشروطة لتلعب دورًا أكبر، من خلال التمويل الموجّه وبرامج إعادة الإعمار، مما جعل المجتمع المدني يتحرك داخل إطار مسدود تحكمه معادلات النفوذ الخارجي وتوازنات الداخل السياسية.

١. سياق سياسي واقتصادي متناقض: بعد سقوط نظام الأسد في نهاية ٢٠٢٤ لم تدخل سورية مباشرةً إلى نموذج ديمقراطي مستقر، بل ظهرت أوضاع متشابكة جعلت المرحلة الانتقالية معقّدة:

• سلطة انتقالية ذات خلفية عسكرية-أيدولوجية تسعى إلى إعادة تقديم نفسها داخليًا وخارجيًا كبديل شرعي ومحاولة لكسب قبول السوريين، ولكن خلفيتها العسكرية والأيديولوجية تجعل علاقتها مع المجتمع المدني السوري غير مستقرة نوعًا ما، لأن المؤسسات العسكرية عادة تميل للسيطرة، وبينما المجتمع المدني يقوم على النقد والرقابة والاستقلالية.

• مسار تفاوضي مع قوى إقليمية ودولية حول شكل النظام الجديد وحدود صلاحياته، هذه المفاوضات قد تبطئ عملية الاستقرار السياسي، وقد تخلق ضغوطًا على المجتمع المدني لأنّ الأولوية تصبح سياسية وأمنية، لا تنموية أو مجتمعية.

• تخفيف جزئي مشروط للعقوبات الاقتصادية والمالية، مع بقاء جزء مهم منها، في ظل اقتصاد منهار وبنية تحتية مدمرة بالكامل، بعد سقوط النظام السابق، وذلك أن المجتمع الدولي خفف جزءًا من العقوبات:

طبعًا لتسهيل المساعدات الإنسانية، وتخفيف بعض القيود المالية، لكن الجزء المتعلق بالبنوك، والتحويلات، والعلاقات الاقتصادية بقي قائمًا، والاقتصاد أساسًا: منهار والبنية التحتية مدمرة بشكل شبه كامل والبطالة مرتفعة جدًا والخدمات الأساسية شبه معدومة، وهذا يعني أن الحياة اليومية للناس لا تزال صعبة، حتى لو شهدت البلاد انفتاحًا سياسيًا نسبيًا.

بالتالي باستمرار هذه القيود المالية وبين متطلبات الشفافية والمحاسبة التي تفرضها الجهات المانحة من جهة والحاجة إلى حلول عملية ومرنة لإدارة الأموال في بيئة مالية مضطربة من جهة أخرى، يجد المجتمع المدني نفسه أمام مساحة ضيقة تحكمها اعتبارات أمنية وقانونية واقتصادية مما يدفعها إلى البحث عن طرق بديلة لضمان وصول الموارد إلى مشاريعها ضمن نظام مصرفي ضعيف وغير مستقر في البلاد.

لقد جعل هذا الواقع أولويةَ شريحة واسعة من المواطنين هي تأمين سبل العيش، ما يقلل بالضرورة من قدرتهم على الانخراط في العمل المدني التطوعي أو الحقوقي، ويبقى المجتمع المدني في موقع الفاعل بين ضغط الاحتياج اليومي ومهمة التغيير الحقيقي.

٢. عودة قانون الجمعيات القديم، بدلاً عن صياغة قانون جديد للجمعيات، أعادت السلطات الانتقالية استخدام القانون نفسه الذي كان يستعمل في زمن النظام السابق، مع بعض التعديلات الشكلية. هذا أبقى على منطق "الترخيص كمنحة من الدولة"، لا كحق أساسي، وأيضًا وضع الشروط الصارمة على التمويل الخارجي، وكذلك، والأهم، السلطة الواسعة للإدارة والأجهزة الأمنية في قبول أو رفض تسجيل الجمعيات وأنشطتها.

٣. وضع المنظمات التي تأسست خارج سورية ثم عادت: وجدت المنظمات السوريّة التي تأسست في دول الجوار نفسَها أمام خيارات صعبة:

فتح مكاتب داخل سورية للحصول على شرعية محلية والاقتراب من المجتمعات المستفيدة، ومع الاحتفاظ بمكاتبها في الخارج للحفاظ على مركزها القانوني والمالي ولضمان استمرارية التعامل مع المانحين والبنوك، أو اعتماد نموذج مزدوج يجمع بين الاثنين إدارة قانونية وتمويلية خارجية، وفروع تنفيذية داخلية.

هذا النموذج المزدوج واجه تحديات من نوع آخر وهي ازدواجية الأنظمة القانونية (قانون دولة التسجيل + قانون الجمعيات السوري في دولة التنفيذ)، واختلاف المتطلبات الإدارية والمالية بين الجانبين، مما سيؤدي إلى خلق توترات داخلية بين فرق الداخل وفرق الخارج حول الأولويات وأساليب العمل.

٤. القيود السياسية والاجتماعية والجغرافية، إلى جانب القانون والمال، تواجه المنظمات أيضًا:

• سلطة انتقالية تميل إلى تفضيل الدور الخدمي للمجتمع المدني على حساب دوره النقدي أو الرقابي، وتتعامل بحذر مع أي خطاب يتعلق بالمساءلة أو العدالة الانتقالية.

• حساسيات مجتمعية تراكمت بعد سنوات الحرب، تجعل قضايا مثل النوع الاجتماعي، وحقوق الأقليات، والعدالة، قضايا شديدة الاستقطاب.

• انقسام جغرافي-سياسي مستمر، يفرض على المجتمع المدني العمل ضمن خرائط نفوذ مختلفة، وقوانين فرعية متباينة بين منطقة وأخرى.

العيش في فقر

يعيش حوالي ٩٠ في المائة من السوريين في فقر بعد أكثر من عقد من الحرب.

• المصدر: العربي الجديد



في هـذا السياق، جاء إجـراءات وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بعد السقوط بوصفها الجهة الرسمية المسؤولة عن ملف الجمعيات، ليضيف طبقة جديدة من التعقيد. ففي عام ٢٠٢٥، أصدرت الوزارة، سلسلة من التعاميم والإجراءات التنظيمية التي تمس مباشرة عمل المنظمات. قدمت هذه الخطوات على أنها جزء من تنظيم القطاع الأهلي وتطويرًا للبيئة المدنية وضبطًا للشفافية؛ لكنها عمليًا أعادت تفعيل آليات الموافقة المسبقة والرقابة على التمويل والارتباطات الخارجية.

> تُظهر قراءة مسار المجتمع المدني السوري عبر المراحل الثلاث أن ما نراه اليوم هو نتيجة تراكم معقّد بين إرث قانوني وأمني تحكمي يمتد لعقود طويلة، وانفجار ثوري فتح الفضاء العام، ثم دفع جزءًا كبيرًا من العمل إلى خارج الحدود، بالإضافة إلى مرحلة انتقالية تحمل وعود التحرر، لكنها في الوقت نفسه تعيد إنتاج كثير من أدوات السيطرة والضبط

أبرز ما تضمنته هذه الإجراءات:

• إلـزام الجمعيات والمنظمات بالحصول على موافقة مسبقة قبل قبول أي تمويل خارجي، مهما كان حجمه أو مصدره.

• اشتراط إذن رسمي قبل الانضمام إلى شبكات أو اتحادات أو منصات دولية.

• مطالبة المنظمات بتقديم تقارير تفصيلية حول شركائها وبرامجها المشتركة عبر الحدود.

• التأكيد على الالتزام بأحكام قانون الجمعيات القديم ريثما يتم إنجاز قانون جديد، والتأكيد على أن الوزارة هي المرجع المركزي الوحيد للموافقة أو التجميد.

ورغم الحديث عن "تطوير قانون للمنظمات غير الحكومية" فلم يظهر حتى الآن نص رسمي واضح أو مسودة نهائية معلنة، ما جعل هذه التعاميم تتحول عمليًا إلى أداة رئيسية لإعادة ضبط العمل الأهلي في مرحلة انتقالية حساسة. كثير من المنظمات نظرت إلى هذه الخطوات بوصفها إعادة إنتاج لمنطق التحكم القديم، وإنما بصياغة جديدة، بدلًا من تمكين فضاء مدني حر ومستقل، واعتبار الجمعيات شريكًا في صياغة المستقبل.

٥. الحوكمة الداخلية والشفافية: التحدي الذاتي للمجتمع المدني

لم تكن تحديات المجتمع المدني بعد السقوط خارجية فقط؛ بل ظهرت تحديات داخلية فرضتها طبيعة نمو المنظمات المتسارع خلال سنوات الحرب، منها:

• العديد من المنظمات نجحت في تطوير أنظمة داخلية واضحة وهياكل مؤسسية بسبب متطلبات الجهات المانحة وخبرتها العملية، لكن الصعوبة الحقيقية تكمن في ترسيخ هذه الهياكل وتحويلها إلى ثقافة مؤسسية مستقرة داخل فرق متنوعة وخلفيات مختلفة. يشمل ذلك ترسيخ ممارسات المساءلة الحقيقية، وتقليل الاعتماد على العلاقات الشخصية القديمة، وضمان استدامة المؤسسة رغم تقلبات التمويل.

• الحاجة لتعزيز الشفافية ليس فقط أمام المانحين، بل أيضًا أمام المجتمعات المحلية التي تخدمها منظمات المجتمع المدني.

• بروز ما يشبه "نخبة مجتمع مدني" تتمركز في المدن الكبرى أو خارج سورية، وقد تكون أحيانًا بعيدة عن الواقع الميداني اليومي، مما يزيد من فجوة التواصل مع المناطق الأكثر هشاشة والفئات ذات الأولوية المجتمعية.

• المنافسة السلبية على التمويل، التي أعاقت بناء تحالفات قوية بين المنظمات، ودفعت بعضها إلى العمل في جزر منفصلة بدل تبني مقاربات تنسيقية مشتركة، مما حدّ من تأثير المجتمع المدني على التغيير الحقيقي.

٦. الذاكرة والعدالة الانتقالية: الدور الأكثر تعقيدًا

في مرحلة ما بعد السقوط، برزت بشكل أوضح المسؤولية الثقيلة للمجتمع المدني في التعامل مع إرث الماضي:

قيادة مسارات التوثيق المتقدم للانتهاكات، وربطها بمسارات العدالة الدولية والوطنية، ودعم الدعاوى القضائية في الخارج، والمناصرة من أجل عدم الإفلات من العقاب، والمطالبة بسياسات وطنية واضحة للعدالة الانتقالية (محاكمات، لجان حقيقة، برامج جبر ضرر، إصلاح مؤسساتي... إلخ).

و إبـقـاء قضية المختفين قسريًـا حـية، تلعب المنظمات المدنية دورًا محوريًا في حفظ قضية المختفين قسريًـا ضمن الـذاكـرة المجتمعية

والوطنية والدولية، وغالبًا ما تقود النساء في المجتمعات المحلية هذه الجهود، من خلال ربط أهالي المختفين ببعضهم، وتشكيل شبكات دعم ونقاش عام، وتهدف هذه المبادرات إلى تحويل القضية من شأن فردي أو عائلي إلى قضية عامة تحظى بالاعتراف والمناصرة على المستوى الوطني والدولي، بما يضمن متابعة حقوق المختفين ومنع الجناة من الإفلات من العقاب.

٧. قدرة المجتمع المدني على التقدّم بعد السقوط

رغم كل ما سبق، يمتلك المجتمع المدني السوري اليوم، خبرة تراكمية كبيرة في الإدارة، والحوكمة، والتعامل مع المنظومة الدولية، وشبكات واسعة تربط الداخل بالشتات السوري في مختلف الدول، ووعيًا أعلى بأهمية الاستقلالية عن أي سلطة سياسية أو عسكرية، بالإضافة إلى إمكانية حقيقية للتأثير في صياغة التشريعات، حين تسمح له بالمشاركة في إصلاح القوانين مثل قانون الجمعيات والتأثير في صياغة التشريعات والسياسات المستقبلية الناظمة للفضاء المدني.

هذه العناصر تمنح المجتمع المدني دورًا استراتيجيًا فاعلاً ومحوريًا محتملاً في أي مسار جدي لإعادة بناء العقد الاجتماعي في سورية بين المجتمع والدولة، هذا إذا ما تم السماح له بتفعيل دوره الحقيقي.

رابعًا: دور النساء والشباب في تحوّلات المجتمع المدني السوري

١. قبل الثورة: حضور محدود و إمكانات مكبوتة

• النساء قبل ٢٠١١: تم حصر وجود النساء إلى حد كبير في أطر رسمية أو خيرية تقليدية (اتحاد نسائي، جمعيات محلية)، بالإضافة إلى غياب شبه تام للنساء عن مواقع صناعة القرار على المستوى السياسي والمدني، وبالإضافة أيضًا في النقابات والاتحادات أو غيرها، إلى جانب وجود مبادرات نسوية محدودة تعمل في الظل، في مجالات مثل: محو الأمية، الاستشارات الأسرية، دعم المتعرضات للعنف.

• الشباب قبل ٢٠١١، كتلة سكانية كبيرة داخل أطر مسيطر عليها (اتحاد شبيبة، اتحاد طلاب)، بالإضافة

فادي قاسم
وزير التنمية في حكومة الإنقاذ السورية، أثناء تفقده المشاريع الإنشائية في منطقة إدلب.
• المصدر: الصورة المنشورة على حساب "إكس" (X) لوزارة التنمية والشؤون الإنسانية



الى غياب حياة طلابية مستقلة، أو اتحادات حرة تمثلهم فعليًا: هذا أدى إلى شعور متزايد بالاختناق بسبب البطالة والفساد والمحسوبية وغياب أفق المشاركة السياسية. مع ذلك، لعبت فئات من النساء والشباب دور "الاستعداد الصامت" للمرحلة القادمة، عبر بناء وعي جديد، والاحتكاك بالعالم عبر التعليم والإنترنـت، وتراكم هذه الإحباطات تحولت لاحقًا إلى فعل جمعي مع اندلاع الثورة السورية.

> إن مستقبل المجتمع المدني السوري سيعتمد إلى حد كبير على قدرته على الخروج من دائرة القوة الناعمة المشروطة، وتفكيك أنماط الهيمنة البنيوية المتوارثة، وبناء فضاء مدني مستقل قادر على صياغة أولوياته بمعزل عن خريطة النفوذ الإقليمي والدولي

٢. خلال الثورة: النساء والشباب في قلب الفعل المدني

• النساء خلال الثورة، شاركن في قيادة الحراك المدني والتنسيقيات واللجان المحلية في عدد من المدن، إذ تولت كثير منهن مهام الإعلام، وتنظيم الفعاليات، والإغاثة، والتواصل مع عائلات المعتقلين والمفقودين. وقادت النساء السوريات، من الداخل والشتات، منظمات ومبادرات إنسانية وحقوقية لعبت أدوارًا بارزة في التوثيق، والدعم، وتمكين النساء.

التحديات التي واجهتها النساء: استهداف مباشر من الأجهزة الأمنية في مناطق النظام، وتضييق وتهديد من بعض الفصائل المتشددة في مناطق المعارضة، وضغوط اجتماعية في بيئات محافظة قد لا تقبل بسهولة بدور نسائي علني في الشأن العام، واستبعادهن في الكثير من الأحيان من دوائر صنع القرار، رغم أنهن في قلب العمل اليومي.

• الشباب خلال الثورة: كانوا المحرك الرئيسي للحراك السلمي في بداياته، قادوا الإعلام البديل، وحملات المناصرة الرقمية، وشبكات التوثيق البصري، إذ شكّلوا العمود الفقري للمنظمات التي انتقلت للعمل عبر الحدود (تنسيق، تنفيذ، متابعة، تقييم، إدارة مشاريع... إلخ)، وواجه الشباب بالتالي، قمعًا وعنفًا ممنهجًا من النظام السابق، واستهدافًا من أطراف أخرى، ونزوحًا وهجرة قسرية، واعتقالاً وتجارب اعتقال قاسية، واستقطابًا سياسيًا حادًا، جعل الحفاظ على الاستقلالية تحديًا دائمًا لديهم. مع ذلك، وضعوا الأساس لثقافة مدنية جديدة، تتحدث عن المواطنة، والحقوق، والدولة المدنية.

٣. بعد السقوط: إمكانات قيادية جديدة أم إعادة إنتاج للتهميش؟

• النساء بعد السقوط، نقاط القوة لدى النساء، خبرة متراكمة في إدارة العمل الإنساني والمدني، شبكات واسعة داخل المجتمعات المحلية ومع الشتات، مستويات تعليم ومهارات أعلى من الأجيال السابقة.

العقبات التي واجهت النساء: استمرار تأثير البنى الاجتماعية التقليدية التي تمنح الأفضلية للرجال في القيادة بدلاً عن النساء، تضييق قانوني أو إداري على البرامج التي تتناول قضايا النوع الاجتماعي وحقوق النساء بشكل مباشر، محاولات بعض الفاعلين السياسيين استخدام المنصات النسائية كواجهة شكلية من دون إشراك أو تمكين حقيقي. مع ذلك، تظهر اليوم، منظمات تقودها نساء يعملن في التمكين الاقتصادي والاجتماعي والنفسي، ومبادرات نسائية تشارك في النقاش حول التشريعات والسياسات الجديدة، بما فيها قوانين الجمعيات والعدالة الانتقالية. وثمة نماذج متزايدة لنساء يتقدمن لمواقع القرار داخل مجالس إدارة المنظمات.

• الشباب بعد السقوط: نقاط القوة لدى الشباب: جيل الخبرة الفعلية في المجتمع المدني: عمل خلال الحرب، وعبر الحدود، ومع المنظمات الدولية، يمتلك خبرة ومهارات تقنية وإدارية عالية في مجالات الإدارة، والحوكمة، والتواصل، والبيانات، والعمل الرقمي... إلخ. كثير منهم يتحرك بين الداخل والشتات، ما يسمح ببناء جسور مستمرة لنقل الخبرة والمعرفة والموارد.

• التحديات التي تواجه الشباب: ضعف الفرص الاقتصادية أو شبه انعدامها يدفع بعضهم للهجرة أو ترك العمل المدني لصالح فرص عمل أخرى خارج سورية، استمرار ثقافة "الأقدمية" التي تعطي القرار النهائي للأكبر سنًا في بعض المؤسسات، إلى جانب خطر الاستقطاب الحزبي أو الأيديولوجي

الذي قد يحد من قدرتهم على لعب دور مدني مستقل.

وبالرغم من كل هذا لديهم القدرة على التقدم، وذالك في قيادة مبادرات ناشئة محلية ومبتكرة في مجالات التعليم، والتمكين، والتكنولوجيا المدنية وغيرها، تطوير أدوات رقمية للمساءلة والشفافية، ومنصات للمشاركة المجتمعية، وأيضًا تمثيل المجتمع المدني السوري أمام المنصات الدولية بصورة أكثر مهنية وحداثة.

وبالنظر إلى المشهد بأكمله، يتضح أن المجتمع المدني السوري أصبح يعمل داخل فضاء مركّب من الهيمنة البنيوية التاريخية التي مارستها السلطةُ لعقود، ومن القوة الناعمة المشروطة التي تمارسها الجهات المانحة اليوم. هذا التداخل بين الهيمنة القديمة والحديثة أسّس لواقع جديد: مجتمع مدني فاعل، لكنّه محاصَر بمعادلات النفوذ، قادر على إنتاج المبادرات، لكنّه مقيَّد بهوامش التمويل والتوجيه، ومطالب المجتمع المدني السوري اليوم بمراقبة أداء الحكومة ومساءلتها، ولكنه يعمل ضمن حدود وسقف لا يمكن تجاوزه ضمن معايير وضعتها السلطةُ بحكم الواقع الحالي في سورية.

الخاتمة:

تُظهر قراءة مسار المجتمع المدني السوري عبر المراحل الثلاث أن ما نراه اليوم هو نتيجة تراكم معقّد بين إرث قانوني وأمني تحكمي يمتد لعقود طويلة، وانفجار ثوري فتح الفضاء العام، ثم دفع جزءًا كبيرًا من العمل إلى خارج الحدود، بالإضافة إلى مرحلة انتقالية تحمل وعود التحرر، لكنها في الوقت نفسه تعيد إنتاج كثير من أدوات السيطرة والضبط. وبرغم هشاشة الواقع الحالي، يمتلك المجتمع المدني السوري اليوم، خبرة مؤسساتية متراكمة، شبكات واسعة داخلية وخارجية، كتلة حرجة من النساء والشباب القادرين على لعب دور قيادي في إعادة بناء الفضاء العام.

يبقى التحدي الأساسي هو: هل سيتمكن الفاعلون المدنيون من:



نشرت منظمة العفو الدولية قائمة وأفادت بأن: عشرات آلاف المواطنين السوريين تم اعتقالهم بشكل تعسفي منذ عام ٢٠١٢.

● المصدر: رويترز

١. حماية استقلالهم عن أي سلطة سياسية أو عسكرية أو أيديولوجية جديدة؟
٢. الضغط من أجل قانون مدني للجمعيات يحترم حرية التنظيم والتمويل والمساءلة المجتمعية؟
٣. بناء تحالفات مدنية عابرة للانقسامات المناطقية والطائفية والأيديولوجية؟
٤. و إشراك النساء والشباب، ليس كـ "ديكور تمثيلي"، بل كقوة صانعة للقرار؟
وهنا تبرز أيضًا أهمية إصلاح البنية النقابية بوصفها ركنًا أساسيًا من أي مشروع ديمقراطي قادم. وفي سياق تطوير البنية المدنية الضامنة لحقوق الأفراد والمؤسسات وممارساتها الرقابية الرادعة، يصبح وجود نقابات واتحادات مستقلة وقوية شرطًا لازمًا لبناء حياة ديمقراطية حقيقية. بحيث إن النقابات، عندما تكون منتخبة بطريقة حرة وتمثل مختلف شرائح المجتمع السوري، تتحول إلى أداة قادرة على ردع السلطة في حال التجاوز، وتصبح قادرة على حماية المصالح العامة والخاصة، تمامًا كما



هو الحال في التجارب الديمقراطية المتقدمة التي تلعب فيها النقابات دورًا محوريًا في التوازن بين الدولة والمجتمع.

إذا استطاع المجتمع المدني السوري أن يجيب عن هذه الأسئلة بالفعل لا بالشعارات، فسيكون له دور حقيقي في صياغة عقد اجتماعي جديد، لا يكتفي بطيّ صفحة النظام السابق، بل يمنع إنتاج نسخة مكررة منه بصيغ مختلفة.

إن مستقبل المجتمع المدني السوري سيعتمد إلى حد كبير على قدرته على الخروج من دائرة القوة الناعمة المشروطة، وتفكيك أنماط الهيمنة البنيوية المتوارثة، وبناء فضاء مدني مستقل قادر على صياغة أولوياته بمعزل عن خريطة النفوذ الإقليمي والدولي.

"وهذا ما يجعل المرحلةَ القادمةَ اختبارًا حقيقيًا لقدرة المجتمع المدني السوري على أن يكون شريكًا في بناء مستقبل سورية، لا مجرد شاهد عليه".



الاحتفال بسقوط الأسد
نساء يحتفلن بسقوط نظام الأسد في دمشق، ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٢٤.
• المصدر: أسوشيتد برس



تهجين السياسات الن

العصيان المدني، ومقاومة حرب العصابات:



ـكرووية[1]

دراسة حالة فلسطين



إسلام أوزكان
أستاذ جامعي ومحلل لشؤون غرب آسيا
• تركية

المقدّمة

منذ النكبة في عام ١٩٤٨، فإن نضال فلسطين من أجل الاستقلال يتسم بتاريخ من المقاومة التي صاغها الاحتلال والتهجير القسري والقمع المنهجي. إن عملية "طوفان الأقصى" التي شنتها حماس في ٧

أكتوبر ٢٠٢٣ وأفرزت تصعيداً دراماتيكياً في الصراع، أسفرت عن مقتل أكثر من ١,٢٠٠ "إسرائيلي" واحتجاز ٢٥٠ رهينة. فيما أدى الرد "الإسرائيلي" على غزة إلى كارثة إنسانية، حيث أسفر عن مقتل أكثر من ٦٥,٠٠٠ فلسطيني وتدمير ٧٠٪ من البنية التحتية و إصابة ما يقدر بـ ١٨٦,٠٠٠ شخص حتى عام ٢٠٢٥.

أدى الرد "الإسرائيلي" على غزة إلى كارثة إنسانية، حيث أسفر عن مقتل أكثر من ٦٥,٠٠٠ فلسطيني وتدمير ٧٠٪ من البنية التحتية و إصابة ما يقدر بـ ١٨٦,٠٠٠ شخص حتى عام ٢٠٢٥

أظهرت هذه الأزمة عدم كفاية الاستراتيجيات أحادية البعد، سواء أكانت على شكل الكفاح المسلح فقط (مثل تكتيكات حرب العصابات وهجمات الصواريخ) أو العمل المدني فقط (مثل حملات حركة BDS للمقاطعة، والاحتجاجات الجماهيرية والعصيان المدني). بدلاً من ذلك، توفر نماذج المقاومة الهجينة، وهي مزيج استراتيجي من العمل المسلح والمدني، إمكانية تعطيل الخطط "الإسرائيلية" تكتيكيًا وكسب الشرعية الأخلاقية. يمكن فهم "المقاومة الهجينة"، كما ورد في التعريف الأساسي لـ فرانك ج. هوفمان على أنها توليفة تدمج القدرات التقليدية (مثل أنظمة الصواريخ) مع التكتيكات غير النظامية (مثل الكمائن والكر والفر لحرب العصابات)؛ وهو ما يعكس بشكل مباشر التكتيكات الهجينة التي طورتها حماس مستلهمة من حزب الله في السياق الفلسطيني. ومع ذلك، فإننا نتناول النموذج الهجين بشكل مختلف، ليس باعتباره مزيجًا من حرب الجيش النظامي وحرب العصابات، بل كنموذج يتم فيه تنفيذ أعمال العصيان المدني بالتوازي مع حرب العصابات. بالإضافة إلى ذلك، سنسعى للكشف عن كيفية دفع بعض العوامل الظرفية الحالية لمنظمات المقاومة نحو التحول التدريجي من نموذج حرب العصابات والكفاح المسلح إلى النضال المدني.

تبحث هذه المقالة في كيفية قيام هذه النماذج الهجينة بإعادة صياغة "تحرير فلسطين" في سياق ما بعد ٧ أكتوبر، وكيف يمكن أن تساهم في نموذج المساواة ضمن دولة واحدة من خلال تجاوز انسداد حل الدولتين.

تركّز الدراسة على سؤالين أساسيين:

١. كيف أعادت نتائج ٧ أكتوبر تشكيل خيارات المقاومة الفلسطينية، خاصة بين الشباب؟

٢. كيف يمكن استخدام النماذج الهجينة لتعزيز التضامن العالمي والحل الدبلوماسي؟ وهل يمكن أن تكون وظيفية في استعادة الحقوق الفلسطينية المغتصبة؟

الأسس النظرية

يحتل الفيلسوفان الأفريقيان فانون ومبيمبي مكانة مهمة في محاولات تعريف وفهم المقاومة الفلسطينية على أسس فلسفية. تعتبر نظرية "إنهاء الاستعمار" لـ فرانتز فانون مركزية لفهم المقاومة الفلسطينية. يجادل فانون في عمله *معذبو الأرض* (١٩٦١) بأن تحرير الشعوب المستعمَرة ليس عملية سياسية فحسب، بل هو أيضًا عملية نفسية وثقافية. ووفقًا له، فإن الكفاح المسلح مشروع "كعنف مضاد" ضد العنف الاستعماري. ولكن إعادة بناء الوعي الجماعي ضرورية للتحول المجتمعي من خلال العصيان المدني[٢]. بعبارة أخرى، تختلف وظيفة الكفاح المسلح عن وظيفة ودور النضال المدني. في حين يوفر النضال المدني الدعم الاجتماعي لحركة حرب العصابات ويعيد تشكيل الوعي المجتمعي، ويدفع المجتمع إلى عملية إعادة بناء جماعية، فإن الكفاح المسلح يضعف معنويات العدو ويجبره على التراجع.

تعكس النماذج الهجينة التي ظهرت بعد ٧ أكتوبر هذه الرؤية الجدلية لـ فانون: فبينما تتحدى تكتيكات حرب العصابات لحماس الهيمنة العسكرية "الإسرائيلية"، فإن الإجراءات المدنية لحركة BDS تعيد بناء السردية الفلسطينية على نطاق عالمي. تتجسد فكرة فانون عن "إعادة خلق الذات للمستعمَر" في أشكال مبتكرة للمقاومة، مثل "اقتصادات الهدنة" في غزة، التي تضمن الاستدامة من خلال التعاونيات الزراعية المؤقتة وشبكات المقايضة المحلية (كما وثقت تقارير الأمم المتحدة)، أو في الأرشيفات الرقمية التي تقودها الشتات. وبالتالي، يغذي كلا شكليْ المقاومة بعضهما الآخر ويسرع من وتيرة النضال.

أحد المفكرين الذين قدموا منظورًا مختلفًا لأشكال نضال حركات المقاومة هو أشيل مبيمبي. يوفر مفهوم مبيمبي للـ "السياسات النكروية"[٣]/سياسة الموت) إطارًا يشرح انتقال السلطة الحديثة من تنظيم الحياة إلى إدارة الموت. في حين أن "السياسة الحيوية"[٤] لـ"ميشيل فوكو" تهتم بسلطة "تنظيم" و"تحسين" الحياة، فإن مبيمبي، مستلهمًا من هذا المفهوم، يجادل بأن السلطةَ تعمل على وجه التحديد في شكل "إدارة الموت" في مجالات مثل الاستعمار والفصل العنصري ومناطق الحرب. وفي هذا السياق، تُعرَّف السياسات النكروية بأنها سلطة الدولة على "تقرير من يموت ومن يعيش". من ناحية أخرى، يعرض مفهوم المقاومة الهجينة، وهو الموضوع المركزي لهذه المقالة، لما يسميه جيوفاني سارتوري "التمدد المفاهيمي"[٥] لقد توسع تعريف هوفمان الأصلي للحرب الهجينة، بمعنى التآزر بين الأسلحة التقليدية والتكتيكات غير النظامية، إلى تعريف الناتو بعد عام ٢٠١٤ للمنطقة الرمادية للأدوات العسكرية وغير العسكرية، ليشمل دمج العصيان المدني في سياقات غير متماثلة مثل فلسطين.

السياسات النكروية: سيادة قائمة على الموت بدلاً عن الحياة

وفقًا لمبيمبي، لم تعد أشكال السيادة المعاصرة قائمة على "حماية الحياة" بل على "توزيع الموت". يتضح هذا بشكل خاص في المناطق المستعمَرة مثل إفريقيا والمناطق المحتلة مثل فلسطين. "السيادة هي سلطة تقرير من سيموت"[٦]، وهكذا تستمر السياسات النكروية في الوجود من خلال استمرارية الموت، متجاوزة سلطة الدولة الحديثة الحيوية (البيوبوليتيكية). فلسطين، كما يشير مبيمبي نفسه، هي واحدة من أبرز الأمثلة على نظام سياسة الموت هذا: "يُعلَّق الجسد الفلسطيني بين الحياة والموت؛ فهو لا يعيش بالكامل ولا يموت تمامًا"[٧].

فرانك جي. هوفمان
يُعدّ فرانك جي. هوفمان (Frank G. Hoffman) واحدًا من أبرز المنظرين العسكريين الأمريكيين المعاصرين، وباحثًا أول في جامعة الدفاع الوطني (NDU) في الولايات المتحدة. وتعود شهرته العالمية بشكل أساسي إلى ابتكاره وتوضيحه لمفهوم "الحرب الهجينة".



ويستطرد مبيمبي قائلًا:
"يُبقى الجسد الفلسطيني على قيد الحياة وهو مصاب؛ فهو يتواجد من خلال تجربة دائمة للحياة والموت في آن واحد. ففي الأماكن التي يسود فيها الموت، وتُقيَّد فيها الحياة، ويُعلّق فيها الزمن، يختبر الفلسطينيون شكلًا من الوجود كـ 'أموات أحياء' بالمعنى الحرفي للكلمة"[٨].
(Mbembe, 2020, s. 44]}.

يحدث هذا التعليق والاحتجاز في منطقة رمادية على كلا المستويين: المادي (الحصار، نقاط التفتيش، أنظمة التصاريح) والأنطولوجي (انعدام الوطن، انعدام الرؤية، اليأس). وبالتالي، فإن فلسطين هي التجسيد الأكثر واقعية للسياسات النكروووية كمنطقة رمادية بين الحياة والموت. في ظل هذا النظام، تسعى المقاومة الهجينة إلى تعطيل استراتيجية القوة المهيمنة في توزيع الموت، من خلال تحقيق غموض تكتيكي يجمع بين استراتيجيات الحرب التقليدية وطرق حرب العصابات، كما عرفها هوفمان[٩]. على سبيل المثال، تعمل أنظمة أنفاق حماس كدفاعات لحرب العصابات وملاجئ مدنية في آن واحد، مما يقوّض السيطرة النكروووية.

> توفر نماذج المقاومة الهجينة، وهي مزيج استراتيجي من العمل المسلح والمدني، إمكانية تعطيل الخطط "الإسرائيلية" تكتيكيًا وكسب الشرعية الأخلاقية

تحوّل المقاومة: من استدامة الحياة إلى استرداد الموت

وفقًا لمبيمبي، لم تعد المقاومة في ظل السيادة النكروووية تهدف إلى "إسقاط السلطة" فقط، بل إلى "استعادة الحق في الحياة"[١٠]. لذلك، فإن شكلَيْ المقاومة المنفصلَيْن بالمعنى الكلاسيكي، وهما "العصيان المدني" و"حرب العصابات"، يصبحان وجهيْن مختلفين للمنطق السياسي نفسه في الأنظمة النكروووية.

أ. العصيان المدني: الإصرار على العيش

إستمرار مزارع فلسطيني في حرث أرضه، أو محاولة أمّ عبور الجدار، أو تنظيم الطلاب حملة مقاطعة للجامعة - كلّها "أفعال حياة". هذه الأفعال لا "تتحدى القانون" بالمعنى الليبرالي الغربي الكلاسيكي؛ بل تمارس فعليًا الحقّ في الحياة في خضم نظام الموت. في هذا السياق، تختلف أشكال العصيان المدني في فلسطين عن السلمية الغاندية؛ لأنها لا تستبعد خطر الموت، بل تتشكل في الواقع وسط تهديد الموت. يتطابق هذا الوضع مع المنطقة البينية التي يسميها مبيمبي "الحياة في الموت"[١١]. في ظل ظروف سلطة السياسات النكروووية، تتشابك الحدود بين المقاومة والانتحار، وبين التضحية والتحرر، وبين الشهادة والحرية. هذه حالة حياة في موت".

تشكل هذه الأفعال المدنية طبقة من المقاومة الضمنية، على غرار تعريف الناتو للتهديدات الهجينة: يوفر الضغط الاقتصادي لحركة BDS وسائل لتحقيق أهداف سياسية مع البقاء دون عتبة الحرب التقليدية.

علاوة على ذلك، تكتسب الشرعية أهمية كمنتج ثانوي للنضال المدني. فقد احتلت المناقشات حول كيفية بقاء المنظمات المسلحة ليس فقط من خلال قوتها العسكرية ولكن أيضًا من خلال أنشطتها المدنية والسياسية، وبناء الشرعية من خلال هذه الأنشطة، مكانة متزايدة في الأدبيات الأمنية والسياسية والقانونية الدولية في السنوات الأخيرة. تسعى هذه المنظمات جاهدة للاعتراف بها كجهات فاعلة شرعية في نظر الجمهور، ضد الدولة، وعلى الساحة الدولية، بينما تحافظ على وجودها من خلال العنف.

توضح مقالة سوكانيا بودر[١٢] بعنوان "فهم شرعية الجماعات المسلحة: منظور علائقي" (٢٠١٧) عمليات كسب الشرعية للجماعات المسلحة من خلال مفهوم "الشرعية العلائقية". وفقًا لبودر، تبني الجماعات المسلحة الشرعيةَ عبر ثلاثة مجالات علائقية رئيسية: مع المجتمع المدني، والدولة، والجهات الفاعلة الدولية. تكتسب هذه الجماعات الشرعيةَ ليس فقط من خلال الخطاب الأيديولوجي، ولكن أيضًا من خلال توفير الخدمات للمجتمع، وتقديم المساعدة الاجتماعية وخدمات البنية التحتية، وسد فجوات الدولة في مجالات مثل التعليم والصحة[١٣]. تضع مثل هذه الأنشطة المنظّمات في موقع "الحامي" أو "الممثل"

في نظر الجمهور. وهكذا، بينما يتم التشكيك في السلطة الشرعية للدولة، تبرز الجماعات المسلحة كبديل للحكم ومصدر للخدمات. تربط بودر هذه الحالة بصعود أشكال "الحوكمة الموازية"، خاصة في المناطق التي تشهد صراعات داخلية طويلة الأمد. تدرس دراسة بينيديتا برتي[١٤] بعنوان "الجماعات المسلحة كأحزاب سياسية ودورها في السياسة الانتخابية: حالة حزب الله" (٢٠١١) ديناميكيات كسب الجماعات المسلحة للشرعية من خلال التوجه إلى الساحة السياسية، باستخدام مثال حزب الله. تشير برتي إلى أن وجود حزب الله ليس فقط كمنظمة مقاومة عسكرية، بل كجهة فاعلة مؤسسية في السياسة اللبنانية، يمنحه ميزة على مستويين:

١. زيادة الدعم الشعبي من خلال تولي دور مكمل لخدمات الدولة في نظر الجمهور؛

٢. تعزيز قدرتها على التمثيل والتفاوض على المستويين الوطني والدولي[١٥].

لقد دمج الجناح السياسي لحزب الله هويته "المقاومة" مع "التمثيل السياسي" من خلال أنشطة مثل المشاركة في الانتخابات، وتولي مناصب في إدارات البلديات، و إنشاء شبكات خدمات اجتماعية. لم تقتصر هذه الاستراتيجية على إضفاء الشرعية على موقع المنظمة في لبنان فحسب؛ بل جعلتها أيضًا جهة فاعلة مهمة في السياسة الإقليمية. ومع ذلك، تشير برتي إلى أن هذا الوضع أدى أيضًا إلى أزمة شرعية مزدوجة: فبينما يصنف النظام الدولي الجناح العسكري لحزب الله على أنه "إرهابي"، فإنه يميل إلى النظر إلى جناحه السياسي كممثل شرعي. يوضح هذا الهيكل المزدوج أيضًا حدود صراع الجماعات المسلحة على الشرعية.

تدرس دراسة كاثرين فورتين[١٦] بعنوان "استكشاف المؤسسات المدنية والسياسية للجهات الفاعلة المسلحة غير الحكومية في ظل القانون الإنساني الدولي في عصر حوكمة المتمردين" (٢٠٢٣) المؤسسات المدنية والسياسية للجماعات



مقاطعة المنتجات الإسرائيلية
امرأة تحمل لافتة تدعو لمقاطعة المنتجات الإسرائيلية خلال تجمع احتجاجي؛ تولوز، فرنسا/ ٤ تشرين الثاني ٢٠٢٣.
• المصور: آلان بيتون.



المسلحة في إطار القانون الإنساني الدولي[١٧]. وفقًا لفورتين، تتولى العديد من الجماعات المسلحة وظائف "شبيهة بالدولة" خلال فترات الصراع، وتكتسب الشرعيةَ من خلال إنشاء مؤسسات مدنية في مجالات مثل التعليم والصحة والعدالة والأمن. يخلق هذا "حالات وسيطة" لا تتوقعها الأعراف القانونية الدولية الكلاسيكية[١٨].

تصف فورتين هذه الجماعات بأنها "حكام متمردون"، وتشير إلى أنها تثير أسئلة جديدة حول الاعتراف وحقوق التفاوض والتمثيل على الساحة الدولية. في هذا السياق، تتحول الأجنحة المدنية إلى أدوات للشرعية ليس فقط في نظر الجمهور، ولكن أيضًا أمام المجتمع الدولي. ومع ذلك، تؤكد فورتين أن هذا الوضع يزيد أيضًا من مسؤوليات المنظمات؛ حيث تتضرر الشرعية بسرعة في حالة وجود انتهاكات ضد المدنيين. لذلك، فإن وجود الأجنحة المدنية هو فرصة للشرعية بقدر ما هو مجال خطر للمساءلة. وفي الختام، فإن النقطة المشتركة بين الدراسات الثلاث هي أن الجماعات المسلحة لم يعد ينبغي تقييمها فقط كـ "جهات فاعلة عنيفة"، بل كجهات فاعلة سياسية واجتماعية متعددة الأبعاد.

> يجادل فانون في عمله معذبو الأرض (١٩٦١) بأن تحرير الشعوب المستعمَرة ليس عملية سياسية فحسب، بل هو أيضًا عملية نفسية وثقافية

استراتيجيات عكس السياسات النكروية عبر النضال المدني

يتطلب عكس مثل هذه الممارسات التي تمارسها السلطة والتعامل معها من خلال النضال المدني استراتيجية معقّدة ومتعددة الطبقات. الهدف من السياسات النكروية هو فرض سيطرة مطلقة (بما في ذلك التهديد بالموت) على مجموعات معينة من السكان من خلال جعل حياتهم "غير جديرة بالعيش"[١٩].. الهدف الأساسي للنضال المدني هو كسر هذه السيطرة و إعادة قيمة الحياة، "السياسة الحيوية"[٢٠]/ إلى المركز.

لاجئون صوماليون وصلوا حديثاً يستقرون على أطراف مخيم "دغاهالي" للاجئين، الذي يشكل جزءاً من مجمع "داداب" للاجئين، في ٢١ يوليو ٢٠١١ في داداب، كينيا.
• المصور: أولي سكارف.



١. إعادة ترسيخ رؤية الحياة وقيمتها

الوسيلة الأهم للسياسات النكروية هي إخفاء معاناة وحياة الفئات المستهدفة.

الشهادة والتوثيق (Witnessing): الخطوة الأكثر أهمية هي توثيق الأحداث في "مناطق الموت" التابعة للسلطة (السجون، المناطق المحاصرة، طرق الهجرة) بشكل مستمر وشفاف. المنظمات الحقوقية والصحفيون والنشطاء يشهدون على هذه المناطق، ويزيلون طابع المجهولية عن العنف الممارس من قبل السياسة النكروية. هذا الإجراء يمثل موقفًا يطالب بالإمكانية الأخلاقية للحداد على الأرواح التي تُركت للموت[٢١].

إضفاء الطابع الإنساني على الإحصائيات: تقديم الخسائر والوفيات التي تقدمها السلطة ك "إحصائيات" على أنها "قصص حياة" فردية. هذا يحول المعاناة، التي هي مجرد أرقام، إلى مأساة إنسانية يتردد صداها في الضمير العام.

أفعال "الحق في الحياة": (Existential Resistance)"أفعال مثل الإضرابات عن الطعام، ووقف العمل، أو الثبات في المكان ضد الترحيل القسري، هي أفعال دفاع عن الحياة في مواجهة ظروف الموت التي تفرضها السلطة.

> في حين يوفر النضال المدني الدعم الاجتماعي لحركة حرب العصابات ويعيد تشكيل الوعي المجتمعي، ويدفع المجتمع إلى عملية إعادة بناء جماعية، فإن الكفاح المسلح يضعف معنويات العدو ويجبره على التراجع

٢. تفكيك سيطرة السلطة ومناطق نفوذها

غالبًا ما تعمل السياسات النكروية من خلال مناطق سيطرة محددة (مخيمات الاعتقال، الحصار، عسكرة المناطق المتمتعة بالحكم الذاتي).

المقاومة المكانية[٢٢]: إنشاء شبكات تضامن في المناطق التي تحاصرها أو تحاول السلطة تقسيمها لحكمها. يهدف هذا إلى تعزيز الاستقلالية داخل مناطق المعيشة وتجاوز السيطرة المطلقة للسلطة (على الغذاء أو الماء أو الكهرباء، على سبيل المثال).

الشبكات والروابط العالمية: لمنع الممارسات النكروية من أن تظل محلية، يجب ربط النضالات المحلية باستمرار بالمنظمات الدولية لحقوق الإنسان، والشتات، ووسائل الإعلام الدولية. هذا يضع المجال النكروي تحت الضغط العام الدولي.

النضال القانوني[٢٣]: عرقلة سياسات السلطة من خلال الإجراءات القانونية. السعي للحصول على قرارات من خلال مؤسسات مثل المحكمة الجنائية الدولية، ومحكمة العدل الدولية، أو المحاكم الدستورية، تفيد بأن السياسات النكروية تشكل جرائم.

٣. تنوع أساليب النضال المدني

لا تكفي طريقة نضال واحدة ضد سلطة السياسات النكروية. هناك حاجة إلى نضال مدني "هجين" متزامن ومتناغم. تعتمد هذه الأساليب غالبًا على مبادئ العمل اللاعنفي[٢٤].

الأسلوب، نقطة التركيز، الهدف

المقاومة السلبية[٢٥]: مقاطعة الضرائب، العصيان المدني، رفض استخدام الأماكن العامة، تعطيل شرعية السلطة وعملها اليومي[٢٦].

المقاومة الثقافية[٢٧]: الفن، الموسيقى، الأدب، ومراسم التذكير. إظهار حيوية وصمود الهويات وأنماط الحياة المستهدفة. إظهار "النصوص الخفية"[٢٨] التي تتجاهلها السلطة[٢٩].

التأسيس البديل للمؤسسات[٣٠]: إنشاء اقتصادات تضامن، وشبكات تعليم وصحة بديلة. إضعاف احتكار الدولة للحياة وإثبات أن "الحياة" يمكن أن تستمر بشكل عفوي.

المواجهة الأخلاقية[٣١]: فضح أخلاقي للموظفين والجنود والسياسيين الذين ينفذون الممارسات النكروية. وخلق ضغط نفسي واجتماعي على المنفذين.

التعامل والاستدامة

تهدف ممارسات السياسة النكروية إلى كسر معنويات المقاومة المدنية وقدرتها الجسدية على التحمل. لذلك، يتطلب استمرار النضال قدرة على التحمل طويلة الأمد.

الصدمة والشفاء المجتمعي: إنشاء شبكات دعم نفسية اجتماعية في المجتمعات المعرضة لتهديد

الموت والعنف المستمر. تعتمد استدامة النضال على قدرة المجتمع على إدارة الصدمة.

الذاكرة بين الأجيال: إنشاء ممارسات تعليمية وتذكارية تنقل قصص المقاومة والخسائر، لمنع دورات العنف من الانتقال إلى المستقبل أو للحفاظ على إرادة النضال.

الأمل والرؤية: تعمل السياسات النكروية على تطبيع اليأس. إن أقوى تحرك مضاد للنضال المدني هو الحفاظ باستمرار على رؤية لمستقبل بديل وعادل وصالح للعيش يمكن بناؤه بعد سياسات الدمار التي تنفذها السلطة. هذه الرؤية تحوّل النضال من رد فعل فوري على العنف إلى مشروع سياسي.

في نهاية المطاف، يعتمد نجاح النضال المدني ضد قوّة السياسات النكروية على القدرة على تنظيم الحياة، وليس الموت، وجعل المعاناة المخفية مرئية، وتفكيك مناطق السيطرة المطلقة للسلطة باستمرار.

مقاومة حرب العصابات: استعادة الموت

تتحدى حرب العصابات احتكار النظام النكرووي للموت. بينما ترى الدولة أن "الحقّ في القتل" هو حقّها، فإن المقاوم يستعيد هذا الحقّ: أي يحوّل الموت من أداة للسلطة إلى أداة للمقاومة. من هذا المنطلق، فإن قبول المقاتلين الفلسطينيين للموت ليس مجرد استراتيجية عسكرية، بل هو عمل أنطولوجي يعيد تعريف معنى الموت. مفهوم الشهادة هو رمز لهذه الاستراتيجية المعكوسة: تتحوّل قوّة الموت لدى المهيمن إلى طريقة للمقاوم في إضفاء معنى على الحياة[٣٣]. وكما أكد هوفمان في مثال حزب الله، فإن تكتيكات حرب العصابات هذه (صواريخ وقذائف) تتحد مع العناصر التقليدية لتخلق تآزرًا هجينًا: في فلسطين، يتجسد هذا في الهجمات الصاروخية التي تلت ٧ أكتوبر.

٣. المقاومة الهجينة في فلسطين: السياسة بين الحياة والموت



موسم الحصاد السنوي
فلسطينيون يحصدون الزيتون من الأشجار خلال موسم الحصاد السنوي في دير البلح وسط قطاع غزة، ٢١ سبتمبر ٢٠٢٤.
● المصور: عبد الرحيم الخطيب

في الحالة الفلسطينية، يظهر العصيان المدني وحرب العصابات كشكلين من أشكال المقاومة لا يستبعد أحدهما الآخر، بل يكمل كل منهما الآخر. يمثل هذا الشكل الهجين، في نظرية مبيمبي، المنطقة الانتقالية بين "الحياة في الموت" و"الموت من أجل الحياة". وكما أشارت انتقادات هوفمان (على سبيل المثال، العناصر المنسقة التي يتم الخلط بينها وبين الحرب المركبة)، تشمل المقاومة الهجينة مستويات تكتيكية (التكامل في نفس المنطقة) واستراتيجية (تضليل المنطقة الرمادية)؛ وكما هو الحال في تعريف الناتو لعام ٢٠٢٤، يتم دمج الإجراءات المدنية الضمنية (المقاطعات) مع العناصر العسكرية العلنية (الكمائن) لتعزيز المقاومة بدلاً من زعزعة استقرار المجتمعات.

عندما يتحد هذان الشكلان، فإن ما يظهر ليس "ثورة" بالمعنى الكلاسيكي، بل هو تسييس الحياة ضد نظام الموت. يتقاطع هذا أيضًا مع مفهوم جوديث بتلر "الحياة الجديرة بالعيش"[٣٣]. إن الإصرار على العيش في بيئة يكون فيها الموت ممكنًا في أيّ لحظة يتحوّل إلى شكل من أشكال المقاومة الأخلاقية.

> وفقًا لمبيمبي، لم تعد أشكال السيادة المعاصرة قائمة على "حماية الحياة" بل على "توزيع الموت". يتضح هذا بشكل خاص في المناطق المستعمَرة مثل إفريقيا والمناطق المحتلة مثل فلسطين

٤. الصمود: سياسة الإصرار على الحياة في مواجهة السياسات النكروية

إن المفهوم الفريد للمقاومة الفلسطينية، وهو الصمود ("الثبات"، "التجذر")، هو المقابل المحلي لهذا النموذج الهجين. الصمود هو استراتيجية مدنية -عدم النزوح، استمرار الحياة- وهو أيضًا أنطولوجيا سياسية تتجلى في قرار الاستمرار في الوجود وسط الموت. على حد تعبير مبيمبي: "السياسات النكروية هي النظام الذي تتعايش فيه الحياة مع الموت. والمقاومة هي طريقة لإعادة بناء الحياة في هذا النظام"[٣٤]. وبالتالي، فإن الصمود هو شكل من أشكال الوجود السياسي يتحدى سياسة الموت بفعل استمرار الحياة. بهذا المعنى، هناك استمرارية بين العمل المدني والمقاومة المسلحة في فلسطين: كلاهما يتحدّث من داخل فضاء السياسات النكروية نفسه. وكما رأى هوفمان في توليفة حماس-حزب الله، فإن الصمود يحوّل الهجينَ إلى أداة استراتيجية: فالمثابرة المدنية (الاحتجاجات) تدعم الردع بحرب العصابات (التهديد الصاروخي)، مما يعكس "زعزعة الاستقرار المجتمعي" المعرَّف في نماذج التهديد الهجين لحلف الناتو.

توفر نظرية مبيمبي للسياسات النكروية أساسًا مفاهيميًا قويًا لفهم أشكال المقاومة الهجينة التي تتطور في "مناطق الموت" مثل فلسطين. وفي هذا الإطار، يمكن التوصل إلى الاستنتاجات الآتية:

١. تهدف المقاومة إلى استدامة الحياة، وليس فقط إسقاط السلطة.

٢. يصبح الموت لغة المقاومة، وليس لغة السلطة.

٣. تتحد أشكال المقاومة المدنية والعسكرية كتسييس للحياة ضد سياسة الموت.

٤. ممارسة الصمود في فلسطين هي إعادة تأطير للحياة داخل النظام النكروي.

لذلك، يجب فهم المقاومة الفلسطينية، بدلاً من تصنيفها ضمن فئات "الثورة" أو "التحرر الوطني" الكلاسيكية، على أنها سياسة بناء الحياة وسط الموت، بمصطلحات مبيمبي.

ديناميكيات ما بعد ٧ أكتوبر: النماذج الهجينة قيد التنفيذ

بعد عملية طوفان الأقصى في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، خضعت ديناميكيات المقاومة الفلسطينية لتحوّل مدمر. أدى الهجوم التكتيكي لحماس والجماعات المتحالفة مثل الجهاد الإسلامي إلى قصف "إسرائيلي" مكثف لغزة، مما دفع الصراع إلى مرحلة تبرز فيها نماذج المقاومة الهجينة. تُمثل هذه النماذج التكامل الاستراتيجي للكفاح المسلح داخل فلسطين مع العصيان المدني على نطاق عالمي، مثل مقاطعات BDS، والاحتجاجات الجماهيرية، والإضرابات عن الطعام، والنشاط الرقمي. تظهر بيانات سبتمبر ٢٠٢٥ أن تدمير ٧٠٪ من البنية التحتية في غزة، وانخفاض عدد السكان بنسبة ٦٪، وتقلّص الاقتصاد الفلسطيني الإجمالي بنسبة ٣٣٪، يكشف عن تكاليف المقاومة

وفرصها. تتشكل هذه الديناميكيات من خلال الانقسامات الداخلية (مثل التوترات بين فتح وحماس وصعود الميليشيات القبلية المتعاونة أو المناهضة للمقاومة)، والتأثيرات الإقليمية (مثل "محور المقاومة" المدعوم من إيران)، والتعبئة العالمية (مثل نمو حركة BDS بنسبة ٣٠٪). وفي إطار هوفمان المفاهيمي، تعكس هذه الديناميكيات "التمدد المفاهيمي" للحرب الهجينة: دمج تكتيكات حرب العصابات غير النظامية (كمائن الأنفاق) مع الحملات الرقمية، مما يخلق غموضًا مماثلًا لاستراتيجيات المنطقة الرمادية.

الدمار الاقتصادي والاجتماعي: تكاليف المقاومة

شهد الاقتصاد الفلسطيني انكماشًا دراماتيكيًا بعد ٧ أكتوبر. وفقًا لبيانات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، انكمش الناتج المحلي الإجمالي لغزة بنسبة ٨٥٪ بحلول نهاية عام ٢٠٢٤، بينما وصل الانكماش في الضفة الغربية إلى ٢٢٪؛ وتقلّص الاقتصاد الفلسطيني الإجمالي بنسبة ٣٣٪ مقارنة بمستويات ما قبل أكتوبر ٢٠٢٣. انخفضت مساهمة غزة في الاقتصاد من ١٧٪ إلى أقل من ٥٪، مما يشير إلى أن العناصر المسلحة للمقاومة (على سبيل المثال، تخصيص الموارد لبناء الأنفاق) أرهقت القدرة المدنية على الصمود. من حيث السكان، انخفض عدد سكان غزة إلى ٢٫١ مليون في عام ٢٠٢٤ (بانخفاض ٦٪ عن عام ٢٠٢٣، أي حوالي ١٦٠،٠٠٠ خسارة)، ٤٧٪ منهم أطفال تحت سن ١٨ عامًا. وفقًا للأمم المتحدة، غادر ١١٠،٠٠٠ فلسطيني غزة عبر مصر، وتوفي أكثر من ٤٠،٠٠٠ شخص، مما زاد من أهمية المقاومة الهجينة المدعومة من الشتات (جمع التبرعات الرقمية والاحتجاجات).

على الجانب "الإسرائيلي"، أصبح الأثر الاقتصادي للمقاومة واضحًا. نمت حركة BDS بنسبة ٣٠٪ في عام ٢٠٢٤ ودفعت الاقتصاد "الإسرائيلي" إلى "دوامة انهيار": فقد أُغلقت ٦٠،٠٠٠ شركة "إسرائيلية"،



مقاتل من كتائب عز الدين القسام، الجناح العسكري لحركة حماس في مخيم المغازي، يقف أمام نفق في وسط قطاع غزة، ١٩ يوليو ٢٠٢٣.
● المصدر: إيه بي سي نيوز (ABC News)

والخفض معدل نمو الناتج المحلي الإجمالي إلى ٠٪ (بيانات S&P)، وتضاءلت الاستثمارات الأجنبية في التكنولوجيا الفائقة بنسبة ٩٠٪. أشار رئيس المعهد الإسرائيلي للتصدير إلى أن BDS "غيرت المشهد التجاري العالمي" وأجبرت على "عمليات سرية" في بعض البلدان. ومن الأمثلة على ذلك إلغاء استثمار إنتل البالغ ٢٥ مليار دولار بسبب ضغط BDS (يونيو ٢٠٢٤) وإغلاق سيفن-إلفن لـ٨ متاجر في "إسرائيل" (نوفمبر ٢٠٢٤). تشير هذه البيانات إلى أن العصيان المدني (BDS) يدعم الكفاح المسلح كرافعة اقتصادية: فقد تسببت BDS في خسارة ٧٪ من الناتج المحلي الإجمالي "الإسرائيلي" في عام ٢٠٢٤، مما زاد من التكاليف التشغيلية "لجيش الدفاع الإسرائيلي". لقد تطور هذا التهجين الاقتصادي ليشمل عناصر الجريمة والدعاية (مثل ضغط جماعات الضغط "الإسرائيلية")، كما هو الحال في تحليلات دوبونت[٣٥] المبكرة للصراع الهجين.

> فإن شكلَيْ المقاومة المنفصلين بالمعنى الكلاسيكي، وهما "العصيان المدني" و"حرب العصابات"، يصبحان وجهين مختلفين للمنطق السياسي نفسه في الأنظمة النكروية

الديناميكيات العسكرية: خسائر جيش الدفاع الإسرائيلي وفعالية المقاومة

تشكلت نواة المقاومة المسلحة من خلال تكتيكات صواريخ كتائب القسام التابعة لحماس والجهاد الإسلامي. بين ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ وسبتمبر ٢٠٢٥، أفادت التقارير أن "الجيش الإسرائيلي" تكبد ما مجموعه ١,٩٨٣ خسارة، ٨٩١ منها في الفترة ٢٠٢٣-٢٠٢٤، معظمها في غزة. ووفقًا لبيانات "الجيش الإسرائيلي"، تلقى ٢٠,٠٠٠ جندي العلاج: ٤٥٪ منهم يعانون من إصابات جسدية، ٣٥٪ من صدمة نفسية، و٢٠٪ يعانون من كليهما. تم تشخيص أكثر من ١,٦٠٠ جندي بأعراض اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD) المتعلقة بالحرب، وتم تسريح ٢٥٠ منهم. شملت الأحداث الأخيرة مقتل ٤ جنود "إسرائيليين" بعبوات ناسفة على جانب الطريق في رفح في ١٨ سبتمبر ٢٠٢٥.

على الجانب الفلسطيني، أفادت وزارة الصحة في غزة عن ٦٦,٤١٤ وفاة (معظمهم من المدنيين)، ووفقًا لتحليل Lancet، ٦٤,٢٦٠ وفاة بسبب الإصابات الناتجة عن الصدمات (بين أكتوبر ٢٠٢٣ ويونيو ٢٠٢٤)، ٥٩٪ منهم من النساء والأطفال وكبار السن. تشير البيانات الداخلية "لجيش الدفاع الإسرائيلي" إلى أن معدل الوفيات المدنية بلغ ٨٣٪ (بين أكتوبر ٢٠٢٣ ومايو ٢٠٢٥)، مع مقتل ٨,٩٠٠ مقاتل. يعكس هذا التباين عقيدة "الحرب الحضرية المتكاملة" للنماذج الهجينة: حيث تتحد الكمائن المسلحة (على سبيل المثال، ٦٠٠ خسارة في المقاتلين في الشجاعية، ديسمبر ٢٠٢٣-٢٠٢٤) مع الحماية المدنية (قوافل المساعدات). وفقًا لاستطلاعات الرأي، ارتفع دعم المقاومة في غزة إلى ٥٨٪، بينما زاد التفضيل الهجين بين الشباب بنسبة ٢٥٪ (٢٥٪ يدعمون المقاومة المسلحة). وكما أكد هوفمان (٢٠٠٧أ) في مقارنته بين حزب الله وحماس، فإن توليفة الصواريخ والكمائن هذه تجسد استخدام الأسلحة التقليدية بالتكتيكات غير النظامية: ولكن كما أشير في انتقادات الناتو (على سبيل المثال، التوسع الاستراتيجي)، فإن الدعاية (السرديات الرقمية للشهداء) تكمل التهجين.

أمثلة كمية للنماذج الهجينة

يتم دمج النماذج الهجينة على المستويين المحلي والعالمي. يلخص الجدول التالي النماذج الرئيسية بالبيانات: تم تعديلها لتتوافق مع تعريف هوفمان المكوّن من أربعة عناصر (الأسلحة التقليدية، التكتيكات غير النظامية، الإرهاب، الجريمة) وتوليفة الناتو الضمنية:

تعتمد هذه النماذج على "استراتيجية بقعة الحبر" (توسيع المناطق الآمنة): يتم دمج الدفاع المسلح مع الشبكات المدنية، مما يزيد التكاليف على "جيش الدفاع الإسرائيلي"، مثل علاج ٢٠,٠٠٠ جريح. وكما في انتقاد ماكيون (McCuen) (٢٠٠٨)، يشمل هذا التهجين المجالات المادية والنفسية (الدعاية). عالميًا، وصف ١٣٠ اقتصاديًا "إسرائيليًا" حركة BDS في عام ٢٠٢٤ بأنها "دوامة انهيار". حظر البرلمان الكندي صادرات الأسلحة في مارس ٢٠٢٤،

وقطعت برشلونة جميع العلاقات مع "إسرائيل". إقليميًا، عززت حركات وهياكل "محور المقاومة" (حزب الله، اليمن) التهجين. حدثت ٣,٤٤٥ حالة وفاة في لبنان، معظمها بعد سبتمبر ٢٠٢٤. لكن الديناميكيات الداخلية محفوفة بالمخاطر: ففي غزة، أدت الميليشيات القبلية (مثل عشيرة الشمّي) إلى "البلقنة". بينما عمق الانقسام بين فتح وحماس الانكماش الاقتصادي بنسبة ٢٢٪. تتجسد هذه التأثيرات في تعريف جلين (Glenn) (٢٠٠٩) الموسع للهجين (الأدوات السياسية-الاقتصادية).

في الختام، تُظهر ديناميكيات ما بعد ٧ أكتوبر الميزة غير المتكافئة للنماذج الهجينة: فخسائر "جيش الدفاع الإسرائيلي" (١,٩٨٣) ونمو حركة BDS بنسبة (٣٠٪) يحول المقاومة إلى رافعة دبلوماسية. ومع ذلك، فإن ٨٣٪ من الوفيات المدنية (٥٩٪ نساء/أطفال/مسنون) تجعل مبدأ "المقاومة المتناسبة" لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ٤٣/٣٧ أمرًا حتميًا. توضح هذه البيانات إمكانات التهجين للتحرير، وتحدياته الأخلاقية والاستراتيجية.

السياق التاريخي: التطور الهجين للمقاومة

تحتوي المقاومة الفلسطينية على عناصر هجينة منذ الثورة العربية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩: لطالما وُجد إلى جانب الفدائيين المسلحين (على سبيل المثال، تكتيكات عبد القادر الحسيني) عصيان مدني (مقاطعات، إضرابات). كانت الانتفاضة الأولى (١٩٨٧-١٩٩٣) ذروة المقاومة المدنية: فقد تسببت تكتيكات إلقاء الحجارة، والمقاطعات التجارية، والإضرابات العامة في خسارة الاقتصاد "الإسرائيلي" ما بين ٢-٤ مليارات دولار وأدت إلى عملية أوسلو. يعكس هذا توليفة العناصر غير النظامية، كما هو الحال في تعريف موكايتيس (Mockaitis) (١٩٩٠) المبكر للهجين (النشاط التخريبي + حرب العصابات). وشهدت الانتفاضة الثانية (٢٠٠٠-٢٠٠٥) تحولًا هجينًا: حيث اتحدت التفجيرات الانتحارية (المسلحة) مع احتجاجات الجدار (المدنية)، لكنّ الخسائر المدنية قوّضت الشرعية.

بعد ٧ أكتوبر، تسارع هذا التطور. صُمم الهجوم كجزء من "محور المقاومة" المدعوم من إيران: حقق نجاحًا تكتيكيًا (تبادل الرهائن، تأجيل التطبيع)، لكن التكاليف الاستراتيجية (تدمير غزة، العزلة الدولية) فرضت إعادة هيكلة هجينة. وفقًا لتحليل الاشتراكيين الديمقراطيين الأمريكيين (DSA)، فإن القمع "الإسرائيلي" للمقاومة المدنية والانتخابية (على سبيل المثال، إضعاف السلطة الفلسطينية)

أمثلـــة كـمية للنماذج الهـجيئة

النموذج الهجين	البعد العسكري (الأسلحة التقليدية و التكنيكات غير النظامية)	البعد غير العسكري (مدني / سياسي / اجتماعي)	النتائج و التأثيرات
مقاومة غزة بحرب العصابات-الشعبية	كمائن الأنفاق وضربات الصواريخ (جيش الدفاع الإسرائيلي: ٦٠٠ خسارة في المقاتلين، الشجاعية، ديسمبر ٢٠٢٣-٢٠٢٤)؛ قاعدة بيانات تستهدف ٤٧,٦٥٣ مقاتلًا من حماس/الجهاد الإسلامي.	ميليشيات حماية قوافل المساعدات؛ إضرابات عن الطعام (مقتل ١٧٩ موظفًا من الأونروا).	رغم أن ٨٠٪ من الخسائر مدنية، فإن دعم المقاومة يبلغ ٥٨٪ (استطلاعات الرأي)؛ تقلص الاقتصاد بنسبة ٨٥٪، لكن تمويل الشتات زاد بنسبة ٢٠٪.
النهج الدبلوماسي-الهجين للضفة الغربية	غارات جنين/الجنيد (الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين/الجبهة الشعبية: مقتل ٧١٩ فلسطينيًا، أكتوبر ٢٠٢٣-أكتوبر ٢٠٢٤)؛ ١٦ خسارة في جنود "جيش الدفاع الإسرائيلي".	احتجاجات الجدار (تقليد بلعين)؛ دمج BDS (تهديد الاتحاد الأوروبي بقطع ٢٠٪ من التمويل)	زادت هجمات المستوطنين بنسبة ٥٠٪ بعد قرار محكمة العدل الدولية بشأن الفصل العنصري؛ نمو BDS بنسبة ٣٠٪ في ٥٠ دولة نتيجة للاحتجاجات
شبكات الشتات العالمية	الهجمات الإلكترونية المدعومة من إيران (تعطيل البنية التحتية "لجيش الدفاع الإسرائيلي"؛ خسارة ٧٪ من الناتج المحلي الإجمالي)	احتلال الجامعات (موجة ٢٠٢٤ في الولايات المتحدة؛ ١٦٠ إجراء لمقاطعة BDS، تم تجاوز ٦٠ منها)؛ مقاطعات (انسحاب كاتربيلر)	وسم FreePalestine ضمن دعم ١٤٣ دولة في الجمعية العامة للأمم المتحدة؛ هجرة الشتات لـ ١١٠,٠٠٠ شخص

يجعل الكفاح المسلح "ضـرورة"؛ لكن العصيان السلبي ينشط حركة BDS العالمية (نمو ٣٠٪ في ٢٠٢٤)، مما يخلق ضغطًا دبلوماسيًا. تلخص قواعد الشهيد باسل الأعرج (المستشهد بها في مناقشات X لعام ٢٠٢٥) هذا التهجين: حرب العصابات ليست "دفاعًا ثابتًا"، بل "كمينًا ومناورة"؛ وتتحد الحرب النفسية (تضخيم تقدم العدو) مع الصمود المدني. وكما في تحليلات مانسور (Mansoor) (٢٠١٢) التاريخية للهجين، تعكس الانتفاضات التنسيق بين النظامي وغير النظامي (الحـرب المركّبة)، ولكنها تضيف دعاية استراتيجية (حروب إعلامية) تتجاوز هوفمان.

> لقد دمج الجناح السياسي لحزب الله هويته "المقاومة" مع "التمثيل السياسي" من خلال أنشطة مثل المشاركة في الانتخابات، وتولي مناصب في إدارات البلديات، و إنشاء شبكات خدمات اجتماعية.

يوازن التهجين الحرب غير المتكافئة. فبينما يضع الكفاحُ المسلّحُ "إسرائيلَ" في وضع "الدفاع" (خسارة اقتصادية: انخفاض ٧٪ في الناتج المحلي الإجمالي في عام ٢٠٢٤)، يوفر العصيان المدني الشرعية (١٤٣ دولة تدعم في الجمعية العامة للأمم المتحدة). نقطة الضعف: يزيد العمل المسلح من الخسائر المدنية (منظمة العفو الدولية: استخدام الأطفال جريمة حرب)، بينما يتم قمع المقاومة السلبية، كما يتضح من الغارات على حركة العمل الفلسطيني (Palestine Action) في المملكة المتحدة. يؤكد ما تم تداوله على وسائل التواصل الاجتماعي أن "نشر الخوف من الانتشار" (الأعـرج): فالحرب بين المجتمعات تجعل صمود الفلسطينيين يفوق صمود "الإسرائيليين". وكما هو الحال في تركيز ماكويليامز (McWilliams) (٢٠٠٩) على المجال المعرفي، إذ تُظهر معدلات اضطراب ما بعد الصدمة (٣٥٪ في "جيش الدفاع الإسرائيلي") التفوق النفسي الهجين.

آفاق الحل: من التهجين إلى التحرير

تدعم النماذج الهجينة الهياكل الفيدرالية التي تتجاوز حل الدولتين (مثل الكونفدرالية التي تشمل وادي الأردن): حيث تخلق المقاومة المسلحة ضغطاً في محكمة العدل الدولية (ICJ) من أجل "إنهاء الاحتلال"، بينما يؤثر العصيان المدني على التمويل الأوروبي (التهديد بقطع ٢٠٪ من تمويل الاتحاد الأوروبي في ٢٠٢٥).

التوصيات:

المدى القصير: وساطة عربية-إيرانية من أجل تحقيق الوحدة بين السلطة الفلسطينية وحماس؛ وجمع الميليشيات الهجينة تحت مظلة وطنية (على سبيل المثال، إصلاح منظمة التحرير الفلسطينية).

المدى المتوسط: نموذج "الأحياء الآمنة": إدارة السلطة الفلسطينية تحت حماية "جيش الدفاع الإسرائيلي"، مع انتقال تدريجي حتى عام ٢٠٣٥ (إعادة إعمار ممولة قطرياً).

المدى الطويل: نموذج المساواة ضمن دولة واحدة: تتطور المقاومة الهجينة لتشمل هجمات "متناسبة" متوافقة مع المعايير العالمية (حقّ تقرير المصير) للحفاظ على الشرعية. وعلى غرار استراتيجيات التهديد الهجين لحلف الناتو، يمكن للاندماج الدبلوماسي (دعم الجمعية العامة للأمم المتحدة) أن يحوّل التهجين إلى أداة سلام.

الهوامش

١. لمعرفة تفاصيل حول مفهوم "السياسات النكروية" يُنظر: أشيل مبيمبي، السياسات النكروية أو سياسات الموت، ترجمة: أماني أبو رحمة، مجلة الفيصل، مارس ٢٠٢٠. وبالنسبة لمعنى النكروية يجب التنويه إلى أنّ مَن صاغ هذا المفهوم قد استعار معناه من مفهوم "النخر" في السياق العلمي والطبي، وبحسب ما ذكرت مترجمة المقال المذكور فإنَّ "نخر (باللاتينية nocrosis]: هو الموت المبكر لخلايا الجسم الحيّة، يحدث النخر نتيجة أسباب خارجية كالإنتان والالتهاب والسموم والرضح، بعكس الاستموات (الموت المبرمج) الذي يكون لأسباب داخلية. لا ترسل الخلايا التي تموت نتيجة "النخر" إشارات كيميائية إلى جهاز المناعة كما تفعل الخلايا التي تموت نتيجة الاستموات، مما يعرقل الخلايا البالعة عن إزالة الخلايا الميتة. مما يؤدي إلى تكوّن نسيج ميّت يكون بيئةً خصبة للإنتانات ويستدعي إزالـة هـذا النسيج الميت جراحيًّا. والبادئة

نكروو" سابقة بمعنى النَّخَر: البِلى: "necro
:الموت: الرِّمَّة". المقال منشور عبر الرابط الآتي
https://www.alfaisalmag.com/?p=18010 (المراجع)
2. Fanon, 1961
3. Necropolitics
4. Biopolitics
5. conceptual stretching
6. Mbembe, 2020, s. 22
7. Mbembe, 2020, s. 43
8. Mbembe, 2020, s. 44
9. Hoffman, 2007
10. Mbembe, 2020, s.116
11. Mbembe, 2020, s.44
12. Sukanya Podder
13. Podder, 2017, s. 292-295
14. Benedetta Berti
15. Berti, 2011, s. 1030-1035
16. Katharine Fortin
17. IHL
18. Fortin, 2023, s. 148-152
19. Mbembe, 2019
20. Biopolitics
21. Butler, 2004
22. Spatial Resistance
23. Litigation
24. Sharp, 1973
25. Passive Resistance
26. Sharp, 1973]
27. Cultural Resistance
28. hidden transcripts
29. Scott, 2008
30. Alternative Institutionalization
31. Ethical Confrontation
32. Mbembe, 2020, s. 47
33. livable lives

الحرب الإسرائيلية أدت إلى قتل وجرح ١٠ آلاف طالب ودمرت ٩٠ ٪ من مدارس القطاع.

● المصدر: شرق الأوسط



34. Mbembe, 2020
35. Dupont, 2003

وفقًا لفورتين، تتولى العديد من الجماعات المسلحة وظائف "شبيهة بالدولة" خلال فترات الصراع، وتكتسب الشرعيةَ من خلال إنشاء مؤسسات مدنية في مجالات مثل التعليم والصحة والعدالة والأمن

قائمة المصادر والمراجع

1. Anadolu Agency. “Israeli attacks devastate Gaza economy, unemployment rises to 80%.” (2024, 15 Haziran). Erişim Adresi:, https://www.aa.com.tr/en/middle-east/israeli-attacks-devastate-gaza-economy/3365239, (Erişim Tarihi: 2025).
2. Baconi, Tareq. Hamas Contained: The Rise and Pacification of Palestinian Resistance. Stanford, CA: Stanford University Press, 2018.
3. Berti, B. “Armed Groups as Political Parties and Their Role in Electoral Politics: The Case of Hizballah.” Studies in Conflict & Terrorism, 34(12) (2011): 942-958. DOI: 10.1080/1057610X.2011.621115
4. Boycott, Divestment, Sanctions (BDS) Movement. Annual Report 2025: Expanding Global Solidarity. Boycott, Divestment and Sanctions National Committee (BNC), 2025. (Online Erişim Adresi:, https://bdsmovement.net,)
5. Butler, Judith. Frames of War: When Is Life Grievable? London: Verso, 2009.
6. Consortium News. “Palestinian Armed Struggle & the Law.” (2025).
7. Counterfire. “The Forms of Palestinian Resistance.” (2024).
8. Dabashi, Hamid. Dreams of a Nation: On Palestinian Cinema. London: Verso, 2006.
9. DSA. “Why Palestinians Engage in Armed Struggle.” (2025).
10. Fortin, K. “Exploring the Civilian and Political Institutions of Armed Non-State Actors under IHL in an Age of Rebel Governance.” In Armed Groups and International Law. Edward Elgar Publishing, 2023, ss. 140-166. DOI: 10.4337/9781800888340.00018
11. Foucault, Michel. The History of Sexuality, Vol. 1: An Introduction. New York: Pantheon, 1978.
12. Hoffman, Frank G. Conflict in the 21st Century: The Rise of Hybrid Wars. Arlington, VA: Potomac Institute for Policy Studies, 2007.
13. Hoffman, Frank G. “Hybrid Threats: Reconceptualizing the Evolving Character of Modern Conflict.” Strategic Forum, no. 240 (April 2009): 1-8.
14. International Monetary Fund (IMF). Regional Economic Outlook: Middle East and Central Asia, April 2025 Edition.
15. Mbembe, Achille. “Necropolitics.” Public Culture, Cilt 15, No. 1 (2003): 11–40.
16. Mbembe, Achille. Critique of Black Reason. Durham: Duke University Press, 2017.
17. Mbembe, Achille. Necropolitics. Durham: Duke University Press, 2019. (Türkçe çevirisi: Nekropolitika. Çev. Gürsel Aytaç. İstanbul: Monokl Yayınları, 2020.)
18. NYT. “Pro-Palestinian Movement Faces an Uncertain Path After D.C. Attack.” (2025).

timated at 69%." (2024, Ocak). Erişim Adresi:, https://www.slobodenpecat.mk/en/on-69-od-infrastrukturata-vo-pojasot-gaza-e-unishtena, (Erişim Tarihi: 2025).
24. United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs (OCHA). Gaza Situation Report, September 2025. UN-OCHA, 2025.
25. United Nations Relief and Works Agency (UNRWA). Gaza Situation Report – Population Displacement and Civilian Impact. 2025. Erişim Adresi:, https://www.unrwa.org/, (Erişim Tarihi: 2025).
26. X Post - Ahmed Fouad Alkhatib. (2025).
27. X Post - mirah. (2025).
19. Podder, S. "Understanding the Legitimacy of Armed Groups: A Relational Perspective." Small Wars & Insurgencies, 28(4-5) (2017): 291-314. DOI: 10.1080/09592318.2017.1322333
20. Saad-Ghorayeb, Amal. Hezbollah: Politics and Religion. London: Pluto Press, 2002.
21. Shaban, Omar. "The Political Economy of Gaza under Siege." Carnegie Middle East Center, 2024.
22. Taylor & Francis. "Unpacking the Crackdown on Palestine Solidarity Activism in the UK." (2025).
23. United Nations Institute for Training and Research (UNITAR) – UNOSAT. "Satellite damage assessment: Gaza Strip infrastructure destruction es-

حماس تُسلّم الأسير الإسرائيلي (بائير هورن) إلى الصليب الأحمر، وهو يحمل ساعة رملية مع ملاحظة مكتوب عليها "الوقت ينفد".
المصدر: الجزيرة





إسرائيل في سورية

رحلة التيه بحثاً عن اليقين





بشار اللقيس

كاتب و باحث • لبنان

المقدمة

يمكننا القول أن فلسطين كانت ولا تزال جزءًا من سورية وانهماماتها الداخلية. إذ لم تكن القضية الفلسطينية في يوم من الأيام "خارجًا" بالنسبة للسوريين. فحتى أواخر القرن التاسع عشر، لم يستخدم السكان العرب في فلسطين اسم "فلسطين" للإشارة إلى أرضهم، بل كانوا يرون أنفسهم جزءًا من "سورية الكبرى" التي تضم اليوم سورية ولبنان و"إسرائيل" والأردن[1]. ومع ذلك، لم تكن السياسات السورية منذ العشرينيات تتطابق مع المقولات التاريخية. بحسب موشيه عوز، كانت السياسات السورية في غالبيتها واقعية وأكثر اعتدالاً من سياسات القادة الفلسطينيين.

وقد ظلت هذه السياسات محكومة بعوامل متعددة من مثل: التفاعل بين العروبة والقومية السورية الوطنية. العلاقات مع الدول الكبرى، ثم المنافسات الشخصية والحزبية، والاعتبارات الاقتصادية والمالية[2].

ومع ذلك، تعود الاتصالات الصهيونية السورية بحسب موشيه ماعوز إلى مرحلة "العهد الفيصلي في دمشق". فكثير من شخصيات حزب الوحدة السورية، الهاشمية الهوى، تواصلت مبكرًا مع الوكالة اليهودية، وكان على رأسهم إحسان الجابري ورياض الصلح الذين فتحا قنوات الاتصال مع الإسرائيليين بدءًا من عام ١٩٢١. ثم تطور التواصل خلال مرحلة الثورة الفلسطينية الكبرى بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩، بعد أن أدركت الوكالة اليهودية أن سورية باتت تشكل قاعدة إسناد الثورة الفلسطينية، ومركز قيادتها على مختلف الصعد. لذا كثّف جهاز المخابرات التابع للوكالة اليهودية من اتصالاته السرية بالنخب السورية المختلفة؛



خارطة قديمة لبلاد الشام وسورية؛ عقد الثلاثينيات.

بغرض التأثير فيها لوقف الدعم الذي كان يقدمه الشعب السوري وقواه الوطنية للثورة الفلسطينية. في البدء، عقدت الوكالة اليهودية اجتماعين رسميين بالكتلة الوطنية في آب/أغسطس وأيلول/ سبتمبر من العام ١٩٣٦. ثم أجرت الوكالة بعد ذلك سلسلة اجتماعات واسعة مع قادة الكتلة الوطنية والمعارضة الشهبندرية من خلال القسم العربي (جهاز المخابرات) التابع للدائرة السياسية للوكالة اليهودية. ففي مطالع عام ١٩٣٧ وصل كلٌ من إلياهو ساسون وإلياهو إبشتاين إلى دمشق، لإعطاء رئاسة الكتلة الوطنية محضريْ الاجتماعيْن السابقين بين الوكالة والكتلة، وتهنئة قادة الكتلة الوطنية بتشكيل الحكومة السورية الجديدة، بموجب الاتفاقية السورية - الفرنسية (١٩٣٦)[٣]. تبعتها سلسلة من الجلسات من تنظيم عميليْ الوكالة اليهودية في دمشق نسيب البكري (محافظ جبل العرب في حينها) ويوسف لنيادو (عضو البرلمان السوري عن الطائفة اليهودية)، وبالتنسيق المباشر مع ديفيد بينتو (طبيب يهودي دمشقي عمل لصالح المكتب العربي -جهاز المخابرات- في الوكالة اليهودية) ودوف هوز (من مؤسسي المنظمة العسكرية الصهيونية "الهاغاناه"). ويظهر من مجمل الجلسات بين قيادات الكتلة الوطنية والوكالة اليهودية مسألتيْن:

الأولى رؤية "إسرائيل" لسورية كمصدر تأثير جماهيري/ شعبي وسياسي وعسكري بالغ في فلسطين. أما الثانية، فدأب القيادة السورية على التسويف والإرجاء بكل ما له علاقة بحسم العلاقة مع الإسرائيليين. تظهر المسألةُ الأولى بشكل قوي في لقاءات لطفي الحفار مع إلياهو ساسون وريـؤوفين شيلواح (رئيس جهاز الموساد بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٢)، ويوسف لنيادو، في ٣٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٨، فيما تظهر المسألة الثانية في لقاء حاييم وايزمان وعبد الرحمن الشهبندر في بيت القطاوي باشا في القاهرة في الأسبوع الأول من شباط/ فبراير ١٩٣٨ بشكل جلي[٤].

العلاقات السورية - الإسرائيلية: المرحلة الأولى (١٩٤٩ - ١٩٥٤)

بحلول ربيع عام ١٩٤٩، فاجأ حسني الزعيم الصهاينةَ خلال مفاوضات الهدنة، عندما اقترح أن توقع سورية معاهدة سلام كاملة مع "إسرائيل" بدلا من اتفاقية الهدنة، على أن تتضمن المعاهدة فتح الحدود وتبادلاً فوريًا للسفراء، إضافة إلى التعاون في المجالين العسكري والاقتصادي. كان عرض الزعيم مفاجئًا وغريبًا بعض الشيء، إذ عرض توطين ما بين ٢٥٠ ألفًا إلى ٣٠٠ ألف لاجئ فلسطيني في منطقة الجزيرة في سورية كجزء من التسوية، مقابل تنازل "إسرائيل" عن الأراضي التي دخلتها القوات السورية خلال حرب ١٩٤٨، فرفض بن غوريون العرض، ولم يفض التواصل بين الطرفين إلا إلى هدنة ٢٠ تموز/يوليو ١٩٤٩.

واقع الأمر، جاءت مبادرة الزعيم كنتاج لفشل مساعيه بتشكيل تحالف مع العراق ثم بعد أن مد يده إلى كل من السعودية ومصر، لمواجهة الخطر الأردني. كان هاشميو الأردن والعراق يؤرقون الزعيم، فسعى من خلال طرحه هذا إلى محاولة لكسب قـوة استراتيـجيـة على طـول الحـدود السورية-الإسرائيلية لاستخدام "إسرائيل" كثقل مقابل العراق، ثم تأمين الدعم السياسي والعسكري الأميركي بقصد تعزيز سلطته على سورية.

أما أديـب الشيشكلي الـذي أمسك بمفاصل الحكم بُعيد انقلابه الثاني عام ١٩٥٤، فطرح مع فوزي سلو، مجددًا عرضًا للسلام باستيعاب نصف مليون لاجئ فلسطيني، على أن تتنازل "إسرائيل" لسورية عن نصف بحيرة طبريا. إلا أن بن غوريون عاد ورفض مجددًا أي تنازل عن أراض إسرائيلية[٥]، الأمر الذي دفع المواقف بين الطرفين للتصعيد بعيد عام ١٩٥٤[٦].

ومع ذلك حافظ الشيشكلي وسلو على خطاب عدائي تجاه الكيان الصهيوني، والصهيونية عامة، بين الفينة والأخرى، واعتبر الرجلان أن على سورية القيام بدور الرقيب على الطموحات الاستبدادية الإسرائيلية، والكاشف للخداع الصهيوني بكل السبل الممكنة... وأن "الشرق الأوسط ليس متسعًا بدرجة تكفي لاستيعاب العرب واليهود معًا: فإما أن يهرب العرب إلى الصحراء والبحر، أو أن يعود اليهود إلى بيوتهم في الأنحاء المتفرقة من هذا العالم"[٧].

العلاقات السورية - الإسرائيلية: المرحلة الثانية (١٩٥٤ - ١٩٦٣)

كان لانتخابات أيلول/سبتمبر ١٩٥٤، أثرها البالغ في سورية، فقد أفضت الانتخابات لصعود القوى



الدكتور موشيه ماعوز
مستشار الشؤون العربية في عهد إسحق رابين وأستاذ في الجامعة العبرية

رياض الصلح
هو أول رئيس وزراء للبنان بعد الاستقلال، وأحد الشخصيات البارزة في النضال ضد الانتداب الفرنسي وفي سبيل الوحدة العربية.



اليسارية والقومية بشكل كبير. فارتفعت حصة البعث داخل البرلمان من نائب واحد في انتخابات عام ١٩٤٩، إلى ٢٢ نائبًا. كما أفضت الانتخابات لوصول الحزب الشيوعي بقيادة خالد بكداش إلى سدة البرلمان، بالإضافة لتعزيز مكانة شخصيات ذات توجّه يساري من مثل خالد العظم. كانت القوى اليسارية منظمة جدًا، ومتعاونة، وتمتعت تلك القوى بحظوة داخل صفوف صغار ضباط الجيش.

في استعادة تلك المرحلة يظهر جليًا أثر ثورة الضباط الأحرار المصريين (١٩٥٢) في المشهد السوري، وصعود الخطاب العالم ثالثي في عموم الفضاء السياسي والثقافي في سورية (وتلك كانت ظاهرة عالمية في كل الدول حديثة الاستقلال). بالنسبة لـ"إسرائيل"، أظهر القادة السوريون الجدد آنذاك -راديكاليين ومحافظين على حد سواء- مزيداً من التوتر والخوف تجاه الخطر الإسرائيلي، بإطلاقهم تصريحات معادية لـ"إسرائيل"، كان الهدف منها منافسة خصومهم وحصد شعبية أكبر. من فارس الخوري، إلى صبري العسلي وناظم القدسي، ومن خالد العظم إلى خالد بكداش.

على الأرض، ارتفع منسوب التوتر بين الجيش السوري والإسرائيليين، بعدما قام الأول بخرق اتفاقية الهدنة بالاستيلاء على بعض مناطق شرقي بحيرة طبريا ونهر الأردن الواقعة تحت السيادة الإسرائيلية، و إطلاق النار على الصيادين الإسرائيليين وقوارب الشرطة التي كانت تطوف بحيرة طبريا أواخر الـ١٩٥٤. كما قامت القوات السورية باعتقال ٤ جنود إسرائيليين كانوا يقومون بمهمة استخبارية داخل الأراضي السورية، ليموت أحدهم تحت التعذيب في السجون. وقبل توقيع اتفاقية وحدة مع القاهرة في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٥، تضمنت دمج قيادتي الجيشين المصري والسوري، تحت إمرة ضابط مصري.

وكتحد لهذه الخطوات المتسارعة، أقدم الإسرائيليون ليلة ١١ كانون الأول/سبتمبر سنة ١٩٥٥، على فتح النيران تجاه عدد من المواقع السورية في الكرسي وأبو تايهة، أدت إلى مقتل ٣٧ جنديًا سوريًا، و١٢ مدنيًا، فضلاً عن أسر ٣٠ آخرين، مما أدى لزيادة حدة الصراع بين الطرفين، و إلى تفجر العلاقات الدبلوماسية بين العرب والأميركيين، الذين سعوا منذ عام ١٩٥٣، لاجتذاب العرب إلى صفوفهم في مواجهة السوفييت، كما أدت هذه الخطوات إلى تسريع الوحدة السورية المصرية، بعدما تزايدت التهديدات التي تحيق بسورية من قبل كل من تركية و"إسرائيل".

في "إسرائيل" تجاذب كل من رئيس الوزراء في حينه موشيه شاريت ووزير الحرب بن غوريون وجهات النظر حول التعاطي مع المسألة العربية، وتسلل المقاتلون العرب إلى الداخل الإسرائيلي. فبينما اعتبر شاريت المسألةَ مرتبطة بواقع دولي، ينبغي لتل أبيب علاج المسألة في ضوئه، كان بن غوريون مُصرًا على "إسرائيل" وحدها من تمتلك حق حماية "مواطنيها". انعكست رؤية بن غوريون على الجيش منذ عام ١٩٥٣، فبدأ جيش الاحتلال الإسرائيلي بقيادة موشيه دايان، تطبيق سياسة ردع قاسية وحازمة ضد عابري خط الهدنة من الأردن وسورية وغزة. كان الرد الإسرائيلي نابعًا من الشعور بالضعف والعزلة والخوف من المستقبل. وكان السلوك الإسرائيلي يدفع في الآن عينه الرأيَ العام في دمشق للانفجار، حتى إذا ما حل عام ١٩٥٧. ومع إطلاق الرئيس الأميركي آيزنهاور لمبدئه ملء الفراغ، صارت القناعة عند القيادة السورية بضرورة التحالف مع مصر، كخطوة تفرضها الضرورة، خشية الوقوع في براثن الإسرائيلي في الجنوب، والتركي المتحيّن للحرب في الشمال. فتحت هذه السياسات الاستقطابية المجالَ لبعض الشخصيات السورية لبدء مد يد العون لـ"إسرائيل". ففي تموز/يوليو من العام ١٩٥٥، التقى حسني البرازي بمسؤولين إسرائيليين في زيوريخ (كان من بينهم جدعون رفائيل)، طالبًا دعمًا أميركيًا لتشكيل "نظام ديمقراطي موال للغرب في سورية، ومن أجل إسقاط الحكومة السورية اليسارية المتطرفة". أما أديب الشيشكلي فقد أعلم الإسرائيليين، بحسب موشيه ماعوز، بعد عام (أي في تموز/يوليو ١٩٥٦)، عبر رسوله في جينيف، نيته القيام بانقلاب، طالبًا من الإسرائيليين عدم التدخل بأي شكل. إلا أن الشيشكلي عاد وأخبر الإسرائيليين في ٢١ تموز/يوليو ١٩٥٦ في جينيف، تأجيله موعد الانقلاب لظروف طارئة، "ولم يصدر عن الشيشكلي أي شيء آخر لفترة من الزمان، فيما خسرت "إسرائيل" عدة آلاف من الدولارات، زودته بها من قبل"[٨].



إلياهو ساسون
كان إلياهو ساسون سياسياً ودبلوماسياً مولوداً في دمشق، ويُعتبر من أبرز مهندسي العلاقات السرية والدبلوماسية للكيان الصهيوني مع الدول العربية، وذلك بفضل إتقانه للغة العربية ومعرفته العميقة بثقافتها.

إحسان الجابري
كان إحسان الجابري من أبرز الشخصيات الوطنية السورية ومن قادة النضال ضد الانتداب الفرنسي. وهو شقيق سعد الله الجابري (السياسي السوري الشهير)، وقد لعب دوراً هاماً في التنسيق السياسي والدبلوماسي لنيل استقلال سورية.



احسان بك الجابري رئيس الامناء لجلالة الملك

العلاقات السورية-الإسرائيلية فترة حكم البعث: المرحلة الثالثة (١٩٦٣ - حتى سقوط البعث)

في عام ١٩٥٣، اتخذت الحكومة الإسرائيلية قرارًا بتحويل مياه نهر الأردن الأعلى إلى منطقة صحراء النقب، التي شكلت ٦٠٪ من الأراضي غير المأهولة في "إسرائيل". تضمن الجزء الأول من المشروع حفر قناة من جسر بنات يعقوب إلى بحيرة طبريا، وبناء محطة قاقة تعتمد على تدفق المياه في القناة. خشيت دمشق من الآثار الطبوغرافية للمشروع، ومما يتيحه من الأفضلية لـ"إسرائيل" في المنطقة الحرام (المنزوعة السلاح بين سورية و"إسرائيل"). فيما هددت سورية بتحويل نهريّ بانياس والحاصباني -رافدي نهر الأردن- إلى سورية.

وطوال مرحلة الخمسينيات، ظلت المحادثات بين شاريت، وعبد الناصر، وجونستون، قائمة لمحاولة تفادي نزاع أكبر جراء هذا المشروع، في ظل تمنع سوري عن القبول به. ومنذ عام ١٩٥٨، بدأت "إسرائيل" العمل على المشروع، ليصير عنوان المواجهة العربية-الإسرائيلية منذ أوائل الستينيات. وعلى إثر انقلاب البعث في آذار/مارس ١٩٦٣، وتوليه السلطة، تبنى النظام الجديد سريعًا أعمالاً جريئة ضد المشروع لمنع استكماله. فأعلن في اجتماعه القومي السادس، الذي عُقد في أيلول/سبتمبر ١٩٦٣، عن ضرورة وقف عملية تحويل مياه نهر الأردن إلى النقب بالقوّة، وفي هذا الإطار بدأت سورية تحضيرات لتحويل منابع نهر الأردن إلى سورية، كما والقيام بسلسلة هجمات انتقامية على معدات تحويل المياه. ومنذ مطالع كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣ (تاريخ انعقاد قمة رؤساء الأركان العرب)، صار عنوان "حرب التحرير الشعبية" الأكثر حضورًا في أدبيات المسؤولين السوريين.

جعل بعثيو سورية مشروع "الناقل الوطني" (بحسب المصطلح الإسرائيلي) لتحويل مياه بحيرة طبريا مادة للمشروعية السياسية، فحاولوا من خلال التشديد على منعه تعرية عبد الناصر وإظهاره بموقع المهادن لـ"إسرائيل". وكان الطرف الأكثر تشددًا في المواقف هو "القيادة القُطرية لحزب البعث"، التي أدانت مهادنة القيادة القومية للعرب في موقفهم المتردد إزاء المشروع الإسرائيلي، في مواقف عدة بين أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٦٤، والثالث من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٥[٩]. فانطلقت دمشق من خلال حركة التحرير الفلسطينية الجديدة (فتح) التي يقودها ياسر عرفات، في تنفيذ عمليات فدائية داخل "إسرائيل" متحدية عبد الناصر، ودفعًا لحرب تحرير شعبية. وظل هذا الاتجاه في تصاعد بغية وقوع "الحرب النهائية". في المقابل، قام الكيان الصهيوني بمهاجمة مواقع العمل السورية الساعية إلى تحويل المياه في ١٦ آذار/مارس ١٩٦٥، و١٣ أيار/مايو ١٩٦٥، مما أوقف مشروع التحويل. ويمكن إجمال الموقف الإسرائيلي من نظام البعث الجديد بقول شمعون بيريز مرة عن سورية، هي "كنيسة العرب المتطرفة التي جوهر ديانتها كُره "إسرائيل"". (جاء تصريح بيريز ذاك متزامنًا مع إعدام إيلي كوهين على يد السوريين في أيار/مايو ١٩٦٥).

وهكذا، بدا بالمجمل أن النظام البعثي الجديد قد تبنّى خطًا قتاليًا هو الأكثر تطرفًا نحو "إسرائيل" منذ بداية الصراع السوري-الإسرائيلي. يُرجع موشيه ماعوز ذلك إلى طبيعة النظام الجديد الذي يعاني من أزمة مشروعية، لانتماء أغلب قادته إلى أضيق قاعدة اجتماعية-سياسية في سورية. فغالب القيادات من الأقلية العَلَوية، ونظرًا للطبيعة العسكرية-الطائفية للنظام بعد عام ١٩٦٦[١٠].

أما بعيد عام ١٩٧٠، فقد دخلت السياسات البعثية في سورية منعطفًا جديدًا مع وصول حافظ الأسد إلى الحكم. فعلى عكس صلاح جديد، الذي أنكر دَور معظم الدول العربية في الصراع المسلح ضد "إسرائيل" بسبب رجعية تلك الأنظمة وانهزاميتها، سعى حافظ الأسد إلى بناء علاقات تعاون مع الدول العربية بغض النظر عن دورها في الصراع ضد "إسرائيل". وحاول -قدر استطاعته- ضبط عمليات الفدائيين الفلسطينيين التي كانت تنطلق من الحدود مع الجولان لتجنب الردود الانتقامية الإسرائيلية. وبينما عمل على تدعيم أنظمة الدفاع الجوي السورية، راح الأسد يعمل على تبني سياسة تشكيل قيادة شرقية (مع الأردن والعراق)، ثم سرعان ما انضم إلى الاتحاد الفيدرالي للجمهوريات العربية (الذي يضم كلًا من مصر وليبيا) للتنسيق بين الجبهة السورية والجبهات العربية الأخرى بهدف توحيد الجهود في الصراع ضد "إسرائيل"، مع إلماحه بقبول القرار ٢٤٢ في شباط/فبراير ١٩٧١. أما بخصوص العلاقة مع "إسرائيل"، فقد اعتمد الأسد



إلياهو إبشتاين
كان إلياهو إبشتاين (الذي غيّر اسمه لاحقًا إلى إلياهو إيلات) دبلوماسيًا ومستشرقًا في الكيان الصهيوني وأول سفير له لدى الولايات المتحدة، حيث لعب دوراً بارزاً في نيل الاعتراف الرسمي بالكيان من قبل إدارة ترومان.

رؤوفين شيلواح
كان رؤوفين شيلواح دبلوماسيًا وضابط استخبارات في الكيان الصهيوني، والمؤسس والمدير الأول لجهاز "الموساد"، ويُعرف بأنه المهندس الرئيسي لمجتمع الاستخبارات في هذا الكيان.



سياسة الـ"خطوة-خطوة"، بدءًا من شباط/فبراير من العام ١٩٧٥، عندما أشار الأسد في غير مقابلة، أنه اختار طريق توقيع معاهدة سلام مع "إسرائيل"، على أن تكون المعاهدة وفق المراحل التالية:

- أولًا: إنهاء حالة الحرب، وتطبيق القرار ٢٤٢.
- ثانيًا: تراجع "إسرائيل" إلى ما قبل حدود ١٩٦٧.
- ثالثًا: سماح "إسرائيل" بإقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

"وبذلك تكون العقبة الأخيرة في وجه التسوية النهائية قد زالت... وبالتالي تصبح مناقشة معاهدة سلام مع "إسرائيل" أمرًا طبيعيًا" برأيه[١١]. ومن غير الواضح إذا ما رمى الأسد فعلًا من "ثوابته" تلك، التي وسمت كامل مراحل حكمه، توقيع معاهدة سلام بالفعل مع الإسرائيليين، أو وضع إطار اللاحرب-اللاسلم، كثابتة من ثوابت السياسة السورية.

وبغض النظر عن المتغيرات التي طرأت على الاجتماع السياسي السوري، بعد تلك الفترة، سواء بدخول الجيش السوري إلى لبنان سنة ١٩٧٦، أو انقسام سورية عموديًا إثر أزمة حماة عام ١٩٨٢، ثم مع اجتياح "إسرائيل" لبيروت في نفس العام[١٢]، وما تلاها من أحداث جلل كحرب الخليج الثانية، التي أرخت ظلالها السياسية على دمشق في مؤتمر مدريد (أواخر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١)، فإن ثوابت الأسد تلك كانت قد وسمت مجمل السياسات السورية حتى يومنا الراهن.

واقع الأمر، يمكن أجمال المشهد العام للعلاقات البينية الحاكمة لكل من سورية و"إسرائيل" من خلال الثوابت التالية:

أولًا: تُشكل فلسطين شأنًا داخليًا سوريًا، بالمعنى الشعبي والسياسي، ولا يمكن لأي نظام سياسي في دمشق تجاوز الثابتة الفلسطينية في تطلعه ورؤاه، إذ تشكل القضيةُ الفلسطينية واحدة من مداخل مشروعية أي نظام.

ثانيًا: تشكل المحادثات الإسرائيلية السورية، المباشرة أو غير المباشرة، واحدة من مباني الفضاء السياسي السوري، إذ لا يمكن لأي نظام حكم في سورية تجاهل الوجود الإسرائيلي على الأرض السورية، أو ورفض المحادثات مع الإسرائيليين بالمطلق. فالمحادثات مع "إسرائيل" شرطة ضرورية (necessary condition) لمن يتولى الحكم في دمشق، ذلك أنها التكريس المادي لعلاقات الهيمنة الدولية في واقعنا العام في المنطقة، وفي سورية على وجه التحديد، إلا أنها ليست شرطًا كافيًا (sufficient condition) لأي مشروعية سياسية لأي جماعة تتطلع إلى حكم دمشق.

المنظور الإسرائيلي لسورية وجنوبها:

لا تفارق "إسرائيل" في منظورها لسورية المقاربة الاستشراقية التقليدية. يمكننا بوضوح التماس الأمر في الأدبيات الإسرائيلية الأكاديمية منذ نشوء الكيان والتي لم تتطلع إلى سورية يومًا باعتبارها كتلة مجتمعية واحدة. يتسم المجتمع السوري بحسب الأدبيات الإسرائيلية بالانقسام الديني والعِرقي، إذ يشكّل العرب السنة نحو ٧٠٪ من السكان. و إلى جانب هذه الأغلبية السنية، توجد في سورية أقليات كبيرة من العرب العلويين والمسيحيين والأكراد، بالإضافة إلى أقلية درزية صغيرة. وقد قام نظام الأسد الأب، بتشكيل تحالف ضمّ الأقلية العلوية، إلى جانب المسيحيين والدروز والطبقة الوسطى السنية المقيمة في المدن. وفر الأسد الأب لشركائه ظروفًا مواتية لمواصلة لعب دور محوري في الحياة الاقتصادية السوريّة، كما ضمن لأفراد الطائفة العلوية وجماعات أخرى من هذا التحالف شغل مناصب رئيسية في الجيش والأجهزة الأمنية[١٣]. وفي ظل هذه الرؤية، أولت تل أبيب أهمية خاصة للجنوب السوري باعتباره إقليمًا مستقلًا تاريخيًا عن حكومة دمشق المركزية. بإمكاننا في هذا السياق التطلع إلى ورقة منير عمار حول "الفرص الاستراتيجية في مرحلة تشكل مناطق الأطراف/الحدود - سورية كدراسة حالة"[١٤]، باعتبارها ورقة صالحة لفهم المنظور الإسرائيلي لسورية عمومًا والجنوب السوري على وجه التحديد. يحاول عمار في ورقته الإجابة عن سؤال: هل تمتلك "إسرائيل" القدرة على التأثير في المشهد الناشئ في جنوب سورية؟ و إذا كان الأمر كذلك، فما هي السبل الكفيلة بتعزيز الوجود الإسرائيلي في هذا المشهد (جنوب سورية) بهدف التأثير على المستوى الاستراتيجي؟

يقول: تتألف منطقة حوران التاريخية من ثلاث مناطق: القنيطرة والسويداء ودرعا. تعتبر السويداء ومنطقة درعا، الواقعة جنوب شرق جبال الدروز، منطقتيْن مهيمنتيْن ذات نفوذ سياسي واجتماعي وعسكري، ويُطلق عليهما



عبد الرحمن الشهبندر
كان عبد الرحمن الشهبندر سياسيًا وطبيبًا سورية مناضلًا، وأحد القادة البارزين في "الثورة السورية الكبرى"، حيث لعب دورًا محوريًا في النضال المسلح والسياسي لنيل الاستقلال عن الانتداب الفرنسي.

أديب الشيشكلي
كان أديب الشيشكلي (١٩٠٩-١٩٦٤) عسكريًا وسياسيًا سوريًا، حَكَمَ سورية كرئيس للجمهورية في أعقاب انقلابين عسكريين، وذلك في الفترة ما بين عامي ١٩٥١ و١٩٥٤ ميلادي.



السوريون اسم "الجبل والوادي". كانت السويداء ودرعا محافظتين تتمتعان بالحكم الذاتي لأكثر من ٤٠٠ عام (أي منذ بداية العهد العثماني وحتى نهاية الانتداب الفرنسي عام ١٩٤٦). وحتى بعد إعلان استقلال سورية عام ١٩٥٤، حرص سكان المنطقة على الحفاظ على مظاهر الاستقلال والانفصال عن المدن المركزية (حلب وحماة ودمشق). وعلى الرغم من إلغاء الحكم الذاتي على مر السنين، استمرت المحافظتان في المطالبة بوضعهما الخاص والتأكيد عليه، وفي كل مرة شعرتا فيها بالتهميش أو افتقار الاحترام الذي اعتقدتا أنهما تستحقانه من الحكومة المركزية، احتجتا وتمردتا عليها. وبشكل عام، وحّدت المصالحُ المشتركة المحافظتينْ الكبيرتين في نضال مشترك ضد الحكم الأجنبي. ومع ذلك، عرفت المحافظتان أيضًا كيف تتقاتلان فيما بينهما على مر السنين من أجل الهيمنة الإقليمية والسيطرة على الأراضي والموارد ومصادر المياه. وعلى مر السنين، اندلعت أعمال عنف واشتباكات بين المجموعتين بسبب هذا التوتر. تركز المقالة على البنية الاجتماعية التقليدية في منطقة حوران، وطبيعة تركز القيادة في أيدي نخبة صغيرة من الزعماء التقليديين، ما يسمح بالفعل بالتأثير على النظام عند الأزمات. ومن هنا يقترح تشكيل حملة فعّالة وناعمة من خلال إقامة علاقات غير مباشرة مع الأردن والسعودية والولايات المتحدة، فضلاً عن علاقات مباشرة مع القيادات المحلية، بما يمكّن "إسرائيل" من استغلال الفرص الاستراتيجية على المدى البعيد، إذا ما توخّت الحذر اللازم. وبغض النظر عن الفترة التي صدرت فيها هذه الورقة والتي تزامنت مع انفجار الشارع السوري إثر الثورة السورية عام ٢٠١١، إلا أننا نرى منير عمار يركز بشكل كبير على تاريخ العلاقة الدرزية-الإسرائيلية، في دعوة متضمنة لجعل الدروز مفتاح السياسة الإسرائيلية في الجنوب السوري. فيكتب عن تاريخ هذه العلاقة: "في أعقاب اللقاءات التي جرت عام ١٩٣٤ بين الدروز في فلسطين ونشطاء الحركة الصهيونية، بدأت اتصالات أولية بين ممثلي البيشوف وقادة الدروز المنفيين، الذين فرّوا من سورية إلى شمال الأردن عقب فشل الثورة ضد الانتداب الفرنسي. وكان ممثلو البيشوف على علم بالمساعدات التي قدّمها دروز فلسطين لإخوانهم المنفيين في شرقيّ الأردن، ومن خلالهم أُقيمت صِلات مع قادة المنفيين، وفي مقدمتهم زعيم الدروز في حوران سلطان الأطرش. وفي عام ١٩٣٤ أُجريت أولى الاتصالات مع عائلة الأطرش، عندما زار شقيق سلطان قرية الرامة في الجليل، والتقى أهرون حاييم كوهين، أحد موظفي "المكتب الموحّد". وكان لهذه الاتصالات امتداد لاحق مع عائلة الأطرش، بل وظهرت أفكار للتعاون بين الدروز في سورية ونشطاء الحركة الصهيونية. وخلال أحداث عام ١٩٣٦، وزّع يوسف نحماني منشورًا في القرى الدرزية طالبهم فيه بعدم الانضمام إلى أعمال الشغب. وجاء في المنشور: "لا شك أنكم تذكرون المساعدة التي قدّمها بن تسيفي على خلفية الافتراءات التي تعرّضتم لها من قبل المسلمين. لا تنسوا أنكم أقلية، وأن شتى الاتهامات والمصائب مُعدّة لكم. نحن نريدكم ألا تشاركوا في التمرّد".

واقع الأمر، تكمن أهمية هذه الورقة في تبني جيش الاحتلال الإسرائيلي لها، وفي إضاءتها على المنظور الذي تتطلع من خلاله "إسرائيل" لسورية، وجنوبها، في محاولة لدرء أي مخاطر تتهدد الكيان مستقبلاً.

في ورقته المعنونة بـ: إسرائيل والاتجاهات الناشئة في سورية[١٥] (في شباط/فبراير ٢٠٢٥)، يقدّم اللواء (احتياط) غيرشون هكوهين، مقاربة لافتة لحال "إسرائيل" اليوم إزاء المشهد السوري. يستعيد هكوهين جدلاً إسرائيليًا قديمًا حول التصور الأمني لـ"إسرائيل" المتمثل في "الفيلا في الغابة". يقول هكوهين، منذ بدايات المشروع الصهيوني، خاض المجتمع اليهودي، علنًا وسرًّا، صراعًا مع التوتر بين اتجاهين: الانكفاء داخل حدود "الفيلا" أو الاندماج في الفضاء العربي. وقد انعكس هذا التوتر أيضًا معماريًا. ففي حين بُنيت مستوطنات الهجرة الأولى على محور رئيسي، مثل كفار تابور ويافنيئيل، بما يسمح بحركة العرب واليهود عبر المستوطنة، بُنيت مستوطنات الهجرة الثالثة وما بعدها خارج الطريق الرئيسي على هيئة معسكر مغلق. ونتيجة لمواجهة الأحداث (وخاصة أحداث ١٩٣٦-١٩٣٩)، ونشاط إسحاق سديه ووحدات أورده وينغيت الميدانية)، نشأ خلاف حول مسألة الخروج من السياج إلى الفضاء المفتوح. وقد أثار نهجُ وينغيت جدلاً داخل كيبوتسات مرج بني عامر، نابعًا من سؤال جوهري: "أين يقع الخط الذي يكون عنده واضحًا للجميع أنهم يدافعون عن



غرشون هكوهين
اللواء (احتياط) غرشون هكوهين هو قائد سابق لـ "فيلق دمشق" والكليات العسكرية في الكيان الصهيوني، ويُعتبر أحد أبرز الاستراتيجيين الفكريين والمنظرين العسكريين في هذا الكيان.

التواصل خلف الأسلاك الشائكة
تُظهر الصورة مجموعة من النساء الدرزيات في مجدل شمس (سورية التي يحتلها الكيان الصهيوني)، وهنّ يستخدمن مكبّرًا للصوت للتواصل مع أقاربهنّ خلف الحدود، رغم وجود الأسلاك الشائكة وحقول الألغام - عام ١٩٧٥ ميلادي.



12-146

63

DRUSES/SMITH NYT Pictures/Micha Bar-am

Majdal Shams, Israeli-occupied Syria: Druses, separated from relatives by Israeli barbed-wire and minefield, using a bullhorn to communicate on a hillside in the Golan Heights. NYT0412275

وجودهم؟ هل هو خط السياج أم ما وراءه؟" يقول هكوهين: لم يكن هذا الجدل أخلاقيًا فحسب، بل بدأ مسألة عملياتية. فمفهوم الدفاع لدى سديه وينغيت تطلّب الاحتكاك في الفضاء خارج أسوار المستوطنات. وكان هذا هو مفهوم الحراس في بدايات تشكّل قوة الدفاع العبرية. وبالنسبة لهم، لم تكن حرية الحركة خارج المستوطنات ضرورة لتنفيذ مهمة الدفاع فحسب، بل تعبيرًا عن رغبتهم في الاندماج في الفضاء ثقافيًا أيضًا.

وهو إذ يستعيد هذه الذاكرة إنما يرمي إلى القول: إنه لو اتخذت "إسرائيل" موقفًا سلبيًا يقتصر على المراقبة والدفاع عن خط حدود الجولان دون الجرأة على تجاوز "جدران الفيلا"، فلن تمتلك أدوات التأثير والمساومة اللازمة لضمان مصالحها الأمنية في النظام الناشئ في سورية ولبنان.

إن الدرس الرئيسي من الهجوم المفاجئ الذي شنّه المتمردون في سورية على النظام السوري يبدأ بنظرة شاملة إلى المنطق الاستراتيجي الذي يحرك

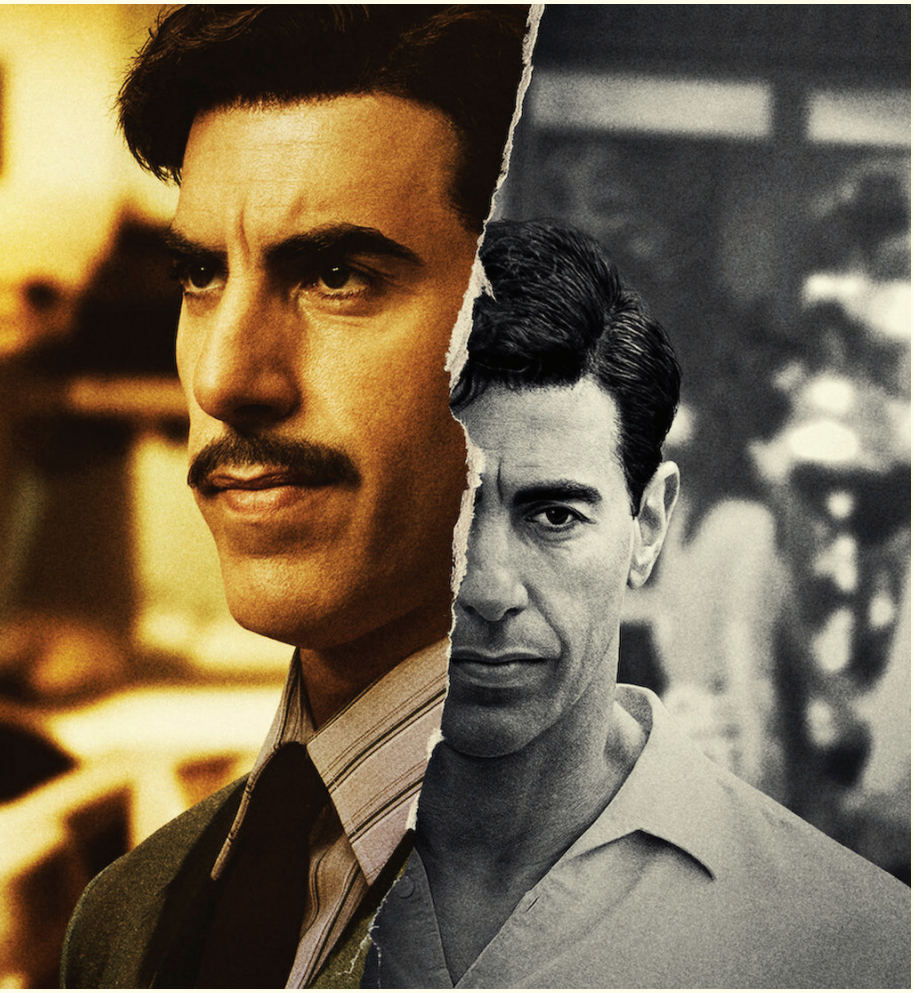

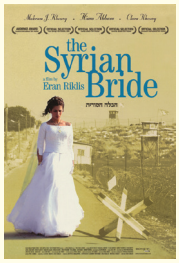

سرد الصهيوني

العروس السورية ، هي فيلم إسرائيلي أنتجت سنة ٢٠٠٤م، وتدور القصة حول الحياة العائلية من الطائفة الدرزية بقرية مجدل شمس في الجولان المحتل، حصدت الفيلم ٤ جوائز من مهرجانات دولية ومنها مهرجان بانكوك السينمائي.

منطقة الشرق الأوسط. والدرس الذي يرفض كثيرون في الغرب تقبّله هو أن المنطقةَ تمثّل منظومة غير مستقرة على الدوام. في الحقيقة، يعكس الشرق الأوسط منطق المنظومة البيئية، فالتغيير في منظومة من القوى في منطقة واحدة من الإقليم، قد تُحدث تغييرًا في مناطق أخرى ضمن دينامية تخرج النظام بأكمله عن توازنه.
ومع ذلك، قد تقع "إسرائيل" ضحية سياساتها نفسها، وهو ما تنبّه إليه عدد من الباحثين في مركز دراسات الأمن القومي بُعيد سقوط نظام الأسد بفترة قصيرة. ففي ورقة بعنوان: "عبر الحدود: الفرصة الاستراتيجية لإسرائيل في سورية"، يقدّم كلٌّ من نير بومس، كرميت فالنسي، ومزاحم السلوم مقاربة حذرة تجاه السياسات الإسرائيلية في الملف السوري. فبالرغم من السياسة التي يتبناها الرئيس السوري أحمد الشرع، والتي تتيح فرصة لإعادة صياغة العلاقات في المنطقة، بحسب قولهم، إلا أن نهج "إسرائيل" تجاه سورية



"الجاسوس"
مسلسل قصير من إنتاج نتفليكس، مستوحى من القصة الحقيقية للعميل السري الإسرائيلي إيلي كوهين.

منذ سقوط الأسد لا يزال محكومًا بمخاوف أمنية ناتجة عن صدمة ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٢٣. إذ يُشير رد الفعل الإسرائيلي بالسيطرة على المنطقة العازلة منزوعة السلاح، وعلى الجانب السوري من جبل الشيخ؛ بالإضافة إلى سلسلة الغارات المكثفة على مواقع عسكرية سورية وعلى دمشق، إلى نهج تصادمي يضع "إسرائيل" في قلب الصراعات الداخلية في سورية، وفي موقف معارض للحكومة "التي تقودها الأغلبية السنية". بالنسبة لهؤلاء الباحثين، يمكن تفسير سياسة "إسرائيل" على أنها مدفوعة برغبة في منع حدوث فراغ أمني أكبر والحفاظ على حرية تحركها لـ"تحييد" التهديدات المحتملة، وهو ما يمكن أن يخلق تهديدات تسعى "إسرائيل" جاهدةً لمنعها، فـ"إسرائيل" لا تُسهم إلا في تأجيج المعارضة وزيادة احتمالية نشوب صراع مستقبلي عبر تدخلها. وبينما لا تُبدي "إسرائيل" ثقةً في الحكومة المنبثقة عن هيئة تحرير الشام، فإن تصورها لها على أنها ضعيفة قد يُعزز، دون قصد، العناصر المتطرفة التي تسعى "إسرائيل" إلى كبح جماحها[١٦].

> الدرس الأساسي من الهجوم السوري الأخير يكمن في فهم ديناميكية الشرق الأوسط كمنظومة غير مستقرة بطبيعتها، حيث أن أي تغيير في موازين القوى في منطقة معينة قد يحدث تأثيرات متسلسلة تعيد تشكيل التوازن الإقليمي بأكمله

الهوامش

١. شاؤول أريئيلي، حق التفكير، في שאול אריאלי، זכות החשיבה"، ישראל – 2017" ص 50، https://www.shaularieli.com.

2. Moshe Ma'oz (1995), Syria and Israel: from war to peacemaking, Oxford; New York: Clarendon Press.

٣. اجتمع آنذاك مندوبا الوكالة اليهودية بـ"جميل مردم بك" رئيس الحكومة السورية، و"شكري القوتلي" وزير الدفاع والمالية السوري، و"فخري البارودي"، و"فايز خوري"، و"نصوح بابيل"، و"وديع تلحوق"، و"فريد زين الدين"، وهم من شخصيات الكتلة الوطنية والمعارضة الشهبندرية للحكومة الكتلوية. راجع: محمود محارب، من المفاوضات إلى الاختراق: العلاقات بين الوكالة اليهودية والكتلة الوطنية والمعارضة الشهبندرية، مجلة أسطور، العدد الخامس، كانون الثاني/ يناير، (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت – ٢٠١٧)، ص ١٦٦-١٦٧.

٤. كمثال: خلال لقائهما بـ"لطفي الحفار"، أعرب "إلياهو ساسون" و"ريؤوفين شيلواح" عن تثمين الوكالة اليهودية العالي للجهد الذي بذلته الكتلة الوطنية والحكومة السورية (في ضبط شارعها الغاضب من الصهاينة)، إلا أنهما اعتبرا أن دمشق باتت تشكل مركزًا لقيادة الثورة في فلسطين التي تنظّم مختلف صور الدعم للثورة الفلسطينية. فأجابهما الحفار بقوله: إنه عندما يلجأ القادة الفلسطينيون إلى دمشق فإن "واجبنا القومي يحتم علينا استضافتهم لأننا عرب قوميون، ولكننا حذرناهم بوضوح من القيام بأي نشاط يدعم الثورة في فلسطين وشددنا مراقبتهم. وأعتقد أنهم لا يقومون بنشاطات تذكر". أما عند لقاء "وايزمان" بـ"الشهبندر"، وقد تبين للشهبندر خلال الاجتماع أن آماله في أن يجد مرونة وأذنًا صاغية لدى وايزمان لم يكن لها ما تستند إليه. فقد أكد له وايزمان في هذا الاجتماع أمرين أساسيين مهمين بالنسبة إلى الوكالة اليهودية في كل ما يتعلق بالقضية الفلسطينية وإمكان التوصل إلى اتفاق عربي يهودي: أولهما، أنه لن يكون هناك أي اتفاق عربي-يهودي يستند إلى بقاء اليهود أقلية في فلسطين. وثانيهما، أن الوكالة اليهودية لن تجري مفاوضات مع العرب على نسبة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وينبغي أن تبقى الهجرة اليهودية وحجمها تحت قرار الوكالة اليهودية وحدها. وقد أجابه الشهبندر بأنه يدرك أنه ينبغي عدم الحديث عن بقاء اليهود في فلسطين أقلية. ولذلك يتحدث عن تحديد الهجرة اليهودية في السنوات الخمس القادمة التي يتم خلالها توضيح شروط السلام بين العرب واليهود. فسأله حاييم وايزمان عن تصوره عن حجم الهجرة اليهودية إلى فلسطين في مرحلة الخمس سنوات. وعندما حاول الشهبندر التهرب من الإجابة ضغط عليه وايزمان، فاستفسر الشهبندر عن عدد المهاجرين اليهود الذين ترغب

الوكالة اليهودية في إدخالهم إلى فلسطين في مرحلة السنوات الخمس. فأجابه وايزمان: ربع مليون. عندها قال الشهبندر: "إن هذه المسألة معقدة جدًا وإنها بحاجة إلى بحث ودراسة". راجع محمود محارب، المرجع السابق، ص ١٦٧ - ١٨٣.

٥. كان بن غوريون مؤمنًا بأهمية القوة ودورها في تحديد العلاقات العربية-الإسرائيلية، وفي إعادة هيكلة الشرق الأوسط. لذا كتب في مذكراتها عشية حرب ١٩٤٨ بلغة مبتهجة: بعد أن حطّمنا الجيش العربي الموحد، سوف نبيد الأردن. ومن ثم ستسقط سورية". راجع:

Moshe Ma'oz (1995), Syria and Israel: from war to peacemaking، مصدر سابق.

٦. اللافت في هذه المرحلة أن المعارضة للممالأة الأميركية والإسرائيلية، جاءت على لسان معروف الدواليبي، وزير الاقتصاد مطلع الخمسينيات، والشخصية المقربة من الإخوان المسلمين في الحكومة، الذي قال أن مثل هذا الاتفاق سيؤدي إلى ما أسماه تهويد باقي أبناء الأمة العربية بعد احتلال فلسطين. ولهذا فإن العرب يفضلون ألف مرة أن يصبحوا جمهورية سوفياتية، على أن يكونوا فريسة لليهود".

٧. المرجع السابق نفسه، ص ٥٠.

٨. المرجع السابق، ص ٨٢.

٩. ورد في منشور صادر عن القيادة القطرية في مذكرة أصدرتها في الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٥، ما يلي: "من الخطورة وعدم المنطقية تأجيل صراع التحرير إلى مستقبل غير محدد... إنهم (أي القيادة القومية) يقولون لنا بأن علينا الاستمرار في منهجنا اللاثوري. وبهذا فسنخسر بالتأكيد ثقة الشعب، كما سيفقد الحزب مكانته، إلا إذا عدنا إلى مبادئنا وبدأنا صراعًا يكون تجربة ثورية حقيقية".

١٠. موشيه ماعوز، سورية وإسرائيل من الحرب إلى صناعة السلام، ترجمة لينا وهب، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان - ١٩٩٨، ص ١٠٧.

11. https://www.youtube.com/watch?v=-30DUfAUZGs

١٢. نمرّ على هذه الأحداث سريعًا، بالرغم من عظيم ما تركته في الساحة السورية على مستوى العقيدة القتالية والسياسية، حتى لا نشت بالقارئ إلى ما لا يفيده في هذا المقام، ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أنّ احتلال بيروت من قبل الإسرائيليين، أحدث خللًا ضخمًا في حماسة الأسد للسلام مع الإسرائيليين، فصار أكثر اقتناعًا بعدم جدوائية هذا الخيار، في الآن عينه أفرز الاجتياح الإسرائيلي منظورًا مختلفًا للأمن القومي السوري، وللعقيدة العسكرية السورية، فمنذ أن وقّعت "إسرائيل" ومصر اتفاقية السلام بينهما، عملت استراتيجية الجيش السوري على تحقيق توازن استراتيجي مع "إسرائيل". لكن بعد تعرض السوريين لضربات موجعة بتدمير صواريخهم في وادي البقاع عام ١٩٨٢ من قبل سلاح الجو الإسرائيلي انهار تصورهم عن "التوازن الاستراتيجي"، وأدركوا ضرورة تحسين قدراتهم الهجومية عبر صواريخ أرض-أرض، واعتماد مبدأ "الردع الدفاعي الكافي": أي جعل "إسرائيل" تتردد قبل أي هجوم لتفادي خسائر غير محتملة بدلًا من العمل على منعها من الاعتداء. ولتنفيذ ذلك، تخلى السوريون عن محاولة هزيمة "إسرائيل" مباشرة، ووضعوا تصورًا عمليًاتيًا متوافق مع تصورهم الجديد. فابتكروا تصورًا يقوم على ترابط الدفاع-الهجوم، أو "المعركة القريبة"، مع التركيز على المدفعية، المشاة، القوات الخاصة، والصواريخ الدقيقة، لتعويض تفوق "إسرائيل" في الاستخبارات والقوة النيرانية المركزة. وهذا عمليًا أنتج عقيدة سياسية وعسكرية جديدة في سورية، نعيش اليوم في ظلال تبعاتها. للاطلاع أكثر على هذه العقيدة، راجع: دقير بلغ، "المظلات، الأقواس والفقاعات": مما ينهك التفوق العسكري لإسرائيل، (تقرير "تنوفا"، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٢٠) ص ٢٢ - ٢٤.

١٣. راجع إيال زيسر في كتابه سورية على مفترق طرق. איל זיסר، סוריה של אסד על פרשת דרכים. תל אביב: הקיבוץ המאוחד, 1999.

14. מוניר עמאר, הזדמנויות אסטרטגיות בעת התהוות אזורי ספר - סוריה כמקרה מבחן. https://shorturl.at/05knp

15. https://besacenter.org/wp-content/uploads/2025/02/2327-Hacohen-Emerging-Trends-in-Syria-1.pdf

١٦. عبر الحدود: الفرصة الاستراتيجية لإسرائيل في سورية، מעבר לגבול: ההזדמנות האסטרטגית של ישראל בסוריה، ٨ أيار/ مايو ٢٠٢٥.

https://www.inss.org.il/he/publication/new-syria/

من إدارة الصراع إلى هندسة النظام

المصالح الوطنية التركية في سورية ما بين نظامٍ سوري راحل ونظام في مرحلة البناء





أحمد الحسن

صحفي وباحث سياسي سوري،
مدير مركز القارات الثلاث
للدراسات • سورية

المقدمة :

منذ استقلال سورية في ١٩٤٦ بدأت العلاقات السورية التركية متأزمة بسبب سلخ لواء اسكندرون والموجة القومية العربية والتركية التي كانت تضرب النشاط الثقافي والسياسي للمنطقة، إضافة لخلافات المياه والنزاع على الحدود والعلاقة التركية مع الكيان وكذلك تموضع تركية في المحور الأطلسي على عكس المحور الشرقي الذي كان يغلب على حكومات سورية المتتابعة.

مع وصول البعث إلى السلطة في سورية تم تعزيز الموقف المعادي لتركية عبر احتضان معسكرات حزب العمال الكردستاني وكذلك تعزيز الثقافة العدائية لتركية في الإنتاج الفني والثقافي والإعلامي، لكن في عام ١٩٩٨ بلغت الأزمة ذروتها بين البلدين حين هدد القادة الأتراك باجتياح الأراضي السورية بحجة وقف هجمات حزب العمال الكردستاني، و إيواء قائد حزب العمال الكردستاني -عبد الله أوجلان- في الأراضي السورية. ولكن تدخل بعض الدول الصديقة للطرفين مثل مصر و إيران، وخروج عبد الله أوجلان من سورية، وتدخل ليبيا التي هددت بطرد الشركات التركية من أراضيها و إحلال



شركات يونانية محلها أوقف التأزم بين الطرفين.
انتهى النزاع رسميًا بتوقيع اتفاقية أضنة في ١٩٩٨ والاتفاق على خروج مقاتلي حزب العمال الكردستاني من شمال سورية كما بدأ التوافق في الجانب الأمني، ثم انتقل إلى الجانب الاقتصادي والسياسي، وجرى توقيع اتفاقيات عدّة في جميع مجالات الاختلاف، نفّذ معظمها في أوانه وتم تتويجها بزيارة الرئيس التركي أحمد نجدت سيزر لدمشق في يونيو/حزيران ٢٠٠٠، ثم زيارة الرئيس السوري الساقط بشار الأسد الأولى إلى تركية في عام ٢٠٠٤ لتؤسس للتحول الأهم في العلاقات التركية السورية مع فوز حزب العدالة والتنمية في الانتخابات التركية، حيث وقعت اتفاقية إزالة الألغام عن جانبي الحدود لإقامة مشاريع إنمائية مشتركة والتحول من حالة العداء التاريخي إلى التفاهم والتعاون، فرفض الأتراك سياسة العزل التي اعتمد الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش فرضها على سورية، ولعب الساسة الأتراك دور الوسيط بين سورية ومختلف الحكومات الأوروبية، الأمر الذي أسهم في مساعدة النظام السوري على عبور تلك المرحلة الصعبة كما أصبحت تركية راعية للمفاوضات السورية الإسرائيلية غير المباشرة. وجرى التوقيع في عام ٢٠٠٤ على اتفاقية التجارة الحرة، وتمّ الشروع بتطبيقها عام ٢٠٠٧، وكذلك جاء اتفاق فتح الحدود بين البلدين من دون سمة دخول وعشرات الاتفاقيات الاقتصادية الأخرى.

مع الانشقاقات الأمنية والعسكرية واستمرار الأسد في التشدد تجاه المطالب الداخلية والخارجية دعمت تركية النشاط الدولي لدعم المعارضة عسكريًا وأمنيًا، وساهمت عمليًا في تأسيس غرفة الموم والموك

تم في هذه المرحلة إطلاق مشروع تدريس اللغة التركية في دمشق وحلب، واللغة العربية في أنقرة و إسطنبول، وتأسست جمعيات ثقافية، مثل الجمعية العربية للعلوم والثقافة والفنون في أنقرة، وقامت شركات سوريّة بدبلجة المسلسلات التركية وعرضها للمشاهدين العرب. وبادر الجانب التركي إلى رفع كمية تدفق مياه نهر الفرات لتصل إلى ٥٧٥ مترًا مكعبًا في الثانية، ووافق على أن تمرّ أنابيب الغاز المصدر من أذربيجان إلى سورية، وأن تكون الأراضي التركيّة ممرًا لربط شبكة الغاز العربية من مصر إلى الدول الأوروبية. ومع انطلاق ثورات الربيع العربي في أواخر عام ٢٠١٠ بدأت خلافات الدولتين في التوقعات المرتبطة بالربيع العربي مابين تركية التي رأت سورية ضمن تهديداته، وطالبت الأسد بالتجهيز لاحتواء العاصفة وما بين النظام السوري الذي رأى سورية بعيدة كل البعد عن مسار الربيع العربي.

١. لماذا اختارت تركية دعم المعارضة السورية؟

مع وصول الربيع العربي إلى سورية عام ٢٠١١ تم تكثيف اجتماعات التنسيق مع النظام السوري، حيث شهدت فترة التسعة أشهر الأولى من ثورة سورية ١٩ اجتماعًا تركيًا-سوريًا على المستوى الأمني والعسكري والسياسي، وبعض هذه الاجتماعات شارك فيها الروس أيضًا. وبين هذه النشاطات التركية زيارة لرئيس الوزراء، وقتها أردوغان، و٣ زيارات لوزير الخارجية التركي أحمد داوود أوغلو، واتصال رئاسي بين الرئيس التركي عبد الله غل وبشار الأسد تم فيها مطالبة الأسد بإصلاحات سياسية. لكنّ الأسد طلب فيها مهلة وقدّم وعودًا لم ينفذها. وبعد هذه المماطلات قررت تركية إغلاق السفارة ودعم المعارضة واحتضانها في تركية والسماح بنشاطات معارضة للنظام السوري انطلاقًا من الأراضي التركية.
مع الانشقاقات الأمنية والعسكرية واستمرار الأسد في التشدد تجاه المطالب الداخلية والخارجية دعمت تركية النشاط الدولي لدعم المعارضة عسكريًا وأمنيًا، وساهمت عمليًا في تأسيس غرفة الموم والموك[١] أيضًا، ولا سيما مع قيام إيران بالتورط الاستراتيجي العسكري في سورية، حيث شكل ذلك عامل مهدد لتركية باعتبارها دولة جوار، ولا سيما مع بروز النشاط العسكري والأمني لتنظيمات راديكالية سنية وشيعية وكردية في سورية. وهذا ما إعتبرته تركية تهديد أمن قومي عال المستوى، أضيف إليها التهديد المرتبط بموجات الهجرة العالية وانهيار الدولة وتقسيمها، مما فرض على تركية رفع مستوى العمل الأمني والعسكري والسياسي لدعم المعارضة السورية إلى أعلى مستوى بهدف المحافظة على المعارضة

السورية كضامن رئيسي للمصالح التركية ومواجهة التهديدات.

في هذه المرحلة (السنوات الأربع الأولى من الثورة حتى عام ٢٠١٥) كان الدعم التركي بتوفير البنية التحتية لدعم المعارضة وللنشاطات الدولية الداعمة للمعارضة دون دخول تركية بشكل مباشر عسكريًا في سورية عبر القوات التركية، وتم التركيز على حرب الوكالة عبر السوريين بسبب الانقسام الداخلي ما بين الحكومة والاستخبارات التركية في هذه المرحلة، حيث كانت فرص نظام الأسد تتضاءل حتى بدأ التدخل الروسي العسكري في سورية لدعم نظام الأسد، وهذا غيّر المعادلة التركية في الملف السوري.

٢. الموقف التركي في سورية بعد التدخل العسكري الروسي

مع دخول روسيا في الصراع السوري رأت تركية هذا التدخل مؤشرًا يهدد المصالح التركية استنادًا إلى عدد من التحولات التي اعتُبرت أخطارًا على المصالح التركية ومنها:

- بوادر التغيير التي حصلت تجاه موجات الربيع العربي والإخوان في دول الثورات منذ نهاية عام ٢٠١٣، ولا سيما دول الخليج وحصول دعم غير معلن لروسيا في تدخلها بسورية.
- تراجع الدعم الدولي لغرفة الموم والموك وفصائل الجيش الحر وتقييد حركة وصول السلاح إلى هذه الفصائل مما انقلب لمصلحة النظام ومصلحة التنظيمات الراديكالية والأكراد، وهذا اعتبر تهديدًا لتركية التي منعت من تسليم السلاح للجيش الحر.
- ظهور تهديدات داخلية تركيّة شملت انزعاج الحركة القومية التركية من الدور الروسي في سورية وكذلك محاولات التيار الموازي (جماعة فتح الله كولن) اختراق المؤسسات التركيّة وتنفيذ انقلاب ناعم وتم تتويجه لاحقًا بمحاولة انقلاب تم التصدي لها لتكون أساس التحول التركي في

ثورة عام ١٩٤٥
إحراق الكتب الفرنسية من قبل السوريين بعد ثورة عام ١٩٤٥، احتفالا بانسحاب القوات الفرنسية الأخيرة عام ١٩٤٦ وإعلان استقلال سورية./ دير الزور، على ضفاف نهر الفرات، سورية.
● المصدر: ناشيونال جيوغرافيك / مايناردأوين ويليامز



© National Geographic Society — Kodachrome by Maynard Owen Williams

At Deir ez Zor, Beside the Euphrates, Syrians Burn French Books in an Independence Bonfire

Syria, for centuries the pawn of foreign powers, is free. Following the riots of 1945, the last French troops withdrew in 1946. This crowd bears Syria's three-star flag and Lebanon's cedar banner (center). "We know book burning is barbaric," said a young Syrian, "but it gives us an emotional outlet."



الملف السوري.
في ٢٤ نوفمبر ٢٠١٥ تم إسقاط طائرة سوخوي ٢٤ روسيّة فوق جبل التركمان في محافظة اللاذقية السوريّة قرب الحدود السوريّة-التركية، وتم إعلان إسقاط الطائرة من الجانب التركي بموجب قواعد الاشتباك بسبب تجاهلها التحذيرات التركية. وقال رئيس الوزراء التركي داوود أوغلو أن الجيش التركي قام بواجب وطني، بينما نفت روسيا اختراق الطائرة الأجواء الروسية، وقال بوتين أنها أسقطت بعد ٤ كم من الحدود ووصف الحادثة بأنها طعنة في الظهر من شركاء الإرهابيين، وتم قطع كل الاتصالات العسكرية الروسية مع تركية، ونشر منظومة إس ٤٠٠ في قاعدة حميميم وتم قطع العلاقات التركية الروسية.

ساهم التعاون التركي الروسي التركي في سورية في المحافظة على الحد الأدنى من بقاء النظام وبقاء المعارضة رغم العقوبات

٣. التحول الاستراتيجي في الموقف التركي في سورية

بعد اسقاط الطائرة الروسية لم يعد الرئيس بوتين يرد على اتصالات الرئيس أردوغـان، وأغلقت معظم خطوط التعاون الروسي التركي، لكن مع بداية شهر أيار/ مايو ٢٠١٦ حصلت تطورات مهمة، حيث بدأت الخلافات الداخلية داخل حزب العدالة ضمن تحضيرات المؤتمر العام الاستثنائي ٢٢ أيار/ مايو ٢٠١٦، وانتهى اجتماع أحمد داوود أوغلو مع أردوغان قبل المؤتمر بأسبوعين إلى تعزيز الخلاف بينهما و إعلان داوود أوغلو عدم نيته الترشح لرئاسة حزب العدالة. ووجدت المخابرات الروسيّة هذا الوضع فرصة مهمة لإقناع الرئيس أردوغان بوجود مؤامرة داخلية تركية عليه في إسقاط الطائرة الروسية، و إن داوود أوغلو كان واحدًا من الذين تم استخدامهم فيها. حيث تم تزويد المخابرات التركية ورئيسها هاكان فدان بمعلومات الطائرة وأنها لم تخترق الحدود التركية ولم تتلقّ تحذيرات مسبقة كما تم تزويد الجانب التركي بمعلومات

سقوط
تعبر عائلة طريقًا في العاصمة السورية دمشق يوم الأحد ٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٢٤، بعد سقوط حكومة بشار الأسد، بينما يتصاعد الدخان في الخلفية.
• المصدر: أسوشيتد برس.



خطيرة عن محاولة انقلاب يتم التحضير لها في تركية، وهذا ما سرع الاجتماعات الاستخباراتية اللاحقة بين تركية وروسيا، وتم تتويجها لاحقًا باتصال مهم بين الرئيسيْن الروسي بوتين والتركي أردوغان في ٢٩ حزيران/ يونيو ٢٠١٦ ليكون أول اتصال بينهما منذ إسقاط الطائرة الروسية وبداية تعاون عال المستوى في أخطر مرحلة على الأمن القومي التركي لا زال مستمرًا بنفس التنسيق إلى هذا اليوم. الدور الروسي في مواجهة محاولة الانقلاب في تركية في ١٥ تموز/ يوليو ٢٠١٦ بعد الاتصال الهاتفي بثلاثة أسابيع يشكّل أرضية بناء الثقة العالية في ملفات التعاون الدولي والإقليمي التركي مع روسيا، واستندت بالأساس إلى الثقة التي تم بناؤها على المستوى الشخصي بين بوتين وأردوغان والتي استند إليها لاحقًا التدخل التركي في سورية وليبيا وأفريقيا.

أهم ما يميز هذا التحول هو الاتفاق على مشاريع بناء أنظمة صديقة للطرفيْن في سورية وليبيا وبعض الدول الأفريقية، وهذا ما يعتبر حاليًا علامة فارقة للتعاون بين بوتين وأردوغان. وتظهر حاليًا نتائجها في سورية وليبيا وعدة دول أفريقية وكذلك في بعض دول القوقاز وأوروبا الشرقية.

٤. كيف تعاونت تركية وروسيا في مشروع بناء النظام الصديق في سورية؟

استند التعاون التركي الروسي في سورية إلى ثلاثة أسس رئيسية تشكّل عامل التعاون المهم:

- منع التقسيم في سورية كهدف رئيسي للتعاون الاستراتيجي والتعامل مع التقسيم باعتباره تهديدًا لمصالح الأمن القومي التركي والروسي.
- التعاون في مكافحة الإرهاب في سورية، سواء الإرهاب المستند إلى البعد الايدلوجي (داعش - القاعدة - حزب العمال الكردستاني)، أو الإرهاب المستند إلى التشكيلات غير المنضبطة. وبناء عليه حصلت تركية على دعم روسيا في المناطق الحدودية التي يشغلها تنظيم داعش (عملية درع الفرات)، والمناطق التي شغلتها القوات الكردية (عملية غصن الزيتون)، وبذلك حصلت تركية على أساس عملي للتواجد العسكري المباشر في سورية والبقاء طويل الأمد، وكذلك الإشراف الكامل على المعارضة السورية بكل نشاطاتها السياسية، والعسكرية، والأمنية، والاقتصادية.
- تنفيذ خطة مشتركة لاحتواء عناصر الصراع في سورية تحت عنوان "اتفاقيات خفض التصعيد"، حيث شكّلت هذه الاتفاقيات الأساس الذي انطلق منه مشروع توحيد الأراضي السورية و إنهاء الصراع الحالي في سورية. فعبر اتفاقيات وقف التصعيد تم التعاون المكثّف بين روسيا وتركية بما يضمن للبلدين المطلوب من هذا التعاون وهو: (تخفيف الصراع إلى مستوى يمكن التعايش معه فصائليًا وشعبيًا، حيث لا ينهي الحياة المدنية، وفي نفس الوقت لا يسمح بالتقسيم وبناء كيانات مستقلة ويساهم في ترويض أطراف الصراع وانتخاب الأقدر على التعاون مع الدول لمواجهة غير المنضبطين. وهذا ساهم في وصول المكونات الحالية إلى نهائي سورية - هيئة تحرير الشام وقسد وفصائل الحر المدعومة من تركية)، حيث شهدت هذه العملية مراحل متعددة من العمل العسكري والأمني حافظت على العناصر التي تمتلك الحد الأدنى من التعاون والانضباط بالمعايير الدولية.

عبر هذه الأسس استطاعت تركية المحافظة على



المعارضة السورية رغم تراجع الدعم الدولي إلى الحد الأدنى، وتحول الكثير من الدول نحو دعم النظام أو قبول عودة النظام أو الوقوف على الحياد. وقد ساهم التعاون التركي مع روسيا و إظهار المرونة تجاه المصالح الروسيّة في سورية في تعزيز الورقة التركية في سورية أيضًا، حيث اعتبرت روسيا أن النفوذ التركي في سورية لمصلحتها واعتبرت تركية النفوذ الروسي في سورية لمصلحتها أيضًا.

ساهم هذا التعاون التركي الروسي التركي في سورية في المحافظة على الحد الأدنى من بقاء النظام وبقاء المعارضة رغم العقوبات، وكانت تركية وروسيا يراهنان على عامل الوقت لموافقة كل الأطراف السورية على المصالحة الوطنية. وتم إطلاق عدة مشاريع في هذا الجانب، لكن تعنت النظام ساهم في تغيير الموقف الروسي بدعم تركي، ولا سيما مع تعاون تركية الكامل مع روسيا في كل المبادرات تجاه النظام السوري السابق.

٥. التحول الأهم في التعاون الروسي التركي في سورية:

شكلت اتفاقية إدلب ٢٠١٨ (سوتشي) تحولاً مهمًا في علاقة روسيا وتركية في الملف السوري، حيث ضمن الأتراك دَورًا روسيًا في تعطيل أي توجّه إيراني نحو دفع النظام لعمليات عسكرية جديدة. وحصلوا على التعطيل الروسي لأي عملية من النظام السوري باتجاه إدلب وريف حلب، وهذا ساهم في تغيير الواقع في هذه المناطق كليًا رغم حصول بعض الانتهاكات الجوية أو العسكرية على هذه المناطق، لكنها كانت تحل عبر التدخلات التركية بدون مشاكل. وأهم ما حصلت عليه تركية وحلفاؤها من المعارضة في هذا التحول:

- سمحت هذه الحالة للمعارضة السورية وهيئة تحرير الشام ببناء نموذج حكومي لإدارة هذه المنطقة على مستوى الخدمات والتعليم والصحة والاقتصاد والأمن وباقي القطاعات، وهذا ساهم في محافظة المعارضة على نشاطاتها رغم تغير المواقف الدولية. كما حرم النظام السوري من أهم ادواته القمعية (محاصرة المناطق وقضمها عبر الاستنزاف)، كما ساهم هذا الوضع في تفوق نوعي لمناطق المعارضة المفتوحة على الحدود التركية تجاريًا واقتصاديًا وعسكريًا وأمنيًا وخدميًا، بينما كان النظام يحاصر ويتراجع في الخدمات والاقتصاد بسبب قانون قيصر واعتماده سياسة تمويل الحرب.
- سمحت هذه الاتفاقية لتركية بإعادة تنظيم الفصائل والقوة العسكرية والأمنية بما يسمح لهذه التشكيلات بالمساهمة في مؤسسات الدولة السورية، حيث ربطت تركية الرواتب بما يسمى دورات التخصصات، وبذلك بدأ أساس تأسيس التشكيلات الموازية لتشكيلات النظام في المؤسسة الأمنية والعسكرية، وتم تقديم هذا المشروع التركي لروسيا باعتباره خطة لتحضير هذه التشكيلات للانضمام إلى مؤسسات الدولة السورية القادمة بعد المصالحة، وكذلك تحضير هذه التشكيلات لمواجهة الفصائل غير المنضبطة. ولذلك أدخلت تركيا كلاً من هيئة تحرير الشام والفصائل ضمن خطة القبول الروسي، وتم دعم هذه الخطة عبر دفع هذه الفصائل لمواجهة حراس الدين وباقي التشكيلات الرافضة للأستانة والدور التركي في سورية. وهذا عزز القبول الروسي للمشروع التركي والتعامل معه بثقة وساهم في حصول شرخ روسي مع النظام السوري و إيران، رغم وجودهم في الأستانة أيضًا. وقد شهدت سنة ٢٠٢٠ وما بعدها تنسيقًا روسيًا تركيًا أعلى على حساب النظام و إيران.
- سمحت هذه الاتفاقية لِكل من هيئة تحرير الشام والمعارضة بتمويل موازناتهم من النشاطات التجارية والخدمات والمعابر. وهذا حرم النظام من كل الموارد، وبذلك تحولت كفّة النشاط الاقتصادي نحو الشمال السوري، وهذا ساهم في اختراق تركية وهيئة تحرير الشام لمعظم تشكيلات النظام عبر شبكة التجارة في مناطق النظام الذين كانوا يعملون كمنسقين لهذه الاتصالات. وقد ساهم هذا في تحسين فرص إسقاط النظام لاحقًا عبر هذه الدائرة.
- سمحت هذه الاتفاقية لتركية والمعارضة بنقل كل المعارضين للنظام من المناطق المحاصرة أو التي يسيطر عليها النظام نحو الشمال السوري، وتحول الشمال السوري إلى سورية الجديدة بكل تنوعها المناطقي والإثني: وهذا ساهم أيضًا في تراجع حظوظ النظام لمصلحة المعارضة السوريّة و إقناع روسيا بتغيير مواقفها تجاه النظام باعتباره تهديدًا لمصالحها الاستراتيجية لاحقًا، مع الشعب والمكونات السورية.



مقاتلو المعارضة لنظام بشار
يحتفل مقاتلو المعارضة لنظام بشار الأسد بعد انهيار الحكومة السورية في دمشق، سورية، يوم ٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٢٤.
• المصدر: أسوشيتد برس/ عمر سنديكي.

٦. طوفان الأقصى والفرصة الذهبية التي استثمرتها تركية وحلفاؤها في المعارضة

جاء طوفان الأقصى في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ كتحوّل مهم في الملف السوري، حيث تعاملت معه تركية وروسيا باعتباره زلزالاً سياسيًا له تداعيات في كامل المنطقة ومنها سورية. ولكن النظام السوري أهمل معظم العروض التي قدمت له من تركية عبر الروس، وهذا ساهم في تغيير الموقف الروسي نحو النظام، وبات التعاون مع تركية بخصوص الخيارات البديلة يناقش في الاجتماعات الروسية التركية. ولأول مرة وصل رئيس الاستخبارات التركية إبراهيم كالين إلى الشمال السوري وفي اجتماعه مع قادة الفصائل أكد على ضرورة الاستعداد الأمني والعسكري للمرحلة رغم أن التصريحات السياسية التركية كانت تتجه نحو التطبيع مع النظام، وهذا اعتبر إشارة إلى توجه تركي مزدوج (سياسي موجه للداخل التركي وأمني موجه للداخل السوري).

> منذ مشروع الأستانة الأول تتعامل تركية مع سورية باعتبارها منطقة أمن قومي تركي، وبناء عليه يتم العمل حاليًا في سورية على مشروعين تركيين

وتوسعت نشاطات التدريب العسكري والأمني وكذلك حركة نقل التجهيزات القابلة للاستخدام العسكري، وبات الحديث عن معركة حلب في معظم الاجتماعات الفصائلية الداخلية وتزامن ذلك مع قيام الكيان باستهداف قيادات حزب الله وإيران في سورية وارتدادات طوفان الأقصى التي حصلت في المنطقة تجاه ايران وحزب الله .

شاركت الاستخبارات التركية مع منتصف عام ٢٠٢٤ في اجتماعات تنسيقية ما بين الفصائل وهيئة تحرير الشام وبعض القيادات العشائرية التي كانت مع النظام السوري في حلب وريفها عبر شخصيات قريبة لهم في مناطق المعارضة. وتم تنسيق التعاون دون تحديد مواعيد للعمل العسكري، وترك تحديد العمل العسكري حسب الظروف الداخلية حتى إعلان عملية ردع العدوان فجر الأربعاء ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٢٤، إذ كان هدف العملية مدينة حلب لتحسين فرص التفاوض مع النظام وضمان موافقته على مشروع تركي روسي مشترك. واستطاعت فصائل ردع العدوان بسط سيطرتها على حلب في ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر عبر تعاون قيادات مهمة من المكون العشائري في التشكيلات الرديفة التي كانت تعمل مع النظام، ودفع ذلك النظام إلى اتخاذ خطأ استراتيجي لسحب قواته باتجاه حماية العاصمة. وبذلك ساهم في تحول سير المعركة من السيطرة على حلب إلى تحرير كامل الأراضي السورية، حيث تم إكمال توجه القوات نحو حماة التي تركزت فيها الإشتباكات. وقد لعبت تركية دورًا مهمًا في تغيير المعادلة، حيث تم تنظيم اجتماع ما بين قيادات ردع العدوان والجانب الروسي في هذه المرحلة. وقد ساهم هذا الاجتماع في إنهاء عملية ردع العدوان خلال أسبوعين بالسيطرة على دمشق وقيام روسيا بإخراج الأسد وضباط النظام من سورية ليتم إعلان سقوط النظام في ٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٤ رغم محاولات إيران الأخيرة في قطر في اجتماع الدوحة ٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤ دون نتيجة.

٧. الأهداف التركية في سورية مع حكومة الشرع

منذ مشروع الأستانة الأول تتعامل تركية مع سورية باعتبارها منطقة أمن قومي تركي، وبناء عليه يتم العمل حاليًا في سورية على مشروعين تركيين متوازيين معًا:

- الأول: بناء نظام سوري ذي صداقة مستدامة لتركية عبر مشاريع التوأمة بين المؤسسات التركية والسورية في كافة القطاعات السياسية والأمنية والعسكرية والثقافية والاقتصادية، وهذا يساهم في حماية الأمن القومي التركي على المدى الاستراتيجي. ولذلك تسعى تركية حاليًا إلى عدم تهديد المصالح العربية والدولية والإقليمية في سورية وتقاسم هذه المصالح في سورية حتى لا تساهم في بناء مشاريع معادية لتركية داخل سورية مدعومة إقليميًا أو دوليًا. وسبب هذا التوجه التركي هو خطورة المرحلة القادمة في تركية (آخر فترة من فترات الرئيس أردوغان في حال عدم تغيير الدستور أو عدم التوجه نحو انتخابات مبكرة، وهذا يعتبر لذلك أخطر مرحلة داخلية في تركيا). كما أن سورية تعتبر حاليًا جزءًا من خطة تغيير خارطة المنطقة، وهذا يرفع مستوى المخاطر العالية على تركية التي تخشى مشاريع التقسيم. ولذلك تشهد

المرحلةُ مستوى عال من المخاوف التركية أجبرت حتى قيادة الحركة القومية التركية (دولت بهتشلي) على إطلاق مبادرة انتحارية سياسيًا نحو عبد الله أوجلان والمصالحة مع حزب العمال الكردستاني. وبناءً عليه تعتبر سورية جزءًا مهمًا من هذا الاتفاق بسبب ارتباطه بهذا المشروع.

• الثاني: مرتبط بتهديدات مشروع نتنياهو لـ"إسرائيل" الكبرى الذي تحول من حلم للكيان إلى خطة عمل للتطبيق على يد نتنياهو. وهذا يرفع مستوى المخاطر القادمة على تركية من الملف السوري إلى أعلى مستوى، ولا سيما مع قيام الكيان بتفعيل خطته لمعبر داوود. ولذلك يعتبر الدور التركي الحالي في سورية امتداد للأمن القومي التركي ويزيد من أعباء المرحلة أيضًا.

الخاتمة

ساهمت تركية بشكل فاعل ومهم في مشروع إسقاط النظام السابق، وتساهم حاليًا في مشروع دعم النظام الجديد، ولا سيما مع التهديدات العالية على الأمن القومي التركي الداخلي والتهديدات الإقليمية، وهذا يحول الوجود التركي في سورية من وجود الضرورة سابقًا إلى وجود استراتيجي تحتاج تركية لتعزيزه عبر استراتيجية بناء نظام صديق لتركية في سورية، ولا يمكن ذلك من دون دور تركي في كل خطوات المرحلة الانتقالية وما بعدها.

لذلك يتم العمل حاليًا على دور فاعل لتركيّة في رفع العقوبات عن سورية حتّى تتاح الفرصة الأهم للاقتصاد التركي من مشاريع إعادة الإعمار في سورية، لأن المرحلة تتصادف مع أخطر مرحلة على حزب العدالة التركي ومشروع خلافة الرئيس أردوغان، ولا يمكن ضمان استمرار الحزب أو التوجه نحو انتخابات مبكرة تعطي فرصة ثانية لأردوغان من دون تحقيق تقدم نوعي في الاقتصاد التركي قبل عام ٢٠٢٨، وهذا يجعل عام ٢٠٢٦ وعام ٢٠٢٧ ومشاريع إعادة الإعمار في سورية من أهم استثمارات تركية المرحلية.

الهوامش

١. تشكلت في عام ٢٠١٣ "غرفة الموك" في الأردن (Military Operations Center)، وهي غرفة عسكرية خارجية، ومقر قيادة وتنسيق و إصدار أوامر تديرها الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والأردن وبعض دول الخليج. وتطورت عام ٢٠١٤، لتضم فصائل عدة من الجيش الحر في درعا والقنيطرة وريف دمشق وريف حلب الشمالي.

الهلال الأحمر التركي والهلال الأحمر العربي السوري

يوقع الهلال الأحمر التركي والهلال الأحمر العربي السوري بروتوكولا (أو اتفاقية/مذكرة تفاهم) خلال مراسم أقيمت في مقر الهلال الأحمر التركي في أنقرة، تركيا، بتاريخ ٢٣ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٢٥.

• المصدر: وكالة الأناضول.





سورية والتدخل الخارجي

الدور الوظيفي لتركية وقطر في استنزاف الدولة والمجتمع السوري و إسقاط نظام بشار الأسد



ماجد حبو

عضو هيئة التنسيق الوطنية لقوى التغيير الديمقراطي وقيادي في حزب العمل الشيوعي • سورية

المقدمة

يأتي هذا البحث في سياق تفكيك التحولات العميقة التي شهدتها سورية خلال العقد الأخير، ليس بوصفها نتيجة صراع داخلي معزول، بل باعتبارها حالة نموذجية لإعادة إنتاج الهيمنة في عصر ما بعد الاستعمار. ينطلق البحث من نظرية مركزية مفادها أن إسقاط نظام بشار الأسد جاء تتويجًا لمسار طويل من الاستنزاف الوظيفي المنظم الذي شاركت فيه قوى إقليمية، أدّت أدوارًا محددة ضمن منظومة الهيمنة العالمية.

ويحاول البحث الإجابة عن أسئلة عدّة أبرزها: كيف جرى توظيف الدورَيْن التركي والقطري ضمن منظومة استعمارية غير مباشرة لإعادة هندسة الدولة والمجتمع في سورية، وصولًا إلى إسقاط النظام وإعادة إنتاج السلطة بأدوات جديدة؟ كيف يعمل مفهوم "الدور الوظيفي" بوصفه آلية من آليات الاستعمار الجديد؟ ما موقع الإعلام والتمويل والوساطة السياسية في تفكيك السيادة الوطنية السورية؟ كيف تندمج التجربة السورية في نموذج أوسع لإدارة الصراعات في مرحلة ما بعد الحرب الباردة؟ إلى أي حدّ شكّلت

تركية وقطر أدوات تنفيذ إقليمي لمصالح مراكز القرار الدولية؟

المنهجية

المنهج التحليلي التاريخي لتتبع تطور الأدوار الإقليمية، تحليل الخطاب السياسي والإعلامي، المقاربة ما بعد الاستعمارية (Postcolonial Approach) في تفسير العلاقات غير المتكافئة بين المركز والأطراف.

> يُفهَم مفهوم "الدور الوظيفي" بوصفه أحد تجليات الاستعمار الجديد، إذ تُمنح دول أو نخب إقليمية أدوارًا محددة تتجاوز قدراتها الذاتية، مقابل ضمان الحماية السياسية أو الاقتصادية من القوى المهيمنة

الاستعمار الجديد والأدوار الوظيفية

يشير كوامي نكروما، إلى أن الاستعمار الجديد يمثل مرحلة أكثر تعقيدًا من الهيمنة، حيث تُمارَس السيطرة من دون وجود مباشر للقوة المحتلة، عبر أدوات اقتصادية، سياسية، وثقافية. في هذا السياق، يُفهَم مفهوم "الدور الوظيفي" بوصفه أحد تجليات الاستعمار الجديد، إذ تُمنح دول أو نخب إقليمية أدوارًا محددة تتجاوز قدراتها الذاتية، مقابل ضمان الحماية السياسية أو الاقتصادية من القوى المهيمنة. لا تعمل هذه الدول كوكلاء مستقلين، بل كعُقد تنفيذية ضمن شبكة الهيمنة العالمية.

وفي بحثنا هذا سنتطرق إلى مفهوم الهيمنة كما طوّره أنطونيو غرامشي، لا بوصفها قهرًا مباشرًا، بل كقدرة على إنتاج القبول، وإعادة تعريف المفاهيم السياسية (الديمقراطية، الشرعية، الإصلاح) بما يخدم موازين القوة القائمة. وفي هذا الإطار، تتحول الانتخابات، وحقوق الإنسان، وإعادة الإعمار إلى أدوات ضبط لا إلى آليات تحرر. ويستفيد البحث أيضًا من أطروحات إدوارد سعيد حول الاستشراق المعاصر، حيث لا يقتصر التمثيل على الخطاب الثقافي، بل يمتد إلى الإعلام والسياسة، فيُعاد تشكيل صورة المجتمعات "المأزومة" بوصفها عاجزة عن الحكم الذاتي، وتحتاج إلى وصاية خارجية. أما فرانتس فانون، فيُسهم في تفكيك دَور النخب المحلية التي تتماهى مع خطاب المستعمِر، وتتحول من فاعل تحرري محتمل إلى أداة لإعادة إنتاج السيطرة، وهو ما يتيح قراءة أدوار الفاعلين المحليين في سورية ضمن منطق "الوسيط الاستعماري".

توطئة

تعود اتفاقية التجارة العالمية " الجات" إلى عام ١٩٤٧، وقد تم تأسيسها العملي ١٩٩٥ لتنظيم عمل التجارة الدولية في العالَم على وفق المنظور الأمريكي، ناهيك عن الجوانب الثقافية منها، والثورة الهائلة في مجال المواصلات، الإنترنت، التقانة العالية، كل ذلك حول العالم أدى إلى نشوء قرية كونية، يفقد الفردُ فيها الكثير من الحمائية الوطنية: السياسية، الاقتصادية، الثقافية، الأمنية، وتتركه في مواجهة طغيان "العولمة" بكل أبعادها. "الفرد العاري" اليوم يقف من دون إضافات إلى فرديته: الفرد المواطن: بالإشارة إلى الحماية الوطنية، الفرد المدني: باستناده إلى قيم ومفاهيم المجتمع المدني المنتمي له: الفرد الإنسان: بعلاقته الجدلية مع الإرث الإنساني العالمي.

"الحكومة العالمية" اليوم التي تمثل مراكز القوى الإمبريالية العالمية بممثليها الاقتصاديين المباشرين كبديل مباشر وتنفيذي للدولة الوطنية، هي التي تتدخل في أدق تفاصيل الفرد: حياته السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، والهامش الوحيد له من مجال الحريات العامة أو الفردية، هي الحرية الجنسية، وبنماذج مسخه.

الدولة اليوم تتراجع وتختفي معها كل المهام الكلاسيكية لمفهوم الدولة، فالسياسة الدولية تتدخل في أدق التفاصيل الوطنية، والنموذج الأمريكي للعلاقات الاقتصادية هو المفروض على الجميع وبشروط حمائية جمركية عند اللزوم، والثقافة الأمريكية ونمط الحياة الاجتماعية تتغلل عبر المنصات الرقمية لوسائل التواصل الاجتماعي، مما يهدد كل عناصر الثقافة الوطنية.[١]

الهيمنة الأمريكية وسيادة القطب الواحد[٢]

مع سقوط جدار برلين في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر

١٩٨٩ وصولاً إلى ٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١ بانهيار الاتحاد السوفياتي وتفككه، بدأت ملامح الهيمنة الأمريكية وسيادتها تتشكل مع بدايات ترسم طبيعتها وآليات عملها.

شكّلت الاحتلالات العسكرية بعد أحداث ١١أيلول/سبتمبر٢٠٠١ لكل من أفغانستان ٢٠٠١، والعراق ٢٠٠٣، ومن قبلها التدخل العسكري المباشر في الصومال ١٩٩٢، نموذجًا منتميًا إلى أشكال قديمة من الاحتلالات العسكرية المباشرة من الخارج، مقابل النموذج الجديد من "الاستنزاف" من الداخل بالاعتماد على عناصر محلية تقوم بكامل المهام: العسكرية، الاقتصادية، الاجتماعية في عمليات التدمير، بمهام وظيفية محددة.

بالمقابل أعيد تنظيم العلاقة الدولية في ظل الهيمنة الأمريكية برسم الأدوار الوظيفية لكل دولة على حدة، أو محاور إقليمية ودولية، بالكسر الفاضح للحدود الوطنية بقوة الاقتصاد "نجا من عوقب أو من يتعرض لعقوبات اقتصادية بثمن من نوع آخر". وتنظمّت العلاقة العضوية- الوظيفية لأي دولة بغض النظر عن القدرات الاستراتيجية الكلاسيكية لإمكانياتها: الدور الوظيفي لأمارة قطر المالي والإعلامي من خلال قناة الجزيرة كان من العناصر المهمة والمؤثرة في تجربة الربيع العربي. نشر الديمقراطية، محاربة الإرهاب، حقوق الإنسان... انتظمت باعتبارها جوهر الأمن القومي الأمريكي للحق بالتدخل في أي مكان في العالم، الفوضى الخلاقة شكلاً حديثاً من أشكال الاستنزاف الممنهج الذي يمكن أن تخضع له أي حكومة في العالم بدعوى محاربة الإرهاب ونشر الديمقراطية. بالنسبة إلى منطقة الشرق الأوسط تتحدث "وثيقة كامبل بانرمان ١٩٠٥-١٩٠٧" الناتجة عن اجتماع عُقد في لندن بمشاركة[٣]: بريطانيا، فرنسا، هولندا، بلجيكا، إسبانيا، إيطاليا، تقرر منع نقل التكنولوجيا إلى الأمة العربية، وإثارة النزعات بين طوائفها ومكوناتها، وزرع الكيان الصهيوني ليفصل جناحها الأسيوي عن الأفريقي، وكانت الإنجازات العملية المباشرة هي وثيقة ومشروع سايكس-بيكو ١٩١٧.

الفوضى الخلاقة[٤]

في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٤ تتحدث المروريات الصحفية عن لقاء جَمَعَ المستشارة في مكتب الأمن القومي الأمريكي ٢٠٠١-٢٠٠٤ كونداليزا رايس في مكتبها، مع الكاتب اليهودي- الروسي المنشق، والوزير في حكومة شارون: نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي منذ ٧ آذار/ مارس ٢٠٠١-٢٨ شباط/ فبراير ٢٠٠٣ صاحب كتاب "قضية الديمقراطية" ناثان شارا نسكي[٥].

تشيد كونداليزا رايس بالكتاب "قضية الديمقراطية" ودوره في بلوره فهم الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش في سياسته الخارجية.

تحدّث الرئيس بوش في إحدى لقاءاته الصحفية عن أهمية الكتاب، بعد أن منح ميدالية تقييم للكاتب: "إذا رغبتم بفهم سياستي الخارجية حول أهمية نشر الديمقراطية: عليكم بالعودة إلى كتاب "قضية الديمقراطية" للكاتب ناثان شارا نسكي".

شكل الكتاب الأرضية الصلبة لفكرة: الشرق الأوسط الجديد، الفوضى الخلاقة: بالنظر إلى المنطقة باعتبارها منطقة غير متجانسة: دينيًا، أثنيًا، قوميًا، وليس بوصفها دول ذات تاريخ وحضارة، واعتبار الإسلام أحد أهم الشرور التي يواجهها العالَم بوصفه مصدرًا أساسيًا للإرهاب، واعتبار نشر "الديمقراطية" بالقوة هو المدخل الوحيد لتحرير المنطقة من الوباء العالمي الذي تمثله، عبر سياسية "الفوضى الخلاقة" التي ستفتح المسار لتجاوز ما هو حاصل اليوم في انسداد الآفاق التي تمثله تلك الحكومات الاستبدادية الديكتاتورية.

في خطاب الرئيس باراك أوباما في جامعة القاهرة بدعوى من مؤسسه الأزهر ٤ تموز/ يوليو ٢٠٠٩ يعود الرئيس الأمريكي إلى التوصيف ذاته: "العالم الإسلامي"، وليس الدول العربية ذات السيادة الوطنية المتفارقة.

كونداليزا رايس التي تولّت وزارة الخارجية الأمريكية في ٢٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٥ بعد استقالة كولن باول (صاحب نظرية الإملاءات الأمريكية عقب تفجيرات برجَي التجارة العالمي في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ للدول العربية)، أشارت إلى: "ضرورة التحول إلى الفضاء الأمريكي بشروط ما بعد انهيار المعسكر الاشتراكي وسيادة القطب الأمريكي للعالم".

كونداليزا رايس لصحيفة "واشنطن بوست" في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥: "إننا ضالعون في حرب أفكار أكثر مما نحن منخرطون في حرب جيوش".

ومن أهم أهداف حرب الأفكار التي تشنها أمريكا

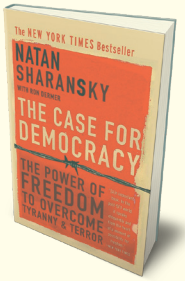

كتابُ "دفاعاً عن الديمقراطية: قوة الحرية في التغلب على الطغيان والإرهاب" (The Case for Democracy) من تأليف ناتان شارانسكي (بالتعاون مع رون ديرمر)، يُعتبرُ أحدَ أكثر الأعمال تأثيراً في مجال العلوم السياسية خلال العقود الأخيرة. وهذا الكتابُ قد اكتسبَ شهرةً عالمية واسعة، لا سيما بعد أن أهداه ناتان شارانسكي لجورج دبليو بوش، الذي قام بدوره بالتوصية بقراءته للجميع.

على أعدائها هو خلق حلفاء لها من داخل جسم أعدائها ويحملون نفس أفكارها وأهدافها، إذ يعملون على تحقيقها بالنيابة عنها، فتكون معركة أعداء أمريكا ليس مع أمريكا، بل مع من جنّدتهم لخدمة مصالحها وغسلت أدمغتهم، أم بالإعلام أو المال. هنا يدخل عدو أمريكا في معركة جزء منها تأمرك بالتدمير الذاتي في محاولة استئصال بأفكار أمريكا وأهدافها، ومن ثم يغدو مساقًا بإعلامها ومقادًا بأفكارها ولتنفيذ أجندتها. فقد نجحت أمريكا والقوى المتصهينة بأسلحتها الناعمة في محاولة تدمير عدة بلاد عربية تشكّل خطرًا جيوسياسي وعسكري على "إسرائيل"، وهي نفس النتيجة التي حققتها أمريكا في العراق، ولكن بتكلفة بشرية ومادية باهظة، ولولا الإعلام الذي نشر الفتنةَ في العراق كقناة الجزيرة لخرجت أمريكا بهزيمة عسكرية مذلة.

> أما فرانتس فانون، فيُسهم في تفكيك دَور النخب المحلية التي تتماهى مع خطاب المستعمِر، وتتحول من فاعل تحرري محتمل إلى أداة لإعادة إنتاج السيطرة، وهو ما يتيح قراءة أدوار الفاعلين المحليين في سورية ضمن منطق "الوسيط الاستعماري"

مايكل ليدن -المنظر الأبرز لنظرية الفوضى الخلاقة- يجد في "التدمير الخلاق" الصفة الجوهرية والمركزية للسياسات الأمريكية الخارجية[٦].
توماس بارنيت، الباحث الاستراتيجي في الأمن العالمي، صاحب كتاب: الحرب والسلم في القرن الواحد والعشرين، يقسم العالم إلى قسمين بحسب السياسة الخاصة بالبنتاغون الأمريكي: "دول القلب أو المركز": أمريكا وحلفاءها، و"دول الثقب أو الفجوة": كل دول العالم الأخرى[٧].
تمحورت السياسة الخارجية الأمريكية حول نموذجين: تغيير الأنظمة المارقة من الخارج وبالقوة، والتغيير المتدرج من الداخل. فيما يؤكد عليه ريتشارد هاس مدير التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية في فترة كولن باول، عبر كتابيه "الشريف المعارض"، "أمريكا الإمبراطورية"[٨].

وجدت الولايات المتحدة الأمريكية بالتنسيق والاستشارة مع المخابرات البريطانية، (وهي الأكثر خبرة ودراية في استعمار المنطقة العربية)، وجدت في الإسلام السياسي (الإخوان المسلمين الحليف التاريخي لبريطانيا) فرصةً تاريخية لإعادة تشكيل العالم العربي على وفق نظرية "الفوضى الخلاقة" بعد تجربة سابقة مع "المجاهدين العرب: تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن في التجربة الأفغانية إبان التدخل الروسي هناك. فيما تشكّلت تجربة الإسلام السياسي في تركية بقيادة نجم الدين أربكان: الأب المؤسس للإسلام السياسي التركي، بتوجهاته البرغماتية والمتعايش مع دستور علماني بحماية المؤسسة العسكرية التركية.
في حزيران/ يونيو ١٩٩٦ شكل نجم الدين أربكان مع حليفته تانسو شيلا "الحزب القويم" أول حكومة إسلامية في تركية.
رجب طيب أردوغان وعبد الله غل، تلامذة نجم الدين أربكان، استطاعا الوصول إلى السلطة في تركية: ٢٠٠٣: أردوغان إلى منصب رئيس الوزراء، ثم رئيسًا لتركيّة منذ ٢٠١٤ ولغايته اليوم. بينما حصل عبد الله غل على منصب رئيس الجمهورية في ٢٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٧ لغاية ٢٠١٤ ليتسلم الموقع رفيقه رجب طيب أردوغان.
في عام ١٩٩١ في مؤتمر مدريد للسلام بين العرب والكيان الصهيوني طرح مفهوم "الدولة اليهودية" كبديل عن دولة "إسرائيل"، حيث تجددت المحاولة لوضع قانون "في ظل غياب دستور للكيان الصهيوني: ينص على اعتبار "إسرائيل" دولة لليهود. في عام ٢٠١١ لم ينل المشروع الأغلبية التي تطمح إليها قوى اليمين الإسرائيلي، وفي عام ٢٠١٨ نال القرار بعد العديد من التعديلات أغلبية ٦٢ مقابل معارضة ٥٥ وامتناع ٢ صوتين عن التصويت.
مع انتصار الثورة الإيرانية على حكم الشاه محمدرضا بهلوي في ١ شباط/فبراير ١٩٧٩، وبوصول حزب العدالة والتنمية بزعامة رجب طيب أردوغان في ٢٠٠٣، والحركة الوهابية منذ عام ١٩٣٢، والدولة اليهودية في فلسطين المحتلة، باتت القوى الإقليمية الأربع الأكثر نفوذًا في منطقة الشرق الأوسط دولًا بمرجعيات دينية وذات توجهات مذهبية متباينة.
شكّلت أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ ارتفاعًا

لمنسوب الحركات الدينية عمومًا: اليمين المحافظ في الولايات المتحدة الأمريكية، الإسلام الجهادي السلفي بمكوناته المتعددة أبرزها تنظيم القاعدة، اليمين المتطرف اليهودي... ومع تراجع التيار القومي، الاشتراكي، الوحدوي، وتقدّم الإسلام السياسي: الإخوان المسلمين، وهو الرحم الموازي للوهابية في تجربة الإسلام السياسي، ووضع الإسلام السياسي" السني" موضع العدو والخصم الأكثر ترهيبًا في المنطقة، بل وفي العالم.

الربيع العربي

شكّلت تجربة الربيع العربي بمآلتها التجربة الأكثر وضوحًا للإسلام السياسي، بالرغم من الزخم الشعبي المباشر بالرفض الكامل للنظام العربي الرسمي بعمومه: التقدمي، الجمهوري، الملكي، بما مثّله من حالة استبداد وتعسف وغياب شامل للتنمية، وحالة استعصاء في عملية الانتقال للسلطة داخل الأنظمة الجمهورية، إلا عبر نظام التوريث الذي ابتدعه الأسد، وثابر عليه العديد من



نائب رئيس الولايات المتحدة ريتشارد نيكسون (على اليسار)، ورئيس الوزراء الغاني كوامي نكروما، والجنرال ماكسويل تايلور (على اليمين) يقفون لالتقاط صورة على درج "بلير هاوس" (Blair House) في واشنطن العاصمة، ٢٣ يوليو ١٩٥٨.
• المصدر: الأرشيف الوطني، واشنطن العاصمة.

القادة العرب، أو الانقلاب وخلع الأمير أو السلطان في الأنظمة الوراثية.
في تونس تصدرت تجربة حركة النهضة برئاسة الغنوشي المشهد السياسي قبل أن يتم الانقلاب الدستوري عليها من قبل محمد بن سعيد في ٢٥ تموز/يوليو ٢٠٢١ منهيًا بذلك تجربة الإخوان المسلمين "حركة النهضة" في تونس.

> "الحكومة العالمية" اليوم التي تمثل مراكز القوى الإمبريالية العالمية بممثليها الاقتصاديين المباشرين كبديل مباشر وتنفيذي للدولة الوطنية، هي التي تتدخل في أدق تفاصيل الفرد

وفي ليبيا فإنها ما تزال تعاني من التداخلات الخارجية: دعم تركية لحكومة طرابلس- الإسلامية التوجّه، مقابل دعم غربي لحكومة بنغازي المقبولة أكثر من بعض الأطراف الدولية بتوجهاتها المنفتحة تجاه الغرب.
استطاعت المؤسسة العسكرية المصرية الانقلاب على حكومة محمد مرسي بعد عام واحد في الحكم مع احتجاجات ٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠١٣، واعتقال الرئيس المنتخب محمد مرسي ٣ تموز/ يوليو ٢٠١٣، منهية بذلك تجربة الإخوان المسلمين في مصر.

التجربة السورية

سبقت أحداث ١٨ آذار/مارس ٢٠١١ في سوريّة، مواجهةٌ دموية مبكّرة بين نظام حافظ الأسد وحركة الإخوان المسلمين/ الطليعة المقاتلة. في عام ١٩٧٩، متزامنة على المستوى الإقليمي بزيارة السادات إلى القدس، ولتفارق أيديولوجي- فقهي/ ديني بين حزب البعث والإخوان، مع شبهات طائفية لطبيعة نظام الأسد.
في ١٦حزيران/يونيو ١٩٧٩ حدثت مجزرة المدفعية، وامتدت لغايه ١٩٨٤، رافقها تدمير لمدينة حماه، حلب... والكثير من الدماء والانتهاكات من الطرفين، أفضت إلى انتصار عسكري للأسد، وخروج تنظيم الإخوان المسلمين من سورية بسطوة قانون ٤٩ الذي نصّ على حكم الإعدام على منتسبي الجماعة.
في ٩ نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ شكّل سقوط بغداد لحظة فاصلة في تاريخ الشرق الأوسط، وسورية على وجهه الخصوص.
في ١٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٠ توفي الرئيس السوري حافظ الأسد، ليرثه ابنه بشار الأسد في ١٠ تموز/ يوليو بذات العام، بعد تعديل دستوري: خفض عمر الرئيس ل ٣٤ ليتناسب مع الوريث الابن، وعاشت سورية حالة من القلق والتوجس في تنازع مراكز القوى داخل السلطة، وتراجع الحركة الاحتجاجية للمعارضة السورية التي بدأت مع حركة المنتديات في المدن الكبرى: دمشق، حلب، حمص...بعد أن تم إغلاقهم جميعًا بقرار أمني متوقع.
في ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٥ فجرت عبوة ناسف بزنة أكثر من ١٠٠٠ كغ موكب رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري أدت إلى وفاته مع ٢١ من مرافقيه، شكل على إثرها لجنة تحقيق دولية بقيادة ديتلف مليس في ٧ نيسان/ أبريل من العام نفسه، كان قد سبقتها ضغوطات دولية أفضت إلى خروج الجيش السوري من لبنان بتاريخ ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥ بعد ٣٠ عامًا من الوصاية.
في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥ أجمعت لأول مره كافة القوى السياسية السورية المعارضة على خارطة طريق تحت عنوان "إعلان دمشق" ترسم ملامح الانتقال الديمقراطي المنشود في سوريّة، أعقبته حملة اعتقالات طالت العديد من الرموز والشخصيات الوطنية الموقعة على ذلك الإعلان. عشرة مناضلين أمضوا سنوات عديدة في المعتقل.
في ٢١ تموز/يوليو ٢٠٠٦ شنّت القوات "الإسرائيلية" حربًا على لبنان/ حزب الله، استمرت ٣٤ يومًا بدعوى تحرير مختطفين لدى حزب الله مقابل الإفراج عن معتقلين لدى "إسرائيل". شهدت تلك الحرب انقسامًا عربيًا، دفع بالنظام السوري إلى تشديد خطابه ضد الأنظمة الدائرة في فلك المشروع الأمريكي/ الصهيوني مما دفع بالتعزيز من عزلته العربية. أفضى ذلك وبدفع من النظام التركي الذي احتضن تنظيم جماعة الإخوان المسلمين إلى تهدئة خطابهم المعادي للنظام السوري كمحاولة فاشله للتقرب منه.
مَثَّلَ الاحتلالُ الأمريكي للعراق حالةً من التوتر والقلق لدى النظام والشارع السوري، مما حدا بالنظام إلى فتح حدوده لاستقبال الجهاديين من كل

أنحاء العالم، وذلك للمزيد من التورط الأمريكي في الرمال العراقية. وقد تحولت سورية إلى بلد مرور لكل الجماعات الجهادية العالمية.

مَثَّلَ الاحتلال الأمريكي المباشر للعراق النموذج الأشرس للسياسية الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط، ففي سجن "بوكا" الذي تشرف عليه المخابرات الأمريكية ولدت الخلية الأولى لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق/ الشام- داعش، التي تعتبر النموذج الأشد عنفًا من تجربة القاعدة.

الثورة/ الانتفاضة السورية

تحدثت تقارير استخباراتية/ بحثية غير موثوقة عن محاولات مسبقة للضغط والتغيير في سياسة النظام السوري-الأسد لتغيير سياساته/ تحالفاته الإقليمية والدولية منذ ٢٠٠٧ عقب اغتيال الحريري، لجنة التحقيق الدولية بعد الخروج العسكري السوري من لبنان. لكن تلك المحاولات تحققت مع تجربة الربيع العربي، إلى درجة الإطاحة به.

"جاك الدور يا دكتور"! كلمات خطّتها أصابع



رئيس غانا كوامي نكروما في بودابست، ٢٨ يوليو ١٩٦١.

أطفال درعا على جدار المدرسة، أفلتت الوحش الدموي للنظام السوري على أبشع هيئة: اعتقال الأطفال، و إهانة ذويهم، وتعذيب، و إذلال، وحصار لمدينة درعا، وثم "بيان الحليب"، وتدخل الجيش والأجهزة الأمنية بكامل المدينة واستباحة مراكزها الدينية "جامع العمري" وبيوت الأهالي والسكان المدنيين...

جاءت "الفزعة" من كامل جبل حوران لنجدة الأهالي والسكان العزّل، مما زاد من توحش النظام السوري و إمعانه بالمزيد من القتل المباشر بإطلاق النار على السكان المدنيين، والخلايا النائمة لتنظيمات إسلامية كانت قد تسللت مسبقًا إلى المنطقة ومجهزة بإمكانات عسكرية متواضعة لحينه.

في سوق الحريقة بدمشق في ٢٠ آذار/مارس هتف العديد من الشبان بشعارات مناوئة للنظام عقب تعديات من رجال الأمن.

في حمص بدأ الحراك الشعبي بالتجمع في ساحة الساعة، أعقبته مظاهرات ليلية، قوبلت بإطلاق النار الحي والمباشر.

> في ظل الهيمنة الأمريكية، أعيد تنظيم العلاقات الدولية بأدوار وظيفية تُفرض على الدول، مع استخدام مفاهيم مثل "مكافحة الإرهاب" و"نشر الديمقراطية" كأدوات للتدخل و إعادة التشكيل عبر "الفوضى الخلاقة"

حماة، حلب، طرطوس، إدلب..... انتقلت شرارةُ النار في الهشيم السوري، بضغط مباشر من الخيار الأمني العسكري الذي ذهب إليه النظام مبكرًا، بعد أن تلقفته/ ربما كانت مجهزة له أصلاً/ أطراف من الحراك الشعبي، وبالتدخل الإقليمي والدولي المبكر في الملفات السورية المتنوعة: التسليح، الإعلام، التمويل...بدا المشهد السوري بلا قرار.

آليات الاستنزاف الغربي تجاه سورية ما قبل٢٠١١:

عقوبات أمريكية مبكرة في ٢٠٠٤ بذريعة محاربة الإرهاب، تضمنت العقوبات حظر استيراد النفط وتجميد أصول وعزل مالي ونقدي عن النظام المالي العالمي.

حصار سياسي ودبلوماسي: سحب السفراء الغربيين من دمشق بعد اغتيال الحريري ٢٠٠٥.

في مرحلة الحرب ٢٠١١: حرب اقتصادية شاملة، تجميد الأصول السورية (١٠٠ مليار دولار).

حظر الطاقة والنفط: خسارة٩٠٪ من إنتاج النفط.

دعم المعارضة المسلحة والممولة خارجيًا: قطر، تركية.

الحرب الإعلامية والنفسية المنحازة والمضللة: قناة الجزيرة، نشر الإشاعات لتفكيك النسيج الاجتماعي.

الكارثة الإنسانية: تدمير النظام الصحي، هجرة ٧٠٪ من الكوادر الطبية، تدمير ٧٥٪ من المدارس والمستشفيات والطرق.

انهيار اقتصادي: خسارة٩٠٪ من قيمة العملة السورية، تدمير ٨٠٪ من القطاع الصناعي.

تفتيت النسيج الاجتماعي: تأجيج الصراعات الإثنية والطائفية، تدمير التراث الثقافي، خلق هويات متصارعة بدلاً عن الهوية الوطنية.

الدور الوظيفي القطري - البرجوازية الكومبرادورية (الإعلام - المال - حماية المعارضة)[٩]

العلاقة السورية- القطرية

مع التأكيد الجازم على الدور الوظيفي القطري بالنسبة لمراكز القرار العالمي، وبالتحديد للولايات المتحدة الأمريكية ودورها في المنطقة العربية، تتخذ الإمارة القطرية بمساحة (١١٥٨١) كم مربع ، وبعدد سكان (٢,٥) مليون نسمة حجمًا ونفوذا يفوق قدراتها الحقيقية. لكن "الدور الوظيفي" هو ما يمنحها هذا الدور العملاق من خلال: الدور الإعلامي لقناة الجزيرة، والتوظيف السياسي لقدراتها المالية، مقابل الحماية الأمريكية لها و إعطائها الشرعية التي تفتقدها.

أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين سورية وقطر في ٩ كانون الثاني/يناير ١٩٧٢. في ١٩٩٥ انحاز الرئيس حافظ الأسد إلى المملكة العربية السعودية عندما أطاح أمير قطر حمد بن خليفة آل ثاني بوالده خليفة بن حمد آل ثاني بانقلاب أبيض.

في عام ٢٠٠٣ زار بشار الأسد الدوحة وبدأ علاقات اقتصادية وتجارية واستثمارية بين البلدين، والتعاون الإقليمي مع تركية لحل النزاع حول الملف النووي الإيراني، ودعم الموقف السوري

من دعم المقاومة اللبنانية والفلسطينية، مقابل دعم سورية لقطر من مناطق النزاع مع البحرين قبل ذلك.
زادت وتيرة التعاون البيني بين سورية وقطر ٢٠٠٧ لتصل إلى ١٣ اتفاقية في مختلف القطاعات:
البنك القطري السوري برأسمال ١٠٠ مليون دولار، شركة الديار القطرية السياحية في الساحل السوري بتكلفة تجاوزت ٢٠٠ مليون دولار، الشركة القابضة السورية القطرية، المصرف الإسلامي الدولي بقيمة ٥ مليار ليرة سورية.

العلاقات السورية التركية

في ٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨خرج عبد الله أوجلان زعيم حزب العمال الكردستاني من سورية بعد إقامة دامت ١٨ عامًا، عقب الانقلاب العسكري للجنرال كنعان إيفرين ١٩٨٠في تركية.
يروي نائب الرئيس السوري حافظ الأسد عبد الحليم خدام في مذكراته اللحظات الأخيرة لقرار خروج آبو/ عبد الله اوجلان: "كان قرار خروج سورية التي دمعت له عيناه".
الرئيس التركي التاسع سليمان ديميريل ١٩٩٣-٢٠٠٠ بزعامة الحزب القويم لم يجد مخرجًا لضربات حزب العمال الكردستاني ونشاطه العسكري سوى حشد أكثر من ١٠،٠٠٠ جندي تركي على الحدود تجاه سورية، إضافة إلى الخلافات الشديدة حول تقاسم المياه/ الفرات والسدود السطحية العديدة التي أقامتها تركية.
أدرك الرئيس السوري حافظ الأسد خطورة الأمر، لعدم قدرته على المواجهة من جهة، ولنكرانه الدائم بوجود أوجلان في سورية، ولذا طلب الوساطة المصرية التي أفضت إلى خروج أوجلان من سورية، وتوقيع اتفاق أضنه في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨ التي نصت على العديد من البنود المعلنة والسرية. لكن أبرزها الفقرة الثالثة: اعتبارًا من الآن يعتبر الطرفان أن الخلافات الحدودية بينهما منتهية، وأن أي منهما ليست

كان الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي في بتروغراد لحضور احتفالات الذكرى الخامسة للثورة الروسية، وأدلى بأولى تعليقاته على صعود الفاشية في إيطاليا من روسيا السوفيتية.
● المصور: لاسكي ديفيوجن.



له مطالب أو حقوق مستحقة في أراضي الطرف الآخر، بالإشارة الضمنية إلى لواء إسكندريون المغتصب ١٩٣٩، بالرغم من استمرار الدولة السورية بالمطالبة الدولية باللواء السليب عبر الأمم المتحدة.
الفقرة الرابعة: يفهم الجانب السوري أن إخفاقه في إنجاز التدابير والواجبات الأمنية المنصوص عليها في هذا الاتفاق يعطي تركية الحق في اتخاذ جميع الإجراءات الأمنية اللازمة داخل الأراضي السورية حتى عمق ٥ كيلومترات، وهو ما يتم المطالبة اليوم بتعديله إلى ٣٠-٣٥ كيلومتر.

> نجحت الولايات المتحدة في شن "حرب أفكار" تستهدف خلق حلفاء من داخل أجسام أعدائها، حيث يعمل هؤلاء الحلفاء على تحقيق الأجندة الأمريكية بالنيابة عنها، باستخدام أدوات الإعلام والتمويل لنشر الفتنة وتوجيه الصراع نحو التدمير الذاتي، كما حدث في العراق

الجغرافية والتاريخ إضافة لعديد العناصر هي ما حكم العلاقة بين تركية وسورية بغض النظر عن النظام السياسي وشكل الدولة:
مثّلت بلاد الشام، (العالم القديم) بمحيطها الشامل مركز العالم القديم ومحط الأنظار لكل الطامحين بالتوسع والسيطرة، مقابل هضبة الأناضول ودورها كممر لتحقيق ذلك: الإسكندر المقدوني، هولاكو، تيمورلنك، الحروب الصليبية، الفتوحات العربية، الاحتلال العثماني، الاحتلالات البريطانية- الفرنسية...
ليس من الصدفة اعتبار سورية/ بلاد الشام، مفتاح آسيا، باعتبار موقعها الجغرافي كعقدة وصل بين ثلاث قارت: آسيا، إفريقيا، وأوروبا، فمن يملك سورية يملك مفاتيح السيطرة والنفوذ التي يطمح لها كل من يرغب ويطمح بذلك.
لقد كان "حكم الجيرة" بمثابة الغضب السماوي الذي فرض نفسه على سورية تجاه تركية وبمسببات وذرائع متنوعة ومختلفة بحسب التاريخ والحدث: المياه، الكرد، الأمن، الحدود، الاقتصاد، "إسرائيل"، الدين، القومية...

أردوغان- بشار الأسد

يعتبر "رجب طيب اردوغان"- مواليد ٢٦ فبراير ١٩٥٤- الابن الشرعي لتجربة الإسلام السياسي للرئيس نجم الدين أربكان، إذ انضم إلى حزب الخلاص الوطني في السبعينات من القرن الماضي، وتولى موقع عمدة إسطنبول في ١٩٩٤ مع حزب الرفاه الإسلامي، ٢٠٠١، وقد أسس مع رفيقه من حزب الفضيلة- نجم الدين أربكان-عبد الله غول حزب العدالة والتنمية.
وفي عام ٢٠٠٢ فاز حزب العدالة والتنمية بالانتخابات التشريعية بأغلبية ساحقة، (٢٦٣ نائب) ليتولى عبد الله غول رئاسة الحكومة بسبب حكم قضائي سابق بحق أردوغان ١٩٩٨.
في آذار/ مارس ٢٠٠٣ تمكن أردوغان من رئاسة الوزراء بعد إسقاط التهم عنه، مؤسسًا بذلك مرحلة سياسية طويلة كرئيس للوزراء. وفي ٢٠١٤ رئيسًا لتركية بعد تغيير جوهري في صلاحيات رئيس الوزراء لصالح الرئيس، وهو مازال في ذات المنصب.
أما بشار الأسد فقد ورث من أبيه في ١٠تموز/ يوليو ٢٠٠٠ نظامًا مترهلاً ومشتتًا بمراكز قوى برزت بشكل فاضح خلال مرض حافظ الأسد الطويلة، فبشار اغير المؤهل لسلطة فردية متمرسة قاد خلف حماية أمنية-عسكرية نموذجًا لنظام مستبد وفاشل داخليًا، مقابل تحالف إقليمي "حلف المقاومة" بمواجهة محور أمريكي/ إسرائيلي بعنوان: المذهب الإبراهيمي كغطاء أيديولوجي للمشروع الأمريكي-الإسرائيلي وحلفاءه الإقليمين.
مثّل النظام التركي/ أردوغان استمرارًا لتاريخ السلطة التركية في تحالفها مع الولايات المتحدة، بل زاد ذلك بتطوير العلاقة مع "الكيان الإسرائيلي"، وتوطد الدور الوظيفي لتركية فيما يتعلق بسورية فيما بعد.
في عملية احتلال القوات الأمريكية للعراق تم التسهيل اللوجستي التركي، من دون الإعلان المباشر عن ذلك، وكان قد سبق ذلك شراكة بريطانية/ أمريكية تركية لتسويق النموذج التركي: نظام إسلامي "إخواني" دستوري بحماية المؤسسة العسكرية، مقابل النماذج المترهلة والمأزومة للنظام العربي ككل.

كانت عبارة "أخي الصغير" التعبير الملطف بين بشار الأسد وأردوغان في نظم العلاقة: الأمنية، الاقتصادية، السياسية بين النظامين، وفتح الباب واسعًا للتدخل التركي في الاقتصاد السوري، ومن دون الحماية الجمركية الغائبة بقرار سياسي، وتحت عنوان "الأخوة العربية- التركية" بات الحضور التركي بعناوين مفبركة تغزو الشارع والمزاج السوري، وبات النظام التركي على أبواب التدخل السياسي- السيادي السوري من خلال الوساطة بين تنظيم الإخوان المسلمين والنظام السوري.

إن قضايا من قبيل الملف الكردي، المياه، الأمن والحدود، العمق الاستراتيجي الاقتصادي لم تكن سوى المبررات التي تخفت ورائها المصالح التركية في سورية. وللعلم كان التدخل التركي في جزيرة قبرص، ليبيا، أذربيجان... يتم تحت عناوين أخرى. أما القضية الكردية (أتراك الجبال- وهي التسمية التركية للأكراد) فهي قضية تركية أولاً، قبل جيرانها: سورية، العراق، إيران، بحكم العدد والفاعلية، وغياب

تأسست الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارة (GATT) في عام ١٩٤٧، حيث وقعت عليها ٢٣ دولة في "قصر الأمم" بجنيف. وقد عملت اتفاقية "الجات" على تعزيز التجارة الدولية الحرة و إزالة العوائق التجارية.



الحقوق الكاملة للكرد مقارنة بدول الجوار.
وقضية المياه وتوزيع الحصص بين البلدان الثلاث: تركية، سورية، العراق لم تكن أكثر من ورقة ضغط ومساومة اقتصادية/سياسية لأجندات تركية مباشرة "النفط مقابل المياه"، بالرغم من التوصيات والقرارات الدولية في هذا الخصوص.
يجد الاقتصاد التركي/الإنتاج التركي ضالته في السوق الشرق أوسطية ومحيطها، مقابل السوق الأوروبية العالية التقانة، وبالتالي تُعتبر السوق السورية المدخل والممر الأولي تجاه دول الخليج ومحيطها الآسيوي، يضاف لذلك انسداد الأفق أمام النظام التركي بتركيبته السياسية ذات الخلفية الدينية أمام السوق/الاتحاد الأوروبي، مما دفع بالنظام التركي إلى الاستدارة جنوبًا كمعوض رئيسي وأساسي لنفوذه الإقليمي.
بالطبع يضاف لما ذكر: التسويق الأيديولوجي- الإخواني في مواجهة "الوهابية، الشيعية، واليهودية الأرثوذكسية"، كمراكز أيديولوجية للقوى الإقليمية الأربع.

> تمحورت السياسة الخارجية الأمريكية حول نموذجين: تغيير الأنظمة المارقة من الخارج وبالقوة، والتغيير المتدرج من الداخل

الربيع العربي وتركية

شكلت أحداث الربيع الفرصة التاريخية للنظام التركي في تمدد نفوذها الإقليمي ورسم حدود الأمن القومي التركي بدأ من اليمن جنوبًا وصولاً إلى أذربيجان: حاضنة الحضور القومي المشترك: تركي/ آذري: وباتت تركية بعد سنة من أحداث الربيع العربي حاضرة بفعالية وقوة ونفوذ في ثلاث عواصم عربية: تونس، طرابلس- ليبيا، القاهرة، من خلال سيطرة تنظيم الإخوان المسلمين عليها، مما زاد من الشهية المتدفقة نحو دمشق.

الاحتلال التركي غير المعلن (القواعد - الخدمات - العملة)[١٠]

تؤكد الوقائع الميدانية لتأسيس تركية لمخيمات اللجوء التي ستضم لاحقًا السوريين المهجرين من أراضيهم باتجاه تركية، التهليل الذي رافق تصريح أحمد داوود أوغلو وزير الخارجية التركي السابق صاحب نظرية: "صفر مشاكل مع الجيران" وهو يقول: أهل الشام الشريف ضيوف على إخوتهم في تركية، متجاهلاً الوضع القانوني للاجئ السوري، الذي سيتحول إلى حالة عبئ وطني/ اقتصادي تركي بعد تزايد أعداد المهاجرين، بالرغم من منح الجنسية التركية بشروط سياسية- اقتصادية لكل من تعامل مع السلطات التركية بإخلاص وأمانة، من جهة أخرى حالة ابتزاز سياسي-اقتصادي لدول الاتحاد الأوروبي من خلال فتح الحدود التركية للاجئين تجاه أوروبا.
الجدير ذكره اعتبار أزمة اللاجئين السوريين واحدة من أهم أزمات النزوح على مستوى العالم، فعلى وفق آخر الأرقام بلغ عدد سكان سورية (٢٣,٨٧) مليون نسمة في كانون الثاني/ يناير ٢٠٢٤، في حين بلغ عدد اللاجئين السوريين (٦,٣)مليون لاجئ في أنحاء العالم: تركية ٣,١مليون، لبنان ٧٧٤٠٠٠- ١,٥ مليون من غير المسجلين، ألمانيا ٧١٦٠٠٠، الأردن ٦٤٩٠٠٠، العراق (٢٤٧٠٠٠)، السويد ٨١٧٠٢، النمسا ١١٢٩٢٨، باقي دول العالم ٤٧٤٦٩٥.
فيما بلغ عدد النازحين داخليًا في سورية ٧,٢ مليون شخص، مما يعادل ٣٠,٢٦٪ من عدد سكان سورية، مع خطر وجود ٢ مليون طفل لاجئ خارج العملية التعليمية.
وقد أكدت وزارة الخارجية الأمريكية في تقريرها (في ٢ حزيران/ يونيو ٢٠١٦) المستند إلى رأي استخباراتي وجود أكثر من ٤٠,٠٠٠ مقاتل أجنبي في سورية، في حين قدرت وزارة الدفاع الروسية بتاريخ مماثل بوجود ٢٥,٠٠٠- ٣٠,٠٠٠ من المقاتلين الأجانب اللذين يقاتلون إلى جانب داعش وحدها.
بحسب تقرير لمعهد واشنطن استقطب "تنظيم الدولة الإسلامية- داعش" بين ٢٠١٣-٢٠١٩ ما يقدر ٥٣ ألف مقاتل للقتال في صفوفه، تم انتقال اغلبهم إلى تنظيم جبهة النصرة- هيئة تحرير الشام. وينتمي هؤلاء إلى العديد من الدول العربية: تونس، السعودية، الأردن، المغرب، ليبيا، وأوروبية: فرنسا، ألمانيا، بلجيكا، هولندا، روسيا، تركية، الصين، أفغانستان.
فيما أشار المعهد العالمي للإرهاب في تقريره ٢٠١٩ إلى أن الحدود التركية هي التي دخل عن طريقها معظم الجهاديين إلى سورية من أكثر من مئة دولة

من العالم.
في شهر آب/أغسطس ٢٠١٦ نفذت تركية عملية "درع الفرات"، حيث انتشرت النقاط والقواعد العسكرية التركية غربي حلب، وريفي إدلب وحماة، ووصل وقتها عددها إلى ١٢٩ قاعدة نقطة عسكرية مع أواخر ٢٠٢٢، حيث تنتشر القوات التركية في محافظات: الحسكة، الرقة، حلب، إدلب، اللاذقية، حماة.
وفي ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠١٨ أعلنت تركية شن هجمات جوية تمهيدًا لاحتلال مدينة عفرين شمال حلب، تحت عنوان "غصن الزيتون". وفي ٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٩ توسعت القوات التركية في شرق-شمال سورية في المناطق الخاضعة لقوات سورية الديمقراطية بمشاركة من العديد من الفصائل العسكرية السورية تحت عنوان "عملية نبع السلام".
إلى جانب الحضور العسكري المباشر سعت تركية إلى ربط المناطق السورية المحتلة منذ ٢٠١٧ إلى ربطها إلى شبكة من الخدمات كالكهرباء، والماء، والطرق، والتعليم، والقطاع الطبي، والقطاع الزراعي، والعملة، من خلال الشركات التركية باستثمارات وصلت إلى أكثر من مليار دولار خلال السنوات الخمس الأخيرة، كمقدمة لدورها المأمول في عملية إعادة البناء فيالأزمة لسورية في المرحلة القادمة.

القضية الكردية في سورية

كل العمليات العسكرية التركية جاءت بمساهمة مباشرة من القوات العسكرية التركية وبغطاء من الفصائل المعارضة المسلحة التي تدور بفلكها: الجيش الوطني، الحمزات، العمشات...لمواجهة ما تسميه "لمجموعات الإرهابية" في إشارة إلى "حزب العمال الكردستاني"أو حزب الاتحاد الديمقراطي (التسمية السورية) وما نشأ عنها من تنظيمات عسكرية- سياسية: وحدات حماية الشعب، قوات سورية الديمقراطية. علمًا أنها مدعومة وشريكة

حفل "الجدار" التاريخي
لروجر ووترز أقيم هذا العرض الرمزي في يوليو ١٩٩٠ (بعد فترة وجيزة من سقوط جدار برلين) في ساحة "بوتسدامر بلاتز". وبفضل اختيار مكانه الذي كان يُعرف سابقاً بـ "نطاق الموت" بين الألمانيتين، تحول هذا الحدث الذي نظمته فرقة بينك فلويد إلى واحد من أكثر احتفالات الوحدة خلوداً في تاريخ الموسيقى.



مع التحالف الدولي لمكافحة الإرهاب- داعش.

التعنت السوري/ بشار الأسد

شكّلت عملية طوفان الأقصى (٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٢٣) حالة نوعية في منطقة الشرق الأوسط، خصوصًا بلاد الشام، إذ دفعت بالقوى الرأسمالية العالمية بزعامة الولايات المتحدة إلى تغيير الخريطة السياسية في بلاد الشام: سورية، لبنان، فلسطين والأردن: وربما تؤدي إلى تغيير أوسع كما يشير رئيس الوزراء "الإسرائيلي" نتنياهو إلى خريطة تتحدث عن "إسرائيل" الكبرى.

بالمحصلة كان التوجه الأمريكي باتجاه تغيير موازين القوى على الأرض: ضرب بنية المقاومة الفلسطينية/ حماس، حزب الله، النظام السوري، باتجاه تحجيم النفوذ الإيراني الداعم لمواجهة الكيان الصهيوني.

> في عام ١٩٩١، طرح مؤتمر مدريد مفهوم "الدولة اليهودية" كبديل عن "إسرائيل"، وتم إقرار قانون أساسي عام ٢٠١٨ يعرف إسرائيل كدولة قومية للشعب اليهودي

هذه الخلفية العامة دفعت بالعديد من القوى العربية والدولية بالضغط على النظام السوري باتجاه تعديل وجهة تحالفاته الإقليمية والدولية، لكن الشروط التي كانت مطروحة على بشار الأسد كانت تعني" الموت السياسي" من خلال العروض الخليجية، بل وحتى الروسية بالتفاهم مع النظام التركي- الحليف الاستراتيجي لـ"إسرائيل" والولايات المتحدة.

هروب بشار الأسد

تشير السيناريوهات المتخيلة وغير المؤكدة إلى عملية استخباراتية محلية- إقليمية- دولية أفضت إلى يوم ٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٤، إذ تبخّر النظام السوري بقياداته السياسية، العسكرية، الجيش، الأجهزة الأمنية، الدولة ككل، بطريقة لا يمكن فهمها وتفسيرها وفق المنظور السياسي/ العسكري.

من المؤكد أن القرار بالتخلص من بشار الأسد، وليس النظام السوري الديكتاتوري الذي يعاد إنتاجه اليوم بلبوس وتقنية جديدة، كان قد تم بين اللاعبين الإقليميين والدوليين، حتى الحلفاء منهم للنظام، باعتباره لم يعد صالحًا لطبيعة المرحلة القادمة: النفوذ "الإسرائيلي" التام برعاية أمريكية مباشرة.

أبو محمد الجولاني (التحول - القبول الدولي)[١١]

في عام ٢٠٠٣ وبعمر ٢١ سنة، سافر أبو محمد الجولاني إلى العراق بدعوى محاربة الاحتلال الأمريكي هناك بتسهيلات أمنية سورية.

كانت التنظيمات الجهادية قد وجدت لها موطئ قدم في العراق في أثناء الحصار الاقتصادي المديد، وهي ما شكلت واحدة من التهم لنظام صدام حسين فيما بعد.

لقد كان الأردني أبو مصعب الزرقاوي، ممثل تنظيم القاعدة، صاحب الاسم الأبرز الذي تم تصفيته في عام ٢٠٠٦؛ وهو تاريخ اعتقال أبو محمد الجولاني "أبرز مساعدي الزرقاوي" في سجن بوكا، حيث ولد تنظيم داعش بزعامة البغدادي مع شركاء من ضباط الجيش العراقي المنحل، بإشراف مباشر من المخابرات الأمريكية التي كانت تشرف على السجن المذكور.

في عام ٢٠١٢ حضر الجولاني لأول مرة في المشهد السوري بعد أن تم الإفراج عنه في ٢٠١١ من قبل المخابرات الأمريكية، عبر تنظيم ورئاسة جبهة النصرة بعد انفصاله عن تنظيم الدولة الإسلامية في العراق/ الشام- داعش، ومن بعده انفكاكه عن تنظيم القاعدة.

تجربة قصيرة وغامضة في محافظة درعا توّجت" بالطرد" من قبل الأهالي والفصائل المسلحة المحلية لتضارب الرؤى والمرجعيات والأهداف، عدم ملائمة الحاضنة الاجتماعية له.

بعد تجربة قصيرة في لبنان مع تنظيم" أجناد الشام"، انتقل الجولاني إلى شمال حماة ومنها إلى محافظة إدلب، حيث التجربة العسكرية/ السياسية لمدة عشر سنوات مع العديد من الفصائل الإسلامية- الجهادية الأخرى بحدود تتمدد وتتقلص بحسب المواجهات العسكرية.

تنازع/ تفاهم متواتر مع الفصائل الجهادية

المتعددة وبتنازع فقهي/ سياسي/ عسكري، بينما بقيت السمة البارزة هي الاغتيال والتصفية، أو التحالف بقوة الضرورة، مقابل الانتقال بين الداعمين الإقليميين والدوليين: قطر- تركية، بريطانيا- أمريكا وبصبغة استخباراتية عمومًا.

شكّلت التفاهمات الإقليمية- الدولية الاستخباراتية عنصر الحماية الأساسية له، مضافًا لها المهام الموكلة له"الدور الوظيفي" التي تم إنجازها بأفضل السبل، مما منحه الحضور في المشهد العسكري بداية مع نموذج سياسي "إدارة مدنية" في إدلب.

المشغل القطري/التركي والرعاية الاستخباراتية الأمريكية التي بدأت من العراق واستمرت في سورية "بسياسة إعلامية مزدوجة" شكلت عنصر الحماية في تجربة الجولاني في سورية لمدة ١٢ عامًا، ١٠ سنوات منها في إدلب، و ٨ منها باسم هيئة تحرير الشام.

تتحدث الكثير من التقارير وبشكل متناقض عمّا حدث في ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤ من سقوط نظام الديكتاتور بشار الأسد وفراره، وسيطرة الجولاني على السلطة في دمشق، لكن المؤكد "كما هو حاصل اليوم" أن النظام التركي "الأجهزة الاستخباراتية" ووفق تحالف إقليمي-دولي استخباراتي، كانت مع وصول هيئة تحرير الشام إلى دمشق، إذ كان قد سبقتها" جبهة الجنوب" لتعود وتخرج منها.

الموقف الدولي/ الإقليمي/ المحلي من الجولاني- الشرع

إن حالة الانسداد وفقدان الثقة التي وصلتها سلطة بشار الأسد عند حلفاءه قبل خصومة، إضافة إلى المتغيرات الإقليمية التي فرضت نفسها عقب" طوفان الأقصى" دفعت جميع الفرقاء إلى التخلص منه بأفضل السبل التي تؤدي إلى انهيار سلطته دون انهيار نظامه الاستبدادي/ الديكتاتوري.

شكلت تفاهمات أستانة المدخل الأولي لتفاهمات

شكل نجم الدين أربكان، زعيم حركة "النظرة الوطنية" الإسلامية، وتانسو تشيلر، أول رئيسة وزراء علمانية في تركيا، حكومة ائتلافية متناقضة عام ١٩٩٦. هذه الحكومة التي تأرجحت بين التوجه نحو العالم الإسلامي والنهج الغربي، استمرت لعام واحد فقط، وسقطت عام ١٩٩٧ تحت ضغط الجيش (انقلاب ٢٨ فبراير) بذريعة حماية النظام العلماني.



روسية- أمريكية عقب الغزو الروسي لأوكرانيا، النموذج الذي فتح الباب للتغير في منطقة بلاد الشام بعد الحرب المفتوحة مع حركة حماس من جهة، وحزب الله على المقلب اللبناني. واستمرت هذه اللقاءات "أستانة" إلى الشهر ما قبل الأخير من سقوط نظام الأسد، اللقاء الأخير عقد في الدوحة بمشاركة عدد من وزراء الخارجية العرب: قطر، مصر، السعودية، الأردن، العراق، إضافة إلى دول الأستانة: روسيا، تركية، إيران بتاريخ ٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٤، أي اليوم الذي سبق سقوط الأسد. وبعد عشرة أيام من يوم ٢٧ تشرين الثاني، أي بعد سيطرة هيئة تحرير الشام مع العديد من الفصائل الأخرى المتحالفة معها على مدينة حلب، حماة، حمص وتقدمها نحو العاصمة دمشق، وبعد أن استولت تنظيمات الجنوب على محافظة درعا، السويداء، القنيطرة وباتت تحاصر العاصمة دمشق.

وشكلت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ منعطفاً بارتفاع نفوذ الحركات الدينية (اليمين المسيحي الأمريكي، الجهادية السلفية، اليمين اليهودي المتطرف) مقابل تراجع التيارات القومية والاشتراكية، وبرز الإسلام السياسي السني (وخاصة الإخوان المسلمين) كالعدو الرئيسي المُتصور في الخطاب الدول

الاختيار الذي وقع على الجولاني-الشرع جاء بتفاهم أمريكي- روسي- أوروبي- تركي وبمباركة قطرية- سعودية - إماراتية لاحقًا لاعتبارات قد يكون من أبرزها

• الطموح: المشاريع الدولية بنقل الغاز القطري عبر الحدود السورية إلى أوروبا غذى المطامح الاقتصادية القطرية- والشركات العالمية لعملية التغيير في سورية لرفض النظام السوري لذلك بدعم روسي.

• النزعات العثمانية- التركية بالجغرافيا السورية: وحلم الأتراك في حلب والموصل، والشراهة التركية بالسوق السورية الخارجة عن المواصفات الدولية للمنتجات الفاسدة التي تغزو الأسواق السورية اليوم، وقطع الطريق نهائيًا عن أية مطالبات سورية في لؤاء اسكندرون السليب، ومنازعات المياه التي تخطرها تركية اليوم كورقة مبادلة اقتصادية، الشراكة المحتملة والمتوقعة للمشاركة في "إعادة إعمار سورية"، تصفية "القضية الكردية" في سورية كعمق استراتيجي مباشر لها في تركية، الأحلام بالدور الإقليمي المناط بها وتوسعته وفق الأجندة التركية، توسيع الدور الوظيفي الممنوح لها.

• الشراكة/التفاهم الأمريكي-الروسي فيما يتعلق بالعدوان الروسي على أوكرانيا، مقابل التنسيق للتخلص من نظام بشار الأسد مع الحفاظ على المكاسب الاستراتيجية الروسية بالتواجد على حوض المتوسط، والمشاركة "كوسيط" في الحلول السياسية السورية القادمة.

• الرغبة الإسرائيلية-الأمريكية بإعادة رسم الخريطة السياسية-الاقتصادية لشرق المتوسط وفق التصور "الإسرائيلي" "إسرائيل الكبرى" وفق الأجندات الأمريكية-الإسرائيلية المطروحة بخصوص سورية ولبنان، المدعومة من الطرف التركي/القطري بتصفية آخر جيوب المقاومة تجاه "إسرائيل" من دول الطوق، كل ذلك يجعل الجولاني-الشرع المرشح الأبرز، وإلى حين.

• النزوع الأمريكي بالخروج العسكري المباشر من المنطقة بعد ترتيبها بما يضمن "استقراره" وفق التصور الأمريكي بالسيادة "الإسرائيلية"/حلفاء أمريكا في المنطقة، مع التصفية الكاملة للقضية الفلسطينية.

• خلق أنظمة سياسية ذات طابع قلق داخلي/ خارجي لضمان السيطرة عليها، وعدم ترك أية إمكانية لنمو وازدهار اقتصادي أو تنمية محلية.

• الدور الوظيفي المرسوم للجولاني/ بعلمه أم بدونه/ جعله مبكرًا من الشخصيات المؤهلة للمهام القادمة.

• التجربة الميدانية له في إدلب عسكريًا وسياسيًا من خلال تعامله مع عديد من التنظيمات العسكرية، وقدرته على ضبطها عسكريًا وسياسيًا.

• التكلفة العسكرية الرخيصة في عملية النزاع المسلح في حال نشوبه مع فلول النظام السوري أو الجماعات المسلحة البينية، أو قوات قسد العسكرية.

• السهولة العملانية لضبط الكوادر العسكرية لهيئة تحرير الشام في حال البحث بدائل سياسية/ عسكرية عند اللزوم والحاجة، بالإضافة إلى

عملية الاختراق الكامل وضمان التبعية للأجهزة الاستخباراتية للعديد من الدول، وخصوصا تركية.
• الخضوع الكامل والتام للشروط السياسية/ العسكرية من قبل الجولاني/ الشرع تجاه كل الأطراف الإقليمية والدولية المعنية والمتداخلة في الملف السوري: أمريكا-روسيا-أوروبا-الصين، "إسرائيل"-تركية-السعودية-إيران-قطر-الإمارات...
• الافتراق الديني/ المذهبي/ الفقهي للجولاني-الشرع عن الأسد وحليفه الإيراني، مما شكل حالة عداء مسبقة مع التواجد الإيراني ودعم الأسد في سورية، وحالة من الصداقة المعلنة بشكل غير مباشر مع "الكيان الإسرائيلي".
• التناغم الأيديولوجي بين تركية ومرجعية الجولاني- الشرع/ الإخوان المسلمين كرحم أولي لكل الحركات الجهادية السلفية.
• المهام القذرة المطلوبة لإنهاء المنظومة السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية والوطنية للمجتمع السوري المنهك من الحرب الطويلة، وتفكيك الوحدة المجتمعية السورية المتهتكة أصلاً، وهو ما قام به الجولاني- الشرع بمجزرتين وطنيتين: الساحل السوري والسويداء خلال أقل من سبعة أشهر.
• الطموح الجارف لدى السوريين بالخلاص من سلطة الأسد شكّل التهيئة المناسبة لحضور سلطة الجولاني برصيد عالي عند عموم السوريين، أنفقه الجولاني بعدة أشهر من سياسته التي شكلت امتداد قديم/ جديد لاستبداد سلطة الأسد.

تشير الترجيحات والتحليلات السياسية إلى وجود برامج وأجندات عمل سياسية مطلوبة من سلطة الجولاني المؤقتة اليوم، باتجاه التخلص منه حين الحاجة: اللقاء بين الشرع- ترامب في البيت الأبيض في ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٢٥ ورفع اسمه عن قوائم الإرهاب- تحت البند السابع، لمدة ستة أشهر، يمثل إحدى هذه البروفات التي تنتظره وحكومته وبالتالي "سورية"، ذلك ما يفسر حالة الدعم السياسي/الإعلامي، دون الاقتصادي تجاهه



لاجئ سوري يمسك بأطفاله بقوة وهو يكافح للنزول من قارب مطاطي صغير على جزيرة ليسبوس اليونانية، بعد عبور جزء من بحر إيجة من تركيا إلى ليسبوس: ٢٤ سبتمبر ٢٠١٥.
• المصدر: رويترز
• المصور: يانيس بهراكيس.

من قبل ما يمكن تسميته "بالحلفاء"، أو استمرار حالة القلق والتوتر السياسي/الاجتماعي/الأمني الذي تعيشه سورية "وفي ذلك يكمن المطلب "الإسرائيلي" وصولاً إلى تقسيم سورية إلى كانتونات دينية/طائفية، ومحاولة تعميم النموذج إلى لبنان، أو المنطقة العربية ككل.

> شكّلت تجربةُ الربيع العربي بمآلتها التجربة الأكثر وضوحًا للإسلام السياسي، بالرغم من الزخم الشعبي المباشر بالرفض الكامل للنظام العربي الرسمي بعمومه: التقدمي، الجمهوري، الملكي

من الاستنزاف إلى إعادة الإنتاج

تُظهر القراءة التحليلية لمسار الأحداث في سورية أن ما جرى لا يمكن اختزاله في سقوط نظام سياسي أو صعود فاعل جديد، بل يعكس تحولاً بنيويًا في آليات السيطرة. فقد جرى الانتقال من نموذج الاستبداد المحلي إلى نموذج التبعية الذكية، حيث تُدار السلطة عبر شبكة من الفاعلين الإقليميين والدوليين. تؤكد النتائج أن الدورين التركي والقطري لم يكونا أدوارًا طارئة أو عرضية، بل جزءًا من تصميم وظيفي أوسع لإعادة هندسة المجال السوري سياسيًا واقتصاديًا وإعلاميًا. كما يتضح أن إعادة إنتاج العنف، لا إنهاءه، شكّلت أحد الشروط البنيوية لإدامة السيطرة ومنع تشكّل سيادة وطنية مستقلة. وفي هذا الإطار، تمثّل التجربة السورية مختبرًا متقدمًا للاستعمار الجديد، حيث تُستبدل أدوات الاحتلال المباشر بأنماط أكثر تعقيدًا من الضبط والتحكّم، تقوم على الشرعية الشكلية، والإدارة عن بُعد، وإعادة تشكيل الذاكرة والهوية.

الهوامش

١. يمكن قراءة هذا التوصيف في إطار ما يسميه David Harvey بـ"النيوليبرالية بوصفها مشروعًا سياسيًا للهيمنة"، حيث لا يُلغى مفهوم الدولة شكليًا، بل يُفرّغ من وظائفه السيادية، ويُعاد توجيهه لخدمة منطق السوق العالمي. في هذا السياق، يصبح الفردُ معزولاً عن شبكات الحماية الوطنية، ويُعاد تعريفه كمستهلك أو فاعل اقتصادي لا كمواطن.

٢. يندرج هذا التحليل ضمن ما تسميه دراسات ما بعد الحرب الباردة بـ"اللحظة الأحادية"، حيث لا تُمارس الهيمنة فقط عبر التفوق العسكري، بل عبر إعادة تنظيم النظام الدولي، وفرض نماذج سياسية واقتصادية بوصفها معايير كونية، وهو ما يتقاطع مع مفهوم Gramsci للهيمنة بوصفها مزيجًا من الإكراه والقبول.

٣. الجدير ذكره أنه لم يتم العثور على الوثيقة في كل ملفات وأرشيف المملكة المتحدة البريطانية، لكن ذلك لا يحول دون العثور على آليات التنفيذ التي تمت في: زرع الكيان الصهيوني في فلسطين، تقسيم سايكس- بيكو الحاضر لتاريخ اليوم، الترسيمات الحدودية لدول الخليج الماثلة اليوم. "الكاتب"

٤. تمثل "الفوضى الخلاقة" أحد أشكال العنف البنيوي في الاستعمار الجديد، حيث لا يُقصد تدمير الدولة فقط، بل تفكيك بنيتها الاجتماعية والسياسية بما يسمح بإعادة تركيبها وفق مصالح المركز. هذا النمط يتقاطع مع أطروحات Frantz Fanon حول تدمير البنى الاجتماعية كمرحلة تمهيدية لإعادة السيطرة.

٥. ناثان شارانسكي: ولد ٢٠ يناير ١٩٤٨في روسيا، "أيقونة نضال الهجرة من الاتحاد السوفياتي"، وزير في حكومة أرييل شارون، رئيس الوكالة اليهودية، يعتبر الإسلام حركة إرهابية تهدد العالم ككل، متفقًا مع نظرية صاموئيل هنتنغتون: باعتبار الإسلام عدو حضاري للغرب.

٦. مايكل آرثر ليدين: لوس آنجلس، كاليفورنيا، (و: ١ آب/ أغسطس ١٩٤١)، مؤرخ وفيلسوف وكاتب أمريكي، عمل مستشارًا لمجلس الأمن القومي، ووزارة الخارجية الأمريكية، ووزارة الدفاع، حاصل على درجة الدكتوراه في التاريخ والفلسفة من جامعة ويسكنسن- ماديسون الأمريكية. (ويكيبيديا).

٧. توماس بي إم بارنت، (و: ١٩٦٢)، خريج جامعة هارفارد في العلوم السياسية، دكتوراه في الفلسفة، ماجستير في الآداب، موظف في كلية الحرب الأمريكية: الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأقوى والأغنى والأكثر تطورًا علميًا وتكنولوجيًا، بل هي الدولة الأكثر إثارة للحروب، لدرجة يمكنها أن تقوم بحروب مأجورة". من كتاب الحرب والسلم في القرن الحادي والعشرين.

(ويكيبيديا).

٨. دبلوماسي أمريكي من مواليد ١٩٥١. شغل منصب رئيس مجلس العلاقات في مجلس الخارجية، مدير تخطيط الدراسات، مستشار مقرب لكولن باول، مساعد مقرب لجورج بوش ١٩٨٩-١٩٩٣.

٩. يمثل الدور القطري نموذجًا لما يسميه Samir Amin بـ"البرجوازية الكومبرادورية"، حيث تُستخدم الموارد المحلية والإقليمية لخدمة مصالح النظام العالمي، مقابل ضمان الاستمرارية السياسية والحماية الخارجية، دون امتلاك قرار سيادي مستقل.

١٠. يشير هذا النمط إلى ما يُعرف في الأدبيات المعاصرة بـ"الاحتلال الناعم"، حيث تُمارَس السيطرة عبر البنية التحتية والخدمات والاقتصاد، لا عبر الإدارة العسكرية المباشرة، وهو ما يناقشه Mark Duffield في تحليله للحكم عن بُعد.

١١. يعكس هذا التحول ما تسميه دراسات ما بعد الاستعمار بـ"إعادة تدوير النخب العنيفة"، حيث يُعاد تقديم الفاعل المسلح ضمن خطاب إصلاحي ينسجم مع متطلبات النظام الدولي، دون مساءلة حقيقية لمسار العنف السابق.

المصادر والمراجع:

1. A Brief History of Neoliberalism. Oxford University Press (2005) Harvey, D
2. Millennium, 12(2) 162-175 Gramsci, hegemony and international relations.. (1983) Cox, R. W
3. Fanon, F. (1963) The Wretched of the Earth. Grove Press
4. Amin, S. (1974) Accumulation on a World Scale. Monthly Review Press
5. Said, E. W. (1997) Covering Islam. Vintage Books
6. Duffield, M. (2007) Development, Security and Unending War. Polity Press
7. Mamdani, M. (2004) Good Muslim, Bad Muslim. Pantheon Books



في هذه الصورة التي نشرتها وكالة الأنباء القطرية (قنا) يوم الاثنين ١١ سبتمبر ٢٠١٧، يظهر أمير قطر الشيخ تميم بن حمد آل ثاني (في المقدمة بالوسط) وهو يقف بجانب قوات القوات الجوية الأميرية في قاعدة "العديد" الجوية في الدوحة، قطر.
• المصدر: وكالة الأنباء القطرية عبر أسوشيتد برس.


CIA
U S
SPECIAL AGENT
767

سورية في فخ التطبيع

القابلية والممانعة





هادي قبيسي

مدير مركز الإتحاد للأبحاث والتطوير، خبير في السياسات الأمريكية في الشرق الأوسط
• لبنان

المقدمة

إن الانقلاب السريع الذي أطاح بالرئيس بشار الأسد، هو نتيجة توافق إقليمي-دولي بما يضمن إنشاء الشرق الأوسط الجديد بالقوة كآخر خيار للولايات المتحدة، بعد أن فشلت المحاولات السابقة. وما الحرب المستمرة من ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٢٣، واتساعها إلا صورة للمطلب الأميركي الحيوي بل الوجودي.

بداية كانت التسريبات تفيد أن الحكومة المؤقتة للشرع لن تتجاوز شهر آذار/مارس، وهي مرحلة قد تطيح به بعملية اغتيال، أو تسليم للسلطة، لكن التطورات والحاجة الأميركية ثبتت كل الأوراق وأهمها تثبيت الرئيس التركي والتغاضي عن

سجنه لأهم شخصية قد تسبب الهزيمة له في الانتخابات ما قد يحدث أي تغيير غير مرغوب فيه. جاء مؤتمر الرياض في ١٤ أيار/مايو كنقطة انعطاف في المشهد السوري، مكرسًا مكانة السعودية في الملف السوري بشكل واضح بتقديم أحمد الشرع بواسطة بن سلمان للرئيس الأميركي ترامب، ولتبدأ فكرة التطبيع بشكل إعلامي من تسريب وإنكار وطروحات وأفكار بعد هذا اللقاء.

جاءت الحرب الأميركية-الإسرائيلية على الجمهورية الإسلامية بنتائج غير متوقعة لهما، وقد يكون هذا الموضوع تأثيره على حركة التطبيع التي بدأت بشكل مكثف، ومن ثم أعطيت قفزة تقارب ٦ أشهر. قد تكون بانتظار نتائج التحضير لجولات ثانية في لبنان والجمهورية. وأيضًا جدد لقوة حفظ السلام "الأندوف" في الجولان إلى ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٥.

> إن الانقلاب السريع الذي أطاح بالرئيس بشار الأسد، هو نتيجة توافق إقليمي-دولي بما يضمن إنشاء الشرق الأوسط الجديد بالقوة كآخر خيار للولايات المتحدة، بعد أن فشلت المحاولات السابقة

الإمارات عرابة التطبيع والمشروع الإبراهيمي

لمحة: وُقّعت الاتفاقية الإبراهيمية في ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٢٠، في الحديقة الخلفية للبيت الأبيض الجنوبية، بحضور الرئيس الأميركي ترامب. الدول الموقعة: الإمارات بوزير خارجيتها عبد الله بن زايد آل نهيان، والبحرين بوزير الخارجية عبد اللطيف الزياني، ورئيس وزراء العدو بنيامين نتنياهو. وتُعرَف الاتفاقية بمشروع كوشنير للسلام (صهر ترامب). في نيسان/أبريل ٢٠٢٤، جرت في الأردن محاولة انقلاب تصدت لها المخابرات الأميركية، ليتبين أن السعودية والإمارات هما ورائها، بالاستفادة من رئيس الديوان الملكي الأردني السابق باسم عوض الله (يحمل الجنسية السعودية)، وقريب الملك عبد الله الشريف حسن بن زيد، لإيصال الأمير حمزة شقيق الملك عبد الله. وسرب عن الإنقلاب أن الهدف منه دفع الأردن للتخلي عن سيادتها عن القدس لنقلها للكيان الغاصب مقابل الاعتراف بمحمد بن سلمان.

التطبيع والخطوات المرحلية (التسويق يحتاج لرصد الإعلام السوري وعملية تسويقه في المجتمع)

- بدأت الرسائل السورية-الإسرائيلية، بدعوة الوفد اليهودي[١] لزيارة دمشق في شباط/فبراير ٢٠٢٥.
- تلقّى أحمد الشرع في الثالث من نيسان/أبريل، تهديدًا مباشرًا من وزير الدفاع الإسرائيلي، وهو الشهر الذي جرت فيه أحداث جرمانا والدفاع الإسرائيلي عن الدروز.
- في ١٣ نيسان/أبريل، أول زيارة للشرع إلى الإمارات، وجرت مباحثات مع الإسرائيليين تعلقت بالوضع الأمني، وبناء الثقة. كشفت صحيفة هآرتس، عن زيارة لوفد من المسؤولين السوريين بينهم اثنان رفيعو المستوى قاموا بزيارة الكيان في أواخر نيسان/أبريل لعدة أيام والتقوا خلالها بمسؤولين أمنيين إسرائيليين.
- ليشهد شهر أيار/مايو أخبارًا مكثفة[٢] عن لقاءات إسرائيلية-سورية، أكاديمية ورسمية في دول عدّة، بين إشراف إماراتي وتركي. عناوينها: منح الشرع الوقت لتثبيت موقعه وتثبيت نظام داخلي جديد داخل سورية، وتوقف الهجمات على سورية. وفي لقاء الشرع مع ماكرون، في ٧ أيار/مايو، صرّح عن المفاوضات التي تجري مع "إسرائيل" لتهدئة الأوضاع، وإيقاف التدخلات الإسرائيلية.
- لقاء ترامب بوساطة سعودية مع أحمد الشرع في الرياض في ١٤ أيار/مايو، وتأكيد الشرع في تصريحات إعلامية وجود محادثات غير مباشرة مع "إسرائيل" تهدف إلى تهدئة التوترات في المنطقة، التي أثمرت عن توقف الغارات.
- كشفت وكالة رويترز عن لقاء سوري-إسرائيلي في ٢٧ أيار/مايو، في محافظة السويداء بمشاركة العميد أحمد الدالاتي (قائد الأمن الداخلي في المحافظة) ومحافظ القنيطرة، والذي نفى مباشرة الموضوع.
- زار رئيس المرحلة الانتقالية أحمد الشرع في ٧ حزيران/يونيو، محافظة درعا في أول أيام عيد

الأضحى المبارك، وبحسب مصادر مطّلعة على الواقع الأمني في الجنوب، فإن أي تحرك رفيع المستوى في هذه المنطقة لا يتم دون المرور بتفاهمات ضمنية، أو على الأقل ضمن هامش صمت إسرائيلي مقصود، خاصة أن "إسرائيل" لا تزال تعتبر الجنوب السوري جزءاً من مجالها الأمني الذي تسعى لإبقائه دون نفوذ مركزي قوي.

• في ٧ حزيران/يونيو، قام توم باراك بزيارة عاجلة لتل أبيب؛ تم إطلاق صاروخين من جنوب سورية نحو الجولان، مصرحًا: "واشنطن لن تقبل أن تتحول سورية إلى منصة تهديد لجيرانها، ومنهم "إسرائيل""؛ قابلته الحكومة السورية بتمسكها بمبدأ السيادة، ورفضها لأي سلاح خارج إطار الدولة، معتبرة أن الجهات المسلحة الخارجة عن المؤسسات الرسمية تشكل التهديد الأكبر لاستقرار الجنوب.

• كشف تساحي هنغبي (رئيس مجلس الأمن القومي الإسرائيلي) بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو، في اجتماع مغلق للكنيست، أن هناك حوارًا مباشرًا مع القيادة السورية، بما في ذلك الرئيس أحمد الشرع نفسه، وليس فقط من خلال وسطاء.

• تصريح ستيف ويتكوف في ٢٥ حزيران/يونيو لوسائل إعلام أميركية: محادثات ناجحة مع عدة دول عربية للانضمام إلى اتفاقيات إبراهيم.

• تصريح المبعوث الأميركي باراك لقناة الجزيرة في ٢٧ حزيران/يونيو:

١. أن الإدارة السورية تجري محادثات هادئة مع "إسرائيل" حول مختلف الملفات، وحكومة الشرع



ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان والرئيس الأميركي دونالد ترمب والرئيس السوري في المرحلة الانتقالية أحمد الشرع في الرياض في ١٤ مايو ٢٠٢٥.
• المصدر: وكالة الصحافة الفرنسية

الانتقالية لا تسعى إلى الحرب، بل إلى علاقات أكثر استقرارًا.
٢. يجب إعطاء هذه الإدارة الجديدة الفرصة.
٣. ذكر هيئة البث الإسرائيلية أن الولايات المتحدة تعمل بنشاط لتوسيع نطاق اتفاقيات آبراهام لتشمل سورية، السعودية، لبنان.
٤. رفع لوحة إعلانية تجمع صور الحلف الإبراهيمي مع صورة لمحمد بن سلمان، أحمد الشرع (الجولاني)، جوزف عون. (بعد الحرب الأميركية-الإسرائيلية على الجمهورية الإسلامية).

• في ٢٨ حزيران/يونيو، أعلنت i24NEWS الإسرائيلية، عن مصدر سوري مطلع أن الطرفين بصدد توقيع اتفاق سلام قبل نهاية عام ٢٠٢٥، يتضمن انسحابًا تدريجيًا لـ"إسرائيل" من أراض سورية احتلتها في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤، بما في ذلك قمة جبل الشيخ، وتحويل مرتفعات الجولان إلى "حديقة سلام" وفق تعبيره، دون الإشارة إلى موقف دمشق الرسمي من هذه التفاصيل.

> جاء مؤتمر الرياض في ١٤ أيار/مايو كنقطة انعطاف في المشهد السوري، مكرسًا مكانة السعودية في الملف السوري بشكل واضح بتقديم أحمد الشرع بواسطة بن سلمان للرئيس الأميركي ترامب

• أعلن أحمد الشرع، في ٢٨ حزيران/يونيو خلال لقائه وجهاء وأعيان القنيطرة والجولان، أن دمشق تعمل على وقف اعتداءات "إسرائيل"، بمفاوضات غير مباشرة.
• دعم الشرع كمرجعية وحيدة في سورية من قبل الولايات المتحدة، رسالة الولايات المتحدة لقسد في ٣٠ حزيران/يونيو: أكد باراك أن أي تسوية سياسية هناك يجب أن تمر عبر الحكومة السورية، معتبرًا أن واشنطن لا تعترف ببدائل شرعية خارج مؤسسات الدولة الرسمية. دمجها تدريجياً في الهيكل العسكري والسياسي للدولة السورية، نظرًا لدورها في محاربة تنظيم داعش، مبينًا أن هذا الدمج يحتاج إلى وقت. فالموقف الأميركي، كما عبّرت عنه إدارة ترامب والسيناتور ماركو روبيو، يتمثل في التعامل الحصري مع الحكومة السورية كطرف شرعي في أي حل مستقبلي.
• الأول من تموز/يوليو: تصريح ترامب لرفع العقوبات عن سورية في خطوة دمجها بالاقتصاد العالمي، وتشجيع عملية إعادة الاعمار. (الشروط: أبرزها تطبيع العلاقات السورية مع "إسرائيل"، وتعزيز مكافحة الإرهاب، وتسريع ترحيل الإرهابيين الفلسطينيين، ومنع إعادة تنظيم صفوف تنظيم "داعش"، إضافة إلى الإشراف على إدارة مراكز احتجاز عناصر التنظيم في شمال شرقي سورية).
• تصريح توماس جيه باراك، إن الرئيس السوري الانتقالي أحمد الشرع أعرب عن رغبة صريحة في تحقيق السلام، مشددًا على أن "الشرع "لا يكره "إسرائيل"، ولا يكنّ عداءً دينيًا تجاه "إسرائيل"، بل عبّر عن انفتاحه على تسوية سلمية تحفظ استقرار الحدود بين الجانبين.
• في ٦ تموز/يوليو، وقبل سفر الشرع الى الإمارات، [تصريح] ويتكوف: قطر ولبنان وسورية مرشحة للانضمام إلى الاتفاقيات الإبراهيمية، ولكن السعودية أمرها منفصل.
• ٧ تموز/يوليو ٢٠٢٥، بحث الشرع مع الشيخ محمد بن زايد آل نهيان: انعقاد جلسة مباحثات ثنائية مع الرئيس السوري أحمد الشرع في قصر الشاطئ بأبوظبي، ومسؤول الأمن القومي الإسرائيلي هنيغبي، لتوقيع اتفاقية التطبيع": تضمنت التنازل عن الجولان مقابل حماية نظامه، وتمهيد للقاء بين الشرع ونتنياهو في الأمم المتحدة في أيلول/سبتمبر.
• في الثامن من تموز/يوليو: نشرت وزارة الخارجية الأميركية وثيقة رفع تصنيف هيئة تحرير الشام عن قائمة الإرهاب، وكشف موقع "ذا ناشيونال" أن الولايات المتحدة بدأت تحركات داخل مجلس الأمن الدولي لطرح مشروع قرار يهدف إلى رفع العقوبات المفروضة على الرئيس أحمد الشرع ووزير الداخلية أنس خطاب، إضافة إلى شطب هيئة تحرير الشام من قائمة الكيانات الإرهابية المعتمدة من قبل الأمم المتحدة.
• في ٩ تموز/يوليو ٢٠٢٥: بتمويل إماراتي، الداعية الفرنسي من أصل تونسي، حسن شلغومي على رأس وفد من الأئمة الأوروبيين زار الكيان والتقى الوفد بالرئيس الإسرائيلي إسحاق هرتسوغ في مدينة القدس المحتلة.

يوقع كل من وزير خارجية البحرين الدكتور عبد اللطيف بن راشد الزياني، ووزير خارجية الإمارات العربية المتحدة عبد الله بن زايد آل نهيان، والرئيس الأمريكي دونالد ترامب، ورئيس وزراء الكيان الصهيوني بنيامين نتنياهو على "اتفاقية أبراهام"، يوم الثلاثاء ١٥ سبتمبر ٢٠٢٠، في الساحة الجنوبية للبيت الأبيض.
• المصدر: جويس ن. بوغوسيان.



المقترحات التفاوضية في عملية التطبيع

• ثلاث سيناريوهات مطروحة للتطبيع وفق I٢٤news الإسرائيلية: أولاً، تسليم سورية ثلث الجولان المحتل قبل اتفاق الهدنة ١٩٧٤ (تسجيله كانتصار دبلوماسي للشرع). ثانيًا، الاحتفاظ بالمناطق الاستراتيجية بيد "إسرائيل"، تسليم ثلثه لسورية، واستئجار الثلث لمدة ٢٥ عامًا. ثالثًا، احتفاظ "إسرائيل" بثلثي الجولان، وتسليم الثلث لسورية مقابل استئجاره.

• تصريح جدعون ساعر في الأول من تموز/يوليو، وزير الخارجية الإسرائيلية:

١. البقاء في مرتفعات جبل الشيخ والمناطق التي احتلوها لتأمين منطقة عازلة، هي شرط للاتفاق وإن خط ٤ حزيران/يونيو ١٩٦٧ في مهب النسيان.

٢. المطلب السوري وفق جدعون، هو العودة إلى خط ٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٢٤، وتفعيل اتفاق فض الاشتباك.

> جاءت الحرب الأميركية-الإسرائيلية على الجمهورية الإسلامية بنتائج غير متوقعة لهما، وقد يكون هذا الموضوع تأثيره على حركة التطبيع التي بدأت بشكل مكثف

٣. ما تأخذه "إسرائيل" لا يمكن أن تتخلى عنه بدون قتال. (جدعون ساعر).

٤. رفع العقوبات الأميركية مرهون بالسلام مع "إسرائيل".

• ٣٠ حزيران/يونيو، مصدر سوري: توقيع اتفاقية سلام قبل نهاية ٢٠٢٥، انسحاب تدريجي من أراضي سورية احتلت في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤ من ضمنها قمة جبل الشيخ، وتحويل الجولان إلى حديقة سلام.

• زيارة إيال زامير رئيس أركان جيش الاحتلال قرب جبهة الجولان في الأول من تموز/يوليو، معلنًا أنه يحتفظ بمنطقة دفاع أمامية على الجبهة السورية.

• ٢ تموز/يوليو، نفيٌ رسمي من دمشق وجود اتفاق سلام وتطبيع وشيك مع "إسرائيل"، وهي تصريحات سابقة لأوانها، ولا تستند لتطورات حقيقية.

• نقل موقع أكسيوس عن مسؤول في إدارة ترامب استعداد الولايات المتحدة للعب دور الوسيط في اتفاق أمني جديد بين الطرفين، شريطة التقدم في ثلاثة ملفات رئيسية: كبح المجموعات المتشددة، تطبيع تدريجي مع "إسرائيل"، وضبط الفصائل الفلسطينية المسلحة. وفي لقاء رجل الأعمال الأمريكي جوناثان باس المقرب من الرئيس ترامب بأحمد الشرع في دمشق، صرح عن الشرع: "نحن و"إسرائيل" لدينا أعداء مشتركون"[٤].

المواقف من خطوات الشرع التطبيعية وسياسته في جنوب سورية

• بيان من أبناء الجولان[٥]، عبر ملتقى الجولان للبناء والتنمية، بضرورة إجراء استفتاء شعبي وشامل واعتراف رسمي بحقوقهم، قبل أي عملية تفاوضية مع العدو، في ٢٧ حزيران/يونيو. ملمحًا أن أولوية الدولة التي حررت الأرض من حاكم ظالم، أن تستعيد الأراضي المحتلة.

• موقف مسد (مجلس سورية الديمقراطي) من التطبيع والجولان الأول من تموز/يوليو، رياض درار (رئيس المكتب الاستشاري) لمسد:

١. التطبيع أولوية للإدارة الحالية كتعويض عن هشاشتها، وموضوع يعطيها حيزًا دوليًا.

٢. التطبيع مشكلة مع الدعاية التاريخية للمجتمع السوري وإمكانية انتزاعها منه، رغم أنه عامل حماية للبعض (بين سندان التكفيريين وعمليات الخطف للأمن العام).

٣. لا يمكن التغاضي عن التنازل عن الجولان، ولا يحق للإدارة الحالية فعل ذلك، متخوفًا من تنازل مماثل في الشمال، وهذه التنازلات هي خيانة موصوفة.

٤. مع التطبيع السياسي كونه ضرورة في هذه المرحلة، وعدم الاستقواء بـ"إسرائيل" على الشعب.

• قراء نقدية في نتائج التطبيع: النموذج الاماراتي، المصري، الأردني: الدكتور كمال العبدو، عميد كلية العلوم السياسية في جامعة الشمال بإدلب بتجربة مصر الاقتصادية بعد معاهدة السلام مع "إسرائيل" منذ أكثر من أربعة عقود.

• الدكتورة رهف الدغلي: إن الرئيس الشرع يواجه صعوبة في فرض التطبيع على الجماعات الإسلامية المسلحة، سواء المحلية أو الأجنبية، والتي تتبنى مواقف داعمة للقضية الفلسطينية ومعادية

للتقارب مع "إسرائيل".

• الباحث السوري وائل علوان لقناة الجزيرة: أبرز الملفات المطروحة في أي مفاوضات قادمة سيكون وقف إطلاق النار وفصل الاشتباك، إلى جانب إنشاء منطقة عازلة أو منزوعة السلاح.

• مظاهرة بيت جن لاعتقال الشبان من قبل العدو، انعدام الحضور الواسع أو التضامن الشعبي، ما دفع ببعض الأهالي لانتقاد الصمت العام، والتخاذل الشعبي، وغياب أي دور للمجتمع المدني أو منظمات حقوق الإنسان.

• الأول من تموز/يوليو: إعادة فتح طريق "الأصبح-كودنا" بالأيادي بعد إغلاقه من قبل العدو لأكثر من عشرة أيام دون اعتراض من قبل جنود العدو. في مواجهة هذا الواقع، لم يجد أهالي القنيطرة خيارًا سوى الاعتماد على أنفسهم، بعد الصمت المطبق الذي اتخذته الحكومة السورية الجديدة، في محاولة لتجاوز المشاق اليومية وتحدي سياسات الاحتلال، التي تزداد توسعًا وخنقًا للحياة المدنية في الجنوب السوري.

• انتقاد الشرع في ٤ حزيران/يونيو، بعد زيارة تركية ودول الخليج، عبر وسائل التواصل، ملف المقاتلين الأجانب من قبل المجتمع السوري وموافقة أميركية بدمجهم بالجيش: ماهر الزعبي، مؤسس التجمع المدني السوري - وطن[٦]. الصحفي السوري محمد السلوم المقبولة المشروطة[٧].

الإيجابيات المقترحة للتطبيع

• تسويق الإيجابي الاقتصادي: في الأول من تموز/

تُظهر لوحة إعلانية لـ "تحالف الأمن الإقليمي" في تل أبيب قادة دول الأردن ولبنان وسورية (الحكومة المؤقتة) وفلسطين ومصر والسعودية وأمريكا والكيان الصهيوني والإمارات وعُمان والمغرب والبحرين جنبا إلى جنب، مع شعار باللغة العبرية نصّه: "وقتٌ للحرب، ووقتٌ للتسوية: الآن هو وقت "الميثاق الإبراهيمي"".

• المصدر: وكالة الصحافة الفرنسية

• المصور: جاك غويز.



يوليو، قناة ١٢ الإسرائيلية: إمكانية تصدير الغاز الإسرائيلي إلى سورية، إضافة إلى تنسيق ثلاثي بين "إسرائيل"-سورية-الأردن لإدارة موارد المياه في حوض نهر اليرموك.

- رفع العقوبات عن سورية و إعادة الإعمار.
- رفع جبهة النصرة عن لائحة الإرهاب والجولاني وكل رجالاته.

> وُقّعت الاتفاقية الإبراهيمية في ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٢٠، في الحديقة الخلفية للبيت الأبيض الجنوبية، بحضور الرئيس الأميركي ترامب

التثبيت الإسرائيلي في الجنوب السوري

١. بناء قاعدة عسكرية في تل أحمر غربي في ١١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤ قرب بلدة كودنا بريف القنيطرة.
٢. قاعدة عسكرية في تل أحمر شرقي، حزيران/يونيو ٢٠٢٥، قرب بلدة كودنا بريف القنيطرة.
٣. التخوف من تعميم سياسة اعتماد هدم المنازل في قرية الحميدية بريف القنيطرة (١٦ منزلاً في ١٧ حزيران/يونيو)، اكتفت [قوات] الأندوف بزيارة المنطقة. أو التهجير القسري بعملية إفراغ عبر موجات نزوح.
٤. تكثيف العدو لنشاطه في إنشاء النقطة الثانية في منطقة "قرص النفل"، الواقعة إلى الشمال من البلدة، (دروز).
٥. أتم عمليات إنشاء قاعدته في جبل بربر، القريبة من قرية قلعة جندل (غالبية درزية بريف دمشق)، والتي تشرف على واحد من أهم الطرقات الواصلة إلى قمة جبل الشيخ.
٦. البدء بإنشاء نقطة عسكرية جديدة بالقرب من برج المراقبة في منطقة الحراج القريبة من قرية بئر عجم بريف القنيطرة، (تموز/يوليو ٢٠٢٥).
٧. اعتماد العدو سياسة الضغط من خلال قطع الطرقات بسواتر ترابية، من باب جس نبض لقابلية الهجرة او المواجهة. أي وضع السكان المحليين أمام أحد احتمالين، إما النزوح إلى قرى خارج هذه المنطقة، أو القبول بالعيش تحت الاحتلال الإسرائيلي. بالإضافة لجرف مئات الدونمات من الغطاء النباتي، ما يعكس سعيًا ممنهجًا لإفراغ المنطقة من سكانها ومقومات استقرارها.

الخاتمة

كان واضحًا لدى الشرع أن البقاء في السلطة يتطلب منه التوقيع على اتفاقية استسلام والتخلي عن الجولان، وظن أن لديه الوقت قبل الإقدام عليه، بادئًا بدعوة يهود سوريين لزيارة دمشق. إلا أن ترامب المحتاج لإنجازات وكذلك نتنياهو لم يمهلاه الوقت. بدأت العملية بتسريبات عبر مقربين من الإمارات كوئام وهاب، أن الشرع لن يصمد لشهر آذار/مارس. بدأت أحداث جرمانا وأظهرت "إسرائيل" صورة الحامية لهم، وصولاً إلى تهديد القصر مباشرة، لتبدأ مراحل التواصل بإدارة إماراتية مباشرة من حيث الزمان والمكان، إلا ما قل وترشح كأذربيجان التي شارك فيها الأتراك، وزيارة مسؤولين سوريين للكيان.

جميع التحضيرات تشير لوقوع التطبيع والاتفاق، لكن التوقيت هل سيكون في شهر أيلول/سبتمبر في أثناء اللقاء المزمع بين الشرع ونتنياهو، أو في شهر تشرين الأول/أكتوبر ليحاول تكريس صورة المنتصر بدل هزيمة طوفان الأقصى.

تأتي التسريبات الإخبارية كتحضير الأرضية من جهة، ولجس نبض الشارع السوري وأطيافه من جهة أخرى:

١. السني: لناحية التخلي عن الجولان والخروج صفر اليدين، أي ما عجز عنه الإسرائيلي من عام ١٩٦٧م، قدمه الإسلاميون بأشهر.
٢. الدروز: خسارة الأراضي، الحقوق، المكانة والمكتسبات من دون الوقوف عليها، والخشية من التهجير أو التماشي مع الواقع بالانضمام كما انسياقهم للكيان.
٣. الكرد: إمكانية التخلي عن الأراضي السورية محط أطماع الأتراك في الشمال.

الهوامش

١. بدعوة رسمية في شباط/فبراير ٢٠٢٥، زار "الحاخام يوسف حمرا" و"الحاخام آشر لوباتين" إلى جانب عدد من اليهود السوريين الذين غادروا البلاد قبل عقود، مواقع تراثية مثل مقابر اليهود السوريين وكنيس جوبر التاريخي، إضافة إلى الحي اليهودي

٢-٥: بعد سقوط نظام الأسد في ٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٢٤، تغيرت الأوضاع في سورية بشكل جذري: إلا أن محافظة القنيطرة والمنطقة العازلة شهدتا تحولا مختلفا: إذ أعلن جيش الاحتلال الصهيوني عن بدء عملياته العسكرية في هذه المنطقة بعد ساعات قليلة فقط من هذا الحدث.
• المصدر: موقع "نون بوست" (Noon Post).



في دمشق وقبر "الحاخام حاييم فيتال"، في خطوة تعكس اهتمام الوفد بإعادة إحياء الوجود اليهودي في البلاد.

٢. في ٦ أيار/مايو، كشفت صحيفة يديعوت أحرونوت عن لقاء سري جرى بين خمسة أكاديميين ورجال أعمال سوريين، إلى جانب إسرائيليين اثنين، داخل منزل خاص في إحدى العواصم الأوروبية. في ٧ أيار/مايو، توسط الإمارات لزيارة الحاخام آبراهام كوبر والقسيس الإنجيلي جوني مور لزيارة الشرع وتقييمه لأجل ترامب، عبر توجيه مجموعة أسئلة (١٥ سؤالًا). الإمارات أنشأت قناة للمحادثات بين "إسرائيل" وسورية، وركزت على مسائل الأمن والاستخبارات وبناء الثقة بين سورية و"إسرائيل". وفق صحيفة هآرتس أن "إسرائيل" على اتصال مباشر مع النظام السوري. جرت ثلاثة لقاءات في مقر حكومي في الإمارات بين أكاديميين إسرائيليين من خلفية أمنية مع ثلاثة من مساعدي الرئيس السوري للمرحلة الانتقالية أحمد الشرع. طلب السوريون منح الشرع الوقت لتثبيت موقعه،وتثبيت نظام داخلي جديد داخل سورية، وتوقف الهجمات على سورية. بوساطة الإمارات في ١٦/١٧ أيار/مايو، حيث جرت اللقاءات في أذربيجان بحضور اللواء عوديد باسيوك، رئيس مديرية العمليات في الجيش الإسرائيلي، وممثلي الحكومة السورية، وبمشاركة مسؤولين أتراك.

> أكد باراك أن أي تسوية سياسية هناك يجب أن تمر عبر الحكومة السورية، معتبرًا أن واشنطن لا تعترف ببدائل شرعية خارج مؤسسات الدولة الرسمية

٣. تحدثت الأنباء عن لقاء مباشر بين الشرع ورئيس الأمن القومي الإسرائيلي تساحي هنغبي في أثناء زيارته للإمارات، مستدلين على تزامن توقيت الطائرتين في ٧ تموز/يوليو ٢٠٢٥. وضعت يديعوت احرونوت اللقاء بأنه خطوة مهمة في المفاوضات السورية-الإسرائيلية. والتي تتضمن: موافقة الجولاني على التنازل عن الجولان مقابل حماية نظامه، كما وافق أيضًا على إنشاء ٣ مناطق عازلة إسرائيلية في القنيطرة ودرعا والسويداء جنوبي سورية. وقد يشمل الاتفاق المرتقب ضمانات أمنية وتعهدًا من الشرع بمكافحة نشاط حركات وفصائل المقاومة (الذي بدأ بتنفيذه فعليًا منذ الأيام الأولى لتسلّمه السلطة)، وتنفيذ تدابير ضد الجمهورية الإسلامية في إيران. ووفقًا لتقارير أجنبية، استخدمت "إسرائيل" بالفعل المجال الجوي السوري لتنفيذ عدوانها ضد إيران (تنفيذ عمليات التزود بالوقود، واستخدام الأجواء السورية كممر للطائرات الحربية المقاتلة باتجاه العراق ومن ثم إيران)، مما يشير إلى تنسيق بين الطرفين، وإن لم يكن رسميًا.

٤. العدو الإسرائيلي: في ريف القنيطرة، ٢٧ حزيران/يونيو، حملة دهم واعتقال في مزارع بلدة سويسة، أسفرت عن توقيف ثلاثة مدنيين، بينهم طفل في الرابعة عشرة من عمره: المعتقلان هما أحمد عبد الحميد وعدنان عبد الحميد الكربان من بلدة الدواية، والطفل هو مروان شادي القربان. خلية تابعة لـ فيلق القدس. الحكومة السورية المؤقتة: إعلان العقيد ضرار الشملان قائد الأمن الداخلي في دير الزور: في ٢٨ حزيران/يونيو، انتهاء المرحلة الثانية من حملة أمنية في مدينة البوكمال وريفها. وشملت الحملة اعتقال أكثر من خمسين شخصًا، من بينهم متهمون بالارتباط بـ الحرس الثوري الإيراني (الفوج ٤٧) وفق تصريح الشملان. وفي ١ تموز/يوليو أعلن جيش الاحتلال الإسرائيلي عن تنفيذ عملية خاصة في منطقتي أم اللوقس وعين البصلي جنوبي البلاد، تم خلالها اعتقال خلية قال إنها مدعومة من إيران، وضُبط بحوزتها أسلحة وقنابل يدوية، بحسب المتحدث باسم الجيش، أفيخاي أدرعي. اعتقال ثلاثة من أصول فلسطينية من ثرية أم اللوقس والبصالي في ريف القنيطرة الجنوبي في الثاني من تموز، الشقيقين مالك سامر الأحمد وعامر سالم الأحمد من البصالي، بالإضافة إلى المواطن سالم مصطفى من منطقة أم اللوقس بعد تهديده بخطف بناته في حال لم يسلم نفسه.

٥. ١. الاعتراف الدولي والعربي بقرارات الأمم المتحدة التي تؤكد على انسحاب "إسرائيل" من الجولان السوري المحتل. ٢.الاعتراف بحق أبناء الجولان في استعادة أراضيهم بكل الوسائل الممكنة، إضافة إلى تعويضهم عن الأضرار

الممتدة منذ احتلال عام ١٩٦٧. ٣. إجراء استفتاء شعبي عام يشمل جميع السوريين، بمن فيهم أبناء الجولان، لتفويض الدولة السورية بشكل ديمقراطي في حال اتخاذ أي خطوات تفاوضية أو سياسية. ٤. رفض مشاريع الدمج الإداري أو الخدمي التي تُطرح من دون مضمون حقيقي، سواء مع محافظة القنيطرة أو أي جهة أخرى. ٥.تمكين التجمعات الجولانية في الداخل السوري (دمشق، ريف دمشق، درعا، حمص، حماة) من أداء أدوارها الوطنية والاجتماعية. ٦. إعطاء الأولوية لأبناء الجولان في إدارة شؤونهم المحلية، تحت إشراف الدولة السورية، بما يكرّس السيادة الوطنية ويعزز الانتماء.

٦. سورية ليست مزرعة شخصية... ولن نسمح بأن ننتقل من مزرعة الأسد إلى مزرعة الشرع. فتجنيس المقاتلين هو تشويه الهوية العسكرية وامتداد لسياسات النظام السابق التي أسهمت في تفكك النسيج الاجتماعي السوري. الخصخصة المرتقبة لمؤسسة الكهرباء الوطنية تمثل تخليًا عن رمز سيادي سوري.

٧. إن ملف المقاتلين الأجانب حل واقعي، يشمل منح إقامات أو جنسيات لمن استقر وتزوج وأنجب، مع التأكيد على رفض دمجهم في الجيش أو ترحيلهم قسرًا. في طيات المنشور دفاع أنا ضد دخولهم للجيش قولًا واحدًا. وكذلك أنا ضد طردهم من البلد قولًا واحدًا.

يحث الشيخ محمد بن زايد، رئيس الدولة، والرئيس السوري أحمد الشرع، تعزيزَ التعاون في قطاعي التنمية والاقتصاد.

● المصدر: مرصد الأعمال لدول مجلس التعاون الخليجي (Business Intelligence)





المرجعية الليبرالية للاحتلال وآليات تبرير العنف البنيوي

كيف تتحول شعارات حقوق الإنسان الليبرالية إلى غطاء لتبرير العنـــ



الإسرائيلي

ف الاستعماري الصهيوني؟



محمد بن علي

أستاذ التعليم العالي/ جامعة غليزان • الجمهورية الجزائرية

المقدّمة:

في مشاهد درامية تكشف عن الوجه القبيح للحضارة الغربية، وعن عجز المؤسسات الدولية الضامنة لحقوق الإنسان، يسجّل تاريخ البشرية اليوم لحظة من أسوء لحظات تحالف القوى الاستعمارية مع "الكيان الإسرائيلي". لحظة تهاوت معها شعارات آمن بها وسوّقها فلاسفةُ الغرب، وساستُه. كانت كالمخدّر الذي يُحقَن للمريض قبل العملية، مُخدّر يقرّ بأولوية الإنسان وقداسته، وبالأخوة الإنسانية والحرية، والعيش المشترك... إلخ. والنتيجة أن المريض لمّا استفاق وجد نفسَه مبتور الأرجل والأيدي، مرميًا على قارعة الطريق. إنها حكاية شعب تكالبت عليه الآلة الاستعمارية، المدعومة من لوبيات المال والأعمال والإعلام، ووجهاء العالَم الحر. لتسلبه أرضَه، وتستبيح عِرضَه، وتنزل عليه أبشع أنواع التنكيل والعنف، على مرأى ومسمع من المجتمع الدولي ومنظماتها الحقوقية، التي وقفت موقف المتفرج -إن لم يكن موقف المبارك- على أبشع صور الإبادة الجماعية التي عرفها العصر الحديث، وفي مقابل صمتها هذا تحرّكت وآلمتها مشاهد العنف والقتل لمّا تعلق الأمر بحقوق الإنسان الليبيرالي الأبيض.

قد يتساءل القارئ: كيف لخطاب حقوق الإنسان أن يُبرّر العنف البنيوي، فالأصل أن حقوق الإنسان تُعدّ أداة وقائية لمواجهة كل سلوك يلحق الضرر بالمجتمعات نتيجة هياكل اجتماعية ومؤسسات تمنع الأفراد من تلبية احتياجاتهم الأساسية وحقوقهم. هذا ما نحاول إماطة اللثام عنه في هذه المساهمة. بناء على هذا يكون سؤال الانطلاق: كيف أصبحت خطابات حقوق الإنسان انتقائية، عندما يتعلق الأمر بالضحية؟ وكيف تقف عاجزة أمام الجلاد، بل وتعمل لإيجاد مسوّغات للتستر على أفعاله وتبرر عنفه؟

مفاهيم البحث

مفهوم الاستعمار:

تحمل الدلالة اللغوية لمفهوم "الاستعمار"، قيّمًا

إيجابية تختلف عن الحمولة السلبية التي علقت بالمفهوم منذ تعالق والاحتلال الاستيطاني للكثير من البلدان. يقول الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: "الاستعمار": الإعمار، ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع لأن ذلك يعدّ تعميرًا للأرض. وهذا ما ذهب إليه الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله: أصل هذه الكلمة في لغتنا طيّب وفروعها طيبة، ومعناها القرآني أطيب وأطيب.. ولكن إخراجها من المعنى العربي الطيب إلى المعنى الغربي الخبيث ظلم لها، فالذي صيّر هذه الكلمة بغيضة إلى النفوس...هو معناها الخارجي... وهو معنى مرادف للإثم والبغي والخراب والظلم والتعدّي، والقسوة والانتهاك والقتل والحيوانية.

• اصطلاحًا: ينطبق مصطلح الاستعمار تقليديًا باحتلال أرض أجنبية، مترافق باستقرار لمستوطنين[1]. وهو ظاهرة ضاربة بجذورها في تاريخ البشرية، رغم تعدد أشكالها وتلوّن أساليبها التي وصلت في مظهرها المعاصر إلى القمع والإبادة والتهجير وتجويع كما هي الحال في أرض فلسطين عمومًا وما يعانيه سكّان غزّة خصوصًا.

> يسجّل تاريخ البشرية اليوم لحظة من أسوء لحظات تحالف القوى الاستعمارية مع "الكيان الإسرائيلي"

مفهوم الليبيرالية:

"الليبرالية اتجاه عقلي يسعى في ضوء افتراضاته لأنْ يحلل العلاقات الثقافية والأخلاقية، والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع الإنساني، وتؤكد على تعبير الإنسان عن ذاته"[2]. كان مُصطلح الليبرالية لحظة نشأته ذا مغزًى سياسي بَحت، ولا يخلو من روابط مع الثورة على سطوة المؤسّسات الدينية، وهيمنتها على سائر مَناحي الحياة النظرية والعملية في أوروبا، منذ بدايات عصر النهضة وعصر الإصلاح الديني في القرنيْن ١٤و١٥م. وقد اشتَد عُودها في القرن ١٧م باطِراد التقدُّم العلمي، والإيمان بالعقل وقدرة الإنسان ورشده، واستغنائه عن الوصاية[3]. رغم هذا لم تكن الليبرالية وليدة التأمل الفكري في طبيعة الإنسان والمجتمع فقط... ولم تكن النيات الطيّبة والأهداف الإنسانية النبيلة وحدها وراء ظهور الليبرالية... لقد كانت الليبرالية تعبيرًا عن الطبقة البورجوازية وعن نظرتها للإنسان والمجتمع"[4].

مفهوم حقوق الإنسان:

• حقوق الإنسان: "علم يتعلق بالشخص لا سيما الإنسان العامل الذي يعيش في ظل دولة، ويجب أن يستفيد من حماية القانون عند اتهامه بجريمة، كما ينبغي أن تكون هذه الحقوق، لا سيما الحق في المساواة متناسقة مع مقتضيات النظام العام"[5].

أما روني كاسان[6]، فيعرف علم حقوق الإنسان: "أنه فرع من فروع العلوم الاجتماعية، يختص بدارسة العلاقات بين الناس، وبتحديد الحقوق والقدرات الضرورية لتنمية وتطوير شخصية كل إنسان".

عند كثير من فقهاء القانون، مصطلح حقوق الإنسان يقابل ما يُعرَف في فقه القانون الخاص بالحقوق الشخصية، أو الحقوق اللصيقة بالشخصية، وهي حقوق تثبت للإنسان لمجرد كونه إنسانًا، تهدف إلى حماية المقومات الأدبية أو المعنوية للإنسان، وخاصة حقّه في الحياة وفي سلامة بدنه، والشرف والاعتبار، وحريته في الاعتقاد والتعبير والتفكير، وحقه على إنتاجه الأدبي والفني والعلمي، وحقه في السرية، وحقه في الاسم، وتشمل أخيرًا الحقوق التي تمكّن الإنسان من مزاولة نشاطه الاجتماعي، وتنمية ملكاته وقدراته، كحرية التنقل وحرية اختيار مكان الإقامة، وحرية المسكن وحرمته، وحرية العمل والتقاعد والتملك[7].

مفهوم العنف:

"العنف" بصفة عامة صورة من صور القصور الذهبي حيال موقف ما وهو بصورة أخرى عجز عن مواجهة مشكلة ما بالطرق السلمية، ودليل على عدم طمأنينة النفس وانعكاس للقلق وعدم الصبر وفقدان التوازن. "إنه نوع من السلوكيات أو الأفعال المصحوبة بالغضب والتوتر والكراهية، وهو سلوك مشحون بالانفعالات المركبة، كما يمثّل حالة من الدافعية لعدد من النماذج السلوكية الأخرى، ويقصد به كل سلوك يؤدي إلى إيقاع الأذى بالآخرين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مع الاستمتاع بنتائج الأذى"[8]. بينما يحيل مفهوم "العنف البنيوي" إلى الطرق المنهجية التي تُحدث ضررًا للهياكل الاجتماعية أو الأفراد، وهو في الكثير



لوحة سفينة العبيد (The Slave Ship)
عام ١٨٤٠ م. من عمل الرسّام البريطاني ويليام تيرنر (J.M.W. Turner).

من الأحيان خفي، غير مرئي. لذلك يُعرف العنف البنيوي بأنه العنف الذي يحصل من دون وجود فاعل واضح ومرئي، ويكون متأصلاً في صلب بنية المجتمع. وبناء على هذا يمكن تقسيم العنف البنيوي إلى:

- عنف بنيوي عمودي: يشمل القمع (القوة السياسية) الاستغلال (القوة الاقتصادية والاغتراب والعزلة) و(القوة الثقافية).
- عنف بنيوي أفقي: يشمل تفريق الجماعات ومنع جمع شمل العائلات، جمع الناس الذي يميلون إلى العيش متباعدين و إبقاءهم مع بعض (حرمان بعض الشعوب من حقها بالاستقلال وتقرير المصير)[٩]. وهذا يقودنا لربط العنف البنيوي بالهيمنة والعنف الرمزي، لأن الهيمنةَ الرمزيةَ تمثل في جوهرها عملية تطبيع الآخر على دونية الهوية وضعف الإحساس بالقيمة الذاتية وازدراء الأنا عبر عملية تمويه تعتمد الفعاليات الرمزية في تحقيق أهدافها وغاياتها.

عندما تُنتهك حقوق الإنسان كما هو الحال في مسائل العنف الاقتصادي أو الاجتماعي والتمييز العنصري والديني أو التمييز على أساس الجنس، يصبح العنف البنيوي ميزة وعقيدة تميّز ثقافة الدولة أو المجتمع، كما هو حال الكيان المحتل اليوم. ومن غير المستبعد أن تعود جذور العنف البنيوي إلى وجود إرادة سياسية أو دينية، ضمن عقيدة قائمة على أساس العنف.

نصوص العقيدة اليهودية وسؤال العنف:

لا يمكن فهم المشروع الصهيوني، إلا من خلال الحفر في خلفياته اللاهوتية التي تُؤطّر نشأته وتحدّد غاياته، فالمشروع الصهيوني مشروع استيطاني يقوم على مأسسة لاهوتية متصلة بجذور العقيدة والشريعة اليهودية، لتسويغ الإبادة الجماعية والتطهير العرقي الذي يرتكبه الاحتلال ضد الفلسطينيين، فالمتتبع لمشهد معاناة الفلسطينيين اليوم يشهد وحشية لا توصف يمارسها الكيان المحتل، لكن دهشته هذه تزول بمجرد استقرائه للمرجعية الدينية للممارسات

الصهيونية، وهي مرجعية تحدد لليهود كيفية احتلال المدن والتعامل مع أهلها. وهذا ما مثّل مصدر إلهام ومبررًا للأفعال الوحشية المقترفة في حقّ الفلسطينيين عمومًا وسكان غزّة على وجه الخصوص منذ بداية أحداث طوفان الأقصى. جاء في سِفر التثنية:

«حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ. فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلِّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ، وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ».(تث٢٠:١١-١٤).

> لا يمكن فصل الوحشية الاستيطانية الصهيونية عن جذورها اللاهوتية التوراتية، التي تشكل الإطار المرجعي والمبرر الديني لكل أشكال الإبادة والتطهير العرقي ضد الفلسطينيين، كما يتجلى بوضوح في أحداث "طوفان الأقصى" في غزة

يبيّن الاقتباس في أعلاه أن ما يطبّقه الكيان اليوم ما هو إلا امتثال حرفي للمرجعية الدينية التي تدعو للعنف والتقتيل والتنكيل والتجويع والحصار. أما التهديد بالتهجير فهو الآخر من بين نصوصهم التي تدعو إلى:

«كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّكُمْ عَابِرُونَ الأُرْدُنَّ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، فَتَطْرُدُونَ كُلَّ سُكَّانِ الأَرْضِ مِنْ أَمَامِكُمْ، وَتَمْحُونَ جَمِيعَ تَصَاوِيرِهِمْ، وَتُبِيدُونَ كُلَّ أَصْنَامِهِمِ الْمَسْبُوكَةِ وَتُخْرِبُونَ جَمِيعَ مُرْتَفَعَاتِهِمْ. تَمْلِكُونَ الأَرْضَ وَتَسْكُنُونَ فِيهَا لأَنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمُ الأَرْضَ لِكَيْ تَمْلِكُوهَا، وَتَقْتَسِمُونَ الأَرْضَ بِالْقُرْعَةِ حَسَبَ عَشَائِرِكُمْ. الْكَثِيرُ تُكَثِّرُونَ لَهُ نَصِيبَهُ وَالْقَلِيلِ تُقَلِّلُونَ لَهُ نَصِيبَهُ. حَيْثُ خَرَجَتْ لَهُ الْقُرْعَةُ فَهُنَاكَ يَكُونُ لَهُ. حَسَبَ أَسْبَاطِ آبَائِكُمْ تَقْتَسِمُونَ. وَإِنْ لَمْ تَطْرُدُوا سُكَّانَ الأَرْضِ مِنْ أَمَامِكُمْ يَكُونُ الَّذِينَ تَسْتَبْقُونَ مِنْهُمْ أَشْوَاكًا فِي أَعْيُنِكُمْ، وَمَنَاخِسَ فِي جَوَانِبِكُمْ، وَيُضَايِقُونَكُمْ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ سَاكِنُونَ فِيهَا». (سِفر العدد ٣٣: ٥٠-٥٥). وبناء على هذه النصوص أصبح كل فعل إجرامي تدميري يستند إلى مرجعية دينية تدعو إلى اقتلاع وطرد كل الشعوب التي تقف أمام تمدد المشروع الصهيوني الاستيطاني، "فَتَمْحُو اسْمَهُمْ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ حَتَّى تُفْنِيَهُمْ.» (تث ٧: ٢٤)". «وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا.» (تث ٢٠: ١٦).

لقد وجدت الصهيونية المتطرفة[١١] ملاذها ومبررات فعلها في نصوصها الدينية، التي تجعل ما سوى اليهودي في مرتبة أدنى من البشر، "لأن اليهود هم البشر، أما غيرهم فهم ليسوا من البشر، بل وحوش وشياطين. وبما أنهم كذلك جاز قتلهم دون أن يترب على ذلك عقوبة، "فاليهودي إذا قتل أحد الأغيار يكون مذنبًا فقط بارتكاب معصية ضد شرائع السماء، وهي معصية غير قابلة لعقوبة صادرة عن محكمة. أما التسبب بصورة غير مباشرة بقتل أحد الأغيار، فهذا ليس معصية على الإطلاق"[١١].

استنادًا إلى هذه الرؤية التلمودية، تم تبرير القتل الجماعي و إبادة المدنيين، باعتبارهم أغيارًا يجب قتلهم، بحسب ما ورد في كتيّب وُزّع على كتيبة من جيش الاحتلال جاء فيه: "عندما تصادف قواتنا مدنيين في أثناء الحرب، أو في أثناء عملية مطاردة، أو في غارة من الغارات، ومادام هناك عدم يقين، حول ما إذا ما كان هؤلاء المدنيون غير قادرين على إيذاء قوّاتنا، فيمكن قتلهم بحسب الهلاخاه، لا بل ينبغي قتلهم...إذ ينبغي عدم الثقة بالعربي في أي ظرف من الظروف، حتى و إن أعطى الانطباع بأنه متمدن"[١٢]. بناء على هذه الرؤية لا معنى للحديث عن أخلاقيات الحرب ولحقوق المدنيين التي تضمنها المواثيق الدولية في أثناء الحروب. ولا معنى للحديث عن القيّم الإنسانية وحقوق الإنسان ونحن أمام منظومة فكرية تستند إلى مرجعية دينية مغلقة تدعو إلى استعباد الأغيار وعدم مساعدتهم وتقديم يد العون لهم، والعمل بكل الطرق والوسائل لإبعادهم، وتجب مدحهم أو نسبة أيّ فضل لهم.

إن تلطيخ صورة الخصم من الوسائل الشائعة في الصراعات السياسية والدينية، سواء أكان هذا الرمز شخصًا أو مؤسسة أو فكرة يعتز بها الخصم ويمجّدها. وتلطيخ صورة رموز الخصم له وظيفة

وغاية. فهو جزء من تحطيم الخصم بتحطيم رموزه الدّالة على كينونته، وهو أيضًا أداة بيد من يقومون بالتشويه ويحشدون بها الأنصار ضد هذا الخصم...وتعبئتهم نفسيًا، وربما إيديولوجيًا، بكراهية الخصم التي تصل إلى حد القضاء عليه واستئصاله[١٣].

وبناء على هذا كان المسيحيون فيما مضى يعدّون أنجاسًا ومن غير المسموح لليهود شرعًا أن يختلطوا بهم. وهم أعداء الله وأعداء شعبه. ويمتنع على اليهود أن يشيروا عليهم في أي أمر، وإن سألوا عن شأن إلهي فينبغي أن تصبّ عليهم اللّعنة. أما الأبناء من زيجات مختلطة (بين اليهود والمسيحيين) فهم أبناء زنا وغير شرعيين. ونتيجة لذلك كان المسيحيون يسجنون لأشهر عديدة، وأحيانًا لسنوات، يخضعون خلالها للمساءلة مع إعطائهم فرصة للنجاة إذا تخلّوا عن المسيحية، وقد كان الهدف الرئيسي من ذلك إقناعهم بالردّة (عن المسيحية). وكان الذين يبقون على إيمانهم يعذّبون ويُعدمون بطرق شيطانية. فمنهم من كان يقطّع إلى قطعتين، ومنهم من كانت تقطّع أعضاؤه عضوًا عضوًا[١٤].

المقدمات الليبيرالية للفكر الاستعماري:

يقودنا الفهم العميق لليبرالية من داخل أُطرها الأوروبية إلى نتيجة مفادها أن ما يُميّزها ليس الحرية والكرامة، بقدر ما يتمثّل في أنها صِيغت كواقع أوروبي ونتيجة لتطوُّر الحضارة الغربية الحديثة منذ انهيار الإقطاع وازدهار الحياة في المدن وظهور البرجوازية، وصولًا إلى مرحلة الثورة الصناعية وانفجار المَد الاستعماري وما تلاه من صنوف التبعية للغرب.. إن الاستعمار هو الوجه القبيح لليبرالية[١٥]. لأنه كان الركيزة الأساسية للتاريخ السياسي والاقتصادي والثقافي الحديث. يشير الاستعمار تاريخيًا إلى السيطرة على الحُكم، والأرض، والناس والفرض القسري للسيطرة العسكرية، والاقتصادية، والسياسية (والأوروبية الأمريكية) على الصعيد العالمي: أي أنه، عبر المراحل، والوسائل، والأساليب المختلفة، كان بشكل عام لبنة أساسية لبناء العالم

رشق الحجارة من قبل المستوطنين الإسرائيليين
جنود إسرائيليون يقفون جانبًا بينما يقوم مستوطنون إسرائيليون برشق الفلسطينيين (غير الظاهرين في الصورة) بالحجارة، خلال مواجهات في بلدة حوارة بالضفة الغربية المحتلة في ١٣ أكتوبر ٢٠٢٢.
● المصدر: نيوزويك (Newsweek)



الحديث والسيطرة عليه.
وعندما وقع اتصال الحضارة الأوروبية بالعالم الأسود تم صنع صورة نمطية للمستعمَر، في أعماق العقل الباطن الأوروبي، تكمن فيها أكثر الدوافع انحطاطًا أخلاقيًا وأكثر الرغبات مدعاة للعار..."إن الزنجي مثال على الرجل الحيوان بكل همجيته وخروجه على القانون. و إذا أردنا أن نفهمه، يجب علينا أن نتجرد من كل توقير وأخلاقيات ومن كل ما نسميه عواطف. سنجد في شخصيته كل ما هو غريب على رجل في وجوده المباشر ولا شيء مما هو منسجم مع الإنسانية. ولهذا السبب لا يمكننا أن نشعر بأنفسنا على نحو مناسب في طبيعته"[١٦].

فالمستعمِر غالبًا ما يرفض تقدير أو الاعتراف بإنسانية الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية؛ وبالتالي يعتبر المستعمِرون هذه الشعوب حالة شاذة، ولا يمكن التنبؤ بسلوكها. ويبقى العنف والإبادة هو اللغة التي قد تفهمها

في نص لافت للكاتب ألبرت ميمي مؤلف كتاب "المُستعمِر والمُستعمَر"، الصادر في ١٩٥٧، حول كيفية طمس المُسْتعمِرين لإنسانية المستعمَرين، يقول ميمي: "إنسانية المُستعمَر، التي يرفضها المُستعمِر، تصبح مطموسة. ومعهم لا يمكن التأكد من شيء أو معرفة شيء! ويخيل لدى المُستعمِر أن هناك نوازع غريبة ودوافع مقلقة تسيطر على المُستعمَر. ولا بد أن الأخير هو بالفعل غريب أو شاذ جداً، خاصة إذا ما استمر غامضاً جداً بعد سنوات من العيش مع المُسْتعمِر. فالمستعمِر غالبًا ما يرفض تقدير أو الاعتراف بإنسانية الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية؛ وبالتالي يعتبر المستعمِرون هذه الشعوب حالة شاذة، ولا يمكن التنبؤ بسلوكها. ويبقى العنف والإبادة هو اللغة التي قد تفهمها"[١٧]. إنها الصورة النمطية كما رسمها فرانس فانون للفضاء الاستعماري، فضاء مقسوم بلا وسطاء ولا مؤسساتٌ تخفف هيمنة المستعمِر؛ فالإنسان المستعمَر يُحرم من مقومات إنسانيته الثقافية والتاريخية، ويُعامل كرجس أو أصلةٍ دون حقّ في التمثيل الذاتي. هكذا يصبح "حاجز اليد" رمزًا للفصل بين عالمين لا يجتمعان إلا في ساحات المعارك الثورية، حيث تتبوأ المقاومة موقعها كوسيطٍ بديلٍ يعيد للإنسان المقهور حقه في الوجود والفاعلية.
مستندةً لعقدة التفوق ومركزية الجنس الأوربي (الأبيض) عاملت السلطات الاستيطانية السكّان الأصليين معاملة حيوانية وكأنهم ما دون البشر وأن المستعمرين ذوو حق إلهي. ففي بدايات احتلال الجزائر كان لسان حالهم يقول: "المسلمون إذا شعروا بإنسانيتهم كسروا عصى الطاعة، وخرجوا من التبعية. ولإبقاء الوضع على ما هو عليه يجب أن يذلّوا، وأن تنتزع العزة من قلوبهم، وأن يدفعوا إلى صفوف البهيمة، سيترك للأجساد أن تعيش، ولكن لا بد من قتل النفوس...فليس في الجزائر مكان لجنسين"[١٨]. ومنطوق العبارة لا يحتاج لتأويل لكشف خبايا المعاني المضمرة. فالحملة الفرنسية على الجزائر، لم تكن حملة استعمارية استيطانية بالمفهوم الاعتيادي، بل كانت روافدها تتغذى من مرجعية مسيحية ترتكز على المعتقد الصليبي في كل توجهاتها، بحسب ما عبرت عنه أحدى السرديات الكنسية: "إن حربنا في الجزائر أسمى وأشرف من كل ما طمحت إليه حروبنا الأوربية، ذلك أنها تتعلق بقضية الحضارة المقدّسة، القضية الخالدة للفكر المسيحي، الذي وعده الإله بمملكة العالم، وأوكلت العناية الإلهية شرف القيام بعمله للعبقرية الفرنسية"[١٩].
إن الطابع الشمولي للاستعمار الاستيطاني يدمر العنصر الحي لأشكال التنظيم والثقافة المحلية ويخلق المواطن الأصلي. لكن المواطن الأصلي لم يقبل التصوير الكولونيالي باستكانة؛ إنه مغلوب على أمره. لكنه لم يتم ترويضه؛ إنه يتعامل بدونيته، لكنه غير مقتنع بدونيته...إن قيام النظام الكولونيالي بعرض قوته باستمرار هو علامة دالة على افتقار الكولونيالية إلى الهيمنة والثقة[٢٠].
لا يسع الباحث في مسألة الحريات السياسية وحقوق الإنسان أن يغفل ظاهرة الاستعمار المباشر وغير المباشر، القديم والجديد، التي أنتجت ولا تزال تنتج المستعمر والمستعمر وتضعهما في علاقة تناحرية تدميرية ضحيتها

إنسانية المستعمر والمستعمر على السواء. فكل أمة استعمارية تحمل في أحشائها بذورًا فاشية. تتظاهر لدى المستعمر نفسه في "عقدة نيرون" التي تحدّث عنها الأديب والكاتب التونسي ألبير ميمي في كتابة "شخصية المستعمِر والمُستَعمر" الذي حلل فيه، من واقع المعاينة المباشرة والمعاناة الشخصية، وضعية التدمير المتبادل للقيم الإنسانية والحضارية التي ينتجها الاستعمار، إذ يجهد المستعمر في تزييف التاريخ ويعيد كتابة النصوص ويطفئ مخزونات الذاكرة، ويفعل أي شيء لينجح في تحويل الاغتصاب إلى عمل شرعي. وذلك من خلال عمليتين متلازمتين أولاهما: إثبات مزايا المُغتصب البارزة ورسالته الحضارية التمدنية لدرجة استحقاقه المكافأة. والثانية: الإصرار على سيئات المغتصب وعطشه لتبرير ذاته يتطلب منه أن يرفع نفسه عاليًا وأن ينزل المغتصب إلى أسفل درك[٢١].

لقد دأبت السياسات الاستعمارية على توظيف هذا النوع من التبخيس والتدمير الثقافي للهوية ضد الشعوب المستعمرَة تحت ذريعة التنوير والتبشير والديمقراطية. ويمكن تصنيف تسميات النمو وبلدان العالم الثالث والبلدان النامية تحت هذا العنوان التبخيسي للهوية. ومما لا شك فيه أن هذه التسميات وغيرها التي أطلقت على الشعوب المغلوبة تمثّل أحكامًا قيمية غامضة بذاتها ترمز إلى تقدم المجتمعات الغربية وتفوقها قياسًا إلى تخلف الآخر. حتّى أن الحملةَ الأمريكية التي أعلنت من أجل المثل الديمقراطية وحقوق الإنسان، والتي وُظّفتْ في عملية التدخل الإنساني كانت تنطوي على أحكام قيمية تبخيسية ضد الأنظمة الاجتماعية والثقافات الإنسانية لهذه البلدان[٢٢]. إذ شكلت رأس الرمح في الهجوم الإيديولوجي على هذا العسكر، لذلك فليس من المستبعد اليوم توظيفها واستثمارها ضمن أدوات أخرى لإحكام السيطرة على دول الجنوب[٢٣].

ففي الوقت الذي تطور فيه مفهوم حقوق الإنسان لصالح الشعوب الأوروبية، كان الاتجاه الفكري السائد يبرر إبادة الشعوب الأخرى باسم الرسالة

مورغان أورتاغوس
المبعوثة الخاصة للولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط، تستخدم حق الفيتو خلال تصويت أعضاء مجلس الأمن الدولي على مشروع قرار يطالب بوقف إطلاق النار في غزة، بمقر الأمم المتحدة في مدينة نيويورك، الولايات المتحدة، ١٨ سبتمبر ٢٠٢٥.



التحضيرية التي يمارسها الإنسان الأبيض عبر عمليات الاحتلال والاستعمار المباشر، مما جعل خطاب الحقوق منذ البداية خطابًا مزدوج المعايير، وقد صاحب ذلك تمييز واضح بين حقوق الإنسان في مجالها الغربي وحقوق الإنسان في مجالها العالمي، بل إن فلسفة حقوق الإنسان في الغرب سارت جنبًا إلى جنب مع عمليات استعمار الشعوب[٢٤]. من خلال نزعة عالمية، عولمية واستثمار إيديولوجي مرتبط بتوسع السوق الرأسمالية على المستوى العالمي.

> عندما تنسب الكونية للغرب، ولثقافة الغرب، ينتهي مفهوم حقوق الإنسان إلى الرؤية الغربية ذاتها التي يحاول الغرب فرض عالميتها على الشعوب الأخرى في إطار محاولته فرض سيطرته ومصالحه القومية

أسطورة النقاء العرقي اليهودي والأيديولوجية الاستعمارية

لقد أدّى الخلط المتعمّد بين الديانة اليهودية ومعتنقيها وبين "الكيان الإسرائيلي" و إيديولوجيته الصهيونية[٢٥] إلى توسيع الهوة بين طرفي المعادلة الحوارية، "فالكيان الإسرائيلي" -ولكي يمكن لنفسه- عمد إلى الدمج بين الأصول التوراتية والإيديولوجية الاستعمارية، وفرض بذلك طوقًا على كل من يحاول نقد أساليبه القمعية تجاه الفلسطينيين. أما غايتهم فهي أن يحصل يهود العالم على حقوقهم القومية والدينية والوطنية، والتوسل إلى نيل ذلك بكل الوسائل الممكنة بلا قيد أو شرط. وأما خطتهم فهي إشغال أفكار العالم بغايات موهومة مرنة، وبهذه الصورة يتمكنون من إحداث ثورات واضطرابات، لاتخاذها ذريعة لابتزاز ثروة الناس، ليتمكنوا بقوة المال من أي عمل ينوون القيام به.

انطلاقًا من هذه الرؤية، ابتدعت الصهيونية[٢٦] مفهوم "معاداة السامية" وبدأت توظّفه لتحقيق مصالحها بعدما اتخذت القيادات الصهيونية من ظاهرة معاداة السامية ذريعة لفصل الجماعات اليهودية في أوروبا عن المجتمعات المسيحية التي كانت تعيش بينها، وطورت على أساسها الفكرة القومية الموجهة لإنشاء ما يسمى بالوطن القومي لليهود[٢٧]. ونتيجة لتقاطع المصطلح مع العديد من المزالق الأيديولوجية والسياسية، فقد تم توظيفه لكبح كل صوت معارض مطالب بالحقوق المشروعة، حيث أصبح كلّ نقد لـ"إسرائيل" وسياساتها القمعية تجاه الشعب الفلسطيني يُعدّ في خانة "معاداة السامية"، التي تعد وفق ما تناولها ليو بنسكر[٢٨] ظاهرة مرضية وعقدة نفسية دائمة أصيب بها الإنسان الأوروبي المسيحي[٢٩]، وهي ليست فقط ظاهرة اجتماعية أو اقتصادية كما اعتقد الكثيرون. فمعاداة السامية في رأي بنسكر هي كراهية الغريب، وطالما أن اليهود أقلية في كل مكان يعيشون فيه فهم كالأشباح المطاردين في كل مكان، وغرباء على كل الشعوب التي تكره بطبيعتها كلّ ما هو أجنبي عليها.

تقول الفيلسوفة الأميركية جوديث بتلر[٣٠] مُعلّقة حول المفهوم وتوظيفه: "إنه إذا ما أصبحت تهمة معاداة السامية تكتيكاً لقمع الجدل والانتقاد المفتوح لدولة "إسرائيل"، فإن ممارسات "إسرائيل" في سلب السكان الفلسطينيين بيوتهم وأراضيهم سوف يُفقدها مطلبها في أي شكل من أشكال الحقيقة، وسيكون مفهوماً للجميع أن الأمر تكتيك وكذب"[٣١]. وبنفس الحشد والحمولة تم توظيف "المحرقة" لتبرير العنف في الفكر اليهودي المعاصر، وقد التفت إلى هذه الفكرة أبراهام بورغ في كتابه المحرقة انتهت في إطار نقده العنف ورأى أن: في "إسرائيل" تُحبُك المحرقة بدرجات متفاوتة على خلاف غيرها من حوادث الماضي، فالمحرقةُ لا ترتد إلى الوراء، بل تتقدم طوال الوقت. إنها ماض حاضر، مصان ومراقب... والرجوع اليومي إلى المحرقة يسوّغ الحربَ والعنف المقدس، ويبقي "إسرائيل" في موقف الضحية والدفاع المستمر[٣٢].

الإنسان الأعلى والإنسان الأدنى من منظور الأيديولوجيا الاستعمارية

من أهم المصادرات الضمنية لفلسفة حقوق الإنسان، النظر إلى الإنسان كغاية، ذات قيمة عليا، وكمركز لكل ما يجري في هذا العالم، بل إن البعض رأى فيها بُعدًا نرجسيًا يعكس إعلاء الإنسان لنفسه، كائن مدني، عاقل، وإرادي متميز بالكرامة، والقيمة والمساواة والعدل، في كل بقاع العالم، لا في قوم دون آخرين، أو في ثقافة دون أخرى، أو فئة دون أخرى، سواء أكانت فئة عرقية أو اجتماعية،

أو ثقافية أو غيرها[٣٣]، فالناس كأفراد للنوع البشري، وكأعضاء متساوين في الإنسانية، هم المخاطبون المقصودين بهذا الخطاب.

لكن عندما تنسب الكونية للغرب، ولثقافة الغرب، ينتهي مفهوم حقوق الإنسان إلى الرؤية الغربية ذاتها التي يحاول الغرب فرض عالميتها على الشعوب الأخرى في إطار محاولته فرض سيطرته ومصالحه القومية، بل ويستغل ذلك سياسيًا في كثير من الأحيان، كما يحدث في العلاقات الدولية وفي الدفاع عن حقوق بعض الأقليات بهدف زعزعة وضرب النظم السياسية المخالفة والخارجة عن "الشرعية الدولية" و"النظام العالمي الجديد".

لقد سار الغرب، في اتجاه عولمة فهمه الخاص للديمقراطية وحقوق الإنسان، تحت شعارات يعتبرها تراثًا مشتركًا للإنسانية جمعاء، لا تراث حضارة بعينها، مخفيًا وراء ذلك، حقيقةً أنه يعكس نتائج تغير موازين القوى و إرادة الهيمنة، وبعبارة أخرى "حكم الغالب على المغلوب"، ولعل فرانسيس فوكوياما، لم يكن ليجرأ أن يبشر الغرب، بأن نهاية التاريخ ستكون عند سيادة القيم الغربية في الديمقراطية واقتصاد السوق، وهذا ما يبحث عنه الفاعلون في تيار عولمة الاقتصاد الرأسمالي العالمي، لأنه سيضمن لهم بقاء الدولة-التي اعتبر تدخلها ضروريًا، في حالة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية- بعيدة عن هذا المجال، وسيضمن لهم أمن وسلامة مصالحهم، التي ستكون -في رأي الكثيرين- مكفولة في ظلّ الأنظمة التي تحترم الحقوق السياسية.

وبهذا المعنى يحاول اليمين الليبرالي والمحافظون الجدد، إعادة قراءة التاريخ، بما يضمن تجميد الحقبة الكولونيالية، واعتبارها خيرًا للشعوب المستعمرة. وتمجيد الجيوش الغازية في التاريخ الاستعماري مع الترويج للتدخل العسكري، لفرض الديمقراطية على البلدان ذات الأنظمة الموصوفة بالاستبدادية، وكذلك تحطيم السيادة الوطنية لبلدان العالم الثالث، وبهذا تعتبر الثورة (الديمقراطية) الدائمة التي يعتمدها المراجعون والهادفة إلى تدمير الأنظمة الاستبدادية، وتفكيك



لمس حائط البراق
وزير الخارجية الأمريكي ماركو روبيو ورئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو يقفان جنباً إلى جنب وهما يلمسان حائط البراق (الحائط الغربي).
● المصدر: نيتن هاوارد

الثروات الوطنية، وتوزيعها على الشركات الاحتكارية، تعبيرًا عن أحلام الإمبراطورية الأمريكية، في مرحلة الرأسمالية المعولمة. كما عبّر عن ذلك نعوم تشومسكي بقوله: "التطلعات الهيمنية للولايات المتحدة الأمريكية من وحي مصالحها الأمنية القومية أو ما أمسى متعارَف عليه بـ"الحلم الأمريكي"، الذي تحول وجوده على أرض العراق كواقع معاش. فالولايات المتحدة في حربها على العراق هدفت إلى تكريس مفهوم جديد في العلاقات الدولية، يتمثل في الحرب الوقائية والذي على أساسه تعطي الولايات المتحدة لنفسها الحق في مهاجمة كل بلد من الممكن أن يكون منافسًا محتملا"[٣٤]، لأن: النظام المزمَع تأسيسه سيقوم على الحقّ الذي يضبط سلوك الأمم، وأن هذا النظام سيكون تحت قيادة أمريكا التي لن يقتصر تدخلها على المجالات الأمنية والسياسية، بل لابد أن يشمل المجال الاقتصادي أيضًا، بحيث يوفر لها القدرة على مراقبة بحار ومحيطات العالم، ومواجهة المفاجآت والدفاع عن أوروبا ومصالح الأمريكيين أينما كانت وحيثما تعرضت للتهديد[٣٥].

> وجدت الصهيونية في الخطاب الإستشراقي مدافعًا شرسًا عن إيديولوجيتها ودفع تهمة الاستعلائية والعنصرية عنها، كما كان الأمر مع برنار لويس الذي دافع بكل الطرق عن الصهيونية معتبرًا أنها "ليست حركة عنصرية في الأساس ولكنها شكل من أشكال القومية أو حركة تحرير وطني بالمصطلح الحديث

لم يبرح الانتصار للذات أن تحول إلى انتصار للذات الغربية، التي تحولت إلى معيار ونموذج للتقدم لتصبح المركزية الإنسانية، هي مركزية الإنسان الأبيض (الغربي) الذي أصبح مرجع ذاته أولا ومرجع باقي بني الإنسان، ثم مرجعية الكون بأسره. وهنا تنتج ثنائية صلبة أخرى، هي ثنائية الأنا والآخر، حيث تعبر الأنا عن المرجعية الواحدية الكامنة في الذات الغربية، التي تسيّدت بقية البشر والطبيعة باسم حقوقه المطلقة، وباسم تفوقه الحضاري، فتحولت الهيومانية إلى إمبريالية كاملة لا تعترف إلّا بالقوة والتفوق العِرقي، فقد تبدت الرؤية المعرفية الإمبريالية على هيئة الدولة المطلقة في الداخل الأوروبي، وعلى هيئة التشكيل الاستعماري الغربي في الخارج العالمي. ورغم اختلاف المجال والآليات، ظلت الأهداف النهائية واحدة. وهي الدولة العليا، وهذه الدولة هي التي يمكن أن تسيطر على العالم، ويصبح مواطنوها أسياد العالم[٣٦]. إن الدول الغربية الديمقراطية لها مشروعها الاستعماري الضخم، حيث التهمت معظم أنحاء العالم وقمعت السكّان الأصليين، وسلبتهم حريتهم وحطمت مؤسساتهم الاجتماعية والثقافية[٣٧].

الاستشراق والسردية الاستعمارية

لم تكن أوروبا قبل عهد الإصلاح الديني[٣٨] تعتبر اليهود الشعب المختار الذي قُدر له أن يعود للأرض المقدسة. وكان اليهود يعتبرون مارقين ويوصمون بأنهم قتلة المسيح، ولم تكن هناك ذرة من حب عاطفي للمجد القديم للجنس العبري، كما لم تكن هناك بارقة أمل في إعادة بعث اليهود روحيًا أو قوميًا. لولا جرعة الأمل التي حملتها حركة الإصلاح في تمهيدها الطريق للأفكار الصهيونية عن الأمة اليهودية والبعث اليهودي وكون فلسطين وطنًا لليهود، وهي الأفكار التي لاقت رواجًا فيما بعد. وقد رسّخت الصهيونية غير اليهودية في القرن ١٦م حين أصبحت المعتقدات الدينية اليهودية جزءًا من طقوس الكنيسة، ومن ثمّ شاعت في الحياة الثقافية اليومية، وكان للصهيونية غير اليهودية ممثلون مرموقون في كل فترة من فترات التاريخ التي أعقبت حركة الإصلاح الديني، وتحولت من عقيدة لاهوتية إلى أيديولوجية سياسية للغرب المعاصر[٣٩]، وبقيت الصهيونية في مخيال معتنقيها تعبّر عن حركة قومية.

من زاوية أخرى وجدت الصهيونية في الخطاب الإستشراقي مدافعًا شرسًا عن إيديولوجيتها ودفع تهمة الاستعلائية والعنصرية عنها، كما كان الأمر مع برنار لويس الذي دافع بكل الطرق عن الصهيونية معتبرًا أنها "ليست حركة عنصرية في الأساس ولكنها شكل من أشكال القومية أو حركة تحرير وطني بالمصطلح الحديث. وهي كغيرها من الحركات تجمع تيارات مختلفة بعضها نابع من العرف والضرورة والبعض



الآخر حملته لها رياح التغير الدولية. وأهم ما في الأولى هو الديانة اليهودية بتأكيدها المستمر على صهيون والقدس والأرض المقدسة وأفكار العبودية والاغتراب والعودة. وهي أفكار متداخلة معًا ومتكررة"[٤٠].

يؤكد بنسكر أنه "يجب أن لا نحلم قبل كل شيء بمملكة يهوذا، وأن لا تتعلق نفوسنا بالمكان الذي شهد في قديم الزمان بتر حياتنا السياسية والقضاء عليها بعنف. إن هدف مساعينا الحاضرة يجب أن لا يكون الأراضي المقدسة، بل أرض تخصنا وحدنا وتكون لنا. سنأخذ معنا أقدس ما نملك وما تم إنقاذه من تحطم سفينة وطننا السابق، وهما فكرة الله والكتاب المقدس، فهما وحدهما اللّذان جعلا وطننا السابق أرضًا مقدسة، وليست القدس أو نهر الأردن، ولكن ربما عادت إلينا الأرض المقدسة من جديد".

يظهر من هذا تأثّر بنسكر بالأفكار التحررية التي ترى مبدأ التحرر اليهودي أساسًا لحل المشكلة اليهودية[٤١]، كما يظهر هذا في رغبته في قبول اليهود على قدم المساواة في العالم مع غيرهم من الشعوب، وهي فكرة ترجع أصولها إلى مبادئ المساواة التي بثتها الثورة الفرنسية.

يُمكّننا الفهمُ الواضح لظاهرة الصهيونية غير اليهودية بمنظورها التاريخي من خلع قناع أسطورة الصهيونية ورؤيتها على حقيقتها الأساسية، وهي أنها نتاج الفلسفات الأوروبية العنصرية والاستعمارية، فمع صعود نجم الصهيونية غير اليهودية كانت مجموعة كاملة من الآراء المتحاملة على العرب تتكون في ضمير الغربين، وقد تمّ إيجاد قوالب عنصرية ثقافية ثابتة لا تزال تنمو في الغرب. وكان اليهود يجسّدون معظم الفضائل الغربية وينبغي لهم أن يستوطنوا فلسطين من أجل الحضارة[٤٢]. فقد مهدت الصهيونية لإقامة الكيان الصهيوني (بعنوان وطن قومي يهودي) وشرعنة وجوده واستدامته بعدد من الأساطير والديباجات بعضها يتقاطع مع ديباجات الإمبريالية ومبرراتها. تبدأ هذه الديباجات بعبء الرجل الأبيض ودوره في تمدن العالم وتحديثه واستعماره ونقله إلى حضارة أوروبا

استقلال الجزائر
الجزائريون يحتفلون باستقلالهم عن فرنسا. الشوارع تكتظ بالحشود القادمة من "القصبة"، والقرى المجاورة، والجبال، ومعسكرات التجميع، بعد إعلان نتائج الاستفتاء في ٧ مارس ١٩٦٢ في مدينة الجزائر.
● المصدر: دومينيك بريتي

وأنوارها. وقد شاعت طويلاً في الغرب ولا زالت فكرة أن "إسرائيل" هي "أوروبا ما وراء البحار"[43]. وهذا ما وفّر الغطاء والدعم للغزو الاستعماري الاستيطاني في فلسطين باسم العقلانية والتقدم والمساواة والتسامح والديمقراطية وحتى مناهضة العنصرية. فحين اندفعت الليبرالية الغربية لتأسيس المشروع العنصري "الإسرائيلي"، والعمل على تكريس تفوّقه وبقائه، فإنه يستوي في تبرير مَوقِفهم هذا أن "إسرائيل" حاملة لواء الديمقراطية الليبرالية في الشرق الاستبدادي المُتخلِّف، أو أنها أقوى وأبهى إنجازات المشروع الاستعماري وأعلى أشكاله. ولا تُقلِق حقوق الإنسان الليبرالية قيد أنملة ولا تُغيّر توجُّهاتها لتكسير عظام الفلسطينيين وتعذيبهم وتهدم مَنازلِهم وطردهم من أراضيهم، طالما أن في هذا ما يُؤكّد الأهداف النهائية للحضارة الغربية ومَدها الاستعماري، أي تأكيد هيمنة المشروع الحضاري الغربي كمشروع أوحد[44].

> الاستعمار لم يكن مجرد مغامرة عشوائية، بل مشروعًا منهجيًا مدعومًا من قبل الدول الأوروبية، وهذا المشروع الاستعماري استلزم تبريرًا أيديولوجيًا، ممّا أدّى إلى ظهور الإيديولوجيّة الاستعماريّة، التي تكفّلت بتبرير الممارسات القمعية ضد الأهالي، مهما كانت فضاعتها، لأن هذه الممارسة تبقى في دائرة المقبول والمرغوب، لأن مَن وقعت عليه ليس الإنسان الأبيض

ورغم محاولة بعض المفكرين المعاصرين تخليص العنف الصهيوني من رمزيته اليهودية، بقيت هذه المحاولات غير ذات صدى، وبقي المشروع الاستيطاني يهدف في الأساس إلى تفكيك الوجود الفلسطيني من طريق العنف وتفكيك الشعب الفلسطيني إلى مجموعات يتم التعامل مع كل جزء منها على وفق سياسة "إسرائيلية" مختلفة. هذا ما يبيّن كيف أنّ الاستعمار لم يكن مجرد مغامرة عشوائية، بل مشروعًا منهجيًا مدعومًا من قبل الدول الأوروبية، وهذا المشروع الاستعماري استلزم تبريـرًا أيديولوجيًا، ممّا أدّى إلى ظهور الإيديولوجيّة الاستعماريّة، التي تكفّلت بتبرير الممارسات القمعية ضد الأهـالي، مهما كانت فضاعتها، لأن هـذه الممارسة تبقى في دائـرة المقبول والمرغوب، لأن مَن وقعت عليه ليس الإنسان الأبيض. وهذا ما أشار إليه إيمي سيزار في مقدمة كتابه: خطابٌ حول الاستعمار. بنبرة تهكمية قائلاً: "ما لا يغفر لهتلرَ، ليس هو جرائمَه في ذاتها، جرائمَه ضدّ الإنسان، وليس الاحتقارَ في ذاته، احتقارَ الإنسان، بل جرائمَه ضدّ الإنسان الأبيض، واحتقارَه للإنسان الأبيض، وكونَه قد طبّق في أوروبا السُّلوكياتِ الاستعماريّةَ التي لم تُطبَّقْ".

الخاتمة

لقد قام الاحتلال "الإسرائيلي" للأراضي الفلسطينية على جملة من العوامل الدينية ذات الخلفية التوراتية والشريعة اليهودية[45] التي تبرر القمع والتنكيل بالآخرين و إبعادهم وتهجيرهم قدر الإمكان. لأنهم يشكلون عقبة أمام نجاح المشروع واكتماله. ولسان حالهم يقول: "لن يكون ممكنًا إنشاء ملكوت القدسية طالما لا نعرف كيف نكون أشرارًا حقًا حيال الآخر الذي يستحق ذلك، وينبغي طرد أي غريب غير يهودي من حدودنا بالقوة". وبالنظر للظروف الراهنة فإن التهجير القصري والحصار والتجوير يدخل ضمن استراتيجيات ضمان عنصر التفوق الديموغرافي، الذي يعتبر السمة المميزة للفكر الصهيوني المعاصر المطالب بالمزيد من الأراضـي والتوسع أكثر فـأكثر، لأنّ حدود الدولة ليست مرسومة جغرافيًا، ولكنها مرسومة أيديولوجيًا في مشروع توسعي استعماري يعتمد المراحل المتدرجة، ويتخذ من الحرب المقدسة وسيلة استراتيجية لإنجاز مشروع الدولة[46]. مع التركيز على إلغاء صلاحية العودة للمهجّرين. ومن هنا أصبح صاحب الأرض يعيش الشتّات، والمغتصب يدّعي حق ملكية الأرض، بناء على سردية: شعب بلا أرض سكن أرض بلا شعب.

لا يمكن تصنيف ما يقوم به الاحتلال "الإسرائيلي" المدثر برداء الصهيونية المتطرفة، وتحت حماية الفيتو الأمريكي في خانة العنف المباشر أو الرمزي أو البنيوي، لأن الكيان لم يعد يحدد معنى العنف من منظور قيمي، بل هو يرى العنف أو القتل أو التجويع أو الحصار من منظور براجماتي، وهو لا

يرى القوّةَ بأشكالها المختلفة من منظور أخلاقي، بل يقبل بكل تصرف يحقق مصالحه، فالعنف بكل مستوياته مقبول بناءً على ما يترتب عليه، وما دام الكيان فوق المساءلة سواء أكان عنفه بنيوي أو مباشر. وهذا ما يعزز استمرار الاحتقان البنيوي في الأراضي المحتلة خصوصًا، ومنطقة المشرق العربي على وجه العموم، وبالتالي تكريس العنف البنيوي.

الهوامش

١. مـارك فيرّو وآخـرون، الاستعمار الكتاب الأسود١٦٠٠-٢٠٠٠، ترجمة: محمد أحمد صبح، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، (د.ت). (د.ط)، ص ٢٥.
٢. نقلاً عن: أبوزيد، فاروق: الفكر الليبرالي في الصحافة المصرية، عالم الكتب، (ب ط و ت)، ص ٧.
٣. الحولي، يمنى (٢٠١٩): ركائز في الفلسفة السياسية، مؤسسة هنداوي، ص ٢٨.
٤. بن علي، محمد: مقدمات في الفكر الليبيرالي
٥. كمال، شطاب: حقوق الإنسان في الجزائر بين الحقيقة الدستورية والواقع المفقود، الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، (ب ط)، (ب ت)، ص٢٣.
6. R.cassin
٧. المرجع والصفحة نفسها.
٨. فرشان، لويزة (٢٠٠٨): البيئة المدرسية وسلوكيات التلميذ العنيفة، مجلّة حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية،ع٢،، ص١٦١.
٩. خريسان، باسم علي، العنف البنيوي، دراسة في نظرية جوهان غالتونغ لتفسير العنف، مجلّة العلوم السياسية، https://doi.org/١٠,٣٠٩٠٧/jj.v٠i٥٥,٢٣، ص ١٥٩.
١٠. لتفصيل اكثر انظر: سخنيني، عصام: الجريمة المقدسة: الإبادة الجماعية من أيديولوجيا الكتاب العبري إلى المشروع الصهيوني
١١. شاحاك، إشرائيل (١٩٩٧): الديانة اليهودية وتاريخ اليهود، وطـأة٣٠٠٠ عـام، ترجمة رضى سلمان، تقديم، إدوارد سعيد، ط: ٤، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٧، ص١٣٠
١٢. المرجع نفسه، ص١٣٢
١٣. عصام، سخنيني (٢٠١٣): مَقَاتل المسيحيين،



١٢ عاماً من العبودية
مشهد من فيلم (١٢ عاماً من العبودية) - هذا الفيلم هو الأول في تاريخ السينما الذي يفوز فيه شخص أسود بجائزة الأوسكار لأفضل فيلم.

وصفحات أخرى من التنكيل اليهودي بهم، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
١٤. سخنيني عصام، ص٦٥.
١٥. يمنى الحولي، مرجع سابق، ص ٦٤.
١٦. سي غيبسون، نايجل (٢٠١٣): قانون، المخيلة بعد- الكولونيالية، ترجمة: خالد عايد أبو هديب، ط: ١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص ٥٩.
١٧. النجار، مازن : آليات المشروع الصهيوني والعقل الاستيطاني، https://ruyaa.cc/Page/١٢٥٣٤٨/
١٨. سارتر، جون بول (١٩٦٦): الاستعمار الجديد، ترجمة، عايدة وسهيل ادريس، ط ٢، بيروت: منشورات دار الآداب، ص ٦٧.
١٩. بن عون، محمد الحاكم (٢٠١٨-٢٠١٩): المسألة الدينية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠-١٩٥٤)،أطروحة دكتوراه العلوم في التاريخ المعاصر، إشراف: جمعة بن زروال، باتنة، الجزائر: كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة١، ص ٢٥.
٢٠. سي غيبسون، نايجل (٢٠١٣): قانون، المخيلة بعد- الكولونيالية، ترجمة، خالد عايد أبوهديب، ط١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص١٨٨.
٢١. جاد الكريم الجباعي، مرجع سابق، ص ١٤.
٢٢. وطفة، علي أسعد: الاستلاب الرمزي للهوية، ٢٠٢١ https://watfa.net/archives/٥٢٩٨
٢٣. سبيلا، محمد: الأسس الفكرية الثقافية حقوق الإنسان، مرجع سابق، ص ٩٤.

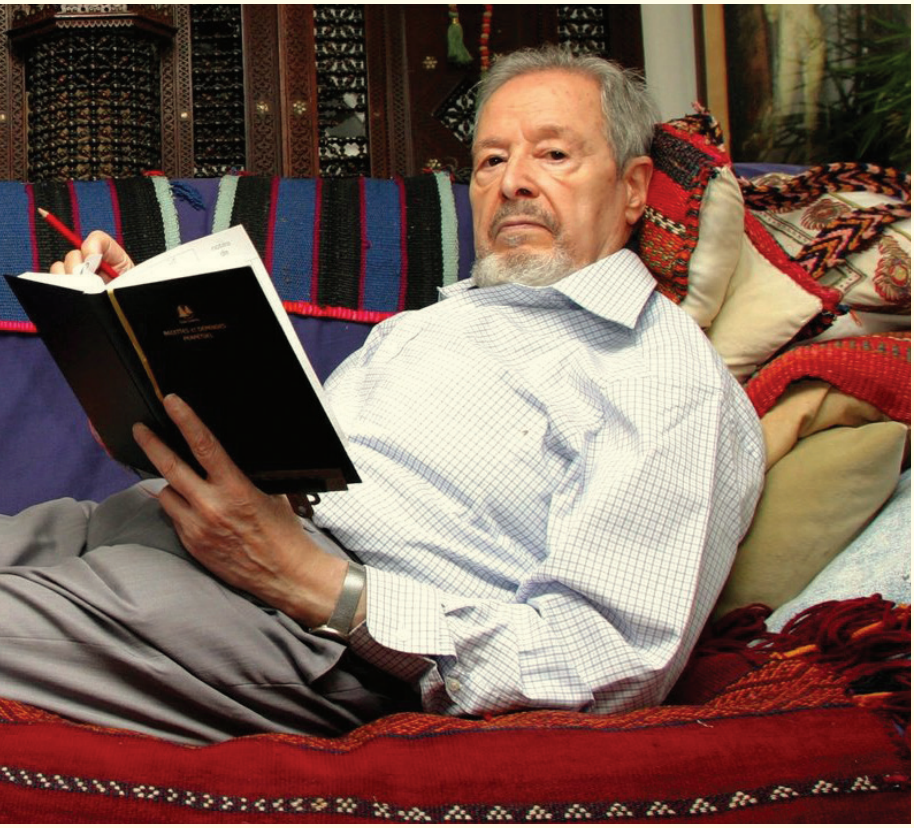

٢٤. المرجع نفسه، ص١٠٣.
٢٥. للتوسع أكثر حول مفاهيم اليهود واليهودية وما تعلق بها من مفاهيم، انظر: المسيري، عبد الوهاب (١٩٩٩): موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط:١، (خاصة ج ٥)، القاهرة: دار الشروق.
٢٦. يرجع تاريخ ظهور الصهيونية السياسية اليهودية كأداة أيديولوجية لكسب التأييد الدولي من أجل إقامة دولة يهودية في فلسطين، خاصة بعد ما نشر هيرتزل كتابه "الدولة اليهودية" في سنة ١٨٩٦.
٢٧. يجمع اليهود على يهودية الدولة لكنهم يختلفون حول تفسير مفهوم الدولة اليهودية وهناك عدة توجهات وهي :

- الدولة اليهودية-دولة التوراة: وهي تعتبر الشريعة اليهودية قانون الدولة بحيث تعمل الدولة بموجب أحكام التوراة وسيعيش المواطنون اليهود في الدولة على وفق أسلوب حياة مطابق لتعاليم التوراة والفرائض الدينية أما القيادة التي ستحكم الدولة فهي قيادة دينية مفوضة بحسب القانون الديني.
- الدولة اليهودية-الدولة الدينية القومية: بحسب هذا التوجه فإن الشريعة اليهودية تحتل في الدولة اليهودية العلمانية مكانة مركزية في الحياة العامة مثل: التقييد بأحكام يوم السبت، التقييد بالطعام الحلال، الزواج والطلاق بحسب أحكام الشريعة اليهودية وبحسب هذا التوجه من الأجدر أن يقوم التشريع وقرارات الحكم القضائية بموجب أحكام القضاء العبري .
- الدولة اليهودية-دولة القومية اليهودية الثقافية: بحسب هذا التوجه فإن الدولة اليهودية تعني أنها



ألبير ميمي
في منزله بباريس، عام ٢٠٠٤.
● المصدر: نيويورك تايمز (The New York Times)

دولة صهيونية تستمد أفكارها من التقاليد القومية، الثقافية والدينية من التراث اليهودي القديم. دولة القومية اليهودية الثقافية هي دولة علمانية تسعى إلى إكساب القيم اليهودية .

• الدولة اليهودية-دولة الشعب اليهودي: هذا التوجه يشدد على كون الدولة، دولة جميع اليهود فالدولة تعتبر مركز التماثل القومي والعاطفي لليهود الذين يعيشون في الشتات. فالدولة ترعى منظومة من العلاقات مع اليهود في الشتات .

لقد قام الاحتلال "الإسرائيلي" للأراضي الفلسطينية على جملة من العوامل الدينية ذات الخلفية التوراتية والشريعة اليهودية التي تبرر القمع والتنكيل بالآخرين و إبعادهم وتهجيرهم قدر الإمكان. لأنهم يشكّلون عقبة أمام نجاح المشروع واكتماله

• دولة "إسرائيل"-دولة جميع مواطنيها: هذا التوجه يشدد على هوية قومية سياسية للدولة أي على مركب المواطنة أي الانتماء للدولة وبناءً عليه فالدولة تتبع لجميع المواطنين الموجودين فيها دون أي علاقة للانتماء العرقي، الديني أو القومي. انظر: محمود مرسى، يهودية الدولة في الفكر السياسي الإسرائيلي المعاصر وتداعياته على القضية الفلسطينية، نقلاً عن: https://democraticac.de/?p=٣٢٤٦٥#_ftnref٢

٢٨. Leo Pinsker (١٨٢١-١٨٩١)، ولد في بولندا وعمل طبيبًا في مستشفى في أوديسا وعمل طبيبًا في الجيش الروسي في أثناء حرب القرم مع الدولة العثمانية. في البداية دعا إلى اندماج اليهود في المجتمع الروسي والتثقيف بالثقافة الروسية وكان من أبرز المثقفين اليهود. بعد المذابح المنظمة وخاصة عواصف النقب سنة ١٨٨١ توجه للتفتيش عن حل للقضية اليهودية. في عام ١٨٨٢ نشر رسالته "التحرير الذاتي: والتي أثارت اهتمام المثقفين من يهود روسيا. وفي هذه الرسالة تطرق بنسكر إلى كراهية الشعب اليهودي والتي فيها يقول أن الشعب اليهودي عبارة عن جسد بلا روح لكونه بلا أرض. رأى بنسكر في هذه الكراهية نابعة من "الخوف من اليهود" بسبب النجاح الاقتصادي الذي حققه اليهود حيث اعتبرتهم الشعوب الأوروبية كمرض يهدد شعوب أوروبا. على اليهود أن يقوموا بتحرير أنفسهم بأنفسهم وأن لا ينتظروا تحريرهم من قبل الآخرين، بل الاعتماد على أنفسهم في حل قضيتهم وذلك بحصولهم على أرض يقيمون فيها وطنهم القومي، ولم يقترح بنسكر في البداية فلسطين ولكنه بعد مؤتمر كاتوفتش ١٨٨٤ تمسّك بأن تكون فلسطين هي الهدف لإقامة وطن قومي لليهود.

٢٩. لتفاصيل أكثر انظر: ديورانت، ويل (١٩٩٢): قصة الحضارة، قيصر أو المسيح، أو الحضارة الرومانية، ج٢، مج٣، ترجمة: محمد بدران، بيروت: دار الجيل، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٣٠. جوديث بتلر (Judith Butler) فيلسوفة أمريكية تعدّ من أبرز الفلاسفة المعاصرين. ولدت في ٢٤ شباط ١٩٥٦ في كليفلاند، أوهايو. حصلت على دكتوراه الفلسفة من جامعة ييل عام ١٩٨٤، وهي أستاذة في قسم الأدب المقارن والبلاغة في جامعة كاليفورنيا. لها إسهامات مهمة في الفلسفة النسوية، والفلسفة السياسية، والأخلاق، ودراسات النوع والجنسانية، وتميّزت أيضًا بتركيزها على الفلسفة اليهودية وتدعم بقوة مقاطعة "إسرائيل" وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها. وهي يهودية تنحاز إلى صف النضال من أجل العدالة الاجتماعية، وتكتب عن مختلف أشكال العنف والظلم في أنحاء العالم، مثل العنف النفسي والتعذيب في غوانتانامو، والعنف الذي تمارسه الشرطة ضد المتظاهرين سلمياً في الولايات المتحدة، على سبيل المثال. من أهم مؤلفاتها:

• تحديث التفكير الديني: قوة الدين في المجال العام (مؤلف جماعي).
• الذات تصف نفسها.

٣١. "عن معاداة السامية: الكفاح من أجل العدالة .. والتهم الإسرائيلية"

٣٢. أحمد عدنان الميالي وحسين عدنان هادي (٢٠٢٥): نقد العنف في الفكر السياسي اليهودي المعاصر، مجلة المستقبل العربي، ع ٥٥٧، ص(٣٢-٤٩).

٣٣. بن علي، محمد (٢٠١٤): خطاب حقوق الإنسان في ظل أطروحات العولمة، المجلة العربية للعلوم

السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ٤١- ٤٢.
٣٤. الحمد، تركي (١٩٩٩): الثقافة العربية في عصر العولمة، ط: ١، مصر: دار الساقي.
٣٥. حاتم، لطفي (٢٠١٠): موضوعات في الفكر السياسي المعاصر، ط: ١، (لم تذكر دار النشر و البلد)، ص ١٤، ١٥.
٣٦. المسيري، عبد الوهاب، نيتشه فيلسوف العلمانية الأكبر، نقلاً عن: wraqfalsafiya. wordpress.com/2009/07/12
٣٧. ميلود، رحماني (٢٠٠٩): الحداثة ومركزية الإنسان عند عبد الوهاب المسيري، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية،ع١٠، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ص ٢٩٥-٣٢١.
٣٨. انظر: بن علي، محمد (٢٠٢٣): مقدمات في الفلسفة السياسية، من الحضارات الشرقية إلى بدايات عصر النهضة، الجزائر: دار أجيال الرقمي للطباعة والنشر، ص١٤٣ وما بعدها.
٣٩. الشريف، ريجينا (١٩٨٥)، الصهيونية غير اليهودية، ترجمة: أحمد عبد الله عبد العزيز، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، رقم٢٣، ص٥٥.
٤٠. المصدر نفسه، ص١٦١.
٤١. نجد بعض الأطروحات التي نادى أصحابها بفكرة التعايش بين اليهود والعرب ضمن دولة ثنائية القومية، منذ منتصف القرن العشرين وعلى رأسهم المفكر اليهودي الوجودي مارتن بوبر Martin Buber (١٨٧٨- ١٩٦٥)(صاحب كتاب: أنا وأنت، تحقيق: علي محمود مقلد، ط: ١، معهد المعارف الحكمية، ٢٠١٠.
٤٢. ريجينا الشريف، المرجع نفسه، ص ١٦٦.
٤٣. مازن النجار، المقال والموقع السابق.
٤٤. يمنى الخولي، مصدر سابق.
٤٥. للمزيد انظر: مستهل كتاب، بيتلر، جوديث (٢٠١٧): مفترق الطرق، اليهودية ونقد الصهيونية، ط: ١، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ص١١ وما بعدها.
٤٦. الميالي، أحمد عدنان عزيز، المقال نفسه.



الصبي في البيجامة المخططة
فيلم "الصبي في البيجامة المخططة" (٢٠٠٨) من إخراج مارك هيرمان، هو اقتباس سينمائي من رواية جون بوين. تروي هذه الدراما عن الهولوكوست قصة صداقة بريئة بين ابن قائد معسكر "أوشفيتز" البالغ من العمر ثماني سنوات وطفل يهودي أسير.

سورية، حقّ الأمان والسلم الأهلي تحت حكم سلطة الأمر الواقع

تحليل لواقع الانتهاكات الجسيمة وآليات مواجهتها من منظور القانون الدولي وحقوق الإنسان





ناصر الغزالي

كاتب وناشط سياسي وحقوقي سوري، رئيس مركز دمشق للدراسات النظرية والحقوق المدنية • سورية

المقدّمة:

شكّل سقوط الاتحاد السوفيتي نقطةَ تحوّل كبرى في السياسة الأميركية، والغرب الجماعي الاستعماري، من سياسة استنزاف الدول عبر الضغوط الاقتصادية، أو فرض العقوبات والتهميش، أو من خلال فرض شروط صندوق النقد الدولي بعد إغراقها بالديون، أو تدميرها عبر الاحتلال المباشر، إلى سياسة تدمير المجتمعات، من خلال تزييف الوعي وغسل الأدمغة، ومرورًا بتقنيات علم المستقبل، وفرض نظرة أحادية فوقية على المجتمعات، بحجّة نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان. علمًا أن الديمقراطية وحقوق الإنسان حاجةٌ ماسةٌ لكافة المجتمعات من أجل نهضتها في المجالات كافة، إلا أن الغرب الجماعي الاستعماري يريد فرضها بحسب مصالحه الاستعمارية، وضمن نظرته هو إلى شكل تلك المجتمعات، بوصفها مجتمعات متنازعة ومتناحرة، وليست على أسس جوهر الديمقراطية وحقوق الإنسان، التي تعتمد المواطنة المتساوية وسيادة الوطن والعدالة الاجتماعية، وزرع الخلافات البينية لدى كل مجتمع على أسس عرقية أو طائفية أو عشائرية.

كل هذه السياسات تم ممارستها وتجربتها على الدولة الوطنية السورية، والمجتمع السوري، إذ أصبحت مختبرًا للغرب الاستعماري الجماعي، فتحوّل مفهومُ مقاومة الاحتلال الصهيوني، والدفاع عن السيادة الوطنية، والديمقراطية وحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، إلى أدوات للضغط والتحكّم في تدمير المخيال الجمعي وبنيته الاجتماعية، مما أفقد المجتمع السوري أهم خصائصه في الأمان الاجتماعي، والسلم الأهلي.

حقّ الأمان

يُعد الأمان الشغل الشاغل لدى أيّ إنسان في العالم. فهو يبدأ قبل ولادته ولا ينتهي بعد موته. هو الناظم لوجوده وحركته وتفكيره. لذلك يعتبر حقّ الأمان الركن الأساسي الذي أستند إليه في وجوده. فمنذ اللحظة الأولى التي أدرك فيها الإنسان وجوده، احتاج إلى الأمان ليستمر في الحياة. من هنا يُعتبر حقّ الأمان أصل الحقوق التي كانت الجماعات البشرية والأفراد بحاجة لها عبر العصور والحضارات. هذا الحقّ أخذ أشكالاً عدّة بحسب حاجة التطور البشري لها. فبذلك تطور هذا الحقُّ إلى أن أصبح جزءًا أصيلاً من حقوق الإنسان والفلسفة السياسية وعلم الاجتماع والاقتصاد والثقافة والبيئة والقانون.

لقد شمل على المستوى الفردي: الحماية من الاعتداء على حياة المرء، وسلامته الجسدية والنفسية، وممتلكاته، وكرامته الإنسانية. أما على مستوى الأمان المجتمعي: فقد تضمن الشعور بالطمأنينة والاستقرار التي يعيشها الأفراد داخل المجتمع على المستويات المادية، الاجتماعية، النفسية، الاقتصادية، والبيئية. هذا الأمن يرتكز على المجتمع كمصدر ومورد للحماية.

حقّ الأمان إذن هو أحد الحقوق الأساسية للإنسان. وهو مفهوم متعدد الأبعاد يضمن حماية الفرد من أي تهديد أو مخاطر، ويعتبر أساسًا لتحقيق الاستقرار والسلام في المجتمعات، ويقترن دائمًا باحترام حقوق الآخرين. وهو مرتبط بشكل وثيق بحقوق الإنسان الأخرى مثل الحقّ في الحياة، الحرية، والعدل.

وهو يعني توفير الحماية للأفراد من العنف، التهديدات، أو أيّ شكل من أشكال الخطر الذي قد يؤثّر على سلامته الجسدية، النفسية، أو الاجتماعية. يشمل هذا الحقّ أيضًا توفير بيئة آمنة تمكّن الأفرادَ من ممارسة حقوقهم الأخرى بحرية.

إحاطة قانونية لحقّ الأمان

أهمية حقّ الأمان:

١. يعتبر حقّ الأمان أساسًا لبناء المجتمعات المستقرة والمزدهرة.

٢. من دون الأمان، لا يمكن للأفراد ممارسة حقوقهم الأخرى مثل التعليم، العمل، أو المشاركة المجتمعية.

٣. يُسهم في تعزيز الثقة بين الأفراد والدولة، مما يؤدي إلى تحقيق التنمية المستدامة.

يمكن استنباط حقّ الأمان من القانون الإنساني الدولي، الذي حظر التعذيب وسوء المعاملة في جميع الظروف والأماكن والأوقات ومختلف النزاعات المسلحة والأوضاع الاستثنائية. تحظر



اتفاقيات جنيف الأربع، المؤرخة في ١٢ أغسطس/آب ١٩٤٩ في المادة الثالثة المشتركة، الاعتداء على الحياة والسلامة البدنية، خاصة القتل بجميع أشكاله والتشويه والمعاملة القاسية والتعذيب والاعتداء على الكرامة الشخصية والمعاملة المهينة والحاطّة بالكرامة. وتطالب المادة ١٣ من اتفاقية جنيف الثالثة "بحماية الأسرى في جميع الأوقات، وعلى الأخص ضد جميع أعمال العنف أو التهديد، وضد السباب وفضول الجماهير، وتحظر تدابير الاقتصاص من أسرى الحرب". كما تنص المادة ١٤٦ من اتفاقية جنيف الرابعة على تعهد الأطراف السامية باتخاذ إجراء تشريعي ملزم لفرض عقوبات جزائية فعّالة على الأشخاص الذين يقترفون أو يأمرون باقتراف مخالفات جسيمة للاتفاقية. وتعتبر المادة ١٤٧ من الاتفاقية عينها القتلَ العمد والتعذيب أو المعاملة اللاإنسانية أو تعمّد إحداث آلام شديدة أو الإضرار الخطير بالسلامة البدنية أو الصحة أو إجراء تجارب خاصة أو النفي وتدمير واغتصاب الممتلكات، مخالفات جسيمة.

> يُعتبر حقّ الأمان أصل الحقوق التي كانت الجماعات البشرية والأفراد بحاجة لها عبر العصور والحضارات

بالرجوع إلى القانون الدولي لحقوق الإنسان، والقانون الدولي الإنساني، وكافة المعاهدات والاتفاقيات الدولية والإقليمية لحقوق الإنسان يمكننا تقسيم هذا الحقّ إلى:

حقّ الأمان على المستوى الشخصي والجسدي: من خلال الحماية من العنف، وسلامة الجسد، والحماية من الإيذاء النفسي.

الأمان الاجتماعي: ضمان استقرار المجتمع وحماية الأفراد من الفوضى أو الصراعات الداخلية، وتوفير الحماية من الجرائم مثل السرقة أو الاحتيال.

الأمان الاقتصادي: ضمان الحقوق الاقتصادية للأفراد، مثل الحقّ في العمل والحصول على دخل يكفي لِلعيش الكريم، والحماية من الاستغلال الاقتصادي أو الفقر المدقع.

الأمان القانوني: توفير الحماية القانونية للأفراد من خلال القضاء العادل، وضمان حقّ الفرد في اللجوء إلى القضاء عند انتهاك حقوقه، والحماية من الاعتقال التعسفي.

الأمان النفسي: توفير بيئة خالية من الخوف والقلق، والحماية من الترهيب أو التهديدات النفسية.

الأمان السياسي: حماية الأفراد من الاضطهاد السياسي أو التمييز بسبب آرائهم أو انتماءاتهم، وضمان حرية الرأي والتعبير والمشاركة السياسية من دون خوف.

الأمان الرقمي: حماية البيانات الشخصية والخصوصية في الفضاء الإلكتروني من الاختراق أو الاستغلال.

حقّ الأمان على المستوى الوطني: هو مسؤولية الدولة تجاه مواطنيها، من خلال حماية حدود الدولة وسيادتها من أيّ عدوان خارجي، وحماية المواطن عن طريق (الشرطة، الدفاع المدني، الطوارئ) على حياته وممتلكاته.

من الضروري الإشارة إلى أن حقّ الحياة المنصوص عليه في الفقرة الأولى من المادة ٦ من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، هو الحقّ الأعلى الذي لا يجوز الخروج عليه حتى في أوقات الطوارئ العامة. والحقّ في الحياة نفسه مكرّس أيضًا في المادة ٣ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠ كانون أول عام ١٩٤٨. وهذا الحقّ هو الأساس الذي تقوم عليه جميع حقوق الإنسان.

وهي تنطبق على الأشخاص الذين لا يشاركون بشكل مباشر في الأعمال العدائية، بما فيه أفراد القوات المسلّحة الذين سلموا أسلحتهم. والأشخاص الذين وضعوا خارج القتال لسبب المرض أو الجروح أو الاعتقال أو أيّ سبب آخر، يجب أن يعامَلوا بشكل إنساني ومن دون تمييز قائم على العِرق، أو اللون أو الدين أو الاعتقاد أو الجنس أو الثروة أو ما شابه. ولهذا يمنع في كل زمان وباختلاف المكان تجاه الأشخاص المذكورين في أعلاه:

- الاعتداء على الحياة وسلامة الجسد وخاصة القتل بكافة أشكاله، البتر، المعاملة اللاإنسانية، التعذيب والتنكيل.
- أخذ الرهائن.
- الاعتداء على كرامة الأشخاص وخاصة المعاملة

المهينة والمذلة.

إحاطة للواقع والانتهاكات الجسيمة لحقّ الأمان: مثال سورية

منذ سقوط النظام السابق واستلام هيئة تحرير الشام السلطة (سلطة الأمر الواقع كما هو واقع الحال، أو الحكومة الانتقالية كما وصفها مجلس الأمن)، قدّمت كثير من الوعود حول شكل الدولة والحفاظ عليها وعلى مواطنيها، وعلى حرية الرأي والتعبير، وبناء الدولة الحديثة القائمة على المدنية وحكم القانون، والعمل على الاستقرار والتنمية.

كل هذه الوعود تبخرت بعد فترة وجيزة لا تتعدى أسبوعاً واحداً من استيلائها على السلطة. فرجعت إلى طبيعتها المتطرفة وممارسة أبشع أنواع الانتهاكات الجسيمة بحقّ الشعب السوري.

يحدد أحد منظّري السلفية الجهادية التي تنتمي لها هيئة تحرير الشام، أبي بكر ناجي في كتابة إدارة التوحش، طريقةَ التمكين بما يلي:

مرحلة (شوكة النكاية الإنهاك)، مرحلة (إدارة التوحش)، ثم مرحلة (شوكة التمكين)[1].

يضيف الكتاب مفهومًا جديدًا للجهاد: إن الجهاد ما هو إلا شدة وغلظة، و إرهاب وتشريد و إثخان[2].

اعتمدت سلطة الأمر الواقع في سورية على ثلاثية: إدارة التوحش، والتمكين، والإلهاء، التي تمثّل أركان فكرها وممارساتها.

إدارة التوحش: هو ركن أساسي من الإستراتيجية الجهادية لخلق الفوضى وبناء خلافتهم المزعومة. مما دفع بعض الدول وخاصة أمريكا لاستلهام هذا المفهوم وتطبيقه مع القوى الإرهابية لإدارة الفوضى على الساحة السورية.

في الحقيقة كانت سلطة الأمر الواقع (هيئة تحرير الشام) أمينة جدًا لممارسة تلك السياسة، من خلال ارتكابها لكافة أنواع الانتهاكات الجسيمة بحقّ الشعب السوري، من خلال الاعتقالات التعسفية،



خطاب استقالة

تشاهد عائلة موسيتشيك (Musichick) خطاب استقالة الرئيس السوفييتي ميخائيل غورباتشوف على شاشة التلفزيون السوفييتي، في شقتهم الواقعة بوسط مدينة موسكو، في الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٩٩١.

• المصدر: The Atlantic

والقتل العمد خارج نطاق القانون، والتعذيب، والإخفاء القسري، والإبادة الجماعية بحقّ شريحة اجتماعية ذات طابع طائفي. ليس هذا فحسب، بل قامت تلك السلطة باستباحة هذه الشريحة الاجتماعية من خلال الإبادة الجماعية وما تضمنتها من عنف ممنهج، وتهميش، وتدمير لكلّ مقومات الحياة، وتهجير، ومجازر بحقّ شريحة اجتماعية أخرى ذات بعد طائفي مغاير.

"حقّ الأمان هو الأصل التاريخي للحقوق الإنسانية، تطوّر ليشمل أبعادًا فردية (حماية الحياة والجسد والملكية والكرامة) ومجتمعية (الطمأنينة والاستقرار المادي والاجتماعي والاقتصادي والبيئي). وهو مفهوم متعدّد الأوجه يشكّل الأساس لتحقيق السلام المجتمعي ويمنح الفرد بيئة آمنة لممارسة حرياته الأخرى."

كتب أحد المنتمين لتيار الإسلام السياسي المقرّب من تنظيم الأخوان المسلمين، مجاهد مأمون ديرانية، في كتابة "سألوني عن جبهة النصرة" لتوصيف مدى تغوّل "هيئة تحرير الشام" وتجاوزاتها:

"ففي الفصائل مَن يعادي غيره [هنا يعني الفصائل المسلحة المعادية للنظام السابق] وقليل جدًا منها، بل من أندر النادر، من يقاتل الآخرين ومن يستولي على أسلحة غيره من الفصائل، وفيها من يفرق الصف ويتفرد بالإدارة والقضاء، ومن يعزل العلماء والدعاة ويطاردهم إذا خالفوا منهجه، ومن يعتقل ويؤذي الناس بغير حقّ، أو يتسلط عليهم ويفرض عليهم قوانينه الخاصة، لكن لا يوجد فصيل اجتمعت فيه هذه التجاوزات كلها وتكررت كثيرا إلا النصرة"[٣].

رغم انتقاده لجبهة النصرة في أثناء سيطرتها على محافظة إدلب، فإنه ثبت فكرة التكفير ومعاداة جزء من الشعب السوري، في رسالته إلى جبهة النصرة، إذ كتب التالي:

"أما تحويل التكفير إلى "ثقافة شعبية" يتعامل بها العوام والعناصر والأنصار فإنها أم الدواهي. فالأصل أن يقتصر المسلم على تكفير الطوائف والجماعات الخارجة عن الإسلام، كاليهود والنصارى والنصيريين والمجوس والبوذيين والقديانية والبهائيين وأحزابهم، أما الأعيان فإن الحكم عليهم بالردة والكفر ليس من شأن أهل العلم الشرعي بالمطلق، فضلاً عن أن يكون من شأن العامة، وإنما هو من اختصاص القضاء، لأنه حكم شرعي قضائي تترتب عليه دماء وحقوق"[٤].

إن عدم خروج الإسلام السياسي في سورية من النظرة الفوقية والعنصرية إلى بعض شرائح المجتمع السوري، من خلال تكفيرها وهدر دمها يعتبر عقبة كبيرة في تطوّر فكرها ونظرتها المستقبلة للدولة السورية الوطنية، رغم إدعائها أنها مع الدولة المدنية الديمقراطية.

أعتقد بأن هيئة تحرير الشام المسيطرة على السلطة، وتنظيم الإخوان المسلمين المشارك معها بشكل نسبي، يعتقدان بأن هذه الفرصة لن تعوَّض في تغيير بنية الدولة السورية الوطنية بحسب مقاس إيديولوجيتهما وأفكارهما، ضمن دور وظيفي قبلا به من قبل القوى الدولية والإقليمية التي فرضتهما على الشعب السوري.

"إن مسلسل الجهادية التكفيرية لن يتوقف عند أسماء مثل "داعش، جفش، هتش" لأن ثمة حروب دموية وظيفية بين المسلمين، مازالت على خارطة الطريق الضرورية لتحطيم الشجر والحجر، وكون أدوات الحرب الأقوى على الظلامية اليوم، مازالت ملوثة بالاستبداد والمذهبية والفساد فثمة بذور تسمح للتطرف بالعيش والعيش طويلا، ولو بثياب جديدة"[٥].

في تقرير صادر عن لجنة المتابعة الإنسانية وحقوق الإنسان، تم توثيق سلسلة التوحش المعتمدة كمنهج سياسي، من خلال كمية الانتهاكات الجسيمة المرتكبة بحقّ الشعب السوري، والتي تعد بحسب القانون الدولي إبادة جماعية، وجرائم ضد الإنسانية.

فقد "أظهرت الأدلةُ الدامغةُ نمطًا منهجيًا من العنف واسع النطاق ضد المدنيين شملت عمليات إعدام ميداني، تعذيب، تهجير قسري، نهب وتدمير ممتلكات، تسريح تعسفي من العمل، خاصة بحقّ مجموعة سكانية معينة بوصفها من الطائفة العلوية. وقد تورطت في هذه الانتهاكات قوات حكومية، عناصر أمنية، عناصر مسلّحة محلية، إلى

جانب مجموعة مسلّحة أجنبية موالية للقيادة العسكرية الجديدة. وقد أشارت الشهادات إلى حالات موثقة لمنع دفن الجثث، الاستيلاء على المنازل، والإذلال العلني. كما ساهم خطاب الكراهية الصادر عن بعض المنابر الدينية في تصعيد التحريض الطائفي، من خلال دعوات علنية للجهاد والنفير العام ضدّ أبناء الطائفة العَلويّة)[٦].

كل هذه الانتهاكات التي مارستها سلطة الأمر الواقع، وما زالت تمارسها، هدفها السيطرة على المجتمع، من خلال زراعة الخوف وضمن استراتيجية متعمدة لسلطة الأمر الواقع، وذلك لبث الخوف والرعب في نفوس الشعب السوري، مستخدمةً في ذلك كافة الوسائل، أهمها وسائل الإعلام في نشر أخبار كاذبة أو محرفة، معتمدة على لغة عنيفة أو تحريضية، والتلاعب بالمشاعر الدينية والطائفية.

قال سقراط منذ القرن الخامس قبل الميلاد: "الخوف يجعل الناس أكثر حذرًا، وأكثر طاعة، وأكثر عبودية".

إن زراعة الخوف منهجٌ اتبعته هيئة تحرير الشام قبل وبعد استيلائها على السلطة، لتفكيك قيم المجتمع وتحطيم الإنسان السوري، ومخياله الجمعي، والسيطرة على عقله وإرادته، ليتراجع عن مبادئه وقيمه وأفكاره وقناعاته، وانتمائه الديني والسياسي.

هذه السياسة أدت إلى:

- خلق النزاعات الدينية والعرقية والطائفية.
- توسيع الفرقة والتشاحن.
- هيمنة المصالح الأجنبية.

التمكين: هي إستراتيجية أيديولوجية شمولية تهدف إلى إعادة صياغة الدولة الوطنية والمجتمع على وفق رؤية دينية-سياسية معينة. تخدم أهداف "سلطة الأمر الواقع" في سيطرتها الكلية على الدولة



المطرقة والمنجل الساقط
امرأة تمد يدها إلى حقيبتها، التي تستند على رمز المطرقة والمنجل (الشيوعي) السوفييتي الساقط، في أحد شوارع موسكو عام ١٩٩١.
● المصدر: The Atlantic

والمجتمع، من خلال حل كافة مؤسسات الدولة، وتسريح أغلبية الموظفين والعاملين فيها، وخاصة شريحة اجتماعية ذات بعد طائفي استُهدفت بشكل مباشر من قبل هذه السلطة. ومن خلال تكريس مفهومها للدين والشريعة، والبدء في تطبيق الشريعة وفقًا لفهمها لهذه الشريعة، من خلال تغيير قوانين الدولة الوطنية إلى "إسلامية"، واستخدام أجهزة الدولة (التعليم، الإعلام، القضاء، الثقافة) لنشر النموذج الإيديولوجي وتثبيت أركان حكمها.

ولكي تمعن في عملية التمكين، استخدمت أبشع أنواع التضليل الإعلامي، والخطاب الإيديولوجي المتطرف، والشعبَوية.

كل الممارسات التي طبقتها "سلطة الأمر الواقع" تؤكد سياسة التمكين، ابتداءً من حكومة اللون الواحد، ومؤتمر الحوار الوطني، والإعلان الدستوري، والعدالة الانتقالية، والانتخابات المقررة، والتي تمثل خرقًا وتهديدًا صارخًا للهوية الوطنية من خلال استثناء ثلاث محافظات من العملية الانتخابية.

> حقّ الحياة المنصوص عليه في الفقرة الأولى من المادة ٦ من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، هو الحقّ الأعلى الذي لا يجوز الخروج عليه حتى في أوقات الطوارئ العامة

الإلهاء: تعد من أخطر أدوات السيطرة الاجتماعية، إذ تعتمد على استغلال نقاط ضعف البشر العاطفية والفكرية. وهذا ما فعلته "سلطة الأمر الواقع"، من خلال تحويل انتباه الشعب السوري من القضايا الجوهرية والمشاكل الحقيقة، وإشغاله بقضايا ثانوية أو تافهه. وذلك من أجل مواصلة خلق الأزمات المصطنعة، واختراع مشاكل أو أزمات (مثل الصراعات الطائفية، وحروب وهمية، وسياسة إعلامية تهدف إلى تزييف الوعي وغسل الأدمغة).

أ. حول طرق مواجهة انتهاك حقّ الأمان على المدى المباشر والقريب

تختلف الأدوات والأساليب والطرق والأطراف، التي تمارس انتهاك حقّ الأمان في سورية. فمثلًا يمكننا تصنيف أربعة أطراف ينتهكون هذا الحقّ. ولدى كلّ طرف أدواته وأساليبه وطرقه الخاصة.

- "سلطة الأمر الواقع" (هيئة تحرير الشام)
- الفصائل الإرهابية المنضوية تحت إشراف "سلطة الأمر الواقع" والخارجة عن سلتها (داعش)
- بقايا العشائر المهشمة اقتصاديًا واجتماعيًا.
- الدول المحتلة لبعض أجزاء الأرض السورية (الكيان الصهيوني، تركية، الولايات المتحدة الأمريكية)

إن مواجهه هذا الانتهاك الجسيم يتطلب العمل المباشر والهادف والفعّال، حسب كلّ طرف من هذه الأطراف. فلا يمكننا التعامل مع "سلطة الأمر الواقع" والدول المحتلة بنفس الطريقة التي نتعامل بها مع الفصائل الإرهابية أو باقي العشائر المهشمة.

إن مواجهة انتهاك حقّ الأمان من قبل الجماعات الإرهابية والعشائر المهشمة، تختلف جذريًا عن مواجهة "سلطة الأمر الواقع" والدول المحتلة. لأن هذه الجماعات غير ملتزمة بأيّ قوانين أو معايير أخلاقية، وتستخدم العنف كأداة رئيسية. لذلك، تكون الأولوية القصوى هي: السلامة الشخصية والبقاء على قيد الحياة.

ب. مواجهه انتهاك حقّ الأمان من قبل "سلطة الأمر الواقع" والدول المحتلّة

هناك طرق متدرجة وواقعية لمواجهة هذا الانتهاك، مع التركيز الشديد على السلامة الشخصية:

أولًا: الحماية الفردية

١. توثيق الانتهاكات بشكل سري وآمن.
٢. توصيل المعلومات بشكل دقيق وآمن.
٣. الوعي القانوني بحقوق كلّ فرد.
٤. تحديد أشخاص التواصل في أثناء الطوارئ.

ثانيًا: آليات كشف الانتهاكات

١. اللجوء إلى القضاء الوطني إنْ كان مستقلًا.
٢. الاستعانة بمنظّمات حقوق الإنسان المحلية أو الدولية.
٣. فضح تلك الانتهاكات عن طريق الإعلام.
٤. الاستعانة بمنظمات المجتمع المدني المستقل.

ثالثًا: التضامن الاجتماعي

١. تشكيل مجموعات دفاع وتضامن جماعية.

٢. رفع الدعاوى القضائية الجماعية.
٣. اللجوء إلى المحاكم والمؤسسات الدولية التي تعنى بحقّ الأمان وحقوق الإنسان.

مواجهه انتهاك حقّ الأمان من قبل المنظمات الإرهابية والعشائر المهشمة

على المستوى الفردي:
١. أولويات البقاء، من خلال الاختباء والإخلاء في أثناء الهجمات الإرهابية.
٢. عدم المواجهة المباشرة مع الإرهابيين.

على المستوى الجماعي:
١. إنشاء شبكات اتصال جماعية للتحذير من الهجمات الوشيكة أو تحركات الإرهابيين.
٢. التعاون المشترك بين السكان ومشاركة الموارد والمعلومات الحيوية.
٣. نشر الوعي بين السكان لخطورة هذه المنظمات وتوعية الشباب بمخاطر الإنضواء داخل تلك المنظمات.

على المستوى القضائي:
١. العمل على فضح الانتهاكات لتلك التنظيمات والأشخاص المشاركين فيها.
٢. العمل على توصيل كافة المعلومات المتعلّقة بتلك التنظيمات للجهات الحقوقية والمحاكم الدولية.

على المستوى الإعلامي:
١. العمل على تفكيك الخطاب المتطرّف من خلال مواقع التواصل الاجتماعي والقنوات الإعلامية والصحافة.
٢. الإبلاغ عن هؤلاء لمنصات التواصل الاجتماعي وفضح المحتوى والمطالبة بإزالته من تلك المنصات.

ج. حول طرق مواجهه انتهاك حقّ الأمان على المدبين المتوسّط والبعيد

إن ضمان حق الأمان ليس حدثًا واحدًا، بل عملية مستمرة تحتاج إلى:
إرادة سياسية حقيقية، وموارد اقتصادية ومالية، وتنمية سريعة، ومشاركة مجتمعية فعّالة، ومراجعة وتطوير دائم للاستراتيجيات الوطنية. من دون ذلك يصبح حقّ الأمان معرّضاً لِلخطر في أيّ وقت. وهذا يتطلب بالضرورة: قانونًا يجرّم بشكل واضح كافة الانتهاكات التي تخص حقّ الأمان، و إنشاء هيئة وطنية لحماية هذا الحقّ، وتطبيق ذكي للإبلاغ عن الجرائم والانتهاكات بشكل سريع، وتدريب مجتمعي دائم لمواجهة الطوارئ الخاصة في انتهاك حقّ الأمان، والالتزام والتوقيع على اتفاقيات حقوق الإنسان ذات الصلة (العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية)، والتعاون مع المنظمات الدولية الداعمة لتلك الحقوق.



انقلاب فاشلة
يُلوّحُ الناس بالعلم الوطني الروسي احتفالاً بعد محاولة انقلاب فاشلة. موسكو، ٢١ أغسطس ١٩٩١.
• المصدر: Meduza

أسس ضمان حقّ الأمان

الأسس القانونية والدستورية

١. التكريس الدستوري: أن ينصّ الدستور بشكل واضح وصريح على أن "حقّ الأمان الشخصي والجماعي حقّ مقدس لا يجوز انتهاكه تحت أي ظرف".
٢. ضمان سيادة القانون ومساواة الجميع أمامه.
٣. سن تشريعات تجرّم جميع أشكال انتهاك الأمان

(الجسدي، النفسي، الاجتماعي، الاقتصادي، الرقمي).
٤. تشريع قوانين تحمي الضحايا والشهود من الانتقام.
٥. إنشاء هيئات مستقلة ذات خبرة ومصداقية للتحقيق في انتهاك حقّ الأمان من قبل أي جهة كانت داخل الدولة السورية.
٦. ضمان عقوبات رادعة وفعّالة للمخالفين.

البناء المؤسسي

١. بناء الأجهزة الأمنية بطريقة مهنية وشفافة: تدريب القوات الأمنية على حقوق الإنسان وحماية المدنيين، وإنشاء أنظمة رقابة مستقلة عن عمل الأجهزة الأمنية.
٢. نظام قضائي مستقل، يعمل على محاكمات عادلة وسريعة للضحايا، وتوفير تعويضات عادلة للمتضررين من انتهاك حقّ الأمان.
٣. إنشاء قنوات سهلة وآمنة للإبلاغ عن الانتهاكات، وحماية هوية المبلغين عن تلك الانتهاكات.

> بعد سقوط النظام السابق، قدمت هيئة تحرير الشام وعودًا ببناء دولة مدنية وتحقيق الاستقرار، لكنها سرعان ما عادت إلى ممارساتها المتطرفة وارتكبت انتهاكات جسيمة بحق الشعب السوري

الثقافة الاجتماعية والتعليم

١. التوعية المستمرة من خلال برامج توعية في المدارس والجامعات حول حقّ الأمان، وحملات إعلامية لمكافحة الشائعات والتطرف.
٢. دعم منظمات حقوق الإنسان التي تراقب حقّ الأمان، وتشجيع المبادرات المحلية كبناء شبكات أمان مجتمعية.
٣. تعزيز الثقة بين المواطن والدولة عبر حوار مفتوح بين السلطات والمواطنين حول سياسات الأمن، ومشاركة المجتمع في تصميم خطط الأمان المحلية.

الضمان الاجتماعي

١. الالتزام بحقّ السكن والتعليم والصحة.
٢. وضع سياسات تنموية وخطط واضحة من أجل التنمية البشرية.
٣. تحديد جزء من الدخل الوطني لتغطية الضمان الاجتماعي للأسر والأفراد العاطلين عن العمل.
٤. تحديد جزء من الدخل القومي لتغطية نفقات الأضرار الناتجة عن الطبيعة والكوارث والإفلاس للمتضررين.

دور الإعلام في تكريس حقّ الأمان

١. العمل على كشف الفساد و إساءة استخدام السلطة، وتسليط الضوء على الممارسات الخطرة من خلال تقارير عن البيئة، ومنتجات غير آمنة، أو سياسات عامة تهدد الصحّة والسلامة.
٢. التوعية بالمخاطر الرقمية، من خلال تثقيف الجمهور حول أمن المعلومات، ومخاطر الاختراق، والابتزاز الالكتروني، وكيفية حماية البيانات الشخصية.
٣. تفنيد الشائعات.
٤. خلق رأي عام والمساءلة المجتمعية.
٥. التزام الإعلام بالموضوعية والدقة، والتحليل العميق، وبأخلاقية المهنة، واحترام خصوصية الضحايا.

الخاتمة

بعد هذا الموجز السريع عن حقّ الأمان، نجد من خلال النصوص الوضعية ودراسات القانونيين، أن حقوق الإنسان تشكّل كلها كيانًا قانونيًا متناسقًا ومتكاملاً وغير قابل للفصل لتمكين الفرد من التمتع بكلّ حقوقه. إذ تُعد كلّها حقوق متناسقة ومتداخلة وذات اعتماد متبادل في بينها. بمعنى أن كلّ حقّ يعرف من خلال التفاعلات الشاملة لمجموع الحقوق.

فلا وجود لمجتمع أو حضارة أو ثقافة أو دولة يمكنها إنكار الحقّ في الحياة لأيّ شخص، أو أن تسمح في قوانينها باستبعاد النّاس أو سلب حرياتهم أو بمنع المعالجة الصحية عنهم. ومن خلال هذه الحقوق الأربعة نجد ركائز الأمن الإنساني. فهذا الأخير يركز على أمن الفرد من الحاجة أو الخوف، أي على إلزامية توفير الحقوق الدنيا للفرد، في أي زمان ومكان.

إن فقدان حقّ الأمان بسبب ممارسات السلطة الجديدة، دمرت ما تبقى من المناعة الوطنية المجتمعية، بعد حرب دامت أربعة عشر عامًا. فحوّلت الهويةَ الوطنيةَ الجامعة للشعب السوري

وقيمه إلى هويات ما قبل الدولة، على أساس ديني ومذهبي. معتمدة بذلك سياسة القتل والتهجير والنهب المعمم للدولة السورية والسوريين، ومستخدمة "عناصر الجهاد العالمي الأجنبية الملثمة".

شكّل هذا التهديد الوجودي للدولة الوطنية السورية تهديدًا مباشرًا للسلم الأهلي، الذي يعاني منه الشعب السوري خلال ما يقرب من عام على سيطرة "سلطة الأمر الواقع" على السلطة.

السلم الأهلي

إن السلم الأهلي لا يقوم على النوايا الطيبة وحدها، ولا على إقامة مؤتمر وطني بين مكونات وشرائح المجتمع. وعلى نحو مماثل لا يقوم السلم الأهلي على مجرد المصالحة بين الناس. إذ لا بد من عمل شامل ومتكامل، يأخذ بعين الاعتبار خصوصيات المجتمع السوري والآثار السلبية التي خلفتها الحرب، على كافة المستويات، النفسية والمادية. بناءً على ذلك، لا بد من البحث في مقومات السلام المجتمعي الاقتصادية-التنموية، والاجتماعية-السياسية، والقانونية-التشريعية، والمدنية-البيئية، والثقافية العابرة للأديان، والتربوية-التعليمية، والطقسية-الفولكلورية، وما إلى ذلك. كذلك، لا بد من التأسيس على محاكمات عادلة بعيدة عن الثأرية، قائمة على أعلى درجة ممكنة من التسامح. الأمر الذي لا بد منه، خاصة بعد نزاع مسلح شارك فيه قسم كبير من السوريين ومن كل شرائح المجتمع على المستويين الطائفي والقومي.

تتعدد الأسباب في تهديد السلم الأهلي في سورية. منها ما هو سياسي، إذ تعرض هذا البلد لحكم استبدادي ديكتاتوري لأكثر من نصف قرن. ومنها ما هو تاريخي: ناتج عن ترسبات الماضي، من خلال الجهل المؤسس الذي كرسته السلطات



يزور رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، إلى اليسار، القوات الإسرائيلية في منطقة عازلة داخل سورية، يوم الثلاثاء ١٧ ديسمبر ٢٠٢٤.
• المصدر: مكتب الإعلام الحكومي الإسرائيلي عبر أسوشيتد برس

القائمة منذ تأسيس الدولة السورية. والجهل المقدّس الذي تم تصنيعه من خلال صناعة الرأي العام السوري من قبل السلطة السابقة والمعارضة على حد سواء، في أثناء فترة الانتفاضة السورية والنزاع المسلح بين السلطة والمعارضة. ومنها ما هو خارجي بسبب التدخلات الخارجية في الشأن السوري. ومنها ماهو ثقافي واجتماعي وحقوقي واقتصادي. ذلك بفعل الحصار الاقتصادي على الشعب السوري وحالة إفقار المجتمع، وانهيار مؤسستَي التعليم والصحة، وانتشار الفساد الممنهج، والانتهاكات الواسعة لحقوق الإنسان، والجرائم المرتكبة من قبل السلطة السابقة الاستبدادية، واستمرارها مع "سلطة الأمر الواقع". كلّ هذه الأسباب مجتمعة تحتاج لبحث معمَّق لكل سبب منها، كي نحدد بدقة تأثير كل سبب على السلم الأهلي، لكن ليس محله الآن.

> اعتمدت سلطة الأمر الواقع في سورية على ثلاثية: إدارة التوحش، والتمكين، والإلهاء، التي تمثّل أركان فكرها وممارساتها

هذه الأسباب كلّها جعلتنا أمام واقع مرير. علينا الاعتراف بأننا أمام مشكلة كبيرة وعميقة ومعقّدة على مستوى السلم الأهلي، تتطلب تظافر كافة الجهود، ومن قبل كافة الأطراف المؤثرة، لحل تلك المشكلة. لأنه من دون حلها، لا فائدة من أي عمل لبناء الدولة السورية الجديدة.

وعليه، لا بد من تحليل معمق للوضع السوري من كافة جوانبه، وتقديم مقترحات لعمل عاجل، وخططًا متوسطة المدى وأخرى إستراتيجية بعيدة المدى. والهدف إعادة بناء المجتمع السوري، بما يضمن عودة الحياة الطبيعية، وتضميد الجراح، ورأب الصدع، وتحقيق السلم الأهلي، وصولًا إلى التآخي في بوتقة مواطنة عادلة تضمن الحريات والحقوق المتساوية وتصونها. كذلك لا بد من البحث في آليات توظيف طاقات السوريين كافة، بما يقود إلى اشتغال وطني جامع يساهم فيه الجميع، لبناء دولة عصرية تسودها العدالة وحكم القانون، وتنتفي فيها إمكانية قيام الحرب الأهلية.

من أجل تكريس السلم الأهلي في سورية، علينا البحث في الواقع كما هو الآن والآثار المدمرة لما حصل ويحصل على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والعمراني والنفسي. كذلك طبيعة القوى الاجتماعية والسياسية والمدنية والأهلية والدينية الفاعلة على الأرض، ومدى تأثيرها في صناعة السلم الأهلي في سورية، وتحديد دورها والتشبيك والتعاون البنّاء فيما بينها، للوصول بالمجتمع إلى بر الأمان.

التحديات التي تواجه السلم الأهلي في سورية

الانقسامات السياسية والطائفية

إن تباين الرؤى السياسية والتناقضات البينية في مشاريعها السياسية، تؤدي إلى تعميق تلك الانقسامات في المجتمع. ظهر ذلك جليًا في أثناء الانتفاضة السورية. فتحولت تلك التناقضات إلى نزاع مسلّح دام أربعة عشر عامًا. مما زاد الهوّة بين مكونات الشعب السوري بسبب انتشار انتهاكات حقوق الإنسان على نطاق واسع. فدفع الكثيرين للهرب إلى دول اللجوء والنزوح الداخلي. مما أثّر بشكل مباشر على ترابط المجتمع وتفكيك انتمائه الوطني.

إن سقوط النظام الاستبدادي الديكتاتوري، واستيلاء "سلطة الأمر الواقع" ذات اللون الواحد المتطرّف والراديكالي على السلطة، زاد بشكل كبير من هذا الانقسام، عبر ممارسات هذه الأخيرة في إدارة الحكم، من خلال توزيع كافة مفاصل الدولة على المنتمين والموالين لها.

عدم المساواة الاقتصادية في توزيع الثروة الوطنية والحصار الاقتصادي على سورية

إن ما قامت به "سلطة الأمر الواقع" من تسريح كامل لعمال مؤسسات الدولة، إلا الموالين لها أو الذين لا يمكن الاستغناء عنهم، أدّى إلى انتشار الفقر والبطالة. إذ وصلت معدلات الفقر لمستويات قياسية بلغت ٩٠ ٪ من الشعب السوري. إضافة إلى انتشار الفساد والمحسوبية وعدم الشفافية والتي أوصلت لتهديد السلم الأهلي بأهم مقومات وجوده وحاجياته في الحياة الكريمة. وقد أفرز كلّ ذلك:

١. ضعف العدالة الاجتماعية والمساواة في تقسيم

الثروة والموارد الوطنية، بسبب التجزئة والسيطرة على الجغرافية السورية من قبل مركز قوة تتبع كل من هذه الأجزاء إلى دولة خارجية.

٢. التدخلات الخارجية، وانتشار الإرهاب والميليشيات المسلّحة خارج نطاق سيطرة الدولة. علمًا أن "سلطة الأمر الواقع" هي بحد ذاتها تخضع لنفس الشروط، أي خضوعها للخارج. وهي جزء من المنظمات الإرهابية الموصوفة في قرار مجلس الأمن الدولي الخاص بالمنظمات الإرهابية في سورية.

٣. حل وضعف مؤسسات الدولة.

إن ما قامت به "سلطة الأمر الواقع" من حل لمؤسسات الدولة السورية، قد شكل خطورة بالغة على السلم الأهلي. مما أدى لتوقف الخدمات الضرورية للمجتمع، وزاد من منسوب السخط والجريمة والتفكك المجتمعي. ذلك إضافة لغياب سيادة القانون وانهيار السلطة القضائية، مما أفقد المجتمع السوري الأمن والأمان، وهذا ما يفرز جملة من التحديات:

• التحديات الثقافية والتعليمية، من خلال انتشار الخطاب التحريضي والتعصب والكراهية، وتحويل المؤسسات التعليمية إلى مراكز لبث الكراهية والتعصب الأعمى ضد مكونات الشعب السوري.

• تحديات غياب الحوار الوطني الفعّال المتمثل بعدم وضع أسس وقواعد واضحة لهذا الحوار، والتي كان مأمولاً منها تأسيس الدولة السورية.

يتطلب السلم الأهلي والحفاظ عليه معالجة كافة التحديات، من خلال تعزيز العدالة الاجتماعية، وحكم القانون، وتعزيز الحوار، ودعم المؤسسات، وتحقيق التنمية الشاملة.

لتحقيق ذلك، علينا تقديم صورة واضحة لخارطة القوى الفاعلة والمؤثرة، وآليات العمل، والمقارنة فيما بينها لاعتمادها، والتي يمكن أن تساهم في تخفيف حدّة العنف أو تهدئته، تمهيداً لإيجاد



إرهابي داعشي يستخدم هاتفا محمولا لتصوير رفاقه المقاتلين وهم يشاركون في عرض عسكري في شوارع محافظة الرقة شمالي سورية. ٣٠ يونيو ٢٠١٤.
• المصدر: رويترز

القنوات المناسبة لإيقافه نهائيًا، والعمل على تلافي حدوثه مستقبلاً.
ومن أجل قطع الطريق على الجاهلين والأعداء، يتوجب علينا بناء سلم اجتماعي على درجة عالية من الوعي الجماعي بين كل فئات المجتمع، بمعنى أن نشر السلم الأهلي واجب وطني مقدس.
يعتمد خطاب حركة السلم الأهلي على مفاهيم خمسة تشكّل مرتكزاته الرئيسية، وهي:

• مفهوم "المواطنة" و"الانتماء الوطني"

إذ أن العلاقة بين "المواطنة"، و"المواطن"، و"الوطن"، لا تنحصر في الاشتقاق اللغوي، وإنما تمتد إلى الارتباط الوثيق في المضامين. فلا مجال لتجسيد مفهوم المواطنة بما يعنيه من مشاركة -مباشرة أو غير مباشرة- في تدبير الشأن العام، ومسؤولية تجاه الوطن، دون وجود مواطن يُدرك بوعي حقوقه وواجباته، في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كما ويشعر بأنه معني بما يجري داخل الفضاء الذي يسمّى الوطن. فلا مواطنة من دون مواطن. ولا مواطن من دون ولاء للوطن، وتفاعل إيجابي مع قضاياه، وانخراط حقيقي في شؤونه.

> "إدارة التوحش" استراتيجية تعتمدها هيئة تحرير الشام لخلق الفوضى عبر انتهاكات وحشية منهجية، وحتى المراقبون من داخل الخط الإسلامي السياسي يصفونها بالاستثنائية في استبدادها وتجاوزاتها

• مفهوم "حقوق الإنسان" التي تشمل الحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية

"حقوق الإنسان" هي أساس الكرامة الإنسانية، التي تقوم على المبادئ الأساسية التي تكفل كرامة الإنسان والمساواة لجميع أفراد المجتمع دون تمييز. هذه الحقوق لا يمكن تجاوزها من قبل السلطة أو أي طرف كان. كما أنها غير قابلة للتصرف والتعديل. وتنطبق على كل فرد، بغض النظر عن العِرق أو الجنس أو الدين.

• مفهوم "المجتمع المدني"

يعتبر "المجتمع المدني" ركيزة من ركائز التوازن والعدالة في المجتمع، من خلال حماية الحقوق وتدعيم أسس الديمقراطية وتقديم الخدمات، والدفاع عن حقوق الفئات المهمّشة، وتعزيز الحوار، وبناء الجسور بين المجموعات المختلفة، شريطة استقلاليته الكاملة عن السلطة والخارج. ويعتمد بالدرجة الأولى على التطوع من قبل أفراده وعدم الربحية. ويلتزم بالشفافية والمراقبة، من خلال تقديم تقارير دورية للرأي العام عن مدى التزامه بالأهداف التي تكوّن من أجلها، والتزامه بالديمقراطية، والانتخابات الدورية لكافة أعضائه، وبشرعة حقوق الإنسان، وتبيان مصادر تمويله، وآليات عمله.

• مفهوم "العدالة الاجتماعية"

"العدالة الاجتماعية" مبدأ يرتكز على تحقيق المساواة، وتوزيع الموارد والفرص بشكل عادل بين أفراد المجتمع، بما يضمن حقوق الجميع، ويقلل من الفوارق الاقتصادية والاجتماعية. تعتبر "العدالة الاجتماعية" أحد أهم الركائز الأساسية لبناء مجتمعات مستقرة ومزدهرة. حيث تسعى لتعزيز تكافؤ الفرص، وحماية الحقوق الأساسية للأفراد. بغض النظر عن خلفياتهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية.

• مفهوم "دولة القانون"

"دولة القانون" مفهوم سياسي وقانوني يشير إلى نظام تكون فيه القوانين هي الأساس الذي ينظم الحياة العامة والخاصة. كما وتخضع فيه جميع السلطات والأفراد، بما في ذلك الحكام والمحكومين، للقانون بشكل متساوي. في دولة القانون، تكون القوانين واضحة وشفافة، ويتم تطبيقها بشكل عادل دون تمييز. كما تكون هناك آليات لضمان احترام الحقوق والحريات الأساسية للأفراد.

وهذا كلّه يقع على عاتق قوى المجتمع الحية ومطالبتها بما يلي:

١. تعزيز التعاون بين الأحزاب السياسية لإحلال السلم الأهلي في سورية

تلعب الأحزاب السياسية دورًا محوريًا في تعزيز السلم الأهلي والاستقرار الاجتماعي في المجتمعات. وتعتبر الأحزاب السياسية قنوات رئيسية للتعبير عن مصالح المواطنين، وإدارة

الخلافات السياسية بشكل سلمي. مما يساهم في تقليل التوترات الاجتماعية، وبناء الثقة بين مختلف فئات الشعب. إلا أن حالة التصحر وضعف الأحزاب السياسية في سورية، تجعل من هذا الدور ضعيفًا جدًا على السلم الأهلي في سورية. لكن رغم ذلك، أعتقد بأن توفير الأحزاب السياسية لمنصات إدارة الخلافات السياسية، عبر الحوار والتفاوض بين الجماعات المختلفة، يساعد في حل النزاعات بشكل سلمي، ومن ثم تحويل تلك الصراعات إلى منافسة سياسية في المستقبل، في أثناء إقامة الديمقراطية عبر صندوق الاقتراع.

لكن رغم ضعف الأحزاب السياسية، فقد يمكنها العمل على نشر ثقافة المشاركة السياسية، وبناء الثقة بينها وبين المجتمع، كي تساهم في تقليل الشكوك بها. كما تخفف من حالة الاستقطاب بين الجماعات المختلفة، وتعزز قيم الديمقراطية والتسامح، وتمنع التطرف والعنف، وتعزز الاستقرار السياسي.

من هنا نجد أن دور الأحزاب السياسية هو دور محوري في المستقبل. لكنّها تحتاج إلى أن تكون شاملة وتمثيلية، وأن تعمل في إطار نظام ديمقراطي قوي. عندما تعمل الأحزاب السياسية بشكل سليم، فإنها تساهم في بناء مجتمعات أكثر استقرارًا وتسامحًا، حيث يتم حل الخلافات بشكل سلمي واحترام حقوق جميع الأفراد.

٢. تعزيز مشاركة وتعاون المجتمع المدني والأهلي والديني في السلم الأهلي والمصالحة

المجتمع المدني والأهلي يلعبان دورًا حيويًا في تعزيز واستمرار السلم الأهلي. حيث يعملان كجسور بين الأفراد والمؤسسات الرسمية، لتعزيز التعايش السلمي، وحل النزاعات، والضغط على صنّاع القرار لتعزيز السلام والعدالة الاجتماعية. كما يلعب رجال الدين والمؤسسات الدينية دورًا مهمًا وفعالًا في تعزيز السلم الأهلي. حيث



دورية مشتركة بين الولايات المتحدة وتركية

يسير جندي تركي بجوار مركبة عسكرية تركية خلال دورية مشتركة بين الولايات المتحدة وتركية، بالقرب من تل أبيض في سورية، بتاريخ ٨ سبتمبر ٢٠١٩.

● المصدر: رويترز/رودي سعيد

يتمتعون بتأثير روحي واجتماعي كبير على أفراد المجتمع، من خلال تعاليمهم وخطاباتهم، بما يمكنهم من تعزيز قيم التسامح وحل النزاعات بشكل سلمي.

من الملاحظ أنه مع سقوط الديكتاتورية بدأت تتشكل في سورية منتديات وتجمّعات وشبكات مدنية، تحاول جاهدة أن يكون لها دور هام في مستقبل سورية. وذلك من خلال إيجاد أرضية مشتركة حول الدولة المدنية، أسسها الوطنية والمواطنة والعدالة الاجتماعية. وأعتقد بأنه سوف تكون لهذه التشكيلات الدور الأكبر في السلم الأهلي.

٣. تعزيز دور المؤسسة القضائية في إقامة العدالة والمحاسبة وجبر الضرر للمتضررين من تلك الحرب.

٤. تعزيز دور المرأة في تكريس السلم الأهلي وإحلال السلام والاستقرار الطويل الأجل.

فالمرأة عنصر أساسي في تحقيق السلم الأهلي، حيث تمتلك القدرة على بناء الجسور وتعزيز التماسك الاجتماعي. كما تسهم في تعليم الأطفال قيم التسامح والسلام. مما يساعد على بناء جيل جديد يؤمن بالحوار والتعايش.

> تستغل جماعات كـ"هيئة تحرير الشام" و"الإخوان المسلمين الدعم الخارجي لفرض رؤيتها الأيديولوجية على سورية، لكن جذور التطرف ستستمر ما دامت أسبابها العميقة - كالفساد والاستبداد - قائمة

وفي هذا المجال يمكن أن يكون لِلمرأة السورية الدور الريادي في تحقيق السلم الأهلي، من خلال مشاركتها الفعالة في النشاطات والفعاليات، وتنظيم المبادرات المجتمعية وحملات التوعية والأنشطة الثقافية.

كما يمكنها تشكيل لوبي نسائي لتكريس السلم الأهلي من خلال النشاطات التالية:

١. تنظيم احتجاجات سلمية، بما في ذلك اعتصامات وإضرابات عن الطعام، للمطالبة بوقف الانتهاكات التي تمارسها "سلطة الأمر الواقع" بحقّ أبنائهم ومجتمعهم.

٢. استخدام أساليب مبتكرة يمكن الضغط بها على "سلطة الأمر الواقع" أو أي طرف يهدد السلم الأهلي، منها قطع الطرقات أو اعتصامات أمام دور العبادة والأماكن الحكومية، الوقوف بسلسلة على الطرقات بلباس الحزن... وطرق أخرى يمكن للنساء السوريات ابتكارها لمواجهة نشر الكراهية والعنصرية والانتهاكات المذكورة.

٥. تعزيز دور الإعلام والمؤسسات الثقافية في نشر ثقافة التسامح ونبذ الطائفية والعنف.

الإعلام ليس مجرد ناقل للأخبار، بل هو أداة قوية في صناعة الرأي العام والمساهمة في بناء المجتمع، من خلال الالتزام بالمبادئ الأخلاقية والمسؤولية الاجتماعية أمام المجتمع، مما يجعله عاملاً رئيسيًا في تعزيز السلم الأهلي.

إن ما تعيشه سورية من مخاض يحتم على القوى المدنية والوطنية ومثقفيها، أن تعمل بجدية، مستنفرة كافة طاقتها المعرفية والإنسانية والأخلاقية لفضح ما تقوم به "سلطة الأمر الواقع" والإعلام الداعم لها، في تزييف الوعي وبيع الوهم للشعب السوري. وأن تتواصل وتتفاعل مع الشعب السوري لتوضيح الصورة المزيفة. وذلك من خلال النقد الصريح للتزييف الإعلامي، وتقديم اجتهادات واضحة وبسيطة، يمكن أن تتفاعل معها هذه الجماهير.

٦. تعزيز دور المؤسسات التعليمية والاجتماعية في تكريس مفهوم السلم الأهلي ووقف العنف في سورية

المؤسسات التعليمية والاجتماعية تلعب أدوارًا حيوية في تعزيز السلم الأهلي. فهي تعمل على بناء قيم التسامح والتفاهم والتعايش بين أفراد المجتمع. هذه المؤسسات تعد منصات أساسية لتشكيل الوعي المجتمعي، وغرس ثقافة السلام، خاصة لدى الأجيال الناشئة. وذلك من خلال تعزيز الحوار والتفاهم والاندماج المجتمعي، وبناء جيل واع بحقوقه ومسؤولياته تجاه المجتمع.

٧. تطبيق العدالة في مساءلة ومحاسبة مرتكبي انتهاكات حقوق الإنسان، والعفو وجبر الضرر والمسامحة، لتحقيق السلام المستدام في سورية.

أكبر المخاطر التي تواجه السلم الأهلي في سورية الآن هي الشحن الطائفي، والانتهاكات الواسعة الممنهجة التي تمارسها "سلطة الأمر الواقع"

ضد شريحة اجتماعية محددة طائفيًا. مما يؤدي بالضرورة لتطييف المجتمع وتقوقع كلّ طائفة على نفسها. وبالتالي نشوء صراعات بينية بين الطوائف، يمكن استغلالها من الخارج لتحقيق مصالحه الخاصة على حساب مصالح الشعب السوري.

حالة اغتراب الدولة عن المجتمع تشكّل الحافز القوي في تأصيل الطائفية وعودة المجتمع الأهلي إلى تكوينات ما قبل الدولة، طائفية كانت أو مناطقية أو عشائرية. فيتحول أفراد المجتمع بانتمائهم للدولة الوطنية إلى تلك التكوينات. وحالة الاغتراب تلك ناتجة عن حالة الاستبداد والفساد للدولة وهدر كرامة الإنسان.

إن الاستحواذ على السلطة من قبل فئة بعينها، وعدم سماحها بالمشاركة السياسية ومنح القرار لباقي الفئات، إضافة لسيطرتها على المقدرات الاقتصادية، وانتشار الفساد في أجهزة الدولة، وعدم تطبيقها العدالة الاجتماعية، وانتقاصها حقّ المواطنة الكاملة بين أفراد المجتمع، وممارستها الانتهاكات لحقوق الإنسان على المستوى الفردي والجماعي، كما العوائق الذهنية والثقافية المترسبة في المجتمع، جميعها دوافع تؤدّي إلى حالة انفصام بين الدولة وأفراد المجتمع. وبذلك تنتزع السلطة السياسة من المجتمع، فيصبح الانتماء الطائفي بديلًا عن الانتماء السياسي.

وتأسيسًا على ما تقدّم يمكن القول: لا علاقة ضرورية للطائفية بالدين، إلا ببعض الجزئيات الخاصة بماهيته واستخدامه للنص الديني. فالجوهر الحقيقي للطائفية يكمن في المجال السياسي، حين يتم توظيف الدين لأهداف ونزعات سياسية تخص هذا الطرف أو ذاك.

وعندما تتحول النزعة الطائفية إلى عصبية، وتنتقل من الطائفية الاجتماعية إلى الطائفية السياسية، تنقل معها منظومةً كاملةً من القيم والأعراف والتقاليد والعادات والقرابة العشائرية والروحية



لاجئين سوريين
صورة للاجئين سوريين يعبرون النهر الذي يمثل الحدود بالقرب من مسعودية، وهي قرية لبنانية. بعد سقوط النظام الحاكم، دخل آلاف اللاجئين، ومعظمهم من العلويين، إلى لبنان في أعقاب أعمال العنف الطائفي في سورية.
● المصدر: واشنطن بوست

والغيبية إلى المجال السياسي. فيتم إحلالها محلّ المفاهيم القائمة عليها الدولة من مؤسسات وقانون وعقد اجتماعي، بما ينسف الرابطةَ الوطنيةَ التي تجمع المجتمع السوري.
الخلط بين الطائفة والنظام السابق من قبل "سلطة الأمر الواقع"، من شأنه أن يكون أكثر كارثية، خاصة عندما ينحدر وعي النخبة والصفوة إلى مستوى الوعي العام. وهذا ما نلاحظه اليوم في الخطاب الثقافي الطائفي بصورة واضحة. حيث لا يجري الفصل الموضوعي بين النظام والطائفة والدولة. فالطائفةُ مكوّن من مكونات الدولة بالضرورة، لكنها ليست من مكونات النظام السياسي القائم.
قد يقول البعض أن المبالغة في القلق لا مبرر لها. لكن الجميع يتفق أن هناك أزمة حقيقية يجب تجاوزها، وإلا مصيرنا سوف يكون بالغ السوء. على جميع القوى السياسية والمنظمات والجمعيات والفعاليات الاجتماعية والفكرية المعنية بمصلحة الوطن والمواطن العمل للتغيير نحو مجتمع أفضل. مجتمع يكون العدل ميزانه، والحرية هواءه، والمواطن أساسه، والوطن سياجه، والتراث مخياله، والمستقبل بنيانه، وتقاسم الثروة أرضيته. عليها أن تعي أن المرحلة القادمة تحمل في طياتها واقعا مؤلمًا، ربما نحتاج لزمن طويل كي نبني الدولةَ من جديد. فالمسؤولية كبيرة: بما يستوجب العمل والتضامن الجاد والفعال، والتعالي على أمراضنا وفرديتنا. ورغم كلّ ما ذكر آنفًا، أجد نفسي متفائلًا بالشعب السوري، لما يحمل من معارضة صامته للواقع الحالي، ولأنه يطمح للحرية ولبناء مؤسسات مدنية تحقق له مستقبله بشكل حضاري. هذا الشعب منفتح على كافة النظريات والإيديولوجيات التي تحملها القوى السياسية، مادامت تتوافق والعمل من أجل حريته وأمنه الاقتصادي والاجتماعي الحامي لوحدته وبنيته. بكلمة أخيرة، على هذه القوى أن تكون على مستوى المسؤولية التاريخية التي تواجهها.

> كل هذه الانتهاكات التي مارستها سلطة الأمر الواقع، وما زالت تمارسها، هدفها السيطرة على المجتمع، من خلال زراعة الخوف وضمن استراتيجية متعمدة لسلطة الأمر الواقع، وذلك لبث الخوف والرعب في نفوس الشعب السوري

الهوامش

١. ناجي، أبو بكر، (د.ت): إدارة التوحش أخطر مرحلة ستمرّ بها الأمّة، ، د.م، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، ص ١٥.
٢. المصدر نفسه، ص ٣١.
٣. ديرانية، مجاهد مأمون (٢٠١٥): سألوني عن جبهة



النصرة مجموعة مقالات نُشرت بين ٢٠١٥/١٠/٨ و٢٠١٥/١١/١٥، كتاب إلكتروني (د.م، د.ن)، ص ١٣. الكتاب متوفر عبر الرابط الآتي:
https://www.kutubypdf.com/book121314/
٤. المصدر نفسه، ص ٢٦-٢٧.
٥. مناع، هيثم، (٢٠٢٥): جبهة النصرة، من فقه الدم إلى جهاد الغلبة، ط: ٥، طبعة إلكترونية، جنيف: موقع المعهد الإسكندينافي لحقوق الإنسان، مؤسسة هيثم مناع، ص ١٢،١١.
https://sihr.fr/ar/alnasrah-front-5edition/
٦. تقرير أعدّته لجنة المتابعة الإنسانية وحقوق الإنسان، موقع المركز الإسكندينافي لحقوق الإنسان، ص ٢، الصادر بتاريخ ٢٢ نيسان/أبريل ٢٠٢٥ .
https://sihr.fr/ar/sectarian-cleansing-as-a-policy-of-governance/

زبيدة فيصل، طفلة سورية لاجئة تبلغ من العمر ١٠ سنوات، تقفز بالحبل بينما تلعب هي وأطفال آخرون بالقرب من خيامهم في مخيم عشوائي على أطراف المفرق بالأردن، قرب الحدود السورية، في ١٩ يوليو ٢٠١٥.
• المصدر: أسوشيتد برس/ محمد محيسن





الأسد
والمقاومة خيار حتى النهاية

سورية دفعت ثمن التزام المقاومة، والتمترس بالدفاعية



ميخائيل عوض
كاتب وباحث سياسي مختص في الشؤون الإقليمية والدولية • لبنان

مقدّمة

يسعى هذا المقال إلى إعادة قراءة التجربة السوريّة في عهد حافظ وبشار الأسد في إطار الممانعة والمقاومة، بوصفها أنموذجًا مركبًا لـ"استقلال دفاعيّ" تشكّل تحت ضغط بنية دولية غير متكافئة وهيمنةٍ غربية تستند إلى ميراث استعماري طويل. ينطلق المقال من فرضيةٍ مفادها أنّ تمسّك سورية بخيار المقاومة لم يكن مجرّد خيار أيديولوجي أو شعاراتي، بل مثّل إستراتيجية للتماسك الداخلي وإعادة التموقع في نظامٍ إقليميٍّ وعالميٍّ تهيمن عليه قوى الاستعمار القديم والجديد.

يعتمد المقال مقاربة نوعية تجمع بين التحليل التاريخي-السياسي، وتحليل الخطاب، في ضوء مفاهيم دراسات ما بعد الاستعمار، مثل: الاستشراق (Said 1978)، والعنف

والتحرّر (Fanon 1961,/2004)، و"سياسات الموت" أو النيكرواستعمارية (Mbembe 2003, 2019)، والاستعمار الجديد في صيغه الاقتصادية والرمزية.

يتتبّع المقال كيف تشكّلت سردية "سورية المقاومة" عبر محطاتٍ مفصلية: من حرب تشرين، والتدخّل في لبنان، ورعاية المقاومة الفلسطينية واللبنانية، وصولاً إلى التحالف مع إيران، ثم التحوّلات التي أعقبت سقوط الاتحاد السوفيتي، واتفاقات كامب ديفيد وأوسلو ووادي عربة. ويجادل أنّ سورية، لعبت دور "الفاعل الممانع" في بنية إقليمية تسعى إلى دمج المنطقة في منطق الهيمنة النيوليبرالية والأمنية الغربية.

تُسائل القراءة هنا حدود هذا الاستقلال الدفاعي: إلى أي مدى شكّل خيار المقاومة آلية لتحرير المجال السياسي والاجتماعي من تبعيّة الخارج؟ ومن خلال استحضار خطاب حافظ وبشار الأسد، ووثائق الأمم المتحدة ذات الصلة بالصراع العربي-"الإسرائيلي" (مثل قرارات مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨)، ومذكّرات وسِيَر سياسية حول سورية، بالإضافة إلى أدبيات ما بعد الاستعمار، يقترح المقال فهم سورية بوصفها فضاء متنازعًا بين مشروع "استقلال مقاوم" ومشاريع "استعمار جديد" عسكري/اقتصادي/رمزي و دور الأسدين في صمود سورية والثمن الذي دفعه هذا البلد جراء الصمود.

> تمسّك سورية بخيار المقاومة لم يكن مجرّد خيار أيديولوجي أو شعاراتي، بل مثّل إستراتيجية للتماسك الداخلي و إعادة التموقع في نظامٍ إقليميٍّ وعالميٍّ تهيمن عليه قوى الاستعمار القديم والجد

إشكالية البحث وأسئلته

يندرج هذا المقال ضمن دراسات ما بعد الاستعمار، ويحاول الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: كيف أعادت سورية، في عهد حافظ وبشار الأسد، تعريف موقعها في النظام الإقليمي والعالمي عبر تبنّي خيار المقاومة، في مواجهة أشكالٍ متحوّلة من الاستعمار العسكري والاقتصادي والرمزي؟

ويتفرّع عن هذا السؤال الرئيس عددٌ من الأسئلة الفرعية:

١. كيف يمكن فهم سياسات الأسد الأب والابن تجاه فلسطين ولبنان و إيران، في ضوء مفاهيم الاستشراق والاستعمار الجديد و"سياسات الموت" كما طوّرتها أدبيات ما بعد الاستعمار؟ (Said 1978; Fanon, 1961/2004; Mbembe, 2003/2019)

٢. إلى أي حدّ مثّل خطاب "المقاومة والتوازن الاستراتيجي" محاولة لتحدّي البنية الدولية غير المتكافئة، أو شكلا من أشكال إدارة التبعية ضمن شروطها القائمة؟ (Hinnebusch, 2001)

٣. ما معنى أن "تسقط" سورية كنظام سياسي في سرديات الخصوم، وما معنى أن تستمرّ محاولة إسقاطها من قبل الاستعمار كفكرةٍ جيوسياسية ومركزٍ رمزيٍّ للمقاومة في المخيال الإقليمي عبر التلاعب بالتاريخ وتغيير المعايير من الصمود إلى المماشاة والتعايش؟ تهدف هذه الأسئلة إلى نقل النقاش من توصيفٍ أخلاقي/سياسي للنظام السوري، إلى تحليلٍ نقديٍّ لبُناه الخطابية والمؤسسية، وعلاقته بالهيمنة الإمبريالية وبحركات المقاومة، بما يفتح الباب أمام مقاربةٍ أكثر تركيبًا لمفهوم "الممانعة" في سياق ما بعد الاستعمار.

منهجية البحث

يعتمد هذا المقال منهجية نوعية تجمع بين:

التحليل التاريخي-السياسي (Historical-Political Analysis): من خلال تتبّع المحطّات التاريخية الأساسية في تطوّر النظام السوري، مثل: الحركة التصحيحية، حرب تشرين ١٩٧٣، الدور السوري في لبنان، انهيار الاتحاد السوفيتي، اتفاقات كامب ديفيد وأوسلو ووادي عربة، انسحاب ٢٠٠٠ من جنوب لبنان، وحرب تموز ٢٠٠٦، وغيرها، بالاستناد إلى خطابات رسمية ووثائق أممية ومذكّرات سياسية.

تحليل الخطاب (Discourse Analysis): بتحليل اللغة المستعملة في النص نفسه، وخطابات حافظ وبشار الأسد حول المقاومة والجولان وفلسطين ولبنان، ولا سيما تلك الواردة في مجموعات "الوثائق العربية حول فلسطين والصراع العربي-"الإسرائيلي"" التي تتضمّن نصوصا مختارة من خطابات الأسد حول جبهة الصمود والتصدي واتفاقات كامب ديفيد.

المقاربة ما بعد الاستعمارية (Postcolonial

Approach): عبر توظيف مفاهيم الاستشراق (Said 1978,)، و"معذّبو الأرض" (Fanon 1961,/2004)، و"سياسات الموت" (Mbembe, 2003/2019)، لفهم تمثيل سورية في الخطاب الغربي، وكيف تُعاد صياغة مفاهيم "الإرهاب"، و"الاعتدال"، و"الإصلاح" في إطار علاقات قوةٍ غير متكافئة بين المركز الإمبريالي والأطراف.

الاستناد إلى مصادر أولية وثانوية:

تشمل المصادر الأولية قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالصراع العربي-"الإسرائيلي"، وخطابات رسمية سوريّة وعربية، ووثائق اتفاقات السلام، بينما تشمل المصادر الثانوية أعمالاً كلاسيكية وحديثة حول النظام السوري ومحور المقاومة ودراسات ما بعد الاستعمار.

مقدمة جغرافية وتاريخية:

سورية الكبرى، والأصح بلاد الشام وامتدادها الرافدين أو ما يسمى بالهلال الخصيب، والأدق تسميتها العربية الشمالية كما جاء وصفها في الكتب القديمة وعند الرحالة والجغرافيين.

فالعربية كانت تُعرف بالجغرافية الممتدة من ساحل غزة إلى جبال طوروس وزاغروس إلى الهضبة الإيرانية فبحر العرب، يقسمها خط وهمي يمر بالحجاز، فسميت "الشمالية" ومنها اتخذت الشام اسمها، و"الجنوبية" ومنها اتخذت اليمن اسمها.

جغرافية وموقع جيوسياسي -جيوبوليتيكي استثنائي وحاكم

تميَّزت منذ بدء الخلق بخصائص وسمات ومنتجات، وقد منحها الخالقُ صفات ومهمات لم يكتسبها غيرها. أرض الرسالات ومُنشأة الحضارات، ومولدة الجديد في حياة البشر وخياراتهم، كلما استعصى ولادة الجديد.

كُتب فيها الكثير وقيل الأكثر، والشهادة لها أنها أرض الرسالات والأنبياء والرسل.

يروي فيلم "دمشق-حلب" للمخرج باسل الخطيب رحلة برية يقوم بها "عيسى عبد الله" (دريد لحام)، وهو رجل انطوائي يعيش بمعزل عن أحداث الحرب، متوجهاً إلى حلب لزيارة ابنته بعد انتهاء الحصار. يركز هذا العمل على الانعكاسات الإنسانية والنفسية للحرب على حياة الناس العاديين وركاب الحافلة، بدلاً من التركيز على المشاهد العسكرية. وقد نجح الفيلم في الحصول على جائزتي أفضل فيلم وأفضل ممثل في مهرجان الإسكندرية السينمائي الدولي عام ٢٠١٨.



قال فيها القائد الكبير جمال عبد الناصر: "قلب العروبة النابض"، ووصفها مدير متحف اللوفر: "لكل إنسان عاقل في هذا العالم وطنان: وطنه الأول الشام"، ووصفها فوستر دلاس وزير خارجية أمريكا في خمسينيات القرن المنصرم: "إنها نقطة توازن الاستراتيجيات الكونية يُمنع العبث بها".

أفاض في تدقيق تاريخها وأثرها الكاتب عبد المجيد عبد الملك في كتاب من جزئيين: تحت عنوان "ساحل الشام والصراعات الدولية" واستنتج قانوناً تاريخيًا أسماه "الزوايا الذهبية لمثلث صناعة تاريخ مستقبل الإنسانية" زواياه: بغداد، بيروت، القدس، بيسان، أزمنتها شاهدة على تاريخ البشرية.

فكل قوة مهما كانت عاتية في زمنها إذا هُزمت في واحدة منها بدأت رحلة الغروب، وكل قوة مهما صغر شأنها إذا انتصرت في واحدة تأهلت وأصبحت قوة مرهوبة. تأكد قانونه بمصير الاتحاد السوفيتي عندما هُزم في بغداد وفلسطين وبيروت في ثمانينات القرن المنصرم.

> القائد الكبير جمال عبد الناصر وصف سورية بأنها "قلب العروبة النابض"، ووصفها مدير متحف اللوفر: "لكل إنسان عاقل في هذا العالم وطنان: وطنه الأول الشام"

تلك الخلاصات وكثير منها تتحقق من جديد، فبين بيروت وبغداد والقدس دارت وتدور حربٌ عالمية عظمى وتخسر بها أمريكا وعالمها الإنكلوسكسوني المهيمن وصنيعتهم "إسرائيل"، لترتسم علامات الغروب والرحيل. وتُسطِر غزة أرقى وأهم أسطورة إبداعية مقاومة في تاريخ الإنسانية. وتصبح علامة فارقة في استنهاض أممية ثورية شبابية مناضلة، وتعتق جيل "زد" من قيوده، وهي حاضرة في عناوين وشعارات كل حراك سياسي أو اجتماعي، بل ومُؤَسِسَة في إطلاق حقبة الشعوب ودورها في أرجاء الكرة الأرضية. فصارت قضية اليسار الثوري والاجتماعي الناهضة في أمريكا نفسها، وأسهمت بهزيمة الديمقراطي ومرشحته هاريس بوصفه واجهة لوبي العولمة وحكومة الشركات الخفية. كما تمكن جيل الشباب من عمدة نيويورك وسياتل وهما عاصمتي العولمة وحكومة الشركات، بينما تحضر بقوة زلزالية في الحياة السياسية اليومية لدول الاتحاد الأوروبي في لندن وباريس وبرلين والأخريات. وضربت في الانتخابات الهولندية وفاجأت بإسقاط اليمين وانتصار كاسح لحزب ٦٦ الديمقراطي وكتلته الأساسية من الشباب والطلاب ومن جيل زد.

من خاصياتها وخلاصاتها أنها لم ترفع راية بيضاء، ولم تقبل إذلالا ولا استعمارا، ولم توالي من لم يفهمها ولم يطابق طبائعها وقيمها ويتمثل روحها.

أنتجت أولى ظاهرات الانقلابات العسكرية

تضطرب وتكمن وتصبر لكنها لا تهدأ، وعندما ترفض حاكما أو تنقلب على واقع تستمر وتبدع وتُغيّر مهما كانت الأمور. كثيرة هي الأحاديث المنقولة عن رسول الله (ص)، والمؤكد أنها أرض قداسة ورسالات وأنبياء وعطاء وتفيض. فالملائكة باسطة أجنحتها عليها، وهي أرض المحشر والمنشر، وعند الكثيرين المعراج إلى السماء. وقد أوصى النبيُّ العربي المؤمنين بها: إن حميتم الشام حميتم الإسلام. و إسلامها ومؤسستها الدينية رسالية ورسولية، احتضنت الإسلام وسوَّقته إلى العالمين، وتميزت واستمرت على إيمانها القرآني القويم، وحفظت الرسالة والتنوع والتفاعل بين أطيافها، وظلّت بيئة الكرامة والشهامة والعروبة و إغاثة الملهوف، فتشكلت أول مَدنية في التاريخ، واستمرت دمشق وحدها العاصمة المأهولة على مدى الأزمنة البشرية. كانت أول مدنية وفيها تشكلت أولى قواعد الوعي الاجتماعي والتفاعل والتشاور، وشهدت أولى الديمقراطيات وأنقَاها، وكرَّست مبدأ الانتخاب والشورى باختيار مِهَنيها -وهم الأقدم- كتجّارها وصناعيها في تشكيلات الأسواق المتخصصة، وشيوخ الكار كقادة يَرتقون الفتوق ويسوون النزاعات ويحكمون بين أهل المهنة. ومازالت أسواقها على تقاليدها فالمحل الذي استفتح صاحبه يرسل زبائنه إلى جيرانه حتى يستفتحون.

قيمها وبيئاتها وعقلها متقد، ومشغول بالتضامنية و"الجار قبل الدار"، ولا ينام شبعان وجاره جائع

هذه الطبائع والقيم ترسّخت وأصبحت أنماط

عيش وتفكير وعقل جمعي وذكاء فطري، قد يحسبها المستعجلون أنها اندثرت، إلا أنَّ الشام تفاجئ باستحضارها وتجليها بأرقى الأشكال وفي الأزمنة الواجبة.

هذه المقدمة ضرورية كي تُفهم الشام وما آلت إليه وما ستكون، وإن لم تدرك خاصياتها لن ينجح أحد في فك كنز ألغازها وأحاجيها. شغلت القادة والدبلوماسيين منذ القدم ومازالت عصيّة على الفهم.

دفعت بالكاتب الإنكليزي الشهير جدًا "باترك سيل"، إذ اكتسب شهرته ومكانته من اهتمامه بالشام فأصدر أول كتبه في خمسينيات القرن المنصرم تحت عنوان: "اللغز السوري"، ثم كتابه الهام في التسعينات: "الأسد والصراع مع سورية". وكثيرون حاولوا فكّ طلاسمها، ومن أهمهم إيال زيسر الخبير "الإسرائيلي" بالشأن السوري في كتابه الهام جدًا باسم الأب: بشار الأسد والسنوات الأولى في الحكم". وقد تبعه وتأثر به الكاتب الأمريكي فلينت ليفريت بكتاب: " وراثة سورية، اختبار بشّار بالنار." وأعقبهم الباحث الإسكتلندي رايموند هينبوش بكتاب "سورية ثورة من فوق"، وحاول كثيرون الإبحار في عالمها.

إذن هي الشام وخاصياتها ولغزها المُحكم، وتوقدها الدائم، وحيويتها التي لا تنضب. ومن خاصياتها أنها "تُشَوّم" الأقوام والجماعات والظاهرات التي تستوطنها، ومن إنتاجاتها الحديثة "تشويم" الجهادية السلفية العالمية التي حاولت استيطانها باسم القاعدة وبنظرية الخلافة الزمانية، فأنتجت داعش كمحاولة لفرض الخلافة المكانية التي سعت، حيث تَمكنَّت لإزالة حدود سايكس بيكو وفرضت نمطًا مختلفًا ومن خارج النص والتوازنات.

هذه الشام التي هي موضوع بحثنا في سياق المقاومة وخيارها ومحورها مع حافظ الأسد وخليفته، إلى بداية استعادة روحها ومكانتها في بلدة بيت جن التي جننت نتنياهو، واضطرت توماس براك أن يهرول إلى بغداد ودمشق، وأخرَجت ترمب عن طبائعه



جدارية "أبطال فلسطين" في منطقة "ريدبريدج" بشرق لندن، والتي تحتفي بأربعة صحفيين فلسطينيين.

واضطرته أن يؤنب نتنياهو على مغامراته الحمقاء وغير المحسوبة في الشام ويستدعيه على عجل إلى البيت الأبيض.

الشام بين الاستشراق والاستعمار الجديد

تقدّم الفقرات السابقة وصفًا كثيفًا لـ"الشام" كحيّز جغرافي-حضاري استثنائي، وهو ما يتقاطع مع النقاشات التي قدّمها إدوارد سعيد حول "اختراع الشرق" في المخيلة الغربية، حيث تُبنى صورة الشرق كفضاءٍ للألغاز والغرابة واللاعقلانية، بما يبرّر تدخّل القوى الاستعمارية تحت عنوان "التمدين" أو "إدارة الفوضى" (Said, ١٩٧٨).

غير أنّ هذا المقال يذهب في اتجاهٍ معاكس للاستشراق الكلاسيكي: فهو ينطلق من تعريفٍ ذاتي للشام بوصفها مركزًا حضاريًا منتجًا للمعنى والتاريخ، لا هامشًا يحتاج إلى "اكتشاف" من الخارج. وفي هذا السياق، تصبح مقاومةُ الاستعمار ليس فقط عملًا عسكريًا أو سياسيًا، بل أيضًا فعلًا معرفيًا وخطابيًا يرفض أن تُعرَّف المنطقة من خلال قوالبٍ نمطية تفرضها مراكز القوة الإمبريالية.

> كل قوة عظمى تبدأ رحلة الأفول بهزيمتها في معركة واحدة، وكل قوة صغيرة تؤهلها انتصارتها لتصبح مرهوبة الجانب. هذه سنة التاريخ التي تتجلى الآن في هزيمة أمريكا وحلفائها وانتصار مقاومة غزة التي أطلقت صحوة عالمية للشعوب

يمكن قراءة الإصرار على خصوصية الشام وممانعتها عبر عدسة فرانتز فانون الذي شدّد على أنّ التحرّر لا يكتمل إلا عندما تستعيد الشعوب المستعمَرة قدرتها على تعريف نفسها وتاريخها، بعيدا عن صور التشييء والدونية التي تنتجها الأيديولوجيا الاستعمارية (Fanon, ١٩٦١/٢٠٠٤).

في الوقت نفسه، تذكّرنا الإشارة إلى الحروب العالمية الدائرة بين بغداد وبيروت والقدس وغزة بما يسمّيه أشيل مبمبي: "سياسات الموت": حيث يتحوّل الشرق الأوسط إلى فضاءٍ لامتحان تقنيات السيطرة على الحياة والموت، وتُدار شعوبه كـ"جماعاتٍ فائضة" يمكن تعريضها للعنف الدائم، ضمن منطقٍ نيكرواستعماري يتجاوز الحدود القُطرية التقليدية (Mbembe, ٢٠٠٣, ٢٠١٩).

المارد بدأ يتململ ويستعيد توقّده

حافظ الأسد كفاعل ما بعد استعماري

قبل الدخول في التفاصيل التاريخية لسيرة حافظ الأسد، من المفيد مقاربة شخصيته ودوره عبر منظور ما بعد الاستعمار، بوصفه نموذجا لـ"الزعيم ما بعد الكولونيالي" الذي يتحرك في فضاءٍ شديد التعقيد بين إرث الاستعمار، وضغوط التبعية الاقتصادية، وتطلّعات التحرّر الوطني. تشير دراسات عدّة حول الدولة البعثية في سورية إلى أنّ "الثورة من فوق" التي قادها البعث، وتكرّست في عهد الأسد، مزجت بين مشروع تحديثٍ وبناء دولة مركزية قوية، وبين تبنّي خطابٍ قومي-تحرّري في مواجهة "إسرائيل" والغرب (Hinnebusch, ٢٠٠١; Seale, ١٩٨٨).

من هنا تكتسب دراسة سياسة الأسد تجاه المقاومة والاتفاقات والقبض على لبنان وأوراق فلسطين أهمية خاصة: فهي تكشف كيف تُدار الهامشية ضمن النظام الدولي أحيانًا بالمقاومة، وأحيانًا عبر التكيُّف مع شروط الهيمنة (Fanon, ١٩٦١/٢٠٠٤).

حافظ الأسد من فتى جبل العلويين إلى يمين حزب البعث فالرئيس البراغماتي المقاوم

قدم إيال زيسر توصيفًا للأسد في كتابه: "لقد أحلّ حافظ الأسد ذكائه وقدراته الاستراتيجية محل ضعف قدرات سورية، وحولها إلى لاعب إقليمي فاعل..." اشتق مكانته في قيادة سورية كشخصية إشكالية، اتُهم من رفاقه في حركة ٢٣ شباط بأنه عميل بريطاني، وسيقت روايات عن زيارته لندن ١٩٦٦ والتقائه بقيادات "إسرائيلية" اتفق معها على تسليم الجولان بمقابل تمكينه من حكم سورية، وجاء بيانه كوزير دفاع بإعلانه سقوط الجولان قبل أيام من وصول القوات "الإسرائيلية" إليه في حرب ١٩٦٧ كواقعات تمسّك بها المُتهمون، وزاد في اتهامه إلى موقفه من شعارات وطروحات فريق ٢٣ شباط في قيادة سورية واعتراضه عليها ورفضه شعار حرب التحرير الشعبية، وتسبب توريطهم الجيش السوري في أحداث الأردن ٧٠/٦٩ نصرة للمقاومة بأزمة عميقة دفعته إلى انقلاب الحركة التصحيحية

صورة لأجزاء من معبد جوبيتر عند مخرج سوق الحميدية في دمشق/ سورية، عام تأسيس السوق ١٧٨٠م



والإطاحة بهم، وزجَّ برفاقه التاريخيين في السجون وفي المنافي حتى موتهم دون رحمة.
بعيدًا عن الروايات والاتهامات بين الرفاق المتحاربين على السلطة والنفوذ، وصل الرجل إلى قيادة سورية ورئاستها في مسارات معقدة كطالب ذو شخصية قيادية، ناشط ومتزن نزل من جبل العلويين ومن بلدته القرداحة، حيث الفقر والإهمال والاضطهاد، إلى اللاذقية، حافي القدمين بحسب روايات، بحثًا عن العلم والتمكن، ثم دخل الكلية الحربية بصفة طالب ضابط طيار، وكجيله الباحثين عن مكانة وأبواب رزق مستعجلة لتأمين أنفسهم وعائلاتهم الفقيرة والمهمشة. وكان الجيش الفتي مقصدهم، وقد انكفأ سُنَّة المدن وأبنائهم عن الالتحاق بالعسكرية لاهتمامهم بالتجارة والصناعة والمهن.
لم تقنعه أفكار الحزب السوري القومي برغم أنَّ بعض أسرته منتسبين له، وهو ناشط في البيئة. ولا أغرَته الأفكار الشيوعية برغم طغيانها في الجبل والساحل. فانتسب إلى حزب البعث طالبًا حيويًا ناشطًا، وأصبح أحد أعضاء لجنته العسكرية التي تولَّت إعادة إحيائه، وذلك بعد أن قبلت قيادته حلَّه في حقبة الوحدة السورية المصرية. وفي غمار النضالات الطلابية والشعبية والفكرية تبلورت شخصيته ووعيه، والمعروف عنه عشقه للغة العربية وقراءة التاريخ.

> مقاومةُ الاستعمار ليس فقط عملًا عسكريًا أو سياسيًا، بل أيضًا فعلًا معرفيًا وخطابيًا يرفض أن تُعرَّف المنطقة من خلال قوالبٍ نمطية تفرضها مراكز القوة الإمبريالية

عزز مكانته في الحزب والتشكيلات العسكرية، وكان ركني في انقلابات حزب البعث منذ ٨ آذار/ مارس، فانحيازه إلى جهة يقلب التوازنات. حتى تمكنه من الاستفراد بقيادة الحزب وإعادة تشكيله على ما يرغب، وعزز مكانته في قيادة سورية بعد الحركة التصحيحية بإجراءات عملية انفتاحيه على المجتمع، بإقرار دستور وبإنشاء مجلس شعب وبتمكين الاتحاد العام للعمال والنقابات وبتشكيل الجبهة الوطنية وتأمين مشاركة أحزابها بالسلطة، كواجهات غير مُقررة وبإجراءات اجتماعية، وأنشأ شبكة أمان واسعة موّلها من ابتزاز الدول الخليجية. فأدت إجراءاته وانفتاحه إلى الاستقرار، وتوسيع الطبقة الوسطى لـ٧٠٪ من المجتمع، مكنته من "تبعيث" المجتمع والدولة وإدارته، وحل مشكلاته وتعارضاته، واحتواء الحيوية السورية تحت عباءته، فأنشأ نظامًا أبويًا للمجتمع وفئاته، وأمّن مشاركة مختلف التشكيلات في السلطة وأجهزتها بهندسة متقنة يسّرت سيطرته، و إقامة نظام مركزي محكم شكّل موقع رئيس الجمهورية فيه قفل العِقد.
وقد بذل جهدًا لتأمين مكانته بإعداده الجيش والخطط، وخوض حرب تشرين التي دخلها الجيش السوري كحرب تحرير وغسل عار الهزيمة. بينما خاضها السادات باتفاق مع كيسنجر لتكون حرب تحريك لتؤدي إلى اتفاق كامب ديفيد، وسلخ مصر وخروجها من الصراع، وتحولها إلى تبعية أمريكا وتنفيذ مشروعاتها ومخططاتها. ما دفع بالأسد إلى خوض غمار تجربة جبهة الصمود والتصدي، وعزل مصر من الجامعة العربية، و إعلانه استراتيجية التوازن الاستراتيجي، وتأكيده أنَّ الحرب مع "إسرائيل" تعني الحرب مع أمريكا والغرب. وحقق انفتاحًا واسعًا على الدول العربية التي كان سوابقه قد تسببوا بحالة عداء وصراعات معها، ورفع شعار التضامن العربي والتصالح، وعَمّق العلاقة مع الاتحاد السوفيتي، وانفتح على الأوروبيين وسعى عند الآسيويين.
بعد حرب تشرين وتخلي مصر عن خط الصراع وانقلابها إلى الضد ولتأمين سورية وتعزيز مكانتها استثمر بالحرب الأهلية اللبنانية باكرًا، وتَدَّخل في لبنان تحت شعارات الأخوية وتأمين لبنان ووحدته دولة وشعبًا، ومَنع "إسرائيل" من التدخل، ما أدى إلى اشتباك مع منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية، فكان لجيشه المشاركة الفعّالة في إسقاط تل الزعتر، وتأمين الإسناد للجبهة اللبنانية التي طلب زعيماها شمعون والجميّل الأسد الأب وعرضا عليه اتحاد كونفدرالي.
تَمسَك الأسد بمقولات التحرير وبحدود الجولان حتى مياه طبريا، وأحنى ظهره للعواصف بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وفقدانه لحليف دولي وازن، وخَفضَّ من شروطه ولغة سورية وشعاراتها القومية والوطنية، وتصالح مع دول الخليج، ثم مع مصر حسني مبارك، وحاول تأمين "سيبة" قوية

للأمن القومي بثلاثية: (مصر السعودية سورية).
توترت العلاقات مع العراق وصدام حسين، وبلغت حدود الاشتباك، وبذل كل طرف في تأمين وحماية المعارضين. وأسند صدام حركة الإخوان المسلمين، والجبهة اللبنانية ومنظمة التحرير، والأحزاب والفصائل التي عارضت الأسد في لبنان.
وبينما تصاعدت الخلافات مع عرفات وصدام حسين والحركة الوطنية اللبنانية، تدخل في لبنان عسكريًا بداية بطلب من الزعماء المسيحيين، بذريعة حماية التنوع والمسيحيين بموافقة أمريكية مقيدة بشروط "إسرائيلية" بالامتناع عن الانتشار جنوبًا بعد الزهراني، وبالحفاظ على النظام وتوازناته. أحكمت سورية قبضتها على لبنان وتوازناته، وأفشلت الجهود العربية لتخفيف قبضتها، وناور الأسد في القمم وانضم إلى قوات الردع العربية، ثم بقي الجيش السوري ممسكًا بالتطورات بعد انسحاب الجميع. وأجاد ابتزاز العرب والغرب باللعب في التناقضات اللبنانية، والاستثمار بحروب اللبنانيين، وحاجات الغرب والعرب للاستقرار، وضبط الأزمة اللبنانية. وحَوَّل لبنان إلى حديقة خلفية لتجميع وإعداد المعارضات للنظم، خاصة تركية وأَمَن حزب العمال الكردستاني ومعسكراته في لبنان وفي سورية، واستخدم جماعات دولية كالجيش الأحمر الياباني، ومنظمة بادر-ماينهوف من مناصري القضية الفلسطينية، واستثمر بخطف الأجانب وتأمين السفراء والسفارات ومصالح الدول والقوى.
تبدلت التوازنات والحاجات فانقلب المسيحيون على الأسد، ووقعت حرب زحلة وحرب الأشرفية، فهَادن منظمة التحرير والحركة الوطنية بعد عجزه عن احتوائها، وسعى لاحتكار الورقة الفلسطينية حتى الاجتياح "الإسرائيلي" لبيروت ١٩٨٢، ولم يشترك الجيش السوري إلا بعد أن اعتدت عليه القوات "الإسرائيلية"، وفرضت الحصار على بيروت وحاولت الوصول إلى طريق المصنع وأعلى الجبال لقطع طريق دمشق بيروت، فخاض الجيش السوري معارك بطولية ومشرِفة في صوفر وعين

صورة للشارع المستقيم - شارع مدحت باشا في دمشق / سنة الإنشاء: ١٨٧٨م



زحلتا والشبانية وبحمدون، وعلى خط الاشتباك في البقاع الغربي والأوسط، وخاضت الوحدات الخاصة معركة نوعية في السلطان يعقوب برغم تدمير قواعد الدفاع الجوي في لبنان، و إسقاط وتدمير ثلث الطيران الحربي السوري في معارك خاسرة دفع الأسد لخوضها برغم معرفته بفارق القوة وبالتفوق "الإسرائيلي" الأمريكي.

لم يغطي قرار منظمة التحرير بالانسحاب من بيروت والرحيل عن لبنان برغم اتفاقه عبر فيليب حبيب لسحب الوحدات السورية التي حوصرت في بيروت وقاتلت ببطولات.

انسحبت القوات السورية إلى البقاع وظهر البيدر واستمر انتشارها في الشمال، فكلف غازي كنعان وأحمد جبريل وحَفز فصائل المقاومة والأحزاب على تشكيل المقاومة وأسندها ودربها، وأمّن تمويلها من القذافي، ورعى كنعان الأحزاب وعملياتها الانتحارية وقدم لها كل الدعم والإسناد والتحفيز والتدريب والسلاح.

لام عرفات على خطوة الانسحاب من بيروت، ولم

> التحرّر لا يكتمل إلا عندما تستعيد الشعوب المستعمَرة قدرتها على تعريف نفسها وتاريخها، بعيدا عن صور التشييء والدونية التي تنتجها الأيديولوجيا الاستعمارية

يستقبله أو أي من القوات المنسحبة، باستثناء الفصائل التي يعتبرها ضد عرفات وموالية له. وكان منذ البداية يعمل على تكتيلها واحتضانها وتأمينها، لموازنة "فَتْح" وإضعافها. وتشكلت بطلب ورعاية من سورية جبهات وتحالفات بين فصائلها خاضت اشتباكات مع فتح في الجنوب وبيروت والشمال، وتبنى انتفاضة أبو موسى وأبو خالد العاملي وسعى لجعلها بديلاً عن فتح ومنظمة التحرير.

حذّر الأسد من توقيع اتفاق ١٧ أيار، وطَالَب بمفاوضات عربية وبتلازم المسارات، وركز على تلازم المسارين. وعندما وقع لبنان في عهد أمين الجميل اتفاق ١٧ أيار قرر إسقاطه والعودة إلى بيروت مهما كلف الثمن، وأمّن رعاية تشكيل جبهة الخلاص بين أمل والتقدمي وكرامي وفرنجيه، وأمّن إسناد الضاحية من الجبل، وزجَّ بالجيش السوري والفصائل الفلسطينية في حرب الجبل.

جاءت انتفاضة ٦ شباط/فبراير ١٩٨٥ وانشقاق الجيش اللبناني، ووصل الجبل بالضاحية إلى تغير التوازنات، فأسقِط ١٧ أيار وعادت القوات السورية إلى بيروت والجنوب بطلب من فاعلياتها بسبب الحروب والفوضى بين فصائلها، خاصة "أمل" و"التقدمي" و"المرابطون"، وحرب المخيمات وحروب "فتح عرفات" مع "فتح الانتفاضة".

رفض وحذّر عرفات من المفاوضات الثنائية، وعندما أعلن اتفاق أوسلو وصفه بالاتفاق: "الذي كل كلمة فيه تحتاج إلى اتفاق" ولم يعلن عزمه على إسقاطه، وترك الأمر للفلسطينيين، لكنه تعامل معه أنه طعنة غادرة، وتَفرُّد بقرار فلسطين وتجاهل التضحيات السورية و إضعاف لدورها ومكانتها.

فاوض الأسد وشارك ممثلُه في المؤتمر العالمي للسلام، لكنه أبطن رغبته بتدمير الاتفاقات والصفقات، وخاض المعارك، ولم يقبل أي عرض "إسرائيلي" لا ينص صراحة على عودة الجولان كاملا بما في ذلك الشراكة بمياه طبريا و إلى حدود الرابع من حزيران ٦٧، واستحضر حق العودة والقرارات الدولية ذات الصلة وتمسك بها.

على إثر اجتياح بيروت وتوقيع اتفاقات: "كامب ديفيد" و"وادي عربة" و"أوسلو" ركز الأسد جهده واستراتيجياته على لبنان، وعلى خيار المقاومة وراهن عليها، وأمّن شروط وأسباب حمايتها وتمكينها.

راهن الأسد باكرًا على الثورة الإسلامية الإيرانية وأسندَها، وكان احتضن رجالاتها وفصائلها، ووقف بحزم إلى جانبها في حرب صدام ضدها.

أسند حركة أمل في حرب المخيمات، واسند ورعى انتفاضة فَتْح وأمّنها في وجه عرفات، وتحالفاته مع حركة الجماعات الإسلامية "حركة التوحيد" التي قادها الشيخ سعيد شعبان التي استولت على طرابلس وطردت الأحزاب وحلفاء سورية، فعاد وزجَّ بها وبقواته حتى فرض طرد عرفات، واحتواء حركة التوحيد وتشتيت قواها وكوادرها، ولعب أمين عام حزب الله دورًا في تأمين الشيخ سعيد شعبان ووقف الحرب بشروط الأسد.

استقبل أمين الجميل ١٢ مرة وداور وحاور وصالح، وسعى لتوليفة لبنانية تؤمن سورية وتعدل في النظام، ورعى شخصيًا الاتفاق الثلاثي وراهن عليه،

وعندما تمت تصفية قوات "حبيقة" في الشرقية أمّنها في زحله ورعاها. ولعب مبعوثوه الدور المحوري في إنتاج اتفاق الطائف و إقراره وثيقة دستورية، ثم وقّع معاهدة الأخوة اللبنانية السورية، وأنشأ المجلس اللبناني السوري.

على خط آخر أبدى امتعاضًا من دور الحرس الثوري في لبنان وحاول تقييد حرية حركته، وعندما أُعلن تشكيل حزب الله المقاومة الإسلامية لم يستسغ الأمر، وارتهب من انتقال الورقة اللبنانية إلى يد الإيرانيين، وكان نتيجة للتباينات الإيرانية السورية حرب طاحنة شيعية من الجنوب و إقليم التفاح إلى الضاحية وبيروت. ووقعت احتكاكات بين الجيش السوري وحزب الله في شارع فتح الله ببيروت، وجرت محاولة اغتيال غازي كنعان تحت جسر المطار، وحشدت القوات السورية وهددت باقتحام الضاحية التي فرض حزب الله سيطرته عليها طاردًا أمل منها باستثناء الشياح وأحياء في بئر العبد.

بعد التفاهم مع إيران و إقصاء الأمين العام السابق صبحي الطفيلي واختيار السيد عباس الموسوي تحسّنت العلاقات وتعمقت نوعيًا بين حزب الله والأسد، وتعزز نفوذه بتفاهمات الثنائي الشيعي فـ"نبيه بري" أقرب وأكثر موثوقية عنده.

أمنت سورية برعاية مباشرة من الأسد وبتفويض لابنه باسل واللواء محمد ناصيف حزب الله، وعززت خيار المقاومة وأطلقت يدها على حساب أقرب الحلفاء؛ كالحزب السوري القومي والشيوعي والفصائل الفلسطينية المحسوبة على سورية.

أمّن حافظ الأسد حماية المقاومة وحزب الله، وتدخل شخصيًا مرات عدة، وأحبط محاولات الحريري ورئاسة الجمهورية بتوريط الجيش في الاشتباك مع المقاومة، أو إرسال الجيش إلى الجنوب.

خاض الأسد شخصيًا المفاوضات مع أمريكا في حربي ١٩٩٣ و١٩٩٦ بتفويض من المقاومة و إيران، وانتزع تفاهمات تموز ونيسان، وفرض دورًا للفرنسيين، ولم يقبل المساومة على المقاومة،



في بيت جن (منطقة بريف دمشق بالقرب من مرتفعات الجولان) عقب المجزرة، ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٥.
المصور: أوغور يلديريم.

وهدد مرات بالدخول المباشر في الحرب لإسنادها.

المقاومة كإستراتيجية مضادّة للاستعمار الجديد

يمكن قراءة سياسة الأسد تجاه لبنان وحركات المقاومة في سياق ما بعد الاستعمار كنوع من محاولة تعطيل مشروع "الاستعمار الجديد" الذي يسعى إلى إخضاع المشرق العربي عبر أدواتٍ غير مباشرة: إعادة هندسة الاقتصاد، وضبط المجال الأمني، وتفكيك حركات التحرّر، وإدماج النخب المحلية في منظومةٍ إقليمية تقودها القوى الغربية وحلفاؤها الإقليميون.

من هذا المنظور، تصبح حماية المقاومة اللبنانية والفلسطينية أكثر من ورقة ضغطٍ تكتيكية: إنها أيضًا شكلٌ من أشكال إعادة توزيع القوة في فضاءٍ إقليمي حاولت "إسرائيل" والولايات المتحدة تنظيمه على أساس تفوّق عسكري-تقني دائم، كما تُظهر وثائق عملية السلام والقرارات الأممية ذات الصلة (UNSC Res. 242, 338).

> تشير دراسات عدّة حول الدولة البعثية في سورية إلى أنّ "الثورة من فوق" التي قادها البعث، وتكرّست في عهد الأسد، مزجت بين مشروع تحديثٍ وبناء دولة مركزية قوية، وبين تبنّي خطابٍ قومي-تحرّري في مواجهة "إسرائيل" والغرب

كما أن الأسد عَطّل كل المحاولات العربية والمحلية والدولية للاستفراد بالمقاومة أو تصفيتها، وعزز العلاقات السورية الإيرانية إلى أبعد مدى برغم احتفاظه بالكثير من التباينات، ولم يحفز أو يوفر إمكانات وفرص لتمكن إيران من لبنان، أو العمل في البيئة والبنية المجتمعية والدولة السورية للإيرانيين تحسبًا ومراعاة للبيئة السنية التي لم تهضم وقوفه إلى جانب إيران في الحرب مع العراق، ولا قبلت دورًا للقوات السورية في الكويت وتغطية حرب عاصفة الصحراء التي قبض ثمنها رأس عون وسمير جعجع وتمكين الثنائي من الدولة والأجهزة والجيش بتسميته الجنرال لحود قائدًا للجيش و إطلاق يده وحمايته ثم رئيسًا للجمهورية.

أمن بحزب الله والمقاومة وراهن عليها كثيرًا لتعديل ميزان القوى و إنفاذ استراتيجيته للتوازن الاستراتيجي، ومنع التضييق عليها، وبادلته المقاومة بالوفاء. وبعد أن تسلّم السيد حسن نصرالله الأمانة العامة بلغ التنسيق والتفاعل أعلى الدرجات وأثمنها، وعندما انتزع انتصار الـ٢٠٠٠ فاخر الأسد بإنجازه واعتبره تحولاً استراتيجيّ. وقد أثمرت استراتيجياته في التدخل بلبنان وفي التوازن الاستراتيجي مع "إسرائيل" بعد حرب الـ٧٣.

عند وفاته قدّم السيد حسن نصرالله التعزية برفقة كوادر المقاومة وقادتها الذين أدوا التحية لابنه، وتعمقت العلاقات إلى درجة عالية جدًا.

في خطاب تأبين الأسد قال السيد كلامًا على درجة عالية من التثمين والوفاء. قال في خطابه: "فرحنا بالانتصار مرتين، لأنك فرحت به ولأننا انتصرنا"، وأهداه الانتصار وللجيش العربي السوري وأسماه جيش المقاومة وحاميها.

الخلاصات

- احتلّت قضية الجولان والتحرير وفلسطين صلب اهتمامات الرئيس حافظ الأسد، وبذل ما استطاع وسورية لتعطيل و إسقاط التسويات والاتفاقات التي اعتبرها جائرة وتصفوية للقضية الفلسطينية.
- فاوض وتبنى خيار السلام الاستراتيجي، والأرض مقابل السلام إحناء للظهر أمام عاصفة التطبيع والصعود الأمريكي وانهيار الاتحاد السوفيتي والهيمنة الأمريكية على النظام العالمي.
- لم يفرط أو يتنازل، حاور وناور واستحضر قضية حق العودة وانتزع وديعة رابين، وعندما قُتل أدرك أن لا فرصة للتسوية ولاستعادة الجولان، وقرر أن الخيار الوحيد أمامه عدم التنازل والرهان على الزمن وتعزيز خيار المقاومة وانتظار التبدلات العالمية. وأفشل عن سبق تصميم قمته مع كلينتون وأبلغه أن الأجيال القادمة ستكون أكثر راديكالية ووطنية.
- مات ولم يورث نظامه ووريثه وسورية تهمة الخيانة أو التفريط.
- حمى وريثه بشار الفصائل الفلسطينية، وأمّنها واحتضن حماس عندما تخلى عنها الجميع، ولم يقبل إملاءات وزير الخارجية الأمريكية كولن باول بعد سقوط بغداد، ولم يقفل أو يطرد مكاتب وممثلي المنظمات الفلسطينية، وحاول احتضان أبو مازن.

إلا أنَّ الأخير رضخ للضغوط "الإسرائيلية" والخليجية.

• استمرت سورية في عهد بشار الأسد حاضنة للمقاومات وخاصة حماس والجهاد والشعبية وحزب الله.

• تحوّلات ما بعد الحرب الباردة والاستعمار الرمزي.

• في عهد بشار الأسد، تزايدت أهمية البعد الرمزي-الإعلامي للصراع، في ظلّ ما تسميه أدبيات ما بعد الاستعمار "الاستعمار الثقافي" أو "الاستعمار الرمزي"، حيث لا يقتصر التدخّل الإمبريالي على الاحتلال المباشر، بل يمتدّ إلى إعادة تعريف مفاهيم "الإرهاب" و"الاعتدال" و"الإصلاح" بما يخدم إعادة إنتاج بنية الهيمنة العالمية.

• من هنا يمكن فهم الحملة الغربية على "محور الشر" و"الرعاة الرسميين للإرهاب" بوصفها محاولة لإعادة تأطير الفاعلين الذين يرفضون الاندماج في منظومة "السلام الليبرالي" كخطر على الأمن الدولي، في حين تُمنح صفة "الاعتدال" للأنظمة والقوى التي تقبل بمنطق السوق النيوليبرالية واتفاقات السلام غير المتكافئة (Said, ١٩٩٣; Mbembe, ٢٠١٩).

• يحاول المقال، عبر هذا الإطار، أن يقرأ استمرارية احتضان دمشق للفصائل الفلسطينية واللبنانية ليس فقط كسياسةٍ خارجية، بل كجزءٍ من صراع أوسع حول من يملك الحقَّ في تعريف مفاهيمَ "المشروعية" و"العنف" و"المقاومة" في النظام الدولي المعاصر.

• بقيت سورية ضد الاتفاقات والتطبيع وأي صيغ تفرّط بمركزية القضية الفلسطينية وحق العودة.

• أمّن بشار الأسد حزب الله والمقاومة في حرب تموز ٢٠٠٦، وأمدَّ المقاومةَ بسلاح كاسر للتوازن صواريخ الكورنيت برغم التزاماته مع الروس وممانعتهم تسليم الصواريخ لجهة ثالثة.

• أمّنت مصانع الجيش السوري غزة بالصواريخ والكورنيت، وبكل ما طلبته واحتاجته طيلة الحقبة المنصرمة وفي أثناء الأزمة السورية، وبرغم انحياز حماس وخروجها من سورية وتبنيها الجماعات

حافظ الأسد (واقفاً على سُلّم المقصورة)، خلال سنوات دراسته في كلية القوى الجوية السورية، برفقة زملائه الطلاب بجانب طائرة التدريب والقتال "فيات G.46B" التابعة لسلاح الجو السوري. عام ١٩٥٤م. مجموعة صور ديفيد نيكول.



المسلحة.
• صالَحَ بشار الأسد حماس، وخالف اتجاهات الرأي العام السوري تحت مقولة "دمشق بيت من يقاوم من أجل فلسطين".
• اختلّت معادلة الحضانة للمقاومات لصالح إيران بعد رحيل الأب، وبعد الأزمة السورية بصورة فاضحة.
• لم يكن لبشار دورا في تفاوض حرب تموز على عكس ما قبلها، دليل على تراجع وزنها وتقدم الدور الإيراني ومكانة حزب الله وأمينه العام الشهيد السيد حسن نصرالله.
• استولت شخصية السيد حسن على قلب بشار الأسد، وفوضه بإدارة لبنان وجماعة سورية بعد حرب تموز، وأطلق يده عند الجميع، وانكفأ وكف يد الضباط عن أي دور في لبنان لصالح تفويض حزب الله والسيد حسن.

> على إثر اجتياح بيروت وتوقيع اتفاقات: "كامب ديفيد" و"وادي عربة" و"أوسلو" ركز الأسد جهده واستراتيجياته على لبنان، وعلى خيار المقاومة وراهن عليها، وأمّن شروط وأسباب حمايتها وتمكينها

• استضاف الأسد السيد حسن والرئيس الإيراني أحمدي نجاد في صورة تحدي وتأكيد على ثبات المقاومة وقدراتها وتحالفها الاستراتيجي، وقال بشرق أوسط مقاوم وبجغرافية البحار الخمسة، وتمنى أن تكون الصورة رباعية مع مشعل.
• سورية كمختبر لاستراتيجيات ما بعد الاستعمار
• في ضوء ما سبق، يمكن القول بأنّ سورية ظهرت، خصوصًا منذ سبعينيات القرن العشرين، كمختبر لتجريب إستراتيجيات متعددة لمواجهة الاستعمار الجديد:
• من جهة، التمسّك بخطاب قومي-تحرّري يربط بين تحرير الجولان وفلسطين ووحدة الجبهة العربية.
• ومن جهةٍ أخرى، الدخول في مفاوضاتٍ متعددة المسارات مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي/روسيا وأوروبا، من دون الذهاب إلى تسوياتٍ نهائية.
• هذا الموقع الوسيط يجعل سورية مثالاً لما يسمّيه بعض منظّري ما بعد الاستعمار "السياسات المزدوجة": أي الجمع بين خطابٍ تحرّري، وبين مقاومةٍ للهيمنة الإمبريالية من الخارج وتفاوتاتٍ اجتماعية وسياسية في الداخل (Hinnebusch, 2001; Seale, 1988; Lev-erett, 2005).
• لا يسعى هذا المقال إلى حسم التقييم الأخلاقي أو السياسي لهذه التجربة، بقدر ما يحاول وضعها ضمن أفقٍ نقديٍّ أوسع يتيح فهم التوتر الدائم بين مطلب التحرّر الوطني من الاستعمار ومطلب الدمقرطة والعدالة الاجتماعية داخل الدولة ما بعد الكولونيالية.
سورية تشكلت بيئة ودولة قائدة قاعدة للمقاومة، فاوضت ولم تساوم، صمدت وقاتلت ولم تغادر مربع المقاومة والالتزام بالقضية الفلسطينية وتحرير الجولان.
استهدفت بالحصارات والحروب والفتن ولم تتراجع.
سقط النظام وخرج من المعادلة ولم يتنازل أو يوقع، ولم يقبل العروض السخية لفك العلاقة مع إيران والمقاومة اللبنانية والفصائل الفلسطينية.
وسُجل له رفض قاطع فوري ودون سؤال إيران أو حزب الله، عرض من الأتراك والفرنسيين والخليج بوقف التظاهرات وتأمين سورية بمليارات الدولارات وتفويضه بلبنان بمقابل قطع العلاقة مع إيران والمقاومة.
• أين سورية ودورها وطبائعها ومكانتها مع بديل نظام الأسدين؟
• سورية تتوعك ولا تسقط تضطرب وتتأزم وتنهض.
سورية ستعود وسيصحح التاريخ مساراته، ففلسطين قضية سورية شامية أولاً ومنها ستنطلق جحافل التحرير وقد يكون الزمن قريب بل قريب.
يفتقد محور المقاومة ولبنان وغزة وفلسطين لدور ومكانة سورية وحصانتها.

قائمة المصادر والمراجع

1. United Nations Security Council. (1967, November 22). Resolution 242 (S/RES/242) [On the situation in the Middle East]. United Nations Digital Library

2. United Nations Security Council. (1973, October 22). Resolution 338 (S/RES/338) [Cease-fire in the Middle East]. United Nations Digital Library.
3. Arab League & Arab States. (1978). Arab documents on Palestine and the Arab-Israeli conflict (Including excerpts from President Hafez al-Assad's speech to the Third Conference of the Arab Front for Steadfastness and Confrontation, Damascus, 20 September 1978). Journal of Palestine Studies.
4. Fanon, F. (2004). The wretched of the earth (R. Philcox, Trans.). Grove Press. (Original work published 1961)
5. Mbembe, A. (2003). Necropolitics. Public Culture, 15(1), 11–40. https://doi.org/10.1215/08992363-15-1-11
6. Mbembe, A. (2019). Necropolitics. Duke University Press.
7. Said, E. W. (1978). Orientalism. Pantheon Books.
8. Said, E. W. (1993). Culture and imperialism. Vintage Books.
9. Hinnebusch, R. (2001). Syria: Revolution from above. Routledge.
10. Leverett, F. (2005). Inheriting Syria: Bashar's trial by fire. Brookings Institution Press.
11. Seale, P. (1988). Asad of Syria: The struggle for the Middle East. I.B. Tauris.
12. Zisser, E. (2006). Commanding Syria: Bashar al-Asad and the first years in power. I.B. Tauris.

كان الرئيس السوري حافظ الأسد من داعمي إيران خلال الحرب المفروضة. وقد تعرض لضغوط من مسؤولي الدول العربية للوقوف إلى جانب صدام، كما كان الصهاينة يهددونه باستمرار بشن هجوم عليه.



سورية: الواقعُ والمنتظَر

ماذا في اليوم التالي؟





هاشم جابر

جنرال سابق في الجيش اللبناني،
رئيس مركز الشرق الأوسط
للدراسات والأبحاث • لبنان

المقدّمة

لم يحصلْ في تاريخ الأمم ولا تاريخ الدول، أنّ أكثرَ من نصفِ قرنٍ منَ التاريخ تنطويَ في لحظة.

في ٨ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٢٤، انتهى نظامُ الأسد: بعد قرونٍ من السيطرةِ التامّةِ على مفاصلِ الدولةِ السوريّة، وبعد أربعةِ عشرَ عاماً من حربٍ ضروس، أودت بحياةِ مئاتِ الآلافِ ودمّرت سورية. ولم تُحسمْ، ولم تكن حتى آخر لحظةٍ مبشّرةً بالحسم.

لسنا بواردِ تفصيلِ ما حدث. ولا تفسيرِ أو تبريرِ أسبابِ ما حدث. لقد كُتِبَ الكثيرُ وقيلَ الكثير. وتبقى الحقيقةُ الدامغة، حبيسةً إلى أن يفرجَ عنها التاريخ.

والسؤالُ الأهم هو أين سورية الآن، وأين ستكونُ غدًا؟

سورية من التقسيم الى التقاسم (الاستعمار القديم الجديد)

أعتقدُ بأنّ مخطّطَ تقسيم سورية الذي كان الهدفَ منذ البدايةِ كخطوةٍ أولى، لتقسيمِ المنطقةِ هو المخطّطُ القديم، الذي وردَ في أفكارِ برنارد لويس، وفي برنامجِ هنري كيسنجر، منذ عقود أي منذُ الحربِ الأهليّةِ في لبنان.

وحملَه الأميركي "دين براون" إلى الرئيسِ الأسبقِ في لبنان "سليمان فرنجية" بإحضارِ البواخرِ لتهجيرِ المسيحيّين من لبنان. وتقسيمِ الباقي بين "إسرائيل" حتى نهرِ الليطاني. وبين الفلسطينيّين بإعطائِهم كياناً بديلاً، وبين الآخرين. وفشلِ هذا المخطّط، وعادَ ينفضُ الغبارَ عن كتفيه، بعد اجتياحِ العراق وانهيارِ نظامِ صدّام حسين. وفَشِلَ بدورِهِ في بلادِ الرافدين.

مخطّط تقسيم سورية استُبعِدَ أيضًا، على الأقل في المستقبلِ القريب. وحلّ مكانَه مخطّطُ التقاسم.

وأعتقدُ بأنّ تركيّا التي لا يمكنُ أن تقبلَ بإقامةِ كيانٍ كردي على حدودِها، يهدّدُ أمنَها ووحدتَها، كانتْ المانعَ الأساسيَّ لتقسيم سورية.

أمّا التقاسمُ فقد أصبحَ أمرًا واقعًا، إلى أن تعودَ سورية يومًا ما دولةً موحّدةً ذاتَ سيادة، هذا إنْ عادت.

وهنا، يجبُ أن نتوقّفَ عند محطّاتٍ عدّةٍ ونطرحُ أسئلةً محقّة، ربّما الجوابُ عنها واضحٌ على الأرض، وربّما بحاجةٍ لأكثر من تفسيرٍ وتأكيد.

لم يمضِ ٢٤ ساعة على انهيارِ نظامِ الأسد، إلّا وبدأتْ "إسرائيل" التقدَّمَ البريَّ في الأراضي السوريّة انطلاقاً من الجولان المحتل إلى الجولان المحرّر.

مروراً بالمنطقةِ العازلةِ التي كانت محترمة طوال خمسةِ عقود. واستمرّت بالتقدّم حتّى باتت في ضواحي دمشق وفي أقسامٍ كبيرةٍ من ريفِها.

وخلال أسبوعٍ فقط من انطلاقِ العمليّاتِ البريّة، قامَ الطيرانُ "الإسرائيلي" بالإغارة، بداية "على كافّةِ المطاراتِ العسكريّةِ السوريّة، والقواعدِ الجويّة، مدمّراً جميعَ الطائراتِ العسكرية"، ووسائلِ الدفاعِ الجوّي، حتّى أصبحت سورية خاليةً من أيّ سقفٍ يحميها. ثمَّ تابعَ الطيرانُ "الإسرائيلي" بلا كللٍ أو ملل، من تدميرِ مستودعاتِ الذخيرةِ وسلاحِ القوّاتِ البريَّةِ أينما استطاع، وأينما طالتْ أياديه.

وإذا كان "بول بريمر" قد أعلنَ تفكيكَ وحلَّ الجيشِ العراقي عام ٢٠٠٣، فإنَّ الجيشَ السوري تفكّكَ لوحدِه دون قرارٍ أو إعلان، وخلال أقلّ من ٤٨ ساعة.

أعتقدُ بأنّ مخطّطَ تقسيمِ سورية الذي كان الهدفَ منذ البدايةِ كخطوةٍ أولى، لتقسيمِ المنطقةِ هو المخطّطُ القديم، الذي وردَ في أفكارِ برنارد لويس، وفي برنامجِ هنري كيسنجر، منذ عقود أي منذُ الحربِ الأهليّةِ في لبنان

أمّا على الأرض، والتقاسم، ومناطقِ النفوذ، فبنظرةٍ شاملةٍ على الخريطةِ السوريّة، نلاحظُ بوضوحٍ الألوانَ ولسنا من مصابي عمى الألوان.

تركيا تسيطرُ على إدلب، وعلى شمالي غربي حلب.

والكردُ وقوّاتُ "قسد" تسيطرُ على معظمِ شرقي الفرات. من الرقّةِ إلى الحسكة، إلى القامشلي، مروراً بقسمٍ من دير الزور.

ومعَ عدمِ إهمالِ الوجودِ الروسي في الساحلِ السوري وفي بعضٍ من جنوبِ سورية، وفي القامشلي.

فضلاً عن القواعدِ الأميركية والغربيّة من التنف

إلى شرقي الفرات، وشمال البادية السوريّة إلى الحدود مع العراق. أمّا مثلّث المنطقة الوسطى، بين حلب وحمص وحماه. فمنتهى غاية الحكم الحالي في سورية، هو إحكامُ السيطرة عليه. طالما أنّها لا تزال منقوصة.
رحلَ النظامُ السابقُ عن سورية ولم ترحلْ آثارُه. فلا يمكنُ لدولةٍ عميقةٍ أن تزولَ بأيّام.
الوضعُ الاقتصادي والوضعُ الأمني، هو هاجسُ كلّ مواطنٍ سوري، وليسَ هاجسَ الدولِ التي توافقت على تقاسم سورية.
زارَ الرئيسُ أحمد الشرع عددًا من الدول العربيّة والأجنبيّة بشكلٍ غير مسبوق، كمًّا ونوعًا. وحضرَ مؤتمراتِ قمّة. سعيًا وراء غايته، فهل حصلَ عليها؟ أو أنّه سيحصل؟
حتّى الآنَ لم يرَ سوى الترحيبَ والوعود. والزيارةُ الأخيرةُ، وهي زيارةُ واشنطن والبيت الأبيض، كانت أبرزَها. رغم الإشكالاتِ المتعلّقةِ بالبروتوكول، وطريقةِ الاستقبال. وهذا فسّرناه وفسّره كلُّ من يعرفُ أميركا جيّداً بكونِه لم يأتِ رئيسًا بالانتخاب الديموقراطي، وهذا تفسيرٌ غيرُ مقنع. كونَ أميركا كثيرًا ما استقبلت رؤساءَ دول، من العالم الثالثِ وأميركا اللاتينيّةِ وصلوا إلى الحكم بانقلابٍ عسكري.

> رحلَ النظامُ السابقُ عن سورية ولم ترحلْ آثارُه. فلا يمكنُ لدولةٍ عميقةٍ أن تزولَ بأيّام

أمّا لماذا عُلّق وجُمّدَ قانونُ قيصر، والعقوباتُ على سورية لمدّةِ ستّةِ أشهر؟ فالجوابُ واضحٌ منها ما سّربتُ بنودَه ومنها ما أخفيتُ ونحن نرى ما يلي.
لقد أعطي الرجل دفترَ شروطٍ عليه تنفيذه والتقيّد به.
أوّلها التطبيعُ مع "إسرائيل" بأسرعِ وقتٍ ممكن.
والتخلّي عن المطالبةِ بالجولان المحتل، قولاً وفعلاً وإلى الأبد.
التحالفُ مع واشنطن في برنامجِ مكافحةِ الإرهاب وهو داعش، وحزب الله، وحماس.
أمّا توحيدُ البندقيّة السوريّة أو إنشاءُ جيشٍ موحّدٍ فهو أمرٌ داخلي عليه التفاهمُ بشأنِه، مع الآخرين.
لا سيّما "قسد" في شرقي الفرات والدروز في جبلِ العرب، فكلاهما صديقٌ لواشنطن وحلفائِها.
أمّا هذان الطرفان، فحتّى الآنَ يرفضان الاندماجَ في الجيش السوري العتيد المرتقب، لسببٍ واحدٍ هو عدم الثقة. بل يقبلان بالمقابل أن ينضمّا إلى هذا الجيش كوحداتٍ عسكريّةٍ كاملة، متكاملةٍ صافية. يتولّون قيادتَها وفي نفسِ الوقتِ يحجزُ كلٌّ منهما مقعدًا في المجلسِ العسكري المقرّرِ أن يقودَ هذا الجيشَ مستقبلاً.
أمّا عن تسليح الجيش السوري مستقبلاً فبعد أن دُمّرَ بشكلٍ شبهِ كامل، فإنّ أميركا تطرحُ تسليحًا أميركيًّا أو غربيًّا، وهذا يلزمُه المال أوّلاً. ثمّ الوقت ثانيًا.
ويبقى استيعابُ العناصر وإعادةُ التأهيلِ والتدريبِ الذي يستغرقُ سنوات.
فمن أينَ المال؟ ربّما السيطرة المسبقةُ على مواردِ سورية النفطيّةِ لعقود.
أمّا الوقتُ "فلسنا على عجلةٍ من أمرنا" كما قالَ لي أحدُ كبارِ المسؤولينَ في الحكمِ الجديد.
وهنا لا بدَّ من التذكيرِ بأنَّ الجيشَ العراقيَ الذي مضى على حلّهِ وإعادةِ بنائِه قرابةَ ربعِ قرن، لم يصلْ حتّى الآنَ إلى المستوى العسكري اللائقِ بدولةٍ كالعراق، ومكانتِها بين الدول. وأوّلُ شروطِ بناءِ الجيشِ المرتقبِ ألا يكونَ قادرًا على التصدّي لـ"إسرائيل".
والآن ماذا عن المستقبل؟ إنّنا نعتقدُ بكلّ موضوعيّة، وبكلّ تجرّد، أنَّ مهلةَ الستّةَ أشهرِ المعطاةِ للرئيس الشرع ستكونُ فترةَ تجربة.
إذا نجحَ فيها ونفّذَ دفترَ الشروط، تُرفعُ العقوباتُ تدريجيًّا وتُحدَّدُ فترةٌ أخرى. وأمّا إذا فشلَ أو تعثّر فلا بدّ من إزاحتِه، والتفتيشِ عن بديلٍ يجري تحضيرُه منذ الآن. فلنراقبْ بدقّةٍ ومن يعيشُ يرى وإنّ غدًا لناظرِه قريب.
ويسألُ الكثيرون ما هو البديلُ الذي تدرسُ أميركا إعدادَه وتحضيرَه لحكم سورية في حالِ فشلَ أحمد الشرع في تأديةِ الدورِ المطلوبِ منه. الحقيقةُ أنّ هنالكَ أكثرَ من بديل. فالبدائلُ يجري درسُها في كلٍّ من الـ CIA والبنتاغون ووزارةِ الخارجيّةِ منفردين أوّلاً ومجتمعينَ إلى أن يرفعوا الاقتراحات لقرارِ البيتِ الأبيض مع اقتراح Plan A و Plan B.
القوى الدولية ترسم مستقبل سورية
(صراع أمريكي - روسي و تركي - "إسرائيلي")
أوّلاً، لقد طويت صفحةُ الأسد إلى الأبد. ليسَ من

قِبَل أميركا فقط بل من قِبَل جميع الأطرافِ التي ساهمت في انهيارِ نظامِهِ ومنها موسكو.
وموسكو التي دخلت إلى جانبِ النظام السوري السابق بثقلِها العسكري طوالَ ثمانيةِ سنواتٍ على الأقل، وكانت الداعمَ الأوّلَ لبقاءِ هذا النظامِ إلى تاريخِ انهيارِه، لن تبقى متفرّجةً ترى التقاسمَ وترى المَنافسةَ بين تركيا و"إسرائيل" وبين الكردِ والنظام وسائرِ المكوّناتِ الأخرى، فهي تعلمُ أنَّ "منَ يحضرُ السوق يبيعُ ويشتري". من هنا جاء استقبالُ موسكو لوزيرِ الخارجيّةِ السوري الشيباني منذ أسابيع، ثمَّ زارَ دمشق يومَ الإثنين في ١٧ نوفمبر وفدٌ عسكريٌّ روسيٌّ رفيعُ المستوى، يتقدّمُه نائبُ وزيرِ الدفاعِ الروسي، حيثُ استُقبلَ من قِبَلِ وزيرِ الدفاعِ السوري. ورغم أنَّ نتائجَ هذه الزيارةِ التي لَم تنتهِ بعد عندَ كتابةِ هذه السطور، فقد ترامى إلى مسامعِنا من مصادرَ مطّلعةٍ في موسكو، أنَّ الطرفيْن بحثا عرضًا من موسكو بإعادةِ ترميمِ الجيشِ السوري وتجهيزِهِ وتدريبِه وتسليحِه من قِبَلِ روسيا. وكان هذا بلا شكّ ردًّا سريعًا على العرضِ الأميركي المتعلّقِ بهذا الشأن. والعرضُ الروسيُّ أكثرُ واقعيّة، أي أنّه لا يدخلُ حقلاً بكرًا أو منطقةً جرداءَ أو يبدأ من الصفر. فالجيشُ السوريُّ على مدى عقودٍ طويلةٍ من الزمنِ روسيُّ في عقيدتِه القتاليّةِ وفي تسليحِهِ وفي تدريبِه على عكسِ السلاحِ الأميركي والعقيدةِ العسكريّةِ الغربيّة. بالإضافةِ إلى أنّه أقلُّ تكلفةً على الدولةِ السوريّةِ المُنهَكةِ اقتصاديًّا. إضافةً إلى عرضٍ روسيٍّ على دمشق بمساعدتِها في "التصدّي لِلأخطارِ المحدّقةِ بها". وهذا العرضُ لم تُفهمْ حتّى الآنَ ترجمتُه عمليًّا على الأرض. فهل روسيا مستعدّةٌ عسكريًّا للتورّطِ بعمليّاتٍ عسكريّةٍ ضدّ "إسرائيل"، وضدّ تركيا أو أيّ مكوّنٍ داخلي؟ الجوابُ القاطعُ لا حتماً. وقد افترضَ كاتبُ هذه السطورِ في حديثٍ مع وكالةِ Sputnik الروسيّة أن تكونَ المساعدةُ دبلوماسيّةً أوّلاً، وبالتّدريبِ والتسليحِ ثانيًا. وليسَ أبعدَ من ذلك. والسؤالُ الأهم هل تَسمحُ أميركا

إطار المكسور
تظهر صورة للرئيس السوري بشار الأسد بإطارها المكسور، في منشأة تابعة لفرع الأمن السياسي للنظام السوري في ضواحي مدينة حماة الوسطى، وذلك بعد سيطرة القوات المناهضة للحكومة على المنطقة، بتاريخ ٧ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٢٤.
• المصدر: وكالة فرانس برس / عمر حاج قدور



لروسيا بتوسيع نفوذِها في سورية من جديد؟ وإلى أيّ حد؟ الشيءُ الأكيدُ هو أنّ واشنطن لن تتدخّل بقضيّةِ الوجودِ البحري والجوّي الروسي في طرطوس وحميميم، لأنّ هذا من الخطوطِ الحمرِ الروسيَّة. والمياهُ الدافئةُ هي حلمٌ روسيٌّ تحقّقَ بعدَ قرون. ولكنّ التصدّي للنفوذِ العسكري، وتسليحِ الجيشِ والتدخّلِ بالعقيدةِ القتاليَّةِ هو شيءٌ مؤكد. لذا، أسرعتَ واشنطن في المباشرةِ بإعدادِ قاعدةٍ عسكريَّةٍ أميركيّةٍ في ريفِ دمشق لتدريبِ مجموعاتٍ قتاليّةٍ من الجنودِ والضبّاطِ السوريّين، لمكافحةِ ما وصَفَتهُ بالإرهابِ المتمثّل بتنظيم الدولةِ الإسلاميَّةِ داعش أوّلًا وأخيرًا تنظيم حماسَ مروراً بحزبِ الله اللبناني، مع تقليم أظافرِ إيران على الأرضِ السوريَّةِ وما تيسَّر في جوارِها. أعني شمالَ لبنانَ وشرقَه المُتاخمَ للأراضي السوريّة. فهل يتمُّ ذلك فعلاً ويُجرُّ النظامُ السوريُّ إلى إدخالِ قوّاتِه إلى لبنان؟ يرى كثيرٌ من المراقبينَ أنّ عملاً كهذا يُعتبرُ مغامرةً غيرَ مأمونةِ النتائجِ ستؤدّي إلى الكثيرِ من الخسائرِ لدى الطرفين، ويَمكنُ أن تطيحَ بالنظامِ الحالي في دمشق في حالِ الفشل. ويرى هؤلاء أنَّ على النظامِ السوري أن يَقومَ بترتيبِ بيتِه الداخلي عسكريًّا، وأمنيًّا. قبلَ التفكيرِ بالعملِ خارجَ حدودِه. بالإضافةِ إلى أنّ حركةَ حماسَ ليستْ بعيدةً بالفكرِ والعقيدةِ عن أصحابِ السلطةِ في دمشقِ حاليّاً. أمّا عن داعش التي هي بالحقيقةِ صناعةٌ أميركيّةٌ على ذمّةِ هيلاري كلنتون فليسَ غريبًا أن تسعى واشنطن إلى قتالِها، وتأديبِها، بواسطةِ مقاتلينَ خرجوا أصلاً من رحِمِها.

> هنالك تنافسٌ إذا لم نقلْ صراعًا مخفيًّا بين واشنطن وموسكو على استقطابِ دمشق

إذن، هنالك تنافسٌ إذا لم نقلْ صراعًا مخفيًّا بين واشنطن وموسكو على استقطابِ دمشق، ويعتقدُ الكثيرونَ بأنَّ واشنطن ستتقدّمُ في هذا السباق. كما أنَّ هنالك صراعًا ولو مبطنًا أكثر من تنافس بين أنقره وتل أبيب على النفوذِ في سورية. فتركيا تعتقدُ، وربّما هي على حقّ، بأنّها ضحّت بالكثير حتّى وصلت سورية إلى ما وصلت إليه، أي إزالةَ نظام الأسد. فهي زرعتْ، ولن تسمحَ لـ"إسرائيلَ" بقطافِ ما زرعت.

وهنا يجبُ التوقّف عند نقطةٍ مهمّةٍ يعتقدُ الكثيرون بأنّها شكليَّةٌ، وهي تغييرُ اسمُ الدولةِ من الجمهوريّةِ العربيّةِ السوريّةِ إلى الجمهوريّةِ السوريّةِ كما كانت في الماضي.

ويبرّرُ الداعون إلى هذا التغيير أنَّه طمأنةٌ للأقليّاتِ غيرِ العربيّةِ وخاصّةً الكرد، بأنَّهم في دولةٍ تضمُّ قوميّاتٍ عدّةٍ غيرَ محصورةٍ بالعرب. ويعتقدُ آخرون بأنّ هذا الإجراءَ الذي يبدو شكليًّا له معانٍ مهمّةٍ جدًّا: أوّلُها تخلّي سورية عن عروبتِها، وبالتّالي عن قضيّةِ فلسطينَ التي رفعت الأنظمةُ السوريّةُ المتعاقبةُ منذ الأربعينات لواءها، واستندت إليها لتبرير ما ارتكبت تجاه معارضيها وخاصّةً نظام الأسدين خلالَ أكثر من خمسةِ عقود.

ونعودُ إلى اليومِ التالي، ومن سيحكمُ سورية مستقبلاً؟ لا بدَّ وأن تكونَ دولةً فيدراليّةً مع حكم ذاتي في كلٍّ من الساحل السوري وشرقي الفراتِ وجبلِ العرب. ولكنّ ذلك لا بدّ وأن يسبقَه أو يتبعَه تهجيرٌ طوعيٌّ أو تطهيرٌ عرقي. إذ أنَّ رسمَ حدودِ الأقاليم الطائفيّةِ أو العرقيّةِ لا يتمُّ بواسطةِ الحبرِ فقط. بل بواسطةِ الدمِ أحيانًا. فالحبرُ للخريطةِ والدمُ على الأرض.

وبعودةٍ إلى الخياراتِ المطروحةِ كبديلٍ عن النظامِ السوري الحالي تسرّبتْ معلومات صحافيّةٍ من مصادرَ فرنسيّةٍ أنّ الجنرال "مناف مصطفى طلاس" المنشقّ عن نظام "بشّار الأسد" ربّما يعودُ إلى سورية، لتأليفِ حكومةٍ انتقاليّةٍ تضمُّ مختلفَ أطيافِ المجتمعِ السوري، بدعمٍ من فرنسا التي تسوّقُه أوروبيًّا وبتمويلٍ يبدأ من شقيقتِه ناهد أرملةِ الملياردير أكرم العجّة ذات الاتّصالاتِ الواسعة، والتي تحملُ الجنسيّةَ الفرنسيّة. إلا أنّ الكثيرينَ من المراقبينَ يستبعدون جديّةَ هذا الطرحِ في ظلِ غيابِ التأييدِ الأميركي والروسي، حيثُ لم يسمعْ أحدٌ مجرّدَ تعليقٍ من واشنطن أو موسكو على هذا الطرح.

وغايةُ فرنسا هي العودةُ إلى إيجادِ موطئِ قدمٍ على الأرضِ السوريّة خسرتهُ منذ استقلالِ سوريّة أو بالأحرى منذ الجلاءِ عنها.

وأهمُّ ما يقلقُ الغربَ وروسيا معًا هو الجماعاتُ المسلّحةُ الآتيةُ من شرقِ روسيا من الشيشان وتركستان والأيغور الآتينَ من الصين وهؤلاء



يقدّرُهم المراقبون بالآلافِ، لا سيّما قد اندمجوا في المجتمعِ السوري في إدلب وتكاثروا. بالإضافةِ إلى حاملي جنسيّاتٍ عربيّةٍ من شمالِ أفريقيا. حيثُ أنَّ جميعَ الدولِ التي ينتمون إليها لا تريدُ ولا تقبلُ أن يعودوا إليها. وتركيا بطبيعةِ الحال لن تقبلَ بهم على أرضِهم. فماذا سيكونُ مصيرُهم؟ وهل يقبلونَ بتسليمِ سلاحِهم للدولةِ العتيدة؟

تسرَّبتْ معلوماتٌ من صحفٍ أميركيّةٍ ومنها "نيويورك تايمز"، أنَّ الرئيسَ أحمد الشرع الذي كان مطلوبًا من الإدارةِ الأميركيّةِ عندما كان في إدلب قد تعاونَ ومنذُ سنواتٍ مع السلطاتِ الأميركيّةِ استخباريًّا، للقضاءِ على تنظيمِ داعش. وأنَّ الكثيرَ من الضرباتِ الأميركيّةِ الناجحةِ ضدّ هذا التنظيمِ يرجعُ الفضلُ بنجاحِها للمعلوماتِ القيّمةِ التي قدّمها.

فهل في البنودِ السريّـةِ للاتّـفـاقِ بين الرئيسِ السوري وواشنطن بندٌ يتعلّقُ بهؤلاء؟ رغم أنّ هذه التنظيماتِ لم ترِدْ إلى جانبِ داعش وحماس وحزب الله؟

وأخيرًا لا آخرًا، طالما تمّ تغييرُ العَلم السوري وسيتمُّ إعادة سورية إلى اسمِها الأوّل دونَ أن تكون عربيّةً بالضرورة. وسيتمُّ حتمًا تغييرُ النشيدِ الوطني الذي عرفتهُ سورية لعقودٍ ثمانية.

يعني ذلك أنّ سورية الجديدة مهما جرى لن تشبهَ بأيّ حالٍ من الأحوالِ سورية القديمة، ولن تكونَ من جديدٍ قلبَ العالَمِ العربي.

إنَّ المنطقةَ بأسرِها تَعيشُ على فوهةِ بركان، ولا بدَّ أنَّ سورية ستتأثّرُ سلبًا أو إيجابًا بما يجري حولها. سواءَ حصلَ ذلك في العراق أو لبنان أو فلسطين أو في سائرِ المنطقةِ من إيران إلى تركيا مرورًا بـ"إسرائيل". ممّا سيترك انعكاسَه على مستقبلِ سورية وربّما سيغيّرُ في المعادلاتِ وفي تفصيلِ واحتمالاتِ تنفيذِ كلِ ما ذكرناه. ونحنُ من الذين قالَ مرارًا في الماضي: سوريةٍ هي قلبُ العالَمِ العربي، كما أنَّ مصرَ هي عقلُهُ كما قالَ في يومٍ ما الملكُ عبد العزيز آل سعود. وعودةُ سوريّةٍ كما كانت في الماضي أمسَتْ حلماً لن يتحقّقَ قريبًا.

صورة للرؤساء
صورة للرئيس الأمريكي ترامب وأحمد الشرع رئيس الحكومة الانتقالية السورية - البيت الأبيض.
• المصدر: وكالة فرانس برس / عمر حاج قدور

سورية الجديدة، آمال وتحديات

مقاربة ما بعد استعمارية لمسار الحرية وبناء الدولة





جورج صبرة

الرئيس السابق للمجلس الوطني السوري للدراسات • سورية

مقدّمة

يتناول هذا النص ملامح "الزمن السوري الجديد" بعد انتصار الثورة وسقوط النظام الاستبدادي، عبر محورَيْن رئيسيَّن: آمال السوريين في الحرية وبناء دولة المواطنة، والتحديات البنيوية التي تواجه هذا التحوّل، وعلى رأسها إعادة بناء الدولة والعدالة الانتقالية، وضبط السلاح، واستعادة السيادة على الأرض والقرار. في هذه القراءة تتم دراسة الآمال التي ينتظرها السوريون والتحديات التي يواجهها التحول الانتقالي، ويُنظر إلى سورية بوصفها مختبراً نموذجياً لما بعد التحرر من الاستعمار الداخلي، حيث تتقاطع البنى الاستبدادية الداخلية مع أشكال متعددة من الهيمنة الخارجية، ويتحوّل الانتقالُ السياسي إلى ساحة تفاوض بين منطق الدولة الوطنية ومنطق "الاستعمار الجديد" الذي يعمل عبر الاقتصاد، والمنظمات الدولية، ...وغيرها. تستند الدراسة إلى أدبيات وأدبيات العدالة الانتقالية مع مقاربةٍ خاصة للحالة السورية حول الاستبداد الأسدي وبنى "الإمبريالية السائلة" في سورية.

إشكالية البحث

كيف يمكن فهم "سورية الجديدة" بعد سقوط النظام الاستبدادي، ليس فقط كمسار تحوّل ديمقراطي داخلي فحسب، بل كحقل اشتباك بين مشروع دولة وطنية تسعى لإعادة تعريف السيادة والمواطنة، وبين منظوماتٍ إقليمية ودولية تميل إلى إعادة إنتاج أشكال ناعمة من الهيمنة.

سؤال البحث الرئيس

إلى أي حدّ تمثّل شعارات الحرية والكرامة، والعدالة الانتقالية، وبناء دولة المواطنة في سورية الجديدة، قطيعةً حقيقية مع منطق الدولة الوظيفية ما قبل الثورة، وإلى أي حدّ يمكن أن تُستوعَب ضمن تكيّف جديد مع منظومات الاستعمار الجديد والنيوليبرالية الأمنية؟

أسئلة فرعية

كيف يُعاد تعريف "الوطنية السورية" في النص، في مواجهة تراث الدولة الزبائنية الفئوية وتاريخ التدخلات الخارجية؟

ما موقع العدالة الانتقالية في هندسة "الذاكرة الجماعية" بين مطلب كشف الحقيقة ومخاطر تسييس الذاكرة واستخدامها كأداة ضبط؟

كيف تتشكّل العلاقة بين الداخل والخارج (القوى الإقليمية والدولية، القرارات الأممية، القوات الأجنبية) ضمن منطق السيادة في ما بعد الاستعمار؟

المنهجية

منهج نوعي/تحليلي يعتمد:

تحليل خطاب (Discourse Analysis) لمفاهيم: الحرية، الكرامة، الدولة/الوطن، العدالة الانتقالية، الوطنية السورية، كما يقدّمها النص.

مقاربة مقارنة مع تجارب عدالة انتقالية أخرى (جنوب أفريقيا، رواندا) بوصفها سياقات ما بعد استعمارية سعت إلى إعادة بناء الدولة والذاكرة.

ربط التحليل بسياقٍ تاريخي وقانوني عبر الاستناد إلى مصادر أولية مثل:

قرارات مجلس الأمن الخاصة بسورية، ولا سيما القرار ٢٢٥٤ (٢٠١٥) الذي رسم خريطة الطريق للانتقال السياسي السوري.

بيان جنيف (٢٠١٢) بوصفه إطارًا مبكرًا لإعادة تعريف السيادة والانتقال.

توظيف أدبيات نظرية من دراسات ما بعد الاستعمار (Mbembe,2019 ; Fanon,1968 ; Said,1978) وأدبيات العدالة الانتقالية (Teitel,2000) وكتابات عن الحالة السورية (al-Haj Saleh,2017 ; 2023).

الزمن السوري الجديد

منذ الثامن من كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤، اليوم الذي أثمرت فيه دماء السوريين وتضحياتهم، وأعلن فيه انتصار الثورة، دخلت البلاد في زمن سوري جديد. وكل من زار دمشق بعد ذلك اليوم، لمس معالم هذا الزمن ومؤشراته. فرغم الأوضاع الصعبة التي يعيشها الناس والتركة الثقيلة في مختلف المجالات، التي أورثها النظام البائد، فقد كانت علامات البهجة والارتياح بادية على الوجوه

أو كامنة في القلوب. وكان الجميع يحملون بفرح غامر سوريتهم المستعادة للحفاوة بها و إعادة بنائها.

وهنا يصعد إلى الذاكرة باستحقاق واضح قول المؤرخ فيليب حتي: "سورية أكبر بلد صغير على الخريطة". فهي صغيرة في حجمها، لكنها كبيرة بناسها وعالمية بفعلها وتأثيرها. لذلك قيل: "لكل إنسان متحضر وطنان، بلده الذي ولد فيه وسورية". ويقول التاريخ بجلاء بارز : "ما يحدث في سورية، لا يبقى بداخلها". وهو ما يشير إلى أهمية الدور السوري في ما يسمى الشرق الأوسط وفعاليته في إعادة ترتيب المنطقة التي تجري حاليًا. ويفسر في الوقت نفسه هذا الاندفاع الإقليمي والدولي الكبيرين للمشاركة في الحدث السوري، يجمعهاجني المكاسب وتحقيق المصالح المختلفة.

"الزمن السوري الجديد" من منظور ما بعد الاستعمار هو لحظة معقدة تتقاطع فيها ثلاثة عناصر:
١. إرث دولة وظيفية تشكلت في العهد الكولونيالي.
٢. هيمنة استعمارية جديدة تتحكم عبر أدوات اقتصادية و إعلامية.
٣. محاولات محلية لإعادة تعريف الهوية في فضاء دولي يتحكم في الحياة والموت.

من منظور دراسات ما بعد الاستعمار، يمكن قراءة "الزمن السوري الجديد" لا بوصفه مجرد انتقال من نظام استبدادي إلى آخر ديمقراطي، بل كلحظة تتقاطع فيها ثلاثة عوامل:

إرث دولةٍ وطنية تشكّلت تاريخيًا ضمن حدود النظام العالمي الكولونيالي، وظلّت في كثير من مراحلها دولةً "وظيفية" تخدم توازنات خارجية أكثر مما تمثّل مجتمعها.

الانتباه من منظومات الاستعمار الجديد (Neocolonialism) التي قد تعمل عبر أدواتٍ غير عسكرية ظاهريًا، مثل أنظمة العقوبات، وسياسات إعادة الإعمار، وترتيبات الأمن الإقليمي، والتمثيلات الإعلامية لسورية وثورتها في الخطاب الغربي (Said, 1978).

فاعلون محلّيون جدد، من قوى سياسية وعسكرية ومدنية، يسعون إلى إعادة تعريف السيادة والهوية الوطنية، لكنهم يعملون في فضاء دولي متخم بالتوازنات، حيث تُدار "قابلية الحياة" و"قابلية الموت" عبر ما يصفه مبمبي بسياسات الموت (Mbembe, 2019)، أي أنماط توزيع العنف والحياة على جماعاتٍ مختلفة داخل البلد.

هذا التمشّي النظري يسمح بفهم الاندفاع الإقليمي والدولي نحو دمشق كجزء من إعادة تشكيل "نظام ما بعد الثورة" ضمن معادلات القوى العالمية.

فسورية الموحدة والآمنة والمعافاة مصلحة إقليمية ودولية في هذه الفترة. نسمع ذلك من معظم الدول المعنية، ونرى تزاحم الأيدي الإقليمية والدولية التي تمتد باتجاه دمشق. وكذلك النشاط السياسي الخارجي الكثيف والمميز، الذي تقوم به الإدارة الجديدة في العمق الدولي والعربي وفي إطار الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية والمؤسسات الإقليمية والدولية المعنية والمتخصصة. ورغم أن البلاد محطّمة وخارجة من محنة طويلة ومتعددة الجوانب في صعوبتها، وتعاني من النتائج المدمرة لحرب النظام البائد على الشعب، لكنها موضع تقدير واعتماد في المشهد الإقليمي وفي الأوساط الدولية لأهميتها التاريخية والجيوسياسية، ولأنها تزخر بالإمكانيات الكبيرة والمتنوعة، لتكون أول أرض تفتحت فيها وأثمرت أزهار الحضارة والتمدن الإنساني. وتستند إلى تاريخ من الفعالية والنجاح بفضل حيوية الشعب وتعدد الثقافات وخزنة التجارب والمعارف والمهارات التي يحملها، بشهادة الوقائع والمجربات التي كشفت عن مواهب السوريين و إمكاناتهم ومؤهلاتهم، وبرزت في بلدان اللجوء، التي قصدوها خلال سنوات المحنة.

يستند السوريون أيضًا في المهام العديدة والصعبة التي يواجهونها إلى تاريخ مضيء من الفعالية والنجاح، صنعه الأجداد في بناء سورية كدولة لأول مرة قبل قرن من الزمان. عندما نشأت دولة مدنية ديمقراطية تعددية، تقوم على مبدأ المواطنة المتساوية في الحقوق والواجبات، وتوفر الحرية للجميع. إذ لم يقبل السوريون مبايعة الأمير

الهاشمي فيصل الأول ملكًا على سورية إلا بناء على دستور، يرسم معالم الحياة العامة في البلاد، وضعته نخب الأقاليم التي تم اختيارها لتمثلهم، حين عقد في دمشق المؤتمر السوري الأول عام ١٩١٩ - ١٩٢٠. ودخلت الدولة السورية على أيدي المؤسسين عصر الحداثة من بابه الواسع في الثلاثينات من القرن الماضي، عندما تأسست الدولة السورية رسميًا باسم الجمهورية السورية. وكانت في هذا المجال نجمة في الشرق الأوسط. وبدا جليًا نجاح هذه التجربة السورية الرائدة داخليًا و إقليميًا ودوليًا. فكانت سورية إحدى الدول الخمسين التي أسست النظام العالمي بإنشاء هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها عام ١٩٤٥. كذلك كانت بين الدول السبع الفاعلة في تأسيس جامعة الدول العربية ومنظماتها في العام نفسه. ويشهد التاريخ أن هذه الجمهورية الوليدة، التي نضجت بعد الاستقلال، دخلت دولة الوحدة "الجمهورية العربية المتحدة" عام ١٩٥٨ بميزان تجاري رابح، ودون أن يكون عليها قرش واحد من الديون.

تسمح هذه "السجادة التاريخية" من الريادة السورية في بناء دولةٍ دستورية مبكّرة، بقراءةٍ ما بعد استعمارية ترى أن الاستقلال لم يكن حدثًا منجزًا نهائيًا، بل لحظةً مفتوحة على ما يسمّيه فانون "استمرار البنى الكولونيالية داخل الدولة الوطنية" (Fanon,1968).

فالدولة التي شاركت في تأسيس الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، وعاشت تجربة الوحدة والانفصال، ظلّت محكومةً لاحقًا بمنطق "الدولة الوظيفية" التي تتكيّف مع مصالح القوى الكبرى الإقليمية والدولية، أكثر مما تستجيب لمقتضيات عقدٍ اجتماعي متكافئ مع شعبها (al-Haj Saleh, 2017).

بهذا المعنى، فإن "الزمن السوري الجديد" بعد الثورة لا يبدأ من الصفر، بل يدخل في حوار صعب مع تاريخ طويل من التداخل بين السيادة الوطنية والتبعية البنيوية، وهو ما يفرض على الفاعلين

يُعَدُّ برنامج "في رحاب الشام" أحد الإنتاجات الوثائقية الجديدة لمنصة "الجزيرة ٣٦٠" (المنصة الرقمية لشبكة الجزيرة). يختص هذا البرنامج باستعراض التاريخ والجغرافيا والثقافة والآثار في بلاد الشام، ولا سيما في سورية.



الجدد إعادة التفاوض على شروط الانتماء إلى النظام الدولي، بحيث لا تتحوّل سورية مجددًا إلى حلقةٍ في "إمبريالية سائلة" متعددة الأقطاب.
هذه السجادة التاريخية من الريادة والفعالية والنجاح السياسي والوطني، تشكل مستندًا قويًا للفاعلين اليوم في عملية التغيير والبناء، وتحديًا لهم في الوقت نفسه من أجل النجاح في إنجاز المهام المطلوبة.

> فكانت سورية إحدى الدول الخمسين التي أسست النظام العالمي بإنشاء هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها عام ١٩٤٥

آمال

لا زال هتاف الثورة الأول من أجل "الحرية والكرامة" يصدح بآذان السوريين داخل البلاد وخارجها وفي جميع المناطق. وها هي الحرية أول الأهداف، التي حققتها تضحيات الشعب وانتصار الثورة يوم ٨ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٢٤. فالحرية التي افتقدها السوريون زمنًا طويلًا في حياتهم العامة والخاصة، وكانت شهوة الجميع، طال انتظارها والعمل من أجلها لأكثر من ستة عقود، يستعيدونها اليوم، ويظهرها المشهد اليومي بالحضور والمبادرة والمشاركة في المدن السورية، حيث تحررت إرادة الشعب وانطلقت بتنظيم الفعاليات والنشاطات، التي تستعيد الحضور الشعبي الغني والمميز كما هو، وكما يجب أن يكون. فالمنتديات الثقافية القائمة والمرخصة حديثًا انطلقت بنشاطاتها وبرامجها. واللقاءات السياسية والفكرية والثقافية تزدحم بها الصالات العامة. فالسوريون يتحاورون علناً، ويكتبون بحرية في وسائل الإعلام وعلى وسائل التواصل الاجتماعي في جميع القضايا. وتظهر حدود التوافق والاختلاف بينة في الرأي والرأي الآخر حول المجريات والقضايا المطروحة، ومنها المدى الزمني الذي يمكن أن تستمر فيه هذه الحرية. وهل ارتفعت يد السلطات عن عنقها حقاً، ودخلنا في العصر الديمقراطي، الذي طالما قرأنا عنه واشتهينا رؤيته؟! حتى وسائل الإعلام الرسمية تنشر وتستضيف الآراء المختلفة وأحيانًا المتناقضة، وجميع القضايا موضع بحث ومعالجة بعيدًا عن الرقيب الحسيب ومقصه. وصولاً إلى الاعتصام والتظاهر احتجاجًا على قرارات أو دعمًا لمطالب وإجراءات. فولادة الحرية بانتصار الثورة يشير إلى خروج سورية والسوريين من عباءة نظام الراعي والرعية، والتوجه لبناء دولة المواطنة، حيث يكون الحاكم مواطنًا أيضًا، له حقوق وعليه واجبات في موقعه -مثل المواطن العادي- تنظمها أحكام الدستور. وفي ظل تداول السلطة يمكن للمواطن أن يصبح حاكمًا، ويعود الحاكم إلى صفوف المواطنين من جديد. ويتحقق ذلك فقط في الدولة التي تنتج وطنًا، بل تصبح وطنًا أيضًا. . وبالفعل.

الحرية والمواطنة

فضاء عمومي جديد وليد في سورية، حيث يصبح النقاش العلني وحرية التعبير جزءاً من الحياة اليومية. لكن يظل سؤال الحرية مركبًا: فهل تكفي الحرية السياسية الداخلية لتفكيك أشكال الهيمنة الخارجية والنيوليبرالية؟ هنا يمكن استدعاء فانون مرّة أخرى حين يحذّر من تحوّل البرجوازية الوطنية في دول ما بعد الاستقلال إلى وسيطٍ محلي لمصالح النظام الرأسمالي العالمي (Fanon, 1968)، وكذلك نقد ياسين الحاج صالح لبقاء "القرار السوري" رهينة تشابكٍ كثيف بين خمس قوى خارجية كبرى، حتى بعد تغيّر الوجوه في الحكم (al-Haj Saleh, 2023).
بهذه المقاربة، تصبح دولة المواطنة التي يُطمح إليها مطالَبةً ليس فقط بضمان الحقوق والحريات داخل الحدود، بل أيضًا بإعادة تعريف علاقة سورية بالمنظومة الدولية.
فهل كانت الدولة التسلطية الفئوية لآل الأسد وطنًا للسوريين؟ وكيف يمكن للدولة التي يرمي الآلاف من أبنائها أنفسهم في المراكب المطاطية مراكب الموت المحتمل، وهم يغادرونها طلبًا للنجاة؟! وكيف يمكن لدولة يهرب منها أبناؤها بالملايين بمختلف الوسائل ولجميع الاتجاهات للحصول على موطئ قدم آمن أن تكون وطناً؟!
وباستعادة الدولة/الوطن يحقق السوريون السيادة والاستقلال لسورية الجديدة، بعد عقود من التفريط بها، وبأشكال مختلفة، من قبل الدولة الوظيفية التي قام عليها النظام

الأسدي منذ سبعينات القرن الماضي. وهنا تأتي فرصة تصحيح التشوهات التي أدخلها النظام الفئوي على الحياة العامة في البلاد، و إزالة بقاياها وموشراتها ومرتكزاتها في كل من الدولة والمجتمع. والاستفادة من جميع طاقات الشعب من النساء والرجال.

وخاصة بعد أن قدمت المرأةُ السورية نفسَها باعتراف الجميع كبطلة في الثورة السورية دون منازع، ومن حق من كان في المقدمة بسنوات التضحية والعطاء، أن يكون في المقدمة أيضًا بسنوات التحرير والبناء.

ويأتي توطيد الحياة الدستورية وسيادة القانون بعد غياب طويل وعبثية تخريبية على رأس قائمة المهام المأمولة والمطلوبة. فيتم تنظيم الحياة السياسية عبر قانون عصري للأحزاب والصحافة والإعلام ومنظمات المجتمع المدني من منتديات ونقابات وجمعيات واتحادات وأندية إلى آخر ما هنالك من منظمات ومؤسسات خنقتها دولة الحزب الواحد و إرادة الأفراد، وجعلتها مركبًا لتحقيق مصالحها. ويبقى العمل من أجل كرامة الشعب وتحقيقها من جميع الجوانب ميدان العمل الأكبر والأهم للثقافة السورية والعمل الوطني في هذه المرحلة، لتحقيق حضور الناس كمواطنين وراء قضاياهم وفي أرضهم وعلى ترابهم الوطني. ومن الطبيعي أن لا يحول تعدد الآراء وتنوعها، والتباين في بعض المواقف والقضايا دون الوصول إلى توافقات وطنية بالاستناد إلى إرادة الشعب والمصلحة الوطنية العليا في هذه المرحلة المسماة "المرحلة الانتقالية"، حيث يأتي إنجاز مهامها ومندرجاتها بحكمة واقتدار خلال السنوات الخمس المحددة لذلك، وبشكل حقيقي وفعّال بعيدًا عن الشكلانية والاستعراض المهرجاني (كما جرى في "مؤتمر الحوار الوطني" المتسرّع الذي عُقد في شباط الماضي)، ليشكّل هذا الإنجاز عتبة الولوج الجماعي الآمن والمطلوب لسورية الدولة



من لقاء رئيس المرحلة الانتقالية في سورية، أحمد الشرع، مع الجالية السورية في واشنطن - ١٠ تشرين الثاني ٢٠٢٥.

والوطن. حيث تتحقق الكرامة للسوريين كشعب ومكونات وأفراد دون تمييز أو استثناء.
ترتكز المنظومة الثقافية اللازمة لهذه المرحلة على أربعة مبادىء مركزية وهامة ضمن سياق الدعم الشعبي المتحقق للإدارة، التي تقود المرحلة من أجل تحقيق النجاح والتغلب على ما فيها من عقبات وتحديات وهي: التعددية - التشاركية - المساءلة - الوطنية.

> فإن "الزمن السوري الجديد" بعد الثورة لا يبدأ من الصفر، بل يدخل في حوارٍ صعب مع تاريخٍ طويل من التداخل بين السيادة الوطنية والتبعية البنيوية

التعددية: هي الحقيقة الأكبر للوجود الوطني السوري منذ نشوء سورية كدولة في ثلاثينات القرن الماضي. وتوطدت هذه التعددية، وجرى تنظيمها بعد الاستقلال في الأربعينات، واستثمرت في بناء الدولة الوليدة لتوطيد أركانها وتحديث بنيتها لتتوافق مع الحداثة ومتطلبات العصر. وهو ما ساهم بتوطيد النظام الجمهوري والحياة الدستورية المؤسسة لسيادة القانون. وأنتج حرية الصحافة والتعددية السياسية والفكرية والثقافية، وأغنى البلاد بالأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني المتنوعة والمتعددة، وضمت البرلمانات المنتخبة ممثلين عن جميع مكونات الشعب ومعظم الاتجاهات السياسية. وانتخبت دمشق نائبًا يهوديًا إلى البرلمان عام ١٩٤٧، فالتعددية مصدر غنى، رافق الوجود الوطني الواحد منذ نشأته وفي مساره بالتطور والارتقاء. والتعددية في الإطار الوطني الواحد تحرص عليها الثقافة الحرة، وتقننها وتدعمها حيث يتوجب ذلك.
المشاركة: حق من حقوق المواطنة، التي يتمتع بها المواطنون الراشدون. ووقائع الثورة ومجرياتها والمشاركة الشعبية الواسعة في فعالياتها، والتضحيات الغالية من أجلها وفي مسارها، تستوجب حفظها كحق طبيعي للمواطن السوري، يتساوى فيه الجميع. وكلما اتسعت دائرة المشاركة، كلما توطدت السلطات الفاعلة، وبرزت إنجازاتها. وكلما تحققت في عملية البناء وخاصة في المرحلة الانتقالية كلما كان البعد الوطني في الإنجاز أكبر وأوطد وأكثر إنتاجية، ما يوفر العناصر الفعلية للاستقرار المنشود. ومن الطبيعي أن يشمل ذلك مشاركة المرأة بشكل حقيقي وفعّال، يكافىء تضحياتها وعطاءها غير المحدود في سنوات الثورة. فمعظم الباحثين أقروا بأن المرأة السورية كانت البطل الأول والحقيقي للثورة.
المساءلة: فضرورة التغيير الجذري المنشود، ومحاربة الفساد، واعتماد سيادة القانون والقضاء العادل في إعادة بناء الدولة ومؤسساتها، تقتضي الارتكاز على ثقافة المساءلة واعتمادها. والحرص على عدم وجود أحد فوق القانون. والمساءلة تطال الحاكم والمحكوم، المواطن العادي ورجال السلطة. مع التأكيد على قاعدة الفصل بين السلطات لحماية السلطة القضائية، ومساعدتها على تنفيذ مهامها بحرية واستقلالية لتحقيق العدل.
الوطنية السورية: وأنا أسميها الوطنية المنقذة في هذه المرحلة الصعبة المعقدة والشائكة من حياة سورية والسوريين. واليوم أكثر من أي وقت مضى، تبرز أهمية إعادة الاعتبار للدولة وخاصة الدولة/الوطن بعد زمن طويل من الدولة الزبائنية. دولة الفئة، التي حولت البلاد إلى سجن كبير. وبعد سنوات من حياة الفصائلية والجماعات المتنافسة والمتعادية، لا بد من الارتقاء إلى سدة الدولة ومقامها الرفيع. والأهمية التي تتمتع بها سورية اليوم في الإقليم وعلى المستوى الدولي، تستوجب حضور ثقافة الدولة، واعتماد مؤسساتها وأساليب عملها الحديثة والمتطورة. مع الاحتفاظ بمعايير الكفاءة وحسن التأهيل للفاعلين فيها.

الوطنية السورية كهوية

"الوطنية المنقذة" تشكل إطارًا جامعًا للخروج من زمن الفصائلية والدولة الزبائنية. غالبًا ما تُرى الوطنية (Nationalism) كسلاح ذي حدّين: فهي من جهةٍ أداة تحرّر ضد الاستعمار الخارجي، ومن جهةٍ أخرى قد تتحوّل إلى خطابٍ يبرّر سلطاتٍ جديدة، أو يغطّي على تفاوتاتٍ طبقية ومركزية/هامشية حادّة (Said,1968 ;Fanon,1978).
بالنسبة لسورية الجديدة، يمكن أن تُفهم "الوطنية السورية" كهوية مقاومة في مواجهة مشاريع

التقسيم والوصاية الخارجية، لكنّها في الوقت نفسه تحتاج إلى "دمقرطة داخلية" كي لا تصبح أداة تهميش جديدة لمكوّناتٍ أو أقاليم أو فئات اجتماعية، خاصةً مع وجود مراكز قوى مسلّحة لم تُدمج بالكامل في مؤسسات الدولة الجديدة، ومع استمرار تأثير القوى الإقليمية والدولية في سورية ما بعد الحرية.

العدالة الانتقالية

وهي مهمة المهام في المرحلة الانتقالية، وإحدى أبرز الآمال والتحديات التي يعول عليها إخراج البلاد والعباد كليًا من المحنة وآثارها ونتائجها. وموجباتها الضرورية تتقدم على المهام الأخرى، لأنها عقدة المنشار في هذه المرحلة، ويترتب على نجاحها كل أشكال التعافي الوطني. ونظرًا لأهميتها تشكلت منذ وقت مبكر في السابع عشر من أيار/مايو الماضي "الهيئة الوطنية للعدالة الانتقالية" برئاسة السيد عبد الباسط عبد اللطيف، وباشرت بعملها. وفي تعريف موجز للعدالة الانتقالية يمكن القول: إنها تمثل "مواجهة الماضي من أجل الحاضر وبناء المستقبل". وترتكز إلى أربع مهام لتحقيق أهدافها:

١. كشف الحقيقة، وهي نقطة الارتكاز الأساسية في عمل الهيئة، خاصة أن المجهول من سِجل الارتكابات والجرائم الكبرى الجماعية والفردية لا زال كبيرًا. وما زالت عشرات آلاف الأسر تبحث عن مقابر أبنائها. وما زالت فظائع الارتكابات وأسماء الفاعلين فيها خلال سنوات الثورة وحدها لم تكتشف جميعها. ولا بد من كشف الحقيقة العارية عما حصل، مهما كانت صعبة ومريرة، لأنها تشكل المدخل إلى الشفاء وتحقيق التعافي الحقيقي في جميع الميادين.

٢. جبر الضرر، ورَدّ المظالم إلى أهلها، وإنصاف الضحايا ماديًا ومعنويًا، عبر الجهات الرسمية والشعبية وبجميع الوسائل الممكنة.



تدفق سكان دمشق على نحو متزايد إلى "ساحة الأمويين" للاحتفال بسقوط بشار الأسد، في يوم الجمعة الأول بعد سيطرة الفصائل السورية على العاصمة، في ٨ ديسمبر/كانون الأول.
● المصدر: سي إن إن بالعربية.

٣. محاسبة المرتكبين، قانونيًا وعبر مؤسسات القضاء العادل. وكما كان فعل الإجرام فرديًا، يكون القصاص فرديًا أيضًا، بعيدًا عن أسرهم وطوائفهم ومناطقهم ومكوناتهم. وقد حدد مجلس الإفتاء رسميًا وعبر بيان واضح أساسيات الأمر عبر قوله: "دم السوري على السوري حرام". وكذلك رفض كل أشكال الثأر والانتقام في هذا الأمر وحرّمها. وأسند الأمر برمته للإطار القانوني والمؤسسات القضائية.

٤. المصالحة الوطنية، والعمل على شفاء الذاكرة الوطنية من تأثير الفظاعات التي ارتُكبت من جميع الذين ارتكبوا. وهذه المهمة لن تكون مطلوبة من الدولة ومؤسساتها فقط، إنما من المجتمع أيضًا، ووسائل الإعلام والثقافة والفنون، والمؤسسات الدينية، ووجوه العشائر والشخصيات الوطنية، وجميع مصادر الثقة والشفاء الاجتماعي أفرادًا وجماعات. وهنا يمكن الاستفادة من التجارب المماثلة عند الشعوب والبلدان الأخرى وأهمها تجربة رواندا.

> الحرية في سورية تتطلب تحرير الداخل من الاستبداد و إعادة تعريف العلاقة مع النظام الدولي المهيمن لتحقيق سيادة حقيقية

تتماهى هذه المهام الأربعة مع ما ترصده الأدبيات المقارنة عن العدالة الانتقالية، حيث تشير (Teitel2000) إلى أن العدالة الانتقالية ليست فقط مجموعة أدوات قانونية، بل هي نمطٌ من "العدالة الاستثنائية" التي تحاول التوفيق بين مطلب المحاسبة ومقتضيات الاستقرار السياسي.

في جنوب أفريقيا، شكّلت "لجنة الحقيقة والمصالحة" (Truth and Reconciliation Commission) نموذجًا مبكرًا لربط كشف الحقيقة بالعفو المشروط والاعتراف العلني بالجرائم المرتكبة خلال الأبارتهايد، وقد جُمعت أعمالها في تقرير من عدّة مجلدات قُدّم عام ١٩٩٨ (TRC, 1998). وفي رواندا، لعبت "لجنة الوحدة والمصالحة الوطنية" (NURC) دورًا محوريًا في بناء سردية جديدة بعد الإبادة الجماعية، عبر الدمج بين المحاسبة أمام المحاكم الدولية (ICTR) والآليات المحلية (محاكم الغتشا) وبرامج التربية على المصالحة.

بالنسبة لسورية، يشير إنشاء "الهيئة الوطنية للعدالة الانتقالية" إلى رغبةٍ في الاستفادة من هذه النماذج مع ضرورة الانتباه إلى اختلاف السياق: تشابك مسارات العدالة الوطنية مع قرارات مجلس الأمن السابق ذكرها (وخاصة القرار ٢٢٥٤، وسياق لجان التحقيق الأممية المتعاقبة في الجرائم المرتكبة في سورية).

متطلبات مرافقة

خطاب وطني واضح، يواجه التحريض الطائفي وخطاب الكراهية، وتقديس المظلومية وتأبيدها وتبرير الانتقام. فخطاب الكراهية ينال من الوطنية الجامعة وأخلاقها وقيمها، ويصبح عبئًا على تنفيذ برنامج العدالة الانتقالية. هنا تبرز أهمية انعقاد مؤتمر وطني حقيقي عبر الإعداد المتأني له، وتوفير المشاركة الفعلية فيه لجميع مكونات الشعب، والعناية بحصيلته ومخرجاته لتكون دليل عمل في تنفيذ جميع مهام المرحلة.

بناء منظومة قانونية متماسكة، تعيد تعريف العدالة، وترسم إجراءات تطبيقها.

العدالة لا تتحقق بالأعمال الانتقامية. فهي تستوجب المساءلة أولاً، ثم يأتي العقاب والجزاء العادل.

لا إنكار ولا تبرير، لكن لا انتقام ولا عنف شخصي أيضًا.

العدالة ابنة شرعية للواجب والحق، وليس للانفعال والعواطف.

التأخر في تحقيق العدالة الانتقالية، يفتح الباب أمام وراثة الأحقاد وتوريثها.

نجاح العدالة الانتقالية أو عدمه يؤثر على صورة مشروع الدولة القادمة.

الفشل يبقينا كمواطنين سوريين بين ضحية سابقة، ضحية حالية، وضحية محتملة مستقبلاً.

العدالة في بلدنا لن تكون مجرد محاكم وقوانين، إنما فعل جماعي يعيد إلينا الذاكرة المشتركة والقدرة على الحلم معًا، والعمل من أجل وطن يجب أن يشفى. فالتعافي الوطني جوهر العدالة وهدفها الأسمى والأصعب.

تحديات

يبدو أن إنجاز التعافي في الاقتصاد والصحة والتعليم والخدمات وغيرها من متطلبات الحياة الكريمة وضرورة توفرها في مقدمة التحديات التي تواجهنا كسوريين في هذه المرحلة. فعندما يكون إنتاج الطاقة الكهربائية المتوفرة عُشر ما تحتاجه البلاد، كما صرح السيد وزير الخارجية أسعد الشيباني، نعرف حجم التحدي المطلوب مواجهته رسميًا وشعبيًا لتأمين ضرورة من ضرورات العمل والإنتاج والحياة. وعندما يكون ٨٠٪ من السوريين تحت خط الفقر كما تقول تقارير الأمم المتحدة، والسلاح المتفلت تحت الأسرة وبمتناول أيدي الراغبين، يمكننا أن نتخيل حجم المخاطر الممكنة التي يشكلها هذا التحدي الكبير.

تحقيق الأمن والاستقرار وحفظه في جميع أنحاء البلاد. فبعد عام على التحرير، ما زالت البلاد وفي مختلف المناطق بما فيها العاصمة، تشهد عمليات خطف وقتل وتفجير واعتداءات متعددة الأشكال.

وهذا التحدي الكبير الذي يواجه السلطات، يعتبر أولى أولويات مهامها، ويتطلب حل الفصائل والجماعات المسلحة بشكل فعلي. وجمع السلاح المتفلت عبر حملة منظمة رسمية وشعبية، وإعادة بناء الجيش والقوى الأمنية بالسرعة المطلوبة. والاستفادة من الخبرات والمؤهلات التي يتمتع بها الضباط وضباط الصف من المنشقين وهم بالآلاف، لإعادة بناء القوات المسلحة على الأسس العلمية والخبرات الاحترافية المتوفرة.

اعتماد معيار الكفاءة وحسن التمثيل الشعبي في بناء السلطات والإدارات في الوزارات وجميع مؤسسات الدولة الأخرى بعيدًا عن معايير الولاء والقرابة والخصوصية. فخطورة المرحلة لا تحتمل الهدر والتجريب.

المحافظة على التأييد الشعبي الكبير وغير المسبوق للسلطة الجديدة، الذي حصلت عليه باستحقاق من جميع مكونات الشعب وفي مختلف المناطق، بعيدًا عن أي اعتبارات أيديولوجية أو



دروز يلتقطون صورة في جبل الشيخ، على الحدود بين سورية ولبنان، حوالي عام ١٩٠١.
● المصدر: موسوعة بريطانيكا

فئوية أو سياسية مسبقة.
توسيع دائرة المشاركة في عملية البناء، لتشمل كافة أطياف الشعب ومكوناته. وتوسيع دائرة صنع القرار فرديًا وجماعيًا، واعتماد النهج الوطني في العمل، من أجل إحلال الوطنية السورية فوق الاعتبارات الأخرى، ما يتجاوزها وما هو دونها أيضًا، فأهمية المهام والقرارات وخطورتها تقتضيان ذلك، مع شدة الحرص على عدم الوقوع في محظور المحاصصة الطائفية والإثنية وغيرها. فالتداول على السلطات هو المشروع.
تحقيق الشفافية في عمل لجان التحقيق لتوفير المصداقية للنتائج، وكذلك إعلان حصيلة عملها بالوقت المناسب، فنتائج لجنة التحقيق في مجريات الساحل لم تعلن بعد، رغم مرور عدة أشهر على انتهاء أعمالها. ولجنة التحقيق في أحداث السويداء لا علم ولا خبر عن عملها حتى الآن.
تواجد القوات الأجنبية على الأرض السورية (الأمريكية - الروسية - التركية). وتأتي أهمية تنظيمها ثنائيًا على أسس جديدة وواضحة. بحيث تضمن وحدة البلاد وسيادتها واستقلالها وحرية القرار الوطني دائمًا.

> غالبًا ما تُرى الوطنية (Nationalism) كسلاحٍ ذي حدّين: فهي من جهةٍ أداة تحرّر ضد الاستعمار الخارجي، ومن جهةٍ أخرى قد تتحوّل إلى خطابٍ يبرّر سلطاتٍ جديدة

الاحتلال "الإسرائيلي" للجولان منذ عام ١٩٦٧، والتطاول "الإسرائيلي" الجديد على المنطقة العازلة بإدارة الأمم المتحدة وفق اتفاق ١٩٧٤، وعلى أراض سورية جديدة في محافظات القنيطرة ودرعا وريف دمشق. وهو ما يستوجب حرصًا خاصًا ومعالجة دقيقة في هذه المرحلة. التي تتفلت فيها عناصر قوة العدوان "الإسرائيلي" من عقالها دون أي اعتبارٍ للقرارات الأممية والاتفاقات الدولية المثبتة أصولاً.
إعادة توحيد البلاد عبر حل سياسي مع قسد، رسمت ملامحه في اتفاق ١٠ آذار/مارس الماضي عبر ثمانية بنود. وقد وقعه رئيس الجمهورية أحمد الشرع، وقائد قسد مظلوم عبدي. وجرت مياه كثيرة تحت الجسر منذ ذلك الحين دون نتائج ملموسة وموثوقة حتى الآن. وكذلك عبر حل سياسي لأوضاع السويداء بعد أحداث منتصف تموز/يوليو الماضي. خاصة بعد الاتفاق الثلاثي السوري الأردني الأمريكي لهذا الغرض ، الذي سمي خارطة طريق ووُقع في عمان، وتضمّن سبع خطوات عملية من أجل حل سياسي و إنساني شامل للمجريات في المحافظة.
إعادة سورية إلى قلب المعادلة الإقليمية والدولية الفاعلة، لتستعيد مكانها ومكانتها في الفضاء العربي كما يجب، و إخراجها كليًا من موقع النظام الوظيفي لخدمة الآخرين، الذي كرسه نظام الأسد البائد.
تكشف قائمة التحديات في أعلاه عن أن "سورية الجديدة" تتحرّك في فضاءٍ مزدحم بالقوى الخارجية، حيث تتقاطع آثار قراراتٍ دولية مثل القرار ٢٢٥٤، وترتيبات الوجود العسكري الأجنبي، ومنطق الاحتلال "الإسرائيلي" للجولان ومناطق جديدة، وتسوياتٍ جزئية مع قوى الأمر الواقع في الشمال والشرق.
يمكن فهم هذه التحديات بوصفها تعبيرًا عن وضعية "السيادة المجزأة" (Fragmented Sovereignty)، حيث تُدار مناطق من البلاد وفق قواعد أمنية وسياسية واقتصادية مختلفة، ويُعاد تعريف "المركز" و"الهامش" داخل الجغرافيا السورية نفسها.
ومع تعريف منطق "المشروطية النيوليبرالية" التي وُثّقت في تجارب ما بعد الحرب في بلدانٍ أخرى. هنا تصبح حماية السيادة الاقتصادية والاجتماعية جزءًا لا يتجزّأ من مشروع التحرر السياسي.
ويبقى القول الذي لا غنى عنه: أنه في مرحلة التدخلات السافرة للقوى الدولية، والتطورات الإقليمية المتسارعة لإعادة ترتيب المنطقة، والتصدع الوطني المؤلم الذي نعاني منه، تزداد أهمية الثقافة المستندة للتاريخ الوطني السوري، ولإرادة السوريين في بناء حياتهم ومستقبلهم، مستلهمين أرواح الأجداد الذين حرروا البلاد ووحدوها، وصاغوا دولة الاستقلال الوطنية الحديثة. وكانوا من جميع المناطق ومن جميع المكونات. فلنشارك جميعنا في المهمة الإنقاذية المطلوبة لشعبنا وبلدنا في هذه المرحلة.

قائمة المصادر والمراجع

- al-Haj Saleh, Y. (2017). *The impos-

after the 1994 genocide perpetrated against Tutsi*. Kigali, Rwanda: NURC.
Said, E. W. (1978). *Orientalism*. New York, NY: Pantheon Books.
• Teitel, R. G. (2000). *Transitional justice*. New York, NY: Oxford University Press.
• Truth and Reconciliation Commission of South Africa. (1998). *Truth and Reconciliation Commission of South Africa report* (Vol. 1). Cape Town, South Africa: Government of South Africa.
• United Nations Security Council. (2015). *Resolution 2254 (S/RES/2254)*. New York, NY: United Nations.
sible revolution: Making sense of the Syrian tragedy*. London, UK: Hurst & Company.
• al-Haj Saleh, Y. (2023, September 18). *The liquid imperialism that engulfed Syria*. Retrieved from Yassinhs.com.
Fanon, F. (1968). *The wretched of the earth* (C. Farrington, Trans.). New York, NY: Grove Press. (Original work published 1961).
• Mbembe, A. (2019). *Necropolitics* (S. Corcoran, Trans.). Durham, NC: Duke University Press.
• National Unity and Reconciliation Commission. (2016). *Unity and reconciliation process in Rwanda—22 years

هذه الصورة تعود لصقار علوي في منطقة بانياس السورية، التُقطت بين عامي ١٩٢٤ و١٩٣٩ تقريباً.
• المصدر: مكتبة أستراليا الوطنية
• المصور: فرانك هيرلير



Urbicide in Syria: A Postcolonial Understanding of Civil War

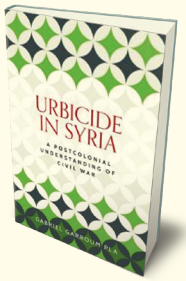

- سنة النشر: ٢٠٢٥
- دار النشر: Manchester University Press
- عدد الصفحات: ٣٢٥

صدر كتاب "Urbicide in Syria: A Postcolonial Understanding of Civil War" عام ٢٠٢٥م عن دار نشر جامعة مانشستر (Manchester University Press)، وهو من تأليف الباحث غابرييل غارّوم بلا (Gabriel Garroum Pla).

يقدّم هذا الكتاب دراسة أكاديمية معمّقة لظاهرة الإبادة العمرانية (Urbicide) في سياق الحرب الأهلية السورية، من خلال مقاربة تحليلية تستند إلى النظرية ما بعد الاستعمارية. وينطلق المؤلف من أطروحة مفادها أن الدمار الواسع الذي أصاب المدن السورية لم يكن نتيجةً عَرَضية لأعمال القتال، بل مثّل سياسة مقصودة استهدفت المدينة بوصفها فضاءً اجتماعياً وسياسياً حاملاً للذاكرة الجماعية، ومجالاً لإنتاج الفعل العام والتعدد الاجتماعي.

يركّز الكتاب على نماذج حضرية بارزة، من بينها حلب وحمص والغوطة الشرقية، مبيّناً كيف تحوّلت هذه المدن إلى أهداف مباشرة للعنف المنظم، ليس لأسباب عسكرية فحسب، بل بقصد تفكيك النسيج الاجتماعي وإعادة تشكيل أنماط السيطرة والعلاقة بين الدولة والمجتمع. ويعتمد المؤلف منهجية بحثية متعددة المستويات، تجمع بين المقابلات الميدانية، وتحليل الوثائق، ودراسة الأبعاد الاجتماعية والمادية للفضاء الحضري، ما يمنح العمل عمقاً تفسيرياً يتجاوز السرديات الوصفية التقليدية للحرب.

وتكمن أهمية هذا الكتاب في كونه يقدّم قراءة نقدية للحرب السورية بوصفها صراعاً على الفضاء، والذاكرة، وحق السكان في المدينة، كما يلفت إلى أن مشاريع "إعادة الإعمار" قد تتحول إلى امتداد للإبادة العمرانية بوسائل ناعمة. إذا أُنجزت ضمن أطر أمنية أو نيوليبرالية تُقصي السكان الأصليين وتتجاهل مقتضيات العدالة الاجتماعية والعودة الآمنة.



المحنة العربية: الدولة ضدّ الأمة

صدر كتاب "المحنة العربية: الدولة ضدّ الأمة" في طبعته الأولى عام ١٩٩٣م عن مركز دراسات الوحدة العربية. ثم صدرت الطبعة الثانية عن المركز نفسه، تلتها الطبعة الثالثة عام ٢٠٠٣م عن مركز دراسات الوحدة العربية، ثم الطبعة الرابعة عام ٢٠١٥م عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. مؤلف الكتاب هو الدكتور برهان غليون.

يُعدّ كتاب "المحنة العربية: الدولة ضدّ الأمة" من الأعمال الفكرية التأسيسية في تحليل أزمة الدولة الحديثة في العالم العربي، إذ يمثّل محاولة مبكّرة لفهم التحوّلات التاريخية والسياسية التي جعلت الدولة، في تجربتها العربية، تنتقل من كونها أداة للتحرّر والنهضة إلى كيانٍ سلطويٍّ معادٍ للمجتمع ومفكّك له. وينطلق المؤلف من أطروحة مركزية مفادها أن جوهر الأزمة العربية المعاصرة لا يكمن في الثقافة أو الدين أو ما يُسمّى "الاستثناء العربي"، بل في بنية الدولة الحديثة نفسها، كما تشكّلت في سياق ما بعد الاستعمار.

يحلّل الكتاب الكيفية التي تحوّلت بها الدولة إلى منتِج لنخبة منفصلة عن مجتمعها، أقرب في سلوكها ووظيفتها إلى نخب استعمارية، وأسهمت في تعطيل تشكّل الأمة، وإجهاض مشروع المواطنة، وإعادة إنتاج العنف والانقسام. كما يناقش تطوّر العلاقة بين الدولة والمجتمع عبر مراحل تاريخية متعاقبة، من عصر التكوين إلى عصر التنظيم، وصولًا إلى مرحلة القطيعة والمحنة، مبرزًا أثر فشل مشاريع التنمية والوحدة في تعميق الأزمة. يقع الكتاب في سبعة فصول مترابطة، ويجمع بين التحليل التاريخي والنقد النظري، ليقدّم قراءة شاملة لأزمة الدولة العربية بوصفها أزمة سياسية وبنيوية بالدرجة الأولى. وتكمن أهمية هذا العمل في كونه يقدّم إطارًا تفسيريًا سابقًا لثورات الربيع العربي، ويسهم في فهم جذور الصدام بين الدولة والمجتمع، وآفاق الخروج من هذه المحنة عبر الديمقراطية والوحدة وإعادة بناء الدولة على أسس تمثيلية وعدلية.



- سنة النشر: ١٩٩٣
- دار النشر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
- عدد الصفحات: ٣٦٨



State and Tribes in Syria: Informal Alliances and Conflict Patterns

يقدّم كتاب "الدولة والقبائل في سورية: تحالف وصراعات" دراسة أكاديمية معمّقة تسعى إلى تحليل دور القبائل والعشائر العربية في سورية، والعلاقة المركّبة التي نسجتها مع الدولة منذ سقوط الخلافة العثمانية، مرورًا بمرحلة بناء الدولة الحديثة، وصولًا إلى مرحلة ما بعد عام ٢٠١١ والصراع المسلّح. وينطلق المؤلف من مقاربة تاريخية-سياسية تُبرز قدرة العشائر على المرونة والتكيّف مع التحولات البنيوية، بما مكّنها من الحفاظ على حضورها الاجتماعي والسياسي، رغم محاولات التهميش أو الاحتواء التي مارستها الدولة الحديثة.

يُظهر الكتاب أن العشائر لم تكن مجرّد بقايا تقليدية تناقض منطق الدولة، بل شكّلت فاعلًا سياسيًا واجتماعيًا سعت الأنظمة المتعاقبة إلى توظيفه أو تحييده أو تطويعه، تبعًا لاعتبارات أمنية واقتصادية وأيديولوجية. كما يبيّن الدور الحاسم الذي أدّته العشائر خلال الصراع السوري، سواء عبر التجنيد العسكري، أو إدارة مناطق خارجة عن السيطرة المركزية، أو التفاوض مع أطراف محلية وإقليمية، بما في ذلك الجماعات المتطرفة التي حاولت استثمار الانقسامات العشائرية.

يعتمد دخّان في تحليله على منهجية بحثية متعددة المصادر، تشمل الوثائق التاريخية والرسمية، والدراسات الأكاديمية، إضافة إلى مقابلات ميدانية مع قادة عشائريين وأفراد من القبائل، واستخدام واعٍ لمصادر رقمية معاصرة. وتكمن أهميةُ الكتّاب في كونه يقدّم إطارًا تفسيرياً لفهم الدولة السورية من خلال علاقتها بالبنى العشائرية، ويسهم في إعادة التفكير في إشكالية الدولة، والسلطة، والروابط الاجتماعية غير الرسمية في سياق الصراعات المعاصرة.

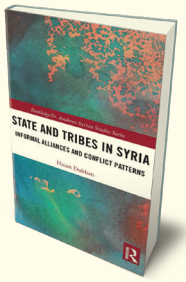

- سنة النشر: ٢٠١٨
- دار النشر: Routledge
- عدد الصفحات: ١٧٤



Destroying a Nation: The Civil War in Syria

صدر كتاب Destroying a Nation: The Civil War in Syria(تـدمير وطـن: الحرب الأهلية في سورية) في ٣١ أكتوبر ٢٠١٧م، في الطبعة الأولى عن دار بلومزبري للنشر (Bloomsbury Publishing) ضمن مطبعة I.B. Tauris، ويقع في ٢٥٦ صفحةالمؤلف هو نيكولاوس فان دام (Nikolaos van Dam)، المبعوث الخاص السابق لهولندا إلى سورية.

بعد اندلاع الربيع العربي، انحدرت سورية إلى صراع أهلي وطائفي طويل، وأصبحت ساحةً منقسمة عملت كمنبع لنشوء حركات مسلحة جديدة، من بينها تنظيم "داعش"، كما أدّت إلى أكبر أزمة لاجئين في التاريخ الحديث. في هذا الكتاب، يقدّم نيكولاوس فان دام دراسة معمّقة للتاريخ السوري الحديث، متتبعًا أسباب الاستياء المتزايد تجاه نظام الأسد، وتصاعد الحرب الأهلية، والانقسامات التي أدّت إلى تدمير واسع للنسيج الاجتماعي السوري.

يحلّل المؤلف التطورات السياسية الداخلية داخل نظام الأسد، وظهور وتطوّر مختلف القوى المعارضة، ويبيّن كيف ساهمت العوامل الداخلية والإقليمية في إطالة أمد النزاع. كما يناقش الكتاب الموقف الغربي المتردّد تجاه الأزمة السورية وأثره في تعقيد إمكانية الوصول إلى حل سياسي.

من خلال التحليل المتعمّق، يوضّح فان دام الفارق بين الحوارات السورية الداخلية التي جرت فعليًا، وغياب المفاوضات الجدية القادرة على تحقيق سلام مستدام. كما يستعرض العقبات البنيوية والسياسية والاجتماعية التي تمنع التوصل إلى حل شامل، موفّرًا للقارئ فهمًا دقيقًا لسقوط سورية في دائرة الصراع المستمر.

يعدّ هذا الكتاب مرجعًا مهمًا للباحثين وصناع القرار، إذ يقدّم إطارًا تحليليًا متكاملاً لفهم أسباب الصراع السوري، ودور القوى الداخلية والخارجية في تطوّر الأزمة، و إمكانات الحل السياسي المستقبلي.

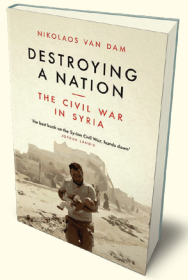

- سنة النشر: ٢٠١٧
- الناشر: Bloomsbury Publishing
- عدد الصفحات: ٢٥٦



Jihadi Politics: The Global Jihadi Civil War

صدر كتاب السياسة الجهادية: الحرب الأهلية الجهادية العالمية عام ٢٠٢٢م، عن دار Oxford University Pres والمؤلف هو تور هامّينغ (Tore Hamming).

في فبراير ٢٠١٤، أصدر تنظيم القاعدة بيانًا هزّ الحركة الجهادية بأسرها، معلنًا لأول مرة في تاريخه أن فرعه المحلي، الدولة الإسلامية في العراق، لم يعد جزءًا من التنظيم. هذا الانفصال جاء بعد توسع الجماعة تحت قيادة أبو بكر البغدادي إلى سورية وسيطرتها على جبهة النصرة الإقليمية، متحدية أوامر أمير القاعدة أيمن الظواهري. أدى تصرّف الدولة الإسلامية وموقفها العدائي المتصاعد تجاه الجماعات الجهادية الأخرى إلى إشعال حرب أهلية جهادية، وهي فترة اتسمت بتوترات داخلية امتدّت لتشمل الساحة العالمية. تركت هذه الفتنة أثرًا مدمرًا على الحركة الجهادية، إذ زادت من استقطابها وتفكّكها وهدّدت تماسكها الداخلي بشكل خطير.

يقدّم كتاب السياسة الجهادية أول سرد شامل للصراع الداخلي داخل الحركة الجهادية العالمية، مستندًا إلى سنوات من الأنثروبولوجيا الرقمية، وتحليل مئات الوثائق الأساسية، ومقابلات مع جهاديين. يقدّم هذا العمل رؤية غير مسبوقة للصراعات التاريخية والمعاصرة بين الجماعات الجهادية وداخلها، مركّزًا على الفترة من ٢٠١٤ إلى ٢٠١٩ التي شهدت صعود داعش، توسّعه الإقليمي، ثم تراجع دوره.

من خلال هذا التحليل المتعمّق، يوفر هامّينغ فهمًا أعمق لحالة الجهاد المعاصرة، بما في ذلك الدور المتنامي للدولة الإسلامية في أماكن مثل سوريا، ويبيّن كيف أن الصراعات الداخلية، رغم ارتباطها أحيانًا بالاختلافات العقائدية، فهي في جوهرها نزاعات على السلطة والهيمنة. الكتاب مهم لفهم تطوّر الجهاد السني وتعقيداته، ويقدّم إطارًا تحليليًا يدفع إلى إعادة التفكير في كيفية تفسير الصراعات داخل الحركات الجهادية وتأثيراتها على الأمن العالمي.

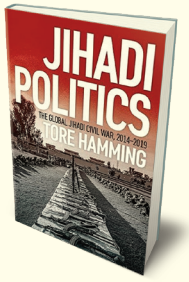

- سنة النشر: ٢٠٢٢
- دار النشر: Oxford University Press
- عدد الصفحات: ٤٤٠



سورية: درب الآلام نحو الحرية - محاولة في التاريخ الراهن

يقدّم كتاب "سورية: درب الآلام نحو الحرية - محاولة في التاريخ الراهن" دراسة معمقة للثورة السورية خلال سنتين حاسمتين، من ١٥ آذار/مارس ٢٠١١ حتى ١٥ آذار/مارس ٢٠١٣، موثّقاً أسباب اندلاع الاحتجاجات الاجتماعية والسياسية والطائفية والجهوية، ومبرزاً تطورها من الاحتجاجات المدنية السلمية إلى مرحلة عسكرة الصراع. يعتمد الكتاب على منهج التحليل الاجتماعي التاريخي، مزيجاً من التوثيق والسوسيولوجيا والاقتصاد والاستراتيجيات، مع التحقق الدقيق من صحة المعلومات قبل نشرها.

يركّز المؤلف على جذور الصراعات السياسية والطائفية والاقتصادية، ويفسّر دور السياسات الحكومية، خصوصاً نظام بشار الأسد، في تحويل الاحتجاجات إلى صراع مسلح، مشيراً إلى المسؤولية المباشرة للنظام عن انزلاق الثورة نحو العسكرة. كما يناقش الكتاب البنية الاجتماعية التي اعتمد عليها حزب البعث، وتأثير عملية الترييف و"اللبرلة" الاقتصادية على صعود فئات جديدة، ما أدى إلى ترسيخ ما يسميه المؤلف "نظام التشبيح والتشليح".

ويحلّل الكتاب الوقائع المتحركة في المدن السورية الرئيسة مثل دمشق، حلب، حماة، الرقة، دير الزور، إدلب وحمص، مع رصد تأثير العنف المسلح على نشوء أمراء الحرب وفوضى السلاح، ودراسة حركة المعارضة والتنسيقيات والمبادرات الدولية لحل الأزمة السورية.

يوصي بشارة بإقامة سورية على أساس الديمقراطية، مع ضمان حقوق جميع المواطنين، مع رحيل النظام الحالي واستمرار الدولة، لتجنب الانزلاق نحو صراع طائفي وإثني. يقدم الكتاب إطاراً شاملاً لفهم التطورات السورية ومآلات الثورة وتداعياتها على نطاق إقليمي أوسع، بما في ذلك العراق ولبنان، ويعد مرجعاً أساسياً للباحثين والمهتمين بالشأن السوري المعاصر.

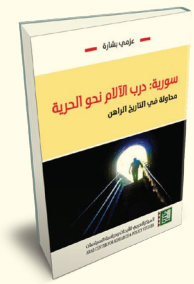

- سنة النشر: ٢٠١٣
- دار النشر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
- عدد الصفحات: ٦٨٨



Post-colonial Syria and Lebanon

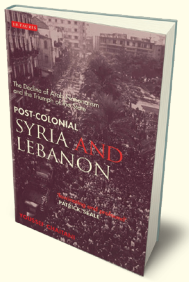

- سنة النشر: ٢٠٠٧
- دار النشر: I.B. Tauris
- عدد الصفحات: ٢٢٤

يقدّم كتاب Post-colonial Syria and Lebanon (سورية ولبنان ما بعد الاستعمار: تراجع القومية العربية وانتصار الدولة) دراسة معمقة للعلاقة المعقدة بين سورية ولبنان منذ الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي عام ١٩٤٣، مركزًا على كيفية نشوء نظامين سياسيين مختلفين في مجتمع يُنظر إليه أحيانًا على أنه وحدة ثقافية واجتماعية واحدة. على الرغم من انتشار القومية العربية وتراجع التدخل الإمبريالي، يبيّن المؤلف كيف أن الانقسام السياسي والاجتماعي بين البلدين أصبح أكثر عمقًا بدلًا من التكامل، وهو ما يشكل أحد المفارقات الأساسية في تاريخ المنطقة الحديث.

يعتمد شيتاني على مصادر أرشيفية غير مستغلة من مكاتب الخارجية الغربية والصحافة المحلية، ليكشف عن استراتيجيات ودوافع النخب السياسية في كلا البلدين خلال فترة ما بعد الاستقلال. يوضح الكتاب كيف أسهمت هذه النخب في ترسيخ سلطة الدولة على حساب المشروع القومي العربي، مستعرضًا الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ساهمت في تثبيت الانقسامات الإقليمية وتعقيد العلاقات السورية-اللبنانية.

كما يعالج الكتاب أثر هذه التحولات على فهم القومية العربية وأسباب ضعف مشروعها في توحيد المجتمعات العربية، ويبرز كيف ساهمت السياسات الداخلية والخارجية للنخب في تعزيز الانقسام بين المجتمعات رغم تراجع النفوذ الإمبريالي. يقدم شيتاني رؤى نقدية لفهم العلاقة السورية-اللبنانية، ويتيح للقارئ فهمًا أعمق للتفاعلات السياسية والاجتماعية التي شكلت الدولة الحديثة في مواجهة الطموحات القومية العربية، مما يجعله مرجعًا مهمًا للباحثين والدارسين في حقل التاريخ والسياسة في الشرق الأوسط.



صراع القوى الكبرى على سورية: الأبعاد الجيوسياسية لأزمة ٢٠١١

يقدّم كتاب "صراع القوى الكبرى على سورية: الأبعاد الجيوسياسية لأزمة ٢٠١١" دراسة تحليلية متعددة الأبعاد لأحداث الأزمة السورية منذ اندلاعها في ربيع ٢٠١١، مركّزًا على العوامل الجيوسياسية الكبرى التي شكّلت مسار النزاع وتفاعلاته الداخلية والخارجية. يقدّم المؤلف، من خلال إطار شامل يستند إلى التاريخ والسياسة الدولية والجغرافيا السياسية، قراءة متوازنة تسعى إلى فهم آليات تدخل القوى الدولية في سورية، وارتباط ذلك بالمصالح الإستراتيجية للدول الإقليمية والعظمى، وإسهام تلك المصالح في تعقيد الأزمة الراهنة.

يتناول الكتاب تطوّر السياسة الدولية تجاه سورية منذ حقبة ما قبل الأزمة، مرورًا بفترات التنافس الإمبراطوري والتدخلات التاريخية، وصولاً إلى التغيرات التي شهدها النظام الدولي بعد الحرب الباردة. يبرز المؤلف أن الأزمة الحالية ليست حدثًا معزولاً عن الماضي البعيد: بل هي نتاج تراكمات جغرافية وسياسية واقتصادية على المستوى الإقليمي والدولي، حيث لعبت مواقع الجغرافيا السورية وموقعها الجيوستراتيجي في الشرق الأوسط دورًا محوريًا في تنافس القوى الكبرى.

كما يحلل الكتاب دور الفاعلين الخارجيين، وكيف أثّرت التحالفات الدولية والإقليمية على تطوّر الأزمة، مع إبقاء التركيز على الفاعل السوري ذاته وتفاعلاته الداخلية. ويأتي هذا العمل كمرجع مهم لفهم الأزمة السورية من منظور الجيوبوليتيك والتحليل الاستراتيجي، إذ يقدم تصورًا يوازن بين العوامل الدولية والمحلية، ويكشف كيف أن صراع القوى الكبرى على سورية عمّق الانقسامات وأعاق إمكانية الحل السياسي، مؤكدًا أن الأزمة الراهنة ليست صراعًا داخليًا فقط، بل جزءًا من تزاحم مصالح إقليمية وعالمية على مستقبل المنطقة.

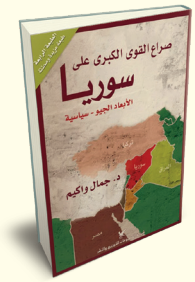

- سنة النشر: ٢٠١١
- دار النشر: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
- عدد الصفحات: ٢٤٥



الثورة المستحيلة: الثورة، الحرب الأهلية والحرب العامة في سورية

يقدّم كتاب "الثورة المستحيلة" قراءة تحليلية معمّقة للتجربة السورية في سياقها السياسي والاجتماعي والتاريخي، انطلاقاً من مقاربة فكرية تسعى إلى تفسير شروط اندلاع الثورة وتعقيد مساراتها. ينطلق المؤلف من توصيف بنية الدولة السورية الحديثة كما تشكّلت خلال عقود، مركزاً على آليات الضبط الأمني، وإدارة التنوّع الاجتماعي، وربط الاستقرار الداخلي والإقليمي باستمرار النظام القائم.

يتناول الكاتب ياسين الحاج صالح فكرة "استحالة الثورة" بوصفها تصوراً سياسياً جرى ترسيخه في الوعي العام، عبر سياسات أمنية وشبكات ولاء ومخاوف متبادلة داخل المجتمع. وفي هذا الإطار، يناقش المؤلف كيف أدّت هذه البنية إلى جعل أي حركة احتجاجية عرضة للتشظّي والصراع الداخلي، فضلاً عن هشاشة العلاقة بين الدولة بوصفها مؤسسة عامة والسلطة بوصفها ممارسة احتكارية.

كما يرصد العمل مسار الثورة السورية منذ انطلاقتها، متوقفاً عند تنوّع أشكال التعبير والاحتجاج، ثم تحوّلها التدريجي تحت ضغط العنف الواسع والتدخلات المتعددة. ولا يكتفي الكتاب بسرد الوقائع، بل يسعى إلى فهم التحوّلات التي طرأت على المجتمع، وعلى مفهوم السياسة، وعلى موقع سورية في النظام الدولي.

يتميّز الكتاب بمحاولة الجمع بين الشهادة والتحليل، مع ترك مساحة للقارئ لتقييم النتائج والاستنتاجات. ومن خلال ذلك، يطرح أسئلة مفتوحة حول حدود التغيير السياسي، وعلاقة الداخل بالعوامل الخارجية، وإمكانات التحوّل في مجتمعات تعيش صراعات مركبة. وبذلك، يشكّل "الثورة المستحيلة" مساهمة فكرية في دراسة الثورات المعاصرة، دون تقديم أحكام نهائية أو تبنّي خطاب تعبوي، بل عبر مقاربة نقدية تفسيرية.



- سنة النشر: ٢٠١٧
- دار النشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر
- عدد الصفحات: ٢٨٦



الجيش والسياسة في سورية (١٩١٨-٢٠٠٠)

يتناول هذا الكتاب بالدراسة والتحليل جذور أزمة العلاقة بين مؤسسات الحكم المدني والقوات المسلحة في سورية خلال الفترة الممتدة من عام ١٩١٨ إلى عام ٢٠٠٠، منطلقاً من مقاربة تاريخية توثيقية تسعى إلى فهم البنية السياسية والعسكرية للدولة السورية الحديثة بعيداً عن الأحكام المعيارية أو الاصطفافات الأيديولوجية. يعتمد المؤلّف على طيف واسع من المصادر، في مقدمتها وثائق وزارة الخارجية البريطانية والإدارة الأميركية، إلى جانب تقارير بعثاتهما الدبلوماسية في دمشق، فضلاً عن مذكرات سياسيين وعسكريين سوريين عاصروا مراحل مختلفة من تاريخ البلاد. يركز الكتاب في فصوله الأولى على مكامن الضعف التي رافقت تأسيس الكيان الجمهوري، وعلى الظروف التي نشأت فيها المؤسسة العسكرية خلال مرحلة الانتداب الفرنسي، مبيناً أثر تلك المرحلة في تشكيل أنماط العلاقة بين الجيش والسلطة السياسية. ثم ينتقل إلى دراسة مرحلة ما بعد الاستقلال، حيث شهدت هذه العلاقة اختلالاً متزايداً تمثّل في توسّع دور المؤسسة العسكرية في المجال العام وتراجع السيطرة المدنية عليها. كما يناقش العمل العوامل الاجتماعية والسياسية التي أسهمت في تعميق هذا الاختلال، ولا سيما الإقليمية والعشائرية والطائفية، بوصفها عناصر بنيوية أثّرت في تكوين المؤسسة العسكرية وفي مسار الصراع بين المدنيين والعسكريين. ويتناول الكتاب كذلك السياسات الثقافية الرسمية التي حدّت من النقاش العام حول هذه القضايا، وما نتج عن ذلك من فجوات في الوعي المجتمعي وفي مفهوم المواطنة المتساوية.

ويؤكد المؤلّف أن الدراسة لا تستهدف فئة أو تياراً بعينه، بل تسعى إلى تقديم قراءة تحليلية متوازنة لمسألة معقّدة طال تجاهلها في البحث الأكاديمي. ويُشار إلى أن الكتاب صدر عام ٢٠٠٨، أي قبل اندلاع الثورة السورية، ما يمنحه أهمية خاصة في فهم بعض الخلفيات البنيوية للتطورات اللاحقة.



- سنة النشر: ٢٠٠٨
- دار النشر: دار الحابية
- عدد الصفحات: ٥٣٢



المرأة السورية في ظل النزاع

يرصد هذا الكتاب التأثير المُركّب للنزاع الطويل على المرأة والمجتمع السوري، مركزاً على حقيقة أن تداعيات الحرب لا تتوزّع بالتساوي، مما يخلّف تحوّلات ديموغرافية عميقة.

أبرز محاور التحليل:

• العبء المزدوج: مع ارتفاع أعداد الأرامل والعائلات التي تعيلها النساء، يسلّط الكتاب الضوء على العبء الاقتصادي والنفسي الهائل الذي تتحمله المرأة في تربية الأجيال وسط ظروف قاسية.

• عنف مُتعدّد الأشكال: يتجاوز التحليل العنف الجسدي ليلامس أشكالاً موجّهة ضد المرأة كالاختطاف والاغتصاب والاتجار بالأشخاص، بالإضافة إلى أزمات النزوح حيث تشكّل النساء النسبة الأكبر.

• من الضحية إلى الفاعلة: يُبرز الكتاب كيف أدّت الظروف القاهرة إلى كسر حواجز تقليدية، فاندفعت المرأة إلى سوق العمل والمجال العام لإعالة أسرتها، مما أحدث تحوّلاً جذرياً في دورها الاجتماعي وصورتها الذاتية.

• المرأة وصناعة المستقبل: يربط الكتاب بشكل وثيق بين تحقيق المساواة للمرأة وإعادة بناء الدولة والمجتمع، مؤكداً أن الديمقراطية الحقيقية والمواطنة الكاملة لا تتحقّقان بإقصاء نصف المجتمع.

• تحذير من المساومة: يحذّر من خطورة تنازل قوى التغيير عن مبادئ المساواة بدعوى المجاملة السياسية أو كسب التأييد، معتبراً أن ذلك يقوّض أسس العدالة والمشروع الديمقراطي برمته.

فيقدّم الكتاب قراءة شاملة تربط بين المعاناة اليومية للمرأة السورية وبين القضايا الكبرى لبناء الدولة العادلة بعد الحرب، مما يجعله مرجعاً مهماً لفهم التحديات والفرص في المرحلة الانتقالية القادمة.



• سنة النشر: ٢٠١٦
• دار النشر: دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
• عدد الصفحات: ١٦٨



وثائق الأمم المتحدة في المسألة السورية ٢٠١١-٢٠١٨

يُقدّم المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في هذا الكتاب المرجعي مجموعةً وثائقيةً شاملةً توثّق تعامل المجتمع الدولي، عبر أجهزة الأمم المتحدة، مع الأزمة السورية خلال مراحلها الحرجة بين عامي ٢٠١١ و٢٠١٨.

لا ينصبُّ تركيز هذا العمل على تحليل الأزمة السورية المعقّدة، بل يهدف إلى توفير المادة الوثائقية الأولية التي تمكّن الباحث والقارئ من تتبُّع المسار الدولي للنزاع. يجمع الكتاب بين دفتيه التحوّل من حراك شعبي سلمي إلى حرب دولية بالوكالة، مع تسليط الضوء على الجمود السياسي في مجلس الأمن بسبب الاستخدام المتكرر لحق النقض (الفيتو)، وتصاعد المأساة الإنسانية، وجهود الوساطة الدولية المتعاقبة.

يضم هذا المرجع الهام مجموعةً مختارةً بعناية من الوثائق الرسمية، منها:

- قرارات مجلس الأمن وبياناته الرئاسية.
- مشاريع القرارات التي عطّلتها روسيا والصين باستخدام الفيتو.
- تقارير الأمينين العامين للأمم المتحدة.
- تقارير مجلس حقوق الإنسان ولجانه المختصة.
- مواد عن عمل المبعوثين الدوليين الثلاثة.

يُعتبر هذا الكتاب مصدراً أساسياً للباحثين والمحللين في الشؤون السورية والدولية، حيث يكشف الآليات الداخلية والتوازنات السياسية التي حدّدت شكل التدخل الدولي (أو عدمه) في الأزمة. وهو يقدّم صورةً واضحةً عن الانقسام العالمي الذي حال دون إيجاد حل سياسي، وساهم في استمرار النزاع.

فيشكل كتاب "وثائق الأمم المتحدة في المسألة السورية ٢٠١١-٢٠١٨" أرشيفاً وثائقياً حيوياً يلخّص ذروة التعقيد الدولي للأزمة، ويبرز كيف تحوّلت الجهود الدبلوماسية إلى مرآة عكست عجز المنظومة الدولية عن حماية المدنيين وإيجاد مخرج سلمي لأحد أكثر النزاعات تدميراً في العصر الحديث.



- سنة النشر: ٢٠٢٤
- دار النشر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
- عدد الصفحات: ٩٧٦

